العقيدة الإسلامية

وجهود علماء السلف في تقريرها والدفاع عنها حتى نهاية العصر الأموي

رسالة دكتوراه في العقيدة
جامعة أم القرى

تأليف
الدكتور عطا الله بخيت حماد المعايطة

دار الآفاق الفكرية
للنشر والتوزيع



الطّبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الأفاق الفكرية

للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة

الموزع الوحيد بالقاهرة/ دار الرضا للنشر والتوزيع

التوزيع في المملكة العربية السعودية

كندة للنشر والتوزيع

جدة ـــ هاتف ٦٧٤٠٤٠٢

المقـــدمة

الحمد لله، نستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فإن العقيدة الإسلامية الحقة هي التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وبلغها الرسول ﷺ لصحابته الكرام ـ رضوان اللَّه عليهم ـ، فكانوا أكمل الناس إيمانًا، ويقينًا بها، وأعمقهم فهمًا، واستيعابًا لها، فكانوا خير من سمع، وخير من آمن، وخير من فهم، وخير من بلغ لمن جاء بعدهم من التابعين، الذين كانوا هم الوقَّافين الصادقين عند معاني هذه العقيدة، فبلَّغوها لمن تبعهم تمام التبليغ؛ فلا تجد أحدًا منهم يقول قولًا إلا ويسنده للمصدرين الوحيدين لمسائل العقيدة والشريعة؛ وهما: كتاب اللَّه، وسنة رسوله ﷺ

ومن المعلوم قطعًا أن أصول العقيدة الإسلامية قد حُسِمَتْ، واستقرت بأدلتها الصحيحة، من الكتاب والسنة، وما فارق النبي ﷺ هذه الدنيا، إلا وقد بَلَّغَ البلاغ الكامل المبيِّن لكل ما تحتاجه البشرية جمعاء، من مسائل العقيدة والشريعة؛ فهي لا تقبل الزيادة ولا النقصان، وفي هذا يقول المولى ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، [المائدة: ٣]، وقال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»[(١)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «وَايْمُ اللَّهِ، لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ». قال أبو الدرداء رضي الله عنه (ت ٣٢هـ): «صدق، والله، رسول اللَّه ﷺ، تركنا، والله، على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء»[(٢)]. وقال الإمام مالك ـ رحمه اللَّه ـ (ت ١٧٩هـ): «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن اللَّه يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»[(٣)].

---

(١) البخاري ـ كتاب الصلح ـ باب اذا إصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ح رقم ٢٦٩٧/ فتح الباري ج٥، ص٣٠١ـ ترقيم فؤاد عبد الباقي ومراجعة محب الدين الخطيب،دار المعرفة ـ لبنان ـ بيروت.

(٢) ابن ماجة ـ السنن ـ المقدمة ح رقم ٥ ـ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الحديث

(٣) الشاطبي ـ الاعتصام ج١ ص٤٩ ـ تعريف محمد رشيد رضا ط١ـ ١٣٣٢هـ ـ المكتبة التجارية القاهرة.

وقد اعتصمت هذه الأمة متمثلة في سلفها الصالح، ومن سار على نهجهم، بهذه العقيدة الصحيحة؛ فكان علماؤها، وعامتها، يكرهون الابتداع في الدين، إلى أن فُتِحَ باب الفتنة على مصراعيه، عندما قام البغاة بقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ، فوجد أرباب الفتنة فرصتهم في بذر بذور البدع المخالفة لأصول العقيدة الحقة، فظهرت إلى أرض الواقع مسميات أهل البدعة، والفرقة؛ مثل الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والمعتزلة، والمشبهة، والجهمية، وقاموا بحملتهم الظالمة من خلال مخالفة منهج السلف الصالح، والعمل بكل الاتجاهات؛ لتمزيق شمل الأمة، وجعلها شيعًا وأحزابًا.

وقد أخبر النبي ﷺ بحدوث هذه الفُرقة في الحديث المشهور، والمروي من وجوه كثيرة؛ منها ما رواه أبو هريرة ﷺ (ت ٥٩هـ) قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى ـ أَوْ ثِنْتَيْنِ ـ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى ـ أَوْ ثِنْتَيْنِ ـ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[(١)].

وعندما حدثت هذه الفُرقة الأليمة، تمايز أهل السنة عن أهل البدعة، وبقيت هي الفئة الظاهرة على الحق، بإذن اللَّه، لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم؛ مصداقًا لبشرى رسول اللَّه ﷺ فيهم، حين قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ»[(٢)].

ولا شك أن أهل السنة والجماعة المقتفين أثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وتابعيهم، هم الطائفة المنصورة القائمة على دين اللَّه الحق، وهم كذلك إلى يوم القيامة، بإذن اللَّه؛ فقد كانوا في هذه الفترة التي ندرسها، حتى نهاية العصر الأموي، هم الكثرة المهيمنة على جمهور الأمة، وكان أهل البدع مقموعين مدحورين، لا يجرءون على الإعلان ببدعهم إلا في دوائر المنحرفين والمنافقين.

فكانت هذه الفترة العظيمة من حياة الأمة تتميز بأنها قد عاش فيها الصحابة الكرام،

---

(١) أبو داود ـ السنن ـ كتاب السنة ـ باب شرح السنة (بذل المجهود في حل أبو داود ج١٨ ص١١٦، والترمذي ـ الجامع الصحيح ـ كتاب الايمان ـ باب ما جاء في إفتراق الامة ح رقم ٢٦٤٠ ج٥ ص٢٥ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) مسلم ـ كتاب الامارة باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ح رقم ١٩٢٠، مختصر صحيح مسلم ج٢، ص١٤٨ ـ إختصره محمد بن ياسين بن عبد اللَّه ط١٤١١/١ ـ المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة.

الذين شاهدوا رسول اللَّه ﷺ، وآمنوا به، وسمعوا توجيهاته، وجاهدوا معه في كل غزواته، وتلقوا أمور عقيدتهم منه مباشرة، فنقلوا ـ عليهم رضوان اللَّه ـ كل هذا إلى الجمهرة العظيمة من التابعين، الذين ازدهرت في عصرهم مجالس العلم؛ ففي المدينة المنورة كان هناك أكابر الصحابة، وجمهرتهم العظيمة، واشتهر عدد كبير من علماء الصحابة، الذين انتشروا في الأمصار؛ من أمثال عبداللَّه بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وأبي ذر الغفاري، وحذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن عباس، وعائشة ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ؛ فكان هؤلاء الصحابة الذين يعقدون مجالس العلم، يتحدثون في تفسير كتاب اللَّه، وأحاديث رسول اللَّه ﷺ، والفقه، والأحكام، وكان التابعون يتلقون هذه الثروة الضخمة، ويحفظونها؛ ليؤدوها لمن يأتي بعدهم، وكان الشائع بينهم في هذه الفترات المبكرة هو حفظ كل ما يسمعونه في صدورهم، وكان عمر رضي الله عنه يكره كتابة الأحاديث؛ مخافة اختلاطها بالقرآن الكريم؛ فعن عبدالله بن العلاء قال: «سألت القاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٢هـ) يملي عليَّ أحاديث، فقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر رضي الله عنه، فاشتد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها، ثم قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب، قال: فمنعني القاسم يومئذ أن أكتب حديثًا»[(١)].

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن أكثر المؤلفات في هذا العصر كانت في مسائل الفقه، والأحكام، وتدوين الحديث النبوي الشريف؛ لغلبة الطابع العملي على الناس، وبعدهم عن مسائل الجدل والخصومات في العقيدة؛ ومما يُرْوَى في هذا الشأن أنه: «لما مات عبدالرحمن بن عائذ الأزدي خلَّف كتبًا، وصحفًا من علمه، وكان أهل حمص يأخذون كتب ابن عائذ، فما وجدوا فيها من الأحكام، عمدوا بها على باب المسجد؛ قناعة بها، ورضا بحديثه، وقد اقتسم رجال من الجند كتب ابن عائذ بينهم بالميزان»[(٢)].

وقال معمر (ت ١٥٢هـ): «أتيت الزهري بالرصافة، فجالسته أسأله، حتى ظننت أني قد فرغت منه، فلما مات مُرَّ علينا بكتبه على البغال»[(٣)]، وكان «ابن شبرمة، ومغيرة، والحارث

(١) الذهبي ـ تاريخ الإسلام حوادث سنة ١٠١-١٢٠ ص٢٢٠ ت د. عمر التدمري.

(٢) الذهبي ـ تاريخ الإسلام حوادث سنة ٨١ ـ ١٠٠ ص٤١٥.

(٣) الذهبي ـ تاريخ الإسلام حوادث سنة ١٢١- ١٤٠ ص٢٣٤.

العكلي، يسهرون في الفقه، فربما لم يقوموا حتى ينادى بالفجر»[١]، وقد أسس محمد بن جبير بن مطعم (توفي في خلافة سليمان) مكتبة يقرأ فيها «حيث احتسب بعلمه، وجعله في بيت، وأغلق عليه بابًا، ودفع المفتاح إلى مولاة له، وقال لها: من جاءك يطلب منك مما في هذا البيت، فادفعي إليه المفتاح، ولا تذهبين من الكتب شيئًا»[٢].

أما عن أهم علومهم في هذا العصر موضع البحث، فهي علوم القرآن، والحديث، والفقه؛ فقد كان «عمرو بن الحارث (ت ١٤٨هـ) يخرج من منزله، فيجد الناس صفوفًا يسألون عن القرآن، والحديث، والفقه، والشعر، والعربية، والحساب، قال الذهبي: قلت: علومه المذكورة هي علوم الإسلام في ذلك الوقت، فما كان القوم يخوضون في سوى ذلك، ولا يعرفونه، فَخَلَفَ من بعدهم خلف علموا أصول الدين، والكلام، والمنطق، وخاضوا كما خاضت الحكماء»[٣].

أما التأليف في العقيدة، فلم يكن موجودًا؛ وذلك بسبب فهمها الكامل، واستيعابها الاستيعاب الأمثل، من خلال ذلك العرض الشامل الموسع لها في الكتاب والسنة، وأول ما بُدِئَ التأليف في العقيدة، كان للرد على منكري القدر؛ وذلك بتقرير هذا الأصل العظيم، وإبطال شبهات القدرية؛ حيث يقول الأستاذ فؤاد سزكين: «ومن المرجح أن الرد على القدرية كان ضربًا كثر التأليف فيه، وهذا الضرب من أقدم ضروب المصنفات العقيدية»[٤].

ويقول البغدادي: في كتابه «أصول الدين»: «وأول متكلمي أهل السنة عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ)[٥]، وله رسالة بليغة في الرد على القدرية، ثم زيد بن علي بن الحسين (ت ١٢٢هـ)، وله كتاب في الرد على القدرية من القرآن، ثم الحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وقد ادعته القدرية؛ فكيف يصح لها هذه الدعوى، مع رسالته إلى عمر بن عبدالعزيز في ذم القدرية، ومع طرده واصلًا عن مجلسه، عند إظهار بدعته، ثم الزهري (ت ١٢٤ هـ)؛ وهو الذي أفتى عبدالملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) بدماء القدرية، ثم جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) وله كتاب في الرد على القدرية، وكتاب في الرد على الخوارج، ورسالة في الرد على الغلاة

---

(١) المصدر السابق، ١٤١-١٦١ص ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه حوادث ١٤١-١٦٠ص٤٦٧.

(٣) المصدر نفسه حوادث ١٠٦-١٤١ ص٢٣٥.

(٤) فؤاد سزكين - تاريخ التراث العربي ص٣، ترجمة د. محمود حجازي ط١ ١٤٠٣- الرياض.

(٥) أهل السنة والجماعة وعلماء السلف لا يعدون من المتكلمين المبتدعة.

من الروافض؛ وهو الذي قال: أرادت المعتزلة أن توحد ربها، فألحدث، وأرادت التعديل، فنسبت البخل إلى ربها، وألف أبو حنيفة كتابًا في الرد على القدرية، وسماه «الفقه الأكبر»[1].

وقد صنف الحسن بن محمد بن علي رسالة في الرد على القدرية، وقد نشرها يوسف فان إس مع رسالة لعمر بن عبدالعزيز في الرد على القدرية، التي ضمنها الأصبهاني ترجمة عمر بن عبدالعزيز في كتاب «حلية الأولياء»[2].

ومما يلاحظ على هذه المؤلفات أنها لم تكن كتبًا كبيرة بالمعنى الحقيقي، وإنما هي مجرد صفحات كما وصفت؛ حيث ذُكِرَ أن «محمد بن الحسن بن علي وضع كتابًا في الإرجاء، وقال: لوددت أني مت، ولم أكتبه، وكان نحو ورقتين»[3]، ويبدو أن أغلب هذه الكتب أو الرسائل قد ضاعت ولا يوجد إلا مجرد أسمائها، وأما ما وُجِدَ منها فقد تضمنته بطون بعض الكتب؛ كرسالة عمر بن عبدالعزيز الواردة في كتاب حلية الأولياء، ولكن كتب السنن، والآثار، حفظت لنا جملة كبيرة من أقوال متناثرة لعلماء السلف، كانت رصيدًا هامًّا للعلماء الذين صنفوا مصنفات مفصلة للرد على أهل الأهواء.

ومما يلاحظ على مواقف علماء السلف من فرق الابتداع في هذه المرحلة أنها مواقف عملية، فلم يلجئوا إلى الردود التفصيلية؛ حتى لا تتسع دائرة الشبهات بين من لم تكن لهم بها معرفة من جمهور الناس، ولكن عندما اتسعت شرور هذه الفرق، قام علماء السلف بكتابة الردود التفصيلية على النحو المشهور.

وقد استفدت فائدة كبيرة من كتاب عمر بن عبدالعزيز في الرد على القدرية، واستفدت كذلك من تلك المواقف، والأقوال المأثورة عن علماء السلف، في الرد على المبتدِعَة، وكان من أبرزها المواقف العملية؛ مثل توجيه الناس لمقاطعة أرباب البدع، وكانت الاستجابة لهذه المواقف كبيرة جدًّا، وهذا ما سيلاحظه القارئ، بإذن الله. أما الجدال والحوار، فقد كان محدودًا إلَّا ما كان من جدال موسع رُوِيَتْ لنا منه صور متعددة، مع غيلان القدري، الذي جادله عمر بن عبدالعزيز، وبعض علماء السلف.

ومن الملاحظات الهامة التي تستوقف الباحث في هذه المرحلة عدم وجود تصنيفات

---

(١) البغدادي، أصول الدين ص٣٠٧، ٣٠٨، ط٢، ١٤٠٠هـ دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الاصبهاني ـ حلية الاولياء ج٥، ص٣٤٦ وما بعدها ـ ط٥ ـ ١٤٠٧ ـ دار الريان ـ القاهرة.

(٣) الذهبي تاريخ الإسلام حوادث ٨١-١٠٠هـ.

مستقلة في مسائل الأسماء والصفات؛ فما السر وراء ذلك؟ والجواب على هذا سهل يسير بحمد اللَّه ـ تَعَالَى ـ؛ وذلك أن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، كانوا في أعلى درجات الفهم، والإيمان، واليقين الكامل بها؛ فكانوا أعظم توقيرًا لربهم ـ سبحانه وتعالى ـ؛ بفهمهم المعاني، وإثباتها، وعدم خوضهم بالكيفية، كما أنهم لم يقولوا بالتأويل، أو التعطيل، أو التشبيه؛ مثلما جنح عن منهجهم المبتدعة المتأخرون.

وما هذه الردود التي استخدمها علماء السلف، عندما ظهرت فرق الابتداع، إلا إستمرارٌ لمنهجهم السليم الصادق، واعتمادٌ أساسيٌّ على كتاب، اللَّه وسنة رسوله ﷺ، اللَّذَيْنِ بسط الصحابة علومهما، وفسروا آيات الكتاب العزيز كلها، على ضوء العقيدة الحقة، ورووا الأحاديث المتضمنة لجميع مسائل العقيدة؛ ومن أهمها مسائل الصفات، التي تهيمن بكثرتها على الكتاب والسنة؛ فكان الناس في عافية، واطمئنان، حتى ظهر النفاة المنكرون، الذين وقف لهم علماء السلف بالمرصاد؛ باعتمادهم على هذه الأصول الراسخة، التي من أخذ بها كان منصورًا عزيزًا إلى يوم القيامة.

وقد بدأ التأليف في مسائل الصفات، عندما اتسعت شرور الجهمية النفاة، في العصر العباسي؛ حيث يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن حماد بن سلمة ألف كتابًا في الصفات[1]، وقد كان مولد هذا التابعي الجليل في حياة أنس بن مالك رضي الله عنه ومات وعمره ستة وسبعون؛ أي عام (١٦٧ هـ)، وكان شديدًا على المبتدعة، لا يثلبه إلا معتزلي أو جهمي[2].

● وقد واجهْتُ في البحث مشقة كبيرة للحصول على أقوال علماء السلف من تراجمهم في كتب السير، وكتب التاريخ المختلفة؛ أملًا أن تكون هذه الدراسة مفصحة عن حقيقة هذه الفترة، كما أنني اجتهدت ما وسعني أن أدرس فرق الابتداع دراسة معمقة، من خلال معرفة حقيقة رجالها، ومعتقداتهم، وسلوكياتهم، والدوافع التي حَدَتْ بهم إلى سلوك طرق الابتداع، مع تمحيص معمق لنصوصهم، وتحليلها بما يوافق واقعها الصحيح في هذ المرحلة، بعيدًا عن المسلَّمات الخاطئة، التي سلم بها أكثر الباحثين للفرق، لفترات طويلة.

وحاولت غاية الجهد أن أعرض لمواقف السلف من كل فرقة؛ حتى ولو كانت كلمات قليلة؛ بقصد إبراز هذه الجهود، التي كان لأصحابها الهيمنة الكاملة على جمهور الأمة،

(١) انظر الفتاوى الكبرى جـ٥، ص١٥.

(٢) الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ج٧ ص٤٢٧، ٤٥٠.

الذي كان بمجموعه يدين بعقيدة السلف، ويضع علماءها في أرفع مكانة وأحسنها. وسوف يلاحظ القارئ، بإذن اللَّه، هذا المنهج المسيطر على هذا البحث، والذي ضمَّنْتُهُ ـ أيضًا ـ عرضًا لشبهات المستشرقين، وبعض الكُتَّاب المعاصرين، الذين هيمنت كتبهم في الفلسفة والعقيدة على عصرنا الحاضر، وبينت مواقفهم، ودوافعها الداعية لمناصرة كل الفرق المبتدِعَة، ومهاجمة علماء السلف، والانتقاص منهم؛ إرضاءً للمستشرقين الحاقدين، وإرضاءً لبعض فرق الضلال، التي أقامت جسورًا من العلاقات معهم. وقد أثبت بطلان الكثير من مقولاتهم، من خلال المقارنة التاريخية التي أثبتت تناقضهم، وكذب الكثير من النصوص التي اعتمدوا عليها، من كتب فرق الابتداع، وكل ذلك بفضل اللَّه، وتوفيقة.

ورسالتي هذه، التي أقدمها اليوم؛ عرضًا، ودراسة لجهود علماء السلف، في إثبات العقيدة الإسلامية، والدفاع عنها، ضد شبهات الفرق، وبدعهم العقدية، حتى نهاية العصر الأموي ـ هي الرسالة الأولى في سلسلة من الرسائل المقترحة، التي سيقوم بها بعض زملائي من طلاب العلم؛ بقصد إبراز جهود علماء السلف مجتمعة، ومواقفهم من كل البدع المنحرفة، التي نشأت في العصور الإسلامية اللاحقة. ونسأل اللَّه أن يكتب لنا ولهم من التوفيق بهذه الدراسات، بقدر ما نبذله فيها من جهود مخلصة، ونيات طيبة.

وقد سرت في هذه الرسالة على الخطة التالية: ـ

حيث تحتوي هذه الرسالة ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ، ومقدمةً، وخاتمةً.

أما المقدمة، وهي التي بين أيدينا، فهي للتعريف بموضوع الرسالة، وبيان أهميتها، ومنهجي في دراسة موضوعها، ثم بيان خطتي في كتابتها.

أما الباب الأول، فموضوعه عرض موجز لبعض مسائل العقيدة، وقد تضمن ثمانية فصول؛ وموضوعاتها: وجود اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وتوحيد الربوبية الألوهية، والصفات الإلهية، ورؤية اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والإيمان والعمل، والقضاء والقدر، ثم عرضت لصور من النقاشات العقدية بين الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ في بعض مسائل العقيدة، ثم عقدت فصلًا للرد على الأفكار الخاطئة حول عقيدة الصحابة والتابعين.

أما الباب الثاني، فموضوعة الافتراق العقدي، وأسبابه، وقد اشتمل على فصلين كبيرين؛ الأول: درست فيه حديث الافتراق العقدي دراسة تحليلية موسعة.

أما الباب الثالث، فموضوعه دراسة لفرق الابتداع التي نشأت خلال العصر الأموي؛

بعرض نشأتها، والعوامل المؤثرة في هذه النشأة، وأوائل رجالها، ومقالاتها المنحرفة، وبيان مواقف علماء السلف منها، وقد تضمن هذا الباب سبعة فصول، تضمن كلٌّ منها فرقة من هذه الفرق، وقد اشتملت هذه الفصول على الفرق التالية: «الخوارج، الشيعة، القدرية، المرجئة، المعتزلة، المشبهة، الجهمية».

وأما الخاتمة، فقد تضمنت أهم النتائج التي خرج بها هذا البحث.

وفي الختام، أتوجه بعظيم الحمد والشكر، لله ـ تَعَالَى ـ أولًا وآخرًا؛ الذي مَنَّ علينا بهداية الإسلام، وهدانا لدراسة هذه العقيدة، وحببها إلى قلوبنا، وَكَرَّهَ إلينا سبل أهل الكفر، والشرك، والابتداع، فله الحمد، والمنة على نعمائه، وآلآئه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ثم أتقدم بالشكر للقائمين على جامعة أم القرى؛ ممثلة بمعالي مديرها، ثم أتقدم بالشكر لكلية الدعوة وأصول الدين، ولسعادة عميدها، ولسعادة رئيس قسم العقيدة، الذين أتاحوا لنا الفرصة للدراسة في رحاب هذه الجامعة الموقرة.

ثم أتوجه بجزيل الشكر والامتنان لحضرة أستاذي الفاضل؛ سعادة الأستاذ الدكتور/ عثمان عبدالمنعم يوسف؛ فقد كان لي بمثابة الأب الحاني الصبور؛ حيث تحمل معي مشاق هذا البحث، ووعورة مسالكه، الذي فتح لي ـ بعد اللَّه ـ تَعَالَى ـ مغاليقها، وصَوَّبَ لي كثيرًا من الأفكار والآراء؛ حتى خرج هذا البحث على هذه الصورة، والذي أرجو أن يكون معبرًا تمام التعبير عن حقيقة معتقد سلفنا الصالح ـ رضوان اللَّه عليهم ـ، وإني أرجو اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن يمنحه الصحة والعافية، وينفع به طلبة العلم، فقد فتح لي بيته صباحًا ومساءً، ولم يعتذر يومًا واحدًا عن استقبالي، بجانب إلحاحه المستمر بمضاعفة الجهد، ومتابعته لأحوال هذا البحث في كل حين؛ فجزاه اللَّه خيرًا.

هذا وفي الختام أرجو من اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن أكون قد وُفِّقْتُ لعرض صورة حية واقعية لطبيعة هذه المرحلة التي بحثتها، والتي بذلت فيها غاية جهدي وقدرتي، كما نسأل المولى ـ سبحانه ـ أن يوفقنا لإبلاغ هذا المنهج، وتطبيقه في حياتنا، والدعوة إليه في كل مكان؛ فانه المنهج الحق إرتضاه رب العالمين وبلغه رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ البلاغ المبين، وطبقه صحابته الكرام خير تطبيق وتابعهم على ذلك التابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة
وكما آمن بها الصحابة ـ رضوان الله عليهم

الْفَصْلُ الأَوَّلُ
وُجُودُ اللَّهِ ـ تَعَالَى ـ

١ـ فِطْرِيَّةُ الْمَعْرِفَةِ بِوُجُودِ اللَّهِ ـ تَعَالَى:

وجود اللَّه ـ تعالى ـ أمر فطري، مغروز في النفس البشرية؛ فعندما خلق اللَّه ـ تعالى ـ آدم ـ عليه السلام ـ أخذ منه، ومن ذريته، الشهادة على أنه ربهم، ومعبودهم الحق؛ فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾، [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وقد كانت دعوة الأنبياء جميعًا تنبثق من هذا الأصل الفطري العظيم؛ وهو الإيمان باللَّه ـ تعالى ـ، والدعوة لتوحيده في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، فما أثر عن أمة من الأمم إنكارها لوجود اللَّه ـ تعالى ـ، إلا ما نُسِبَ إلى فرعون، والدهرية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨): «وأشهر من عرف تجاهله، وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن؛ كما قال له موسى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾، [الإسراء: ١٠٢]، وقال ـ تعالى ـ عنه، وعن قومه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾، [النمل: ١٤]»[١].

ونصَّ شيخ الإسلام في موضع آخر على أن فرعون كان معترفًا باللَّه في الباطن، فقال: «وفرعون لم يَقُلْ هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، ولكن أظهر خلاف ما في

---

(١) ابن تيمية ـ درء تعارض العقل والنقل ج٨ ص٣٨ ـ ت د. محمد رشاد سالم ـ ط١ـ ١٤٠١ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود، وانظر .. أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية ص١٧ ـ ت الألباني ط الأزهر.

نفسه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، [النمل: ١٤][١].

وأما الدهرية فهم لم ينكروا وجود الله ـ تعالى ـ؛ كما قال الشهرستاني (ت ٥٤٨): «أما تعطيل العالم عن الصانع العليم، القادر الحكيم، فلست أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلا ما نُقِلَ عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا: كان العالم في الأزل أجزاءً مبثوثة، تتحرك على غير استقامة، فاصطكَّت اتفاقًا؛ فحصل العالم بشكله الذي تراه عليه، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر وجود الصانع؛ بل هو يعترف بالصانع، لكنه يُحِيلُ سبب وجود العالم على البخت والاتفاق؛ احترازًا عن التعليل»[٢].

ومما يجب العلم به أن هذا المصطلح ـ أي «وجود الله ـ تعالى ـ» أو «إثبات الصانع»، أو «إثبات واجب الوجود»، وغيرها ـ هي مصطلحات مبتدعة، برزت في الوسط الإسلامي، مع ظهور فرق الابتداع، واختلاط المسلمين بأهل الشك والريب، من أهل البلاد المفتوحة، فما كانت البيئة الإسلامية تعرف مثل هذه المصطلحات المحدثة.

ولعل مثل هذه المقالات روجها زنادقة البلاد المفتوحة؛ حقدًا وحسدًا على هذا الدين وأهله، عندما هالهم سرعة انتشاره وتقبله من أهل تلك البلاد، فعكف هؤلاء الزنادقة وغيرهم من القادة الدينيين على تأليف المقالات المنحرفة وزرع الشبه والريب بين المسلمين الجدد.

ومما يوضح هذا التعليل أن بلاد فارس والعراق وغيرها قد تعرضت إلى هجمات فكرية عنيفة من الصابئة ودهاقنة الفرس يعاونهم اليهود والنصارى، والسمنية الهنود، الذين كانوا يطوفون في البلاد الإسلامية ويزرعون الشبه والشكوك، ولاشك أن هذه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٨ص٤٤٠.

(٢) الشهرستاني ـ نهاية الإقدام في علم الكلام ص١٢٣-١٢٤ ـ ت ـ ألفرد جيوم ـ لندن١٩٣٤.

الجماعات قد نشأت ونظمت نفسها، وبدأت عملها في القرن الأول الهجري.

ومن أمثلة ذلك ما روي أن مجموعة من الملاحدة سألوا[١] : «ما الدلالة على وجود الصانع، فقال لهم: دعوني فخاطري مشغول بأمر غريب، قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة؛ وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال وما ذاك؟ قالوا: أهذا يصدقه عاقل؟ فقال: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف العجيبة وهذا الفلك الدوار السيار يجري وتحدث هذه الحوادث بغير محدث وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام».[٢]

ومنها أيضًا أولئك السمنية الهنود الذين جادلوا الجهم بن صفوان(ت ١٢٨هـ) في الإله المعبود فتحير الجهم، ولم يدر ما يجيب وتوقف عن الصلاة أربعين يومًا حتى يتبين له ما يعبد بزعمه، ثم أحدثت هذه المجادلة الانحراف الكبير في عقلية الجهم؛ مما حدا به إلى نفي الصفات، وفتح بابًا كبيرًا من أبواب الشر في عقيدة الأمة[٣]

فهذه الموجات الإلحادية التي غزت العالم الإسلامي في مراحل تكونه الأولى كانت من أهم الأسباب التي فتحت باب الجدل في وجود اللَّه ـ تعالى ـ ، وفي أسمائه وصفاته، على تلك الطريقة المبتدعة المذمومة، التي خالفت ما جاء به الكتاب والسنة من تقرير هذه المسائل بالطريقة السهلة الميسرة المقبولة.

وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على أن أصول هذه المقالات المبتدعة هم الجهمية وغيرهم من فرق الابتداع، فقال: (إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتًا في كل فطرة،

---

(١) نسب شارح الطحاوي هذه الحادثة لأبي حنيفة رحمه الله وأن الملاحدة سألوه هو ص٢٣ في حين نسبها ابن تيمية إلى بعض أهل العلم. درء تعارض جـ٣ ص١٢٦.

(٢) ابن تيمية ـ درء التعارض جـ٣ ص١٢٧.

(٣) عقائد السلف ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ الرد على الزنادقة ص٦٥ت ـ النشار وطالبي ط منشأة المعارف الإسكندرية ـ ١٩٧١م ـ (سوف نعرض لهذه المناقشة بالتفصيل عند حديثنا عن الجهم بن صفوان).

فكيف ينكر ذلك كثير من النظار؛ نظار المسلمين وغيرهم، وهم يدعون أنهم يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية، فيقال لهم: أولا: أول من عُرِفَ في الإسلام بإنكار هذه المعرفة ـ هم أهل الكلام؛ الذين اتفق السلف على ذمهم، من الجهمية، والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف، وأجهلهم، ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين؛ الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم سلفهم الجهميةُ، فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء مسلمين، وليس كذلك إنما صدر أصلًا عمن ذمه أئمة الدين، وعلماء المسلمين)[١].

وتبعًا لهذا الانحراف الأول في تقرير وجود اللَّه ـ تعالى ـ عند الجهمية، والمبتدعة اتسع انحراف المتكلمين من المعتزلة وغيرهم، فاشترطوا النظر والاستدلال، والشك لحصول العلم بالصانع بزعمهم، وقد فند شيخ الإسلام هذا الزعم الباطل، فقال: (ليس هذا قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا قاله أحد من الأنبياء والمرسلين، ولا هو قول المتكلمين، ولا غالبهم، بل هذا قولٌ مُحْدَثٌ في الإسلام، ابتدعه متكلمو المعتزلة، ونحوهم من المتكلمين الذين اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمهم، وقد نازعهم في ذلك طوائف من المتكلمين من المرجئة، والشيعة، وغيرهم، وقالوا: بل الإقرار بالصانع فطري ضروري بديهي، لا يجب أن يتوقف على النظر والاستدلال... بل قد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن معرفة اللَّه، والإقرار به لا يقف على هذه الطرق التي يذكرها أهل النظر)[٢].

● وقد عقَّد الفلاسفة والمتكلمون طرق معرفة اللَّه الفطرية، التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والتي إمتدحها اللَّه سبحانه وتعالى، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى ج١٦ ص٣٤١ ـ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي ـ رحمه الله، وولده محمد.

(٢) ابن تيمية ـ نقض تأسيس الجهمية ج٥ ص٤٧٣ ـ بتصرف ـ ت عبدالرحمن بن محمد العاصي وولده، وانظر ـ مجموع الفتاوى ج١٦، ص٣٥٠ ـ ونسبة هذه الطرق إلى المبتدعة والجهمية.

ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: ٣٠].

وعن أبي هريرة ﷺ (ت: ٥٩) قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»، ثم يقول أبوهريرة ﷺ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾، [الروم: ٣٠][(١)].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ: وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[(٢)].

قال شيخ الإسلام معلقًا على هذا الحديث: (فأخبر أنه خلقهم حنفاء؛ وذلك يتضمن معرفة الرب، ومحبته، وتوحيده؛ فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية، وهي معنى قوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فإن هذه الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، فيها إثبات معرفته، والإقرار به، وفيها إثبات محبته؛ فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوهًا، وهذا أعظم ما يكون من المحبة.. وكل مولود يولد على الفطرة؛ وهي الحنيفية التي خلقهم عليها، ولكن أبواه يفسدان ذلك؛ فيهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، ويشركانه، كذلك يجهمانه، فيجعلانه منكرًا لما في قلبه من معرفة الرب، ومحبته، وتوحيده، ثم المعرفة يطلبها بالدليل، والمحبة ينكرها بالكلية، والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره بالكلية)[(٣)].

(١) البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب ما قيل في أولاد المشركين ـ ح ـ رقم ١٣٥٨ ـ فتح الباري ج٣ ص٢٤٦، ومسلم ـ كتاب القدر ـ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ج رقم٢٦٥٨/ مختصر صحيح مسلم باختصار ـ محمد بن ياسين بن عبدالله ـ ج٢ ـ ٤١٩ـ ط١/١٤١١ـ المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة.

(٢) مسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ـ ح ـ رقم ٢٨٦٥ـ المختصر ج٢ ص٥١٠.

(٣) مجموع الفتاوى جـ١٦ ص٣٤٤ـ٣٤٦ بتصرف.

ودليل الفطرة من أسمى الأدلة الناطقة على وجود اللَّه ـ تعالى ـ؛ فلذلك خاطبت الأنبياء والرسل أقوامهم على الدعوة لتوحيده، وعبادته، ولم تُقِم الأدلة على وجوده ـ تعالى ـ، فهو المعبود الحق الذي فطر على معرفته والإقرار به جميع الخلق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى، بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة؛ ولهذا كانت دعوة الرسل إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشراكهم به بعبادة ما دونه، والذين أظهروا إنكار الصانع؛ كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق؛ كقول موسى لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾، [الإسراء:١٠٢]، ولما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، [الشعراء:٢٣] قال له موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، [الشعراء:٢٤-٢٨]، ولما قال فرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، [طه:٤٩-٥٠]، فكان جواب موسى له جوابًا للمتجاهل الذي يظهر أنه لا يعرف الحق، وهو معروف عنده)(١).

أمام هذه الحقيقة الفطرية الكبرى، التي كانت تحياها البشرية، ومنها قريش والعرب، الذين بُعِثَ منهم رسولُ اللَّه ﷺ، فإننا نقول باطمئنان أن أحدًا منهم لم يسأل عن وجود اللَّه ـ تعالى ـ؛ فهذه الآيات القرآنية التي خاطبت المؤمنين والمشركين في تلك الفترة خاطبتهم جميعًا على أنهم مؤمنين بوجود اللَّه ـ تعالى ـ؛ حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، [العنكبوت:٦١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) ابن تيمية ـ منهاج السنة النبوية ج٢ص٢٧٠-٢٧١ـ ت د. محمد رشاد ـ ط١/١٤٠٦ـ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

يَعۡقِلُونَ﴾،[العنكبوت:٦٣].

وتكررت مثل هذه الآيات في سورة لقمان: ٢٥، وسورة الزمر: ٣٨، وسورة الزخرف: ٩-٨٧، وغيرها من الآيات التي يطول حصرها.

فهذه الآيات المنثورة في الكتاب العزيز عن إقرار المشركين بربوبية اللَّه، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، تؤكد أصالة الفطرة، ولكنهم أفسدوها بإشراكهم مع اللَّه ـ تعالى آلهة أخرى من الآلهة التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

وقد أكدت حياة الصحابة ـ رضوان اللَّه عليه ـ وسيرتهم التي وصلتنا، وخاصة عند بداية إسلامهم أن أحدًا منهم لم يسأل عن وجود اللَّه ـ تعالى ـ، ولكنهم كانوا يسألون عن متطلبات الإيمان باللَّه ـ تعالى ـ وواجباتهم تجاهه؛ لنيل رضوانه، وثوابه، والنجاة من غضبه، وعقابه، وهذه بعض النصوص التي تؤكد سلامة فطرة الصحابة، وسلوكهم المسلك الفطري في الإيمان باللَّه ـ تعالى.

فقد روى البخاري، ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه (ت:٩١)، قال: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ دخل رجل على جمل، ثم أناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم ـ فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ فقال له: الرجل: ابن عبدالمطلب ـ فقال له النبي ﷺ: قَدْ أَجَبْتُكَ ـ فقال الرجل للنبي: (إني سائلك، فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك ـ قَالَ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ ـ فقال: أسألك بربك ورب من قبلك آللَّه أرسلك إلى الناس كلهم؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ... ثم قال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر)(١).

وفي رواية لمسلم أنه استدل على عظيم قدرة اللَّه في خلقه، فقال: (يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا ـ أنك تزعم أن اللَّه أرسلك ـ قال: صَدَقَ، قال: فمن خلق السماء؟

(١) البخاري ـ كتاب العلم ـ باب القراءة والعرض على المحدث ـ ح رقم٦٣، فتح الباري ج١ص١٤٨.

قال: اللَّهُ، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: اللَّهُ، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: اللَّهُ، قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال آللَّه أرسلك؟ قال: نَعَمْ)(١).

وعندما جاء جبريل ـ عليه السلام ـ على هيئة رجل ـ ليعلم الصحابة دينهم لم يسأل النبي ﷺ عن وجود اللَّه ـ تعالى ـ، ولو كان للسؤال عنه ضرورة، لكان السؤال عنه أولى، فقد أخرج البخاري ومسلم عن عبداللَّه بن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: (حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسـلام؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قال: صدقت ـ قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ... الحديث)(٢).

وعندما جاء وفدُ عبدالقيس كان رسول اللَّه ﷺ يوضح لهم معنى الإيمان، ولم يرد في هذا التوضيح أي إشارة عن وجود اللَّه، ولو كان ذلك مطلوبًا، لكان الحديث عنه أولى وأهم، ولكن فطرية المعرفة به ـ تعالى ـ جعلتهم في غنى عن هذا، فقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعدما (أمرهم بالإيمان باللَّه وحده، وقال: أَتَدْرُونَ مَا الإيمان؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ

---

(١) مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب السؤال عن أركان الإسلام ـ ح رقم ١٢، المختصر ج١ ص٢٠.

(٢) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام ـ ح ـ رقم٥٠، الفتح ج١ ص١١٤، ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب السؤال عن أركان الإسلام ـ ح ـ رقم٨، المختصر جـ١ ص١٧.

وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ... الحديث)[١].

وعندما سأل النبي ﷺ الجارية ـ لم يسألها أمؤمنةٌ أنت بوجود اللَّه، وإنما سألها وهو واثق بصدق يقينها بوجود ربها وخالقها ـ سبحانه ـ فقال أين اللَّهُ؟ ـ ففي الحديث المشهور عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: (كانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول اللَّه ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلت يا رسول اللَّه، أفلا أعتقها؟ قال: أئتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين اللَّه؟ قالت: في السماء، قال: مَنْ أَنَا؟ قالت: أنت رسول اللَّه، قال: أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)[٢].

● ولم يكن السؤال عن اللَّه ـ تعالى ـ، وعن أمور الاعتقاد ممنوعًا، كما توهم المبطلون، فلقد كان الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ يسألون ويجيبهم النبي ﷺ، فقد روى ابن ماجة في سننه عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول اللَّه، أين كان ربنا قبل أن يخلقَ خلقه: قال: (كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَمَا ثَمَّ خَلْقٌ، عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)[٣].

ومن الأسئلة الهامة في هذا الشأن ما رواه عمران بن حصين رضي الله عنه (ت:٥٢) قال: (إني عند النبي ﷺ، إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن ـ فقال: اقبلوا البشرى يأهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما

(١) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب أداء الخمس ـ ح ـ رقم٥٣، الفتح ج١ ص١٢٩، ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الأمر بالإيمان بالله ـ تعالى ـ ح رقم١٨، المختصر جـ١ ص٢٢.

(٢) مسلم ـ كتاب المساجد ـ باب تحريم الكلام في الصلاة ـ ح رقم ٥٣٧ـ المختصر ج١ ص٢٠٠.

(٣) ابن ماجة ـ السنن ـ المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ـ ح ـ رقم ١٨٢ـ ج١ ص٦٤، ترقيم عبدالباقي ورجال الحديث ثقات إلا وكيع بن حدس فهو مقبول ـ ويزيد بن هارون ثقة متقن ـ تقريب التهذيب ٣٧٢:٢ ويعلى بن عطاء ثقة ـ تقريب ٣٧٨:٢، وكيع بن حدس ـ مقبول من الرابعة. تقريب ٣٣١:٢ وذكره ابن حبانفي الثقات فالحديث لحال وكيع.

كان؟ قال: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ أَدْرِكْ نَاقَتَكَ، فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها، وايم اللَّه، لوددت أنها قد ذهبتْ، ولم أقم)[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (مراده إخباره عن خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه اللَّه في ستة أيام، ثم استوى على العرش ـ كما أخبر القرآن العظيم بذلك في غير موضع)[٢].

فمثل هذه الأسئلة توضح مدى سعة أفق الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ، ورغبتهم الشديدة في معرفة كل أمور عقيدتهم، ودينهم، وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على صحة هذه الأسئلة، وأن النبي ﷺ كان يجيب عليها، ويسأل بمثلها، فقال: (وَهَذا يبين أن سؤال السائل: أين كان ربنا؟ في حديث أبي رزين ـ لم يكن هذا السؤال فاسدًا عنده ﷺ كسؤال السائل: من خلق اللَّه؟؛ فإنه لم ينه السائل عن ذلك؛ ولا أمره بالاستعاذة ـ بل النبي سأل بذلك لغير واحد، فقال له: أين اللَّه؟ وهو منزه أن يسأل سؤالًا فاسدًا، وسمع الجواب عن ذلك، وهو منزه أن يقر على جواب فاسد، ولما سئل عن ذلك أجاب، فكان سائلًا به تارة، ومجيبًا عنه أخرى)[٣].

إن سؤال النبي ﷺ للجارية: أين اللَّه، وسؤال أبي رزين العقيلي، وسؤال وفد اليمن، يؤكد أصالة الفطرة، ورسوخ الإيمان باللَّه ـ تعالى ـ في قلوب الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ، ويؤكد أيضًا سلامة المنهج النبوي الذي تلقاه الصحابة، وآمنوا به؛ وهو الدعوة إلى الإيمان باللَّه، وتوحيده بألوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته، بعيدًا عن الطرق الجدلية العقيمة الذي اخترعها المبتدعة المتكلمون. يقول شيخ الإسلام ابن

---

(١) البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب: وكان عرشه على الماء ـ ح رقم٧٤١٨، الفتح ج١٣ ص٤٠٣.

(٢) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى جـ١٨ ص٢١٢.

(٣) درء تعارض ج٣ص٣١٥.

تيمية: (قد عُلِمَ بالاضطرار من دين الرسول، والنقل المتواتر أنه دعا الخلق إلى الإيمان باللَّه ورسوله، ولم يدع الناس بهذه الطريق.. وآمن من آمن به من المهاجرين والأنصار، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، ولم يدع أحدًا منهم بهذه الطريقة، ولا ذكرها أحد منهم، ولا ذكرت في القرآن، ولا حديث الرسول، ولا دعا بها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان الذين هم خير هذه الأمة وأفضلها علمًا، وإيمانًا، وإنما ابتدعت هذه الطريقة في الإسلام بعد المئة الأولى، وانقراض عصر أكابر التابعين)(١).

ثم يمتدح الطريقة الفطرية التي جاء بها الرسول ﷺ فيقول: (والمقصود هنا التبيين على أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق لصريح المعقول، وأن ما بينه من الآيات، والدلائل، والبراهين العقلية في إثبات الصانع ـ سبحانه ـ ومعرفة صفاته، وأفعاله هو فوق نهاية العقول، وأن خيار ما عند حذاق الأولين، والآخرين من الفلاسفة والمتكلمين هو بعض ما فيه، لكنهم يلبسون الحق بالباطل، فلا يأتون به على وجهه، كما أن طريقة الاستدلال بحدوث المحدثات على إثبات الصانع الخالق هي فطرية ضرورية، لكنهم أدخلوا فيها من الاختلال والفساد ما يعرفه أهل التحقيق والانتقاد الذين أتاهم اللَّه الهدى والسداد)(٢).

وقد تعرض بعض الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ لخطرات ووساوس وسألوه عنها ﷺ فأجابهم بما يدفعها. وهذا يوضح أصالة فطرتهم وخوفهم على إيمانهم، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ ـ قالوا: نعم، قال: ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ)(٣) وفي رواية قال (تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ)(٤).

وعن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ (ت٦٨هـ) قال (جاء رجل إلى النبي ﷺ

---

(١) درء تعارض العقل ج١ص٩٧.

(٢) درء تعارض العقل ج٣ص٨٧.

(٣)، (٤) مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ـ ح رقم ١٣٢-١٣٣، المختصر ج١ ص٦٥.

فقال: إني أحدث نفسي بالأمر، لأن أكون حممة أحب إلي من أن أتكلم به ـ قال: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ أَمْرَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ)(١).

إن هذا الخوف من التلفظ بهذه الوساوس، وعدم الإفصاح عن طبيعتها يبين مدى عمق إيمان الصحابة، ويوضح الطريقة الموفقة التي اتبعها النبي ﷺ في معالجتها، وتهوينها على النفوس المؤمنة بربها، فكانت هذه المعالجة حماية لإيمان الصحابة وتوجيهًا دائمًا لهذه الأمة على مدار تاريخها في رد وساوس الشيطان، وعدم الاستسلام لها.

وقد فهم الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم هذا التوجيه ـ وهذا العلاج؛ حيث روى أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت ما شيء أخفيه في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: واللّه لا أتكلم به، فقال: أشيء من شك؟ وضحك ـ قال: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل اللّه: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، [يونس:٩٤]، قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئًا فقل:﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، [الحديد:٣](٢).

قال الإمام الخطابي (ت٣٨٨هـ): (قوله ذاك صريح الإيمان، معناه أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم، ولا تطمئن إليه أنفسكم، وليس معناه أن الوسوسة

---

(١) أبو داود ـ السنن ـ كتاب الأدب ـ باب رد الوسوسة ـ بذل المجهود ج٢٠ص٥٢، عن ابن أبي شيبة، وعبدالله بن شداد راوي الحديث من كبار التابعين وثقاتهم ـ توفي سنة ٨٢ بالجماجم، تهذيب التهذيب ج٥ ص٢٢٢.

(٢) أبو داود ـ كتاب الأدب ـ باب في رد الوسوسة ـ بذل المجهود ج٥ص٤٩، وأبو زميل ـ اسمه سماك بن الوليد الحنفي ـ سكن الكوفة، روى عن ابن عباس وابن عمر، ومرثد، وعروة بن الزبير ـ قال أحمد وابن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: صدوق لا بأس به، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عبدالبر: أجمعوا على أنه ثقة ـ ابن حجر ـ تهذيب التهذيب ج٤ص٢٠٦.
والحديث سنده حسن. انظر البغوي ـ شرح السنة ج١ص١١٤، ت الشاويش ـ والأرناؤط ط١٤٠٣/٢ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

نفسها صريح الإيمان؛ وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان، وتسويله، فكيف يكون إيمانًا صريحًا[(١)].

وقال الإمام النووي: (فقوله ﷺ: ذلك صريح الإيمان، ومحض الإيمان ـ معناه استعظام الكلام به هو صريح الإيمان؛ فإن استعظام هذا، وشدة الخوف منه، ومن النطق به، فضلًا عن اعتقاده، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محققًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك... وقيل: إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه، فينكد عليه بالوسوسة، لعجزه عن إغوائه، وأما الكافر، فيأتيه من حيث شاء ولا يقتصر على الوسوسة، بل يتلاعب به كيف أراد ـ فعلى هذا معنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان)[(٢)].

● وبجانب معالجة النبي ﷺ لوساوس الشيطان التي تَعَرَّضَ لها بعض الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ، وامتداحه ﷺ لإيمانهم، فقد حذرهم من الشبهات التي سيلقيها عليهم الشيطان، وجهلة الناس والملاحدة، والزنادقة، بسؤالهم عن اللّه سؤال الشاك المتعنت، فقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: (قال رسول اللّه ﷺ: (لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ)، وفي رواية قال: (يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟، فَيَقُولُ اللَّهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بِمِثْلِهِ، وَزَادَ وَرُسُلِهِ)[(٣)].

وقد وجههم الرسول ﷺ إلى كيفية معالجة مثل هذه الوساوس، فقال (يَأْتِي

---

(١) الخطابي ـ معالم السنن شرح سنن أبي داود ج٤ص١٣٦ ـ ت عبدالسلام محمد ط١/ ١٤١١هـ ـ دار الكتب العلمية.

والخطابي: هو أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي (ت ٣٨٨هـ). الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ١٧، ص ٢٣، لبنان.

(٢) النووي ـ بشرح مسلم ـ ج٢ص١٥٤ـ ط٢، ١٣٩٢، دار إحياء التراث العربي ـ لبنان.

(٣) مسلم كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ـ ح رقم ١٣٤، المختصر ج١ ص٥٦.

الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ)[١].

وبعد وفاته ﷺ حدث ما أنبأ به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعد أن ذكر حديث الوسوسة؛ وهو آخذ بيد رجل آخر (صدق اللَّه ورسوله: قد سألني اثنان، وهذا الثالث - أو قال: سألني واحد، وهذا الثاني)[٢].

وفي رواية عن أبي سلمة (ت:٩٤هـ)[٣] قال: (فبينما أنا في المسجد، إذ جاءت ناس من الأعراب، فقالوا: يا أبا هريرة، هذا اللَّه، فمن خلق اللَّه؟ قال: فأخذ حصى بكفه فرماهم، ثم قال: قوموا، صدق خليلي ﷺ)[٤].

وأهمية هذه المعالجة تأتي من خلال ما قاله الإمام النووي عن هذه الأحاديث إن معناها (الإعراض عن هذا الخاطر الباطل، والالتجاء إلى اللَّه - تعالى - في إذهابه.. وظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها، والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها، والذي يقال في هذا المعنى أن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست مستقرة، ولا اجتلبتها شبهه طرأت، فهي التي تُدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يُحمل الحديث وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة؛ فكأنه لما كان أمرًا طارئًا بغير أصل دفع بغير نظر في دليل إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهه، فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال، والنظر في إبطالها واللَّه أعلم)[٥].

---

(١) البخاري - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده - ح رقم٣٢٧٦، الفتح ج٦ ص٣٣٦، ومسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الوسوسة في الإيمان - ح رقم١٣٥، المختصر جـ١ ص٥٦.

(٢) مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الوسوسة في الإيمان - ح رقم١٣٥، المختصر ج١ ص٥٦ -٥٧.

(٣) أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف قيل اسمه عبدالله، وقيل إسماعيل (ت٩٤هـ). الذهبي - سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٨٧.

(٤) مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الوسوسة في الإيمان ح رقم١٣٥ - المختصر ج١، ص٥٧.

(٥) النووي - شرح صحيح مسلم ج٢ ص١٥٤-١٥٥، وانظر، ابن حجر فتح الباري ج١٣ص٢٧٣.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذه الوسوسة هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، فإذا كرهه العبد ونفاه، كانت كراهيته صريح الإيمان، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك، فقال ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، [البقرة:٢٨٦][(١)].

وبهذا يتبين لنا أن هذه الوساوس التي سبق الإشارة إليها هي نوع من التشكيك في وجود اللَّه ـ تعالى ـ، وقد هون النبي ﷺ من شأنها، وأرجعها إلى تشكيك الشيطان، وإلى الجهلة من الناس، والأعراب، وكلمة الناس كلمة جامعة، ظهرت في الزنادقة، والملاحدة، على مر العصور، والأزمان، ومنهم الذين أوجدوا المقالات المبتدعة، وخاضوا في وجود اللَّه، وأسمائه، وصفاته بغير علم، ولا هدى.

لقد كانت هذه التوجيهات النبوية، هي البلسم الشافي من كل الضلالات العقدية، وعندما ترك المتأخرون هذه التوجهات برزت إلى الوجود بدعهم العقدية الضالة، وقد كان الصحابة رضوان اللَّه عليهم هم الجيل الصادق الذي حمل أمانة هذا الدين، ونافح عن المعتقد الحق، ولم يستسلم للوساوس الشيطانية الباطلة، وهذا يوضح لنا الفرق بين جيل الصحابة، والتابعين المخلصين، وبين من انحرف عن منهجهم، ورام الفهم عن غير طريقتهم.

ولو كان الجهم بن صفوان (ت:١٢٨هـ)، ومن تابعه من فرق الضُّلَّال يعرف هذا المنهج لما تمكنت منه شبهة السمنية المعطلة في الحال، ولما توقف عن الصلاة أربعين يومًا حتى يتبين له من يعبد، فانطلق يعطل الصفات الإلهية تبعًا لانحرافه الذي تابعه عليه الكثير من فرق البدع والضلال، الذين فتحوا باب الجدل، والخصومة في العقيدة، وفي اللَّه ـ تعالى ـ، مما حدا به، وبمن تبعه من بعد ورضي منهجه أن يفسد هذا الإيمان الفطري، ويضع الطرق المعوجة والطويلة في معرفة اللَّه ـ تعالى ـ والإيمان بأسمائه وصفاته التي أخضعوها للتعطيل والتأويل بزعم تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوقين.

---

(١) مجموعة الفتاوى جـ١٤ص١٠٨- وجـ٧ص٢٨٢- وج٢٢ص٦٠٨.

٢ـ الاسْتِدْلَالُ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ ـ تَعَالَىٰ ـ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

● لم يكتف القرآن الكريم باستثارة الفطرة المقرة بوجود اللَّه ـ تعالى ـ، بل حفل بالأدلة العظيمة، والآيات الباهرة الدالة على وجوده، وعظمته، ـ سبحانه وتعالى ـ، فكل ما في هذا الوجود من خلق وعناية بهذا الكون، وتسييره على أكمل نظام، وحكمة هو دلالة صادقة على وجود اللَّه ـ تعالى ـ المدبر لهذا الكون.

وذلك لأن الأدلة على وجوده، وعظمته تعزز مكنون الفطرة، وتزيدها يقينًا واستقامة، والأدلة يحتاج إليها أيضًا من فسدت فطرته؛ حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الإقرار بالخالق وكماله، كما يكون فطريًا ضروريًّا في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس، عند تغير الفطرة، وأحوال تعرض لها»[١].

وعندما ظهرت الجهمية ومن تابعهم من فرق الابتداع، لم يأتوا بطرق مفيدة وصائبة في معرفة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ، بل عقَّدوا الطرق السهلة وأطالوها، وغاية ما عندهم من الطرق هو الاستدلال بحدوث الحوادث على محدث موجد لها، وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الطريقة جزء من الطريقة القرآنية، فقال: (هذه الطريقة جزء من الطريقة المذكورة، وهي التي جاءت بها الرسل، وكان عليها سلف الأمة وأئمتها، وجماهير العقلاء من الأولين؛ فإن اللَّه ـ سبحانه ـ يذكر في آياته ما يحدثه في العالم من السحاب، والمطر، والنبات، والحيوان، وغير ذلك من الحوادث، ويذكر في آياته خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ونحو ذلك)[٢].

وقد أثبت الواقع الذي عاشه الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ أن الأدلة القرآنية يحتاج إليها من تعرضت فطرته لأحوال من الشرك والكفر، فتأتي هذه الأدلة لتنبيه الفطرة، وإيقاظها من انحرافاتها، فعن محمد (ت:٩٨هـ) ابن جبير (ت:٥٩هـ) ابن

(١) مجموعة الفتاوى جـ٦ص٧٣.

(٢) درء تعارض العقل جـ٣ص٨٣.

مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال (قدمت على النبي ﷺ في فداء الأسرى، فاضطجعت في المسجد بعد العصر، وقد أصابني الكرى، فنمت، فأقيمت صلاة المغرب، فقمت فزعًا بقراءة النبي ﷺ في المغرب ﴿ وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾، (الطور١،٢)، فاستمعْتُ قراءته حتى خرجت من المسجد، فكان يومئذ أول ما دخل الإسلام قلبي)[(١)].

وفي البخاري قال جبير بن مطعم رضي الله عنه (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ﴾،[الطور:٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير[(٢)].

قال الإمام الخطابي: (كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته ففهم الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه)[(٣)].

إن الأثر الذي أحدثته هذه الآيات القرآنية بقلب هذا الصحابي الجليل، وكانت سببًا من أسباب إسلامه، وإيمانه، تبين لنا مدى أثر الأدلة القرآنية في إحياء الفطرة ومعالجتها من ظلمات الشرك، والكفر، ولقد سمع القرآن الكريم الجمهرة الكبيرة من العرب، وغيرهم منذ بدء الإسلام وإلى يومنا هذا وعجائبه لا تنقضي، وأدلته العظيمة ما زالت سببًا كبيرًا في دخول الناس أفواجًا في هذا الدين، وسوف نسوق فيما يلي بعض الآيات القرآنية الدالة على وجوده ـ تعالى.

● قال ـ تعالى ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

---

(١) ابن منظور ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦ص٥ـ وسوف نشير له بتاريخ ابن عساكر ومقصودنا، مختصر ابن منظور ـ ط١/١٤١٠، دار الفكر ـ دمشق.

(٢) البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة الطور ـ ح رقم ٤٨٥٤، الفتح ص٦٠٣.

(٣) ابن حجر ـ فتح الباري ج٨ ص٦٠٣.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، [النحل: ١٠-١٣]، وقال - تعالى -: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، [النمل: ٦٠]، وقال - تعالى -: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، وقال - تعالى -: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال - تعالى -: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، [النمل: ٦٣]، وقال - تعالى -: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، [النمل: ٦٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، [الروم: ٢١]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾، [الروم: ٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، [الروم: ٢٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، [الروم: ٢٤]، وقال - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، [الأعراف: ١٨٥]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾

[ق:٦-١١]، وقال ـ تعالى ـ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣]، وقال ـ تعالى ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:٢٧-٢٨]، وقال ـ تعالى ـ ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [ابراهيم:١٠].

إن هذه النصوص هي على سبيل المثال لا الحصر؛ لأن القرآن الكريم قد حفل بالتعريف بالإله الحق ـ سبحانه ـ، وآمن من آمن من الصحابة الكرام، فكانت هذه الدلائل بالنسبة لهم مزيدًا من الإيمان واليقين بعظمته، وقدرته ـ سبحانه ـ، وكانت هذه الأدلة بالنسبة لبعضهم دافعًا للايمان وجلاء للفطرة مما علاها من ظلمات الشرك والكفر، ومن أجل ذلك خلت حياتهم من كل البدع، والريب، والشكوك، فانطلقوا يفتحون الدنيا شرقًا وغربًا في مرضاة اللَّه ـ تعالى.

ولما انحرف من انحرف عن منهجهم الحق، بدأت بذور الشك، والإلحاد بالظهور، وزعموا أن أول الواجبات في معرفة اللَّه ـ تعالى ـ هي الشك ـ وإثبات واجب الوجود وغيرها من الألفاظ المبتدعة، فكانوا سببًا في الصد عن سبيل اللَّه ـ تعالى ـ وفرقوا الأمة شيعًا، وأحزابًا عندما خاضوا فيما لا يجب الخوض فيه.

ومع كل هذا فقد بقي منهج السلف الصالح هو منارة الحق التي يهتدي بها السائرون، وسيبقى هذا المنهج قائمًا مستمرًا إلى قيام الساعة بإذن اللَّه ـ تعالى.

وصدق اللَّه العظيم الذي يقول ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾، [الشورى:١٦].

* * * *

الْفَصْلُ الثَّانِي
تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ

لقد كانت مهمة الأنبياء والرسل جميعًا هي الدعوة لوحدانية اللّه، وعبوديته، والبراءة من كل المعبودات الباطلة التي عبدها الإنسان تبعًا لهواه، وانحرافه، وتبعًا لتلاعب الشيطان به على مر الأزمان، والعصور، وقد كان الإنسان ولا يزال مقرًا بوجود اللّه وربوبيته، وأنه هو الخالق الرازق، ولكنه كان ينحرف عن العبودية الحقة له ـ سبحانه ـ فيشرك معه غيره؛ ولذلك لم يكن توحيد الربوبية ينفع أحدًا، إذا لم يكن موحدًا للّه في ألوهية، وعبوديته، وقد أوضح القرآن الكريم هذا الانحراف عند المشركين، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، [العنكبوت:٦١]، وقال ـ تعالى ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، [العنكبوت:٦٣]، وقال ـ تعالى ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾، [الزخرف:٨٧].

ويحاور الكتاب العزيز هؤلاء المشركين المقرين بربوبية اللّه بزعمهم، وهم يعبدون غيره، فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤ـ ٨٩].

وقد كانت البشرية تمر بفترات من الشرك والبعد عن اللّه كلما تباعدت فترات بعث الرسل، فينحرف الناس، وتسيطر عليهم الشياطين والخرافات والجهل، قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا

تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

وقد بين الرسول ﷺ أن الله ـ تعالى ـ خلق عباده حنفاء، وأن الشياطين حرفتهم عن دينهم، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يُحَدِّثُ عن ربه ـ جل جلاله ـ: (أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)(١).

وقال الشيخ أبو العز الحنفي: (توحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام، وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [ابراهيم: ١٠].

في ظل هذا الواقع الفطري الذي كانت تعيشه البشرية، تركزت جهود الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على الدعوة لألوهية الله، وعبوديته، فكان (التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الْإِثْبَاتِ والمعرفة، وتوحيد في القصد والطلب.

فَالْأَوَّلُ: هو إثبات ذات الرب ـ تعالى ـ وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ وقد أفصح القرآن

(١) مسلم ـ من رواية عياض بن حمار رضي الله عنه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ـ ح رقم٢٨٦٥، المختصر جـ٢ص٥١٠.

عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول الحديد، وطه، وآخر الحشر، وأول السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص[1] بكمالها، وغير ذلك.

وَالثَّانِي: وهو توحيد الطلب، والقصد؛ مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]، وأول سورة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وآخرها، وأول سورة (يونس)، وأوسطها، وآخرها، وأول سورة (الأعراف)، وآخرها، وجملة سورة (الأنعام)، وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن؛ فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه، وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته؛ وذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كل في التوحيد، وحقوقه، وجزائه، وفي شأن الشرك، وأهله وجزائهم)[2].

وقد حفل الكتاب العزيز ببيان هذا التوحيد أيما احتفال، وعرضه ممزوجًا بكل معاني هذا الدين، وكل حقائق الوجود الغائب والمشهود وفي هذا يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: (لنأخذ مثلًا الحقيقة الإلهية، إن المنهج القرآني يجلي هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة في هذا الوجود في الخلق والتدبير، في تصريف هذا الكون، وما فيه ومن فيه، في تسخير الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، في إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، في إرسال الرياح لواقح، وإنزال الماء من السماء، في انبثاق الحياة من الموت، وانبثاق الصبح من الظلام، وفي إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، في بدء الخلق، وإعادته، في القبض والبسط، في البعث والنشور، في النعمة

(١) سوف نعرض لهذه الآيات وغيرها عند بحثنا للصفات الإلهية بإذن الله ـ تعالى ـ.

(٢) الطحاوية ص٢٨.

والنقمة، في الجزاء والحساب، في النعيم والثواب، في كل حركة وانبثاقة، وكل تغير وتحور في عالم الغيب، أو في عالم الشهادة في هذا الوجود الكبير، ونادرًا ما يتحدث المنهج القرآني عن الذات الإلهية، والصفات في الصورة التجريدية التي تتحدث به الفلسفة، واللاهوت، وعلم الكلام)[1].

وقد ربط القرآن الكريم كل هذه المعاني، وغيرها بتوحيد اللَّه ـ تعالى ـ، فعرض هذه الدعوة ممثلة بجهد الأنبياء والرسل جميعًا الذين سبقوا بعثة الرسول ﷺ وسوف نعرض لهذا الجهد حسب البيان القرآني.

١ـ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ عَلَى لِسَانِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِياءِ السَّابِقِينَ:

يمثل هذا العرض في القرآن الكريم صورة حية من صور جهاد الأنبياء والرسل مع أقوامهم، وهو يهدف إلى تثبيت قلب الرسول ﷺ أمام كيد الكافرين، وعدائهم المتنامي، ثم هو يمثل أيضًا بيانًا شافيًا لمعنى الألوهية التي يعارضها هؤلاء المشركون، ويرفضون الإيمان بها، وهو نوع من التحذير لهؤلاء المكذبين من أن يحل بهم ما حل في الأمم السابقة بسبب كفرها، وشركها وعصيانها؛ حيث يقول ـ سبحانه ـ بعد عرضه لهلاك قوم لوط: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣]، وبعد أن ذكر قوم نوح،، وعاد، وثمود وقوم لوط، وآل فرعون عَقَّبَ ـ سبحانه ـ فقال مخاطبًا كفار مكة: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾، [القمر:٤٣].

أما عن دعوة الرسل السابقين ـ عليهم السلام ـ فإنها بدأت عندما انحرف الناس عن التوحيد، فمنذ خلق اللَّه آدم ـ عليه السلام ـ وأخذ عليه الميثاق، وبعد نزوله إلى الأرض، وما أعقبه من تناسل بين ذريته، كانت هذه الذرية موحدة مؤمنة حتى حصل الخلاف الذي نص عليه الكتاب العزيز بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي ص٤٢ـ ط١ـ١٤٠٦. دار الشروق، القاهرة.

فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

قال الإمام الطبري (ت:٣١٠): (اختلف أهل التأويل في معنى الأمة في هذا الموضع، وفي الناس الذين وصفهم اللَّه بأنهم كانوا أمة واحدة، فقال بعضهم: هم الذين كانوا بين آدم ونوح؛ وهم عشرة قرون، كلهم كانوا على شريعة الحق، فاختلفوا بعد ذلك، وعزا هذا القول لابن عباس، وقتادة[١]، ومجاهد)[٢][٣].

وقال الإمام الخازن (ت:٧٢٥): (أي على دين واحد، قيل هو آدم وذريته كانوا مسلمين على دين واحد إلى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا، وقيل كان الناس على شريعة واحدة من الحق والهدى من وقت آدم إلى مبعث نوح، ثم اختلفوا، فبعث اللَّه نوحًا وهو أول رسول بعث ثم بعث بعده الرسل)[٤].

● ويربط الكتاب العزيز بين الدعوة الخاتمة، ودعوات الرسل السابقين، وأولهم نوح - عليه السلام - فيقول - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء:١٦٣].

ويعرض القرآن الكريم لمهمة نوح الأساسية، فيقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَقَدۡ

(١) قتادة بن دعامة السدوسي، ولد وهو أعمى وكان من الحفاظ، توفى سنة١١٧هـ بواسط، انظر ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار ص٩٦.

(٢) مجاهد بن جبير، كان من العباد المتجردين والمفسرين، توفى سنة١٠٣هـ بمكة المكرمة، انظر ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار ص٨٢.

(٣) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٢ص٣٣٤. ط١٤٠٨هـ - دار الفكر، لبنان.

(٤) علاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل ج١ ص٢٠٠، ط١٣٩٩هـ - دار الفكر، لبنان، وانظر بهامشه تفسير معالم التنزيل للبغوي ص٢٠٠. نفس الناشر.

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، [المؤمنون:٢٣].

وقد أقام نوح بينهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، وقال ـ تعالى ـ واصفًا صبره على قومه وجهاده في دعوتهم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح:٥إلى ١٠].

ثم أخبره الله ـ تعالى ـ أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال ـ سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود:٣٦].

وقد ضرب هذا النبيُّ الكريم أعظم الأمثلة في البراءة من المشركين، وذلك باستغفاره، ورجوعه إلى الله عندما دعا الله بشأن ابنه، فقال ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود٤٧][1].

● ثم يعرض القرآن الكريم لنبي الله هود ـ عليه السلام ـ وجهاده في الدعوة لتوحيد

(١) انظر بشأن نوح: النساء١٦٣، الأعراف٦٩، التوبة٧٠، يونس٧١، هود٢٥،٢٦، ٢٧،٢٨،٢٩،٣٠،٣١،٣٢،٣٣،٣٤،٣٥،٣٦،٣٧،٣٨،٤٠،٤١،٤٢،٤٥،٤٦،٤٧،٤٨ن ٨٩، ابراهيم٩، الاسراء٣-١٧، مريم٥٨، الحج٤٢، الفرقان٣٧، الشعراء ١٠٥-١٠٦-١١٦، الأحزاب٧، الصافات ٧٥-٧٩، ص١٢، غافر٥-٣١، ق١٢، الذاريات٤٦، النجم٥٢، وسورة نوح بكاملها، وهذا على سبيل المثال لا الحصر، وهذا يبين مدى عناية القرآن بعرض جهود الأنبياء والرسل بهذه الضخامة لأخذ العبر والفائدة من اخلاص هؤلاء الأنبياء وبيان تعنت أقوامهم ثم صبر الأنبياء هذا الصبر العجيب.

اللَّه ـ تعالى ـ فيقول ـ جل جلاله ـ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠]، ثم يعقب القرآن على مصير قوم هود ـ عليه السلام ـ بعد نجاته، ونجاة المؤمنين معه، فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٩ـ٦٠][(١)].

● ويعرض القرآن الكريم لنبي اللَّه صالح ـ عليه السلام ـ وجهاده في الدعوة للتوحيد، فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، [هود: ٦١ـ٦٣]، ثم يخلص القرآن الكريم لإعطائنا صورة عن نهاية هؤلاء المكذبين فيقول ـ سبحانه ـ وتعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٦ـ٦٨][(٢)].

● ويعرض القرآن الكريم لنبي اللَّه شعيب ـ عليه السلام ـ وجهاده في الدعوة لتوحيد

---

(١) انظر بشأن هود هذه الآيات القرآنية: البقرة١١١، ١٣٥، ١٤٠، الأعراف٦٥، هود٥٠ـ٦٠، الشعراء١٢٤.

(٢) انظر في شأن صالح عليه السلام هذه الآيات القرآنية: الأعراف٧٣ـ٧٥، هود من ٦١ـ٤٨، النحل٤٥، التوبة٧٠، ابراهيم ، الاسراء٥٩، الحج٤٢، الفرقان٣٨، الشعراء١٤١، ص١٣، غافر٣١، ق١٢، الذاريات٤٣، النجم٥١، القمر٢٣، الحاقة٤ـ٥، البروج ١٨، الفجر٩، الشمس١١.

الله ـ عز وجل ـ فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] ثم يحذرهم من مصير من سبقهم من الأمم الكافرة، فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، ثم يأتيهم المصير الموعود لكل الأمم المكذبة؛ فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥](١).

● ويعرض الكتاب العزيز لأبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ ودعوته التوحيدية؛ حيث يشنها حربًا على الأصنام وكل المعبودات الباطلة، فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ

(١) انظر في شأن شعيب وقومه هذه الآيات: الأعراف ٨٥-٩٢، التوبة ٧٠، هود ٨٤-٩٥، العنكبوت ٣٦.

وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾، [الأنبياء: ٥١إلى ٧٢]. وقال - تعالى -: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾، [الشعراء: ٦٩إلى ٧٧].

وعندما حَاجَّهُ قومه في اللَّه، وأتاه اللَّه الحجة عليهم كان بذلك يعطي الصورة المثلى في إثبات بطلان الشرك، وسلامة معتقد التوحيد الذي يدعو إليه، قال - تعالى -: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾، [الأنعام: ٨٠إلى ٨٣][1].

ثم يضرب إبراهيم - عليه السلام - أروع الأمثلة عندما تبرَّأ من والده حينما تبين له أنه مشرك عدوٌ لله، فقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ

---

(١) انظر في شأن ابراهيم عليه السلام هذه الآيات: (البقرة١٢٤إلى١٤٠-٢٥٨إلى ٢٦٠، آل عمران ٣٣،٦٥ إلى٦٩، ٨٤،٩٨، النساء ١٢٥-١٦٣، الانعام ٧٤-٧٥- ٨٤، التوبة ٧٠-١١٤، الحج٢٦، ٤٣-٧٨، الصافات ٨٣-١٠٤،١٠٩، النجم٣٧، الحديد٢٦، الأعلى٤.

حَلِيمٌ﴾، [التوبة:١١٤].

● وحمل لواء الدعوة لتوحيد اللَّه وعبادته من بعده أولاده الأنبياء البررة إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ـ عليهم السلام ـ وغيرهم من الأنبياء والرسل الذين أجملت عقيدتهم الحقة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، [البقرة:١٣٣]، وقال ـ تعالى ـ على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:٣٧-٤٠].

● وقد اعتنى القرآن الكريم عناية كبيرة في الرسالتين اللتين سبقتا الرسالة الخاتمة ـ رسالة موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، فقد زادت آيات الكتاب العزيز التي تحدثت عن بني إسرائيل، وأنبيائهم، وانحرافاتهم، زادت على تسعمئة، وخمس وستين آية[١]. قال ـ تعالى ـ في شأن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ

---

(١) لقد أحصيت هذه الآيات في بحثي للماجستير والذي كان بعنوان (أثر الانحراف العقدي عند اليهود على الفكر الصهيوني المعاصر).

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ١٠ إلى ٥١].

وقد عرض القرآن الكريم لمعاناة موسى مع قومه؛ وذلك لكثرة انحرافاتهم وعصيانهم، ومن أبرزها ميولهم المستمر للشرك، فبعد أن خرجوا ذلك الخروج المعجز، وقد صار البحر لهم يبسًا، قال ـ تعالى ـ واصفًا موقفهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٨إلى ١٤٠].

وعندما ذهب لميقات ربه رجع موسى، ووجدهم عاكفون على عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري، قال ـ تعالى ـ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، [الأعراف:١٤٨][1].

وقد أفصح القرآن عن كل انحرافات اليهود، وكان هذا الإفصاح القرآني نوع من التعبئة العقدية، والفكرية للصحابة الكرام الذين سوف يلتقون مع اليهود في المدينة، وغيرها من البلدان، فكانوا ـ رضوان اللَّه عليهم ـ على علم كامل بكل انحرافات أتباع الأديان السابقة عليهم، فاعتصموا بكتاب ربهم، ولم تنفذ انحرافات الأمم السابقة إلا عندما تخلى المتأخرون عن منهج الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ وبدأوا يبحثون في تراث الإنسانية بزعمهم، وما زادهم ذلك إلا ضلالًا وانحرافًا.

● أما نبي اللَّه عيسى ـ عليه السلام ـ فقد وضعه القرآن الكريم في مكانه اللائق به، مبطلًا لمعتقدات النصارى حوله، وقد جاءت هذه الآيات على لسانه؛ لتبين عبوديته وتوحيده للَّه وحده، وأنه مرسل بهذا التوحيد الحق، وتأتي أهمية هذا البيان الرباني لرسول اللَّه ﷺ لتواجد النصارى، وقد كانت النصرانية قد امتدت شرقًا وغربًا كجزيرة العرب، وغيرها، وقادتهم الدينيون في مجامعهم يعدلون، ويزيدون في عقيدتهم المحرفة حول المسيح الذي عبدوه عبادة ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وما كان ـ عليه السلام ـ

---

(١) الآيات في شأن موسى وقومه يطول حصرها كما سبق وقلنا ولكن من أبرز السور التي تحدثت بكثرة عنه عليه السلام وعن قومه: البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الأنعام ـ الأعراف ـ يوسف ـ الشعراء ـ النمل ـ القصص ـ غافر ـ فصلت ـ الشورى ـ الأحقاف ـ النجم ـ الصف ـ والنازعات.

يرضى بهذا الانحراف، وهذه هي الآيات التي توضح دعوة عيسى لوحدانية الله - تعالى - تبعًا لإخوانه الرسل، والأنبياء - عليهم السلام -، قال - تعالى -: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

ويبين القرآن الكريم حقيقة عيسى - عليه السلام -، وحقيقة دعوته التوحيدية؛ فيقول - جلا جلاله - ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧١،١٧٢].

وحكم القرآن بالكفر على الذين ألَّهوا المسيح ابن مريم، فقال - سبحانه -: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، [المائد:١٧].

وقال - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، [المائدة:٧٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن

كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، [المائدة:١١٦، ١١٧][1].

إن هذه المعالجة الدقيقة من القرآن الكريم لسلوكيات الأمم السابقة على الإسلام تجاه الرسل، والأنبياء، وما رافقها من عرض لدعوة التوحيد، ولمواقف هذه الأمم تجاهها، كانت من الركائز الهامة لبناء جيل الصحابة الفريد الذي آمن حق الإيمان بهذا الدين وجاهد حق الجهاد في نصرته، واجتنبوا كل انحرافات وضلالات الأمم السابقة، فكانوا بحق أصحاب النبي الخاتم، وأتباع الرسالة الخاتمة التي قدمت النموذج الكامل المتكامل للبشرية في سلامة معتقدها، وصدق يقينها، وقد فهم الصحابة الكرام هذه المعاني، والمفاهيم الفهم العميق، ومما يُبْرِزُ هَذَا الْفَهْم ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله)[2].

وهذا يبين مدى عمق فهم الصحابة لمراد الله ـ عز وجل ـ في عدم تكرار الأخطاء مع أنبياء الله ـ تعالى ـ، وهذا لا يتأتى إلا من جيل فهم العقيدة ومتطلباتها من الجهاد في نصرتها، ورفع رايتها، وفهم مقام النبوة حق الفهم من السمع، والطاعة، والتوقير الحق لرسول الله ﷺ، فكانت هذه الصور المتنوعة من سير الأمم السابقة حافزًا للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ للظهور بمظهر الكمال الحق في المعتقد والسلوك، فكانوا

---

(١) انظر في شأن عيسى عليه السلام هذه الآيات القرآنية: (البقرة ٨٧-١٣٦-٢٥٣، آل عمران ٤٥-٥٢-٥٥-٥٩-٨٤، النساء ١٥٧-١٦٣-١٧١، المائدة ٤٦-٧٨- ١١٠-١١٢، ١١٤-١١٦، الأنعام٨٥، مريم٣٤، الأحزاب ٧، الشورى١٣، الزخرف٦٣، الحديد ٢٧، الصف٦، ١٤.

(٢) البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ح رقم٣٩٥٢، الفتح ج٧ ص٢٨٧.

كما أرادهم اللَّه ـ عز وجل ـ وأرادهم رسوله ﷺ وهم القدوة الكاملة لأجيال الأمة المسلمة إلى قيام الساعة.

٢ـ مَنْهَجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ:

بدأ النبي ﷺ دعوته سرًّا، وقد آمنت بدعوته التوحيدية نخبَةٌ مباركَةٌ من أبناء قومه، وغيرهم؛ كأبي بكرٍ الصديقِ، وعثمانَ بن عفان، وخديجة ـ رضي اللَّه عنها ـ وعلي بن أبي طالب، وبلال، وصهيب، وغيرهم ممن كان لهم شرف السبق لهذا الدين، وقد كانت أهم واجبات هذه الفترة هي تمكين العقيدة في نفوس الفئة المؤمنة، وكانت عند حسن الظن بها؛ فهي التي تليت عليها آيات الوحي غضة طرية، وآمنت بها الإيمان الصادق، وامتلأت صدورها حبًّا لها وإيمانها بها، فكان هؤلاء السابقون هم الأساس المتين القوي الذي بني عليه هذا الدين، وكانوا حماته، وأهل الفهم، والعلم فيما بعد عندما ادلهمت الخطوب، وبرزت الردة، والفتن، والأحداث العظيمة، وبقي الإسلام قويًّا عزيزًا بفضل اللَّه أولًا، ثم بفضل هؤلاء الرجال ذوي القلوب الحية المؤمنة التي كانت خلافتها وإمارتها توفيقًا من اللَّه حتى مرت العواصف الخطيرة التي كادت تودي بهذا الدين، وأتباعه المخلصين.

وقد حفل القرآن الكريم ببيان دعوة الرسول ﷺ وجهاده مع المشركين عندما جهر بالدعوة، روى ابن سعد (ت:٢٣٠هـ) عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: لما أُنزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء٢١٤]، صعد رسول اللَّه ﷺ على الصفا، فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ مُحَمَّدٌ عَلَى الصَّفَا يَهْتِفُ، فَأَقْبَلُوا، وَاجْتَمَعُوا، فَقَالُوا: ما لك يا محمد، قال: أَرَأَيْتكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنْ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، أنت عندنا غيرُ متهم، وما جربنا عليك كذبًا قط، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ يَا بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ بِنِ عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي زُهْرَةَ، حتى عدد الأفخاذ من قريش، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَ عَشِيْرَتِي الْأَقْرَبِينَ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنْفَعَةً، وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيبًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: يقول أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟، فأنزل اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ تَبَّتْ

يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، [السورة: كلها][(١)].

وقد روى البخاري هذه الحادثة عن أبي هريرة، فقال: قام رسول اللّه ﷺ حين أنزل اللّه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء٢١٤] قال: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ ابْنَ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)[(٢)].

ولكن هل كانت حادثة الإعلان هذه مفاجأة لقريش كما يفهم من مضمونها، وأنها إعلان لانتهاء المرحلة السرية من الدعوة إلى الإسلام، أم أن قريشًا قد علمت أن رسول اللّه ﷺ نبيٌّ، ولكنه لم يعلن الدعوة لعموم قريش، ونستطيع الإجابة عن هذا التساؤل بما يلي:.

فقد روى ابن سعد عن الزهري (ت:١٢٢هـ) قال: (دعا رسول اللّه ﷺ إلى الإسلام سرًّا وجهرًا، فاستجاب للّه من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه إن غلام بني عبدالمطلب ليُكَلَّمُ من السماء، فكان ذلك حتى عاب اللّه آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا لرسول اللّه ﷺ عند ذلك، وعادوه)[(٣)].

وقال ابن إسحاق (ت:١٥٣هـ): (فلما بادى رسول اللّه ﷺ قومه بالإسلام،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج١ص١٥٦، ت، محمد عبدالقادر عطا، ط١/١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، الروايتين عن ابن عباس وأبي هريرة برقم٤٧٧٠،٤٧٧١، الفتح جـ٨ص٥٠١.

(٣) ابن سعد ـ الطبقات ج١ص١٥٦، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية ج١ص٢٦٢، ط٢،١٣٧٥هـ، ت السقا، والأبياري، وشلبي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

وصدع به كما أمره اللَّه، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه، فيما بلغني، حتى ذكر آلهتهم، وعابهم، فلما فعل ذلك أعظموه، وناكروه، وأجمعوا خلافه، وعداوته، إلا من عصم اللَّه ـ تعالى ـ منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول اللَّه ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه، وقام دونه)(١).

إن هذين النصين يرجحان أن رسول اللَّه ﷺ قد اشتهر بين قريش أنه نبي، وأنه يكلم من السماء، فلما بادأهم بلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وترك عبادة الأصنام عادوه، وكرهوا دعوته، وهذه مرحلة جديدة من مراحل الدعوة؛ وهي الانتقال إلى هدم المعتقدات الباطلة، ومهاجمتها، حتى تنزع من قلوب الناس، وبهذه المرحلة دخل الإسلام في طور هام من أطواره الجهادية، وقد أثبت القرآن الكريم جملة واسعة من المناقشات التي حدثت بين الرسول ﷺ والمشركين، واليهود والنصارى، وقد كانت هذه المرحلة من المراحل الشاقة التي عاشها رسول اللَّه ﷺ وصحابته الكرام ـ عليهم رضوان اللَّه.

● وقد سلك القرآن الكريم مسالك عدة في عرض توحيد الألوهية على قريش وغيرهم، فمنها الدعوة ابتداء لتوحيد اللَّه وتعريفهم به، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١،٢٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾، [الأنعام:١٠٢].

وقال ـ تعالى ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال ـ تعالى ـ جامعًا شهادته، وشهادة الملائكة، وأولي العلم أنه واحد لا شريك له ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، [آل عمران:١٨].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية جـ١ ص٢٦٤.

● ومن مسالك القرآن في هذا الشأن بيان عقيدة التوحيد، ومهاجمة عقائد المشركين، وتسفيه معتقداتهم الباطلة، وقد جاء الكثير منها بصيغة قل يا محمد (عليه الصلاة والسلام)، مثال ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، [الأنعام: ٥٦].

وقال ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ ﴾، [الأنعام١٦١إلى١٦٤].

وقال ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، [يونس١٠٤إلى١٠٦].

وقال ـ تعالى ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، [يونس: ١٠٨].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، [النحل: ٥١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، [الزخرف: ٨١، ٨٢].

ويؤكد ـ سبحانه ـ ألوهيته وعبوديته لكل من في السموات والأرض، فيقول ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، [الزخرف: ٨٤].

وقال ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٤، ١٥].

ثم يبطل شرك المشركين بحاجتهم الفطرية لمن ينجيهم حقًّا من الكربة، فيقول - سبحانه -: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾، [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، [الأنعام: ٧١].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾، [النمل: ٥٩ إلى ٦٤].

• ومن مسالك القرآن الكريم في بيان عقيدة التوحيد وصف آلهة المشركين، ومعبوداتهم، وعجزها، قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، [المائدة:٧٦]. وقال ـ تعالى ـ مبينًا عجز آلهتهم الباطلة: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، [الأعراف:١٩١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس:٣٤،٣٥].

ويعيب القرآن الكريم اعتقاد المشركين واحتجاجهم بالمشيئة على كفرهم، وشركهم، ويبطل ذلك، فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥].

ويوجهه إلى القول لهم أنه بشر، وأنه يوحى إليه بوحدانية اللَّه وعبوديته وحده، قال اللَّه ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، [سبأ:٢٧].

ويؤكد وحدة جميع الرسالات السماوية، وأن هدفها الأساسي هو الدعوة لتوحيد اللَّه، وإفراده بالعبودية، فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومن مسالك القرآن في عرض توحيد الألوهية عرضه لشبه المشركين، والرد عليها ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، [البقرة:١١٨].

وقال ـ تعالى ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، [البقرة:١٧٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، [الأنعام:١٠٠،١٠١].

ولو أردنا استقصاء ما جاء به القرآن من مناقشات مع المشركين، وغيرهم لطال بنا المقام، ولكن المقصد هو تقرير الدعوة للألوهية، ومنهج النبي في عرضها مع ما سبق ذكره على ألسنة الأنبياء السابقين، فلم يترك القرآن الكريم مسلكًا، ولا قصة من قصص السابقين إلا وجعل توحيد الألوهية هو أساسها الذي بنيت عليه، فكان هذا البيان الشامل الواضح هو المدرسة التي تخرج منها الصحابة الكرام الذين لم تشهد البشرية لا يمانهم وإخلاصهم مثيلًا.

٣ـ عَقِيدَةُ الصَّحَابَةِ فِي تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ:

وقد سلك النبي ﷺ مع صحابته الكرام جميع المسالك المؤدية إلى الفهم، واليقين التام بهذا المعتقد، فقد أخبرهم ﷺ أن أول ما يطلب منهم هو توحيد اللَّه في عبوديته، وألوهيته، فعن عبداللَّه بن عمر رضي الله عنه (ت:٧٣هـ) قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ)[1].

فهذا التقرير النبوي يضع توحيد الألوهية الأساس الذي تبنى عليه عبادات الإسلام الأخرى، وَمَنْ لَمْ يُقِرَّ بهذا الأساس، فلا تصح منه صلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حج، فكانوا ـ رضوان اللَّه عليهم ـ متمسكين بهذا الأصل، وقد صبروا

---

(١) البخاري، كتاب الايمان، باب بني الاسلام على خمس، ح رقم٨،ج١ ص٤٩، مسلم الايمان، باب أركان الاسلام رقم١٦، المختصر جـ١ ص٢١.

على أذى قريش وتعذيبها لهم من أجله، وجاهدوا من أجله، وفتحوا الدنيا مشرقًا ومغربًا لنشر هذا الأصل، وتثبيت هذا الأساس الذي هو أصل الإسلام وميزته.

وأخبرهم ﷺ ابتداءً أنه لا يؤمن أحدهم حتى يؤمن بأربع، فعن علي بن أبي طالب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: (يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ)[١].

وأعلمهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن للإيمان باللَّه وتوحيده طعم لا يتذوقه إلا المؤمنون حقًّا، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا)[٢].

ومن مسالك تعليم الصحابة لأصول دينهم، ومعتقداتهم إفساح المجال أمامهم للسؤال والإجابة على هذه التساؤلات، ولقد كان النبي ﷺ يحثهم على السؤال، ويرغبهم فيه، فعن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فقام على المنبر، فذكر الساعة، فذكر أن فيها أمورًا عظامًا، ثم قال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ، فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا)[٣].

وعندما جاء جبريل يسأل رسول اللَّه ﷺ عن الإسلام والإيمان، والإحسان، وعلامات الآخرة، وعندما قام من عنده قال رسول اللَّه ﷺ: رُدُّوهُ عَلَيَّ فَالْتُمِسَ فَلَمْ

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره ـ ح رقم٢١٤٥ـ ج٤ ص٤٥٢، وقد صحح الحديث الترمذي رحمه الله، ط ـ المكتبة التجاري ـ مكة المكرمة.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالاسلام دينًا، ح رقم٣٤، المختصر ج١ص٢٧.

(٣) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال، ح رقم٥٤٠، الفتح جـ٢ ص٢١.

يَجِدُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعْلَمُوا إِذَا لَمْ تَسْأَلُوا)[١].

ولعل هذا اللقاء مع جبريل - عليه السلام - بهذه الهيئة في بداية الإسلام كان دافعًا للصحابة للسؤال عن أمور دينهم، وفي ذلك فتح مجال عام للسؤال، وعدم الحرج، أو التردد، أما النهي المشهور عن السؤال فهو نهي موجه إلى عدم السؤال تعنتًا، أو أن يكلف المسلمين ما ليس فيه تكليف أصلًا، يوضح ذلك ما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص، (ت:٥٥هـ) قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ)[٢].

قال الإمام الخطابي: (هذا الحديث فيمن سأل تكلفًا، أو تعنتًا فيما لا حاجة به إليه، فأما من سأل لضرورة بأن وقعت له مسألة، فسأل عنها، فلا إثم عليه، ولا عنت لقوله - تعالى -: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣])[٣].

فالسؤال المنهي عنه هنا هو عما لم يكن من التكاليف والأحكام، وليس عن مسائل العقيدة التي ثبت أنه سئل عنها على نطاق واسع كما في مسائل القدر، والمعاد والجنة والنار وغيرها، فقد روى الإمام الطبري قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، [آل عمران:٩٧] قالوا: يا رسول اللَّه، أفي كل عام؟ فسكت، ثم قالوا: أفي كل عام، فسكت، ثم قال: لَا، وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، فأنزل اللَّه - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، [المائدة:١٠١]، وفي رواية أخرى، فقال: من السائل: فقال فلان، فقال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قُلْتُ نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ مَا أَطَقْتُمُوهُ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ)، وفي رواية زاد: (اسْكُتُوا عَنِّي مَا سَكَتُّ عَنْكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)[٤].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب أشراط الساعة، النووي بشرح مسلم جـ١ص١٦٥.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، النووي بشرح مسلم ج١٥ ص١١٠.

(٣) المرجع السابق ج١٥ص١١١.

(٤) الطبري، جامع البيان ج٨ص٨٠، (وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص١٠٩،حيث=

وقد امتثل الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ لهذا النهي بالسؤال عن الأحكام المقررة، ولم يسألوا تعنتًا، ولا تكلفًا، ولكنهم سألوا عن أمور العقيدة، واستوضحوها، ولم يَبْقَ من مفاهيمها شَيْءٌ إلا وقد عقلوه، واعتقدوه الاعتقاد الصحيح، وتبرز هذه الأسئلة في مواطن شتى في مسائل القدر، والمعاد، والجنة والنار، وغيرها؛ فالسؤال إذًا ليس ممنوعًا على إطلاقه كما اعتقد المبتدعة الذين بنوا على هذا الأمر أن مسائل الصفات وغيرها لم يوضحها رسول اللَّه ﷺ، ولم يفهمها الصحابة الكرام.

● فمن الأسئلة عن توحيد الألوهية والعقيدة عمومًا سؤال جبريل للنبي ﷺ، وقد سبق سرد هذا الحديث في الفصل السابق، وهذه الأسئلة جاءت لتؤكد جملة من مسائل العقيدة عن الإسلام، وعن الإيمان والإحسان، والساعة وشروطها، وعقب النبي ﷺ (هَذَا جِبْرِيْلُ أَرَادَ أَنْ تَعْلَمُوا إِذَا لَمْ تَسْأَلُوا).

وعن أبي أيوب رضي الله عنه (ت:٥٢هـ) أن أعرابيًا عرض لرسول اللَّه ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: (يا رسول اللَّه، أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني عن النار، قال: فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه، ثم قال: لقد وفق، أو لقد هدي، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: (تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ)[1].

وعن عبداللَّه رضي الله عنه قال: «سألت رسول اللَّه ﷺ: أي الذنب أعظم عند اللَّه؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قال قلت: ثم أي؟ قال: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ) قال: قلت ثم أي؟ قَالَ: (أَنْ تُزَانِيَ حَلِيْلَةَ جَارِكَ)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تصديقها: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ

= وردت هذه الرواية في كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ (وكتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر ح رقم١٣٣٧، المختصر ج١ص٤٨٥).

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان الذي يدخل به الجنة، ح رقم١٣، المختصر ج١ ص٢١.

أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨][١].

● وبجانب سؤالهم - رضوان الله عليهم - عن التوحيد، ولوازمه، فقد كان الرسول ﷺ يعلمهم مقتضيات التوحيد عن طريق سؤالهم، وتعليمهم، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه «ت:١٨هـ» قال: (قال النبي ﷺ يا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قال: اللَّهُ ورسوله أعلم، قال: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟ قال: اللَّهُ ورسولهُ أعلم، قال: أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ)[٢]، وفي رواية قال: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، قال: يا رسول اللَّه، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلوا)، فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا)[٣].

● وقد بايع النبي ﷺ أصحابه الكرام على إخلاص التوحيد للّه وحده، وعدم الإشراك به، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه (ت:٣٤هـ) أن رسول اللّه ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: (بَايِعُونِي عَلَى أَن لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فبايعناه على ذلك)[٤].

وعن أبي إدريس الخولاني - رحمه اللّه - (ت:٨٠هـ) قال: حدثني الحبيب الأمين - أما هو فحبيب إلي، وأما هو عندي فأمين - عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب، ح رقم٨٦، المختصر ج١ ص٣٩.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله - ح رقم ٧٣٧٣، الفتح ج١٣ ص٣٤٧، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ح رقم٣٠، المختصر ج١ص٢٦.

(٣) قوله تأثمًا مخافة أن يلحقه الأثم لكتمانه العلم أو هذا الحديث.

(٤) البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ح رقم ١٨، الفتح ج١ ص٦٤، ومسلم، كتاب الحدود، باب قدر في أسواط التعزير ح رقم١٧٠٩، المختصر ج٢ ص٤٧.

رسول اللَّه ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول اللَّه؟ وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول اللَّه، ثم قال: ألا تبايعون رسول اللَّه؟ قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول اللَّه، فعلام نبايعك؟ قال: «أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَتُصَلُّوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَتَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا، وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - قال: (وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه»(١).

ولإبلاغ كلمة التوحيد، والنهي عن الشرك بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فعن عبداللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: لما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى نحو أهل اليمن قال له: إِنَّكَ تَقْدِمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ - تَعَالَى -، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ)(٢).

وبعث ﷺ بكتبه إلى ملوك الدنيا في زمانه داعيًا إلى التوحيد، ونبذ الشرك، والمعبودات الباطلة، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، [آل عمران:٦٤](٣).

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة ح رقم١٠٤٣، المختصر ج١ ص٣٧٢، والنسائي كتاب الصلاة، باب البيعة على الصلوات الخمس جـ١ ص٢٢٩.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ إلى التوحيد، ح رقم٧٣٧٢، الفتح ج١٣ ص٤٤٧، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين - ح رقم١٩، المختصر جـ١ ص٢٣.

(٣) محمد بن طولون الدمشقي، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ص٤٨، ط١ ١٤٠٣هـ، الرسالة - بيروت.

وكتب لكسرى ملك فارس: أما بعد: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران٦٤][1].

وكتب إلى هرقل ملك الروم: (بسم اللَّه من محمد عبداللَّه ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك اللَّه أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأَرِيسِيِّينَ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، [آل عمران: ٦٤][2].

وبعث بكتب الدعوة إلى التوحيد إلى المنذر بن ساوى العبدي ﷺ، ملك البحرين، وبعث إلى المقوقس ملك مصر، وإلى أغلب ملوك عصره في الجزيرة العربية وما جاورها[3]، فكانت هذه الكتب مسلكًا من مسالك التبليغ النبوي، وإقامة الحجة على جميع ملوك الأرض وعلى شعوبهم الذين توجهت جيوش الفتح الإسلامي لتحريرهم من الشرك والعبودية لغير الله، وتعبيدهم لله وحده.

● وهنا يظهر مسلك جديد من مسالك الدعوة لتوحيد اللَّه، وإفراده بالعبودية؛ وهو القتال في سبيل اللَّه؛ لتعبيد الناس لربهم، فعن عبداللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ (ت:٧٣هـ) قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ

(١) المرجع السابق ص٦١.

(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي، أوله باب ٦، ح رقم٧، الفتح ج١ص٣١، ومسلم كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، ح رقم١٧٧٣، المختصر جـ٢ص٨٠.

(٣) انظر تفاصيل هذه الكتب والتي بلغت تسعة وأربعين كتابًا ـ حيث استقصاها ابن طولون الدمشقي في كتابه إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، ت محمود الأرناءوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١/١٤٠٣هـ.

عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهَمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)(١).

وقد طبق النبي ﷺ هذا الأمر خير تطبيق، فغزا في تسعَ عشرة غزوة، في قتال المشركين من قريش، واليهود وغيرهم من العرب، وقال الإمام النووي ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ عن غزواته وسراياه: (فقد بلغت سبعًا وعشرين غزاة، وستًا وخمسين سرية، قالوا، قاتل في تسع من غزواته؛ وهي بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، وكانت أولى غزوة غزاها ذات العشير)(٢).

فكان هذا المسلك من أعظم المسالك في تحطيم قوى الطاغوت والعبودية التي تحول بين الناس وبين الإيمان باللَّه وحده، وعندما أزيلت هذه المعوقات دخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، وقد فهم الصحابة الكرام أهمية هذا المسلك، فانطلقوا يفتحون الدنيا شرقًا وغربًا، وكان من أعظم الصحابة فهمًا لهذا المسلك هو الصديق رضي الله عنه عندما ارتدت العرب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (لما توفي رسول اللَّه ﷺ واستُخلِف أبو بكر بعده، وكَفَرَ من كَفَرَ من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ؟)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ من فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عمر بن الخطاب: فواللَّه ما هو إلا أن رأيت اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد شرح صدر أبي بكر للقتال: فعرفت أنه الحق)(٣).

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا، ح رقم٣٥، الفتح ج١ ص٧٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، ح رقم٢٠، المختصر جـ١ ص٢٣.

(٢) مسلم، بشرح النووي ج١٣ص١٩٥، وانظر طبقات ابن سعد ج٢ص١ وما بعدها فقد استقصى جميع الغزوات مفصلة، وانظر البسوي، المعرفة والتاريخ ج٣ ص٣٠٠، د. أكرم ضياء العمري. أما القول بأنه غزا تسعة عشرة غزوة فهو في البخاري، كتاب المغازي باب كم غزا النبي ﷺ ح رقم٤٤٧١، الفتح ج٨ ص١٥٣، ومسلم ح رقم ١٢٥٤ في الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ، المختصر ج١ ص٤٥٩.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين ـ ح رقم٢٠، المختصر ج١ص٢٣.

ثم جاء الخلفاء من بعد أبي بكر رضي الله عنه وفتحوا الأمصار، وهدفهم الوحيد إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العالمين، ولنأخذ هذا النموذج الفريد على لسان ربعي ابن عامر ـ رحمه الله ـ (ت:٨١هـ) في كلمات قصيرة تعبر عن الهدف الأول لهذه الجيوش الفاتحة؛ حيث بعثه سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه إلى رستم (فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف، وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل، وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني؛ فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ (فقال اللَّهُ ابتعثنا لنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك، قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضى إلى موعود اللَّه، قالوا: وما موعود اللَّه؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي..)[١].

وكان الذي حدث مطابقًا تمامًا لما قاله هذا القائد المسلم، ففتح المسلمون الدنيا ونداؤهم الأول لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رُسُولُ اللَّهِ، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا موحدين للَّه، ومؤمنين به ـ سبحانه ـ، تاركين تلك الآلهة الباطلة التي كانوا يعبدونها.

وللعمل على تمام العبودية للَّه ـ تعالى ـ قام النبي ﷺ يوم الفتح المبارك بهدم الأصنام المحيطة بالكعبة الشريفة، فعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: (دخل رسول اللَّه ﷺ يوم الفتح، وحول الكعبة ستون وثلاثُ مِئَةِ نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا، (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)[٢].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية جـ٧ص٣٩، ط دار ابن كثير، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ح رقم ٤٢٨٧، الفتح ج٨=

وأرسل النبي ﷺ صحابته الكرام للإجهاز على الأوثان والأصنام المنتشرة في أرض الجزيرة، فبعث عليًّا لهدم مناة سنة ثمان للهجرة، فهدمها، وأخذ منها سيفين، ووهبهما النبي لعلي رضي الله عنه، وهدم عليٌّ أيضًا صنمَ طيئ المسمى الفلس، ويقال إنه أخذ السيفين منها[1]، وبعث خالد بن الوليد (ت: ٢١هـ) إلى هدم العزى، وقال له: (رأيت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات (شجرات)، فاعضد الأولى، فأتاها، فعضدها، فلما جاء إليه ـ عليه السلام ـ، قال: هل رأيت شيئًا، قال: لا قال فاعضد الثانية، فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي ﷺ، فقال: هل رأيت شيئًا، قال لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دبية بن حرمي الشيباني ثم السلمي، وكان سادنها، فلما نظر إلى خالد، قال شعره:

أَعَزَّاءُ شُدِّي شَدَّةً لَا تُكَذِّبِي عَلَى خَالِدٍ أَلْقِي الْخِمَارَ وَشَمِّرِي
فَإِنَّكِ إِلَّا تَقْتُلِي الْيَوْمَ خَالِدًا تَبُوئِي بِذُلٍّ عَاجِلًا وَتُنَصَّرِي

فقال خالد:

يَا عَزُّ كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكْ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكْ

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حممة، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره: فقال: تلك الْعُزَّى ولا عُزَّى بعدها للعرب، أما إنها لن تعبد بعد اليوم)[2].

وبعث المغيرة بن شعبة (ت: ٥٠هـ) إلى اللات التي كانت تعبدها ثقيف، فهدمها

= ص١٥، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة الشريفة، ح١٧٨١، المختصر جـ٢ص٨٩.

(١) هشام بن السائب الكلبي، الأصنام ص١٥ت أحمد زكي ط١٣٤٣/١هـ، مكتبة التراث، القاهرة.

(٢) الكلبي، الأصنام ص٢٥-٢٦.

وحرقها بالنار)(١).

وبعث جرير بن عبدالله البجلي (ت: ٥١هـ) إلى هدم ذي الخلصة، فعن جرير بن عبدالله البجلي قال: قال لي النبي ﷺ (ألا تريحني من ذي الخلصة، وكان بيتًا في خثعم يسمى الكعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فضرب رسول الله في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: اللَّهم، ثبته، واجعله هاديًا مهديًّا، فانطلق إليها، فكسرها، وحرقها، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ فقال رسول جرير: والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب، قال فبارك في خيل أحمس، ورجالها خمس مرات)(٢).

● وهكذا قام النبي ﷺ بهدم هذه المعبودات الباطلة، ونشر عقيدة التوحيد في كل الأنحاء، وقام الصحابة من بعده في كل غزواتهم، وفتوحاتهم بهدم أصنام البلاد المفتوحة حتى أصبح التوحيد الحق هو المهيمن على حياة المسلمين، ومن تمام حرصه ﷺ على صفاء العقيدة، ونقائها من التلوث بالشرك تحت عاطفة الحب، والحزن، والفراق حذرهم ﷺ وهو على فراش موته من اتخاذ قبره مسجدًا يعبد من دون الله، أو اتخاذ أي قبر آخر من قبور الصالحين، فقال ﷺ (عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعبدالله بن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح قميصًا له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال: ـ وهو كذلك ـ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا)(٣).

---

(١) المرجع السابق ص١٧، وانظر السيوطي، الدر المنثور ج٦ص١٤٠، ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة ١٤٠٦هـ.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذي الخلصة، ح رقم٤٣٥٦، الفتح ج٨ ص٧٠، وانظر كتاب الأصنام ص٣٧.

(٣) البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة ح رقم٤٣٥، الفتح ج١ص٥٣٢، ومسلم كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور، النووي بشرح مسلم ج٥ص١٢.

هذه لمحة موجزة عن جهاد النبي ﷺ في نشر دعوة التوحيد، وتمكينها في نفوس أتباعه، ونفوس من آمن بها من بعده، ولقد كانت هذه المسالك النبوية التي ذكرناها، في الأسطر الماضية تطبق في صور مثالية واقعية في عالم الوجود الذي عاشه الرسول ﷺ وأتباعه الكرام، ولقد بقيت الأمة على صفائها، ونقائها في العقيدة إلى أن انحرف من انحرف عن هذا المنهج النبوي السليم، وظهرت بدع الجهمية، والمعتزلة، والقدرية، ومن قبلهم الشيعة، والخوارج، ثم ظهرت الصوفية، وغيرها من فرق الابتداع، فبدلت في سلوكها، ومعتقداتها عن منهج النبوة، ولكن هذا المنهج بقي منارة حق على يد أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح، وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة.

* * * * *

الْفَصْلُ الثَّالِثُ
الصِّفَاتُ الإِلَهِيَّةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

١ـ تَمْهِيدٌ:

● لقد كانت الرسالة الربانية الخاتمة والممثلة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة هي النداء الرباني الخاتم على لسان الرسول ﷺ، وهو بهذا يمثل الكمال والتمام الذي لا يقبل الزيادة، ولا النقصان، وفي ذلك يقول المولى ـ جل جلاله ـ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة٣]، ووصف ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الرسالة الخاتمة بأنها أحسن ما أنزل الله على رسله، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر:٥٥]، ووعد الله ـ تعالى ـ بحفظ هذا الكتاب الخاتم من التحريف، والتبديل والتعطيل، والتشبيه، والضياع، فقال ـ سبحانه ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

وقد كانت آيات الصفات وأسماء الرب ـ سبحانه ـ من أعظم أهداف القرآن الكريم، فمقصود الرسالات الربانية هو تعريف العباد بربهم المعبود ـ سبحانه ـ، وقد حفل القرآن الكريم بهذا الجانب احتفالًا كبيرًا، فهو الغالب على آي القرآن وسوره الشريفة، وقد عرضت الصفات الإلهية بصور متعددة، وعرض الله ـ سبحانه ـ انحرافات الأمم السابقة، وحماقاتها محذرًا لهذه الأمة الخاتمة من تكرارها، فكانت هذه الأمة ممثلة بصحابة الرسول ﷺ، خير من فهم هذه الصفات الإلهية، وخير من عبد الرب عبادة كاملة، كيف لا، وقد وجد في القرآن هذا الرصيد الضخم من الآيات التي تعطي الإله الحق الصورة الكاملة التي يجب اعتقادها، وهذا الاعتقاد هو سبيل النجاة في الدنيا والفوز بأعلى الدرجات في الآخرة.

● وبجانب آي القرآن بوضوحه وسهولة فهمه، فقد جاءت السنة المطهرة بالحديث عن ذات الله ـ تعالى ـ وذكر أسمائه وصفاته، ورسول الله ﷺ أعلم الناس بربه،

وأفقههم بكتابه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم٣،٤]، ومن هنا تأتي القيمة العقدية الكبرى للأحاديث النبوية التي تحدثت عن الصفات الإلهية، ولقد كان الصحابة الكرام ـ رضوان اللّٰه عليهم ـ، يمثلون المرتبة الثانية بعد رسول اللّٰه ﷺ في الفهم واليقين، فهم الذين يتلقون عنه، وكانت أحاديث الصفات التي تأتي ضمن أحاديثه ﷺ تعطيهم فهمًا بديهيًا واضحًا سهلًا بعيدًا عن التعقيدات الكلامية والفلسفية التي اخترعها من رام مخالفة منهاج النبوة، ومنهاج الصحابة الكلام، فعطلوا وشبهوا وعقدوا طرق العقيدة السهلة التي فهمها الصحابة الكرام، وأدوها للتابعين من بعدهم.

ولقد كان الرسول ﷺ أعلم الناس بمراد الوحي الرباني وهو يقول هذا عن نفسه، فعن عائشة ـ رضي اللّٰه عنها ـ قالت: (صنع النبي ﷺ شيئًا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد اللّٰه ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء، أصنعه، فواللّٰه إني لأعلمهم باللّٰه، وأشدهم له خشية)[1].

فهو أعلم الخلق باللّٰه فيما يجوز عليه وما يستحيل في حقه، وأعلمهم بأسمائه وصفاته، وهذا العلم هو بمشيئة اللّٰه وكرمه وفضله عليه ﷺ قال اللّٰه ـ تعالى ـ ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]، وقال ـ تعالى ـ ممتننًا على نبيه بهذا الوحي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [القصص:٨٦].

وقد أمره اللّٰه ـ تعالى ـ بإكمال التبليغ، فقال ـ تعالى ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ح رقم٦١٠١، الفتح ج١٠ ص٥١٣، ومسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه الشريفة، ح رقم ٢٣٥٦، المختصر ج٢ص٢٩٣.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال ـ جل جلاله ـ: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة:٤٣-٤٧].

فهو بهذا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بَلَّغ مراد ربه ـ جل جلاله ـ، وأعظم مراده هو تبليغ العقيدة الحقة، ومن أهمها أسـماء اللّٰه وصفاته المعبود الحق لا إله إلا هو، وأحاديثه ﷺ هي وحي موافق للقرآن لا يتعارض معه أبدًا، وفي هذا يقول النبي ﷺ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَ مَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ)(١).

وروى ابن عبدالبر (ت:٤٦٣هـ) عن حماد بن زيد (ت:٩٨هـ) عن أيوب السختياني (ت:١٣١هـ) أن رجلًا قال لمطرف بن عبداللّٰه بن الشخير: (ت:٩٥هـ): (لا تحدثونا إلا بالقرآن فقال له مطرف: واللّٰه ما نريد بالقرآن بدلًا، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا)(٢).

إن الغرض من هذا التمهيد هو بيان أهمية الأحاديث النبوية الواردة في مسائل العقيدة، والصفات الإلهية، فالمتكلم بها هو أعلم الخلق باللّٰه ـ عز وجل ـ فلم يقل شيئًا إلا وقد وافق القرآن الكريم في ذكر كمالات الرب ـ سبحانه ـ، ونفي النقائص عنه، ونفي تشبيهه بخلقه ـ تعالى اللّٰهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ، وقد سمع الصحابة الكرام هذه الأحاديث وآمنوا بها، وفهموا مراد رسول اللّٰه منها، فوقفوا عندما وقف عنده القرآن والسنة بلا زيادة ولا نقص، ولا تأويل، ولا تعطيل، ولا تشبيه؛ فالصحابة ـ رضوان اللّٰه

(١) أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، بذل المجهود ج١٨ ص١٢٦، الترمذي، كتاب العلم، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله رقم ٢٦٦٣ ج٥ ص٣٧.

(٢) يوسف بن عبدالبر القرطبي، جامع بيان العلم وفضله ج٢ص٢٣٤، طبعة دار الفكر، بدون تاريخ.

عليهم - هم الذين رووا لنا أحاديث الصفات، وسمعها التابعون، وتابعوهم إلى يومنا هذا؛ فهي سلسلة الحق، والإيمان القائمة بأمر اللَّه، وستبقى هذه السلسلة هي الحجة على البشرية حتى يبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار.

وسوف نعرض عرضًا موجزًا لِلصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ في القرآن والسنة، ثم نعرض بعد ذلك لخصائص إيمان الصحابة بها من خلال ما توفر لدينا من نصوص تبين مواقفهم من بعض الصفات التي تكشف عن عميق فهمهم، وعلمهم بهذا الجانب الهام الذي أراد المبطلون من أتباع فرق الابتداع أن يلوثوا حقيقته الناصعة تبعًا لانحرافاتهم وبدعهم في العقيدة.

٢- الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الْمُثْبِتَةُ لِلصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ:

● إثبات صِفَةِ النَّفْسِ لِلَّهِ - تعالى -: قال - تعالى - ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال - تعالى - على لسان رسوله عيسى - عليه السلام -: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، [المائدة:١١٦].

وقد أثبت النبي ﷺ هذه الصفة للَّه - عز وجل -، فعن أبي هريرة ﷺ قال: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ - وَهُوَ وُضِعُ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ - إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِيَ)(١).

وقال ﷺ عن ربه في الحديث القدسي الجليل: يقول اللَّه - تعالى -: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)(٢).

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله - تعالى -: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ح رقم٧٤٠٤، الفتح جـ١٣ص ٣٨٤.

(٢) البخاري كتاب التوحيد، باب قوله - تعالى -: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ح رقم٧٤٠٥، الفتح جـ١٣، ص٣٨٤.

«إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعِلْمِ لِلَّهِ» ـ تعالى ـ: قال ـ تعالى ـ ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾، [النساء:١٦٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:١٤].

وقال رسول اللَّه ﷺ مثبتًا لهذه الصفة: (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ)[1].

وعن جابر بن عبداللَّه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن يقول: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مَنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الأَمْرَ ـ ثُمَّ يُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاقْدِرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ)[2].

● إِثْبَاتُ صِفَةِ الْحَيَاةِ وَالْقَيُّومِيَّةِ لِلَّهِ ـ تعالى ـ: قال ـ تعالى ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة ـ٢٥٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر:٦٥]، وأثبت النبي ﷺ هذه الصفة للَّه ـ عز وجل ـ؛ حيث كان يقول: «أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)[3].

---

(١) البخاري، ك التوحيد. ب. قوله ـ تعالى ـ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ح رقم ٧٣٧، الفتح ج١٣ص٣٦١.

(٢) البخاري. ك التوحيد. باب. قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ ح رقم٧٣٩١، الفتح ج١٣ص٣٧٥.

(٣) البخاري. ك التوحيد. ب. قوله ـ تعالى ـ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ح رقم ٧٣٨٣، الفتح ج١٣ص٣٦٨.

وفي رواية أنه كان يقول: (اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)(١).

● إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقُدْرَةِ لِلَّهِ - تعالى -: قال - تعالى -: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٤]، وقال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:٢٦]، وأثبت النبي ﷺ هذه الصفة كما في حديث الاستخارة السابق: (فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ)، وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي (مات في ولاية معاوية) (أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي يَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(٢).

● إِثْبَاتُ صِفَتَيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ: قال الله - تعالى -: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وقال - تعالى - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨]، وقال - تعالى - ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١]، وقال - تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤]، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

وقال - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) ﴾ [الشعراء:٢١٨،٢١٩]، وأثبت النبي ﷺ هاتين الصفتين لله - عز وجل -، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (ت:٤٤هـ) قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر: فكنا إذا علونا

---

(١) مسلم، ك. الذكر والدعاء. ب. جوامع الدعاء، رقم ٢٧١٧، المختصر ج٢ص٤٣٩.

(٢) مسلم، ك السلام. ب. استحباب وضع يده على موضع الألم، ح رقم ٢٢٠٢، المختصر ج٢ص٢٤١.

كبرنا، فقال: أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا؛ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا)(١).

وعن عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ أنها قالت لرسول اللّه ﷺ: (يا رسول اللّه: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُم يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيْلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، لَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ؛ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِم، قال: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ قَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ: إِنْ شِئْتَ أطبقت عليهم الأخشبين، فقال له رسول اللّه ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)(٢).

٦ـ «إِثْبَاتُ صِفَتَي الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ»: قال اللّه ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة:٤١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:٦٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى:٤٩ـ٥٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل:٩٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

---

(١) البخاري لك التوحيد ب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾، ح رقم ٧٣٨٦، الفتح ج١٣ ص٣٧٢.

(٢) مسلم لك الجهاد والسير. ب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، ح رقم١٧٩٥، المختصر جـ٢ص٩٥.

وأثبت النبي ﷺ هاتين الصفتين لله ـ تعالى ـ، فعن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ (ت: ٦٠هـ) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهُ»[1].

وسئل رسول الله ﷺ عَنِ الْعَزْلِ فَقَالَ: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ»[2].

وعن المشيئة قال عبدالله بن أبي قتادة (ت: ٩٥هـ) عن أبيه: (سرنا مع النبي ﷺ ليلة، فقال بعض القوم: لو عرست بنا يا رسول الله، قال: أخاف أن تناموا عن الصلاة، قال بلال: أنا أوقظكم، فاضجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام، فاستيقظ النبي ﷺ وقد طلع حاجب الشمس، فقال يا بلال أين ما قلت: قال ما ألقيت علي نومة مثلها قط. قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ»[3].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ لِلَّهِ ـ تعالى ـ»: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: ١٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤].

وأثبت النبي ﷺ هذه الصفة، فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال (كان لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ح رقم٧١، الفتح ج١ ص١٦٤، ومسلم كتاب الزكاة، باب اليد العليا خير من اليد السفلى ح رقم ١٠٣٧، المختصر ج ١ص ٣٧١.

(٢) مسلم، كتاب النكاح، باب الجماع والعزل، ح رقم ١٤٣٨، المختصر جـ١ ص٥٢٢.

(٣) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت، ح رقم٢٩٥، الفتح ج٢ص٦٦.

بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فأتيت رسول اللَّه ﷺ فعظم ذلك علي: قلت يا رسول اللَّه، أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين اللَّه؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول اللَّه، قال: أعتقها؛ فإنها مؤمنه)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ، رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي، فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ، وَهُمْ يُصَلُّونَ)(٢).

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ للَّهِ ـ تعالى ـ»: قال اللَّه ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦].

وأثبت النبي ﷺ هذه الصفة للَّهِ ـ تعالى ـ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقِ كَلِمَتِهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ)(٣).

وعن خولة بنت حكيم ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ

(١) مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ـ ح رقم ٥٣٧، المختصر ج١ص٢٠٠.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ـ تعالى ـ ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ح رقم ٧٤٢٩، الفتح ج١٣ ص٤١٥، ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، ح رقم٦٣٢، المختصر ج١ص٢٣٠.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾ ح رقم ٧٤٦٣، الفتح ج١٣ ص٤٤٢.

حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)(١).

● «إِثْبَاتُ صَفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ ـ تعالى ـ»: قال اللَّه ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨].

وقال رسول اللَّه ﷺ: (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظروا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدَنٍ)(٢).

وعن جابر بن عبداللَّه ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: لما نزل على رسول اللَّه ﷺ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾، [الأنعام:٦٥] قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥] قال: «هَاتَانِ أَهْوَنُ، أَوْ أَيْسَرُ»(٣).

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعَيْنِ لِلَّهِ ـ تعالى ـ»: قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه:٣٩]، وقال ﷺ في معرض تحذيره الدجال الذي يزعم أنه إله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَي كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»(٤).

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْيَدَيْنِ وَالْيَمِينِ لِلَّهِ ـ تعالى ـ»: قال ـ تعالى ـ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ

---

(١) مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الدعوات والتعوذ ـ ح رقم٢٧٠٨، المختصر ج٢ص٤٣٧.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، سورة الرحمن ـ ح رقم٤٨٧٨، الفتح ج٨ص٦٢٣، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم، ح رقم١٨٠، المختصر ج١ ص٨٢.

(٣) البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾، ح رقم٧٣١٣، الفتح ج١٣ ص٢٥٥.

(٤) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾، ح رقم٧٤٠٧، الفتح ج١٣ ص ٣٨٩.

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال رسول الله ﷺ: «يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ؛ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ الْمَلَائِكَةَ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا»(١).

وقال - عليه الصلاة والسلام -: (يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ»(٢)، وأخبر رسول الله ﷺ أن كلتا يديه يمين - سبحانه وتعالى -: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا)(٣).

● إِثْبَاتُ صِفَتَيِ الْحُبِّ وَالْكُرْهِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾، [البقرة: ١٩٥]، وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، [آل عمران: ٣١]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»(٤).

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله - تعالى -: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾، ح رقم٧٥١٦، الفتح ج١٣ ص٤٧٨.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ح رقم٦٥١٩، الفتح ج١١ص٣٧٢، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ح رقم٢٧٨٨، المختصر ج٢ ص٤٨٢.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الإمام العادل رقم ١٨٢٧، المختصر جـ٢ ص١١٧.

(٤) البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ح رقم ٦٥٠٨، الفتح ج١١ ص٣٥٧. ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ح٢٦٨٣، المختصر ج٢ص٤٢٨.

وقال رسول الله ﷺ: «الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَبْغَضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ، أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ، أَبْغَضَهُ اللَّهُ»(١).

● إِثْبَاتُ صِفَتَي الرِّضَى وَالْغَضَبِ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [البينة:٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا، وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(٢).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ لَقِيَ اللَّهَ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»(٣).

«إِثْبَاتُ أَنَّ لِلَّهِ عَرْشًا وَكُرْسِيًّا»، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الفرقان:٥٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كان النبي ﷺ يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار، ح رقم٣٧٨٣، الفتح ج٧ ص١١٣.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، ح رقم ٧٥١٨، الفتح ج١٣ ص٤٨٧، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها أوله، ح رقم٢٨٢٩، المختصر ج٢ص٤٨٩.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، ح رقم٧٤٤٥، الفتح ج١٣ ص٤٢٣. ومسلم، كتاب الأيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجره بالنار، ح برقم١٣٨، المختصر جـ١ص١٤٥.

السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: لا تخيروني عن موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جنب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى اللَّه)(٢).

● إثبات صفة الساق: قال اللَّه ـ تعالى ـ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ (ت:٦٤هـ) في حديثه الطويل عن رؤية اللَّه عز وجل عن رسول اللَّه ﷺ قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد للَّه رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا)(٣).

٣ـ صِفَاتٌ إِلَهِيَّةٌ انْفَرَدَتِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ بِإِثْبَاتِهَا:

● إِثْبَاتُ صِفَةِ الذَّاتِ: فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ إِلَّا ثَلَاثَ كِذْبَاتٍ: ثِنْتَانِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾(٤)، وفي رواية مسلم: (وَوَاحِدَةٌ

---

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، ح رقم٦٣٤٦، الفتح ج١١ ص١٤٥. ومسلم كتاب الذكر والدعاء ـ باب دعاء الكرب ج رقم ٢٧٣٠المختصر ج٢ ص٤٤٣.

(٢) البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر من الأشخاص ح رقم٢٤١١، الفتح ج٥ ص٧٠، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام ح رقم٢٣٧٣، المختصر ج٥ص٣٠٢.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ح رقم ٧٤٣٩، الفتح ج١٣ص٤٢١.

(٤) البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ح رقم ٣٣٥٨، الفتح جـ٦ص٣٨٨.

فِي شَأْنِ سَارَةَ)[١].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ النُّزُولِ»: وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: (يَنْزِلُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبْ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَه)[٢].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَدَمِ لِلَّهِ» - عَزَّ وَجَلَّ -: فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ يَا رَبِّ مَا لَهَا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ يَعْنِي أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا قال: فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهَا، فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، ثَلَاثًا، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَمْتَلِئُ وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ قَطْ قَطْ قَطْ)[٣].

وفي مسلم: (فَأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّى يضعَ اللَّهُ - تبارك وتعالى - رِجْلَهُ عَلَيْهَا تَقُولُ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيزوي بَعْضُها إِلى بعضٍ)[٤].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْأَصَابِعِ لِلَّهِ - تعالى -»: فعن عبداللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ عنهما أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: (إِنَّ قلوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثم قال رسول اللَّه ﷺ: اللَّهُمَّ، مُصَرِّفَ

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب في فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، ح رقم٢٣٧١، المختصر ج٢ص٢٩٩.

(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب رحمة الله سبحانه وتجليه على عباده المؤمنين، ح رقم٧٥٨، مختصر ج١ص٢٧٤.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ح رقم٧٤٤٩، الفتح جـ١١ ص٤٣٤.

(٤) مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب صفة جهنم أعاذنا الله منها، ح رقم ٢٨٤٦، مختصر ج٢ص٥٠٣.

الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)[١].

وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - (أَنَّ يُهودِيًّا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يمسكُ السماوات على إصبع والأرضين والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع ثم يقول: أنا الملك، فَضَحِكَ رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وفي رواية: فَضَحِكَ رسولُ اللهِ ﷺ تعجبًا وتصديقًا له)[٢].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَيْرَةِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»: فَعَن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (ت: ٥٠هـ) قال: قال سعد بن عبادة (ت:١٧هـ) لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَواحشَ ما ظَهَرَ منها ومَا بَطَنَ، ولَا أحد أحب إليه العذر من اللَّه، ومن أجل ذلك بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ والمنذرينَ وَلَا أَحَدَ أَحَبَّ إليه المدحة من اللَّه؛ ومن أجل ذلك وعد اللَّه الجنة»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ ما حَرَّمَ اللَّهُ)[٤].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْفَرَحِ لِلَّهِ - تعالى -»: «فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا، وَبِهِ مَهْلِكُهُ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاستيقَظَ وقد ذَهَبَتْ راحلتُهُ حتى اشتَدَّ عليهِ

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله - تعالى - كيف شاء، ح رقم٢٦٥٤، مختصر ج٢ص٤١٨.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله - تعالى -: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ح رقم٧٤١٤، الفتح ج١٣ص٣٩٣، ومسلم، كتاب صفة القيامة - أوله ح رقم ٢٧٨٦، المختصر ج٢ص٤٨٢.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ﷺ (لا شخص أغير من الله) ح رقم ٧٤١٦، الفتح ج١٣ ص٣٩٩.

(٤) مسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله، ح رقم٢٧٦١، مختصر ج٢ص٤٥٦.

الحرُّ والعَطَشُ، أَوْ ما شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ، فنام نَوْمة ثُم رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ)[١]، وَفِي رِوَايَة مسلم: (فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة العبدِ مِنْ هذا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ)[٢].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعَجَبِ لِلَّهِ ـ تعالى ـ»: (فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَومٍ يَدْخُلونَ الجنَّةَ في السَّلَاسِلِ»[٣]، وقال النبي ﷺ للرجل الذي أخذ الضيف وأَطْفَأَ السِّرَاجَ، وَأَكْرَمَ ضَيْفَهُ، هُوَ وَزَوْجَتُهُ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيفِكُمَا اللَّيْلَةَ)[٤].

● «إِثْبَاتُ صِفَةِ الضَّحِكِ لِلَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ»: في الحديث الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ فيقول: اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: (وَيْلَكَ يَا بْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ، فَيُقَالُ أَيْ رَبِّ لاَ أَكُونُ أَشقَى خَلْقِكَ، فَلا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَينِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْتَشْهَدُ»[٦].

هذه جملة من الصفات الإلهية ليست على سبيل الحصر والاستقصاء، أوردناها من الكتاب والسنة، وهي كثيرة جدًّا فقد وصف اللَّه ـ تعالى ـ نفسه الشريفة بأوصاف

---

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، ح رقم٦٣٠٨، الفتح جـ١١ص١٠٢.

(٢) مسلم، كتاب التوبة، أوله، ح رقم٢٧٤٤، المختصر ج٢ص٤٥٠.

(٣) البخاري، كتاب الجهاد، باب الساري في السلاسل، ح رقم٣٠١٠، الفتح ج٦ ص١٤٥.

(٤) مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف، ح رقم٢٠٥٤، المختصر جـ٢ص١٩٣.

(٥) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ح رقم٧٤٣٧، الفتح ج١١ص٤٢٠، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، ح رقم١٨٢، المختصر ج١ص٨٢.

(٦) البخاري، كتاب الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم، ح رقم٢٨٢٦، الفتح ج٦ص٣٩.

كثيرة؛ مثل: قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٣-٢٤].

٤- خَصَائِصُ إِيمَانِ الصَّحَابَةِ فِي الصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ:

لقد نزل الكتاب العزيز وجاء النبي الخاتم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالصورة الصحيحة الكاملة عن الإله الحق ـ سبحانه ـ، وجاءت النصوص القرآنية والنبوية بأحسن ما يمكن أن تأتي به واضحة لا لبس ولا غموض فيها، وفي ذلك يقول المولى ـ جل جلاله ـ ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، [الزمر:٥٥]، وإن من غاية الحسن في هذا الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما وصف به الرب ـ سبحانه ـ من صفات الكمال والجلال، التي تعهد اللَّه بحفظها، فكانت هذه الصفات الربانية تامة كاملة، وقد اختص اللَّه بها خير خلقه وصفوته من البشرية جمعاء صحابة رسول اللَّه ﷺ الذين نزل عليهم الوحي غضًّا طريًّا، فعاصروا أحداثه وأسباب نزوله، ففهموا مراد ربهم ـ سبحانه ـ ومراد رسوله ﷺ فكان ذلك الجيل المبارك خير من سمع، وخير من آمن وخير من فهم، وخير من بلغ لمن بعده تمام التبليغ، فلا عجب أن تتطلع الأعناق إلى مستواهم، أو تنتسب إليهم، وتتلمس منهجهم الحق في كل مسائل الاعتقاد.

ولا عجب أيضًا أن ينطلق الحاقدون، فيشوهوا ذلك الجيل، ويثيروا الشبهات الباطلة حول معتقده الحق، ويزعمون عليهم المزاعم الباطلة؛ لأنهم رأوا فيهم الأساس الذي قام عليه هذا الدين الذي فدوه بمهجهم، ودمائهم الغالية، وكان التاريخ شاهد حق على بقاء تلك القمة السامقة منارة لأجيال الأمة لاتباع منهجهم، وتتبع سبيلهم في كل شئونهم، ولعل أعظم ما تركوه لنا (وكل ما تركوه عظيم) صفاء العقيدة، ونقاء الإيمان وتعظيم ربهم المعبود، بعيدًا عن الآراء، والفلسفات الباطلة، فأخذوا من النبع الإلهي

الذي كانت أعظم روافده السنة المطهرة بتوجيهات الرسول ﷺ العقدية وتفسيراته للكتاب المنزل، فوقفوا عند هذا النبع الصافي ينهلون منه العقيدة الصافية التي لم تتلوث بأقاويل الرجال، وتحريفات أهل الملل والأديان الذين فقدوا التصورات الصحيحة عن الإله المعبود.

وقد وصف القرآن الكريم عميق إيمانهم، وتأثرهم بالوحي المنزل على رسولهم ﷺ فقال - سبحانة وتعالى -: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال - تعالى -: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح:٢٩].

وقد أخبر النبي ﷺ أن أصحابه أمنة لهذه الأمة بما يحملون من سلامة المعتقد الحق، والاستقامة الصادقة على أمر اللَّه - تعالى - فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (صلينا المغرب مع رسول اللَّه ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: ما زلتم ههنا؟ قلنا يا رسول اللَّه، صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء قال: أَحْسَنْتُمْ، أَوْ أَصَبْتُمْ، قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: النجوم أمنة للسماءِ، فَإِذَا ذهبَتِ النجومُ أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)[1] قال الإمام النووي: قال العلماء: معنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية، فالسماء باقية، فإذا انكدرت

---

(١) مسلم - كتاب الفضائل - باب أن بقاء النبي أمنة لأصحابه ح رقم٢٥٣١ المختصر ج٢ص٣٧٢.

النجوم، وتناثرت يوم القيامة، وهنت السماء، فانفطرت، وانشقت، وذهبت، وقوله ﷺ: وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون أي: من الفتن، والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك، وقوله ﷺ: وأصحابي أمنة لأمتي؛ فإذا ذهب أصحابي، أتى أمتي ما يوعدون معناه: ظهور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم[1].

وقد كان الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ أمنة للأمة في صفاء عقيدتها وجميع تصوراتها؛ حيث عاش من عاش منهم، ونشروا العلم، وبلَّغوا للتابعين أحاديث رسول اللَّه ﷺ في كل مسائل العقيدة والشريعة، وساد عصرهم الوفاق العقدي بين الأمة، وفي أواخر عصرهم برزت فرق الضلال المنكرة للقدر، فردوا عليهم، وعندما اتسع نطاق الابتداع، وبرزت المرجئة، والجهمية، وغيرها، وكان علماء السلف يعتمدون في إبطال البدع بما تلقوه عنهم من أحاديث رسول اللَّه، ومن أقوالهم في تفسير كتاب اللَّه، ومن قبل هذا، وكله من نصوص الكتاب والسنة، فكانوا ـ رضوان اللَّه عليهم ـ أمنة للأمة من المعطلة، والنفاة، والمشبهة، ومن جميع أهل البدع؛ فهم المنارة التي يُهتدى بها في الظلمات.

وقد كان عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة الكرام ينبهون الناس إلى ضرورة اتباع منهج الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ؛ حيث يقول «من كان منكم متأسيًا، فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، قومًا اختارهم اللَّه لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[2].

وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (ت:٣٥هـ) يدخل المسجد، فيقف على الحِلَق، فيقول: يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن

---

(١) النووي: شرح مسلم ج١٦ص٦٣، ط٢ ـ ١٣٩٢هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) ابن عبد البر ـ جامع بيان العلم وفضله ج٢، ص١١٩.

أخذتم يمينًا، وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا(١).

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلسًا إلا ويحذر من الابتداع في الدين، فيقول: (اللَّه حكم قسط هلك المرتابون، إن وراءكم فتنًا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن، والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير والكبير، والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول للناس: ألا تتبعوني، وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، ويقول المنافق كلمة الحق(٢).

وقد بلغ من صفات عقيدتهم وسلامة سلوكهم أنهم كانوا يقارنون الأحوال التي عاشوها مع رسول اللَّه ﷺ، وأحوال عصرهم المتأخر؛ حيث يقول أنس رضي الله عنه: (إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ الموبقات) قال أبو عبداللَّه: يعني بذلك المهلكات)(٣).

لقد كان العهد الذي عاشوه مع رسول اللَّه ﷺ يمثل الكمال كله في مسائل العقيدة والشريعة، فلما ظهرت الفتن والأحداث العظيمة وأطلت البدع برأسها في أواخر حياتهم كانوا هم المرجع الذي رجع إليه علماء السلف في رد البدع، وأقوال أربابها المخالفة لمنهجهم الحق، ويمكننا إعطاء هذه الصورة الموجزة عن طبيعة البيان القرآني والنبوي في عرض الصفات الإلهية التي آمن بها الصحابة الكرام واعتقدوها الاعتقاد الحق؛ وهو المعتقد الحق الذي اعتقده التابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، وهو المنهج الذي هيمن على جمهور الأمة بالرغم من كثرة فرق الابتداع التي طرحت بدعها المخالفة لهذا المنهج ـ طرحًا معاديًا لمعتقدهم وما أثر عنهم.

---

(١) محمد بن وضاح القرطبي البدع والنهي عنها ص١٧ـ ت محمد دهمان ط١، ١٤١١، دار الصفا ـ القاهرة.

(٢) أبو بكر الطرطوشي ـ الحوادث والبدع ص١٠٣ـ ت عبدالمجيد تركي ط١/١٤١٠هـ ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.

(٣) البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب ما يتقى من المحقرات ح رقم ٦٤٩٢/ الفتح ج١١ص٣٥٩.

● «شُمُولِيَّةُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ»: لقد حفل القرآن الكريم بذكر أسماء اللَّه وصفاته، وكمالاته إلى حد يفوق الحصر؛ فلا تكاد تخلو الآلاف من الآيات القرآنية من ذكر هذه الصفات والكمالات في أوائلها، أو أثنائها، أو أواخرها، إما متناثرة في تلك الآيات، وإما بجمع بعضها لهذه الآيات وتلك، وبأساليب متنوعة، واحتفال القرآن بذكر صفات اللَّه وكمالاته على هذا النحو حقيقة لا يخطئها من يقرأ القرآن، ويتدبر آياته؛ بحيث لا يحتاج هذا الأمر إلى ذكر نماذج لهذه الحقيقة القرآنية؛ لأنها تنتظم معظم آيات القرآن الكريم، ولا يقتصر ذكر القرآن للصفات الإلهية على الآيات التي يكون موضوعها الحديث عن ذات اللَّه وصفاته، بل كثيرًا ما تختم بهذه الصفات الآيات التي يكون موضوعها الدعوة إلى عبادة اللَّه ـ تعالى ـ، وبيان هذه العبادات، وآثارها الفردية والاجتماعية.

أو الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة، والحض عليها، وبيان نتائجها، وآثارها، وكذلك الآيات التي تتناول نظام المجتمع في مختلف جوانبه السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والتشريعية؛ فلا تكاد تخلو أغلب آيات القرآن الكريم التي ترافق عرض هذه الموضوعات من التذكير بصفات اللَّه ـ تعالى ـ التي ينبني عليها ضرورة التمسك بهذه التوجيهات الإلهية والتحذير من مخالفتها، هذا بالإضافة إلى الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر بكل ما فيه من البعث، والحشر، والعرض، والجزاء، والجنة، والنار ترغيبًا في ثواب اللَّه ورضاه، وتحذيرًا من غضبه، وعقابه، فعلى أساس الكثير من الصفات الإلهية التي تذكر في هذه الآيات يقوم الترغيب والترهيب، وإثبات كل ما يتناوله اليوم الآخر من معتقدات.

● إن هذا العرض الموسع للصفات الإلهية في الكتاب العزيز جعل الإيمان بها، وفهم المراد الإلهي منها مسألة بَدَهِيَّة، لا تحتاج إلى خوض فيها، أو شرح وزيادة بيان، وقد أوقف القرآن الكريم والسنة النبوية هذا العرض عند حدود معينة؛ حيث فيها إثبات للصفات بمعانيها المعروفة لغة، ولم يتعد ذلك إلى الكشف عن الكيفية، فالتزم الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ بالمنهج القرآني والنبوي، ولم يقعوا في النفي والتشبيه كما وقع

غيرهم ممن لم يلتزم بهذا المنهج الرباني، فاعتقدوا ـ رضوان اللَّه عليهم ـ المعتقد الحق في الصفات الإلهية وورث هذا المنهج الحق منهم التابعون وتابعوهم بإحسان.

● يُلَاحَظُ فِي الْعَرْضِ القرآني، والنبوي أن الإثبات جاء بصورة واسعة النطاق، وأن النفي جاء في مسائل محدودة لتنزيه الرب ـ سبحانه ـ عن النقائص التي نسبها إليه أهل الأديان السابقة، والمشركون فالإثبات مفصل والنفي مجمل، وقد وضع القرآن الكريم الأساس المتين للصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ بتحذيرهم من حماقات الأمم السابقة، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة:١٠٦ إلى ١٠٨].

وهذا المعتقد أي الإثبات المفصل للصفات الإلهية هو الذي اعتقده الصحابة والتابعون وتابعوهم بخلاف المبتدعة الذين امتدت ألسنتهم الآثمة إلى الصفات الإلهية بالتعطيل والتأويل، والتشبيه، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: (وقد عَلَّمَ النبي ﷺ أمته هذا التوحيد، والقرآن مملوء منه، ولم يقل لهم كلمة واحدة تتضمن نفي الصفات، ولا قال ذلك أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين مع العلم الضروري بأنهم كانوا أعلم بمعاني القرآن منا، وإن ادعى مدعٍ تقدمه في الفلسفة عليهم، فلا يمكنه أن يدعي تقدمه في معرفة ما أريد به القرآن عليهم، وهم الذين تعلموا من الرسول ﷺ لفظه ومعناه، وهم الذين أدوا ذلك إلى من بعدهم، قال أبو عبدالرحمن السلمي (ت:٧٤): حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن، عثمان بن عفان وعبداللَّه بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول اللَّه ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم والعمل[1].

---

(١) ابن تيمية ـ نقض تأسيس الجهمية جـ١، ص٢٢٠.

● فَالإِثْبَاتُ الْمُفَصَّلُ هو ما قررناه من هيمنة الصفات الإلهية على معظم آيات الكتاب العزيز، والنفي المجمل يبين محدوديته هذا العرض الذي اقتبسناه من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فقد عرض القرآن الكريم للتصورات الباطلة لليهود والنصارى والمشركين عن اللَّه - تعالى -، فقال - سبحانه وتعالى - عن بعض حماقات اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وزعمت اليهود أن للَّه ولدًا - سبحانه وتعالى - عن قولهم، فقال - سبحانه -: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، [التوبة: ٣٠]، وزعموا - لعنهم اللَّه - أن اللَّه فقير وهم أغنياء قال - تعالى -: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال - تعالى - ردًّا على مزاعم اليهود الذين قالوا: إنه استراح يوم السبت - سبحانه - عن ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وقال - تعالى - ردًّا على شبه النصارى، وأكاذيبهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال - سبحانه - ردًّا على هذه المزاعم الباطلة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، وقال - تعالى -: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وأبطل القرآن تصورات المشركين عن الإله الحق، فقال - سبحانه -: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، [النحل: ٥٧]، وقال - تعالى -: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]، وقال - تعالى -: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقال - تعالى -: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

وقال - تعالى -: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ

﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٥٠إلى١٨٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] وقال ـ تعالى ـ واصفًا نفسه بالكمال والجلال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص].

والسنة المطهرة تابعت القرآن الكريم في الإثبات المفصل والنفي المجمل؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله ﷺ فقال: إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ ـ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى

إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[١].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: (ذُكِرَ الدجالُ عند النبي ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[٢].

● وقد آمن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من خلال هذا العرض المفصل الواسع بأن آيات الصفات هي من المحكم، وليست من المتشابه كما افترى المبتدعة فيما بعد، وهذا الإحكام جاء من خلال سهولة معانيها وإن السلف تعرضوا لتفسيرها التفسير الذي يثبت الصفة، ولا يتعرض لبيان الكيفية، يقول شيخ الإسلام بعد أن يعرض قول الرازي حول سورة الإخلاص: (هذه السورة يجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات، ولأنه ـ تعالى ـ جعلها جوابًا عن سؤال السائل عند الحاجة؛ وذلك يقتضي كونها من المحكمات لا من المتشابهات، وإذا ثبت هذا وجب الجزم بأن كل مذهب يخالف هذه السورة كان باطلًا ـ ويجيب شيخ الإسلام، فيقول: كون هذه السورة من المحكمات، وكون كل مذهب يخالفها باطل هو حق لا ريب فيه، بل هذه السورة تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، وهي صفة الرحمن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وعليها اعتمد الأئمة في تنزيه الله كما ذكره القاضي عياض، والإمام أحمد، وغيرهم من أئمة الإسلام، لكن سائر الآيات المذكورة فيها أسماء الله وصفاته؛ مثل آية الكرسي، وأول الحديد وآخر الحشر، ونحو ذلك هي كذلك ـ كل ذلك من الآيات المحكمات، لكن هذه السورة ذكر فيها ما لم يذكر في غيرها من اسمه الأحد، الصمد، ومثل نفي الأصول والفروع، والنظراء جميعًا، وإلا فاسم الرحمن أنزله الله لما أنكر المشركون هذا الاسم فأثبته الله لنفسه؛ ردًّا عليهم،

---

(١) مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان معنى قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ح رقم ١٧٩ـ المختصر ج١، ص٨١.

(٢) البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ ح رقم٧٤٠٧/الفتح جـ١٣، ص٣٨٩.

وهذا أبلغ في كونه محكمًا من هذه السورة، إذ الرد على المنكر أبلغ في إثبات نقيض قوله من جواب السائل الذي لم يرد عليه بنفي ولا إثبات[١].

ويقول شيخ الإسلام أيضًا إن آيات الصفات من المحكم، وليست من المتشابه: (إن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فسروا للتابعين القرآن كما قال مجاهد: عرضت المصحف على بن عباس من أوله إلى آخره أُوقِفُهُ عند كل آية منه، وأسأله عنها؛ ولهذا قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وكان ابن مسعود يقول: (لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبلُ لأَتيته)، وكل واحد من أصحاب ابن مسعود، وابن عباس نقلوا عنه من التفسير ما لم يحصه إلا الله، والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها)[٢].

وقال الإمام القرطبي: (اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة، فقال جابر بن عبدالله، وهو مقتضى قول الشعبي، وسفيان الثوري، وغيرهما: المحكمات من آي القرآن ما عرف تأويله، وفهم معناه، وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه، مما استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمه دون خلقه؛ وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور قلت: أي (القرطبي): هذا أحسن ما قيل في المتشابه)[٣].

أما آيات الصفات، فقد تعرض السلف لتفسير معناها المفهوم لغة، ووقفوا عند المعنى اللغوي، ولم يتعدوه إلى الخوض في الكنه، أو القول بالنفي، والتعطيل، فآيات الصفات إذًا هي من المحكم الذي فهم الصحابة معناه.

ومن الملاحظ على بعض آيات الصفات أنها عرضت بصورة مميزة؛ وذلك من خلال وقائع وأحداث عاصرها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فكانت تلك التعقيبات

(١) ابن تيمية ـ نقض تأسيس الجهمية جـ١، ص٢٦١.

(٢) ابن تيمية ـ القاعدة المراكشية ص٣١-٣٢.

(٣) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ج٤، ص٩-١٠ـ وزارة الثقافة المصرية ١٣٨٧هـ.

التي تربط الحدث بالصفات الإلهية مصدر إيمان، ويقين، وفهم كامل لمراد اللَّه ـ عز وجل ـ .

وسوف نعرض لجملة من هذه الأحداث التي عرضت فيها الصفات الإلهية وكان للصحابة منها مواقف وتعقيبات تنم عن تمام الفهم، واليقين الكامل بها، فقد روى مسلم عن أبي هريرة ﵁ قال: (لما نزلت على رسول اللَّه ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤] قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول اللَّه ﷺ فأتوا رسول اللَّه ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول اللَّه! كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام، والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها قال رسول اللَّه ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا، وإليك المصير قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقتراها القوم ذلت بها السنتهم، فأنزل اللَّه في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥]

فلما فعلوا ذلك نسخها اللَّه ـ تعالى ـ فأنزل ـ عز وجل ـ:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ (قال: نعم)، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ ﴾ (قال: نعم)، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾،(قال: نعم) البقرة٢٨٦][1].

---

(١) مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان تجاوز الله ـ تعالى ـ عن حديث النفس ح رقم١٢٥/ المختصر ج١، ص٥٣.

لقد كان هذا الفهم منبعه التأثر بصفة من أعظم صفاته - سبحانه - وهي العلم، علمه بما يبدون، وما يكتمون، فخافوا من ذلك أشد الخوف، وهذا يبين عمق الفهم للمعاني، وملاحظتها، بما يخصهم في دينهم وما يرضي ربهم، فلما علم - سبحانه - منهم هذا الإيمان الصادق زادهم إيمانًا، ويقينًا به فقد روى مسلم عن ابن عباس قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا، قال: فألقى اللَّه الإيمان في قلوبهم..)[١].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ - يُشِيرُ إِلَى رُبَاعِيَّتِهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٢].

وروى البخاري ذلك الخبر أيضًا على لسان ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - أنه قال: (اشتدَّ غضبُ اللَّهِ على مَنْ قتلَهُ النبيُّ ﷺ)[٣]، فأي فهم يكون من هؤلاء الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - في هذه الساعات العصيبة من المفهوم اللغوي للعبارة، ولكنه غضب يليق بجلاله وكماله، فلم يخطر على بالهم تشبيه ذلك بغضب المخلوقين، أو خطر على بالهم أن يؤلوه، أو يعطلوه - رضوان اللَّه عليهم.

ويوجه النبي ﷺ أصحابه إلى معنى صفة السمع، وأن اللَّه - سبحانه - سميع قريب، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي ﷺ في مسير، فكنا إذا علونا، كَبَّرْنَا، وإذا هبطنا، سَبَّحْنَا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا» وفي

(١) مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان تجاوز الله - تعالى - عن حديث النفس ح رقم ١٢٦/ المختصر ج١، ص٥٤.

(٢) البخاري - كتاب المغازي - باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد ح رقم٤٠٧٣ الفتح ج٧، ص٣٧٢، ومسلم باب اشتداد غضب الله ح رقم ١٧٩٣/ المختصر ج٢، ص٩٣.

(٣) البخاري - كتاب المغازي - باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح ح رقم ٤٠٧٤/ الفتح جـ٧، ص٣٧٢.

رواية مسلم قال: (إنَّ الذي تدعون أقربُ إِلَى أحدكم من عنق راحلته)[1].

ومن تمام فهم الصحابة للصفات الإلهية أن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت: (الحمد للَّه الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول اللَّه ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل اللَّه ـ عز وجل ـ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾)[2] فكان هذا التعجب نابعًا من وصف الرب ـ سبحانه ـ بأعظم صفات الكمال، وهذا هو التفريق بين الصفات الإلهية وصفات المخلوقين على لسان هذه الصحابية الجليلة التي تمثل هذا الجمع الكبير الذي يؤمن بالصفات الإلهية هذا الإيمان الحق. وكانوا ـ رضوان اللَّه عليهم ـ يحبون صفات ربهم، ويتقربون إليه بهذا الحب، فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ: أن رسول اللَّه ﷺ بعث رجلًا على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع هذا؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يُحِبُّهُ»[3]، وَعَن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي بن كعب: (إنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أقرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البينة: ١]، قال: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَكَى»[4].

---

(١) البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ح رقم ٧٣٨٦/ الفتح ج١٣، ص٣٧٢، ومسلم ـ كتاب الذكر ـ باب استحباب خفض الصوت بالذكر/ ح رقم ٢٧٠٤/ المختصر جـ٢، ص٤٣٥.

(٢) البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ح رقم أوله الفتح ج١٣، ص٣٧٢.

(٣) البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله ح رقم ٧٣٧٥ ج١٣، ص٣٤٧، ومسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ ح رقم٨١٣ ج١، ص٢٩١.

(٤) البخاري ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه ح رقم٣٨٠٩/ الفتح جـ٧، ص١٢٧.

وروى البخاري عن أنس قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول «اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» قال أنس: لو كان رسول اللَّه ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول زوجكن أهاليكن، وزوجني اللَّه - تعالى - من فوق سبع سماوات»[(١)].

ومما يبين عمق الفهم، وسرعة التفاعل مع الصفات التي أثرت في إيمان وحياة الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - ما رواه البخاري ومسلم في حديث الإفك عن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت: (فلما أنزل اللَّه هذا في براءتي، قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة؛ لقرابته منه: واللَّه لا أنفق على مسطح شيئًا بعد ما قاله لعائشة، فأنزل اللَّه - تعالى -: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]، فقال أبو بكر الصديق: (بلى واللَّه إني لأحب أن يغفر اللَّه لي)، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه[(٢)].

وهكذا لو بحثنا عن مواقف الصحابة لوجدناها قد ألمت إلمامًا كبيرًا في الصفات ومعانيها، وظهرت آثارها على حياتهم، وجميع تصرفاتهم، ولعل الوقائع العظيمة من الغزوات التي غزاها الصحابة مع رسول اللَّه ﷺ والآيات التي نزلت بشأنها، والتي تنتهي تعقيباتها بالصفات الإلهية، هي من هذا الجانب الذي نرى أنها هيمنت عليه، فكانوا بأعلى درجات الفهم، والإيمان، واليقين، وعندما تجلى هذا الجانب في تصوراتهم بهذه الضخامة والشمول استغنوا عن السؤال والبحث والتنقير عنه، ومع ضخامة هذا العرض، وشموليته في القرآن والسنة، فقد عشيت أبصار المبتدعة عنه تمامًا، وقاموا بالبحث والتنقير على غير الهدي الرباني، وفتحوا أبواب الشرور على

(١) البخاري - كتاب التوحيد - باب وكان عرشه على الماء ح رقم٧٤٢٠/ الفتح ج١٣، ص٤٠٣.

(٢) البخاري - كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهن بعض، ج٣، ص١٥٧ الطبعة التركية، دار الفكر - ١٤٠١هـ - بيروت - لبنان.

الأمة في أخص مسائل الألوهية، وهي مسائل الصفات التي حسمت مادة الاعتقاد بها على الصورة التي وقف عندها الصحابة والتابعون وتابعوهم، الذين يمتدح طريقتهم الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه اللَّه ـ فيقول: «قف حيث وقف القوم؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وإنهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم حدث بعدهم فما أحدثه إلا من سلك غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونه مقصر، وما فوقهم مجسر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وطمح آخرون عنهم، فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم»(١)، وكانوا ـ رضوان اللَّه عليهم ـ يكرهون التعمق، والتكلف؛ فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند عمر، فقال: نهينا عن التكلف»(٢)، فإذا كان عمر رضي الله عنه يروي النهي عن التكلف، فمن باب أولى أن ينتهوا عن الخوض في الصفات بما لا يحل، وإنما وقفوا عند الحد الذي وقف عنده الكتاب والسنة بعيدًا عن القول بالوصف، والكيفية، أو النفي، والتعطيل.

ويوضح ابن الوزير كيف أن الصحابة فهموا الصفات الإلهية من خلال تعليم الرسول ﷺ لهم؛ حيث يقول: (التَّسْلِيمُ لِقَوْلِ اللَّهِ ـ تَعَالَى ـ وَلِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ولأصحابه، وتابعيهم الناقلين إلينا شريعته ـ عليه السلام ـ، وأن لا نتهم منهم أحدًا؛ لثبوت عدالتهم في سائر لوازم الشريعة؛ فإنهم نقلوها عن معدن النبوة، وعنصر الرسالة ولنعلم أن البيان لا يجوز تأخيره عند الحاجة، وقد بين لهم رسول اللَّه ﷺ جميع ما أرسله اللَّه ـ تعالى ـ به، حتى قال فلان: علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال الصحابي: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو

---

(١) ابن وضاح القرطبي ـ البدع والنهي عنها ص٣٧، ت محمد دهمان ط١/١٤١١هـ دار الصفا ـ القاهرة وموفق الدين بن قدامة المقدسي ـ تحريم النظر في كتب الكلام ص٤٥، ت عبدالرحمن دمشقية ط١/١٤١٠ عالم الكتب ـ الرياض.

(٢) البخاري ـ كتاب الاعتصام ـ باب ما يكره من كثرة السؤال رقم ٧٢٩٣. الفتح ج١٣، ص٢٦٤.

أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم[(١)]، وحتى قال - عليه السلام - في خطبة الوداع: «إن الزمان استدار، كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السَّنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، (مضر) الذي بين جمادى وشعبان»[(٢)] هذا فيما لا يضر جهله كيف في أمر التوحيد، فلو علم أن الحاجة داعية إلى تأويل صفات اللَّه، وأنه يلزم الخلق كيفية معرفتها، لما وسعه إلا البيان وفي عدم ذلك دليل على كذب مدعيه، فلا يرفع أحد طرفه إلى كيفية معرفة صفات اللَّه - تعالى - من قبل عقله إلا غضه الدهش والحيرة، فانقلب إليه البصر خاسئًا، وهو حسير؛ فهذا ما يجب على المسلمين أن يؤمنوا به جملة، وأن يحيطوا به تفصيلاً[(٣)].

● وَمِنْ خَصَائِصِ إِيمَانِ الصَّحَابَةِ - رِضْوَان اللَّه عليهم - بجانب فهمهم الواضح لها أنهم لم يتنازعوا بأي منها، وقد تنازعوا في آيات الأحكام، ولم يؤثر وجود أي نزاع بينهم في الصفات الإلهية، وهذا راجع إلى كمال فهمهم لها، يقول ابن القيم - رحمه اللَّه -: (وقد تنازع الصحابة في تأويل قوله - تعالى -: ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة:٢٣٧] هل هو الأب، أو الزوج، وتنازعوا في تأويل قوله - تعالى -: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء:٤٣] هل هو الجماع، أو اللمس باليد، والقبلة، ونحوها، وتنازعوا في تأويل قوله - تعالى -: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾[النساء:٤٣] هل هو المسافر يصلي بالتيمم مع الجنابة، أو المجتاز بمواضع الصلاة؛ كالمساجد هو جنب، وتنازعوا في تأويل ذوي القربى المستحقين الخمس هل هم قرابة رسول اللَّه ﷺ أو قرابة الإمام، وتنازعوا في تأويل قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] هل يدخل فيه قراءة

---

(١) انظر مسلم - كتاب الطهارة - باب الاستطابة ح رقم ٢٦٢/ المختصر جـ١، ص١١٦.

(٢) انظر البخاري ح رقم٣١٩٧ ومسلم ح رقم ٦٧٩.

(٣) ابن الوزير - العواصم والقواصم ج٣، ص٣٧٠ت شعيب الأرناءوط ط١٤١٢/٢- مؤسسة الرسالة - بيروت.

الصلاة الواجبة، أم لا، وتنازعوا في تأويل قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤] هل يتناول اللفظ الحامل، أو هو للحامل فقط، وتنازعوا في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، [المائدة:٣] هل يدخل فيه ما مات في البحر، أم لا، وتنازعوا في تأويل الكلالة، وفي تأويل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١]، وأمثال ذلك، ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها، وإمرارها مع فهم معانيها، وإثبات حقائقها، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانًا، وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها اللّه ورسوله بيانًا شافيًا، لا يقع فيه لبس ولا إشكال، يوقع الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه، ومن شرح اللّه لها صدره ونور لها قلبه، يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها؛ ولهذا فإن آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام؛ أعني فهم أصل المعنى لَا فَهم الكنه، والكيفية؛ ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة:١٨٧]، ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وأمثالها من آيات الصفات، وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة، ولم يشكل عليه أول الحديد، وآخر الحشر وأول سورة طه، ونحوها من آيات الصفات، وأيضًا؛ فإن بعض آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسُّنَّةِ؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]؛ فهذا مجمل في قدر الصيام، والإطعام، فبينته السنة، بأنه صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وكذلك قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٩] مجمل في مقدار الطواف فبينته السنة، بأنه سبع ونظائره كثيرة؛ كآية السرقة، وآية الزكاة، وآية الحج، وليس في آيات الصفات، وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج، بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان، والتفصيل، فلم تكن آيات الصفات مجملة محتملة؛ لا يفهم

المراد منها إلا بالسنة بخلاف آيات الأحكام[1].

هذه بعض الملاحظات حول إيمان الصحابة بالصفات الإلهية ولن نستطيع الإحاطة بكمال معتقدهم ـ رضوان الله عليهم ـ فهم في أعلى درجات الفهم، واليقين والإيمان، وإن توضيح هذه المسائل هو محاولة للقرب من الواقع العقدي الصحيح الذي كان يحياه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وسوف يكون لنا موقف في مبحث قادم للرد على الطاعنين عليهم.

* * * * *

(١) ابن القيم ـ الصواعق المرسلة ج١، ص٢٠٨-٢١٢ت د. علي بن محمد الدخيل الله ط١/ ١٤٠٨ـ دار العاصمة الرياض.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَوْمَ الْقِيَامَةِ

● لقد جاء الكتاب والسنة بكل صفات الكمال والجلال للَّه رب العالمين، وقد وقف الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - ومن تبعهم من المسلمين عند هذه الصفات موقف المؤمن الذي اعتبرها صفات تليق بالرب - سبحانه - لا يجوز تعطيلها، أو تأويلها، أو تشبيهها كما فعلت فرق الضلال، وجزاء لهذا الإيمان الصادق بعقائد هذا الدين، وتنفيذ أحكامه، فقد وعد اللَّه - سبحانه وتعالى - عباده المؤمنين بأنهم سيرونه، وأن أعظم أنواع النعيم الذي ينتظرهم هو رؤيته - سبحانه -، وسوف نأتي على ذكر الآيات والأحاديث المثبتة لهذا المعتقد العظيم، وهذه البشرى التي ينتظرها المؤمنون الصادقون، ثم نأتي على أقوال الصحابة والتابعين في هذا الشأن، ثم نعقب على طبيعة الأداء النبوي، ومواقف الصحابة من هذا البيان الواضح الذي لا لبس فيه.

١- إِثْبَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِرُؤْيَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ:

وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الرؤية، وتبشر بها المؤمنين.

● فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

قال الإمام الطبري (ت:٣١٠) بعد ذكره لقولين من الأقوال فيها: (وأَوْلَى القولين في ذلك عندنا بالصواب الذي ذكرناه عن الحسن (البصري) (١١٠هـ)، وعكرمة (ت١٠٧هـ) من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول اللَّه ﷺ)(١).

وروى الإمام البغوي (ت:٥١٦هـ) عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - أنه قال:

---

(١) الطبري، جامع البيان ج١٤ ص١٩٣.

(وأكثر الناس تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب)[١]، وقال الحسن البصري: (تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تُنَضَّر وهي تنظر إلى الخالق)[٢].

● وقال ـ سبحانه ـ وتعالى ـ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، قال الإمام الطبري: (الحسنى هي الجنة، جعلها اللَّه للمحسنين من خلقه جزاءً، والزيادة عليها النظر إلى اللَّه ـ تعالى ـ، وقد نقل ذلك عن جملة من الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ منهم أبو بكر الصديق (ت١٣هـ)، وعامر بن سعد (ت١٠٤هـ)، وحذيفة بن اليمان (ت٣٥)، وأبو موسى الأشعري (ت٤٤هـ)، وعبد الرحمن بن أبي ليلى (ت٨٣هـ)[٣].

وعن صهيب ﷺ (ت٣٨هـ) عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ: «تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيْدُكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[٤].

● وقال اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، [ق:٣٥]، (والمزيد هو النظر إلى وجهه الكريم ـ قيل يتجلى لهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ في كل يوم جمعة في دار كرامته؛ فهذا هو المزيد)[٥].

● وقال ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين١٥]،

---

(١)، (٢) البغوي، معالم التنزيل ج٧ص١٨٥ بهامش تفسير الخازن.

(٣) جامع البيان جـ٧ص١٠٤ وما بعدها.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ، ح رقم١٨١، المختصر ج١ص٨٢.

(٥) الطبري، جامع البيان ج٢٦ ص١٧٤، وتفسير الخازن، لباب التأويل عن معاني التنزيل ج٦ص٢٣٨.

قال أبو حاتم؛ (ابن حبان ت:٣٥٤هـ) هذه الأخبار في الرؤية يدفعها من ليس العلم صناعته، وغير مستحيل أن اللَّهَ ـ جل وعلا ـ يُمكِّنُ المؤمنين المختارين من عباده من النظر إلى رؤيته، جعلنا اللَّه منهم بفضله، حتى يكون فرقًا بين الكفار والمؤمنين، والكتاب ينطق بمثل السُّنَنِ التي ذكرناها سواء، قوله ـ جل وعلا ـ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ الآية، فلما أثبت الحجاب عنه للكفار، دل ذلك على أن غير الكفار لا يحجبون عنه)(١).

● وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فهذا دليل على جوازها، فلا يمكن أن يطلب نبي أمرًا يعرف أنه غير جائز على اللَّه ـ تعالى ـ، قال القاضي عياض (ت:٥٤٤): والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى ـ عليه السلام ـ لها، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على اللَّهِ، وما لا يجوزُ عليه، بل لم يسأله إلا جائزًا غير مستحيل، ولكن وقوعه، ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه اللَّه، فقال له الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَن تَرَىٰنِى﴾؛ (أي لن تطيق ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثلًا، مما هو أقوى من بُنية موسى وأثبت؛ وهو الجبل.. وقوله ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾؛ أي ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليَّ في الدنيا .. وقال الإمام مالك ـ رحمه اللَّه ـ (ت:١٧٩هـ): لم ير في الدنيا؛ لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني؛ فإذا كان في الآخرة، ورزقوا أبصارًا باقية رئي الباقي بالباقي»(٢).

---

(١) الفارسي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب وصف الجنة وأهلها، شرح ح رقم ٧٤٤٤، ج١٦ ص٤٧٧، ت شعيب الأرناءوط، ط١، ١٤١٢هـ، الرسالة، بيروت.

(٢) القاضي عياض اليحصبي، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ج١ص٢٦١، ت. على محمد البجاوي ط١٤٠٤، دار الكتاب العربي، بيروت ـ بتصرف ـ وانظر ابن تيمية، نقض تأسيس الجهمية ج٢ص٤٠٨.

٢ـ إثْبَاتُ السُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ لِرُؤْيَةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

وجاءت السنة المطهرة موافقة للقرآن الكريم في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: (يا رسول اللَّه، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسول اللَّه، قال: فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسول اللَّه، قال: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذلِكَ...»، الحديث[١].

● وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[٢].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قالوا: يا رسول اللَّه، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قالوا: لا، قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟ قالوا: لا، قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قال: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ، أَيْ فُلْ، (أي فلان) أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى، قال، فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي...» الحديث[٣].

● وعن جرير بن عبداللَّه البجلي رضي الله عنه (ت:٥١هـ) قال: (كنا عند رسول اللَّه ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَانًا كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود، ح رقم٨٠٦، الفتح ج٢ص٢٩٢، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم ـ ح رقم ١٨٢، ج١ص٨٢.

(٢) سبق تخريجه، البخاري رقم ٤٨٧٨، ومسلم ح رقم١٨٠.

(٣) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المحاسبة على نعم الله ـ عز وجل ـ ح رقم٢٩٦٨، المختصر جـ٢ص٥٥٤.

تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ استطعْتُمْ أَنْ لَا تغلبوا عَن صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ، وقبلَ غروبِهَا فافعلوا، ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠][(١)].

● وعن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول اللَّه، أَكُلُّنا يرى ربه مخليًا يوم القيامة. قال: نَعَمْ، قلت: ما آية ذلك في خلقه؟ قال: يَا أَبَا رُزَيْنٍ، أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مُخليًا بِهِ: قُلت: بلى، قال: فَاللَّهُ أَعْظَمُ، إِنَّمَا هُوَ خَلْقٌ مَنْ خَلْقِ اللَّهِ، يعني القمر، فاللَّه أَجَلُّ وَأَعْظَمُ»[(٢)].

● وأحاديث رؤية اللَّه ـ عز وجل ـ كثيرة وقد بلغت حد التواتر كما قال الإمام السيوطي: (ت:٩١١هـ) قال: (رواها واحد وعشرون صحابيًا، أخرج الشيخان لجرير ابن عبداللَّه البجلي، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري (ت٦٤هـ)، واللالكائي في السنة أخرج لحذيفة بن اليمان، وأخرج أحمد، وابن ماجة، والحاكم، وصححه من حديث أبي رزين العقيلي، ولا سادس لهم، وأما مطلق الرؤية من غير تقييد، فورد من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وجابر بن عبداللَّه، وزيد بن ثابت (ت٤٥هـ)، وصهيب، وعبادة بن الصامت (ت٣٤)، وأبي موسى الأشعري ـ رضوان اللَّه عليهم جميعًا)، فهؤلاء مع الخمسة المصدر بهم واحد وعشرون صحابيًا)[(٣)].

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ح رقم٥٥٤، الفتح ج٢ص٣٣، ومسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الصبح والعصر، ح رقم٦٣٣، المختصر ج١ص٢٣٠.

(٢) أبو داود، كتاب السنة، باب في الرؤية، بذل المجهود ج١٨ص٢٦٨، وابن ماجة، المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ـ ح رقم ١٨٠، وابن أبي عاصم، السنة رقم٤٥٩، قال الشيخ الألباني: (حديث حسن، رجاله ثقات رجال مسلم). غير وكيع بن حدس ويقال عدس، قال الذهبي لا يعرف. (اللسان ج٤ص٣٣٥، وقال ابن حجر (ذكره ابن حبان في الثقات). تهذيب ج١١ص١١٥.

(٣) السيوطي، تخريج أحاديث شرح العقائد (للتفتازاني) ص٢٥، ت صبحي السامرائي، دار الرشد، الرياض.

وقال قوام السنة الأصبهاني (ت٥٣٥): (روىٰ عن رسول اللَّه ﷺ حديث الرؤية ثلاثة وعشرون نفساً، وقال يحيى بن معين (ت٢٣٣هـ): عندي سبعة عشر حديثًا في الرؤية كلها صحاح)(١).

٣ـ أَقوَالُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

لَقَدِ اعْتَبَرَ الصَّحَابَةُ ـ رِضْوَانُ اللَّهِ عليهم ـ والتابعون وتابعوهم ومن جاء بعدهم من المسلمين، اعتبروا رُؤْيَةَ اللَّه ـ تعالى ـ بشرى لهم، فكانوا يعتقدونها حقيقة واقعة، ويتطلعون إليها باعتبارها أعظم ما ينالونه من ثواب اللَّه ـ تعالى ـ في جناته، وقد تأكدت هذه الحقيقة العقدية العظيمة من خلال ما ورد على ألسنة الصحابة والتابعين حولها التي سنورد بعضها.

● فعن عطاء بن السائب (ت١٣٦هـ) عن أبيه قال: (صلى بنا عمار بن ياسر رضي الله عنه (ت٣٧هـ) صلاة أوجز فيها، فلما سلم قيل له: لقد خففت يا أبا اليقظان قال: أما إني قد دعوت فيها بدعاء سمعته من رسول اللَّه ﷺ ثم انصرف، قال: فتبعه رجل ـ قال عطاء: أبي الذي تبعه ولكن كره أن يقول ـ فسأله عن الدعاء، فقال: اللَّهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحييني ما علمت أن الحياة لي خيرًا، وتوفني إذا

---

(١) قوام السنة، الحجة في بيان المحجة ج٢ص٢٤٥، بتصرف، وقد ألف الإمام الدارقطني كتابًا كاملًا في الرؤية وهو عبارة عن الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ، وفيها الصحيح والضعيف ـ ت إبراهيم العلي، وألف الإمام الآجري كتاب التصديق بالنظر إلى الله ـ تعالى ـ في الآخرة ـ ت محمد الجنباز، كما ألف أبو شامة كتاب: معرفة الساري إلى رؤية الباري، وتعرضت كتب السنة لأحاديث الرؤية في الصحاح وكتب العقيدة، وكتاب الإيمان لابن منده، والآجري في الشريعة، وابن خزيمة في التوحيد، وابن أبي عاصم في السنة، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، وقوام السنة للأصبهاني، وكتاب لعبدالله بن أحمد بن حنبل، وأبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات لأخبار الصفات، وعالج شيخ الإسلام هذه المسألة معالجة موسعة في نقض تأسيس الجهمية وغيرها من مؤلفاته، وعالجت كتب التفاسير هذه المسألة، وهذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر، وقد استقصى ابن القيم كل الأدلة والأقوال في حادي الأرواح من ص٤٠٢ إلى ص٤٧٦.

كانت لي الوفاة خيرًا، اللَّهم، وأسألك كلمة الحلم في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفذ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضله، اللَّهم، زينا بالإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[١].

● وعن عمارة بن عبيد قال: سمعت عليًّا يقول: (من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه اللَّه ـ تبارك وتعالى في جنته)[٢].

● ومما يبيِّن فرح الصحابة والتابعين بهذه البشرى أي رؤية اللَّه ـ عز وجل ـ ما رواه عبداللَّه بن أحمد بن حنبل (ت٢٩٠هـ) عن فرات بن سليمان (ت١٥٠هـ) قال: قدم أبو بردة بن أبي موسى الأشعري (ت١٠٤هـ) على سليمان بن عبدالملك (ت٩٩هـ)، فقال: «سمعت أبي يذكر عن رسول اللَّه ﷺ قال: إذا جمع اللَّه ـ عز وجل ـ الأولين والآخرين في صعيد واحد قال: ينادي مناد من السماء ـ فقص الحديث، قال: (فيتجلى لهم) فقال عمر بن عبدالعزيز (ت١٠١هـ) ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ: واللَّه الذي لا إله إلا هو لقد سمعت هذا الحديث من أبيك يذكره عن رسول اللَّه ﷺ: قال: أي واللَّه الذي لا إله إلا هو لقد سمعت أبي يذكره عن رسول اللَّه ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة ـ فقال عمر بن عبدالعزيز: ما سمعت في الإسلام حديثًا هو أحب إلي منه)[٣].

● وكان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يحدث الناس إذا شخصت أبصارهم إلى القمر، فقال لهم: (فكيف إذا رأيتم اللَّه ـ عز وجل ـ جهرة)، قال ابن خزيمة: وذكر هذا القول

---

(١) قوام السنة للأصبهاني، الحجة في بيان المحجة ج٢ص٢٤٣، ت د. محمد أبو رحيم، ط١/ ١٤١١، دار الراية، الرياض، وابن أبي عاصم، كتاب السنة ح رقم ٤٢٤ إلى ٤٢٧، ج١ص٨٥، قال الشيخ الألباني إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات.

(٢) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج٣ص٤٩٦، ت. د. أحمد سعد حمدان.

(٣) عبدالله بن أحمد بن حنبل، السنة ـ ح رقم ٤٦٣ ج١ ص٢٥٢، ت د. محمد سعيد القحطاني ـ ط٢/١٤١٤، رمادي للنشر، الرياض.

من قبل أبي موسى لا عن النبي ﷺ)[١].

وعن عبدالله بن عكيم (مات في ولاية الحجاج) قال: (سمعت ابن مسعود رضي الله عنه وبدأ باليمين قبل الكلام: ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربُّهُ ـ عز وجل ـ كما يخلو بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا أجبت المرسلين، ماذا عملت فيما علمت»[٢].

٤ـ أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

لقد اتخذ التابعون منهجًا جديدًا في الإثبات؛ وهو الرد على المنكرين لهذه الرؤية من فرق الابتداع التي ظهرت في عصرهم فقد روى اللالكائي عن أبي صالح كاتب الليث (ت١٤١هـ) قال: أملى علي عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون[٣] (ت١٦٤هـ)، وسألته فيما أحدثت الجهمية فقال: (لم يزل يملي لهم الشيطان حتى جحدوا قوله ـ عز وجل ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فقالوا: لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا، والله، أفضل كرامة التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه، ونضرته إياهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فورب السماء والأرض ليجعلن رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثوابًا لينظر بها وجوههم دون المجرمين، ويفلج بها حجتهم على الجاحدين وشيعتهم، (وهم عن ربهم يومئذ محجوبون) لا يرونه كما زعموا: أنه لا يرى، ولا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، وكيف لم يعتبر ـ ويله ـ بقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥] أفيظن أنَّ اللَّهَ يقصيهم، ويغنيهم، ويعذبهم، بأمر يزعم الفاسق أنه وأولياءه فيه

---

(١) عبدالله بن أحمد، السنة ح رقم٤٦٥ ج١ص٢٥٣، وابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب ـ ح١ص٤٤٣، ت عبدالعزيز الشهوان.

(٢) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج٣ ص٤٩٦، وعبدالله بن أحمد، السنة ج١ص٢٥٨.

(٣) الماجشون كان صدوقًا، وفقيهًا ورعًا، وكان ثقة كثير الحديث، توفي ببغداد ١٦٤هـ، وإنما سمي بالماجشون لأن وجنتيه كانتا حمراوين فسمي بالفارسية الماحكون فشبه وجنتاه بالقمر فمر به أهل القرية فقالوا ـ الماجشون). تهذيب التهذيب ج٦ ص٣٠٧ بتصرف.

سواء)[١].

● وقال الإمام الأوزاعي ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ: (ت١٥١هـ): (إني لأرجو أن يحجب اللَّه ـ عز وجل ـ جهمًا وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده أولياءه حين يقول ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فجحد جهمٌ وأصحابُه أفضلَ ثوابه الذي وعد أولياءه)[٢].

● وعن عبدالواحد بن زيد (ت١٥٠هـ) قال: سمعت الحسن البصري (ت١١٠هـ) يقول: (لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم ـ عز وجل ـ لذابت أنفسهم في الدنيا)[٣].

وكان يقول ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ: (إن اللَّه ليَتَجَلَّى لأهل الجنة، فإذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة)[٤].

● «وسُئِلَ مالك بن أنس (ت١٧٩) عن قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢] فقيل: قوم يقولون إلى ثوابه، فقال مالك: كذبوا فأين هم عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]، قال مالك: الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم، وقال: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير اللَّهُ الكفارَ بالحجاب، فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]، وقال ـ سبحانه ـ ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة:٨][٥].

وروى اللالكائي عن الربيع بن سليمان قال: (حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءَته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: قال الشافعي: فلما أن حُجِبوا هؤلاء في السخط كان في ذلك

(١) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد رقم٨٧٣، ج٣ص٥٠٢.

(٢) المرجع السابق رقم٨٧٤، ج٣ص٥٠٣.

(٣)، (٤) الآجري، التصديق بالنظر إلى الله ـ تعالى ـ في الآخرة ص٣٩ت، محمد غياث الجنباز ط١/١٤٠٥هـ، عالم الكتب، الرياض.

(٥) البغوي، شرح السنة، كتاب الفتن، باب رؤية الله ـ عز وجل ـ في الجنة ج١٥ص٢٢٩، ت زهير الشاويش، وشعيب الأرناءوط، ط٢ص١٤٠٣، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

دليل على أنهم يرونه في الرضا، قال الربيع: قلت: يا أبا عبدالله، وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبدالله ـ تعالى»[١].

وسئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ تعالى ـ عن أحاديث الرؤية، فقال: «أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر وكلما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر»[٢].

وروى الآجري عن أبي داود السجستاني قال: (سمعت أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ وقيل له في رجل حدث بحديث عن رجل عن أبي العطوف، يعني أن الله ـ عز وجل ـ لا يرى في الآخرة، فقال: لعن الله من حدث بهذا، ثم قال: أخزى الله هذا[٣].

٥ـ نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ عَلَى مَا مَرَّ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْمُثْبِتَةِ لِرُؤْيَةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

بعد هذا العرض الموجز للنصوص القرآنية والنبوية، وأقوال بعض الصحابة التابعين حولها يمكن استخلاص أربعة صور وردت تؤكد حصول رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ للَّهِ ـ عز وجل ـ يوم القيامة، وهذه الصور هي:

الصُّورَةُ الْأُولَى: هي الآيات القرآنية التي أثبتت حدوث هذه الرؤية، وهي تمثل بُشْرَى ربانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين، وقد كان العرض القرآني لها كما في الأسماء والصفات يثبت الرؤية بدون وصف لكيفيتها، وقد جاءت الأحاديث النبوية لتفسر بعض هذه الآيات، وكذلك أقوال الصحابة وعلماء السلف.

وَالصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: جاءت من خلال إخبار النبي ﷺ عن هذه الرؤية بدون سؤال، أو استفسار من الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ، وقد كان البيان النبوي غاية في الوضوح والبساطة، وقد أعرض البيان عن بيان الكيفية تبعًا للقرآن الكريم، باعتباره أمرًا غيبيًا من أمور الآخرة.

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ: جاءت من خلال أسئلة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ التي وجهوها للرسول ﷺ، وهذا يؤكد أن الأسئلة العقدية إذا كان السائل محتاجًا إليها فلا مانع

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج٣ص٥٠٥، رقم ٨٨٣.
(٢) المصدر السابق رقم٨٨٩ ج٣ص٥٠٧.
(٣) الآجري، التصديق بالنظر إلى الله ـ تعالى ـ في الآخرة ص١١٤.

منها، وعندما دعت الحاجة ليسأل الصحابة عن الرؤية سألوا، وأجابهم النبي ﷺ، ولم يمنعهم، وهذا يوضح أيضًا كما سبق وقلت أن الصحابة فهموا مسائل الصفات فهمًا دقيقًا، ولم يؤثر عنهم أسئلة فيها إلا في مقام الرؤية، ولعل هذه المسألة هي الوحيدة التي كانت تدور في أذهانهم، مع فهم مسائل العقيدة، والصفات بأكملها، ثم إن أسئلتهم يرى فيها الشوق للقاء ربهم وفرحهم بهذه البشرى النبوية العظيمة، فهي ليست أسئلة تعنت أو جدال، وكانت الأسئلة أيضًا في نطاق الضوابط القرآنية، والنبوية بدون سؤال عن الكيفية، أو غيرها إنما السؤال فقط عن حدوث هذه الرؤية الموعودة.

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ: سلوك التابعين وتابعيهم ـ رحمة اللَّه عليهم أجمعين ـ منهج الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ؛ وذلك بإثبات هذه الرؤية، والإيمان بها حق الإيمان، ثم عرضها وتعليمها لعامة الناس، ثم عندما برزت الجهمية، والمعتزلة وغيرها من فرق الابتداع، قام التابعون بالمنافحة عن كل مسائل العقيدة، وعن الصفات والرؤية، واعتبروا هذا الإنكار نوعًا من الكفر والإلحاد، والزندقة؛ وذلك لأن هؤلاء المنكرين عمدوا إلى خصائص الألوهية في الصفات، والرؤية، فتسلطوا عليها بالتعطيل والتأويل، فكان من الطبيعي أن يُقيض اللَّه لهذه العقيدة من ينافح عنها بتفسير الآيات القرآنية الخاصة بالرؤية ورواية الأحاديث النبوية، وسرد أقوال الصحابة الكرام ثم الحكم على هؤلاء المنكرين بالكفر والمروق من الدين، وقد جاءت هذه الأحكام على لسان الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ تعالى ـ: فعن أبي داود السجستاني قال: سمعت أحمد وذكر له عن رجل شيء في الرؤية فغضب، وقال: من قال إن اللَّه لا يُرَى فهو كافر).

وحنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبداللَّه يقول: (من زعم أن اللَّه لا يرى في الآخرة فقد كفر باللَّه وكذب بالقرآن ورد على اللَّه أمره واللَّه ـ تعالى ـ لا يرى في الدنيا ويرى في الآخرة»[١].

وقال أيضًا؛ (من لم يؤمن بالرؤية، فهو جهمي والجهمي كافر)[٢].

---

(١)، (٢) عبدالإله بن سليمان الأحمدي، المسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ج٢ص٢١٦-٢١٧، ط١٤١٢/١، دار طيبة، الرياض.

٦ـ الرَّدُ عَلَى شُبْهَاتِ أَهْلِ الْبِدَعِ نُفَاةُ الرُّؤْيَةِ:

إن الرؤية الثابتة لعموم المؤمنين المصدقين ستكون في الآخرة وفي الجنة، ولا يصح لبشر أن يرى اللَّهَ بعينه وهو حي في هـذه الدنيا، والخلاف بين الصـحابة في رؤية نبينا ﷺ لربه بعينه مشهور، والراجع أنه رآه بفؤاده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «وَاعْلمُوا أَنْ أَحدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ»[١]، وقد اتفق أئمة المسلمين على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى اللَّه بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ، مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وأئمة المسلمين. ثم قال: فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن اللَّه يرى في الآخرة بالأبصار عيانًا، وأن أحدًا لا يراه في الدنيا بعينه)[٢].

وهذه الرؤية التي أثبتها الكتاب والسنة هي أمر غيبي يترك معرفة كيفيته للَّه ـ تعالى ـ، ولم يؤثر عن الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ الخوض والجدل في معرفة الكيفية، ولم يؤثر عنهم الخوض في شيء مما ابتدعه المتكلمون، وفرق الابتداع المنكرين للرؤية، وقد أشكل على هؤلاء المبتدعة شبهات ألقاها الشيطان في أذهانهم وعقولهم القاصرة، وقد وقع أيضًا بعض من يثبتون الرؤية في شبهات تبين عجز عقولهم أيضًا، وقالوا يُرَى لا في جهة، ولم يكن الصحابة الكرام والسلف في مثل هذه التفصيلات، لثبوت الرؤية في النصوص القرآنية والنبوية الحاسمة في الدلالة على ثبوتها، فكانوا في غنى عن التكلف فيما وراء ذلك من البحث عن كيفية هذه الرؤية، ولعل أكبر إشكال يزعمه المبتدعة على مختلف آرائهم، هو موضوع الجهة فهم مع إنكارهم للرؤية، شغلوا المسلمين في قضية الجهة المزعومة والتي ادخلوها تحت نطاق التنزيه كما فعلوا في

(١) مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب ابن صياد، ح رقم ٢٩٣١، ج٤، ص ٢٢٤٥، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، ج١، ص ١١٢ بتصرف، ط١، ١٤٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٣١٦، ت محمد رشاد سالم.

الصفات الإلهية التي عطلوها بحجة التنزيه، ونفوا الرؤية بزعم أن اللّٰه لا يُرى في جهة.

وفند شيخ الإسلام رحمه اللّٰه ـ تعالى ـ هذه الدعوى الباطلة، فقال: (إن كون الرؤية مستلزمة لأن يكون اللّٰه بجهة من الرائي أمر ثبت بالنصوص المتواترة، ففي الصحيحين وغيرهما الحديث المشهور عن الزهري، قال: عن سعيد بن المسيب (ت:٩٣)، وعطاء بن يزيد الليثي (ت١٠٥هـ): أن أبا هريرة ﷺ أخبرهما: (أن الناس قالوا: يا رسول اللّٰه، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللّٰه ﷺ: «هَلْ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ...» الحديث[1]؛ فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه في جهة منهم من وجوه.

أَحَدُهَا: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون بجهة منهم، فأما رؤية ما ليس في الجهة، فهذا لم يكونوا يتصورونه فضلًا عن أن يكون اللفظ يدل عليه ... فإنك لست تجد أحدًا من الناس يتصور وجود موجود في غير جهة، فضلًا عن أن يتصور أنه يرى، فضلًا عن أن يكون اسم الرؤية المشهور في اللغات كلها يدل على هذه الرؤية الخاصة.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أنه قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا، وَكَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ صَحْوًا»، فشبه لهم رؤية الشمس والقمر، وليس ذلك تشبيهًا للمرئي بالمرئي، ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر، وجب أن يرى في جهة من الرائي، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك، فإنه لو لم يكن كذلك، لأخبرهم برؤية مطلقة نتأولها على ما يتأول من يقول بالرؤية في غير جهة، أما بعد أن يستفسرهم عن رؤية الشمس صحوًا، ورؤية البدر صحوًا، ويقول: «إِنَّكُمْ تَرَونَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ»، فهذا لا يمكن أن يتأول على الرؤية التي يزعمونها؛ فإن هذا اللفظ لا يحتملها حقيقة ولا مجازًا)[2].

---

(١) سبق ذكره، وتخريجه في أول هذا الفصل.

(٢) ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية أو نقض تأسيس الجهمية، ج٢، ص ٤١١ ـ ٣١٢، ت محمد ابن عبدالرحمن القاسم، ط١، ١٣٩١هـ، مطابع الحكومة، مكة المكرمة.

ومما يجب العلم به أن الرسول ﷺ قد وضَّح للصحابة الكرام وللأمة من بعدهم حقيقة الرؤية في غاية الوضوح الذي لا لبس فيه، ولكن أرباب التأويلات الفاسدة عميت أبصارهم عن حقيقة هذا الفهم، وقاموا بافتعال الألفاظ المبتدعة؛ مثل: الجهة، والتحيز، وغيرها من الأفكار الضالة؛ وذلك تبعًا لمذاهبهم الفاسدة في تعطيل صفات رب العالمين، وكل هذه الألفاظ المبتدعة لم تكن تخطر على بال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لسعة فهم وكمال عقولهم، فكانوا يفهمون الألفاظ على مراد الشارع الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ ومراد نبيه الكريم ﷺ بعيدًا عن هذه التصورات القاصرة.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن النبي ﷺ قال: «هلْ تضارونَ في الشمسِ ليسَ دونَهَا سحابٌ، وهَلْ تضارون في القمرِ ليس دونَهُ سحاب» فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي، ومن يقول: إنه يرى في غير جهة يمتنع أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل عنهم؛ إذ الحجاب لا يكون إلا لجسم، ولما كان في جهة، وهم يقولون: الحجاب عدم خلق الإدراك في العين، والنبي ﷺ، مَثَّلَ رؤيته هذين النورين العظيمين، إذا لم يكن دونهما حجاب، وحيث أنه أخبر أنهم (لا يضارون في رؤيته، وفي حديث آخر ـ لا يضامون) ونفي الضير والظيم إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي، ومعلوم أنما يسمونه رؤية، وهو رؤية ما ليس بجهة من الرائي، لا فوقه ولا شيء من جهاته، لا يتصور فيها ضير ولا ظيم حتى ينفي ذلك بخلاف رؤية ما يواجه الرائي، ويكون فوقه فإنه قد يلحقه فيه ظيم وضير، إما بالازدحام، أو كلال البصر لخفائه؛ كالهلال، وإما لجلائه، كالشمس والقمر)[١].

ثم يؤكد شيخ الإسلام أن العرب لم تكن تتصور رؤية بغير جهة، فيقول: (وثبت اتفاق سلف الأمة على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة، وقد أخبر أن العرب المخاطبين بهذا الكلام لم يكونوا يتصورون من ذلك إلا رؤية ما كان في الجهة، وأما ما سوى

(١) نقض تأسيس الجهمية، ج٢، ص ٤١١.

ذلك لم يكن معلومًا، ولا متصورًا لهم من لفظ الرؤية ومع هذا، فالنبي ﷺ وأهل الإجماع من الصحابة والتابعين أخبروا الخلق بأنهم يرون ربهم، ولم يقولوا برؤية في غير جهة، ولا ما يؤدي هذا المعنى، بل قال: (كما ترون الشمس والقمر)، فَمَثَّلَ رؤيته بالرؤية لما هو في جهة، علم بالاضطرار أن الرؤية التي دل عليها نصوص الرسول وإجماع السابقين هي الرؤية التي كان الناس يعرفونها، وهي لما يكون في الجهة، وهذا بين)(١).

ثم يجمل شيخ الإسلام القول في موضوع الجهة وأنه لفظ مبتدع ما كان يعرفه السلف، فيقول: (والمتبعون للسلف لا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين أن ما أثبت بها، فهو ثابت، وما نفي بها فهو منفي، لأن المتأخرين قد صار لفظ (الجهه) في اصطلاحهم فيه إجمال وإبهام كغيرها من ألفاظهم الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي؛ ولهذا كان النفاة ينفون بها حقًّا وباطلًا، ويذكرون عن مثبتيها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل فيها معنى باطلًا مخالفًا لقول السلف، ولما دل عليه الكتاب والميزان؛ وذلك أن لفظ الجهة قد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير اللَّه كان مخلوقًا، واللَّه ـ تعالى ـ لا يحصره ولا يحيط به شيء من المخلوقات؛ فإنه بائن من المخلوقات، وإن أريد بالجهة أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا اللَّه وحده)(٢).

والخلاصة: أن الأمة الإسلامية كانت في غنى تام عن كل هذه المجادلات التي طرحها المبتدعة في وسطها لو أنهم فهموا مقاصد الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين في مسائل الاعتقاد، ومنها مسألة الرؤية، التي عمدوا إلى تعقيد طرق فهمها، ودخلوا في فرضيات ومصطلحات باطلة، معرضين عن السهولة والبساطة الواضحة

(١) المرجع السابق، ج٢، ص ٤٠٦

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٣٢٢، ت محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

التي جاء بها الكتاب والسنة، والتي فهمها الصحابة وعامة الناس، وهذا المنهج هو منهج الحق به انتشر هذا الدين، وما كانت سبل أهل البدع إلا صدًّا عن سبيل اللّه والدعوة إليه)(١).

* * * * *

(١) سوف نعرض لرؤية النبي ﷺ لربه - عز وجل - عند حديثنا عن نقاش الصحابة في هذه المسألة.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ
القَضَاءُ وَالقَدَرُ

١ـ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ فِي اللُّغَةِ وَالاِصْطِلاَحِ :

قال ابن فارس (ت٣٩٥): «الْقَضَاءُ يدل على إحكام أمر وإتقانه، وإنفاذه لجهته، قال: قال اللَّه ـ تعالى ـ ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢]؛ أي أحكم خلقهن، وهو الحكم قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢]؛ أي اصنع واحكم[١]، وقال الجرجاني: (القضاء لغة: الحكم، وفي الاصطلاح: عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد)[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: (القضاء لغة: فصل الأمر قولًا كان ذلك، أو فعلًا)[٣] وذكر ابن جزي الغرناطي للقضاء سبعة معانٍ، فقال: «القضاء له سبعة معانٍ: الحكم والأمر، والقدر السابق، وفعل الشيء، والفراغ منه، والموت والإعلام بالشيء»[٤]، ويعتبر الكرماني: أن القضاء سابق على القدر، فيقول: (القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله»[٥].

أَمَّا الْقَدَرُ فَهُوَ: (يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقدر مبلغ كل شيء وهو: قضاء اللَّه ـ تعالى ـ الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها)[٦]، وقال الراغب

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ، ج٥، ص ٩٩، ت عبدالسلام هارون، ط١، ١٣٩٢هـ، طبعة البابي الحلبي، القاهرة.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص ١٧٧، ط١، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

(٣) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢١، ت نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت لبنان.

(٤) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص ٢٥، الدار العربية للكتاب، تونس.

(٥) ابن حجر، فتح الباري، ج١١، ص٤٧٧.

(٦) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص ٦٢.

الأصفهاني: (وتقدير اللَّه على وجهين: أحدهما بالحكم منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا إما على سبيل الوجوب، وإما على سبيل الإمكان، وعلى ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:٣].

والثاني: بإعطاء القدرة عليه؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣] ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، فقدر إشارة إلى ما سبق القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ، والمشار إليه بقوله - عليه الصلاة والسلام -: فرغ ربكم من الخلق، والأجل والرزق)، والمقدور إشارة إلى ما يحدث منه حالًا فحالًا مما قدر، وهو المشار إليه بقوله - تعالى -: (كل يوم هو في شأن)[(١)].

وقال الجرجاني مبينًا الفرق بين القدر والقضاء (القدر: هو خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدًا بعد واحد مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال والفرق بين القدر والقضاء: هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها)[(٢)].

وقال ابن منظور في القدر: القدير والقادر: من صفات اللَّه - عز وجل - يكونان من القدرة، ويكونان من التقدير. وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة - ٢٠)، من القدرة، فالله - عز وجل - على كل شيء قدير، والله - سبحانه - مقدر كل شيء، وقاضيه، وقال ابن الأثير: في أسماء اللَّه - تعالى - القادر والمقتدر والقدير)[(٣)].

والخلاصة التي نخرج بها من هذه التعريفات أن القضاء هو ما سبق في علم اللَّه في جميع خلقه، وأن القدر هو خروج هذا القضاء إلى عالم الوجود، وحصوله في حق

(١) الأصفهاني، المفردات، ص ٤٠٩ بتصرف، وانظر ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٧٤، ط، ١٣٨٨هـ، دار صادر، بيروت.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص١٧٤، وانظر د. محمد عبدالله دراز، المختار من كنوز السنة النبوية، ص ٢١٨

(٣) ابن منظور ، لسان العرب، ج٥، ص ٧٤

جميع الخلق لا يتقدم ذلك، ولا يتأخر، وهذا ما آمن به أهل السُّنَّةِ والجماعة، وأنكره القدرية الغلاة ومن تابعهم من فرق الضلال.

٢ـ «وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ»:

لقد حفل القرآن الكريم والسنة المطهرة بعرض هذا المعتقد عرضًا موسعًا بكل جوانبه، وقد كان لهذا العرض الموسع أثره البالغ في مسيرة هذا الدين الذي اعتقده الصحابة الكرام بتسليم كامل، ولم يعرضوه للاعتراضات والجدل المقيت الذي وقعت فيه الأمم السابقة على الإسلام، ولم يكن هذا التسليم مقتصرًا على القدر بل كان يشمل كل مسائل العقيدة، والشريعة، وكان هذا واضحًا بسيطًا لا لبس فيه ولا إشكال، فعرض للأرزاق والآجال؛ والهداية والضلال، وغيرها من المسائل التي تدخل في نطاق القدر. وقد ذكرت لفظة القدر في مواطن من الكتاب العزيز، فمنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، [الحجر:٦٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:٣].

فهذه الآيات الكريمات تذكر القدر السابق، وهو الركن السادس من أركان الإيمان وهو ما أكدته السنة المطهرة؛ حيث جاء في حديث جبريل المشهور عندما سأل جبريل النبي ﷺ فقال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ»[١].

وروى الترمذي عن ربعي بن خراش عن علي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ»[٢]، وعن عبداللَّه بن فيروز

(١) مسلم ، كتاب الإيمان، أوله ح رقم٨، المختصر، ج١، ص ١٨

(٢) الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء بالإيمان في القدر، ح رقم ٢١٤٥، ج٤، ص ٤٥٢، وصححه الترمذي.

الديلمي ـ رحمه اللَّه ـ [١] قال: «أتيت إلى أبي بن كعب (ت٢٢هـ) فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل اللَّه ـ تعالى ـ أن يذهبه من قلبي، فقال: (لو أن اللَّه ـ تعالى ـ عذب أهل سماواته، وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحُدٍ ذهبًا في سبيل اللَّه ـ تعالى ـ ما قبله منك حتى تؤمنَ بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا، لدخلت النار، ثم أتيت عبداللَّه بن مسعود (ت٣٢هـ) فقال: مثل ذلك، قال: ثم أتيت حذيفة بن اليمان (ت:٣٥هـ) فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت (ت:٤٥هـ) فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك)[٢].

وعن عطاء بن أبي رباح ـ رحمه اللَّه ـ قال: لقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول اللَّه ﷺ فسألته: ما كان وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعاني أبي، فقال لي: يا بني، اتق اللَّه، واعلم أنك لن تتقي اللَّه حتى تؤمن باللَّه، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره؛ فإن مت على غير هذا دخلت النار، إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَكَتَبَ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»[٣].

وهذه النصوص على سبيل المثال لا الحصر؛ وذلك لأن مسائل الإيمان بالقدر متنوعة وقد فهمها الصحابة الكرام، والسلف الصالح، ورتبوها حسب ما جاءت به النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي من خلالها ضبطوا أصول هذا المعتقد الهام الذي يرتبط بعلم اللَّه ـ تعالى ـ المحيط بكل شيء، وبمشيئته النافذة، وإرادته ـ سبحانه ـ،

(١) عبدالله بن فيروز الديلمي ابن الصحابي الجليل فيروز وكان من الأبناء في اليمن، أي من الفرس الذين كانوا يعيشون هناك، عاش إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز وكان في رفقة الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه وكان يخدمه انظر ابن عساكر المختصر، ج١٧، ص ٢٢٨

(٢) أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، بذل المجهود، ج١٨، ص ٢٢٦.

(٣) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب القدر، ج١٧ ح رقم ٢١٥٥، وانظر جامع الأصول، ج١٠، ص ١٠٧، وقال المحقق، الشيخ عبدالقادر الأرناءوط وهو حديث حسن صحيح.

ثم ظهر كل هذا في الواقع الذي قدره ـ عز وجل ـ لا يتقدم ولا يتأخر عن تقديره أبدًا.

وقد تفرعت مسائل القدر حسب أدلتها والتي سوف نعرضها على منهج علماء السلف الذين صنفوها مقررين لها أولًا، ورادين بها أيضًا على المبتدعة من القدرية، ومن تابعهم الذين خاضوا في هذا المعتقد الحق خوضًا باطلًا ساقهم أولًا إلى إنكار علم الله ـ تعالى ـ وإنكار القدر، ثم خفف من جاء بعدهم، وأخفوا الإنكار لعلم الله، وقالوا إن العبد خالق لفعله، وقال غيرهم إن الخير من الله، والشر من الإنسان وغيرها من المبتدعات التي سنعالجها في مبحث القدرية بإذن الله.

٣ـ تَفْصِيلَاتُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ:

- «مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ»:

كما قررها السلف من واقع النصوص القرآنية والنبوية؛ حيث قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

• «الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى»: (وهي العلم السابق فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة(١) وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] قال مجاهد: علم من إبليس المعصية، وخلقه لها، وقال قتادة: (كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤](٢).

---

(١) يعني المصنف ـ رحمه الله ـ القدرية المنكرين للقدر القائلين، إن الأمر أنف.

(٢) ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء، والقدر، ج١، ص ٩١، ٩٢ بتصرف، ت مصطفى أبو النصر الشلبي، ط١، ١٤١٢هـ، مكتبة السوادي، جدة وانظر الشيخ حافظ حكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول، ج٣، ص ٩٢٠، ت عمر بن محمود أبو عمر، ط١، ١٤١٠هـ، دار ابن القيم، السعودية.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن:٢٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ [سبأ:٣].

أما الأحاديث النبوية التي تحدثت عن هذه المرتبة، فهي كثيرة جدًّا، ومنها عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخِضْرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»(١). وعن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه: أشيء قُضِي عليهم، ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم قال: فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال: ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا، وقلت: كل شيء خلق اللّه وملك يده، فلا يُسْئَلُ عَمَّا يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك اللّه ـ تعالى ـ: إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك أن رجلين من مزينة أتيا رسول اللّه ﷺ فقالا: يا رسول اللّه، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه: أفي شيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى فِيهِمْ» ـ وتصديق ذلك في كتاب اللّه ـ عز وجل ـ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨-٩](٢).

● «الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ»: مرتبة الكتابة قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦]؛ فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أم الكتاب الذي عند اللّه والأرض الدنيا، وعباده الصالحون أمة محمد ﷺ، والكتاب الذي أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق

(١) مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، ح رقم ٢٦٦١، ج٢، ص ٤٢٠.
(٢) مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، ح رقم ٢٦٦١، ج٢، ص ٤٢٠.

على صحته: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»(١).

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ)(٢).

ومن الأدلة القرآنية على هذه المرتبة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢، ٥٣]، وقال ـ تعالى ـ على لسان موسى ردًّا على فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢].(٣)

وقد دلت الأحاديث النبوية على هذه المرتبة، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ»؟ قَالَ قُلْنَا إِلَّا أن تخبرنا ـ فقال لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ؛ فَلَا يُزَادُ فِيْهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَلِأَيِّ شَيْءٍ إذًا نعمل إن كان هذا أمرًا قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ «سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: بِيَدِيهِ، فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيْقٌ فِي السَّعِيْرِ» قال الإمام الترمذي: هذا الحديث حسن غريب

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، ح رقم ٢٦٥٠، المختصر، ج٢، ص ٤١٦.

(٢) سبق تخريجه وهو في البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

(٣) ابن القيم، شفاء العليل، ج١، ص ١١٥، ومعارج القبول، ج٣، ص ٩٢٤

صحيح[(١)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت في الأرض، وقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ» فَقَالَ رَجل من القوم: أَلا نتكل يا رسول اللَّه، قال: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [الليل:٥][(٢)].

قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: (أجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب وقد دل القرآن على أن الرب ـ تعالى ـ كتب في أم الكتاب ما يفعله، وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله، وكلامه، فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب»[(٣)].

● الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: وهي مرتبة المشيئة وهذه المرتبة دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند اللَّه، والفطرة التي فطر اللَّه عليها خلقه، وأدلة العقول، والعيان، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة اللَّه وحده فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن)[(٤)].

والأدلة على ذلك كثيرة يطول حصرها؛ ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]،

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار، ح رقم ٢١٤١، ج٤، ص ٤٤٩، وأحمد البنا، الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد، ح رقم ٣٣، ج١، ص ١٣٨.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ح رقم ٤٩٤٥، الفتح، ج٨، ص ٧٠٨.

(٣) شفاء العليل، ج١، ص ١٢٠.

(٤) المرجع السابق، ابن القيم، ج١، ص ١٢٥، وانظر حكمي، معارج القبول، ج٣، ص ٩٤٠.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩].

وفي صحيح البخاري عن أبي قتادة عن أبيه حين ناموا عن الصلاة، قال النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ)(١)، وفي حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا، وَبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا، وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبُّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رب أَجَلُهُ، فَيقول رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، فَيَقُولُ يَا رَبُّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ فَلاَ يَزِيدُ عَلَى أَمْرٍ وَلَا يَنْقُصُ»(٢).

● الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: (مَرْتَبَةُ خلق الله ـ سبحانه ـ الأعمال، وتكوينه، وإيجاده لها: وهذا أمر متفق عليه بين الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وعليه اتفقت الكتب الإلهية، والفطر، والعقول، والاعتبار، وخالف في ذلك مجوس الأمة، فأخرجت طاعات ملائكته، وأنبيائه، ورسله، وعباده، المؤمنين، وهي أشرف ما في العالم، عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقين لها، ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته(٣).

ومن الأدلة على هذه المرتبة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل:٨١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ح رقم ٧٤٧١، الفتح، ج١٣، ص ٤٤٧.

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب خلق الإنسان في بطن أمه، ح رقم ٢٦٤٥، المختصر، ج٢، ص ٤١٤.

(٣) ابن القيم، شفاء العليل، ج١، ص ١٤٥.

خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٥،٩٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس،٧-٨].

٤ـ «مَرَاحِلُ كِتَابَةِ الْمَقَادِيرِ»:

١ـ تَقْدِيرُ الْمَقَادِيرِ قبل خلق السماوات والأرض[1] قال ـ تعالى ـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد:٢٢،٢٣].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[2].

٢ـ في تَقْدِيرِ الرَّبِّ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ شقاوة العباد، وسعادتهم، وأرزاقهم وآجالهم قبل خلقهم، ويدخل فيه كتابة الميثاق[3] يوم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ». حسنه الترمذي[4].

٣ـ التَّقْدِيرُ الثَّالِثُ: والجنين في بطن أمه وهو تقدير شقاوته، وسعادته، ورزقه

---

(١) ابن القيم، شفاء العليل، ج١ص ٢٧، وحكمي، معارج القبول، ج٣، ص ٩٢٨.

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى ـ عليهما السلام ـ، ح رقم ٣٥٦٢، المختصر، ص٤١٨.

(٣) ابن القيم، شفاء العليل، ج١، ص ٣٣، وحكمي، ج٣، ص ٩٣٠.

(٤) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، ح رقم ٢٦٤٣، ح٥، ص ٢٦.

وأجله، وسائر ما يلقاه)[١]، قال - تعالى -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج:٥] وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ ﴾ [النجم: ٣٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً؛ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ، أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[٢].

وعن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ، أَمْ سَعِيدٌ، فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصحيفَةُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»[٣].

---

(١) ابن القيم، شفاء العليل، ج١، ص ٦٦، وحكمي، ج٣، ص ٩٣٤.

(٢) البخاري، كتاب القدر، أوله، ح رقم ٦٥٤٩، الفتح، ج١١، ص ٤٧٧، ومسلم، كتاب القدر، باب خلق الإنسان، ح رقم ٢٦٤٥، المختصر، ج٢، ص ٤١٤.

(٣) البخاري، من رواية أنس بن مالك، كتاب القدر، أوله، ح رقم ٦٥٩٥، الفتح ج١١، ص ٤٧٧، ومسلم، كتاب القدر، باب خلق الإنسان، ح رقم ٢٦٤٥، المختصر، ج٢، ص ٤١٤.

التَّقْدِيرُ الرَّابِعُ: ليلة القدر: يقدر فيها كل ما يكون في السنة إلى مثلها)[١]، قال ـ تعالى ـ: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾[الدخان: ١إلى٥]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال: يحج فلان، ويحج فلان)[٢].

التَّقْدِيرُ الْخَامِسُ الْيَوْمِيُّ: وهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق[٣]، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، روى الطبري عن عبيد بن عمير قال: (يجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، أو يفك عانيًا، أو يشفي سقيمًا، وعن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيًا، ويكشف كربًا، ويجيب مضطرًا، ويغفر ذنبًا، ويتوب على قوم ويغفر)[٤].

وقال الشيخ حافظ حكمي ـ رحمه الله ـ: (وجملة القول في ذلك أن التقدير اليومي هو تأويل المقدور على العبد، وإنفاذه في الوقت الذي سبق أن يناله منه لا يتقدمه، ولا يتأخره كما أن في الآخرة يأتي تأويل الجزاء الموعود إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، ولكل نبإٍ مستقر، وسوف تعلمون)[٥].

٥ـ تَفْصِيلٌ فِي مَسْأَلَةِ خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ:

قال الإمام البيهقي: (والله خالق لأفعال العباد: قال ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] فدخل فيه الأعيان

(١) ابن القيم، شفاء العليل، ج١، ص ٦٩، وحكمي، معارج القبول، ج٣، ص ٩٣٧.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، ج٥، ص ٤١٤، ت عبدالسلام شاهين، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، بهامش تفسير الخازن.

(٣) ابن القيم، شفاء العليل، ج١، ص ٧١، وحكمي، معارج القبول، ج٣، ص ٩٣٧.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج٢٧، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٥) معارج القبول، ج٣، ص ٩٣٩.

والأفعال من الخير والشر، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد:١٦]، فنفى أن يكون خالق غيره، ونفى أن يكون شيء غير مخلوق، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله ـ سبحانه ـ خالق بعض الأشياء دون جمعها، وهذا خلاف الآية ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان، فلو كان الله خالق الأعيان والناس خالقي الأفعال لكان خلق الناس أكثر من خلقه، ولكانوا أتم قوة منه وأولى بصفة المدح من ربهم ـ سبحانه ـ ولأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦] فأخبر أن أعمالهم مخلوقة لله ـ عز وجل)[١].

وقال البخاري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر:٥٧] عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول: (وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»[٢].

وروى البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ، وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾»[٣].

وعن طاوس اليماني قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: (كل شيء بقدر، وسمعت عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، وَقَالَ عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

---

(١) البيهقي، الاعتقاد والهداية، ص ٩١، ت كمال يوسف الحوت، ط١، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب بيروت.

(٢) البخاري، كتاب القدر، باب ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، ح رقم ٦٦٢٠، الفتح ج١١، ص ٥١٥.

(٣) البخاري، خلق أفعال العباد، ص ٤٦، ت د. عبدالرحمن عميرة، ط٢، دار عكاظ للنشر، جدة.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ حتى العجزُ والكيسُ)[١] وقال البخاري - رحمه الله -: سمعت تقي بن سعيد يقول: (ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة، قال أبو عبدالله؛ (أي البخاري): حركاتهم، وأصواتهم، واكتسابهم، وكتابتهم مخلوقة)[٢].

وقال الشيخ محمد صديق القنوجي: (والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن، والكافر والبر، والفاجر والمصلي، والصائم، وللعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة والله خالقهم، وخالق قدرتهم، وإرادتهم؛ فالقدر ظاهره ، وباطنه ومحبوبه، ومكروهه، وحسنه، وسيئه وقله، وكثره، وأوله، وآخره من الله - عز وجل - قضاء قضاه على عباده، وقدر قدره عليهم لا يعد واحد منهم مشيئة الله، ولا يجاوز قضاءً، بل كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم، وهو عدل منه - جل ربنا، وعز-، والزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والشرك، والكفر، والمعاصي، والكبائر، والصغائر، كلها بقضاء الله، وقدر منه من غير أن يكون لأحد من الخلق حجة على الله)[٣].

٦- تَقْسِيمُ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ إِلَى كَوْنِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ:

فالله - سبحانه وتعالى - لا يقع شيء في هذا الكون إلا بإرادته، ومشيئته وهذه الإرادة هي التي يكون بها الهدى والضلال، وهي من أهم مسائل القدر، وهي تنقسم إلى: (إِرَادَةٍ كَوْنِيَّةٍ: وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد: التي يُقَالُ فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقوله: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ ﴾ [هود:٣٤]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا

(١)، (٢) البخاري، خلق أفعال العباد، ص ٤٧.

(٣) القنوجي، عقيدة أهل الأثر، ص ٩١، ت، عاصم القريوتي، ط١، ١٤٠٤هـ.

شَاءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩]، وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩]، قال السلف خلق فريقًا للاختلاف، وفريقًا للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة، وهناك كونية، وقع المراد بها، فقوم اختلفوا، وقوم رحموا.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّاني: فهي الإرادة الشرعية: وهي محبة المراد، ورضاه، ومحبة أهله والرضا عنهم، وجزاءهم بالحسنى كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:٦]، وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]؛ فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأوَّل من الإرادة؛ ولهذا كانت الأقسامُ أربعةً، أحدها: ما تعلقت به الإرادتان؛ وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة؛ فإن اللّه أراده إرادةَ دين، وشرع، فأمر به، وأحبه، ورضيه، وأراده إرادة كون، فوقع، ولولا ذلك لما كان، والثاني: ما تعلقت بها الإرادة الدينية فقط؛ وهو ما أمر اللّه به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الأمر الكفارُ والفجارُ، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها لو وقعت، ولو لم تقع.

وَالثَّالِثُ: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط؛ وهو ما قدره، وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها؛ كالمباحات، والمعاصي؛ فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته، وخلقه لها لما كانت، ولما وجدت، فإنه ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة، ولا هذه؛ فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي، إذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها، وقد لا يقع(١).

٧- إِنَّ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ لاَ يَعْنِي الْجَبْرَ الذي قالت به فرق الابتداع:

وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى، ولكن المبتدعة الغلاة عندما جهلوا مراد هذه النصوص تجرأوو في إذاعة بدعتهم، والقول بالجبر، ولكن القرآن الكريم أثبت للعبد اختيارًا ومسئولية عن فعله، وعليه يعاقب وعليه يثاب؛ حيث يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال - تعالى -: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم:٤٢-٤٣]، وقال - تعالى -: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقوله - تعالى -: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ ﴾ [النساء:٧٩] وقال - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

ومن الأحاديث النبوية التي تثبت قدرة العبد ومسئوليته عن أفعاله قوله ﷺ في الحديث القدسي الجليل: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(٢).

ويثبت الرسول ﷺ الأثر الذي يحدثه الناس في انحراف الأطفال الذين يولدون على الفطرة، فيقول: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يهودانه، أو ينصرانه، أو

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٨، ص ٨٨١ - ٩٨١,

(٢) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح رقم ٢٥٧٧، المختصر، ج٢، ص ٣٩٣ .

يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

وقد كان الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ ومن تبعهم بإحسان، أحسن الناس فهمًا لمسائل القدر، ولم يخطر على بال أحدهم القول بالجبر، وعندما سمع علي رضي الله عنه من قال بذلك عند منصرفه من صفين عندما سأله أحد أفراد جيشه، فقال يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام، أبقضاء اللَّه وقدر، أم غيرهما، قال علي رضي الله عنه: (والذي خلق الحبة، وَبرأ النسمة، ما علوتم تلعة، ولا هبطتم واديًا إلا بقضاء من اللَّه وقدر، قال الشيخ: عند اللَّه أحتسب عناي وإليه أشكو خيبة رجائي، ما أجد لي من الأمر شيئًا، قال: بلى، قد أعظم اللَّه لكم الأجر على مسيركم، وأنتم سائرون، وعلى مقامكم، وأنتم مقيمون، وما وضعتم قَدَمًا، ولا رفعتم أخرى إلا وقد كتب اللَّه لكم أجرًا عظيمًا، قال الشيخ: كيف يا أمير المؤمنين والقضاء والقدر ساقانا وعنهما وردنا وصدرنا؟ قال علي رضي الله عنه: أيها الشيخ، لعلك ظننته قضاء جبرًا، وقدرًا قسرًا، لو كان ذلك كذلك، لبطل الأمر، والنهي، والوعد والوعيد، وبطل الثواب والعقاب، ولم يكن المحسن أولى بمثوبة الإحسان من المسيء، ولا المسيء أولى بعقوبة الإساءة من المحسن)[(٢)].

وقد كان علماء السلف ينكرون لفظ الجبر ومؤداه الذي قال به المبتدعة الجهمية ومن تابعهم، فقد سئل سفيان بن عيينة عن الجبر؟ فقال السائل: جبر اللَّه العباد على المعاصي، فغضب سفيان من ذلك، وقال: لا أدري ما الجبر، ولكني أقول لم يجد من

---

(١) سبق تخريجة، وهو في البخاري، رقم ١٣٨٥، ومسلم، رقم ٢٦٥٨ .

(٢) ابن بطة، الإبانة الكبرى، كتاب القدر، ت آدم الأثيوبي، ج٢، ص ٢٥٠، رسالة علمية بجامعة أم القرى، وانظر ابن عساكر، المختصر، ج١٨، ص ٧٢، ت روحية النحاس، ط سنة ١٤٠٩هـ، دار الفكر وسوف نعرض لهذا النص في النقاش العقدي بين الصحابة فيما يأتي بإذن الله.

إتيانه بدًّا[(١)].

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمة عن أئمة السلف؛ (مثل الأوزاعي، والثوري، وعبدالرحمن ابن مهدي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم: أن هذا اللفظ لا يثبت، ولا ينفي مطلقًا؛ فلا يقال مطلقًا جبر، ولا يقال: لم يجبر؛ فإنه لفظ مجمل، ومن علماء السلف من أطلق نفيه؛ كالزبيدي صاحب الزهري وهذا نظر إلى المعنى المشهور من معناه في اللغة، فإن المشهور إطلاق لفظ الجبر والإجبار على ما يفعل بدون إرادة المجبور بل مع كراهيته كما يجبر الأب ابنته على النكاح، وهذا المعنى منتف في حق اللَّه ـ تعالى ـ، فإنه ـ سبحانه ـ لا يخلق فعل العبد الاختياري بدون اختياره، بل هو الذي جعله مريدًا مختارًا، وهذا لا يقدر عليه أحد إلا اللَّه؛ ولهذا قال من قال من السلف: اللَّه أعظم، وأجل من أن يجبر إنما يجبره غيره من لا يقدر على جعله مختارًا، واللَّه ـ تعالى ـ يجعل العبد مختارًا، فلا يحتاج إلى إجباره؛ ولهذا قال الأوزاعي، والزبيدي وغيرهما: نقول: جُبِلَ، ولا نقول: جُبِرَ؛ لأن الجبل جاءت به السنة كما جاء في الحديث الصحيح: (بأن النبي ﷺ قال لأشج عبدالقيس: (إن فيك خلقين يحبهما اللَّه: الحلم والأناة فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال بل خلقين جبلت عليهما فقال الحمد للَّه الذي جبلني على خلقين يحبهما اللَّه)[(٢)] ويفصل ابن القيم رحمه اللَّه في كلام دقيق هذه المسألة فيقول (فأخبر النبي ﷺ أن اللَّه جبله على الحلم والأناة وهما من الأفعال الاختيارية وإن كانا خلقين قائمين بالعبد فإن من الأخلاق ما هو كسبي ومنها ما لا يدخل تحت الكسب والنوعان من جبل اللَّه العبد عليهما وهو سبحانه يحب ما جبل عبده عليه من محاسن الأخلاق ويكره ما جبله عليه من مساوئها فكلاهما بجبله وهذا محبوب له وهذا مكروه.

ومما يوضح ذلك أن لفظ الجبر لفظ مجمل فإنه يقال: أجبر الأب ابنته على النكاح

---

(١) قوام السنة، الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة، ج٢، ص ٥٧ .

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج١، ص ٢٤٦، والحديث رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان المختصر، ج١، ص ٢٢، ح رقم ١٨.

وجبر الحاكم على البيع ومعنى الجبر إكراهه عليه، ليس معناه أنه جعله محبًا لذلك راضيًا به مختارًا له والله - تعالى - إذا خلق فعل العبد جعله محبًا له مختارًا لإيقاعه راضيًا به كارهاً لعدمه فإطلاق لفظ الجبر على ذلك فاسد لفظًا ومعنى فإنه سبحانه أجل وأعز من أن يجبر عبده بذلك المعنى وإنما يجبر العاجز على أن يجعل غيره فاعلاً بإرادته ومحبته ورضاه، وأما من جعل العبد مريدًا محبًا مؤثرًا لما يفعله فكيف يقال إنه أجبره عليه فهو سبحانه أجل وأعظم وأقدر من أن يجبر عبده ويكرهه على فعل ما يشاؤه منه، بل إذا شاء من عبده أن يفعل فعلًا جعله قادرًا عليه مريدًا له مختارًا لإيقاعه، وهو أيضًا قادر على أن يجعله فاعلًا له باختياره، مع كراهيته له وبغضه ونفرته منه، فكل ما يقع من العباد بإراداتهم ومشيئاتهم فهو سبحانه الذي جعلهم فاعلين له سواء أحبوه أو أبغضوه أو كرهوه وهو سبحانه لم يجبرهم في النوعين[1].

ويقول الإمام الخطابي: (قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله والقضاء منه الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم أن فلج آدم في الحجة على موسى إنما كان من هذا الوجه وليس الأمر في ذلك على ما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد وإكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها، والقدر اسم لما صدر مقدرًا من فعل القادر، والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله - عز وجل -: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢] أي خلقهن وإذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم وإكسابهم ومباشرتهم تلك الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمد إرادة واختيار فالحجة إنما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها[2].

ويرد الشيخ عبدالمجيد الزنداني على الزاعمين أن الخلق مجبورون على أفعالهم فيقول: (يقول بعض الجهلة إن ما كتبه الله في اللوح هو الذي جعل تارك الصلاة تاركًا

---

(١) ابن القيم شفاء العليل، ج١، ص ٣٢٧ .

(٢) الخطابي، معالم السنن شرح أبي داود، ج٤، ص ٢٩٧، ط١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

للصلاة وجعل المصلي مصليًا، وهذا وهم لأن المصلي يقوم إلى الصلاة باختياره دون إجبار وتارك الصلاة يتركها دون إكراه أو إجبار وهذا ما يعرفه كل إنسان لأن اللّٰه أراد أن يخلق الإنسان وله حرية واختيار، أما إذا سأل السائل: كيف لا يكون ما قد كتب في اللوح مجبرًا للانسان على العمل. مع أنه قد كتب منذ الأزل؟ فتقول: إن الأمر سهل يوضحه هذا المثال.

ألا ترى أن الأستاذ الذكي الخبير بأحوال طلابه الذي يضع أسئلة الامتحان لو أنه كتب في ورقة أسماء من هو متأكد أنهم سيرسبون في الامتحان وبين أسماء من هو متأكد من نجاحهم، ثم جاء الامتحان وظهرت النتيجة ثم جاء الذين رسبوا محتجين بقولهم؛ إن ما كتبه الأستاذ علينا في الورقة بأننا سنرسب هو السبب في رسوبنا! فهل يقبل عذرهم؟ أم أنه سيقال لهم إن ما كتبه الأستاذ في الورقة أمر متعلق بعلمه وخبرته السابقة بأحوالكم ورسوبكم متعلق بإهمالكم، فلا تعتذروا لإهمالكم بعلم الأستاذ وخبرته - وللّٰه المثل الأعلى - فهو سبحانه خالق الخلق، وهو العالم بأحوالهم قال - تعالى -: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] ولقد خلقنا اللّٰه سبحانه لقضاء فترة الامتحان على هذه الدنيا وهو جل شأنه يعلم نتيجة الامتحان، فكتب الشقاوة على الاشقياء وكتب السعادة للسعداء حسب علمه المحيط بما كان وما سيكون.

وربما أخطأ الأستاذ في تقديره لنتائج طلابه، لكن قدر اللّٰه لا يخطئ في تقديره لأعمال خلقه والكتابة في اللوح أمر متعلق بعلم اللّٰه السابق، فترك الصلاة مثلًا أمر متعلق بتمرد وإهمال ومعصية من تارك الصلاة وقد أراد الجاهلون أن يعتذروا للمعصية والضلال بعلم اللّٰه وكماله، إن علم اللّٰه سابق لا سائق، ولقد أخبر اللّٰه ورسوله ﷺ بما هو كائن إلى يوم القيامة ورأينا فيما سبق علامات من علامات الساعة أن كثيرًا من الاشياء التي ذكرها الرسول ﷺ وكتبها المسلمون في كتب الحديث تقع، فهل يزعم شخص أن كتابة المسلمين لما يحدث الآن هو الذي أحدثها؟ إن العلم سابق لا سائق[1].

(١) عبدالمجيد الزنداني وآخرون الإيمان، ص ١٢٥ - ١٢٦، ط١، ١٤٠٩هـ، دار المجتمع جدة.

٨ـ موقف الصحابة من القضاء والقدر:

مما لا شك فيه أن الصحابة رضوان اللَّه عليهم كانوا من أعظم الناس فهمًا وإدراكًا لكل عقائد الإسلام ومنها عقيدة القدر فقد عرضت إليهم من نصوص القرآن والسنة عرضًا موسعًا وسهلاً ومبسطًا وآمنوا بها على حقيقتها وعلى التفصيلات السابقة التي عرضناها والتي صنفها العلماء على ضوء هذه النصوص، وقد ورد أن نقاشًا حدث بين الصحابة في القدر ونهاهم الرسول ﷺ عن العودة لمثله فانتهوا عليهم رضوان اللَّه[١]، ولكن ما يميز موقف الصحابة من القدر هو كثرة التساؤلات عنه، وهذه الأسئلة وجهت، إلى الرسول ﷺ وكان يجيب موضحًا لها كلها وكان الصحابة رضوان اللَّه عليهم تكفيهم مثل هذه الإجابات فاعتقدوا العقيدة الحقة ووقفوا عند البيان النبوي ولم يتعدوه إلى الجدال المذموم وسوف نعرض لبعض هذه التساؤلات لبيان هذا المنهج الذي انتهجوه رضوان اللَّه عليهم.

فقد روى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رجل يا رسول اللَّه: أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له[٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جعثم، فقالَ: يَا رَسُولَ الله، بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا؛ كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ، فيمَ العملُ اليومَ؛ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقلامُ، وَجَرَتْ بِهِ المقاديرُ، أم فيما نَسْتَقْبِلُ؟ قال: لاَ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقلامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ. قال: فَفِيمَ العَمَلُ؟ قال: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، وفي رواية: كُلُّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ»[٣].

وروى الإمَامُ أحمد ـ رحمه الله ـ مثل هذه الأسئلة عن أبي بكر الصديق، وعمر بن

---

(١) سوف نعرض لهذا النقاش العقدي بين الصحابة.

(٢) البخاري، كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، ح٦٥٩٦/ الفتح ج١١ ص٤٩١ ومسلم ـ كتاب القدر ـ باب خلق الإنسان ح رقم ٢٦٤٩، المختصر، ج٢، ص ٤١٦ .

(٣) مسلم، كتاب القدر، باب خلق الإنسان، ح رقم ٢٦٤٨، المختصر، ج٢، ص ٤١٥ .

الخطاب[(١)]، وروى البخاري ومسلم، عن عليٍّ ـ كَرَّمَ الله وجهه ـ قال: كُنَّا في جنازةٍ في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقَعَدَ وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كَتَبَ شَقِيَّةً، أَوْ سَعِيدَةً، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فقال ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فقال: اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ. أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل: ٥إلى ١٠][(٢)].

وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: (توفي صبي، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَلَا تَدْرِينَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَخَلَقَ النَّارَ، فَخَلَقَ لِهَذِهِ أَهْلًا، وَلِهَذِهِ أَهْلًا»، وَفِي رِوَايَةٍ أنها قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة؛ لم يعمل السوء، ولم يدركه، قال ﷺ: «أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»[(٣)].

وكان رسول الله ﷺ يصحح بعض المواقف في معتقد الصحابة في القدر، فعن عبدالله رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللَّهُمَّ، أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وبأبي، أبي سفيان، وبأخي معاوية قال: فقال النبي ﷺ «قَدْ سَأَلْتِ اللهَ

(١) انظر، البنا، الفتح الرباني، ج١، ص ١٣٥، وص ١٣٨ .

(٢) البخاري ـ كتاب القدر. باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ح رقم٦٦٠٥/ الفتح ج١١ص٤٩٤، ومسلم ـ كتاب القدر ـ باب خلق الانسان ح رقم٢٦٤٧/ المختصر ج٢، ص٤١٥.

(٣) مسلم ـ كتاب القدر ـ باب كل مولود يولد على الفطرة ح رقم٢٦٦٢/ المختصر ج٢، ص٤٢٠.

لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، أَوْ عَذَابِ الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا، وَأَفْضَلَ»[(١)].

ومن المواقف الهامَّة التي عرضت فيها عقيدة القدر، ووعاها الصحابة، وآمنوا بها؛ ولذلك لم يكن عندهم إشكال في عقيدة القدر أو غيرها، ما رواه البخاري عن سهل «أن رجلًا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ فقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا، فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جرح، فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعًا فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: وما ذاك: قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إليه وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»[(٢)].

إن هذه التساؤلات من الصحابة جاءت بطبيعتها الفطرية بعيدة عن التعنت، والتكلف الممقوت، وكانت إجابات النبي ﷺ إجابات واحدة لا تتغير، وهذا يبين حقيقة العرض النبوي الموافق للنصوص القرآنية التي فهمها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، ولو لم يفهموا لسألوا واستوضحوا، ولأجابهم النبي ﷺ، ومما يدلك على عمق هذا الفهم أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد تناقشوا في القدر مع بعضهم البعض ومع التابعين وردوا على نفاة القدر، وكانت مناقشاتهم، وردودهم تسير في نفس الإطار الذي ورثوه عن النبي ﷺ فلم يزيدوا، أو ينقصوا، أو يبتدعوا شيئًا مما

---

(١) مسلم ـ كتاب القدر ـ باب كل مولود يولد على الفطرة ح رقم٢٦٦٣/ المختصر ج٢، ص٤٢١.

(٢) البخاري ـ كتاب القدر ـ باب العمل بالخواتيم ح رقم ١٦٠٧/ الفتح ج١١ص٤٩٩.

ابتدعه المتأخرون وفي هذا يقول ابن الوزير: (فأما الخوض فيه على جهة التعرف والتعلم لما جاءت به الشريعة، ثم الإيمان به على الوجه المشروع؛ فإنه لم يؤخر هذا لشرار الأمة، بل قد تواتر أن أصحاب رسول الله ﷺ سألوا عنه النبي ﷺ وخاضوا في معرفته، وفي وجوب الإيمان به، فلم يزجرهم رسول الله ﷺ عن ذلك القدر من الخوض فيه لما كان وسيلة إلى الإيمان به، ولم يكن فيه شيء من شعار المبتدعة، وكذلك لم يترك الجواب عليهم بالقدر الواجب بيانه في ذلك[1].

* * * * *

(١) ابن الوزير - العواصم والقواصم ج٦، ص١٧٦- شعيب الاناءوط.

الْفَصْلُ السَّادِسُ
الإِيمَانُ وَالْعَمَلُ

لقد كان ارتباط الإيمان بالعمل بديهية في حياة الصحابة - رضوان الله عليهم -، ولم يكونوا يفرقون بينهما، ولكن عندما برزت فرق الابتداع من المرجئة والجهمية، وخاضت خوضها المبتدع، وفرقت بينهما فخالفوا بذلك منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، وقد هيَّأَ اللهُ - تعالى - علماء السلف الصالح للرد على هذه البدعة، وإبطالها، وهذا ما سنعرض له عند حديثنا عن فرقة المرجئة، ومقالاتها المبتدعة، وسنعرض في هذا الفصل لعلاقة الإيمان بالعمل من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ثم دراسة موضوع زيادة الإيمان ونقصه، ومسألة الاستثناء في الإيمان مقررين لكل ذلك على المنهج الذي كان يعيشه الصحابة الكرام قبل ظهور بدعة الإرجاء المذمومة.

١- الإِيمَانُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا[١]

قال الفيروزآبادي: آمن به إيمانًا: صدقه، والإيمان: الثقة وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة[٢]، ويعرفه الجرجاني، فيقول: الإيمان في اللغة: التصديق بالقلب وفي الشرع: هو الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان قيل من شهد وعمل ولم يعتقد، فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل، واعتقد، فهو فاسق، ومن أخل بالشهادة، فهو كافر، والإيمان على خمسة أوجه: إيمان مطبوع، وإيمان مقبول وإيمان معصوم وإيمان موقوف، وإيمان مردود؛ فالإيمان المطبوع هو إيمان الملائكة، والإيمان المعصوم هو إيمان الأنبياء، والإيمان المقبول هو إيمان المؤمنين، والإيمان الموقوف هو إيمان المبتدعين، والإيمان المردود هو إيمان المنافقين[٣].

---

(١) سوف نعرض لبدعة الجهمية في الإيمان في مبحث الإرجاء بإذن الله - تعالى -.

(٢) الفيروزآبادي - القاموس المحيط، ص١٥١٨، وانظر - المعجم الوسيط، ج١، ص٢٨، دار الفكر، بيروت.

(٣) الجرجاني - التعريفات، ص٤٠.

ومن تعريفات المتكلمين الذين يرون أن الإيمان هو التصديق ما قاله الباقلاني (ت٤٠٣)؛ حيث قال: (الإيمان هو التصديق بالله ـ تعالى ـ وهو العلم، والتصديق يوجد في القلب؛ فإن قال: وما الدليل على ما قلتم ـ قيل له: إجماع أهل اللغة قاطبة على الإيمان في اللغة قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق لا يعرفون في لغتهم إيمانًا غير ذلك[(١)]، وتابعه على ذلك الجويني (ت٤٧٨هـ)، فقال: (والمرضي عندنا أن حقيقةَ الإيمان التصديقُ بالله ـ تعالى ـ، فالمؤمن بالله من صدقه. والدليل على أن الإيمان هو التصديق صريح اللغة وأصل العربية، وهذا لا يُنْكَرُ، فيحتاج إلى إثباته[(٢)].

إن تعريفات المتكلمين أخذت بالمعنى اللُّغوي فقط، ووقعت فيما وقع فيه المرجئة والجهمية من قصر هذا اللفظ على معناه اللغوي وعدم شموليته للتعريف الشرعي للإيمان الذي سنذكره بعد قليل وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا على رأيهم وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة وهذه طريقة أهل البدع؛ ولهذا كان الإمام أحمد يقول: (أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس[(٣)].

وقد عاب شيخ الإسلام ابن تيمية طريقة المتكلمين فقال: وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان، مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة من أنه يستثنى في الإيمان، واتبعه أكثر أصحابه في نصر قول جهم في ذلك، ومن لم يقف إلا على كتب الكلام، ولم يعرف ما قاله السلف وأئمة السنة في هذا الشأن[(٤)].

أما علماء السلف، فقد كان موقفهم الأخذ بالتعريف الشمولي الشرعي لمعنى

---

(١) الباقلاني ـ تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ص٣٨٩، ت عماد الدين حيدر، ط١، ١٤٠٧ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت.

(٢) الجويني ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة ت د. محمد يوسف موسى ـ وعلي عبدالمنعم ط١٣٦٩هـ ـ مكتبة الخانجي ـ مصر.

(٣) ابن تيمية: الإيمان، ص١١٣ـ ١١٤.

(٤) ابن تيمية ـ الإيمان ص١١٥.

الإيمان، وليس الاقتصار على المعنى اللغوي فقط معتمدين بذلك على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والتطبيق الواقعي والعملي للإيمان في حياة الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

حيث يقول الإمام الآجري: (اعلموا ـ رحمنا الله ـ تعالى ـ وإياكم ـ أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح فإذا كملت هذه الثلاث الخصال كان مؤمنًا[١]).

ثم يوسع ابن بطة ـ رحمه الله ـ هذا التعريف؛ ليشمل ترك المنهيات بجانب عمل المأمورات، فيقول: (الإيمان بالله ـ عزَّ وجل ـ معناه التصديق بما قاله، وأمر به، وافترضه، ونهى عنه من كل ما جاءت به الرسل من عنده، ونزلت فيه الكتب، وبذلك أرسل المرسلين، فقال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والتصديق بذلك قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان يزيده كثرة العمل، والقول بالإحسان، وينقصه العصيان[٢]).

واستهل الإمام البيهقي ـ رحمه الله ـ حديثه عن الإيمان بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢إلى٤]، فأخبر أن المؤمنين هم الذين جمعوا هذه الأعمال التي بعضها يقع في القلب وبعضها باللسان وبعضها بهما وسائر اليدين، وبعضها بهما، أو بأحدهما وبالمال)[٣]. وعلى هذا المنهج الشمولي الذي جاء به الإسلام،

(١) الآجري ـ الشريعة، ص١١٩.

(٢) ابن بطة ـ الشرح والبانة على أصول السنة والديانة، ص١٩٢-١٩٣ت، د. رضا نعسان معطي، ط٢-١٤١١هـ. مطابع الصفا ـ مكة المكرمة.

(٣) البيهقي ـ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، ص١١٥ـ ت كمال الحوت، ط١ -١٤٠٣ـ عالم الكتب ـ بيروت.

ووسع به المفهوم اللغوي لمعنى الإيمان أجمع علماء السلف على اعتبار الإيمان هو الاعتقاد، والقول، والعمل وستأتي هذه التفصيلات في المبحث التالي:

٢- الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ:

أجمع علماء السلف على أن الإيمان الذي جاء به الرسول ﷺ واعتقده الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين لهم بإحسان هو قول وعمل يزيد وينقص.

وقد تأيدت أقوال علماء السلف بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهذه جملة من أقوالهم توضح ذلك: قال الإمام أحمد - رحمه الله - تعالى -: (نحن نقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص إذا زنى وشرب الخمر نقص إيمانه[1]، وقال الإمام البخاري - رحمه الله -: كتاب الإيمان؛ وهو قول وفعل، يزيد وينقص قال الله - تعالى -: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾ [الفتح:٤]، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣]، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ ﴾ [مريم:٧٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]، ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ﴾ [المدثر:٣١]، ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤]، وقوله - جل ذكره - ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٧٣]، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض، وشرائع، وحدودًا، وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكلمها لم يستكمل الإيمان؛ فإن أعش فسأبينهما لكم حتى تعلموا بها، وإن أمت، فما أنا على صحبتكم بحريص[2].

وقال الإمام البغوي - رحمه الله - تعالى -: (اتفقت الصحابة والتابعون، فمن بعدهم

---

(١) عبدالله بن أحمد - السنة، ج١، ص٣٠٧، والخلال، السنة، ص٥٦٥، د. عطية الزهراني، ط١/١٤١٠هـ - دار الراية - الرياض، وانظر القاضي أبو يعلى - مسائل الإيمان، ص٣٩٥، وما بعدها. ت سعود الخلف ط١- ١٤١٠- دار العاصمة - الرياض.

(٢) البخاري - كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس) - فتح الباري، ج١، ص٤٥.

من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله ـ سبحانه و تعالى ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٣،٤]، فجعل الأعمال كلها إيمانًا، وقالوا إن الإيمان قول وعمل وعقيدة يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية على ما نطق به القرآن في الزيادة، وجاء في الحديث بالنقصان في وصف النساء)(١).

ويفصل الإمام ابن منده ـ رحمه الله ـ في علاقة الإيمان بالعمل، فيقول: ذكر الأبواب في الشعب التي قالها النبي ﷺ أنها الإيمان، وأنها قول باللسان، ومعرفة بالقلب، وعمل بالأركان التي علمهن جبريل ـ عليه السلام ـ الصحابة: فمن أفعال القلوب: النيات، والإردات، والعلم، والمعرفة بالله، وبما أمر به والاعتراف له، والتصديق به وبما جاء من عنده والخضوع له ولأمره، والإجلال، والرغبة إليه، والرهبة منه، والخوف والرجاء، والحب له، ولما جاء من عنده والحب والبغض فيه، والتوكل، والصبر والرضاء، والرحمة، والحياء، والنصيحة لله ولرسوله ولكتابه، وإخلاص الأعمال كلها مع سائر أعمال القلب، ومن أفعال اللسان: الإقرار بالله، وبما جاء من عنده، والشهادة لله بالتوحيد ولرسوله بالرسالة ولجميع الأنبياء والرسل، ثم التسبيح، والتكبير والتهليل، والثناء على الله، والصلاة على رسوله، والدعاء، وسائر الذكر، ثم أفعال سائر الجوارح من الطاعات، والواجبات التي بني عليها الإسلام، أوَّلَهَا إتمام الطهارات، كما أمر الله ـ عزَّ وجل ـ: ثم الصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان والزكاة، على ما بينه الرسول ﷺ، ثم حج البيت من استطاع إليه سبيلا، وترك الصلاة كفر، وكذلك جحود الصوم، والزكاة، والحج، والجهاد فرض على الكفاية مع البر والفاجر، (من الولاة)، وسائر أعمال التطوع التي يستحق بفعلها اسم زيادة الإيمان، والأفعال المنهي

---

(١) البغوي ـ شرح السنة، ج١، ص٣٨-٣٩، ت. زهير الشاويش. وشعيب الأرناءوط، ط٢-١٤٠٣هـ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت، وانظر ابن حزم ـ الدرة فيما يجب اعتقاده، ص٣٢٦. ت د. أحمد بن ناصر الحمد ود. سعيد القزقي، ط١-١٤٠٨ـ مكتبة التراث ـ مكة المكرمة/ وصف النبي ﷺ للنساء بنقص العقل والدين ـ كما سيأتي عند ذكرنا للحديث.

عنها التي يفعلها يستحق نقصان الإيمان(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن قال قائل: إذا قلتم إن الإيمان المأمور به في الشريعة هو ما وصفتموه بشرائطه، وليس ذلك متلقى من اللغة، فكيف يستقيم قولكم إن الإيمان لغوي قلنا الإيمان هو التصديق لغة وشرعًا، غير أن الشرع ضم إلى التصديق أوصافًا في الصلاة، والصوم، والحج، ونحوها(٢).

فالإيمان عند علماء السلف يوصف بهذه الشمولية التي سبق ذكرها، والتي تعتمد على أصلين هامين أغفلهما المبتدعة، فعل الطاعات، والتقرب إلى الله بها؛ وهي التي تكون سببًا في زيادة الإيمان، والامتناع عن فعل المنهيات من المعاصي والمنكرات، بصغائرها وكبائرها التي هي سبب في نقص الإيمان؛ ولذلك قالوا: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وقد اعتمدت هذه النظرة الواسعة المعالم على موروث ضخم من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة تؤكد هذه المعاني بعيدًا عن النظرات العقيمة الضعيفة التي ابتدعها من لم ينشرح صدره لهذه الأدلة الكثيرة الواسعة ذات المدلول الكبير على معنى الإيمان، الذي قال به السلف - رحمهم الله.

● ومن هذه الأدلة قوله - تعالى -: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال - تعالى -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾

---

(١) ابن منده - كتاب الإيمان ج١،ص٣٦٢ت. د. علي الفقيهي ط٢-١٤٠٦- مؤسسة الرسالة بيروت، وانظر أبا عبيد القاسم بن سلام - كتاب الإيمان، ص٧٥ ت الشيخ الألباني.

(٢) ابن تيمية - مجموع الفتاوى (الايمان) جـ٧، ص٤٣٩.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾[المؤمنون: ١إلى ١١].

وقد طالب القرآن الكريم المؤمنين بأعمال لا يصح إيمانهم، ولا إسلامهم إلا بها فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج:٧٧].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

وقال ـ تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

كما طالبهم بالكف عن المعاصي، والمنكرات التي لا يصح إيمانهم، ولا يكتمل إلا بالامتناع عنها، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٢١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٠]، وقال ـ تعالى ـ عندما حولت القبلة واستشهد من أستشهد من الصحابة، وكانت صلاتهم إلى بيت المقدس: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:١٤٣]، فقد روى البخاري عن البراء، أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ

إِيمَـٰنَكُمْ ﴾(١).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

● أَمَّا الأَحَادِيثُ النبوية الواردة في دخول العمل في مفهوم الإيمان، فيطول ذكرها ومنها ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٢).

قال ابن حبان: (وقد تتبعت معنى الخبر مدة؛ وذلك أن مذهبنا أن النبي ﷺ لم يتكلم قط إلا بفائدة، ولا من سننه شيء لا يعلم معناه، فجعلت أعد الطاعات من الإيمان، فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئًا كثيرًا، فرجعت إلى السنة، فعددت كل طاعة عدها رسول الله ﷺ من الإيمان إلى ما بين الدفتين من كلام ربنا، وتلوته آية آية بالتدبر، وعددت كل طاعة عدها الله ـ جل وعلا ـ من الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنة، وأسقطت المعاد منها، فإذا كل شيء عده الله ـ جل وعلا ـ من الإيمان في كتابه، وكل طاعة جعلها رسول الله ﷺ من الإيمان في سننه تسع وسبعون شعبة لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيء، فعلمت أن مراد النبي ﷺ كان في الخبر أن الإيمان بضع وسبعون شعبة من الكتاب والسنن. وأما قوله ﷺ: «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»، فهو لفظة أطلقت على شيء بكناية سببه؛ وذلك أن الحياء جبلة في الإنسان، فمن الناس من يكثر فيه، ومنهم من يقل ذلك فيه، وهذا دليل صحيح على زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن الناس ليسوا كلهم على مرتبة واحدة في

---

(١) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب الصلاة من الإيمان رقم٤٠ـ الفتح جـ١، ص٩٥.

(٢) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب أمور الإيمان ح رقم ٩ـ الفتح ج١، ص٥١، ومسلم، كتاب الإيمان ـ باب عدد شعب الإيمان ح رقم٣٥ـ المختصر ج١، ص٢٨، وانظر ـ البيهقي ـ شعب الإيمان، ج١، ص٩٧، وما بعدها، حيث ألف كتابه الضخم على أساس هذا الحديث ت د. عبدالعلي حامد ط١، ١٤٠٦ الدار السلفية ـ بومبابي ـ الهند.

الحياء، فلما استحال استواؤهم على مرتبة واحدة فيه، صح أن من وجد فيه أكثر، كان إيمانه أزيد، ومن وجد فيه من أقل، كان إيمانه أنقص، والحياء في نفسه هو الشيء الحائل بين المرء وبين ما يباعده عن ربه من المحظورات، فكأنه ﷺ جعل ترك المحظورات شعبة من الإيمان بإطلاق اسم الحياء عليه[١].

ولما جاء وفد عبدالقيس إلى رسول الله ﷺ (أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال، «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ»؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسِ»، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ عَنِ الْحَنْتَمِ، وَالدبَاءِ، والنقير، والمزفت، وربما قال: الْمُقير، وقال: احفظوهن، وأخبروا بِهِنَّ من وراءكم[٢].

وقال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٣] وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (فَوَا الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»[٤].

وَبَيَّنَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الإيمان لا يكون له حلاوة ولا ثمرة إلا إذا اتصف المؤمن ببعض الأعمال القلبية من الحب في الله والكره في الله، فقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[٥].

---

(١) علاء الدين الفارسي ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ج١، ص٣٨٧-٣٨٩ بتصرف ت شعيب الأرناءوط، ط١/١٤٠٨هـ مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) سبق تخريجه ـ وهو في البخاري برقم ٥٣ـ الفتح ج١، ص١٢٩.

(٣) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ح رقم ١٣ الفتح ط١، ص٥٦.

(٤) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب حب الرسول من الإيمان ح رقم١٤ـ الفتح ج١، ص٥٨. ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ح رقم ٤٤ـ المختصر. ج١، ص٣٠.

(٥) البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب حلاوة الإيمان ح رقم ١٦ ـ الفتح ج١، ص٦٠ـ ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان خصال من اتصف به، ح رقم ٤٣/ المختصر ج١، ص٢٩.

وقال ﷺ: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ»(١).

ويعدد النبي ﷺ جملة من الأعمال التي يتصف بها المؤمن الصادق؛ فيقول - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَسْكُتْ(٢).

وقال ﷺ: (مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ؛ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلِّي عَلَيْهَا، وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ؛ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ(٣).

ويقرر النبي ﷺ نقصان الإيمان بالمعاصي؛ فيقول: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُلْحِقُ مَعَهُنَّ: وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(٤).

ومن الأحاديث التي دلت على نقصان الإيمان ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المصلى، فمر بالنساء، فقال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ، وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِن نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ! قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلُ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ فَقُلْنَ بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»(٥).

(١) البخاري - كتاب الإيمان - باب علاقة حب الانصار ح رقم ١٧- الفتح ج١، ص٦٢.

(٢) مسلم - كتاب الإيمان - باب الحث على إكرام الجار ح رقم ٤٨/ المختصر ج١، ص٣١.

(٣) البخاري - كتاب الإيمان - باب اتباع الجنائز من الإيمان ح رقم ٤٧/ الفتح ج١ص١٠٨.

(٤) مسلم - كتاب الإيمان - باب الإيمان ج١رقم ٥٧/ المختصر ج١، ص٣٣.

(٥) البخاري - كتاب الحيض - باب ترك الحائض الصلاة والصوم ح رقم ٣٠٤- الفتح ج١، ص٤٠٥، وانظر البغوي - شرح السنة ج١، ص٣٨.

● وقد فهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعون لهم بإحسان هذه التوجيهات الربانية والنبوية الفهم الصحيح، فلم يُؤْثَرْ عنهم التفريق بين الإيمان والعمل، كما زعم المبتدعة من المرجئة والجهمية وغيرهم، وهذه بعض الأقوال المروية عنهم في هذا الشأن فقد روى ابن بطة عن ابن عباس في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] قال: إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به، زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] قال ابن عباس: وكان المشركون والمسلمون يحجون جميعًا فلما نزلت براءة نُفي المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، وكان ذلك من تمام النعمة، وكمال الدين، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ﴾ [المائدة:٣][1].

وعن علي رضي الله عنه قال: (الإيمان يبدأ لمظة بيضاء في القلب كلما ازداد الإيمان، ازدادت بياضًا، حتى يبيض القلب كله وإن النفاق يبدأ لمظة سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق ازدادت حتى يَسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَالذي نفسي بيده، لو شققتم عن قلب مؤمن وجدتموه أبيض القلب، ولو شققتم عن قلب منافق وجدتموه أسود القلب)[2].

وكان عبدالله بن عمر يقول: (إن الحياء والإيمان قرنا جميعًا؛ فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخر)[3]، وكان ابن عباس يقول لغلمانه: «مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ الباءة، زوجناه، لا يزني

---

(١) ابن بطة، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ج٢، ص ٥١٥، ت د. رضا بن نعسان معطي رسالة دكتوراة مخطوطة بجامعة أم القرى، عام ١٤٠٣هـ.

(٢) ابن شيبة، الإيمان، ص ٥،٦، ت: الشيخ الألباني، ط ١٤٠٥هـ، دار القلم، الكويت وانظر: اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج ٥، ص ٩٤١.

(٣) ابن شيبة، الإيمان، ص ٨.

منكم زان إلا نزع الله منه نور الإيمان، فإن شاء رده، وإن شاء أن يمنعه منعه)[١]، وكان معاذ رضي الله عنه يقول للرجل من إخوانه (اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فيجلسان، فيذكران الله ويحمدانه)[٢]، (وكان عمر ربما يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه، فيقول: قم بنا نزدد إيمانا)[٣].

وعن كعب قال: (من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع محمدًا ﷺ فقد توسط الإيمان، ومن أحب لله، وأبغض لله وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان)[٤]، وقال سهل بن حجر الشيباني أدركت ألف أستاذ، وأكثرهم يقولون: الإيمان قول، وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وكتبت منهم[٥].

ويفسر الإمام سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ منشأ شبهة المبتدعة في فصل الإيمان عن العمل بعدم علمهم كيف فرضت الفرائض، وأصبحت شرطًا من شروط الإيمان وكمالاته، فيقول عندما سأله رجل عن الإيمان: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، قال: يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده، قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان، وحدوده، إن الله ـ عز وجل ـ بعث نبينا محمدًا ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله وأنه رسول الله، فلما قالوها، عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ـ عزَّ وجل ـ، فلما علم الله ـ عزَّ وجل ـ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة فأمرهم، ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، فلما علم الله ـ جل وعلا ـ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو

---

(١) ابن شيبة، ص٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥.

(٣) نفس المصدر، ص٣٦ـ واللالكائي، شرح أصول الاعتقاد ج٥، ص٩٤١.

(٤) ابن أبي شيبة ـ الإيمان، ص٤٣.

(٥) اللالكائي ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ج٥، ص٩٦٤.

لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، فلما علم الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ صدق ذلك من قلوبهم، أمرهم بالرجوع إلى مكة؛ ليقاتلوا آباءهم، وأبناءهم، حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، حتى أتى أحدهم برأس أبيه، فقال: يا رسول الله، هذا رأس شيخ الكافرين، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم الله ـ عزَّ وجل ـ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا رءوسهم تذللًا ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله ـ عزَّ وجل ـ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم، ففعلوا، حتى أتوا بها، قليلها وكثيرها، والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم، ولا طوافهم فلما علم الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان، وحدوده قال ـ عزَّ وجل ـ: قل لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

قال سفيان: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافرًا، ومن تركها كسلا، أو تهاونًا بها أدبناه، وكان بها عندنا ناقصًا، هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس[(١)].

وبعد هذا البيان الواضح من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين يتضح لنا هذا الأصل العظيم الذي اعتقده خيرة الله من خلقه ـ عليهم رضوان الله ـ ومن تبعهم بإحسان، وبهذا فإننا نضع الأساس العقدي الصحيح عن علاقة الإيمان بالعمل، والذي سوف يكون الرد الأمثل على فرقة المرجئة ومقالاتها المبتدعة، والتي غفلت، أو تغافلت عن هذه الأسس العقدية الواضحة المعالم، وسلكت مسلك أهل الابتداع المخالفين لمنهج السلف الصالح.

---

(١) الآجري ـ الشريعة، ص١٠٣-١٠٤، وابن بطة، الإبانة، ج٢، ص٥١٧.

٣ـ حُكْمُ الاسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ

● وقبل أن نختم هذا البحث لا بد لنا من بيان حكم الاستثناء في الإيمان، وما أُثِرَ عن بعض الصحابة والتابعين في هذا الشأن ونعني بالاستثناء في الإيمان أن المؤمن إذا سئل أَمُؤْمن أنت قال: أرجو ذلك، أو أنا مؤمن إن شاء الله دون أن يقطع بقوله: أنا مؤمن حقًّا يقول الإمام الآجري في تبرير الاستثناء في الإيمان، وعدم القطع به: (من صفة أهل الحق، ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان، لا على جهة الشك، نعوذ بالله من الشك في الإيمان، ولكن خوف التزكية لأنفسهم من الاستكمال للإيمان، لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان، أم لا؛ وذلك أن أهل العلم إذا سئلوا: أمؤمن أنت؟ قال آمنت بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار، وأشباه هذا، والناطق بهذا والمصدق به، بقلبه مؤمن وإنما الاستثناء في الإيمان: لا يدري أهو ممن يستوجب ما نعت الله ـ عزَّ وجل ـ به المؤمنين من حقيقة الإيمان، أم لا؟ هذا طريق الصحابة ـ رضي اللَّهُ عنهم ـ والتابعين لهم بإحسان عندهم أن الاستثناء في الأعمال لا يكون في القول، والتصديق بالقلب، وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان والناس عندهم على الظاهر مؤمنون به يتوارثون وبه يتناكحون، وبه تجري أحكام ملة الإسلام[(١)].

وقال ابن بطة: (اعلموا ـ رحمنا الله وإياكم ـ أن من شأن المؤمنين وصفاتهم وجود الإيمان فيهم ودوام الإشفاق على إيمانهم وشدة الحذر على أديانهم، فقلوبهم وجلة من خوف السلب قد أحاط بهم الوجل لا يدرون ما الله صانع بهم في بقية أعمارهم حذرين من التزكية متبعين لما أمرهم به مولاهم الكريم حين يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢] خائفين من حلول مكر الله بهم في سوء الخاتمة لا يدرون على ما يصبحون ويمسون قد أورثهم ما حذرهم الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ الوجل في كل قدم حين يقول: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤]، فهم بالحال التي وصفهم بها ـ عزَّ وجل ـ؛ حيث يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠]؛ فهم يعملون الصالحات، ويخافون سلبها والرجوع

(١) الآجري ـ الشريعة ص١٣٦.

عنها ويجانبون الفواحش والمنكرات، وهم وجلون من مواقعتها وبذلك جاءت السنة عن المصطفى ﷺ، ثم يستدل على ذلك بسؤال عائشة؛ حيث قالت: قلت: يا رسول الله، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق، ويزني، ويشرب الخمر ـ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي، ويتصدق، وهو يخاف أن لا يقبل منه[(١)]، قال الشيخ: فلما أن لزم قلوبهم هذا الإشفاق لزموا الاستثناء في كلامهم، وفي مستقبل أعمالهم، فمن صفة أهل العقل والعلم أن يقول الرجل: أنا مؤمن، إن شاء الله لا على وجه الشك، ونعوذ بالله من الشك في الإيمان؛ لأن الإيمان إقرار لله بالربوبية، وخضوع له في العبودية، وتصديق له في كل ما قال، وأمر ونهى؛ فالشاك في شيء من هذا كافر لا محالة، ولكن الاستثناء يصح من وجهين: أحدهما نفي التزكية؛ لئلا يشهد الإنسان على نفسه بحقائق الإيمان، وكوامله. ويصح الاستثناء أيضًا من وجه آخر يقع على مستقبل الأعمال، ومستأنف الأفعال، وعلى الخاتمة وبقية الأعمار وإن كنت عند الله مثبتًا في ديوان أهل الإيمان، وإن كان ما أنا عليه من أفعال المؤمنين أمرًا يدوم لي ويبقى علي حتى ألقى الله به[(٢)].

ويقول قوام السنة الأصبهاني: (ويكره لمن حصل منه الإيمان أن يقول: أنا مؤمن حقًّا، ومؤمن عندالله ولكن يقول: أنا مؤمن أرجو، أو مؤمن إن شاء الله، أو يقول: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وليس هذا على طريق الشك في إيمانه، خلافًا لقول من قال: إذا علم من نفسه أنه مؤمن جاز أن يقول أنا مؤمن حقًّا، والدليل على امتناع القطع لنفسه، ودخول الاستثناء إجماع السلف ـ قيل لابن مسعود رضي الله عنه: إن هذا يزعم أنه مؤمن ـ قال: سلوه أفي الجنة هو أم في النار فسألوه، فقال: الله أعلم، فقال له عبدالله، فهلا وكلت الأولى كما وكلت الآخرة[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي ـ الجامع الصحيح ـ كتاب التفسير ـ باب سورة المؤمنون ح رقم٣١٧٥ـ جـ٥ ص٣٢٧.

(٢) ابن بطة ـ الإبانة ـ الكبرى ج٢، ص٧٤٨ـ٧٥١ بتصرف.

(٣) الأصبهاني ـ الحجة في بيان المحجة ج١، ص٤٠٩ـ٤١٠ت. الدكتور محمد ربيع هادي المدخلي ـ ط١ـ ١٤١١هـ ـ دار الراية ـ الرياض.

وينسب شيخ الإسلام ابن تيمية القول بالاستثناء لابن مسعود ﷺ وأصحابه وجملة من علماء السلف فيقول: (وأما مذهب سلف أصحاب الحديث، كابن مسعود، وأصحابه، والثوري، وابن عينية، وأكثر علماء الكوفة، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة، فكانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم لكن في هؤلاء من قال: أنا أستثني لأجل الموافاة[١] وإن الإيمان إنما هو اسم لما يوافي به العبد ربه، بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى؛ فإن ذلك مما لا يعلمونه، وهو تزكية لأنفسهم بلا علم[٢].

ويقول شيخ الإسلام في موضع آخر: (الاستثناء في الإيمان سنة عامة عند أهل السنة، وقد ذكره طائفة من المرجئة، وغيرهم وأوجبه كثير من أهل السنة، ومن وجوهه وجهان حسنان: أحدهما: أن الإيمان الذي أوجبه الله على العبد من الأمور الباطنة، أو الظاهرة لا يتيقن أنه أتى بها على الوجه الذي أمر به كاملًا بل قد يكون أخل ببعضه، فيستثني لذلك الوجه الثاني؛ أن المؤمن المطلق من علم الله أنه يوافي بالإيمان، فأما الإيمان الذي تتعقبة الردة فهو باطل؛ كالصوم والصلاة الذي يبطل قبل فراغه، فلا يعلم العبد أنه مؤمن حتى يقضي جميع إيمانه؛ وذلك إنما يكون بالموت[٣].

● وأما الأدلة والآثار التي وردت بالاستثناء بالإيمان، فمنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح:٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣،٢٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾

(١) الموافاة: هو ما يكون عليه الانسان في آخر عمره وخاتمته/ انظر: أبويعلى مسائل الإيمان، ص ٤٥١.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٧ ، ص ٤٣٩.

(٣) ابن تيمية ـ الاستقامة ج١، ص١٥٠ت. د. محمد رشاد سالم ط١ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، وانظر ـ أبا العز الحنفي ـ شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٢٥، ت. الشيخ الألباني ـ طبعة الأزهر.

[النجم: ٣٢]، وقوله ﷺ عندما كان يخرج إلى البقيع، فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُم مَا تُوعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ»[١] وقوله ﷺ عندما سأله رجل، فقال: يا رسول الله، تدركني الصلاة، وأنا جنب، أفاصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ، فَقَالَ: لَست مثلنا يا رسول الله! قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «وَاللهِ إِنِّي (لَأَرْجو) أَنْ أكون أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَعْلَمكُمْ بما اتَّقِي»[٢]، وقد نص على هذه الأدلة السابقة الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عندما سئل عن الاستثناء في الإيمان؛ حيث قال: (نعم الاستثناء على غير معنى الشك مخافة واحتياطًا للعمل، وقد استثنى ابن مسعود[٣].

وقد نقل اللالكائي ذلك عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وعائشة ـ رضي اللَّهُ عنهم ـ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من قال: أنا مؤمن حقًّا، فهو كافر)[٤].

وكان التابعون ـ رحمهم الله ـ يقولون بالاستثناء؛ حيث روى اللالكائي أن منصور بن المعتمر والمغيرة بن مقسم والأعمش، وليث بن أبي سليم، وعمارة بن القعقاع، وابن شبرمة، والعلاء بن المسيب، وإسماعيل بن أبي خالد، وعطاء بن السائب، وحمزة بن حبيب الزيات، ويزيد بن أبي زياد، وسفيان الثوري، وابن المبارك، روى أنهم (يستثنون في الإيمان ويعيبون على من لا يستثني)[٥].

---

(١) مسلم ـ كتاب الجنائز ـ باب زيارة القبور ح رقم٩٧٤/ المختصر ج١، ص٣٤٤.

(٢) مسلم ـ كتاب الصوم ـ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر ح رقم ١١٠٩/ المختصر جـ١، ص٣٩٩.

(٣) انظر الخلال ـ السنة ج٢، ص٥٩٣.

(٤) اللالكائي ج٥، ص٩٦٧، وقد سبق ذكر نص ابن مسعود رضي الله عنه وانظر أبو يعلى ـ مسائل الإيمان، ص٤٤٦.

(٥) اللالكائي ـ شرح اعتقاد ج٥، ص٩٧٨، والإبانة الكبرى، ج٢، ص٧٥٩، وانظر ابن بطة الإبانة الصغرى، ص١٩٦.

وقال رجل لعلقمة أمؤمن أنت؟ فقال: أرجو إن شاء الله. قال أبو عبيد: ولهذا كان يأخذ سفيان ومن وافقه الاستثناء فيه وإنما كراهتهم عندنا أن يثبتوا الشهادة بالإيمان مخافة التزكية، والاستكمال عندالله، وأما على أحكام الدنيا؛ فإنهم يسمون أهل الملة جميعًا مؤمنين[1] وكان الأوزاعي يجوز ذلك، فيقول: (من قال أنا مؤمن فحسن، ومن قال مؤمن إن شاء الله، فحسن لقول الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٧]، وقد علم أنهم داخلون[2].

وقد كره بعض السلف ـ رحمهم الله ـ أن يسأل الرجل غيره أمؤمن أنت واعتبروه بدعة فقد روى الآجري عن أبي إسحاق الفزاري قال، قال الأوزاعي في الرجل سئل: أمؤمن أنت؟ فقال: إن المسألة عما سئل بدعة، والشهادة به جدل، والمنازعة فيه حدث، ولعمري ما شهادتك لنفسك بالتي تخرجك من الإيمان إن كنت كذلك، وإن الذي سألك عن إيمانك ليس يشك في ذلك منك ولكنه يريد أن ينازع الله ـ عزَّ وجل ـ في علمه في ذلك حين يزعم أن علمه وعلم الله ـ عزَّ وجل ـ في ذلك سواء، فاصبر نفسك على السنة، وقِفْ حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكف عما كفوا عنه واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم، وقد كان أهل الشام في غفلة من هذه البدعة حتى قذفها إليهم بعض أهل العراق ممن دخل في هذه البدعة بعدما رد عليهم فقهاؤهم، وعلماؤهم، فأشربتها قلوب طوائف منهم، واستحلتها ألسنتهم، وأصابهم ما أصاب غيرهم من الاختلاف، ولست بيائس أن يدفع الله ـ عزَّ وجل ـ شر هذه البدعة إلى أن يصيروا أخوانًا دون أسلافكم؛ فإنه لم يدخر عنهم خيرًا لكم دونهم لفضل عندكم وهم أصحاب نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي اختارهم الله ـ عزَّ وجل ـ وبعثه فيهم، ووصفه بهم، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى

(١) أبي عبيد ـ الإيمان ص٦٨.

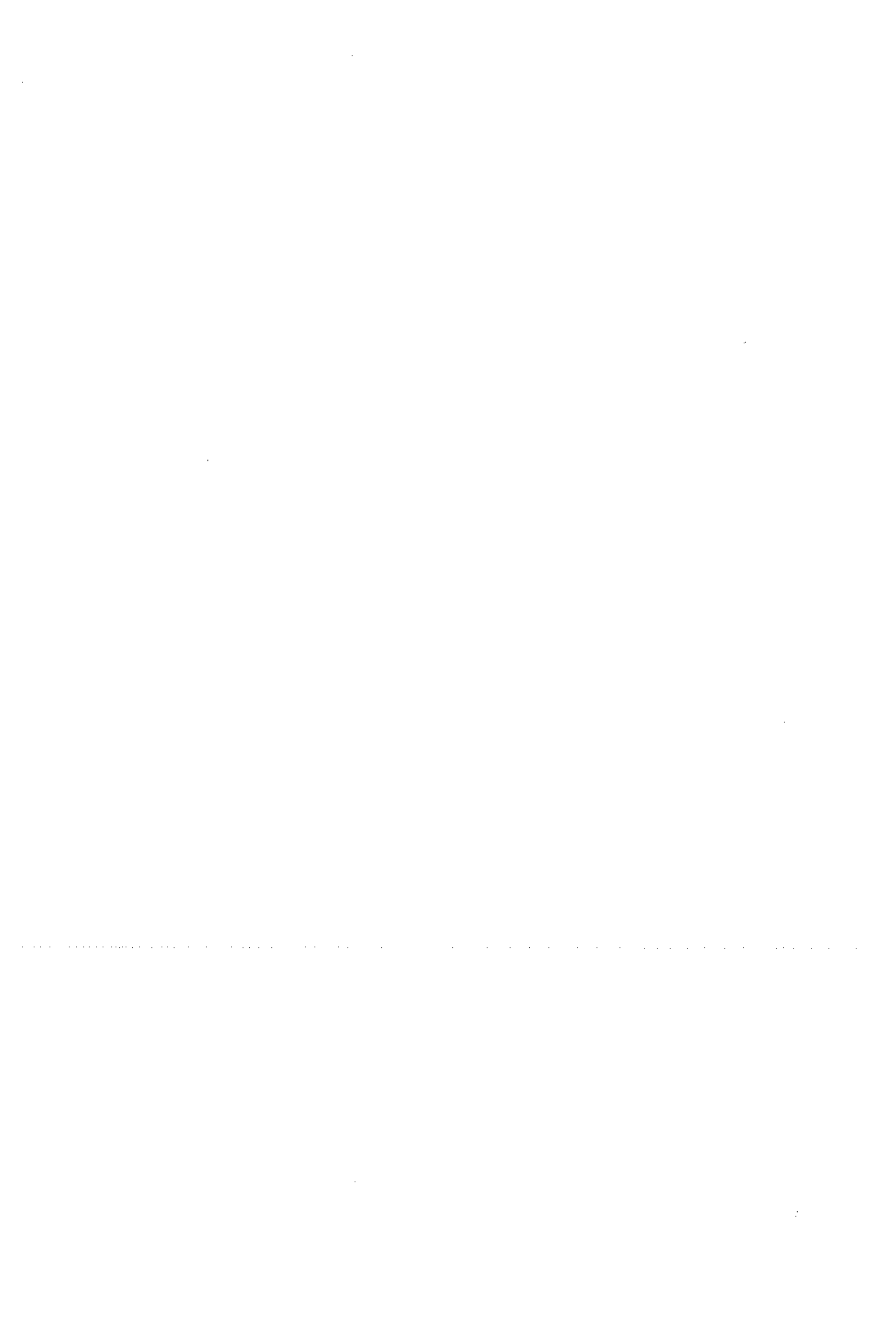
(٢) أبي عبيد ـ الإيمان ص٦٩.

وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[1] [الفتح:٢٩].

وختامًا فإننا نقول إن الأمة الإسلامية كانت في غنى عن كل هذه النقاشات لو لم يبرز قرن البدع والمبتدعة الذين أثاروا الشبهات حول البديهيات المعلومة من الدين بالضرورة ممثلة في واقع حياة الرسول وأصحابه الكرام الذين لم يثيروا مثل هذه النقاشات والمجادلات العقيمة، والتي سوف نعرض لها بالتفصيل عند عرضنا لفرقة المرجئة والتي اجتهد علماء السلف في استخلاص منهج الرسول ﷺ وأصحابه في مسائل الإيمان وغيرها من مسائل العقيدة للرد عليهم وإبطال بدعتهم.

* * * * *

(١) الآجري ـ الشريعة ص١٤٢. وانظر الخلال السنة ص٦٠٢.



الْفَصْلُ السَّابِعُ

صُورٌ مِنَ الْمُنَاقَشَاتِ الْعَقَدِيَّةِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ ـ رُضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ

تَمْهِيدٌ:

إن الميزة الأساسية للفترة النبوية المباركة هي وجود شخص النبي ﷺ الموحى إليه من رب العالمين في كل صغيرة وكبيرة تخص هذه الفئة المؤمنة الناشئة التي كلفت بحمل هذه العقيدة الربانية الخاتمة، وقد تلقى الصحابة الكرام هذه العقيدة بكل إيمان وإخلاص، ولم يؤثر عنهم اعتراض على نص، أو تعنت كما كان في الأمم السابقة.

ومن هنا كان النقاش الذي حدث بينهم نقاشًا محدودًا، وذا طبيعة تنم عن أسمى درجات الفهم والعلم، مقصوده الوصول إلى الحقيقة الصحيحة التي قررها الله ورسوله، وقد انقضى عهدهم ـ رضوان الله عليهم ـ ولم يحصل بينهم أي اختلاف على مسألة عقدية، ولكن هذه المحاورات التي حصلت ما هي إلا مناقشات علمية مصدرها أحاديث الرسول ﷺ فهذا سمع شيئًا، وذاك سمع شيئًا آخر، وكل ما سمعوه هو في إطار النصوص التي تفيد معان غير متعارضة، ولله الحمد.

وتؤكد النصوص المتوفرة أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان حريصًا كل الحرص على ائتلاف هذه الفئة المباركة، وبعدها عن النزاعات الشخصية فضلًا عن النزاعات العقدية، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرقب تصرفات أصحابه، ويقومها فورًا، ومثال ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه (ت:٣٢هـ) قال: (كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر؛ (أي خاصم)، فسلم، فقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي، فأبى علي، فأقبلت إليك ـ فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر، ثلاثًا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فقال: أثم أبو بكر؟ قالوا: لا، فأتى النبي ﷺ فجعل وجه رسول الله ﷺ يتمعر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه، وقال: يا رسول الله، ـ والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي

إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ ـ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبَكُمْ، مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِي بَعْدَهَا»(١).

فلا سبيل إذن للخصومات العقدية في إطار هذا المجتمع الجديد، إذا كان النبي ﷺ يعالج خصوماتهم الشخصية ـ إن وجدت ـ حتى لا يبقى مجال للإحن والبغضاء، فإذا سلمت حضوض أنفسهم من مثل هذه الخصومات، فأمر الدين، والعقيدة أعظم وأجلّ من أن يتخاصموا فيه، والرسول ﷺ حي بين أظهرهم، وسوف نعرض لبعض المناقشات التي حدثت بينهم ـ رضوان الله عليهم ـ ثم نعقب عليها بما يناسبها.

* **نِقَاشُهُمْ فِي بَعْضِ قِرَاءَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:**

فقد كان الصحابة ـ رضي اللَّهُ عنهم ـ يختلفون أحيانًا في قراءة بعض الآيات القرآنية والكل يسند سماعه للنبي ﷺ، فعن عبدالملك بن ميسرة: (ت: ١٢٠هـ) قال: سمعت النزال بن سبرة قال: سمعت عبدالله بن مسعود قال: (سمعت رجلًا قرأ آية سمعت من رسول الله ﷺ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: اقرأ ـ فكلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم إختلفوا فهلكوا(٢).

وروى البخاري أيضًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت هشام بن حكيم، يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت؛ فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم

(١) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب لو كنت متخذًا خليلًا رقم٣٦٦١، الفتح ج٧ص١٨.

(٢) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لمَّ بأسًا أن يقول سورة البقرة، ح رقم٥٠٦٢، الفتح ج٩ص١٠١.

تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، ثُمَّ قَالَ: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني: فقال رسول الله ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ[1]، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[2].

وروى مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه (ت٢٢) قال: «كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر، فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرءا، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله - عزَّ وجل - فرقًا، فقال لي: يا أبي، أرسل إلي: أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه: أن هون على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم، اغفر لأمتي، اللهم، اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام»[3].

إن هذا الاختلاف الذي حدث بين الصحابة - رضوان الله عليهم - يعبر عن سمو فهمهم، وخوفهم على مصدر عقيدتهم، وشريعتهم، فكانوا حريصين أشد الحرص على

---

(١) قال ابن حجر: أي سبعة أوجه يجوز أن يقرأ بكل وجه منها، وغاية ما انتهى إليه عدد القراءة في الكلمة الواحدة إلى سبعة، وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل المراد التسهيل والتيسير. انظر الفتح ج٩ص٢٣، ص٢٦.

(٢) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب ما أنزل القرآن على سبعة أحرف، ح رقم٥٠٤١، الفتح ج٩ص٨٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان القرآن على سبعة أحرف ح٨١٨، المختصر ج١ص٢٩٣.

(٣) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان القرآن على سبعة أحرف ح رقم٨٢٠، المختصر ج١ص٢٩٣.

عدم الاختلاف، وكل يعتقد أن ما سمعه هو القراءة الوحيدة، ولولا وجوده ـ عليه الصلاة والسلام ـ لاتسعت دائرة الخلاف ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حسم مادة الخلاف بإقرار كل واحد على قراءته ولم يؤثر عنهم أي خلاف فيما بعد.

إلا أن الخلاف في القراءات اشتد في خلافة عثمان رضي الله عنه فكانت صيحة حذيفة بن اليمان المدوية رضي الله عنه بجمع الناس على قراءة واحدة، وهي أيضًا من أعظم مناقب أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت (ت:٤٥هـ) وعبدالله بن الزبير (ت:٧٢هـ) وسعيد بن العاص (ت:٥٨هـ) وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام (توفي في خلافة معاوية) فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصحف رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة، أو مصحف أن يحرق)(١).

لقد كان خلافهم سببًا من أسباب جمع القرآن، وما أعظمها من بركة، فقد اتحد المسلمون على قراءة واحدة، ولعل هذه الجموع الجديدة من الشعوب في البلاد المفتوحة كان الأجدى توحيدها على مصحف واحد بلسان قريش، وقد بقيت القراءات السبع؛ حيث أورثها الصحابة الكرام إلى التابعين الذين نقلوها إلينا، وهي باقية إلى قيام الساعة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ح رقم٤٩٨٧، الفتح ج٩ص١١.

* ٢ـ نِقَاشُهُمْ فِي الْقَدَرِ ـ رُضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ فِي حَيَاتِهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ:

يجب أن نوضح ابتداءً أن النقاش بين الصحابة في القَدَرِ لم يكن إلا نوعًا من التساؤل والاستفسار، أو محاولة للفهم والتوفيق بين النصوص القرآنية، وقد حدث على أضيق نطاق وهذا ما سنوضحه فيما بعد، فليس هو نقاش تعنت، وإنكار كما جادل المشركون والمبتدعة القدرية وغيرهم من فرق الضلال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر: فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[(١)] [القمر:٤٨،٤٩] فما كان الصحابة ليجادلوا مثل هذا الجدال، بل إن عرض القرآن لجدل المشركين من أقوى الأدلة على أن الصحابة كانوا معتقدين للقدر الاعتقاد الصحيح الكامل المخالف لهؤلاء المشركين، وسوف نعرضْ لهذا النقاش الذي هو نوع من الاستفسار وليس كما توهم المبطلون أنه جدال في المعتقد نفسه.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن شعيب[(٢)] عن أبيه عن جده قال: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وأُناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده)[(٣)].

(١) مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله ـ تعالى ـ القلوب كيف يشاء ح رقم٢٦٥٦، المختصر ج٢ص٤١٩.

(٢) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاص السهمي، قال البخاري: (رأيت أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهوية، وأبا عبيدة وعامة أصحابنا يحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، فمن الناس بعدهم).
انظر بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم ص٣٢٠، ت. وصي الله العباس.
وقال ابن معين: عمرو بن شعيب ثقة، وقال الأوزاعي: ما رأيت أكمل من عمرو بن شعيب، المقريزي، مختصر الكامل في الضعفاء لابن عدي ص٥٣٩.

(٣) البنا، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد ج١ص١٤٢، وسنن ابن ماجة ج١ص٣٣،=

وروى الإمام الترمذي عن أبي هريرة ﵁ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ»[(١)].

وروى ابن ماجة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ»، قَالَ فَقال عبدالله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه)[(٢)].

وهذه الروايات لها شاهد من رواية مسلم عن عبدالله بن رباح الأنصاري (قُتِلَ في ولاية ابن زياد) أن عبدالله بن عمرو قال: هاجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية: فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»[(٣)].

- هذه هي الروايات في نقاشات الصحابة في القدر ولنا عليها التَّعْقِيبَاتُ التَّالِيَةُ:.

١ـ نلاحظ أن الروايات المذكورة لا تتعدى عبدالله بن عمرو وأبا هريرة.

٢ـ الذي أرجحه أن هذه الحادثة كانت واحدة ولم تتكرر، وقد شهدها الصحابيان

= المقدمة، باب في القدر وقال في الزوائد: إسناده حسن، رجاله ثقات.

(١) قال الإمام الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها. الترمذي، كتاب القدر، باب التشديد في الخوض في القدر ح رقم٢١٣٣ ج٤ ص٤٤٣، وإسناده ضعيف ولكن له شاهد عند ابن ماجة. يأتي ذكره.

(٢) ابن ماجة، السنن، المقدمة، باب في القدر ح رقم ٨٥ ج١ص٣٣، ترقيم عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.

(٣) مسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، ح رقم٢٦٦٦، المختصر ج٢ص٤٢٢.

الجليلان اللذان روياها.

٣ـ نلاحظ أن وجود حجرات أزواج النبي ﷺ بداخل المسجد كان مهمًا للإشراف على الصحابة، وتصحيح مواقفهم، ومناقشاتهم إنْ وجدت، وتوجيههم الوجهة الصحيحة.

٤ـ لم يذكر في الروايات طبيعة هذا النقاش وتفاصيله، ولعل الإعراض عن ذكر تفاصيله، تبين انتهاء ذلك النقاش وعدم العودة إليه، بل واعتبار ذكره أمرًا لا يصح؛ طالما أنه كان سببًا في إغضاب النبي ﷺ.

٥ـ نجد أن النبي ﷺ قد حسم فورًا مادة النقاش وموضوعها، وحذرهم من أن هذا سبب للاختلاف وهلاك الأمم، وحذرهم منه، وعزم عليهم أن لا يعودوا لمثله.

٦ـ نجد أن واقع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ طيلة حياتهم كان الالتزام بهذا التوجيه، فلم يُؤْثَرْ مِنْ أن صحابيًا جادل في الْقَدَرِ في حياته ﷺ أو بعد مماته، ولكن الثابت حصول مناقشات وتساؤلات للرسول ﷺ هدفها الاستيضاح والاستفهام، وحصل كذلك بعد مماته سؤال عن القدر وأحداث لها صلة بالقدر أوجدت مثل هذه التساؤلات.

٧ـ نلحظ أن الأسئلة عن القدر كانت على نطاق واسع، فلا نعلم إن كانت هذه الحادثة كانت سببًا في فتح السؤال عن القدر على هذه الصورة الواسعة.

٨ـ نكاد نجزم جزمًا أكيدًا أن هذا النقاش كان صورة من أسمى صور العلم والفهم ولم يكن سببًا للتنازع والخلاف والدليل على ذلك عدم وجوده فيما بعد، وتصدي الصحابة فيما بعد لنفاة القدر، واتِّحاد كلمتهم على ذلك، ولله الحمد.

٣ـ صُوَرٌ مِنْ نِقَاشَاتِ الصَّحَابَةِ فِي الْقَدَرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ.

انتهت الفترة النبوية المباركة وقد تقررت العقائد وأصبحت واضحة لا لبس فيها ولا إشكال، ولم يصلنا من جدال فيها إلا ما ذكرنا من حادثة واحدة رواها صحابيان، إحداهما ضعيفة، وما ذكرنا من خلافات في قراءة بعض آي القرآن حسمها النبي ﷺ

بإقرار كل واحد على قراءته الصحيحة.

وبعد وفاته ﷺ حدثت بعض النقاشات في القدر، لا تعدو كونها استفسارات وتساؤلات، أو جدال مع غير المسلمين؛ مثل ما سنذكره من جدال جاثليق النصارى لعمر بن الخطاب في القدر، ولو استعرضنا هذه المناقشات حسب ترتيبها الزمني لكان ذلك أجدى لبيان التسلسل التاريخي لنشوء مسألة القدر كما سيأتي عند حديثنا عن القدرية بإذن الله ـ تعالى.

ففي عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه (ت:١٣هـ) لم يؤثر أن هناك جدلًا عقديًّا حدث بين الصحابة إلا ما حدث من جدال بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حول قتال المرتدين، ولم يحدث أي جدال في القدر، أو غيره من مسائل العقيدة، ولكن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ سألوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه عن دعاء كان يدعو به، وله صلة بالقدر، فعن عائشة ـ رضي اللَّهُ عنها ـ قالت: كان لأبي بكر الصديق دعاء يدعو به إذا أصبح وأمسى يقول: (اللهم، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك) فقيل يا أبا بكر، لم تدعو بهذا الدعاء وأنت صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين في الغار، فقال: إن العبد ليعمل حقبًا من الدهر، بعمل أهل الجنة فيختم له بعمل أهل النار، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حقبًا، فيختم له بعمل أهل الجنة)[(١)].

أما في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد حدثت بعض الأحداث ظهر فيها نوع من التساؤل حول القدر ولكنه سرعان ما حسمت مادة الخلاف فيه في إطار الموروث العقدي عن رسول الله ﷺ، الذي كان يعلمه أمير المؤمنين عمر، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام[(٢)] حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة عامر بن الجراح

(١) السيوطي، مسند أبي بكر الصديق ح رقم٦٧٤، ص٢٢٦، ت عبدالله الغماري، نشر مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، بدون تاريخ.

(٢) كانت هذه الرحلة سنة١٨هـ، وفيها كان طاعون عمواس. انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء ص١٤٧.

(ت:١٨هـ) وأصحابه، فأخبره أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا، فقال بعضهم: خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني: ثم قال: ادع لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم، فلم يختلف عليه منهم رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبه، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبدالرحمن بن عوف وكان متغيبًا في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تُقْدِمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»، قال: فحمد الله عمر ثم انصرف)(١).

إن هذه المحاروة بين الصحابة تظهر مدى عمق فهمهم، ومحبتهم لمصلحة الأمة، وتظهر أيضًا اجتهاد عمر بن الخطاب العظيم وفهمه الكامل لقضية القدر، وتظهر أيضًا فضيلة الأنصار والمهاجرين، وأن مشيخة قريش من المهاجرين كانت أعظم فهمًا؛ حيث لم يختلف على عمر منهم اثنان في الرأي والمشورة، وبمثل هذه الشورى والمساءلة حُلت هذه المعضلة التي كانت قاعدتها القضاء والقدر.

وكان رضي الله عنه أول المسلمين الذين فندوا عقيدة النصارى في القدر والقائلين أن الله لا يضل أحدًا؛ وذلك عند قدومه إلى الجابية في بلاد الشام، فقد روى عبدالله بن وهب

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر الطاعون ح رقم٥٧٢٩، الفتح ج١٠ص١٧٩، ومسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة، ح رقم٢٢١٩، المختصر ج٢ص٢٤٦.

(ت١٩٧هـ): (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خطب بالجابية، وكان الجاثليق[١] قريبًا منه، فقال عمر في خطبته: من يضلل الله فلا هادي له، فقال الجاثليق: إن الله لا يضل أحدًا، فقال عمر: ماذا يقول: فأخبروه، فقال عمر: كذبت يا عدو الله، بل الله خلقك، وهو يضلك ثم يميتك ثم يدخلك النار إن شاء، أما والله لولا عقدي لضربت عنقك، إن الله لما خلق آدم، أخذ تربته، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون، فافترق هؤلاء، وما يختلف اثنان في القدر)[٢].

وفي رواية لابن بطه قال: (إن الله ـ عزَّ وجل ـ لما خلق آدم ـ عليه السلام ـ نشر ذريته في يده فكتب أهل الجنة وأعمالهم، وأهل النار وأعمالهم، وقال هذه لهذه، وهذه لهذه، فتفرق الناس يومئذ وهم لا يختلفون في القدر[٣].

إن هذا الرد الحاسم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان بالغ الأهمية لتلك الجمهرة التي حضرت خطبة الجابية المشهورة، فقد حضرها مسلمة الفتح الجدد ذوو العقائد النصرانية، وقد أبانت عن المعتقد الحق في القدر. مخالفًا بذلك لأقوال النصارى الذين كانوا مهيمنين على تلك البلاد، ولعل هذا الرد الحاسم قد أثار حفيظة ذلك الجاثليق وبدأ ينسج مع أتباعه خطة لإنكار القدر بين المسلمين، فجندوا من أجل ذلك يوحنا الدمشقي، وغيلان القبطي، وسوسنة النصراني كما سنلاحظ عند بحثنا لفرقة القدرية إن شاء الله.

ومن النقاشات التي حدثت بين الصحابة في القدر ما رواه مسلم عن عامر بن واثلة رضي الله عنه (ت٨٣هـ) أنه سمع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (ت٣٢) يقول: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، فأتى رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه (ت٤٢هـ)، فحدثه بذلك من قول ابن مسعود

---

(١) الجاثليق (رئيس للنصارى في بلاد الإسلام) الفيروزآبادي، القاموس المحيط ص١١٢٥.

(٢) عبدالله بن وهب، كتاب القدر ص١٣، ت د. عبدالعزيز العثيم.

(٣) ابن بطة، كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، كتاب القدر ج٢ص٢٣٩، ت عثمان آدم الأثيوبي، رسالة دكتوراة مخطوطة مكتبة مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى ١٤٠٥هـ.

فقال: وكيف يشقى رجل بغير عمل، فقال له الرجل: أتعجب من ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا، وَبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قال: يَا رَبِّ، أَذَكَرٌ، أَمْ أُنْثى؟ فيقضي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الملكُ، ثم يقول: يا ربِّ، أَجَلُهُ، فيقول رَبُّكَ ما شاء، وَيَكْتُبُ الملك، ثم يقولُ: يا ربِّ رِزْقُهُ، فيقضي رَبُّكَ مَا شاءَ، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك في الصحيفة بيده، فلا يزيدُ ولا ينقصُ»(١).

وعن فيروز بن الديلمي (ت٥٣هـ) قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر، خشيت أن يفسد علي ديني وأمري، فأتيت أبي بن كعب (ت٢٢هـ)، فقلت: أبا المنذر إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر فخشيت على ديني وأمري، فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني به، فقال: لو أن الله عَذَّبَ أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهبًا، أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار ولا عليك أن تأتي أخي عبدالله بن مسعود، فتسأله، فأتيت عبدالله فسألته، فذكر مثل ما قال أبي، وقال: لا عليك أن تأتي حذيفة، فأتيت حذيفة فسألته، فقال: مثل ما قالا، وقال: ائت زيد بن ثابت فاسأله فسألته، فقال مثل قولهم)(٢).

ويمكن ملاحظة عدة أمور على هذا الحديث؛ منها: أن هذا التابعي الجليل وجد شبهة في قلبه لا ندري إن كانت بسبب مجادلات مع أهل الأديان الأخرى، أو أنه خاطر، أو نوع من الوسوسة فتوجه فورًا لسؤال أهل العلم، ومن الثابت أن أبي بن

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب خلق الآدمي في بطن أمه ـ ح رقم٢٦٤٥، المختصر ج٢ص٤١٤.

(٢) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، بذل المجهود ج١٨ ص٢٢٦، وقال: إسناده حسن، ورواه ابن ماجة، المقدمة، باب في القدر ح رقم ٧٧، ج١ص٢٩، والإمام أحمد، البنا، الفتح الرباني ج١ص١٣٣، وإسناده حسن.

كعب توفي في سنة ٢٢هـ، فكان هذا التساؤل مبكرًا، وكانت إجابة أبي الجامعة المانعة التي تعتمد على الرصيد العقدي من الكتاب والسنة في هذا الشأن، ويمكن ملاحظة تطابق إجابات الصحابة الباقين، وهذا يدلل على تطابق عقائد الصحابة واتحادها وبعدهم عن الخلاف، وتبين ثبات هذا المعتقد ورسوخه ووضوحه في قلوبهم وعقولهم، ثم كل واحد منهم يوجهه إلى صحابي لانتزاع هذه الشبهة بهذا الجواب الكامل الشامل، - فرضي اللَّهُ عنهم وأرضاهم - فهم المصابيح التي تضاء بها الدجى.

ومن النقاشات الهامة في هذا الشأن ما رواه الإمام مسلم عن أبي الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) قال: قال لي عمران بن حصين (ت٥٢هـ): أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم نبيهم، وثبتت به الحجة عليهم، فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال: أفلا يكون ظلمًا، قال: ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا، وقلت كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم، من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم، فقال ﷺ: «لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وجل -: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٧، ٨]»[١].

وفي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لم يؤثر من جدال في القدر، إلا ما روي عن محاورة بينه وبين رجل من جيشه، وهذه الحادثة رواها المبتدعة وحرفوا فيها حتى توافق معتقدهم الضال في القدر مثل ابن أبي حديد في نهج البلاغة[٢]، وابن أعثم الكوفي

(١) مسلم، كتاب القدر، باب خلق الإنسان في بطن أمه ورزقه وأجله ح رقم٢٦٥٠، المختصر ج٢ص٤١٦.

(٢) نهج البلاغة ص٤٨١، ت. صبحي الصالح ط١٤٠٢/٣هـ، دار الكتاب اللبناني، وابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح ج٤ص٢١٤، ط١٤٠٤/١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، وابن المرتضى، المنية والأمل ص١٢٧، ت د. محمد جواد مشكور ط١، ١٣٩٩، دار الفكر بيروت.

الشيعي، وابن المرتضى المعتزلي الشيعي، ورواها علماء أهل السنة والجماعة بما يوافق المذهب الحق، وسوف أنقل رواية أهل السنة فقد روى ابن بطة عن سلامة الكندي(١) قال: (قال شيخ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عند منصرفه من الشام: أخبرنا يا أمير المؤمنين، عن مسيرنا إلى الشام أبقضاء من الله وقدر، أم غيرهما، قال علي رضي الله عنه: والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما علوتم تلعة، ولا هبطتم واديًا إلا بقضاء من الله وقدره، قال الشيخ: عند الله أحتسب عناي وإليه أشكو خيبة رجائي، وما أجد لي من الأجر شيئًا، قال: بلى، قد أعظم الله لكم الأجر على مسيركم، وأنتم سائرون، وعلى مقامكم، وأنتم مقيمون، وما وضعتم قدمًا، ولا رفعتم أخرى إلا وقد كتب الله لكم أجرًا عظيمًا، قال الشيخ كيف يا أمير المؤمنين، والقضاء والقدر ساقانا وعنهما وردنا وصدرنا؟ قال علي رضي الله عنه: أيها الشيخ، لعلك ظننته قضاء جبرًا، وقدرًا، قسرًا، لو كان ذلك كذلك لبطل الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، وبطل الثواب، والعقاب، ولم يكن المحسن أولى بمثوبة الإحسان من المسيء ولا المسيء أولى بعقوبة الإساءة من المحسن.

قال الشيخ: فما القضاء والقدر؟ قال علي رضي الله عنه: (العلم السابق في اللوح المحفوظ، والرق المنشور بكل ما كان وبما هو كائن، وبتوفيق الله، ومعونته لمن اجتباه بولايته، وطاعته، وبخذلان الله وتخليته لمن أراد له وأحب شقاه بمعصيته ومخالفته فلا تحسبن غير ذلك، فتوافق مقالة الشيطان، وعبدة الأوثان، وقدرية هذه الأمة ومجوسها، ثم إن الله ـ عزَّ وجل ـ، أمر تحذيرًا، ونهى تخييرًا، ولم يطع غالبًا، ولم يعص مغلوبًا ولم يكن في الخلق شيء حدث إلا في علمه، فمن أحسن فبتوفيق الله ورحمته ومن أساء فبخذلان الله وإساءته هلك، لا الذي أحسن استغنى عن توفيق الله، ولا الذي أساء عليه، ولا استبد بشيء يخرج به عن قدرته، ثم لم يرسل الرسل باطلًا، ولم يُرِ الآيات والعزائم عبثًا ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٢٧](٢).

---

(١) في الثقات والتابعين، روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر الجرح والتعديل ج٤ص٣١١.

(٢) ابن بطة، الإبانة، كتاب القدر، ت الأثيوبي ج٢ص٢٥١، مخطوط بجامعة أم القرى، وانظر ابن منظور، مختصر ابن عساكر ج١٨ ص٧٢، ت روحية النحاس ط١/١٤٠٩، دار الفكر، دمشق، وقد سبق الاستدلال بهذا النص.

هذه جملة من النقاشات في الْقَدَرِ حدثت بين الصحابة والتابعين، ورَدَّ فيها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على المتسائلين، والمنكرين وأبانوا الشبهات، وكشفوا عن حقيقة هذا المعتقد الحق، الذي اتخذ منه المبطلون فيما بعد مواقف الإنكار والتشويش على عقيدة الأمة، ووقف الصحابة والتابعون لأولئك المنكرين، وأبطلوا دعاواهم، وسوف يكون لنا مع القدر وقفة طويلة أيضًا عند حديثنا عن بدعة القدرية، وسنعرض لمواقف الصحابة والتابعين منهم بإذن الله ـ تعالى ـ:

٤ـ «النِّقَاشُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ فِي رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِرَبِّهِ فِي الدُّنْيَا»:

ومن المسائل العقدية التي حدث فيه نقاش بين الصحابة ـ رضي اللَّهُ عنهم ـ مسألة رؤية النبي ﷺ لربه ـ عزَّ وجل ـ، هل رآه بعينه، أو بقلبه وسوف نورد هذه الأقوال، أولًا ثم نعقب عليها بآراء علماء السلف الذين حاولوا التوفيق بين هذه الأقوال.

- «الْقَائِلُونَ بِإِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ وَأَقْوَالُهُمْ»:

فقد كان ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ يقول بالرؤية تارة يطلقها وتارة يقيدها بالفؤاد وهذه جملة من الروايات عنه:

فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ أنه فسر قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء:٦٠]، قال: رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به)[١].

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١١،١٣] قال: رآه بفؤاده مرتين، وفي رواية قال: رآه بقلبه)[٢].

وروى الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال: (رأى

(١) البخاري، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل ح رقم ٤٧١٦، الفتح ج٨ص٣٩٨.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ح رقم١٧٦، المختصر ج١ص٨٠.

محمد ربه قال عكرمة (ت١٠٧) قلت: أليس الله يقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام١٠٣] قال: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين[1]. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأخرج ابن خزيمة عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمدًا ﷺ بالرؤية)[2].

وفي رواية قال ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ: (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ، والكلام لموسى ـ عليه السلام ـ، والرؤية لمحمد ﷺ)[3].

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال: (إن محمدًا رأى ربه مرتين، مرة ببصره، ومرة بفؤاده)[4].

وروى القاضي أبو يعلى عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال: رأى محمد ﷺ ربه ـ عزَّ وجل ـ بعينيه مرتين)[5].

وروى الإمام الترمذي وغيره حديث اختصام الملإ الأعلى عن ابن عباس ومعاذ بن جبل قال: (احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعًا، فثوب بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ وتجوز في صلاته، فلما سلم، دعا بسوطه: قال لنا، على مصافكم، كما أنتم، ثم انفتل إلينا، ثم قال: «أمَّا

---

(١) الترمذي، كتاب التفسير، باب من سورة النجم ح رقم٣٢٧٩، ج٥ص٣٩٥.

(٢) ابن خزيمة، كتاب التوحيد، ح رقم٢٧٦، ج١ص٤٨٥، قال المحقق: إسناده صحيح، وقال الشيخ الألباني: إسناده صحيح موقوف، رجاله ثقات على شرط البخاري، السنة لابن أبي عاصم ج١ص١٨٩.

(٣) ابن أبي عاصم، السنة ح رقم ٤٤٢ ج١ص١٩٢، قال الشيخ الألباني: (إسناده صحيح على شرط البخاري).

(٤) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج٦ص١٣٧، طبعة الأنوار المحمدية، القاهرة.

(٥) القاضي أبو يعلى، إبطال التأويلات لأخبار الصفات ح رقم٩٨ج١ص١١٣، ت محمد النجدي، وقال المحقق: لم أجده بهذا اللفظ، وإنما أخرجه مسلم بقوله: رآه بفؤاده مرتين.

إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ: إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعِسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، قَالَهَا: ثَلاثًا. قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتَ: مَشْيُ الأَقْدَامِ إِلَى الْحَسَنَاتِ، والجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَلَوَاتِ، وَإِسْبَاغِ الوُضُوءِ حِينَ الكَرِيهَاتِ.. الحديث»[1].

وهذه رؤيا منامية وليست رؤيا يقظة رواها معاذ بن جبل، وعبدالرحمن بن عائش الحضرمي، وعبدالله بن عباس، وأنس بن مالك، وأبو ذر الغفاري[2].

● **الْقَائِلُونَ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ:**

أما أول القائلين بالنفي، فهي السيدة عائشة - رضي اللَّهُ عنها - وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق بن عبدالرحمن الهمداني الملقب بالأجدع (ت٦٣) قال: كنت عند عائشة - رضي اللَّهُ عنها - فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن، قالت: (من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية) قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني، ولا تعجليني، ألم يقل الله - عزَّ وجل -: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لم أره على صورته التي خلق عليها

---

(١) الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة ص - ح رقم٣٢٣٥، ج٥ص٣٦٨، قال الإمام الترمذي هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣٦٨/١، والدارمي ٢١٥٥، ج٢ص٥١. وقد أفرده ابن رجب الحنبلي في شرح مطول بعنوان: اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى ت بشير محمد عيون ط١٤٠٥/١، مكتبة دار البيان، دمشق.

(٢) انظر رواياتهم في الدارقطني، كتاب الرؤية ص٣١٦ وما بعدها، ت محمد العلي، مكتبة المنار ط١٤١١/١هـ، الأردن.

غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عِظَم خَلْقه ما بين السماء والأرض، فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، [الشورى:٥١][1].

وأخرج البخاري ومسلم عن مسروق أيضًا قال: (قلت لعائشة ـ رضي اللَّهُ عنها ـ يا أمتاه: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: لقد وقف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمدًا ﷺ رأى ربه، فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾ [لقمان:٣٤]، ومن حدثك أنه كتم، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [المائدة:٦٧]، ولكنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته مرتين)[2].

وعن زر بن حبيش رضي الله عنه (ت٨٢هـ) قال في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٩-١٠] قال: حدثنا ابن مسعود: أنه رأى جبريل له ستمائة جناح)[3].

● «مَنْ رَوَى أَنَّهُ رَأَى نُورًا»:

أما الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه فقد روى أنه سأل النبي ﷺ هل رأى ربه، فأجاب بأنه رأى نورًا، فعنه رضي الله عنه قال: (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك، قال: نور أنى

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ح١٧٧، مختصر ج١ص٨٠.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، سورة النجم ح رقم٤٨٥٥، الفتح ج٨ص٦٠٦ ومسلم كتاب الإيمان باب في ذكر سدرة المنتهى جـ١٧٤ المختصر ج١، ص٧٩.

(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ح رقم ٣٢٣٢، الفتح ج٦ ص٣١٣، ومسلم. كتاب الإيمان، باب في ذكر سورة المنتهى، ح رقم١٧٤، المختصر ج١ص٧٩.

أراه) وفي رواية عن عبدالله بن شقيق (١٠٨هـ) قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته: فقال عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: رَأَيْتُ نُورًا)[١].

• **مَوَاقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَتَوفِيقِهِمْ بَيْنَهَا.**

وقد تنوعت مواقف علماء السلف من هذه الأحاديث، فبعضهم أثبت الرؤية بالبصر وبالفؤاد وانتصر لها، وبعضهم أثبت الرؤية القلبية فقط ورد أقوال القائلين بالرؤية البصرية، وبعضهم توقف في ذلك، وسوف نعرض لهذه المواقف على النحو التالي:

فَمِنَ الْعُلَمَاءِ الذين قالوا برؤيته ﷺ لربه ابن خزيمة في كتاب التوحيد في عدة مواضع، فبعد ذكره لحديث البخاري عن ابن عباس أنه قال (رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به)، قال ابن خزيمة (وليس الخبر بالبين أيضًا أن ابن عباس أراد بقوله رؤيا عين رؤية النبي ﷺ ربه بعينه، لست أستحل أن أحتج بالتمويه، ولا أستجيز أن أموه على مقتبسي العلم. أما خبر ابن عباس، فبين واضح أن ابن عبـاس كان يثبت أن النبي ﷺ قد رأى ربه)[٢].

ثم يدافع عن خبر ابن عباس، فيقول: (قد ثبت عن ابن عباس إثباته أن النبي ﷺ قد رأى ربه، وبيقين يعلم كل عالم أن هذا من الجنس الذي لا يدرك بالعقول، والآراء والجنان، والظنون، ولا يدرك مثل هذا العلم إلا من طريق النبوة، إما بكتاب، أو بقول نبي مصطفى، ولا أظن أحدًا من أهل العلم يتوهم أن ابن عباس قال: رأى النبي ﷺ ربه برأي وظن، لا ولا أبو ذر لا، ولا أنس بن مالك[٣].. نقول كما قال معمر ابن

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب هل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء والمعراج ح رقم١٧٨، المختصر ج١ص٨١.

(٢) التوحيد ج١ص٤٩٥.

(٣) قال المحقق: لم يرد عن أحد منهم أنه نقل في ذلك حديثًا صريحًا عن النبي ﷺ، وإنما هي آراء لهم استنتاجات فهموها من ظواهر بعض النصوص ولو رووا في ذلك شيئًا لقطع الخلاف جـ٢ص٥٥٩.

راشد[١] لما ذكر اختلاف عائشة - رضي اللَّهُ عنهما - وابن عباس - رضي اللَّهُ عنهما - في هذه المسألة (ما عائشة عندنا أعلم من ابن عباس، نقول عائشة الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله عالمة فقيهة كذلك ابن عباس - رضي اللَّهُ عنهما -، ابن عم النبي ﷺ قد دعا النبي ﷺ له أن يرزقه الحكمة، والعلم، وهذا المعنى من الدعاء وهو المسمى بترجمان القرآن، ومن كان الفاروق رضي الله عنه يسأله عن بعض معاني القرآن، فيقبل منه، وإن خالفه غيره، ممن هو أكبر سنًّا منه، وأقدم صحبة للنبي ﷺ، وإذا اختلفا فمحال أن يقال قد أعظم ابن عباس الفرية على الله؛ لأنه قد أثبت شيئًا، نفته عائشة - رضي اللَّهُ عنها -، والعلماء لا يطلقون هذه اللفظة، وإن غلط بعض العلماء في معنى آية من كتاب الله، أو خالف سنة، أو سننًا من سنن النبي ﷺ لم تبلغ المرء تلك السنن، فكيف يجوز أن يقال أعظم الفرية على الله من يثبت شيئًا لم ينفه كتاب، ولا سنة)[٢].

فابن خزيمة يرى أن ما بَلَغَ ابن عباس لم يبلغ عائشة وهذا أمر جائز والله أعلم، فإن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يسمعوا كل ما قاله النبي ﷺ وإنما علمهم اكتمل بسماع بعضهم لبعض مما قاله النبي ﷺ وسمعه قوم، ولم يسمعه آخرون، وممن يرى أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه القاضي أبو يعلى؛ حيث يقول: (وهذه المسألة وقعت في عصر الصحابة، وكان ابن عباس، وأنس، وغيرهما يثبتون رؤيته في ليلة المعراج، وكانت عائشة تنكر رؤيته بعينه في تلك الليلة، والدلالة على إثبات رؤيته قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، فوجه الدلالة أنه - تعالى - قسم تكليمة لخلقه على ثلاثة أوجه:

«أَحَدُهَا»: بإنفاذ الرسل، وهو كلامه لسائر الأنبياء والمكلفين.

«والثَّاني»: من وراء حجاب هو تكليمه موسى - عليه السلام -، وهذا كلام بلا

---

(١) معمر بن راشد: كان من أوعية العلم، مع الصدق والتحري، والورع والجلالة وحسن التصنيف، ولد سنة ٩٥هـ، وتوفي سنة١٥٢هـ، الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٧ ص٥-٦-١٤.

(٢) ابن خزيمة، التوحيد ج٢ص٥٥٩.

واسطة؛ لأنه لو كان بواسطة دخل القسم الذي ذكرنا وهو إنفاذ الرسل.

«الثَّالِثُ»: من غير رسول ولا حجاب وهو كلامه لنبينا في ليلة الإسراء إذ لو كان من وراء حجاب، أو كان رسولًا دخل تحت القسمين، ولم يكن للتقسيم فائدة، فنثبت أن كلامه له عن رؤية، ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]؛ أي كلمه بما كلمه بلا واسطة، ولا ترجمان ﴿ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١]، فالظاهر يقتضي أن النبي ﷺ لما رأى الله بعيني رأسه ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، لم يكذب فؤاده ما رآه بعيني رأسه)[١].

وقال الإمام الطبري (ت٣١٠) ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: (واختلف أهل التأويل في الذي رآه فؤاده، فلم يكذبه، فقال بعضهم: الذي رآه فؤاده رب العالمين، وقالوا: جعل بصره في فؤاده، فرآه بفؤاده، ولم يره بعينه)[٢].

وقال الإمام النووي (ت٦٧٦): (والحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء؛ لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، ومثل هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا ما لا ينبغي أن يتشكك فيه)[٣].

وقال الإمام الأبي (ت٨٢٧هـ) في شرح صحيح مسلم: (والراجح عند الأكثر أنه رآه؛ لأن ابن عباس أثبته، وليس مما يدرك بالاجتهاد، فإنما قاله؛ لأنه سمعه، وعائشة لم تستند في النفي إلى الحديث، بل استنبطته، واستنباطها مجاب عنه)[٤].

● وهناك من العلماء من قال: إن الرؤية قلبية فقط، ومنهم القاضي عياض ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: (وأما وجوبه؛ (أي رؤيته لله ـ تعالى ـ) لنبيننا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضًا ولا نص، إذ المعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيها مأثور،

---

(١) أبو يعلى، إبطال التأويلات لأخبار الصفات ج١ص١١١.

(٢) جامع البيان ج٢٧ ص٤٧.

(٣) النووي بشرح مسلم ج٣ص٥.

(٤) الأبي، شرح صحيح مسلم ج١ص٣٢٦.

والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك، وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاد لم يسنده إلى النبي ﷺ فيجيب العمل باعتقاد مضمنه، ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، وحديث معاذ محتمل للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمتن، وحديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل، فروى: نُورٌ؛ أنَّى اراه؟، وحكى بعض شيوخنا أنه روى: نُورٌ؛ أنَّى اراه؟، وفي حديث الآخر: سألته، فقال: رأيت نورًا وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح رأيت نورًا فهو قد أخبر أنه لم ير الله، وإنما رأى نورًا منعه وحجبه عن رؤية الله، وإلى هذا يرجع قوله: نُورٌ؛ أنَّى اراه؟ أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر، وهذا مثل ما في الحديث الآخر، حجابه النور، وفي الحديث الآخر: لم أره بعيني، ولكن رأيته بفؤادي مرتين وتلا ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب، أو كيف شاء لا إله غيره؛ فإن ورد حديث نص بين في الباب اعتقد ووجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده)[1].

ونقل القاضي عن مجموعة من العلماء السلف القول بالرؤية البصرية، والقلبية فنقلها عن كعب الأحبار (ت٣٢هـ)، ومحمد بن كعب القرظي (ت١٠٨هـ)، وربيع ابن أنس (ت:١٣٩هـ)، والحسن البصري (ت:١١٠هـ)، وعكرمة (ت١٠٧هـ)، وابن إسحاق (ت:١٥٣هـ)، وأحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ)، وأبو الحسن الأشعري (ت:٣٢٤)[2].

● ونقل عن سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) (التوقف) بالرؤية بالعين؛ لأن نصوص الرؤية القلبية صريحة، فقال (لا أقول رآه، ولا لم يره)[3].

● أَمَّا شَيْخُ الْإِسَلَامِ ابْنُ تَيمِيَةَ ـ رحمه الله ـ تعالى ـ فهو يرى أن الرؤية البصرية ليس هناك دليل قاطع يؤيدها وهو يفصل المسألة على النحو التالي، فيقول: (ولما كان النبي ﷺ أعظم

(١) القاضي عياض، الشفاء ج١ص٢٦٥-٢٦٦.

(٢) المصدر السابق ج١ص٢٥٩-٢٦٠.

(٣) السيوطي، الدر المنثور ج٦ص١٣٨، والقاضي عياض، الشفاء ج١ص٢٦٠.

إيمانًا من غيره رآه في أحسن صورة)، وهي رؤية بالمدينة كما نطقت بذلك الأحاديث المأثورة عنه، وأما ليلة المعراج، فليس في شيء من الأحاديث المعروفة أنه رآه ليلة المعراج، والذي نص عليه الإمام أحمد في الرؤية هو ما جاء عن النبي ﷺ، وما قاله أصحابه، فتارة يقول: رآه بفؤاده متبعًا لأبي ذر؛ فإنه روى بإسناده عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى ربه بفؤاده، وقد ثبت في صحيح مسلم أن أبا ذر سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: (نور أنىَّ أراه)، ولم ينقل هذا السؤال عن غير أبي ذر.. فلما كان أبو ذر أعلم من غيره اتبعه أحمد، مع ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال (رآه بفؤاده مرتين، وتارة يقول أحمد: رآه، فيطلق اللفظ ولا يقيده بعين، ولا قلب اتباعًا للحديث وتارة يستحسن قول من يقول: رآه، ولا يقول بعين، ولا قلب، ولم ينقل أحد عن أصحاب أحمد الذين باشروه عنه أنه قال رآه بعينه، .. وكذلك لم ينقل أحد بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال: رآه بعينه، بل الثابت إما الإطلاق، وإما التقييد، وقد ذكر طائفة من أصحاب أحمد؛ كالقاضي أبو يعلى، ومن اتبعه عن أحمد ثلاث روايات في رؤيته ـ تعالى ـ، إحداها: أنه رآه بعينه، واختاروا ذلك، وكذلك اختاره الأشعري وطائفة، ولم ينقل هؤلاء عن أحمد لفظًا صريحًا بذلك، ولا عن ابن عباس، ولكن المنقول الثابت عن أحمد من جنس النقول الثابتة عن ابن عباس: إما تقييد الرؤية بالقلب، وإما إطلاقها، وإما تقييدها بالعين، فلم يثبت لا عن أحمد، ولا عن ابن عباس)[1].

ويحاول شيخ الإسلام التوفيق بين القائلين بالرؤية البصرية، والرؤية القلبية، فيقول: وأما الرؤية، فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين، وعائشة أنكرت الرؤية، فمن الناس من جمع بينهما، فقال: عائشة أنكرت رؤية العين، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد، والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة، أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: رأى محمد ربه، وتارة يقول: رآه محمد، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه، وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول

(١) ابن تيمية ـ منهاج السنة النبوية ج٥ ص٣٨٤ك الى٣٨٧ بتعرف وأنظر درء تعارض العقل والنقل ج٨ ص٤١-٤٢ .

رآه بفؤاده، ولم يقل أحد أنه سمع أحمد يقول: رآه بعينه، ولكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق، ففهموا منه رؤية العين، كما سمع الناس مطلق كلام ابن عباس، ففهم منه رؤية العين، وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت عن أحد من أصحابه، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أَوْلَى، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك، فقال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ».

وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء١]، ولو كان قد أراه نفسه بعينه، لكان ذكر ذلك أَوْلَى، وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة على أنه لا يرى الله في الدنيا بعينه إلا ما تنازع فيه بعضهم في رؤية نبينا ﷺ خاصة، واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عيانًا كما يرون الشمس والقمر)[١].

وممن حاول التوفيق بين القولين ابن حجر (ت:٨٥٢هـ) ـ رحمه الله ـ تعالى ـ؛ حيث قال: (فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس، ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد، رؤية القلب لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالمًا بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلًا، ولو جرت العادة بخلقها في العين)[٢].

هذا مجمل ما قيل في الخلاف بين الصحابة حول رؤية النبي ﷺ لربه ـ عزَّ وجل ـ، وهو خلاف خاضع كما سبق، وقلَّت الروايات المتحصلة عند كل فريق، والثابت أنه لم يورث هذا الخلاف أي انحراف، أو ابتداع في العقيدة بين أهل السنة والجماعة، بل حاول علماء الأمة التوفيق بين هذه الروايات واستخلاص المعتقد الحق الذي تؤيده النصوص وتشهد له الشهادة الحقة.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج٦ص٥٠٩-٥١١.

(٢) ابن حجر ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٨ ص٦٠٨

٥ـ نِقَاشُ الصَّحَابَةِ فِي عَذَابِ الْمَيِّتِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ:

لقد تناقش الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعذاب الميت ببكاء أهله عليه، وسوف نجد أن كل واحد منهم يعتمد فيما يقول إلى حديث من رسول الله ﷺ، وقد حدث هذا النقاش بعد وفاته ﷺ وتحديدًا عند وفاة أُمِّ أَبَّانَ بنت عثمان بن عفان ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ، وقبل أن نعرض لصورة هذه النقاش، سنورد جملة من الأحاديث التي تعبر عن حال النبي ﷺ عند موت بعض أصحابه، والمباح من البكاء من الممنوع منه.

● فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يبكي عند موت أحد من أبنائه، أو أحد من أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (دَخَلْنَا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين (ت)، وكان ظئرًا[1] لإبراهيم، فأخذ رسول الله ﷺ ابنه إبراهيم، فقبله، وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تَذْرِفَانِ، فقال ابن عوف: وأنت يا رسول الله، فقال: «يَا بْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفُرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ مَحْزُونُونَ»[2]، وبكى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند وفاة ابنًا لإحدى بناته، وحضر ذلك جملة من الصحابة؛ منهم سعد بن عبادة (ت١٥هـ)، ومعاذ بن جبل (ت١٨هـ)، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، فلما بكى، قال له سعد بن عبادة: (يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ»[3].

وعندما بكت أُمُّ أيمن (ت: أول خلافة عثمان) عند وفاة بنت زينب ـ رضي اللَّهُ عنها ـ قال لها الرسول ﷺ: «يَا أُمَّ أَيْمَنَ، أَتَبْكِينَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَكِ؟!! فقالت: ما

---

(١) الظئر: المرأة التي ترضع ولد غيرها بالأجرة، وزوج المرضعة يسمى ظئرًا.

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب قوله ﷺ: «إنا بك لمحزونون» ح رقم١٣٠٣، الفتح ج٣ص١٨٢، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ـ ح رقم٢٣١٥، المختصر ج٢ص٢٨٢.

(٣) البخاري، الجنائز، باب قول النبي ـ يعذب الميت ببكاء أهله عليه ح رقم١٢٨٢، الفتح ج٣ص١٥١، ومسلم، الجنائز، باب البكاء على الميت ح رقم٩٢٣، المختصر ج١ص٣٣٠.

لي لا أبكي، ورسول الله ﷺ يبكي؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ بِخَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، تُنْزَعُ نَفْسُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ، وَهُوَ يَحْمِدُ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وهذا يدلل على إباحة البكاء، بدون نَوْح، أو مديح، والحوادث الآتية تبين ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مات ميت من آل رسول الله ﷺ، فاجتمع النساء يبكين عليه، فقام عمر رضي الله عنه ينهاهن ويطردهن، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يَا عُمَرُ، فَإِنَّ الْعَيْنَ دَامِعَةٌ وَالْقَلْبَ مُصَابٌ، وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ»(٢).

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ، قال: (اشتكى سعد بن عبادة رضي الله عنه شكوى له، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده مع عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال، قد قضى؟ فقالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، قال: «أَلَا تَسْمَعُونَ أَنَّ اللهَ لَا يُعذِّبُ بِدَمْعِ الْعَينِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا، ـ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ـ أَوْ يَرْحَمُ»(٣).

وفي رواية للترمذي عندما بكى رسول الله ﷺ على وَلَدهُ إبراهيم رضي الله عنه، قال له عبدالرحمن بن عوف: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء قال: لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين، فاجرين، صوت عند مصيبة، خَمْشُ وُجُوهٍ، وَشَقُّ جيوبٍ، ورنة شيطان)(٤).

وفي رواية أخرى إباحة البكاء ما دام الإنسان في ساعة النزع والاحتضار؛ فإذا

---

(١) النسائي، السنن، كتاب الجنائز، باب في البكاء على الميت ج٤ص١٢.

(٢) النسائي، السنن، كتاب الجنائز، باب الرخصة في البكاء على الميت ج٤ص١٩.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض ح رقم١٣٠٤، الفتح ج٣ص١٧٥، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت ح رقم٩٢٤، المختصر ج١ص٣٣١.

(٤) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت ح رقم١٠٠٥ ج٣ص٣١٩، وقال الإمام الترمذي: هذا حديث حسن.

قضى، لا يصح البكاء عليه، فعن جابر بن عتيك (ت٦١هـ) ﷺ أن رسول الله ﷺ، جاء يعود عبدالله بن ثابت، فوجده قد غلب عليه، فصاح به، فلم يجبه، فاسترجع رسول الله ﷺ، وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع، فصاح النساء وبكين، فجعل جابر يُسْكِتُهُنَّ، فقال الرسول ﷺ: «دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ، فَلَا تَبْكِيَنَ بَاكِيَةٌ، قالوا: يا رسول الله، وما وجب، قال: «إِذَا مَاتَ»، فَقالت ابنته، والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيدًا، فإنك قد قضيت جهازك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ»[1].

● **هذه أحاديثُ إباحةِ البكاءِ، ونستخلص منها الملاحظات الآتية:ـ**

إباحة البكاء بدون عويل، أو إخراج للصوت، أو مديح للميت، وإباحة ذلك على الميت في حالة النزع، فإذا قضى، فلا يجوز البكاء عليه، إن بكاءه ﷺ بالهيئة الواردة في الأحاديث هو رحمة، وكل من بكى على هذه الهيئة، فلا إثم عليه، ثم حدد النبي ﷺ البكاء المشروع الذي لا يرافقه نياحة ولا شق للجيوب، أو عمل؛ أي أمر من أمور الجاهلية.

● وهذه صورة من صور نقاش الصحابة عن عذاب الميت ببكاء أهله عليه، وقد كانت الأحاديث السابقُ ذكرها تُعَبِّرُ عن الحالة التي قررها رسول الله ﷺ قبل وفاته، وقد حدث بعد وفاته ﷺ نقاش في مسألة عذاب الميت ببكاء أهله عليه، وسوف نعرض لهذا النقاش عن طريق إيراد الروايات، ثم التعقيب عليها.

ولعل الحادثة التي أبرزت هذا النقاش بين الصحابة هي وفاة أم أبان بنت عثمان بن عفان ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ، ولم نستطع تحديد وفاتها؛ لعدم توفر أي نص حولها، رغم البحث المطول عليها في كتب التراجم، ولكن الثابت أن النقاش حدث في حياة عبدالله بن عمر، وابن عباس وعائشة ـ رضي اللَّهُ عنهم جميعًا ـ، فعن ابن أبي مليكة (ت١١٧) قال: توفيت بنت لعثمان بن عفان بمكة فجئنا نشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس؛ فإني لجالس بينهما، فقال عبدالله بن عمر، لعمرو بن عثمان، وهو

(١) النسائي، السنن، كتاب الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت ج٤ص١٤.

مواجهه: ألا تنهى عن البكاء، فإن رسول الله ﷺ قال: (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فقال ابن عباس: قد كان عمر يقول: بعض ذلك، ثم حدث: فقال: صدرت مع عمر من مكة حتى إذا كنا بالبيداء؛ فإذا هو براكب تحت ظل شجرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب، فنظرت؛ فإذا هو صهيب، قال: فأخبرته فقال: ادعه، فرجعت إلى صهيب، فقلت ارتحل، فالحق بأمير المؤمنين، فلما أن أصيب عمر دخل صهيب يبكي، يقول: وأخاه واصاحباه، فقال عمر: يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» فقال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: (يرحم الله عمر، لا والله ما حَدَّثَ رسول الله ﷺ: (إِنَّ الْمَيِّتَ يعذب ببكاء أهله عليه، ولكن قال: «إِنَّ اللهَ يَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، وقالت عائشة: حسبكم القرآن: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر:١٨] قال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك، وأبكى، قال ابن أبي مليكة: فما قال ابن عمر شيئًا)[١].

وفي رواية النسائي: فقالت عائشة: (أما والله ما تحدثون هذا الحديث عن كاذبين مكذبين، ولكن السمع يخطئ، وإن لكم في القرآن لما يشفيكم ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، [فاطر:١٨]، ولكن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه)[٢].

وعن عمرة بنت عبدالرحمن (ت٩٨هـ) قالت: سمعت عائشة ـ رضي اللَّهُ عنها ـ وذكر لها أن عبدالله بن عمر يقول: إن الميت ليعذب ببكاء الحي عليه؛ تقول: يغفر الله لأبي عبدالرحمن، أما أنه لم يكذب ولكنه نسي، أو أخطأ، وإنما مر رسول الله ﷺ على يهودية يبكى عليها، فقال: إنه لَيُبْكَى عليها، وإنها لتعذب في قبرها)[٣].

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببكاء أهله ح رقم١٢٨٨، الفتح ج٣ص١٥١، ومسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله ح رقم٩٢٧، المختصر ج١ص٣٣٢.

(٢) النسائي، كتاب الجنائز، باب النياحة على الميت ج٤ص١٩.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب قوله يعذب الميت ببكاء أهله ح رقم١٢٨٩، الفتح ج٣ص١٥٢، ومسلم، كتاب الجنائز، باب قوله يعذب الميت ببكاء أهله ح رقم٩٣١.

وكان عمران بن حصين ﷺ يرى أن الميت يعذب ببكاء أهله، فقد روى النسائي عن محمد بن سيرين (ت١١٠هـ)، قال: ذكر عند عمران بن حصين: الميت يعذب ببكاء الحي عليه، فقال عمران ـ قاله رسول الله ﷺ، فقال له رجل: أرأيت رجلًا مات بخراسان، وناح أهله عليه ها هنا أكان يعذب بنياحة أهله عليه، قال: صدق رسول الله ﷺ وكذبت أنت)[١].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من ميت يموت، فيقوم باكيه، فيقول، واجبلاه، واسيداه، ونحو ذلك، إلا وكل الله به ملكين يلهزانه، ويقولان أهكذا أنت)[٢].

وعن النعمان بن بشير ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ (ت:٦٤هـ) قال: (أغمي على عبدالله ابن رواحة ﷺ (ت٨هـ)، فجعلت أخته عمرة تبكي، واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه، فقال: حين أفاق: ما قلت شيئًا إلا قيل لي أأنت كذلك، فلما مات لم تبك عليه)[٣].

وعن علي بن ربيعة ـ رحمه الله ـ قال: أول من نيح عليه في الكوفة، قرظة بن كعب (ت في خلافة علي)، فقال المغيرة بن شعبة: (ت٥٠) ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى غَيْرِي مَنْ كَذِبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يَنُحْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤].

هذه هي جملة الروايات في البكاء على الميت وما يلحقه من عذاب، وقد ورد في

---

(١) النسائي، كتاب الجنائز، باب النياحة على الميت ج٤ص١٧.

(٢) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية البكاء على الميت ح رقم١٠٠٣، ج٣ص٣١٧، والحديث حسن.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤته ح رقم٤٢٦٨، الفتح ج٧ص٥١٦.

(٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة ح رقم١٢٩١، الفتح ج٣ ص١٦٠، ومسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله، شرح الأبي لصحيح مسلم ج٣ص٧٢.

الأحاديث قول عائشة في نفي وقوع ذلك على المؤمنين، وتخصيصها العذاب على الكافر، أو اليهودي، وقد قالت ذلك؛ لأنها سمعت الرسول ﷺ يخصص ذلك، ويقيده، وهذا لا يمنع أن النبي ﷺ كان يطلق ذلك عند أصحابه، بأن عذاب الميت ببكاء أهله عليه وارد، وقد أجمل ابن الوزير اليمني هذه المسألة فيما يلي:

«الْأَوَّلُ»: إن منهم من تأول ذلك بالوصية، ونحوها منهم البخاري في الصحيح[١]، والخطابي، وحكاه عنه ابن الأثير في شرح غريب حرف الميم[٢]، والنووي في رياض الصالحين[٣]، وقال في شرح مسلم[٤] في كتاب الجنائز منه: إنه قول الجمهور، وهو الصحيح، قال: وقالوا: فأما من بكى عليه أهله من غير وصية منه، فلا يعذب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء:١٥]، قالوا: وكان من عادة العرب الوصية بذلك، ومنه قول طرفة بن العبد:

إِذَا مِتُّ فَانْعِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ ... وَشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يَا إِبْنَةَ مَعْبِدِ

فخرج الحديث مطلقًا حملًا على ما كان معتادًا لهم.

---

(١) وذلك بقوله: (باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته) انظر فتح الباري ج٣ص١٥٠.

(٢) قال الخطابي: يشبه أن يكون هذا من حيث أن العرب كانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم، وإشاعة النعي في الأحياء، ولأن ذلك مشهورًا من مذاهبهم، وموجود في أشعارهم كثيرًا فالميت تلزمه العقوبة في ذلك لما تقدم من أمره إليهم في وقت حياته.
انظر ابن الأثير، جامع الأصول ج١١ص٩٣، ت عبدالقادر الأرناؤوط، ط٢، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.

(٣) قال الإمام النووي: وأما البكاء فجاءت أحاديث كثيرة بالنهي عنه وأن الميت يعذب ببكاء أهله، وهي متأولة ومحمولة على من أوصى به، والنهي إنما هو عن البكاء الذي فيه ندب أو نياحة).
انظر النووي، رياض الصالحين ص٤٢١، ت أحمد راتب عرموش، نشر دار كاتب وكتاب، بيروت ١٤٠٧هـ.

(٤) انظر الأبي شرح صحيح مسلم ج٣ص٦٩.

وقالت طائفة: هو محمول على من أوصى بذلك، أو لم يوصِ بتركه؛ فإنه يعذب بتفريطه في إهماله بالوصية بتركه، وحاصل هذا إيجاب الوصية بتركه ذلك(١).

«الْوَجْهُ الثَّانِي»: أن من قرره على ظاهره منهم، قطع أن له وجه حكمة لا يعلم تأويله إلا الله كما هو مذهبهم في جميع المتشابه(٢).

● وقيل إنهم تنازعوا في تفسير آية الساق؛ حيث روى أبو سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً، وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طبقًا وَاحِدًا»(٣).

وروي عن ابن عباس أنه قال: يوم حرب وشدة، وقال: يُكْشَفُ عن أمر عظيم)(٤). وهذا الاختلاف في تفسير الآية، وليس في إثبات الصفة، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والصحابة متنازعون في تفسير الآية، هل المراد الكشف عن الشدة أو المراد بها أن الرب ـ تعالى ـ يكشف عن ساقه، ولا يُحْفَظُ عن الصحابة والتابعين نزاعٌ فيما يذكر أنه من الصفات، أم لا في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله؛ لأنه ـ سبحانه ـ لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردًا عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة؛ كاليدين، والإصبع، لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فَيَكْشِفُ الرَّبُّ عَنْ سَاقِهِ، فَيَخِرُّونَ لَهُ سُجَّدًا»، ومن حمل الآية على ذلك قال قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾، [القلم:٤٢] مطابق لقوله ﷺ: «فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ...»، وتنكيره؛ للتعظيم، والتفخيم؛ كأنه قال: يُكشف عن ساق عظيمة، جَلَّتْ عظمتُهَا، وتعالى شأنها، أن يكون لها نظيرٌ، أو مَثِيلٌ،

---

(١) (٢) ابن الوزير اليمني، العواصم والقواصم ج٧ص٢٧٦، ٢٧٨، بتصرف.

(٣) البخاري، كتاب التفسير، باب يوم يكشف عن ساق ح رقم٤٩١٩، الفتح ج٨ص٦٦٣.

(٤) الطبري، جامع البيان ج٢٩ ص٣٨.

أو شبيهٌ[(١)].

وإن هذه المسائل التي تناقش فيها الصحابة، لا تعدو أربع مسائل في العقيدة، وهو ليس جدال المتعنتين الشَّاكين؛ فإن المسائل التي تجادلوا فيها لها ما يدل عليها من النصوص، والأدلة، وقد أمكن الجمع بينهما.

ولم يؤثر عن أن صحابيًا فسق الآخر أو كذبه بسبب هذه المناقشات بل نسبه إلى النسيان أو الخطإ أو عدم السماع.

ويلاحظ ميل عائشة إلى الاستدلال والاستنباط من القرآن لتأييد روايتها، كما نلاحظ أن جمعًا كبيرًا من الصحابة روى روايات عذاب الميت ببكاء أهله عليه بدون إسنباط.

وبهذا نجد أن هذا النقاش مرتكز إلى النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ بعيدًا عن الانتصار للرأي أو حظوظ الأنفس.

يضاف إلى ذلك أن هذه النقاشات لم تورث بين الصحابة كراهية أو شحناء، وجاء علماء السلف فوجدوا هذه الثروة العلمية الكبرى فوفقوا بين متعارضها، وهذا يبين سعة أفق الصحابة وأصالة علمهم وفهمهم ووقوفهم عند النصوص لا يتعدونها إلى أفهام وآراء مخالفة للكتاب والسنة.

والملاحظة الهامه التي نخلص إليها ـ هي أن هذا النقاش في هذه المسائل القليلة يعبر عن تمام الفهم لكل مسائل العقيدة الأخرى، وخاصة مسائل الصفات التي هيمنت على معظم الكتاب والسنة، وهذا يعني أن الصحابة كانوا في أعلى درجات الفهم والعلم بهذه المسائل.

* * * * *

---

(١) ابن القيم ـ الصواعق المرسلة جـ١، ص٢٥٢.



الْفَصْلُ الثَّامِنُ
الرَّدُّ عَلَى الأَفْكَارِ الخَاطِئَةِ حَوْلَ عَقِيدَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

• تَمْهِيدٌ

من الأمور الهامة التي تستوقف الباحثَ أن أول من أظهر الطعن على الرسول ﷺ وأصحابه من المنتسبين لهذه الأمة هم المنافقون الذين ظهرت من خلالهم فرق الابتداع والمبتدعة، وأولهم ذو الخويصرة أول الخوارج؛ الذي خرج من ضئضئه حرقوص بن زهير، وذي الثدية، وجمهور الخوارج الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه ثم على عليٍّ رضي الله عنه وقالوا بتكفيرهم، وتكفير الصحابة، ثم عبدالله بن سبإ، وأتباعه السبئية الذين اتخذوا شعار التشيع؛ حيث قالت الخوارج بتكفير عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعائشة، ومن عاش في زمانهم من الصحابة، فاستدركت عليهم الشيعة، فتناولت أبا بكر، وعمر، وجمهور الصحابة، ولتغطية سوءتها في كراهيتهم تولت أربعة منهم فقط بجوار علي رضي الله عنه

ثم عندما برز قرن المرجئة المبتدعة خاضوا في الأحداث التي وقعت بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مخالفين لجمهور الأمة، وقالوا بالتوقف فيهم، ثم عندما ظهرت المعتزلة على يد واصل بن عطاء، وقرينه في الضلالة عمرو بن عبيد قالوا: بتفسيق الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ، وصار مثل هؤلاء الحيارى المتهوكون يطلقون ألسنتهم العليلة للطعن على خير خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حتى أن عمرو بن عبيد كان يقول عن عبدالله بن عمر إنه حشوي[1]، ثم تعمقت خطة أعداء الأمة ببروز الجعدية، والجهمية، وغلاة الشيعة، والقرامطة، وفلاسفة المعتزلة، الذين توجهوا للعقائد التي اعتقدها الصحابة بصفاء وكمال تام، فقاموا بالإنكار، والطعن، وإلصاق الأباطيل بهم، والزعم بأنهم كانوا لا يفهمون معاني الصفات، فقام هؤلاء المبتدعة بالتأويل، والتعطيل،

(١) ابن تيمية ـ منهاج السنة النبوية ج٢، ص٥٢٠.

والنفي، والتشبيه؛ لإِثَارَةِ الشكوك والبلبلة في صفوف الأمة، حتى قيض الله لهم من رد هجمتهم الظالمة؛ التي كانت تهدف إلى تجريد معاني الألُوهية من نفوس المسلمين، والعمل على سيادة منهجها الظالم عندما استخدمت المأمون، والمعتصم، والواثق في امتحان علماء الأمة طمعًا منهم في زعزعة قداسة القرآن من نفوس المسلمين، وإعادتهم إلى الجاهلية، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أعز دينه بصمود علماء السلف، وعلى رأسهم إمام أهل السنة الإمام أحمد ـ رحمه الله، وجزاه الله خيرًا ـ فعاد الخزي والعار على المعتزلة، وَمَنْ شَايَعَهُمْ من فرق الضلال.

ومن هنا، فإن أغلب الأفكار الخاطئة التي أُثِيرَتْ قديمًا، وحديثًا عن عقيدة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فهي تنبع من هذه المستنقعات العفنة من المعتزلة، والشيعة والخوارج، والمرجئة، والمشبهة، والقدرية؛ الذين انبرى لمناصرتهم فِئَةٌ من الكتاب المعاصرين تحت مسميات بَرَّاقَةٍ، وكأن المُغَيِّرِينَ تداعوا من جديد، عندما شاهدوا الصحوة الإسلامية تنمو وتتلمس طريق السلف في المعتقد والسلوك، فقاموا بإشاعة أباطيل الفرق الضالة في قوالب جديدة، وأصبح الشباب المسلم في حيرة واضطراب ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ منجز وعده، وناصر دينه بإذنه ـ تعالى ـ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، [يوسف:٢١].

وقد سبق أن تَعَرَّضْتُ لِعَقِيدَةِ الصحابة في الصفات، وأنهم كانوا أعظم الناس فَهْمًا، وسوف نعرض فيما يلي لجملة من الشُّبَهِ التي أَثَارَهَا أعداء الصحابة لإبطالها، وبيان زيفها، وأهداف القائلين بها؛ وذلك أن هؤلاء المبتدعة عندما ألجأتهم بدعهم المنحرفة لمثل هذه المقالات أرادوا تسويقها بين الناس، فقاموا بإلصاقها بالصحابة، وحاشاهم ـ رضوان الله عليهم ـ أن يميلوا عن الطريق القويم الذي اختطه لهم رسول الله ﷺ .

ومن أكبر الشُّبَهِ التي قالت بها فرق الابتداع نسبة مقالاتها المبتدعة إلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وقد فندت كل هذه المزاعم عند بداية الحديث عن كل فرقة من الفرق التي قالت ذلك؛ مثل: الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والمعتزلة، كما

فندت مزاعم المعاصرين حول نسبة بعض الأقوال المبتدعة إلى بعض التابعين، وتابعيهم؛ فالبحث بمجموعه ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ يعطي الصورة الحقة عن هذه الجمهرة المباركة التي حملت هذا الدين، ونافحت عنه بأرواحها، ودمائها، وأموالها إيمانًا صادقًا بِرَبِّهَا العظيمِ وبرسولِهَا الكريمِ ﷺ .

١ـ شُبهَةُ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الصحابةَ والتابعين كانوا يُؤَوِّلون الصفات والرد عليها.

التأويل بالمعنى المبتدع أول من استخدمه كسلاح لتعطيل النصوص هم فرق الابتداع الذين أخذوه بدورهم عن اليهود؛ حيث ذكر القرطبي عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، [آل عمران: ٧٠]، أن جماعة من اليهود منهم حيي بن أخطب دخلوا على رسول الله ﷺ وقالوا: بلغنا أنه نزل عليك ﴿الٓمٓ﴾ فإن كنت صادقًا في مقالتك، فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة؛ لأن الألف في حساب الجمل واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فنزل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

ثم جاء عبدالله بن سبإ واتبع منهج من سبقه، وبنى بدعته الهدامة على تأويل آي القرآن؛ حيث قال: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمدًا يرجع، وقد قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص:٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال: فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة..)[2]، وتتابعت حلقات المبتدعة، فوجدت في هذا المنهج سلاحًا يخدم أغراضها الخبيثة؛ لِلَيِّ أعناقِ النصوص؛ لتأييد باطلها، فكانت كل الانحرافات التي جاء بها الشيعة مبنية على التأويل الباطل للنصوص، وعندما ظهرت المرجئة، استخدمت نفس هذا المنهج، وكذلك القدرية، والمعتزلة، والخوارج، والجهمية، فأصبح التأويل الباطل مأوى لكل من يريد الخروج على عقيدة الأمة وشريعتها، فهم لم يكتفوا بالتأويل

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ج٤،ص١٥.

(٢) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك جـ٢، ص٦٤٧ وابن الأثير ـ الكامل ج٣، ص٧٧.

في مسائل العقيدة، وإنما امتدت أيديهم الآثمة؛ لتأويل جميع مسائل الشريعة؛ بقصد تعطيلها، وتوهينها في نفوس الناس.

● وَالتَّأْوِيلُ فِي عُرْفِ السَّلَفِ هو التفسير؛ حيث يقول الإمام الطبري: (إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يفهمون معاني القرآن وتأويله، وتفسيره بما يوافق الطريقة النبوية في الإثبات، فعن ابن مسعود ﷺ عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن)، وعنه قال: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت آية في كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيما نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا، لأتيته»[١].

فالتأويل في لفظ السلف كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (له معنيان: أحدهما تفسير الكلام، وبيان معناه سواء وافق ظاهره، أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربًا، أو مترادفًا، وهذا والله أعلم هو الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله، ومحمد بن جرير الطبري عندما يقول في تفسيره ـ القول في تأويل قوله كذا وكذا، واختلف أهل التأويل في هذه الآية، ونحو ذلك، ومراده التفسير، والمعنى الثاني في لفظ السلف هو نفس المراد بالكلام، فإن الكلام إن كان طلبًا، كان تأويله نفس المطلوب، وإن كان خبرًا، كان تأويله نفس الشيء المخبر به[٢].

ويقول في موضع آخر: (إن لفظ التأويل في القرآن يراد به ما يؤول الأمر إليه، وإن كان موافقًا لمدلول اللفظ ومفهومه في الظاهر، ويراد به تفسير الكلام، وبيان معناه، وإِنْ كان موافقًا له، وهو اصطلاح المفسرين المتقدمين؛ كمجاهد، وغيره، ويراد به صَرْفُ اللفظِ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح؛ لدليل يقترن بذلك، وتخصيص لفظ التأويل بهذا المعنى، إنما يوجد في كلام بعض المتأخرين، فأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين؛ كالأئمة الأربعة، وغيرهم، فلا يخصون

---

(١) الطبري ـ جامع البيان ج١، ص٣٥-٣٦ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى ج١٣، ص٢٨٨-٢٨٩.

لفظ التأويل بهذا المعنى، بل يريدون بالتأويل المعنى الأول والثاني[١].

● أَمَّا التَّأْوِيلُ الباطلُ الذي قالت به فرق الابتداع، فهو (صرف اللفظ عن مفهومه إلى غير مفهومه؛ فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف، وكان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله التي هي من نوع تحريف الكلم عن مواضعه، فكانوا ينكرون التأويل الباطل الذي هو التفسير الباطل[٢].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (وأما المعتزلة، والجهمية، وغيرهم من فرق المتكلمين، فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره، وحقيقته إلى مجازه، وما يخالف ظاهره، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول، والفقه؛ ولهذا يقولون: التأويل على خلاف الأصل ـ والتأويل يحتاج إلى دليل، وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه، وإبطاله من الجانبين، فصنف جماعة في تأويل آيات الصفات، وأخبارها؛ كأبي بكر بن فورك (ت٤٠٦)، وابن مهدي الطبري (ت٣٨٠)، وغيرهما، وعارضهم آخرون، فصنفوا في إبطال تلك التاويلات؛ كالقاضي أبي يعلي (ت٤٥٨)، والشيخ موفق الدين بن قدامة (ت٦٢٠)، وهو الذي حكى عن غير واحد إجماع السلف على عدم القول به[٣].

● وإذا كانت فرق الابتداع على مختلف مشاربها لم تنسب القول بالتأويل فيما أعلم إلى النبي ﷺ أو أصحابه الكرام، فإن بعض المعاصرين تجرأوا بدافع التعصب إلى مذاهبهم، فنسبوا ذلك إلى الرسول ﷺ وصحابته الكرام؛ حيث يقول ابن خليفة عليوي: (سنجعل قدوتنا بالتأويل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، والتابعين، ومن سار على هديهم من أئمة الإسلام الأعلام إلى يوم الدين!! ويقال هنا: هل الرسول ﷺ أول الاستواء على العرش، أم لا، وإذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أول أعسر كلمة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج١، ص١٤.

(٢) ابن تيمية ـ الصفدية ج١، ص٢٩١ـ بتصرف ت د. محمد رساد سالم.

(٣) ابن القيم ـ الصواعق المرسلة ج١، ص١٧٩ت د. علي الدخيل الله ط١/١٤٠٨ دار العاصمة الرياض.

يمكن أن يستعصي فهمها على الأمة فيكون الرسول ﷺ (قد أشار إلى أمته باقتفاء أثره بتأويل كل ما يوهم ظاهره التجسيم!!) والسؤال هنا هل يوجد دليل على ما قلته: نعم، ها هو الدليل ـ جاء في كتاب العلو للذهبي ـ حديث سمعناه من أحمد بن هبة الله عن أبي رزين العقيلي، قال: قلت يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ، مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ـ ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ (ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ)!!.

فأنت ترى أن النبي ﷺ قد أَوَّلَ قولَهُ ـ تعالى ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] بقوله: ثم استولى عليه، وبذا يكون المؤولون قد اقتفوا أثر الرسول ﷺ بصرف كل لفظ عن ظاهره ـ يفهم منه التجسيم إلى لفظ آخر ينفي عنه ذلك، وسواء أكان الحديث صحيحًا، أم ضعيفًا، فلا أقل من أن يحمل على التفسير، وحينئذ لا يخرج عن التأويل[1].

ثم ينسب القول بالتأويل إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فيقول: (فإذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد فسر الاستواء بالاستيلاء؛ فهذا هو التأويل بعينه، وقد علمت أن السلف الصالح، وعلى رأسهم حبر هذه الأمة عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قد أول كثيرًا من الصفات!، وهو أحق بالتأويل من كافة الأمة؛ لاختصاصه به بفضل دعاء الرسول له بالتأويل، بقوله: «اللَّهُمَّ، عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ، اللَّهُمَّ، فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيْلَ»؛ وَبِذَا يُعْلَمُ أن التأويل ليس مذمومًا، إذ لو كان كذلك لما دعا الرسول ﷺ لابن عباس به، ومن أجل هذا رأت الأمة اقتفاء أثر السلف الصالح في التأويل في كل لفظ يُوْهِمُ ظَاهِرهُ التَّجْسيم[2].

أما حسن السقاف ـ محقق كتاب (دفع شبه التشبيه، لابن الجوزي)، فيقول: (أَوَّلَ ابن عباس قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم:٤٢]، فقال: يكشف عن شدة، فأول الساق بالشدة ذكر ذلك الحافظ بن حجر في فتح الباري ج١٣،

---

(١) ابن خليفة عليوى، هذه عقيدة السلف والخلف ص٧٨، دمشق ١٣٩٨هـ.

(٢) عليوي ـ هذه عقيدة السلف ص٨٠.

ص٤٢٨، والحافظ بن جرير الطبري في تفسيره؛ حيث قال في صدر كلامه على هذه الآية: قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل: يبدو عن أمر شديد قلت: (أي السقاف): ومنه يتضح أن التأويل كان عند الصحابة والتابعين، وهم سلفنا الصالح[1].

• **وَلِلرَّدِ عَلَى هَذِهِ الأَبَاطِيلِ نقول أولاً:** مما يؤسف له أن المتأخرين قد بلغت بهم الجرأة على قول ما لم يقله أسلافهم الأوائل؛ فإن الأوائل كانوا يقرون في أنفسهم أن التأويل، هم الذين قالوا: به ولم ينسبوه فيما أعلم إلى الرسول، أو صحابته الكرام؛ وذلك بسبب تقاصر أفهامهم عن مستوى الصحابة والتابعين في اليقين، والفهم، ولعدم سعة صدورهم، وعقولهم لتقبل الوحي الرباني بنصوصه الواضحة السهلة الميسرة.

ولكن المتأخرين عندما شاهدوا الصحوة الإسلامية تتلمس طريق السلف، وتأخذ بمعتقدهم الحق، والسهل، طارت عقولهم، فخافوا على هذا البناء الهش الذي أقامه المتكلمون أن ينهار، فقامت بطرح هذه الدعاوى الباطلة المزيفة[2].

ثانيًا: ومما يبين أن القوم فقدوا صوابهم أن عليوي قد زَوَّرَ الحديث، وزاد فيه من عنده؛ ليوافق مذهبه الباطل في التأويل، فإن الحديث هذا هو لفظه: (قال أبو رزين العقيلي قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟، قال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ»، وفي رواية للإمام أحمد: (ثم خلق العرش ثم استوى عليه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)[3].

فلا يوجد في الحديث ما زعمه زورًا وبهتانًا عن أكذوبة الاستيلاء.

---

(١) ابن الجوزي دفع التشبيه بأكف التنزيه ص١١ت حسن السقاف ط١، الأردن عمان.

(٢) يذكر عليوى هذا أن سبب تأليفه لهذا الكتاب مناقشة دارت بينه وبين الدكتور علي بن ناصر الفقهي عندما كان في زيارة لدمشق وقد حصل بينهما نقاش في مسائل الصفات. انظر ص٩، من نفس الكتاب.

(٣) ابن ماجة ـ السنن المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ح رقم١٨٢ج١، ص٦٤ ومسند الإمام أحمد ـ مسند أبي رزين العقلي ج٤، ص١٢.

«ثَالِثًا»: زعم عليوي أن هذا الحديث في كتاب العلو للذهبي ـ رحمه الله ـ، وقد بحثت عن الحديث في المطبوعة التي حققها فضيلة الشيخ الألباني، فلم أجد هذا الحديث فضلًا عن الزيادة التي أضافها من عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«رَابِعًا»: زعم عليوى أن النبي ﷺ دعا لابن عباس بأن يعلمه التأويل، ونحن نرى أن التأويل هو التفسير وليس التأويل الذي ذهب إليه المبتدعة، مع أن رِوَايَتِي البخاري ومسلم ليس فيهما أي إشارة إلى أن النبي ﷺ دعا له بأن يعلمه التأويل، فعن ابن عباس أن النبي ﷺ (دخل الخلاء، فَوَضَعْتُ له وضوءًا، وقال مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ فأُخْبِرَ، فقال: اللَّهُمَّ، فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ[1].

«خَامِسًا»: أما ما ذكره السقاف من تأويل ابن عباس للساق، فهذا ليس من التأويل المبتدع الذي قالت به فرق الابتداع، فإن هذه الآية قد اختلف السلف في تفسيرها، وليس هناك بينهم أي خلاف بإثبات الصفة نفسها؛ حيث يبطل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الزعم بهذه الشهادة العظيمة، فيقول: (إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقوله عن الصحابة، وما ورد في الحديث، ووقفت من ذلك ما شاء الله ـ تعالى ـ من الكتب الكبار، والصغار أكثر من مئة تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه (تأول) شيئًا من آيات الصفات، أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل إِنَّ عَنْهُمْ في تقرير ذلك، وتثبيته، وبيان ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين، مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ، وكذلك فيما يذكرونه آثِرِينَ وذاكرين عنهم شيء كثير، وتمام هذا أني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢]، فروى ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة: أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد، وطائفة أنهم عدوها من الصفات، للحديث

---

(١) البخاري ـ كتاب الوضوء ـ باب وضع الماء عند الخلاء ح رقم١٤٣/ الفتح ج١، ص٢٤٤ ومسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ باب فضائل ابن عباس ح رقم ٢٤٧٧/ المختصر ج٢، ص٣٥٢.

الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين، ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات؛ فإنه قال: (يوم يكشف عن ساق) نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنَّمَا التأويل صرف الآية عن مدلولها، ومفهومها المعروف[١].

وقال القاضي أبو يعلى: (ودليل آخر على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لتأويلها، ولا صرفها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغًا، لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه، ورفع الشُّبَهِ، بل قد روي عنهم ما دل على إبطاله)[٢].

وقال المقريزي ـ رحمه الله ـ مفصلًا مذهب الصحابة والتابعين في الصفات (إنه لم يَرِدْ قط من طريق صحيح، ولا سقيم عن أحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب ـ سبحانه ـ به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات، نعم، ولا فَرَّقَ أحدٌ منهم بين كونها صفةُ ذاتٍ، أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له ـ تعالى ـ صفات أزلية من العلم، والقدرة، والعظمة، وساقوا الكلام سوقًا واحدًا، وهكذا أثبتوا ـ رضي الله عنهم ـ ما أطلقه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على نفسه الكريمة من الوجه واليد، ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا ـ رضي الله عنهم ـ بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم شيء من الطُّرُقِ الكلامية، ولا مسائل الفلسفة، فَقُضِي عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على هذا[٣].

(١) مجموع الفتاوى جـ٦، ص٣٩٤.

(٢) أبو يعلى ـ إبطال التأويلات لأخبار الصفات ص٧١، ت محمد النجدي ط١، الكويت.

(٣) المقريزي ـ المواعظ والاعتبار ـ الخطط ـ ج٢، ص٣٥٦ط١٤٠٧/٢ مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

وهكذا تسقط دعوى المبطلين الذين راموا تسويق بضاعتهم المزجاة، عن طريق نسبة مبتدعاتهم إلى خير الله بعد الأنبياء والرسل، فلم يكن لهم حاجة - رضوان الله عليهم - إلى التأويل، أو غيره، فهم الذين نزل القرآن، وهم أحياء يسمعونه من رسول الله غضًّا طريًّا، وعاصروا أحداثه التي قيلت فيها آيات القرآن كلها، وصفات ربهم - سبحانه - كانوا لتوقيرها والإيمان بها والتعبد بها أعظم، وأجل، ولو أشكل عليهم شيء مما قاله المبطلون؛ لسألوا ولأجابهم النبي ﷺ الذي كانت أعظم مهماته تعريفهم بربهم المعبود بوحدانيته، وأسمائه، وصفاته.

٢- شُبْهَةُ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يُفَوِّضُونَ مَعَانِي الصِّفَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهَا:

وممن زعم هذه الشُّبْهَةَ الشهرستاني؛ حيث يقول: (اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يُثْبتون لِلَّهِ - تعالى - صفات أزلية من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال والإكرام، والجود والإنعام، والعزة والعظمة، ولا يفرقون بين صفات الذات، وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقًا واحدًا، وكذلك يثبتون صفات خبرية؛ مثل اليدين، والوجه، ولا يُأولون ذلك، إلا أنهم يقولون: هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها صفات خبرية، ولما كان المعتزلة ينفون الصفات، والسلف يثبتونها، سمي السلف صفاتية، والمعتزلة معطلة، فبالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات الْمُحْدَثَاتِ، واقتصر بعضهم على صفات دلت الأفعال عليها، وما ورد به الخبر، فافترقوا فرقتين.

فمنهم من أَوَّلَهُ على وجه يحتمل ذلك اللفظ ، ومنهم من توقف في التأويل، وقال: عرفنا بمقتضى العقل أن الله - تعالى - ليس كمثله شيء، فلا يشبه شيئًا من المخلوقات، ولا يشبهه منها شيء، وقطعنا بذلك، إلا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيها؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، [طه:٥]، ومثل قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، [ص:٧٥]، ومثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، [الفجر:٢٢] إلى غير ذلك، ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا

شريك له، وليس كمثله شيء؛ وذلك قد أثبتناه يقينًا، ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف؛ فقالوا لا بد من إجرائها على ظاهرها، فوقعوا في التشبيه الصرف؛ وذلك على خلاف ما اعتقده السلف[١].

وقال السيوطي: (وجمهور أهل السنة؛ منهم السلف، وأهل الحديث على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله ـ تعالى ـ ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها)[٢] ويقول حسن السقاف: (وبقيت مسألة، ولا شك أن السلف كانوا يفوضون الكيف والمعنى؛ وهو المراد بالتفويض عند إطلاقه بلا شك)[٣].

هذه بعض أقوال من نسبوا التفويض إلى السلف ـ رضوان الله عليهم ـ؛ حيث يلمح من عبارة الشهرستاني أن السلف تطور مذهبهم من الإثبات إلى القول بالتأويل أو التفويض، وهذا زعم باطل لا أساس له فإن السلف، وأولهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مذهبهم الإثبات، ما حادوا عنه إلى قول من الأقوال المبتدعة، وكذلك فعل السيوطي عندما أغفل مذهب السلف المثبت لمعاني الصفات مع عدم تعرضهم للكيفية.

ويذكر شيخ الإسلام سبب نشوء هذه الشبهه؛ فيقول: عن المفوضة: (هم طائفة من المنتسبين إلى السُّنَّةِ، وأتباع السلف، تعارض عندهم المعقول والمنقول، فأعرضوا عنها جميعًا بقلوبهم، وعقولهم، بعد أن هَالَهُمْ ما عليه أصحاب التأويل من تحريف للنصوص، وجناية على الدين، فقالوا في أسماء الله، وصفاته، وما جاء في ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد إنها نصوص متشابهة لا يعلم معناها إلا الله تعالى وهم طائفتان من حيث إثبات ظواهر النصوص ونفيها ـ الأُوْلَى تَقُولُ: المراد بهذه النصوص خلاف مدلولها الظاهر، ولا يعرف أحد من الأنبياء، ولا الملائكة، ولا الصحابة، ولا أحد من الأمة، ما أراد الله بها، كما لا يعلمون وقت الساعة.

(١) الشهرستاني ـ الملل والنحل ص٩٢-٩٣ـ ت عبدالعزيز الوكيل ـ دار الفكر.

(٢) السيوطي ـ الإتقان في علوم القرآن ج٢، ص٦، ١٩٧٣ـ لبنان.

(٣) ابن الجوزي ـ دفع شبه التشبيه ص٢١ـ مقدمة المحقق.

الثَّانِيَةُ تَقُولُ: بل تجرى على ظاهرها، وتحمل عليه، ومع هذا، فلا يعلم تأويلها إلا الله - تعالى -، فتناقضوا؛ حيث أثبتوا لها تأويلًا يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا بأنها تحمل على ظاهرها.

وهم أيضًا طائفتان؛ من حيث علم الرسول ﷺ بمعاني النصوص، الْأُولَى تَقُولُ: أَنَّ الرسول ﷺ كان يعلم معاني النصوص المتشابهة، لكنه لم يبين للناس المراد منها، ولا أوضحه إيضاحًا يقطع النزاع، وهذا هو المشهور عنهم، والثَّانِيَةُ تَقُولُ - وهم الأكابر منهم -: أن معاني هذه النصوص المتشابهة لا يعلمها إلا الله، لا الرسول، ولا جبريل، ولا أحد من الصحابة، والتابعين وعلماء الأمة، وعند الطائفتين أن هذه النصوص إنما أنزلت للابتلاء، والمقصود منها تحصيل الثواب بتلاوتها، وقراءتها، من غير فقه، ولا فَهْمٍ(١).

● وقد اشتبه على بعض المعاصرين قول بعض السلف «أمرُّوها كما جاءت»، فظنوا أن هذا القول موافق لمذهب القائلين بالتفويض(٢)، ويبطل شيخ الإسلام هذه الدعوى، فيقول: والمقصود هنا التنبيه (على أصول المقالات الفاسدة التي أوجبت الضلالة في باب العلم، والإيمان) بما جاء به الرسول ﷺ، وأن من جعل الرسول غير عالم بمعاني القرآن الذي أنزل إليه، ولا جبريل جعله غير عالم بالسمعيات، ولم يجعل القرآن هدى، ولا بيانًا للناس، وهم مخطئون فيما نَسَبوا إلى الرسول ﷺ وإلى السلف من الجهل، كما أخطأ في ذلك أهل التحريف، والتأويلات الفاسدة، وسائر أصناف الملاحدة.

ثم ذكر قول الأوزاعي: (كنا والتابعون متوافرون، نقول إن الله - تعالى ذكره - فوق عرشه، ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته).

ونسب للأوزاعي، ومكحول والزهري، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث

---

(١) ابن تيمية - مجموع الفتاوى ج١٦، ص٤٤٢.

(٢) انظر ابن الجوزي - دفع شبه - ص٢٢ لكلام المحقق.

بن سعد قولهم عن الأخبار التي جاءت في الصفات، فقالوا: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، فقولهم ـ رضي الله عنهم ـ (أمروها كما جاءت) ردًّا على المعطلة، وقولهم بلا كيف ردًّا على الممثلة، وكان مالك بن أنس إذا ذُكِرَ عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبدالعزيز: سَنَّ رسولُ الله ﷺ، وولاةُ الأمرِ بعده سُنَنًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد من خلق الله تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها، فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها، فهو منصور، ومن خالفها، واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرًا.

وعندما سُئِلَ مالكُ بن أنس[١] عن الاستواء أثبت المعنى، وترك القول بالكيفية، فقد جاءه رجل، فقال: يا أبا عبدالله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا، ثم أمر به أن يخرج، فقول مالك وربيعة موافق لقول الباقين أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، فإنَّما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، ولما قالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف؛ فإن الاستواء حينئذ لا يكون معلومًا بل مجهولًا بمنزلة حروف المعجم، وأيضًا، فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية، إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية، إذا أثبت الصفات، وأيضًا فقولهم: أمروها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه؛ فإنها جاءت ألفاظ دالة على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية، لكان الواجب أن يقال: أمرُّوا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير المراد، أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة، وحينئذ فلا

---

(١) وقد نسب هذا القول إلى أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وقد ضعف الشيخ الألباني هذه النسبة، انظر ـ الذهبي ـ العلو للعلي الغفار ص١٠٩.

تكون قد أُمِرَّت كما جاءت، ولا يقال حينئذ بلا كيف، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لَغْوٌ من القولِ[١].

وقال أبو الفضل إسحاق بن أحمد بن غانم العلثي (ت٦٣٤هـ) في رسالة إلى عبدالرحمن بن الجوزي ينكر عليه أشياء، ومن جملتها التأويل، وزعمه أن جماعة من السلف فوضوا معاني الصفات - قال: (ثم تعرضت لصفات الخالق - تعالى -، كأنها صدرت لا من صدر سكن فيه احتشام العلي العظيم، ولا أملاها قلب مليء بالهيبة والتعظيم، وزعمت أن طائفة من أهل السنة الأخيار تلقوها، وما فهموا، وحاشاهم من ذلك، بل كَفُّوا عن الثرثرة، والتشدق، ولا عجزًا بحمد الله عن الجدال والخصام، ولا جهلًا بطرق الكلام، وإنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم ودراية، لا عن جهل وعماية[٢].

ويرى شيخ الإسلام أن القول بالتفويض يفضي إلى (القدح في الرب - جل وعلا -، وفي القرآن الكريم، وفي الرسول ﷺ؛ وذلك بأن يكون الله - تعالى - أنزل كلامًا لا يفهم، وأمر بتدبر ما لا يتدبر، وبعقل ما لا يعقل، وأن يكون القرآن الذي هو النور المبين، والذكر الحكيم سببًا لأنواع الاختلافات، والضلالات، بل يكون بينهم، وكأنه بغير لغتهم، وأن يكون الرسول ﷺ لم يبلغ البلاغ المبين، ولا بَيَّنَ للناسِ ما نزل إليهم، وبهذا يكون قد فسدت الرسالة، وبطلت الحجة، وهو الذي لم يتجرأ عليه صناديد الكفر[٣].

وهكذا تبدو لنا خطورة القول بالتفويض الذي رده علماء السلف، وجعلوه بدعة

---

(١) ابن تيمية - مجموع الفتاوى ج٥، ص٣٨-٤١- بتصرف، وانظر د. رضا نعسان - علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين ص٦٩ط٣، مكة المكرمة.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي ج٢، ص٢٠٧، نقلًا عن الأستاذ عثمان علي حسن - منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ج٢، ص٥٨٧ط١-١٤١٢- مكتبة الرشد - الرياض.

(٣) ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل ج١، ص٢٠٤.

تقابل بدعة التأويل، وأن القول به هو إزراء بمقام النبوة، ومقام الصحابة، وسلف الأمة جمعاء؛ فإنهم فهموا مُرَادَ ربهم، وعبدوه العبادة الحقة، وآمنوا بأسمائه، وصفاته كما جاءت في الكتاب والسُّنَّةِ، وهم فوق جميع أهل العقول، والأفهام لا يدانيهم في هذه المكانة أحد على الإطلاق كما قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ (إنهم فوقنا في كل عقل وعلم، وفضل، وسبب ينال به علم، أو يدرك به صواب، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا)[1].

٣ـ إِبْطَالُ شُبْهَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ قد شغلهم الجهاد عن فهم آيات الصفات، ومسائل العقيدة:

والذين قالوا بهذه الشبهة أهل الابتداع قديمًا، والمستشرقين وتلاميذهم حديثًا؛ حيث أشار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى ذلك عند كلامه عن ابن سبعين، وابن عربي، وابن سينا، وأبو حامد الغزالي، فقال: (ثم إن هؤلاء مع هذا لما لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم، بل ولا نقل ذلك عن النبي ﷺ صار منهم من يقول: كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب، وأنهم هم حققوا ما لم يحققه الصحابة، ويقولون أيضًا أن الرسول ﷺ لم يعلمهم هذه؛ لئلا يشتغلوا به عن الجهاد؛ فإنه كان محتاجًا إليهم في الجهاد، وهكذا يقول من يقول من مبتدعة أهل الزهد والتصوف، إذا دخلوا في عبادات منهي عنها، ومذمومة في الشرع، قالوا كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد، وكان النبي ﷺ يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد، وأهل السيف قد يظن من يظن منهم أن لهم من الجهاد، وقتال الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة، وأن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم، والعبادة عن مثل جهادهم[2].

أَمَّا المستشرقون فيمثلهم كتاب دائرة المعارف الإسلامية؛ حيث يزعم أحدهم أن الصحابة والتابعين عندما انتهوا من الفتوحات قاموا بتفهم القرآن؛ حيث يقول: (ولما استقر المسلمون بعد الفتوحات، ودخل من دَخَلَ في الإسلام من أرباب الديانات

(١) ابن تيمية ـ درء تعارض العقل والنقل ج٥، ص٧٣.

(٢) ابن تيمية ـ النبوات ص٢٢١، ط١٤٠٢، دار الكتب العلمية بيروت.

المختلفة، عكف المسلمون من جهة على فهم القرآن، والتعمق في الفهم، وأثار بعض هؤلاء الذين التحقوا بالإسلام دون أن يتبطنوه من جهة أُخرى كثيرًا من عقائدهم الدينية، وصاروا يتجادلون حولها، ويجادلون المسلمين فيها، في هذه المرحلة نجد الآيات المتشابهات في القرآن يستعرضها المفكرون، ويحللونها، ويحاول كل أحد أن يخضعها لما يرى من رأي إما بأخذها على ظواهرها، وإما بتأويلها تنزيهًا لله ـ تعالى ـ عما يوهم التشبيه في الذات، أو الصفات، وإما بالإيمان بها كما جاءت دون تعرض لها بتفسير، أو تأويل، وكان نتيجة هذه المواقف من تلك الآيات ظهور فرقة المشبهة، والمجسمة، وفرقة المعتزلة النافية للصفات مبالغة في التنزيه، والصفاتية؛ وهم جمهور السلف الذين بَيْنَ بَيْنَ[1].

ويردد أحمد أمين نفس فكرة المستشرقين، فيقول: إن المسلمين لما فرغوا من الفتح، واستقر بهم الأمر، واتسع لهم الرزق، أخذ عقلهم يتفلسف في الدين، فيثير خلافات دينية، ويجتهد في بحثها، والتوفيق بين مظاهرها، ويكاد يكون هذا مظهرًا عامًا في كل ما نعرفه من أديان، فهي أول أمرها عقيدة ساذجة، قوية لا تأبه الخلاف، ولا تلتفت إلى بحث[2].

وهذه المزاعم في غاية البطلان؛ وذلك لأن الصحابة، قد إكتملت معالم عقيدتهم وشريعتهم قبل وفاة الرسول ﷺ، ولقد كانت الأحداث التي عاشوها رضوان الله عليهم والآيات التي خوطبوا بها ابتداءً والتي تتحدث عن كل مسائل العقيدة هي الزاد الحقيقي الذي فهموا فيه أمور عقيدتهم، والتي عرضت بوضوح، وشمول كبير أغناهم عن البحث، والتنقير، والابتداع، أو السؤال، فانطلقوا بهذا التصور الكامل عن الإله الحق، ووعده الحق لهم بالجزاء الحسن بالجنة، وأنه ـ رضي الله عنهم ـ ورضوا عنه، انطلقوا يفتحون الدنيا شرقًا وغربًا، وقد امتلأت قلوبهم حبًا وعقولهم معرفة وفهمًا لكل معاني الصفات، ويمثل هذا الكمال في الفهم والمعرفة ما رواه البخاري عن طارق

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج٥، ص٥٣١، دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج٣، ص٢ط١٠ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ابن شهاب قال: (قالت اليهود لعمر: إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا، لاتخذناها عيدًا، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: يوم عرفة، وإنا والله بعرفة، قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، [المائدة:٣][(١)].

فقد أكمل الله دينه، وفهمته العصبة المؤمنة تمام الفهم، وأعرض عمر رضي الله عنه عن مزاعم اليهود؛ بأخذهم يوم نزول الآيات أعياداً، وأخبرهم عن علمه بزمان نزولها، ومكان نزولها، فكانت تفيد تمام هذا الدين، وأعظم ما فيه مسائل العقيدة، ومن أخصها توحيد الإله الحق بأسمائه، وصفاته والإيمان بها الإيمان الحق، وعدم تعريضها للجدال والخصومة، ولم يكن الصحابة ولا التابعين سلفًا لمن زاغت عقيدته فمال إلى التأويل، والتعطيل، أو مال إلى التشبيه فإن الصحابة والتابعين ما كانوا يعدلون بالقرآن والسنة أي فكر بشري أبدًا، وإنَّما الذين تفلسفوا، هم قنائص زنادقة البلاد المفتوحة الذين دخلوا في جدال معهم؛ كالجعد، والجهم، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وغيرهم، الذين سقطوا في حمأة البدعة الممقوتة، وفتحوا باب الشرور على الأمة.

٤ـ إِبْطَالُ التَّعْلِيلِ الْبَاطِلِ لِسُكُوتِ الصَّحَابَةِ، وَعَدَمِ سُؤَالِهِمْ عَنِ الصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ.

ومن المزاعم الباطلة التي قيلت حول عقيدة الصحابة سكوتهم، وعدم خوضهم في الصفات، وعدم سؤالهم عنها، وهذا الزعم في غاية الفساد والبطلان؛ وذلك لأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إنما سكتوا عن الخوض في الصفات، ولم يسألوا عنها؛ لأنهم وجدوا أن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ قد كفتهم مؤنة التكلف، والسؤال، فقد أحاطت الآيات والأحاديث بكل ما يخص الإله الحق من أسمائه، وصفاته، وكل مسائل العقيدة، فقد وردت بشتى الأشكال، والصور التي يطول حصرها كما ذكرنا من قبل.

ويقرر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ هذه الشبهة، ويرد عليها، فيقول: (وصار كثير

---

(١) البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب اليوم أكملت لكم دينكم رقم ٤٦٠٦/ الفتح ج٨ص٢٧٠.

منهم يقول: إن الرسول ﷺ لم يكن يعرف أصول الدين، ومنهم من هاب النبي ﷺ، ولكن يقول: الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك، ومن عظم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء، يبقى حائراً كيف لم يتكلم أولئك الأفاضل في هذه الأمور التي هي أفضل العلوم، ومن هو مؤمن بالرسول معظم له يستشكل كيف لم يبين أصول الدين مع أن الناس أحوج منهم إلى غيرهم[١].

وَيَرُدُّ شيخ الإسلام، فيقول: (فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته، واعتقاده، والتصديق به من هذه المسائل، فقد بينه الله ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين، وبينه للناس، وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه، وبلغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة، ثم التابعون عن الرسول ﷺ لفظه، ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضًا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب[٢].

ومما يؤكد أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا في غنى عن السؤال، وإنما سكتوا عن فهم وعلم، ما سبق، وذكرنا من هيمنة مسائل الصفات على الكتاب والسنة، واستيعابها من قبلهم بأعلى درجات الاستيعاب، ولو احتاجوا إلى السؤال لسألوا كما سألوا عن رؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وكسؤال أبي رزين العقيلي، أين كان ربنا؟ وقول ذلك الصحابي: أيضحك ربنا؟[٣]، وسؤالهم عن القدر، وعن مسائل الآخرة من الحساب، والجنة والنار، فلم يكن هناك حجر على السؤال عن مسائل الاعتقاد، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (كل من فيه أدنى محبة للعلم، أو أدنى محبة للعبادة لا بد أن يخطر بقلبه هذا الباب، ويقصد فيه الحق، ومعرفة الخطإ من الصواب، فلا يتصور أن يكون الصحابة والتابعون كلهم كانوا معرضين عن هذا لا يسألون عنه ولا يشتاقون إلى معرفته، ولا تطلب قلوبهم الحق فيه، وهم ليلًا ونهارًا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ج١، ص٢٤.

(٢) درء تعارض العقل ج١، ص٢٧.

(٣) الإمام أحمد ـ المسند ج٤، ص١١، مسند أبي رزين.

يتوجهون بقلوبهم إليه ـ سبحانه ـ ويدعونه؛ تضرعًا وخفية، ورغبًا ورهبًا، والقلوب مجبولة مفطورة على طلب العلم بهذا، ومعرفة الحق فيه، وهي مشتاقة إليه أكثر من شوقها إلى كثير من الأمور، ومع الإرادة الجازمة، والقدرة يجب حصول المراد، وهم قادرون على سؤال الرسول ﷺ وسؤال بعضهم بعضًا، وقد سألوا عما دون ذلك، سألوه أنرى ربنا يوم القيامة؟ فأجابهم، وسأله أبو رزين: أيضحك الرب ـ فقال: نعم، فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا[1].

وغاية القول أن سكوت الصحابة، وعدم سؤالهم عن حقائق الصفات، وكيفيتها كان لوجود هذا الفهم، والإيمان، وعدم تعرض عقولهم لشبهات الشك والحيرة، ولوفرة النصوص القرآنية، والنبوية التي أفاضت في البيان فلم تبقى لأنفسهم مجالًا للتساؤل، فكان هذا البيان، وهذا الوضوح، وسلامة الاعتقاد من أعظم أسباب استقرار عصر الصحابة والتابعين، وبعدهم عن الجدال، والبدع العقدية، فانصرفوا إلى خدمة دينهم، ونصرته، ونشره بين الأنام، بعد أن، امتلأت قلوبهم حبًّا وفرحًا بعظمة إلههم المعبود، فانطلقوا يفتحون الأمصار شرقًا وغربًا، ويزكون أنفسهم بقراءة كتابه وتتبع سنة نبيه، واجتهدوا بالعبادات، والطاعات النافعة بخلاف من تقاصرت أفهامهم، وضعف إيمانهم، ويقينهم فراموا ابتداع تصور جديد عن الإله الحق فوقعوا في الفتن التي كانت سببًا في حيرتهم وشكِّهِمْ، وكان من خيارهم الذين، امتن الله عليهم بالهداية قبل موتهم أن ندموا أشد الندم على مخالفة منهج الصحابة والتابعين.

٥- إِبْطَالُ الزَّعْمِ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ أَقَامُوا الْعَقِيدَةَ عَلَى أُسُسٍ غَيْرِ دَقِيقَةٍ بِاعْتِمَادِهِمْ عَلَى أَخْبَارِ الْآحَادِ.

وقد ابتدع هذا القول فرق الابتداع على مختلف مشاربها، وأَوَّلُهُمْ المعتزلة؛ الذين حكموا عقولهم بالنصوص الشرعية، بزعم أن العقائد لا تثبت عندهم إلا إذا بلغ الخبر حد التواتر، وهذا الشرط الذي وضعوه كان دافعه المنهج المبتدع الذي اختطوه في رد

(١) القاعدة المراكشية ص٤٧، ص٤٨.

معظم العقائد التي جاءت على لسان النبي ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى.

يقول الشيخ عمر الأشقر: (والناظر في كلام سلفنا الصالح يعلم أنهم كانوا يثبتون العقائد بنصوص القرآن، والحديث لا يفرقون بين المتواتر والآحاد، ولا يفرقون في الاحتجاج بين العقائد والأحكام، ولم يُعْرَفُ أحدٌ خالف في هذا من الصحابة والتابعين، وأتباع التابعين، ولا من الأئمة المرضيين؛ أمثال الأئمة الأربعة، وكان السلف الصالح وما يزال أتباعهم ينكرون أشد الإنكار على الذين يرغبون إلى ترك الأحاديث، والنصوص، والاحتكام إلى العقل، ويسفهون من قال بذلك.

ونبتت نابتة ترفض الاحتجاج والأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد، وعندما سئل هؤلاء عن مستندهم وجدناهم يستدلون بحجة الخوارج، والمعتزلة الذين رفضوا أحاديث الآحاد في العقائد، والأحكام، فنراهم يقولون: الأحاديث الآحاد لا تفيد اليقين، والعقائد لا تبنى إلا على اليقين[(١)].

وعلماء أهل السنة مجمعون على الأخذ بخبر الآحاد في العقائد قال الإمام الشافعي: (فقال لي قائل: احدد لي أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم؛ حتى يثبت عليهم خبر الخاصة؟ فقلت: خبر الواحد عن الواحد حتى ينتهي به إلى النبي ﷺ أو من انتهى به إلى دونه[(٢)].

ثم يفصل قوله هذا، فيقول[(٣)]: (فإنْ قال قائل: أذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر، أو دلالة فيه، أو إجماع، فقلت له: أخبرنا سفيان بن عبدالملك بن عمير عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا، وَوَعَاهَا، وَأَدَّاهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ

(١) د. عمر سليمان الأشقر ـ أصل الاعتقاد، ص١١-١٢ ط٣ـ الدار السلفية، الكويت.

(٢) الرسالة ص٣٦٩ت أحمد شاكر ـ بدون تاريخ.

(٣) الرسالة ص٣٦٩ ت أحمد شاكر ـ بدون تاريخ.

لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومِ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[١]، فلما ندب رسول الله إلى سماع مقالته، وحفظها، وأدائها إمراءً يؤديها، والامرؤ واحد، دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه؛ لأنه إنَّما يؤدي عنه حلال، وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا[٢].

وقال ابن الأثير: (فإن الصحيح من المذاهب، والذي ذهب إليه الجماهير من سلف الأئمة من الصحابة، والتابعين، والفقهاء، والمتكلمين: أنه لا يستحيل التَّعبد بخبر الواحد عقلًا، ولا يجب التعبد عقلًا، وأن التعبد واقع سمعًا، بدليل قبول الصحابة لخبر الواحد، وعملهم به في وقائع شتى لا تنحصر، وإنفاذ رسول الله ﷺ رسله، وقضاته، وأمراءه، وسُعَاتَهُ إلى الأطراف، وهم آحادٌ، وبإجماع الأمة على أن الْعَامِيَّ مأمور باتباع المفتي وتصديقه، مع أنه ربما يخبر عن ظنه؛ فالذي يخبر عن السماع الذي لا شك فيه أولى بالتصديق[٣].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (وأما المقام الثامن: وهو انعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث، وإثبات صفات الرب ـ تعالى ـ بها؛ فهذا لا يشك فيه من له أقل خبرة بالمنقول؛ فإن الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم من بعض بالقبول، ولم ينكرها أحد منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم، تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين، هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم، وأمانتهم، ونقلهم ذلك عن نبيهم ﷺ؛ كنقلهم الوضوء، والغسل من الجنابة وأعداد

---

(١) ابن ماجة ـ السنن ـ المقدمة ـ باب من بلغ علمًا ح رقم٢٣٠ـ ج١ ص٨٤ـ دار الحديث القاهرة والتبريزي ـ مشكاة المصابيح ـ كتاب العلم ح رقم٢٢٨/ ج١ص١١١ت سعيد اللحام ط١/ ١٤١١ دار الفكر ـ بيروت.

(٢) الرسالة ص٤٠١ـ٤٠٣.

(٣) ابن الأثير ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ج١، ص١٢٥ـ١٢٦ ت عبدالقادر الأرناءوط ط١٤٠٣/٢ـ دار الفكر ـ بيروت.

الصلوات، وأوقاتها، ونقل الأذان والتشهد، والجمعة، والعيدين؛ فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإنْ جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها، جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرناه وحينئذ فلا وثوق لنا بشيء نُقِلَ لنا عن نبينا ﷺ البتة، وهذا انسلاخ من الدين، والعلم، والعقل، على أن كثيرًا من القادحين في دين الإسلام قد طردوه، وقالوا: لا وثوق لنا بشيء من ذلك البتة[(١)].

وقد أتى ابن القيم ـ رحمه الله ـ بواحد وعشرين دليلًا على صحة خبر الآحاد، وقال إن مقصود المبتدعة هو رد الأخبار في مسائل العقيدة حسب أصولهم الفاسدة مع أنهم يحتجون بأخبار الآحاد؛ لتأييد بدعتهم، فيقول: (وأما هذا القول الذي يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، فلا بد من نقله بطريق التواتر؛ لوقوع العلم به حتى أخبر عنه القدرية، والمعتزلة، وكان مقصدهم منه رد الأخبار، وتلقفه منهم بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم في العلم قدم ثابت، ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول، ولو أنصف أهل الْفِرَقِ في الأمة، لأقروا بأن خبر الواحد يوجب العلم، فَإِنك تراهم مع اختلافهم في طرائقهم، وعقائدهم يستدل كل فريق منهم على صحة ما يذهب إليه بالخبر الواحد ـ ترى أصحاب القدر يستدلون بقوله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، وبقوله عن ربه «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ»[(٢)].

وترى أهل الأرجاء يستدلون بقوله: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»[(٣)]، وذكر احتجاج الشيعة، والخوارج ثم قال: إلى غير ذلك من الأحاديث التي يستدل بها أهل الفرق، ومشهور معلوم استدلال أهل السنة بالأحاديث، ورجوعهم إليها؛ فهذا إجماع منهم على القول بأخبار الآحاد، وكذلك أجمع أهل الإسلام متقدموهم ومتأخروهم على رواية الأحاديث في صفات الله، ومسائل القدر، والرؤية، وأصول الإيمان

---

(١) ابن القيم ـ مختصر الصواعق المرسلة ـ اختصار محمد الموصلي ج٢، ص٥٢٤ ط١٤٠٥ دار الندوة ـ بيروت.

(٢) سبق تخريج الحديثين.

(٣) البخاري ـ كتاب الجنائز ـ أوله ح رقم١٢٣٨/ الفتح ج٣، ص١١٠.

والشفاعة، والحوض، وإخراج الموحدين المذنبين من النار، وفي صفة الجنة، والنار وفي الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد[1].

وقد ترتب على عدم احتجاج هؤلاء المبتدعة بخبر الآحاد أن أنكروا جملة من عقائد الإسلام التي آمن بها الصحابة والتابعون، وجمهور الأمة من بعدهم؛ حيث يقول الشيخ الألباني: أنكروا جملة من العقائد؛ منها:

١ـ نُبُوَّةُ آدمَ ـ عليه السلام ـ وغيره من الأنبياء الذين لم يذكروا في القرآن.

٢ـ أَفْضَلِيَّةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ على غيره من الأنبياء.

٣ـ شَفَاعَتُهُ ﷺ العظمى في المحشر.

٤ـ شَفَاعَتُهُ لِأَهْلِ الكبائر من أمته.

٥ـ مُعْجِزَاتُهُ ﷺ كلها ما عدا القرآن، ومنها معجزة انشقاق القمر؛ فإنها مع ذكرها في القرآن تأولوها بما ينافي الأحاديث الصحيحة المصرحة بانشقاق القمر معجزة لرسول الله ﷺ.

٦ـ صِفَاتُهُ الْبَدَنِيَّة، وَبَعْضُ شَمَائِلِهِ الْخُلُقِيَّة.

٧ـ الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق وصفة الملائكة، والجن، والجنة، والنار، وأنهما مخلوقتان، وأن الحجر الأسود من الجنة.

٨ـ خُصُوصِيَّاتُهُ؛ مثل دخول الجنة، ورؤية أهلها، وما أُعِدَّ للمتقين، وإسلام قرينه من الجن، وغير ذلك.

٩ـ الْقَطْعُ بِأَنَّ العشرة المبشرين بالجنة من أهل الجنة.

١٠ـ الْإِيمَانُ بسؤالِ منكرٍ ونكير في القبر.

١١ـ الإيمان بعذاب القبر.

---

(١) ابن القيم ـ مختصر الصواعق ج٢، ص٥٠٥.

١٢ـ الإيمان بضغطة القبر.

١٣ـ الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

١٤ـ الإيمان بالصراط.

١٥ـ الإيمان بالحوض.

١٦ـ دخول سبعين ألفًا من أمته الجنة بغير حساب.

١٧ـ الإيمان بكل ما صح في الحديث عن صفة القيامة، والحشر، والنشر.

١٨ـ الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

١٩ـ الإيمان بالقلم الذي كتب كل شيء.

٢٠ـ الإيمان بالعرش، والكرسي حقيقة لا مجازًا.

٢١ـ الإيمان بأن القرآن كتاب الله حقيقة لا مجازًا.

٢٢ـ الإيمان بأن أهل الكبائر لا يخلدون في النار[١]. وغيرها حتى عدد ٣٠ معتقدًا يفضي عدم الأخذ بأحاديث الآحاد إلى إنكارها، وعدم الاعتقاد بها.

وهكذا تبدو خطورة هذا الانحراف الذي قالت به فرق الابتداع التي ردت عقائد الإسلام التي آمن بها الصحابة الكرام الذين تلقوها عن الصادق المصدوق، وكانت لهم بشرى من الله نالوا بها الرضوان، والثواب العظيم، وكانت وما زالت الأمة على هذه المعتقدات لم تهزها في نفوسهم زوابع أهل الفتنة على مر الأزمان، والحمد لله رب العالمين.

٦ـ إِبْطَالُ مَزَاعِمِ الْمُبْتَدِعَةِ وَالْمُسْتَشْرِقِينَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ عَقِيدَةَ الصَّحَابَةِ خَضَعَتْ لِلتَّطَوُّرِ، وَالتَّنَاقُضِ:

وهذه المزاعم أخذها المستشرقون من المبتدعة الأوائل، وزادوا عليها عندما اطلعوا

(١) الألباني ـ وجوب الأخذ بخبر الآحاد ص٣٦.

على الأسس المتينة التي أقيمت عليها الضوابط الصارمة؛ لقبول الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ثم إن النصارى واليهود، ليس لهم أي سند صحيح يمكن أن يعتمد فيه على صدق ما لديهم من نصوص دينية.

فقد اختص الله ـ تعالى ـ هذه الأمة بالإسناد الذي حفظ هذا الدين من اختلاط الأحاديث الصحيحة بالضعيفة، أو المكذوبة، أو أقاويل الرجال، فعن ابن سيرين ـ رحمه الله ـ قال: (كانوا لا يسألون عن الإسناد حتى وقعت الفتنة، فسألوا عن الرجل، فإن كان من أهل السنة أخذوا حديثه، وإن كان من أهل البدعة، فلا يؤخذ حديثه)[١].

ولعل هذا الشرط الذي وضعه علماء السلف، وضيق الخناق على المبتدعة الأوائل الذين ردت مفترياتهم، وأكاذيبهم على رسول الله ﷺ وأصحابه، هو الذي أثار حفيظة المبتدعة، وجعلهم يتوجهون بالطعن عليهم ورد أحاديثهم بحجة أنها أخبار آحاد، وهذه الضوابط الصارمة أيضًا أثارت حفيظة المستشرقين الذين ليس لهم أدنى ثقة فيما لديهم من كتب منسوبة لموسى، أو عيسى ـ عليهما السلام ـ بعدما امتدت أيادي الكذبة التي حرفتها واشترت بها ثمنًا قليلًا، مما أثار حنقهم، وغضبهم على الصحابة والتابعين، ورواة الأحاديث فزعموا أنها ألفت لسد ثغرات التناقض، والنقص في العقيدة والشريعة، وكذبوا فيما قالوا، فإن الأسس التي أقامها الله لهذا الدين الخاتم لا تدانيها أي أسس في هذه الدنيا، فهو الدين الخاتم المحفوظ من رب العالمين قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

أما أقوال هؤلاء المبتدعة في هذا الشأن، فقد ذكر جملة منها ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث حيث يقول عن النظام[٢] وهو أحد مبتدعة الاعتزال : (وجدنا

---

(١) ابن حبان ـ المجروحين ج١، ص٨٢، ت ـ محمود إبراهيم زيد ط١ ١٤٠٢ـ دار المعرفة ـ لبنان.

(٢) النظام ـ إبراهيم بن سيار: شيخ المعتزلة تكلم في القدر وهو شيخ الجاحظ، ولم يكن ممن نفعه العلم والفهم، وقد كفره جماعة، وقال بعضهم: كان النظام على دين البراهمة المنكرين للنبوة والبعث ويخفي ذلك، ورد أنه سقط في غرفة وهو سكران فمات في خلافة المعتصم أو الواثق سنة بضع وعشرين ومئتين ـ انظر ـ الذهبي ـ سير أعلام النبلاء جـ١٠، ص٥٤١ـ٤٣٢ بتصرف.

النظام شاطرًا من الشطار يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها، ويدخل في الأدناس ويرتكب الفواحش والشائنات)[(١)].

ثم يذكر تخطئته لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -[(٢)]، وتكذيبه ابن مسعود[(٣)]، ويشتم زيد بن ثابت بأقبح الشتم[(٤)]، ويعيب عثمان بن عفان رضي الله عنه[(٥)]، ويطعن بأبي هريرة رضي الله عنه[(٦)]، ثم انتقل بعد ذلك إلى أبي الهذيل العلاف[(٧)].

وروى ابن المرتضى المعتزلي شيئًا من أكاذيب النظام، فقال: (ولولا أن الفقهاء والمحدثين والرواة الصلحاء المرضيين يكذبون في الأخبار، ويغلطون في الآثار لما تناقضت آثارهم، ولا تدافعت أخبارهم.. وكيف لا يغلطون ولا يكذبون، ولا يجهلون، ولا يتناقضون (بزعمه الكاذب)، والذين رووا منهم أن النبي ﷺ قال «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ»، وأنه قال: فمن أعدى الأولى، وهم الذين رووا أن النبي ﷺ قال: فر من المجذوم فرارك من الأسد، وبعد أن عدد جملة من الأحاديث قال: ثم يتحدث، فقيههم بمثل هذه الأحاديث، ويخبر بمثل هذه الأخبار، ويشهد على الله بمثل هذه الشهادة، وهو غير محتفل بذلك، ولا مستحٍ منه[(٨)].

ويجد المستشرقون بغيتهم في تراث المبتدعة المنتسبين لهذه الأمة، ويطورون منهج الكذب، والتزوير؛ فيقول جولد سهير عن الصحابة والتابعين: (فهم يقيمون إجابات على أسئلة، لم يفكر فيها المؤسس، ويوفقون بين المتناقضات، ويتصورون صيغًا شديدة،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص٢٠ت - محمد محيي الدين الأصفر ط١/١٤٠٩ـ المكتب الإسلامي بيروت.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) تأويل مختلف الحديث ص٢٣، ٢٤، ٢٥،٢٦.

(٧) أبو الهذيل العلاف من رءوس الاعتزال - زعم أن نعيم الجنة وعذاب النار ينتهي، وأنكر الصفات ورويت عنه سلوكيات منحرفة وقد جاوز التسعين من العمر - وتوفي سنة سبع وعشرين ومئتين. سير أعلام ج١٠ص٥٤٢.

(٨) ابن المرتضى، المنية والأمل - ت د. محمد جواد مشكور ص٥٠-٥٢. ط١/١٣٩٩/ دار الفكر بيروت.

ويقيمون سورًا من التفكير، والبرهان يظنون أنه يحمي هذه الصيغ من الهجمات الداخلية، والخارجية، ثم يستخلصون من أقوال النبي ﷺ متخذين إياها غالبًا بالمعنى الحرفي مجموعة قضاياهم في نظام لا يعوزه التنسيق، ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبًا عَقَدِيًّا موحدًا متجانسًا خاليًا من التناقضات!! ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطرًا إلا آثار عامة، نجد فيها، إذا بحثنا في تفاصيلها أحيانًا، تعاليم متناقضة[(١)].

ثم يضيف هذا المستشرق المأفون قائلًا: (والحديث شأنه في ذلك شأن جميع نقط التاريخ الداخلي للإسلام، يقدم لنا صورة الحركة الفكرية التي قامت في هذا الصدد، في الطائفة الإسلامية، نعم، إن هذه الحركة ترجع إلى عهد النبي ﷺ، وإن الحديث يحاول التخفيف من حدتها، ولكن الواقع أن هذه الحركة لم تقم بمعناها الحقيقي إلا في العصر الذي نبت فيه التفكير الإسلامي، ومن الحديث نفهم أن تلك المناقشات كانت تثير غضب النبي ﷺ وأنه كان يقع في ضيق عندما كان المؤمنون يشيرون إلى تناقض عقدي في القرآن!![(٢)].

ويبلغ حنق المستشرقين على الصحابة والتابعين عندما يتهمونهم بوضع الأحاديث؛ لتناسب العصر، فيقول أحدهم: (وسرعان ما أدى هذا بالضرورة إلى وضع الأحاديث، فاستباح الرواة لأنفسهم اختراع أحاديث تتضمن القول، أو الفعل، نسبوها إلى النبي ﷺ؛ لكي تتفق وآراء العصر التالي، وكثرت الأحاديث الموضوعة، وتداولها الناس منسوبة إلى النبي ﷺ بحيث تجعله يقول أو يفعل شيئًا مما كان يعد في ذلك العصر من الأمور المستحسنة، وظهرت في الحديث أقوال مأخوذة من أقوال الرسل، والأناجيل المنحولة، ومن الآراء الإسرائيلية، والعقائد الفلسفية اليونانية، تلك الآراء التي لقيت الحظوة عند فريق معين من المسلمين، ونسبت كل هذه الأقوال إلى النبي ﷺ.

---

(١) جولدسيهر ـ العقيدة والشريعة ص٧٨.

(٢) جولد سيهر ـ العقيدة والشريعة ص٨٠.

ولم يتورع الناس عند ذاك أن يجعلوا النبي ﷺ يفصل على هذا النحو القصص، والأساطير التي وردت موجزة في القرآن، ويدعو إلى آراء، ومعتقدات جديدة، بل وكان كثير من الأحاديث الموضوعة، والمنسوبة إلى النبي ﷺ تتناول الأحكام؛ كالحلال، والحرام، والطهارة، وأحكام الطعام، والشريعة، وآداب السلوك، ومكارم الأخلاق، ثم وضعت أحاديث تتناول العقائد، ويوم الحساب، والجنة والنار، والملائكة، والخلق والوحي، والأنبياء السابقين، وفي الجملة وضعت أحاديث في كل ما يتعلق بالصلة بين الله والإنسان وتشتمل هذه الأحاديث الموضوعة، كذلك على عظات وتعاليم خلقية، نسبت إلى النبي ﷺ [١].

وَلِلرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ، فَإِنَّنَا نَقُولُ:

● إن المعتزلة ابتداءً من واصل، وعمرو بن عبيد كانوا من أوائل الطاعنين على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وهم أول من قال بفسق المتحاربين في الجَمَلِ وصِفِّينَ، فليس غريبًا أن ينطلق تلاميذهم الذين اشتهروا بالفسق، والفجور، أن يردوا أخبارهم، ويطعنوا فيهم تبعًا لأساتذتهم الجهلة، الذين تجرءوا على خير خلق الله؛ ليعلنوا الأحكام الباطلة حولهم.

والمعتزلة ليس لهم اشتغال بالكتاب، أو السنة، وإنَّما اشتغالهم بالفلسفة، وأقوال أرسطو، وغيره من كفرة اليونان، فقد اعتمدوا على عقولهم العليلة، ولم يجلسوا مجالس العلم الشرعي، ولم يتتلمذوا على علماء السلف الثقات، وإنَّما أخرجتهم مجالس الثنوية والمجوس، وهذا ما سيلاحظه القارئ عند حديثنا عن فرقة المعتزلة بإذن الله، ويربط الدكتور مصطفى السباعي بين موقف المعتزلة وموقف المستشرقين، فيقول: (ما فتحه رؤساء المعتزلة من ثغرات في مكان الصحابة استطاع منها أن يلج المتعصبون من المستشرقين حمى أولئك الذادة الميامين صحابة رسول الله، وأن يجرءُوا على رميهم بالكذب، والتلاعب في دين الله، مستندين إلى ما افتراه النظام، وأمثاله عليهم، وما استطال بلسانه على مقامهم، وقد تبع المستشرقين في هذا بعض الكتاب المسلمين كما

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج٧، ص٣٣٢، مادة الحديث.

ستطلع عليه من صنع الأستاذ أحمد أمين، وبعض أدعياء العلم المغرورين(١).

أما أقوال المستشرق الحاقد جولدسهير، فهي تمثل قمة التعصب، والكراهية للرسول، والصحابة، والتابعين الذين تركوا لنا هذه الثروة العلمية الكبرى، والتي يفتقر إليها النصارى، واليهود وكل الملل الكافرة في هذا العالم، ويرد عليه الدكتور مصطفى السباعي، فيقول: (ولا ندري كيف يجرؤ على مثل هذه الدعوى، مع أن النقول الثابتة تكذبه، ومع أن الرسول ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد وضع الأسس الكاملة لبنيان الإسلام الشامخ، بما أنزل الله عليه في كتابه، وبما سَنَّهُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ من سنن، وشرائع وقوانين، شاملة، وافية، حتى قال ﷺ قُبَيل وفاته: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَينِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي» وقال: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا»، ومن المعلوم أن من أواخر ما نزل على النبي ﷺ من كتاب الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾، [المائدة:٣]؛ وذلك يعني كمال الإسلام، وتمامه.

فما توفي رسول الله إلا وقد كان الإسلام ناضجًا تامًّا لا طفلًا يافعًا كما يدعي هذا المستشرق، على أن الباحث المنصف يجد أن المسلمين في مختلف بقاع الأرض التي وصلوا إليها كانوا يتعبدون عبادة واحدة، ويتعاملون بأحكام واحدة، ويقيمون أسس أسرهم، وبيوتهم على أساس واحد، وهكذا كانوا متحدين في العبادات، والمعاملات والعقيدة غالبًا، ولا يمكن أن يكون ذلك، لو لم يكن لهم قبل مغادرتهم جزيرة العرب نظام تام ناضج، وضح لهم أسس حياتهم في مختلف نواحيها، ولو كان الحديث أو القسم الأكبر منه نتيجة للتطور الديني في القرنين الأولين للزم حتمًا ألا تتحد عبادة المسلم في شمال إفريقيا مع عبادة المسلم في جنوب الصين، إذ إن البيئة في كل منهما مختلفة عن الأخرى تمام الاختلاف(٢).

(١) د. مصطفى السباعي ـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص١٤٢ط٤/ ١٤٠٥ المكتب الإسلامي بيروت.

(٢) د. السباعي ـ السنة ومكانتها ص١٩٥-١٩٦ بتصرف.

وفي الختام نقول: إن أقوال المستشرقين تنم عن الجهل بشريعة الإسلام، وعقائده، وتنم عن نفسيات حاقدة، وهي تعلم تمام العلم كمال هذا الدين، وتمامه، ولكنها تخفي هذه الحقيقة؛ لتروج على جماهير النصارى، وتزيدهم حقدًا، وكراهية لهذا الدين، ولتسهم في الصد عن سبيل الله، ولتمنع دخول أتباعهم ـ الذين غزا الإسلام عقر دارهم بسهولة معتقده، وسلامة سلوك دعاته المخلصين ـ، هذا الدين المنزل من عند الله ـ تعالى ـ الذي يقول ـ سبحانه ـ في وصف كتابه المنزل لجميع البشرية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، [النساء:٨٢]، وبالرغم من كل هذه الجهود الجبارة التي بدأت منذ ثلاثة قرون من قبل المستشرقين والمبشرين بالهدم، والشرك، والكفر، إلا أن الإسلام بتمامه، وكماله، وبُعْدِهِ عن التناقض بدأ يفرض وجوده على أوربا باعتناق الملايين من أبنائها لهذا الدين.

ولم يأت هذا من فراغ؛ فإن هذا هو من هداية الله أولًا، وأخيرًا، ثم إن النصراني، أو غيره يجد عناءً كبيرًا في فهم معتقدات ديانته التي خضعت للتطور، والتعديل المستمر عن طريق المجامع النصرانية التي أقرت عقيدة التثليث بعد صراع طويل بين مذاهبها النكدة المعقدة.

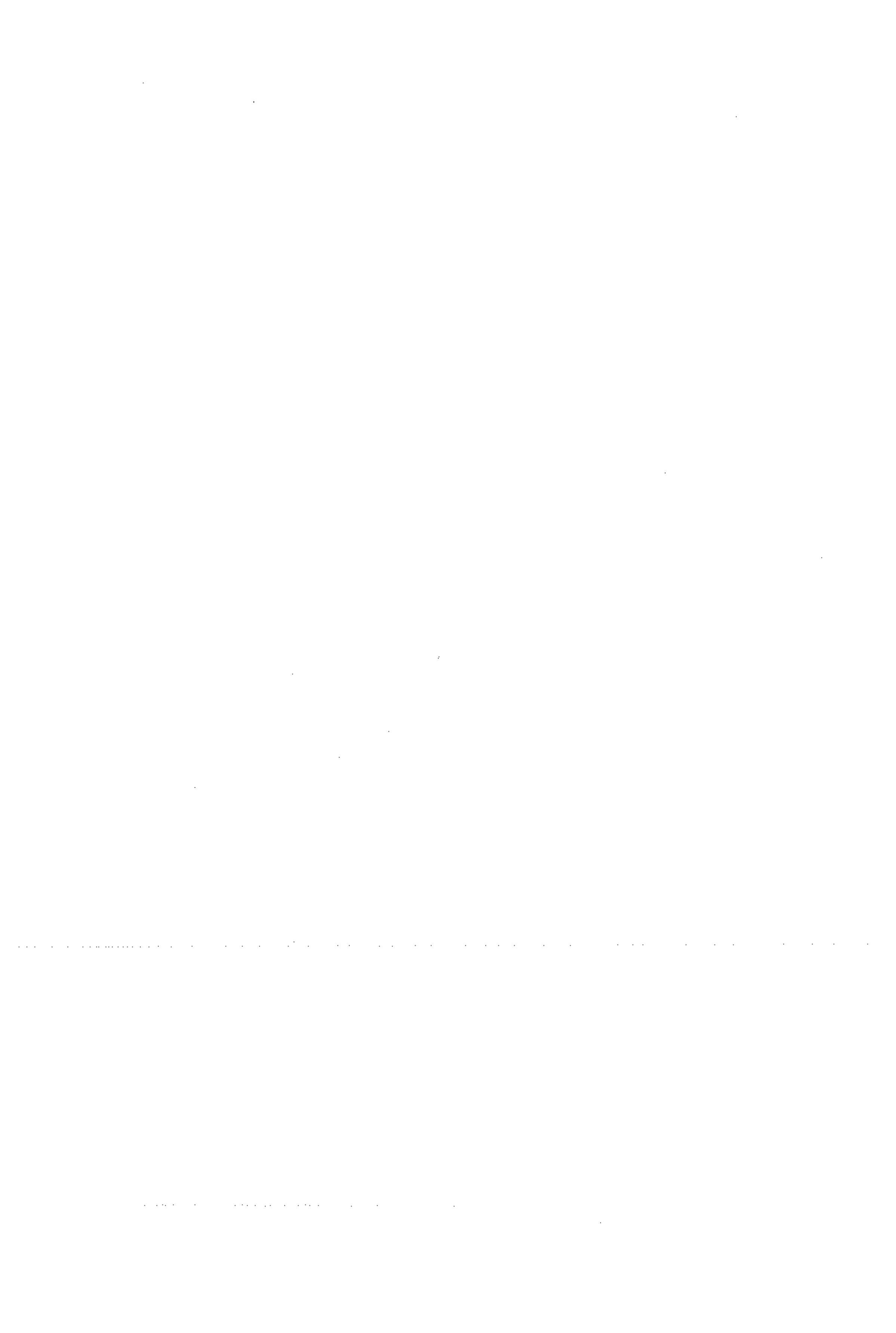
إن هذه المفتريات الحاقدة من المستشرقين وغيرهم، تجافي الحقيقة الكبرى التي ابتنى عليها هذا الدين، وكمل بنيانه، وهي مفتريات أظهر الواقع الحالي سقوطها، كما سقط أسلافهم الطاعنين على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من المعتزلة، وفرق الابتداع، فها هو منهج الصحابة والتابعين وسيرتهم العطرة في العقيدة والسلوك هي مصدر زاد الدعاة المخلصين في العصر الحديث، وهي من أعظم أسباب الهداية لجماهير كبيرة من جميع أهل الملل، والأديان، وهذا من فضل الله عليهم؛ فمهما تناولهم الطاعنون الحاقدون، ارتدت سهامهم عليهم، وبقي منهج الصحابة هو المنهج الرباني الصحيح منارة للهدى على مر الأزمان ـ والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

الْبَابُ الثَّانِي

الِافْتِرَاقُ الْعَقَدِيُّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَسْبَابُهُ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِحَدِيثِ الِافْتِرَاقِ.
الْفَصْلُ الثَّانِي: أَسْبَابُ الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِي؛ الْخَارِجِيَّةُ، وَالدَّاخِلِيَّةُ.



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ
دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِحَدِيثِ الِافْتِرَاقِ

١ـ طُرُقُ حَدِيثِ الِافْتِرَاقِ:

● ورد حديث الافتراق عن جَمْعٍ كبير من الصحابة ـ رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم وهم:ـ أَبُو هُرَيْرَةَ (ت:٥٩هـ)، ومعاوية (ت: ٦٠هـ)، وعبدالله بن عمرو بن العاص (ت:٦٣هـ)، وعوف بن مالك (ت:٧٣هـ)، وأنس بن مالك، (ت:٩١هـ)، وأبو أمامة (ت:٨٦هـ)، وابن مسعود (ت:٣٢هـ)، وجابر بن عبدالله (ت:٧٩هـ)، وسعد بن أبي وقاص، (ت:٥٨هـ)، وأبو الدرداء (ت:٣٢هـ)، وواثلة بن الأسقع (ت:٨٥هـ)، وعمرو بن عوف المزني[1]، وعلي بن أبي طالب (ت: ٤٠هـ)، وأبو موسى الأشعري (ت: ٤٤هـ)، ـ رضي الله عنهم.

وفي معظم الروايات ذكرت الفرقة الناجية بعد ذكر الاختلاف، وفي بعضها لم تذكر الفرقة الناجية، ولم يشر إليها.

وهذه الروايات منها الحسن، ومنها الضعيف، ومنها شديد الضَعْفِ، لكن الروايات الكثيرة للحديث يقوي بعضُها بعضًا، وبها يثبت المعنى، وتفيد الإخبار به، ومع ذلك فنحن نقتصر هنا على ذكر بعض الروايات الحسنة لهذا الحديث، التي تفيد القطع بثبوت معناه، واليقين بوقوع الأخبار به تمهيدًا لما نبنيه عليه من أحكام[2].

* * *

(١) أحد الصحابة البكائين، توفي في ولاية معاوية، ابن حجر، الإصابة، ج٣، ص ٩.

(٢) لقد سبقني إلى جمع هذه الأحاديث وتخريجها، ودراستها بأسلوب علمي متكامل، الشيخ سلمان بن فهد العودة، في كتابه «صفة الغرباء»، وقد استفدت منه فائدة كبيرة، وقد اختصرت ما قاله، وزدت عليه في بعض المواطن، وعرضته بأسلوبي أقول هذا للأمانة العلمية.

الرِّوَايَةُ الأُولَى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى ـ أَوْ ثِنْتَيْنِ ـ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى ـ أَوْ ثِنْتَيْنِ ـ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»(١).

* * *

الرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ:

عن أبي عامر عبدالله بن لحي، قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة، قام حين صلى الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٢، دون ذكر النصارى، والحاكم في المستدرك، ١/١٢٨، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب شرح السنة برقم ٤٥٩٦، (وهذا لفظه). وأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة برقم ٣٩٩١، وابن حبان في صحيحه برقم ١٨٣٤، وأبو يعلى الموصلي في المسند، مسند أبي هريرة (ل: ٥٤١ ـ ٥٤٢)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة، برقم ٦٦، والمروزي في السنة ص ١٧، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» برقم ٢٥٢، والآجري في الشريعة ص ١٥، والبيهقي في «الاعتقاد» ص٢٣٣، وأورده السيوطي في الجامع الصغير، ورمز له بالصحة، وذكره الشاطبي في الاعتصام وصححه أيضا، وصححه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٣٠٢، ومدار هذه الرواية على: محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، ومحمد بن عمرو: هو ابن علقمة بن وقاص الليثي، قال أبو حاتم: «صالح الحديث يكتب حديثه، وهو شيخ»، وقال النسائي:«ليس به بأس»، وقال مرة: «ثقة»، وتكلم فيه ابن معين، والجوزجاني، وقال الذهبي: «شيخ مشهور حسن الحديث»، وقال ابن حجر: «صدوق له أوهام»انظر التهذيب ١٢/ ١١٥، الجرح والتعديل ٨/٣١، الميزان ٣/ ٦٧٣، التقريب ٢/ ١٩٦.

وأما أبو سلمة؛ فهو ابن عبدالرحمن بن عوف، ثقة مكثر.

انظر التهذيب ٢١/ ١١٥، التقريب ٢/ ٤٣٠.

وبهذا الإسناد يكون الحديث حسنا، لحال محمد بن عمرو، ولكنه صحيح لشواهده، وقد صححه كما سبق الترمذي، والحاكم، والذهبي، وابن حبان، والسيوطي، والشاطبي.

دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً؛ يعني: ـ الأهواء ـ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وإنَّهُ سيخرجُ في أُمَّتِي أقوامٌ تجارَى بِهِمْ تلك الْأَهْوَاءَ كما يتجارى الكَّلب بصاحبه لا يبقى منه عرق، ولا مفصل إلا دخله»(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٠٢، وهذا لفظه، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب شرح السنة، برقم ٤٥٩٧، والدارمي في كتاب الجهاد باب افتراق هذه الأمة، برقم ٢٥٢١، والحاكم في المستدرك في كتاب العلم، وقال بعد سياقه وسياق حديث أبي هريرة: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث»، وأقره الذهبي على ذلك ١/ ١٢٨، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ٧، ٣٣/١، والآجري في الشريعة ص ١٨، والمروزي في السنة ص ١٤، ١٥، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد برقم ١٥٠، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) برقم ٢٤٥، وأشار إليه البيهقي في «الاعتقاد» عند رواية أبي هريرة فقال: «وروى معناه في حديث معاوية وغيره» الاعتقاد ص ٢٣٣، وصححه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٣٠٢، ومدارهم جميعا على صفوان بن عمرو، قال: حدثني أزهر بن عبدالله الحرازي، عن أبي عامر الهوزني، عن معاوية، وصفوان بن عمرو: هو ابن هرم السكسكي، وثقه العجلي، ودحيم، وأبو حاتم، والنسائي، وابن سعد، وابن المبارك، وغيرهم، وقال الذهبي: «وثقوه»، وقال ابن حجر: «ثقة».

انظر: تهذيب التهذيب ٤/ ٤٢٨، الجرح والتعديل ٤/ ٤٢٢، التقريب ٣٦٨/١, وأزهر بن عبدالله الحرازي: وثقه العجلي، وابن حبان، وقال الذهبي: «تابعي حسن الحديث، لكنه ناصبي ينال من علي ﷺ»، وقال في المغني: «صدوق»، وقال ابن حجر: «صدوق تكلموا فيه للنصب».

انظر الميزان ١/ ١٧٣، التقريب ٥٢/١، ثقات العجلي ص ٥٩، المغني ٦٥/١، (الثقات) لابن حبان ٣٨/٤.

وأبو عامر الهوزني: هو عبدالله بن لحي ـ بضم اللام وفتح الحاء ـ: قال أبو زرعة والدارقطني: «لا بأس به»، ووثقه العجلي، وابن حبان، وغيرهم، وقال الذهبي: «ثقة»، وقال ابن حجر: «ثقة مخضرم».

انظر الجرح والتعديل ١٤٥/٥، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٧٣، التقريب ٤٤٤/١، الكاشف ١٠٩/٢.

والحديث بهذا الإسناد حسن؛ لحال أزهر بن عبدالله، وإن كان صحيحا بشواهده.

ويشهد لما ذهبت إليه: ـ

الرِّوَايَةُ الثَّالِثَةُ:

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ».

قيل يا رسول الله، من هم؟ قال: «الْجَمَاعَةُ»(١).

أ ـ تصحيح الحاكم له، وموافقة الذهبي على ذلك.

ب ـ ما قاله العراقي في تخريج أحاديث الإحياء حيث قال عنه: «ولأبي داود من حديث معاوية، وابن ماجة من حديث أنس وعوف بن مالك: «وهي الجماعة»، وأسانيدهما جياد». فقد حكم على إسناده بالجودة. انظر «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» ٣/ ٢٣٠.

ـ إشارة شيخ الإسلام ابن تيمية له بأنه محفوظ حيث قال: «هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو، عن الأزهر بن عبدالله الحرازي، عن أبي عامر عبدالله بن لحي، عن معاوية، رواه عنه غير واحد» (اقتضاء الصراط المستقيم) ١/١١٨.

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم برقم ٣٩٩٢، وابن أبي عاصم في باب فيما أخبر به النبي ﷺ أن أمته ستفترق رقم ٦٣، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» برقم ١٤٩، والحاكم في المستدرك «معلقا» في كتاب الإيمان ١/٦، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» ص ٢٦، كلهم من طريق عمرو بن عثمان، حدثنا عباد بن يوسف، حدثني صفوان بن عمرو، عن راشد بن سعد، عن عوف.

وعمرو بن عثمان: هو ابن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي: ثقة.

انظر التهذيب ٨/٧٦.

وعباد بن يوسف: لم يرو عنه من الستة إلا ابن ماجة، روى عنه هذا الحديث فحسب، وقد عدة ابن حبان في الثقات، ووثقه ابن ماجة، وابن أبي عاصم، وقال عثمان بن صالح: حدثنا إبراهيم بن العلاء، حدثنا عباد بن يوسف صاحب الكرابيسي، «ثقة». وقال ابن عدي: «روى عن صفوان وغيره أحاديث ينفرد بها».

(والراجح أنه صدوق، حسن الحديث والله ـ تعالى ـ أعلم).

انظر التهذيب ٥/١١٠، الميزان ٢/٣٨٠، المغني ١/٣٢٨، التقريب ١/٣٩٥، الكاشف ٢/٧

الرِّوَايَةُ الرَّابِعَةُ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»(١).

الكامل ٤/١٦٥٢.

وصفوان بن عمرو: ثقة. وراشد بن سعد: ثقة أيضا.

انظر التهذيب ٣/٢٢٥، التقريب/ ١/٢٤٠، الكاشف ١/٢٣١، فبهذا الإسناد يكون الحديث حسنا، لحال عباد بن يوسف.

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم برقم ٣٩٩٣، وابن أبي عاصم في السنة برقم ٦٤، من طريق هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو عمرو، حدثنا قتادة عن أنس.

وهشام: روى له الستة إلا مسلما، ووثقه ابن معين وغيره، وقال العجلي: «صدوق»، وقال أبو حاتم: «لما كبر هشام تغير، فكل ما دفع إليه قرأه، وكل ما لقن تلقن»، وقال ابن حجر: «صدوق». التهذيب ١١/٥١، التقريب ٢/٣٢.

والوليد بن مسلم: هو القرشي، أبو العباس الدمشقي: ثقة، لكنه كثير التدليس والتسوية، وذكر أبو مسهر والدارقطني أن أكثر تدليسه عن الأوزاعي ـ وهو شيخه هنا.

وأبو عمرو: هو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي: ثقة جليل. التقريب ١/٤٩٣.

وقتادة: هو ابن دعامة السدوسي: ثقة، ثبت، لكنه مدلس، انظر التقريب ٢/١٢٣، الميزان ٣/٣٨٥.

فالحديث ـ بهذا الإسناد ـ ضعيف؛ لأن الوليد بن مسلم يدلس تدليس التسوية، وهو شر أنواع التدليس، ـ وهو أن يسقط ضعيفا بين ثقتين ـ فلا يقطع باتصال السند إلا إذا صرح هو ومن فوقه من الرواة بالتحديث، وهاهنا لم يصرح قتادة، مع أن قتادة نفسه مدلس.

ولكن الحديث يرتقي إلى رتبة الحسن بشواهده، كما بين ذلك الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢٠٤ وكما بين الشيخ العودة ذلك بالتفصيل في «صفة الغرباء» ص ٣١ ، ٣٢، ٣٣، ومن شواهد الحديث التي ترتقي به إلى الحسن رواية الإمام أحمد في المسند/٣ ١٢٠، ٣/١٤٥، بنحوه، والخطيب في شرف أصحاب الحديث برقم ٤١، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» برقم ١٤٨، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» برقم ١٨، وأسلم بن سهل الواسطي في «تاريخ واسط» ص ١٩٦، والطبراني في المعجم الصغير ١/٢٥٦، والجوزقاني في «الأباطيل» برقم ٢٨٣، وقال «هذا حديث عزيز حسن مشهور،

الرِّوَايَةُ الْخَامِسَةُ:

عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: «افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً - أَوْ قَالَ: اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً -، وَتَزِيدُ هَذِهِ الأُمَّةُ فِرْقَةً وَاحِدَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا السَّوَادُ الأَعْظَمُ». فقال رجل: يا أبا أمامة، من رَأْيِكَ، أَوْ سَمِعْتَهُ من رسول الله ﷺ؟ قال: إني إذًا لجريء، بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث»[1].

ورواته كلهم ثقات أثبات، كأنهم بدور وأقمار»، والآجري في الشريعة ص ١٦، وص ١٧، وابن مردويه في التفسير كما في ابن كثير ٢/٧٦، وأبو يعلى في «المطالب العالية»، كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة (ل: ٢٠٢ المسندة)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» برقم ٢٤٨، و ٢٤٩.

وهؤلاء العلماء الجهابذة وإن كانوا مجمعين على ضعفه، إلا أن إيرادهم له وكثرة طرقه هذه ترفعه إلى مرتبة الحسن والله أعلم.

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم ٦٨، والمروزي في السنة ص ١٦، ١٧، والطبراني في الكبير برقم ٨٠٣٥، ٨٠٥١، ٨٠٥٤، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم ١٥١، ١٥٢، والبيهقي في السنن ٨/١٨٨، ومدار أسانيدهم على أبي غالب، عن أبي أمامة.

وأبو غالب: هو حزور كما سماه مسلم، ويحيى بن معين، وابن عدي، والطبراني، والدولابي، وابن عبدالبر وغيرهم: قال يحيى بن معين: «ثقة»، وفي رواية: «صالح الحديث»، وقال الدارقطني: «ثقة»، ووثقه موسى بن هارون، وضعفه أبو حاتم، والنسائي، وابن حبان، وقال ابن عدي: «ولم أر في حديثه حديثا منكرا جدا، وأرجو أنه لا بأس به»، وقال ابن حجر: «صدوق يخطئ»، وقال الذهبي: «صالح الحديث».

الجرح والتعديل ٣/ ٣١٦ «الكنى» للدولابي ٢/٧٩، «الكنى» لمسلم ٢/ ٦٦٥، التهذيب ١٢/١٩٧، التقريب ٢/٤٦٠، الكاشف٣, ٣٢٢ وقد قال الهيثمي في «المجمع»: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات». مجمع الزوائد ٦/٢٣٤.

وقال في موضع آخر: «رواه الطبراني في «الأوسط» و «الكبير» بنحوه، وفيه أبو غالب، وثقه ابن معين وغيره، وبقية رجال «الأوسط» ثقات، وكذلك أحد إسنادي «الكبير». مجمع الزوائد ٧/ ٢٥٨.

وعلى هذا فالحديث إسناده حسن لحال أبي غالب هذا.

وأما باقي الروايات فأسقطتها لضعفها الشديد، وضربت صفحا عن ذكرها، كرواية سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، وأبي الدرداء، وكثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، وعلي ابن أبي طالب، وعبدالله بن قيس، وجابر بن عبدالله - رضي الله عنهم - أجمعين. =

٢ـ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي لِحَدِيثِ الِافْتِرَاقِ:

لقد أنبأ النبي ﷺ بحدوث الافتراق في هذه الأمة، تبعًا للسنة الإلهية، عندما يبتعد الناس عن زمن النبوة، وينقطع الوحي، فتبرز الاجتهادات، والآراء، التي قد يشوبها الهوى الذي ينتج عنه الاختلاف، والافتراق، وقد أنبأ النبي ﷺ، أن هذا الافتراق سببه الأساسي البعد عن منهج النبوة؛ وما كان عليه الصحابة الكرام، الذين طَبَّقُوا هذا المنهج خير تطبيق.

ولذلك ذم جميع هذه الْفِرَقِ، ووصفها بالهلاك، وأنها تستحق النارَ؛ جزاء ما أحدثته من فرقة، واختلاف، وجزاء تَجَرُّئِهَا على النصوص القرآنية، والنبوية بالتأويل، والتعطيل، والتشبيه، والتَّمثيل.

وامتدح الحديث الشريف كل من كان على ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه الكرام، ووصفهم بأنهم الفرقة الناجية في مواطن كثيرة، وأنهم الفرقة المنصورة بإذن الله ـ تعالى.

وقد حدث بالفعل ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، وظهرت عشرات الْفِرَقِ، التي تخالف بعضها بعضًا، وتكفر بعضُها بعضًا (وبقي أهل السنة والجماعة شاهد حق على استمرار منهج النبوة، وسيرة الصحابة الكرام، وسيبقى هذا المنهج حافظًا لهذا الدين، ومدافعًا عنه؛ تحقيقًا لوعد الله بحفظ كتابه الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، [الحجر:٩].

وتحقيقًا لوعده ﷺ ببقاء الطائفة المنصورة، طائفة الحق التي لا يضرها من خالفها، ولو كثر سواد المخالفين، وتعددت راياتهم، ومسمياتهم، وهي طائفة، أهل السنة والجماعة المنافحة عن طريق السلف الصالح، وقد عد العلماء أحاديثَ الطائفةِ المنصورة أنها من المتواترة[١].

= والروايات الخمسة التي سبقت تشهد لهذا الحديث بالثبوت والصحة بلا أدنى تردد، لأن الحديث الحسن إذا كثرت مخارجه، وتعددت طرقه، واشتهر هذا الاشتهار، ارتقى إلى مرتبة الصحة بلا تردد. والله أعلم.

(١) قال بذلك ابن تيمية، والسيوطي الزبيدي، والكتاني، وغيرهم، انظر العودة، صفة الغرباء، ص١٣٨.

فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَزَالُ نَاسٌ مِنَ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»(١).

وهذا الافتراق الذي أخبر النبي ﷺ عنه هو من باب التمحيص، والتمييز ـ حتى يميز الخبيث من الطيب، وينفرد أهل الحق ظاهرين، وينفرد أهل الضلالة، والعماية، واضحين مكشوفين بزيفهم، وخداعهم، فهذا هو الافتراق الذي عناه النبي ﷺ، وقد أثبت الواقع التاريخي سلوكيات فرق الابتداع، وضلالها، وصبر أهل السنة، والجماعة، وحفاظهم علىهذا الدين الحق، والمنهج الحق.

٣ـ حَدِيثُ الِافْتِرَاقُ بَيْنَ الرَّفْضِ وَالْقَبُولِ:

● لقد تعرض هذا الحديث لاعتراضات بعض العلماء، فبعضهم طَعَنَ في إسناده، وقالوا: لا يثبت، وبعضهم اعترض على بعض ألفاظه، وقال إن فيه زيادة لا تثبت، وهناك من العلماء من دافع عن هذه الطرق التي روي فيها الحديث، وصحح معنى الحديث باعتبار صدوره عن النبي ﷺ، وما يؤيد هذا الحديث من شواهد كثيرة مروية في كتب الصحاح.

وسوف نعرض لهذه الآراء المؤيدة، والمعارضة للحديث، ثم نأتي بآراء علماء السلف في الرد على الرافضين، لهذا الحديث.

الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَدِيثِ الِافْتِرَاقِ:

هذا الحديث بطرقِهِ المتعددة تلقته الأمة بالقبول، منذ وقت مبكر من حياتها؛ فقائله هو الرسول ﷺ، وناقله لنا هم صحابته الكرام ـ عليهم رضوان الله ـ، وقد تحدثوا به في مجالس العلم التي كانوا يقيمونها، وسمعها منهم التابعون ـ رحمهم الله ـ تعالى ـ، ومع ذلك، فهناك من العلماء من رد هذا الحديث، وزعم أنه ليس بحجة؛ حيث يقول ابن

---

(١) البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي) ح رقم ٧٣١١، الفتح ج١٣، ص ٢٩٣، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي) ح رقم ١٩٢١، المختصر، ج٢، ص ١٤٩.

حزم الأندلسي، (ت:٤٥٦هـ): (ذكروا حديثًا عن رسول الله ﷺ أن القدرية، والمرجئة، مجوس هذه الأمة، وحديثًا آخر: تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة، قال أبو محمد: (هذان حديثان لا يصحان أصلًا من طريق الإسناد، وما كان هكذا، فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به)[1].

وهذا القول لا يقبل على إطلاقه؛ وذلك لأن إسناد جملة من حديث الافتراق، تصل إلى مرتبة الحسن، وقد سبق وأوضحنا ذلك، أما ابن الوزير اليمني، (ت:٨٤٠هـ) فهو يعترض على عبارة، (كلُّهَا في النَّارِ إلَّا واحدَةً)، فيقول: (حديث افْتَرَاقِ الأمَّةِ على نيف وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة ـ وفي سنده أيضًا ناصبي[2]، فلم يصح عنه، وروى الترمذي مثله، وروى ابن ماجة، وليس فيها شيء على شرط الصحيح، ولم يخرج الشيخان منها ـ وصحح الترمذي منها حديث أبي هريرة، وليس فيها ـ كلها في النار إلا فرقة واحدة، وعن ابن حزم أن هذه الزيادة موضوعة)[3].

ويقول ابن الوزير في موضع آخر: (وإياك، والاغترار بـ (كلها هالكة إلا واحدة)، فإنها زيادة فاسدة غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة)[4].

وتابعهم على ذلك الإمام الشوكاني، (ت:١٢٥٠هـ)؛ حيث يقول: «أما زيادة كونها في النار إلا واحدة، فقد ضعفها جماعة من المحدثين بل قال: ابن حزم إنها موضوعة)[5].

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج٣، ص ٢٩٢، ت. د. محمد إبراهيم نصير والدكتور عبدالرحمن عميرة ـ ط١، ١٤٠٢هـ، عكاظ للنشر والتوزيع ـ جدة.

(٢) الناصبي: هو الذي ينال من علي رضي الله عنه وهو أزهر بن عبدالله الحرازي. ميزان الاعتدال، ج١، ص ١٧٣.

(٣) ابن الوزير، العواصم والقواصم، ج٣، ص ١٧٠، ت. شعيب الأرناءوط، ط ١٤١٢هـ، لبنان.

(٤) ابن الوزير، العواصم والقواصم، ج١، ص١٨٦.

(٥) الشوكاني، فتح القدير، ج٢، ص ٥٦.

ويرد الشيخ المقبلي (ت:١١٠٨هـ) على هذه الدعوى، فيقول: (والإشكال في قوله: (كلُّها في النارِ إلَّا ملةٌ)، فمن المعلوم أنهم خير الأمم، وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم؛ كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرةِ السوداءِ في الثور الأبيض، حسبما صرحت به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا؟ فبعض الناس تكلم في ضَعْفِ هذه الجملة، وقال: هي زيادة غير ثابتة، وبعضهم تأَوَّلَ الكلام بأن الفرقة الناجية صالحو كل فرقه، وهو كلام منتقض؛ لأن الصلاح إن رجع إلى محل الافتراق، فَهُمْ فرقة واحدة، لا أفراد في الفرق، وإنْ رجع إلى غير ذلك، فلا دَخْلَ له؛ لأن الكلام أنهم في النار، لأجل الافتراق، وما صاروا به فِرَقًا)[١].

وينقض الشيخ الألباني دعوى النافين لعبارة «كلها في النار إلا واحدة»؛ فيقول: (إن النقد العلمي الحديثي، قد دل على صحة هذه الزيادة[٢]، فلا عبرة بقول من يُضعِّفها، والآخر أن الذين صححوها أكثر، وأعلم بالحديث من ابن حزم، وأما ابن الوزير، فكلامه الذي نقله الكوثري[٣] يُشْعِرُ أنه لم يطعن في الزيادة من جهة إسنادها، بل من حيث معناها، وما كان كذلك، فلا ينبغي الجزم بفساد المعنى لإمكان توجيهه وجهة صالحة ينتفي به الفساد الذي ادعاه)[٤].

أمَّا المستشرقون ومن تابعهم من الكتاب العرب؛ فإنهم يخرجون عن هذا النمط من الاعتراض، فيرجعون ذلك إلى تحريف الحديث، الذي كان في الأصل حديثًا عن اليهود والنصارى، بزعمهم، وزيد المسلمون زيادة للمشابهة مع الملتين المذكورتين؛ حيث يقول فيليب حتى: «وللعلماء العصريين نظرياتٌ في أصل هذا الحديث، وكيفية نشوئه، فمنهم بالجريف الذي أرجع فرق النصارى الاثنين والسبعين إلى تلامذة المسيح

(١) المقبلي، العلم الشامخ، ص ٥١٣، ط دار البيان، دمشق، ١٤٠١هـ.

(٢) كونها ثابتة في الحديث، فلا يصح إطلاق لفظ الزيادة عليها، فإن القائلين بذلك هم المضعفون لها.

(٣) سبق ونقلناه بنصه.

(٤) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص ٣٦١، ط٤، ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

الاثنين والسبعين المنصوص عليهم في العهد الجديد، ومنهم رشنيذر، الذي رد القول بفرق اليهود الإحدى والسبعين إلى رواية العهد القديم بشأن انتخاب موسى سبعين رجلًا من بني إسرائيل، وجولدزيهر الذي قال: إن الحديث في وصفه الأصح إنما هو الحديث الوارد للمرة الأولى في صحيح البخاري: «الْإِيمَانُ بِضْعُ وستون شُعْبَةٍ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»، وَإِنَّهُ بِتَوَالِي الْأَعْوَامِ أُسِيءَ فَهْمُ الْمَقْصُودِ من شعبه إلى فصيله، وحرف الحديث بحيث أصبح ما هو عليه»[1].

وهذه تخرصات حاقدة من المستشرقين الذين يحاولون دائمًا نسبة كل أثر صحيح في الواقع إلى تراثهم القديم المحرف؛ وذلك لِأَنَّ السبعين رجلًا أتباع موسى ـ عليه السلام ـ وأصفياءه لم يؤسسوا هم فرق الابتداع في اليهودية، ولا أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ، وإنما تأسست بعد موتهم من قبل المخالفين لمناهج الأنبياء، وصحابتهم الكرام، ثم لا يمكن أن يبلغ الجهل في الأمة وعلمائها أن شُعَبَ الإيمان الواردة في الأحاديث، معناها افتراق الأمة، فشعب الإيمان أعمال، وفضائل ممدوحة في الدين، وليست فرقًا متناحرة، وهذا يصور نوعًا من تعسف المستشرقين، وحقدهم على نبوة محمد ﷺ وما تنبأ به في الواقع من افتراق وقع فعلًا.

وقد تابع المستشرقون في رد الحديث، وإطلاق أحكام باطله حوله ـ الدكتور عبدالرحمن بدوي الذي يقول: (والمؤلفون الإسلاميون، المتقدمون، الذين كتبوا عن الفرق، وبخاصة من هم أهل السنة، أرادوا أن يحصروها؛ استنادًا إلى حديث موضوع!! يروى عن أبي هريرة.. الحديث ـ، ثم يقول: (ومع ذلك، فلا يمكن أن يكون الحديث صحيحًا؛ للأسباب التالية:

أَوَّلًا: إن ذكر هذه الأعداد المحددة المتوالية: ٧١، ٧٢، ٧٣، أمر مفتعل لا يمكن تصديقه!! فضلًا عن أن يصدر عن النبي ﷺ.

ثَانِيًا: (إنه ليس في وسع النبي ﷺ أن يتنبأ مقدمًا بعدد الْفِرَقِ التي سيفترق إليها المسلمون.

---

(١) د. عامر النجار، الخوارج، ص ١٣، ط ١٤٠٦هـ، مكتبة القدسي، لبنان.

ثَالِثًا: (لا نجد لهذا الحديث فيما ورد لنا من مؤلفات القرن الثاني، ولا الثالث الهجري، ولو كان صحيحًا؛ لورد في عهد متقدم.

رَابِعًا: أعطت كل فرقة لختام الحديث الرواية التي تناسبها، فأهل السنة جعلوا الفرقة الناجية هي أهل السنة، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة)(١).

ولإبطال مزاعم الدكتور بدوي نقول: إن المستشرقين حاولوا إرجاع النص النبوي إلى مصادرهم المحرفة؛ تعصبًا لتلك المصادر، ولكن الدكتور بدوي ألقى الاتهامات جزافات على رواة الحديث بالوضع، وجهل مقام النبي الذي أنبأ عن حوادث كثيرة، وقعت، **ولكن نرد عليه ردًّا مفصلًا، فنقول:**

أَوَّلًا: قد يراد بالعدد الوارد في الحديث الحقيقة التي سيقف عندها الافتراق، أو يراد به التكثير على ما يجري في كلام العرب، وقد أنبأ النبي ﷺ عن ذلك؛ فإن كان العدد حقيقيًّا، فلا شيء فيه، ولماذا يكون مفتعلًا، وإن كان العدد لا مفهوم له، وإنما يضرب المثل به للتكثير، فلا شيء في صدوره عن النبي ﷺ.

ثَانِيًا: للنبي ﷺ أن يخبر بما أخبره الله به من الغيب؛ سواء بعدد الفرق، أو غيرها من الأمور المستقبلية، وهذا أقل ما يقتضيه صدق نبوته ﷺ، (فقد أخبر ﷺ عن أشراط الساعة، أو البعث، واليوم الآخر، وكثير من حوادث التاريخ الماضية، والمستقبلية، أفلا يكون بوسعه ﷺ أن يتنبأ بعدد الفرق الذي أطلعه الله عليه، فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى(٢).

ثَالِثًا: أما عن قوله إن هذا الحديث لا يوجد في مصنفات القرن الثاني والثالث، (فهذا جهل مركب من هذا الرجل، وأمثاله؛ فإن السنة لم تُدَوَّنَ تدوينًا شاملًا إلا في القرن الثالث، وبعده، وأمر آخر، وهو أن دعواه ساقطة، فإن من الذين روا هذا الحديث، هم مصنفو السنن ، والمسانيد في القرن الثالث الهجري؛ منهم: ابن أبي شيبة

(١) د. عبدالرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، ج١، ص ٣٣ ـ ٣٤، ط٣، دار العلم، ١٩٨٣م، لبنان.

(٢) د. ناصر عبدالكريم العقل، مقدمات في الأهواء والافتراق، ص ٨٣، ط١، ١٤١٤هـ، الرياض.

(ت٢٣٥) الإمام أحمد (ت٢٤١)، الدارمي (ت٢٥٥) ابن ماجة (ت٢٧٣)، أبو داود (ت٢٧٥)، الترمذي (ت٢٧٩)، ابن وضاح (ت٢٨٦)، ابن أبي عاصم (ت٢٨٧)؛ فالحديث مروي عن عصر التدوين للسنة، القرن الثالث)[١].

رَابِعًا: لا صحة لزعمه أن أهل السنة وضعوا في نهاية الحديث أنهم هم الفرقة الناجية، وإن كان المؤدى يخصهم وحدهم بإذن الله، فنهاية الحديث تتحدث عن شروط الفرقة الناجية، أو شرطيها الوحيدين؛ وهما ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام، بل إن الذي وضع أنهم هم الفرقة الناجية فرق الابتداع الباحثة عن فضيلة تنسبها لنفسها، وتواري بها سوءتها؛ زورًا، وبهتانًا كما زيف القاضي عبدالجبار، (ت٤١٥)، وابن المرتضى (ت٨٤٠) الحديث نفسه، ونسبه إلى النبي ﷺ فقال: (ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة)[٢].

فهذا هو الكذب الذي لم يقع فيه أهل السنة، والجماعة؛ لأنهم هم الفرقة الناجية المتبعون للنبي ﷺ وهم الذين يمثلون المنهج الذي كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه الكرام.

ويقول الدكتور ناصر العقل: (لكن عزاءنا أن هذا الكلام ساقط، لم يصدر عمن يعتد به في الدين، ولم يستند إلى ما يستحق الوقوف عنده، وهكذا نجد في موقف هذا الرجل أكثر سمات أهل الأهواء من الجهل، والتعالم، والغرور، وتحكيم العقل في الشرع، وعدم التسليم لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ)[٣].

ومن أعجب ما قرأت حول حديث الافتراق كتابًا ألفه رجل مجهول الهوية، والمعتقد نحا في تفسيره للحديث منحًى خطيرًا، وأخشى أن يكون هذا الكاتب يمثل إحدى الفرق المبتدعة، التي انتهجت أسلوب التضليل، والمديح لأهل السنة، ولبعض مفكريها المعاصرين؛ ليتقبل أهل السنة هذا الكلام الخادع؛ حيث يرى من سمى نفسه

---

(١) د. العقل، مقدمات، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) المنية والأمل، ابن المرتضى، ص ١٢٢، ت. محمد جواد شكور، دار الفكر، لبنان، ط١.

(٣) د. العقل، مقدمات، ص ٨٤.

(سقاف علي الكاف) أن الحديث يخص أمةَ الدعوةِ، وليس أمة الإجابة، فيقول: (ومن خلال متابعتي لهذا الحديث، وشروحه، وكتب الملل، والنحل، وتاريخ المذاهب، وجدت أنهم جعلوا الفرقة في أمة الإجابة؛ أي أهل الْقِبْلَةِ، وليس لهم دليل فيما ذهبوا إليه من فهم سوى إضافة الأمة إلى النبي ﷺ في قوله: أمتي، والأدلة تفيد بأن أمة النبي ﷺ هي جميع البشرية منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، والفرقة المذكورة في الحديث، واقعة في أمة الدعوة، لا أمة الإجابة)!![1].

وملخص دعواه التي ألف من أجلها الكتاب، تقوم على ما يلي، كما يقول: ومعنى قول النبي ﷺ «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»؛ أي كانت البشرية تعج بالعديد من الفرق، والنحل التي أتى موسى، فزاد ملة؛ وهي أمة الإجابة دعوة التوحيد، التي أتى بها سيدنا ـ موسى عليه السلام[2].

(ولما انحرف بنو إسرائيل عن دين موسى، وجاء عيسى، كانت اليهودية قد دخلت في أمة الدعوة، وزادت بمجيء عيسى، فأصبحوا اثنين وسبعين؛ فأمة عيسى هي أمة الإجابة)[3].

ولما جاء محمد ﷺ، زادت الفرق٧٣ فرقة أمة محمد منها جميعًا هي فرقة الإجابة، والفرقة في أمة الدعوة، وليست في أمة الإجابة)[4].

(وذلك لأن هذه الْفِرَقَ التي ذكرها المصنفون في أمة الإجابة قد اندثرت، بل كثير منها لا أصل لها، ولم يبق في هذه الأرض إلا الحق)!؟[5].

ولعل مقصد هذا الرجل، وأمثاله هو ما استنتجه الدكتور ناصر العقل؛ حيث قال:

---

(١) سقاف علي الكاف، حقيقة الفرقة الناجية (وقد عنون كتابه بحديث: كل أمتي في الجنة إلا من أبى) ص ٤، مكتبة المطيعي، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٤.

(كثر في الآونة الأخيرة الطعنُ في حديث الافتراق، أو التشكيك[*] فيه بناء على ضَعف أكثر أسانيده، وغالب الذين يشككون في حديث الافتراق قصدهم وصف الأمة كلها بالسلامة، والنجاة، والاستقامة، وإزالة الفوارق العقدية، والمذهبية، مع العلم أن الإخبار القاطع عن وقوع الافتراق في الأمة ليس مقصورًا على حديث الافتراق الذي ذكر فيه عدد الفرق الثلاث والسبعين؛ رغم شهرته، وصحته بمجموع طُرُقه، وتلقيه بالقبول من الأمة، وهذا الإنكار، أو الشك ناتج عن عدة أسباب ترجع إلى حال القائل بهذا القول؛ فالغالب عمن يذهب هذا المذهب أنه ناتج عن الجهل؛ الجهل بِسُنَنِ الله ـ تعالى ـ، والجهل بالشرع؛ (نصوص القرآن، والسنة)، أو الجهل بالواقع، والجهل بآثار السلف، أما سنة الله ـ تعالى ـ فهي: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾، [هود:١١٨، ١١٩]، ومن رحم ربك هم أهل السنة.

وأما الجهل بالشرع: فإن النصوص متواترة في الإخبار عن وقوع الافتراق في الأمة في القرآن والسنة.

وأما الجهل بالواقع: فإن من تأمل حال الأمة اليوم، يجد أنها: شِيَعٌ، وأَحْزَابٌ، وطوائف مشتتة بين الفرق القديمة، والاتجاهات الحديثة، وأما الجهل بآثار السلف، فإن السلف مجمعون على أن في الأمة طوائف فارقت السنة والجماعة؛ كالخوارج، والشيعة والقدرية، وأهل الكلام، وغيرهم)[1].

ثم يقول عن جملة من المنكرين المشككين: (وطائفة منهم لا يستهان بعددها، عرفناهم من الرافضة، والباطنية، وأتباع الفرق الأخرى؛ فإنهم من أكثر الناس ترويجًا لدعوى إلغاء الفوارق العقدية، وضرورة التقريب، والتقارب بين الفرق)[2].

* الحقيقة أن الدهاء في فكرة هذا الكتاب أنها لا تشكك في الحديث ولا تطعن في صحته، ولكن بتوجيهه الوجهة الماكرة التي لم يسبقه إليها أحد.

(١) د. العقل، مقدمات، ص ٨١.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٢.

ولعل كتاب (سقاف علي الكاف) هذا إحدى حلقات الدعوة لتذويب الفوارق العقدية بين الفرق، وجعل أهل السنة أهل الحق، والاستقامة يرضون بابتداع أهل الزيغ والضلال، وهذا ما يريده الكاتب من جعل الحديث يخص أمة الدعوة؛ أي الكفار من النصارى واليهود - والمجوس، والهندوس، وأن المسلمين كلهم في الجنة، مع ضلال بعض فرقهم، وابتداعهم في دين الله ما لم ينزل به سلطانًا).

الْقَائِلُونَ بِصِحَّةِ الْحَدِيثِ:

والقائلون بصحة الحديث هم جمهرة المحدثين من أهل السنة، والجماعة، وَكُتَّاب المقالات، والفرق، والتاريخ، وجمهور الأمة التي تلقت أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة، والحسنة بالقبول، ومنها حديث الافتراق - الذي أنبأ به النبي الصادق رسول الله ﷺ، فبجانب وجوده في كتب السُّنَنِ، والمسانيد، نجد أن كتاب الفرق، والمقالات؛ كأبي الحسن الأشعري (ت:٣٢٤هـ)، والبغدادي (ت:٤٢٩هـ)، والإسفرائيني (ت٤٧١هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ)، والملطي (ت٣٧٧هـ)، وغيرهم، قد بنوا مصنفاتهم في الفرق على أساس هذا الحديث.

حيث يقول البغدادي: (سألتم أسعدكم الله بمطلوبكم شرح معنى الخبر المأثور عن النبي ﷺ في افتراق الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة، منها واحدة ناجية تصير إلى جنة عالية، وبواقيها عادية تصير إلى الهاوية..)[١].

ويقول الإسفرائيني: (وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه سيظهر في زمن الإسلام من الفرق المختلفة ما ظهر في الأديان قبله - ثم ساق الحديث)[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ «من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وسعد، ومعاوية، وعمرو بن عوف، وغيرهم.[٣]

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٣، ت. محمد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

(٢) الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة، ص ١٥، ت. كمال الحدث، عالم الكتب، بيروت.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج١، ص ١١٦، ت. د. ناصر العقل، ط ١٤٠٤هـ.

وقال في موضع آخر: (وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ ومن غير وجه يشير إلى أن التفرقة، والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة، وكان يحذر أمته؛ لينجو منه من شاء الله له السلامة)(١).

ويقول الشيخ المقبلي: (حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة روايات كثيرة*، يشد بعضُها بعضًا؛ بحيث لا يبقى ريب في حاصل معناها)(٢).

ويقول الشيخ الكتاني: (فهذا حديث كما ترى وارد من عدة طرق بألفاظ مختلفه، وله ألفاظ أُخَرُ، وقد أخرجه الحاكم من عدة طرق، وقال: هذه أسانيد تقوم بها الحجة، وقال الزين العراقي، أسانيده جياد، وفي فيض القدير أن السيوطي عَدَّهُ مِنَ المتواتر، ولم أره في الأزهار...)(٣).

فهذا الحديث قد تلقته الأمة بالقبول، وهو يصف حالة حقيقية قائمة، وهو في واقعه المشهود يبطل دعوى المنكرين، والمضعفين لهذا الحديث، والله أعلم.

شَوَاهِدُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُعَزِّزُ مَعْنَى حَدِيثِ الِافْتِرَاقِ:

لقد عرض القرآن الكريم دعوات الرسل السابقين ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ، وما حدث فيها من خلافات وتفرق في أثناء وجود الرسل، وبعد وفاتهم، وحذر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمة الإسلامية صاحبة الرسالة الخاتمة، من التفرق، والاختلاف الذي وقعت فيه الأمم السابقة، وهذه بعض الآيات القرآنية التي توضح ذلك جئنا بها؛ للدلالة على أن السُّنَّةَ المطهرة، تخرج من مشكاة واحدة؛ وهي مشكاة الوحي الرباني الذي (لا ينطق عن الهوى).

يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج١، ص ١٢٢.

* سبق لنا تخريجها.

(٢) المقبلي، العلم الشامخ، ص ٥١٢، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٤٠١هـ.

(٣) محمد الكتاني، نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص ٤٧، دار الكتب السلفية، مصر، ط٢.

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾، [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) ﴾، [آل عمران: ١٠٥ إلى ١٠٧].

وقال - جل جلاله -: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾، [الأنعام: ١٥٣].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾، [الأنعام: ١٥٩].

وقال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾، [هود: ١١٨].

وقال جل ذكره: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾، [الروم: ٣٠ إلى ٣٢].

وقال - تعالى -: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾، [الشورى: ١٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾، [الأنفال: ٤٦].

أمَّا السنَّةُ المطهرة، فهي مليئة بالشواهد المؤيدة لحديث الافتراق المحذرة من كل دواعي الفرقة، والاختلاف، نسوق بعضَ الأمثلة منها، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمرو قال: (شَبَّكَ النبيُّ ﷺ أصابعه، وقال: (كيف أنت يا عبدالله بن عمرو،

إذا بقيت في حثالة قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، واختلفوا؛ فصاروا هكذا ـ وشبك بين أصابعه قال: فكيف أصنع يا رسول الله، قال: «تَأْخُذُ مَا تَعْرِفُ، وَتَدَعُ، مَا تُنْكِرُ، وَتُقْبِلُ عَلَى خَاصَّتِكَ، وَتَدْعُهُمْ وَعَوَامَّهُمْ»(١).

فهذا إنباء من النبي ﷺ بحدوث الفرقة، والاختلاف في الأمة، وكما أخبر القرآن الكريم عن الاختلاف، وحذر منه، فإن رسول الله ﷺ أخبر عن ذلك في مناسبة عامة، سَمِعَ هذا الحديث جمعٌ كبير من الصحابة؛ حيث روى مسلم في صحيحه عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل، فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلًا، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّيَ ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا»(٢).

وَأخبر النبي ﷺ أن الأمة ستقتتل على الدنيا، وحطامها الزائف؛ فتحدث الفرقة، والاختلاف، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنها ـ عن رسول الله ـ ﷺ أنه قال: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟!» قال عبدالرحمن بن عوف : نكون كما أمرنا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُم تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»(٣).

وروى البخاري، ومسلم عن أبي إدريس الخولاني: (أنه سمع حذيفة بن اليمان

---

(١) صدر الحديث (كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس) في البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد) ح رقم ٤٨٠، وباقي الحديث في شرح ابن حجر، الفتح ج١، ص ٥٦٦.

(٢) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب السعيد من جنب الفتن، رقم ٢٨٩٠، المختصر، ج٢، ص ٥٢٠.

(٣) مسلم، كتاب الزهد والرقاق، أوله ح رقم ٢٩٦٢، المختصر، ج٢، ص ٥٥٠.

يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر، قال: نَعَمْ، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير، قال: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ، قلت: وما دخنه؟ قال: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ، وَتُنْكِرُ»، قلت، فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا، قَذَفُوهُ فِيهَا» - قلت: يا رسول الله، صِفْهُمْ لنا، قال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قلت: فما تأمرني إِنْ أدركني ذلك؟ قال: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمَامَهُمْ»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة، ولا إمام؟ قال: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ (الْفِرَقَ) كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعُضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١].

هذه بعض الشواهد القرآنية، والنبوية التي تؤكد السنة الإلهية في الافتراق والاختلاف الذي تمر به كل أمة من أمم الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام -، وقد جاءت هذه النصوص محذرة من الوقوع في هذا الافتراق، والاختلاف الذي ينشأ عنه الانحراف في المعتقدات، والسلوكيات.

وقد أثبت الواقع التاريخي حدوث الافتراق العقدي في الأمة، وما هذه الشواهد من الآيات، والأحاديث إلا وصفًا للحالة التي أصبحت مشاهدة، ومنظورة، ولا ينكرها أحد، وبهذه الشواهد يثبت حديث الافتراق، ومعانية، ونتائجه، وقد بقي، ولله الحمد على منهج النبوة أهل السنة، والجماعة، وافترقت عنهم فرق الابتداع، والضلال، والله حافظ لدنيه، وحافظ لكل مخلص على منهاج الحق الذي أنزله على رسول الله ﷺ، وطبقه صحابته الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين.

٤- مَفْهُومُ الْعَدَدِ الْوَارِدِ فِي حَدِيثِ الِافْتِرَاقِ:

لقد حاول كُتَّابُ الْفِرَقِ، والمقالات الوصول إلى العدد المذكور في الحديث،

---

(١) البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، ح رقم ٧٠٨٤، الفتح، ج١٣، ص ٣٥، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة، ح رقم ١٨٤٧، المختصر، ج٢، ص ١٢٤.

وتحديدها عدديًّا، وتوزيع ذلك العدد على أصول الفرق الكبرى، وممن فعل ذلك أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة، والملطي في التنبيه والرد، والبغدادي في الْفَرْقِ بين الْفِرَقِ، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، (ت٥٩٧)، والشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، في الْمِلَلِ والنحل، والسكسكي في البرهان، وغيرهم.

وَقَدْ تَوَجَّهَ النقدُ لهذه الطريقة من القدامى والْمُحْدَثِينَ؛ وذلك لأن العدد ـ كما سبق ـ وقلنا، إما أن يراد به التكثير على طريقة العرب في إطلاق الكلام للتكثير، وإما أن يكون العدد حقيقيًّا باعتبار أن الأمة ستفترق افتراقًا أصوليًّا يصل بها إلى العدد المذكور؛ وذلك لأن طريقة أرباب المقالات ـ وضعوا فِرَقًا لا يوجد بينها اختلافات تذكر، ووضعوا لها مسميات أملًا في الوصول إلى العدد الوارد في الحديث.

وهذه جملة من الآراء حول المراد بالعدد الوارد في الحديث؛ حيث يقول أبو المظفر الإسفرائيني: (وقد اختلف مشايخ أهل التحقيق من علماء المسلمين فيه، فقال بعضهم: (لم يتكامل وجود هذه الفرق من أهل البدع بين المسلمين بعد، وإنما وجد بعضهم، وسيوجد قبل يوم القيامة جميعهم، فإن ما أخبر به النبي ﷺ كائن لا محالة)[١].

وعلى هذا فإن الإسفرائيني يرى أن العدد حقيقي بمراده، وأن تكامله سيكون قبل يوم القيامة، كما أخبر النبي ﷺ بذلك، وتابعه الرازي، فقال: (فإن قيل إن هذه الطوائف التي عددتهم، أكثر من ثلاث وسبعين، ورسول الله ﷺ لم يخبر بأكثر، فكيف ينبغي أن يعتقد في ذلك، والجواب عن هذا: أَنه يجوز أن يكون مراده ﷺ من ذكر الفرق الكبار، وما عددنا من الفرق ليست من الفرق العظيمة، وأيضًا فإنه أخبر أنهم يكونون على ثلاث وسبعين فرقة لم يجز أن يكونوا أقل من ذلك، وأما إن كانت أكثر، فلا يضر ذلك)[٢].

ويقول الإمام الطرطوشي حول العدد الوارد في الحديث: (واعلم أن هذا الحديث

---

(١) التبصير في الدين، ص ١٦.

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ١٠١.

قد طاشت فيه أحلام الخلق، وفي معرفة هذه الفرق، وهل كملوا، أم لا؟)[١].

ثم يفسر مقالته السابقة، فيقول: (وإن كان أراد الرسول ﷺ بفرق أمته أصول أهل البدع التي تجري مجرى الأجناس للأنواع، والمعاقد للفروع، فلعلهم، والعلم عند الله ما بلغوا هذا العدد إلى الآن، غير أن الزمان باق، والتكليف قائم، والخطرات متوقعة، وكل قرن، أو عصر لا يخلو إلا وتحدث فيه البدع، وإن كان أراد النبي ﷺ بالفرق كل بدعة حدثت في دين الإسلام، مما لا يلائم أصول الإسلام، ولا تقبلها قواعده من غير التفات إلى التقسيم الذي ذكرنا، سواء كانت البدع أنواعًا للأجناس، أو كانت متغايرة الأصول والمباني ـ وهذا هو الذي أراده، والعلم عند الله، فقد وجد من ذلك عدد كثير أكثر من اثنين وسبعين، ووجه تصحيح هذا الحديث على هذا أن يخرج من الحساب غلاة أهل البدع، ولا يعدون من الأمة، ولا من أهل الْقِبْلَةِ؛ كنفاة الأعراض من القدرية؛ لأنه لا طريق لحدوث العالم، وإثبات الصانع إلا بإثبات الأعراض، وكالحلولية، والنصيرية وأشباههم من الغلاة)[٢].

فالإمام الطرطوشي يعرض إلى احتمالين هامين، وهما أن الْفِرَقَ لم تكتمل، ويرى أن الزمان باق، والخطرات متوقعة، فالعدد حقيقي إذًا، واحتمال اكتماله قبل يوم القيامة وارد.

ويرى ـ أيضًا ـ أن العدد قد اكتمل إذا حسبت كل بدعة ظهرت، وفيها المخالفة لأصول الإسلام، فعلى الاحتمالين الذين ذكرهما، فالعدد حقيقي، وإن كان يراد به التكثير أيضًا.

ومن الذين اعترضوا على طريقة عَدِّ الفِرق، والوصول بها إلى العدد المذكور بعض العلماء المُحْدَثِينَ؛ حيث يقول الدكتور عبدالحليم محمود: (لقد آثار هذا الحديث تفنن كثير من مؤرخي الفرق الإسلامية، فتخيل إليهم، أنه من المحتم عليهم أن يبلغوا بالفرق

(١) الحوادث والبدع، ص ٩٧.

(٢) الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص ١٠٠ ـ ١٠١، وانظر الشاطبي، كتاب الاعتصام، ج٢، ص٢٢٣.

الحد الذي ذكر في هذا الحديث، والشهرستاني المتوفى٥٤٨هـ ذكر هذا الحديث في مستهل كتابه ـ الملل والنحل ـ ثم أخذ في تعداد الفرق، وحصرها في العدد المذكور، وكأنه قد تيقن أنه سوف لا تنشأ حقيقة فرق بعده، وكأنه قد تيقن ـ أيضًا ـ أنه أحاط بكل ما يموج به العالم الإسلامي في زمنه على سعته من آراء، وقد صنع كثير غيره صنيعه في حصر هذه الفرق، وعدَّهَا بطرق تدعونا أحيانًا إلى الابتسام لسذاجتها)[(١)].

ويرى الدكتور محمود مزروعة أن العدد للتكثير، وأن هناك فِرَقًا نشأت بعد تأليف كتب الْفِرَقِ، فيقول: (إنهم وصلوا بالفرق على عهد كل منهم إلى العدد المنصوص عليه في الأحاديث، فكأنهم قد قصروا العدد المذكور على زمانهم، وكأنهم قد حكموا بأن التفرق قد توقف، وأن الأمة لن تفترق بعد عهدهم، وأن تجدد الفرق، وتكثرها قد انتهى عند زمان تأليفهم كتبهم مع أن تشعب الفرق لا ينتهي، ولا يقف عند زمان بعينه، ثم ماذا يقولون في الفرق التي جدت بعد تأليفهم كتبهم التي جمعوا فيها الفرق بالعدد الذي ذَكَرَتْهُ الأحاديث)[(٢)].

ويوجه الشيخ سلمان العودة عدة اعتراضات على طريقة عَدِّ هذه الفرق، فيقول: (أَوَّلًا): إن أصحابها لا ينفكون عن التكلف في عدد الفرق من أجل موافقة العدد الوارد، وقد يجعلون من الفرقة الواحدة فِرَقًا عديدة، بحسب اختلافها في بعض الجزئيات، مع أن الأصول العامة لهذه الفرق واحدة، وإن اختلفت فيما بينها في بعض التفصيلات.

وقد يقتصرون في تعداد بعض الفرق على بعض فئاتها، ولا يطردون منهجهم فيها، ولو توسع بعضهم في عَدِّ فئات فرقة واحدة؛ كالصوفية، أو الإسماعيلية، لأَرْبَتْ على السبعين، وإن ما تستبعده العقول، وتخالفه السنن الجارية أن تكون الأمة سِتَّ فرق، وكل فرقة اثنتي عشرة طائفة ـ كما تستبعد العقول أن تكون الأمة أربع فرق، وكل فرقة ثمانية عشرة طائفة، ولم يكلفنا الله ـ سبحانه ـ أن نبحث في تحديد هذه الفرق

(١) د. عبدالحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) د. مزروعة، تاريخ الفرق الإسلامية، ص ٢٦.

الضالة بأعدادها، وأعيانها، اللَّهُمَّ إلا أن يكون ميسورًا واضحًا لا تكلف فيه، ولا اضطراب، فيكون تعدادها حينئذ إظهارًا لآية بينة لا لبس فيها ودليلًا على صدق ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث دلالة تدفع شك المتشككين في نبوته.

ثانيًا: أن الرسول ﷺ لم يحدد فترة زمنية لظهور هذه الفرق وقد يكون من الجائز أن تظل الفرق تظهر في تاريخ المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يعلم ما في غيب الله إلا هو سبحانه، وها نحن نجد عددًا كبيرًا من الفرق يظهر بين المسلمين بعدما انتهى بعض العلماء من تعداد الفرق، وأوصلها إلى ثنتين وسبعين ومن تلك الفرق القاديانية والبهائية والقومية وغيرها)[1].

لقد انصب النقد على منهج أرباب المقالات على تعدادهم للفرق، حتى أوصلوها إلى العدد المذكور، ولكن رأينا أيضًا بعض الآراء مثلما قاله الإسفرائيني والطرطوشي من أن الفرق قد يكتمل عددها المذكور على مر الزمان إلى قيام الساعة، ولا يجزم جزمًا أكيدًا بأن العدد المذكور يقصد منه التكثير فقط، والله أعلم.

٥ـ حقيقة الافتراق في الحديث:

أورد الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ تعالى ـ جملة من الآراء القيمة في حقيقة الافتراق الحاصل في الأمة، والذي عناه الحديث النبوي موضوع الدراسة حيث قال: (وهو يحتمل أن يكون افتراقًا على ما يعطيه مقتضى اللفظ، ويحتمل أن يكون مع زيادة قيد لا يقتضيه اللفظ بإطلاقه، ولكنه يحتمله، كما كان لفظ الرقبة بمطلقها لا يشعر بكونها مؤمنة أو غير مؤمنة، لكن اللفظ يقبله فلا يصح أن يراد مطلق الافتراق، بحيث يطلق صور لفظ الاختلاف على معنى واحد، لأنه لا يلزم أن يكون المختلفون في مسائل الفروع داخلين تحت إطلاق اللفظ، وذلك باطل بالإجماع.

فإن الخلاف في زمان الصحابة إلى الآن واقع في المسائل الاجتهادية وأول ما وقع

(١) العودة، صفة الغرباء، ص ٥٦ ـ ٥٧، وانظر د. العقل، مقدمات في الأهواء، ص ٧٧ ـ ٧٨.

الخلاف في زمان الخلفاء الراشدين المهديين، ثم في سائر الصحابة، ثم في التابعين، ولم يعب أحد ذلك منهم بالصحابة واقتدى من بعدهم في توسيع الخلاف، فكيف يمكن أن يكون الافتراق في المذاهب مما يقتضيه الحديث، وإنما يراد افتراق مقيد وإن لم يكن في الحديث نص عليه.

ففي الآيات ما يدل عليه كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على التفرق الذي صاروا به شيعًا، ومعنى صاروا شيعًا، أي جماعات بعضهم قد فارق بعضًا، ليسوا على تآلف ولا تعاضد ولا تناصر، بل على ضد ذلك، فإن الإسلام واحد وأمره واحد، فاقتضى أن يكون حكمه على الائتلاف التام لا على الاختلاف.

وهذه الفرقة مشعرة بتفرق القلوب المشعر بالعداوة والبغضاء، ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران،١٠٣]، فبين أن التأليف إنما يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعنى واحد، وأما إذا تعلق كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى فلا بد من التفرق، وهو معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وإذا ثبت هذا نزل عليه لفظ الحديث واستقام معناه والله أعلم)[1].

ويميز الإمام الشاطبي بين الافتراق على أمر دنيوي والافتراق العقدي فيقول: (ان هذه الفرق إن كانت افترقت بسبب موقع من العداوة والبغضاء، فإما أن يكون راجعًا إلى ما هو معصية غير بدعة، ومثاله أن يقع بين أهل الإسلام افتراق بسبب دنيوي، كما يختلف مثلًا أهل قرية مع قرية أخرى بسبب تعد في مال أو دم، حتى تقع بينهم العداوة فيصيروا حزبين، أو يختلفوا في تقديم والٍ أو غير ذلك فيفترقون، ومثل هذا محتمل.

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص ١٩١ - ١٩٢.

وأما ما يرجع إلى أمر هو بدعة، كما افترق الخوارج من الأمة ببدعهم التي بنوا عليها في الفرقة، وكالمهدي المغربي الخارج عن الأمة نصرًا للحق في زعمه، فابتدع أمورًا سياسية وغيَّر بها السنة، وهذا هو الذي تشير إليه الآيات المتقدمة والأحاديث لمطابقتها لمعنى الحديث، وإما أن يراد المعنيان معًا. فأما الأول فلا أعلم قائلًا به[١]، وإن كان ممكنًا في نفسه إذ لم أر أحدًا خص هذا بما إذا افترقت الأمة بسبب أمر دنيوي لا بسبب بدعة، وليس ثم دليل على التخصيص، لأن قوله ﷺ: (من فارق الجماعة قيد شبر) لا يدل على الحصر، وقد اختلف العلماء في المراد بالجماعة المذكورة في الحديث حسبما يأتي، فلم يكن منهم قائل بأن الفرقة المعتادة للجماعة هي فرقة المعاصي غير البدع على الخصوص)[٢].

ثم يقول: (وكل من لم يهتد بهديه ولا يستن بسنته فإما إلى بدعة أو معصية، فلا اختصاص بأحدهما، غير أن الأكثر في نقل أرباب الكلام، وغيرهم ان الفرقة المذكورة إنما هي بسبب الابتداع في الشرع على الخصوص، وعلى ذلك حمل الحديث من تكلم عليه من العلماء، ولم يعدوا المفترقين بسبب المعاصي التي ليست ببدع)[٣].

فالفرقة المقصودة بالحديث إذًا هي الفرقة في مسائل الاعتقاد، بسبب ابتداع أمور غير متعارف عليها بين السلف وخروج فئات منحرفة بالدعوة لها، وليس الافتراق بسبب مسائل الفروع والاجتهاد أو المعاصي، وفي ذلك يقول البغدادي: (وقد علم كل ذي عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي ﷺ لم يرد بالفرق المذمومة التي هي من أهل النار فرق الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه، مع اتفاقهم على أصول الدين، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين.

أَحَدُهُمَا: قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه، وفِرَقِ الفقه كلها، عندهم مصيبون.

(١) أي الافتراق على أساس الاختلاف في الفروع أو لسبب أمر دنيوي.

(٢) الشاطبي، الاعتصام، ج٢، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٤، وانظر المقبلي، العلم الشامخ، ص ٥١٣.

وَالثَّانِي: قول من يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه، وتخطئة الباقين، من غير تضليل منه للمخطئ فيه.

وإنما فَصَّلَ النبي ﷺ بذكر الفرق المذمومة؛ فرق أصحاب الأهواء الضالة، الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل، والتوحيد، أو في الوعد، والوعيد، أو في بابي القدر، والاستطاعة، أو في تقدير الخير، والشر، أو في باب الهداية، والضلالة، أو في باب الإرادة، والمشيئة، أو في باب الرؤية، والإدراك، أو في باب صِفَاتِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأسمائه، وأوصافه، أو في باب من أبواب التعديل، والتجوير، أو في باب من أبواب النبوة، وشروطها، ونحوها من الأبواب التي اتفق عليها أهل السُّنَّةِ، والجماعة من فريقي الرأي، والحديث على أصل واحد خالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية، والخوارج، والروافض، والنجارية، والجهمية، والمجسمة، والمشبهة، ومن جرى مجراهم من فرق الضلال..، فصح تأويل الحديث المروي في افتراق الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة إلى هذا النوع من الاختلاف، دون الأنواع التي اختلفت فيها أئمة الفقه، من فروع الأحكام في أبواب الحلال، والحرام، وليس فيها بينهم تكفير، ولا تضليل)[1].

ويحدد قوام السُّنَّةِ الأصبهاني الأصول التي حدث فيها الاختلاف بين فرق الأمة، فيقول: (قال بعض العلماء: الأصول التي ضل بها الفرق سبعة أصول: في ذات الله ـ سبحانه ـ، والقول في صفاته، والقول في أفعاله، والقول في الوعيد، والقول في الإيمان، والقول في القرآن، والقول في الإمامة، فأهل التشبيه ضلوا في ذات الله ـ تعالى ـ، والجهمية ضلت في صِفَاتِ اللهِ، والقدرية ضلت في أفعال الله، والخوارج ضَلَّتْ في الوعيد، والمرجئة ضَلَّتْ في الإيمان، والمعتزلة ضَلَّتْ في القرآن، والرافضة ضلت في الإمامة)[2].

---

(١) الفرق بين الفرق، ص ١٠٩.

(٢) الحجة في بيان المحجة، ج ٢، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣، ت. محمد أبو رحيم، (وضلال هذه الفرق عنوانه ما ذكر، ولكنها تتداخل في أمور عقدية شتى ضلت بها وخالفت بها الأصول الصحيحة في مجال العقيدة.

٦ـ الْفِرَقُ الْهَالِكَةُ وَأَحْكَامُهَا عَلَى مُقْتَضَى حَدِيثِ الِافْتِرَاقِ

إن الفرقَ الْهَالِكَةَ التي نص عليها حديث الافتراق، تحتاج إلى توضيح، وتفصيل مناسب، فقد تحدث بعض العلماء في هذه التفصيلات؛ ولأهميتها سوف نأتي على ذكرها، ومن هذه الأمور: هل هم داخلون في الأمة، أم خارجون عنها؟ وما حكم تكفيرهم؟ وما معنى الوعيد الوارد في الحديث لهم بدخول النار، وهل هم في المشيئة، أم هم مخلدون فيها؟.

فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَعْيِينِ الْفِرَقِ الْهَالِكَةِ:

فَمِمَّا لا شك فيه أن فرق الابتداع قد تداخلت عقائدها المنحرفة بعضها ببعض، وأقدم من قال بتعيين الفرق الهالكة يوسف بن أسباط ـ رحمه الله ـ؛ حيث روى ابن أبي عاصم ت٢٨٧هـ قال: سمعت المسيب بن واضح سنة تسع وعشرين ومِئَتَين، يقول: أتيت يوسف بن أسباط[١]، فقلت يا أبا محمد، إنك بقية ممن مضى من العلماء، وأنت حجة على من لقيت، وأنت إمام سُنَّة، ولم آتك أسمع منك الأحاديث، ولكن أتيتك أسألك عن تفسيرها، وقد جاء هذا الحديث (إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة...، فما هذه الفرق حتى نجتنبهم، فقال: أصولها أربعة: الْقَدَرِيَّةُ، وَالْمُرْجِئَةُ، وَالشِّيعَةُ، وَالْخَوَارِجُ؛ فثمانية عشر منها في الشيعة)[٢].

ويقول الإمام الطرطوشي عن أصول فرق الابتداع، وتشعباتها: (اعلم أن علماءَنَا قالوا: أصول البدع أربعةٌ، وسائر الأصناف الاثنتين وسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا، وتشعبوا، وهم الخوارج، وهي أول فرقة خرجت على عَلِيٍّ رضي الله عنه، والروافض، والقدرية، والمرجئة، ولم يرد علماؤُنَا بهذا التفريق أن أصل كل بدعة من هذه الأربعة تفرعت، وتشعبت على مقتضى أصل البدع حتى كملت ثلاثة وسبعون فرقة، فإن ذلك لعله لم

---

(١) قال ابن حبان في الثقات، كان من عباد أهل الشام وقرائهم، سكن أنطاكية، وكان لا يأكل إلا الحلال، فإن لم يجده استف التراب، وكان من خيار أهل زمانه مستقيم الحديث ربما أخطأ، ت مئة وخمس وتسعين، تهذيب التهذيب، ج١١، ص ٣٥٨.

(٢) ابن أبي عاصم، السنة ص ٤٤٩، ت. الشيخ الألباني، ط المكتب الإسلامي.

يدخل في الوجود إلى الآن، وإنما أرادوا، أن كل بدعة، وضلالة لا تكاد توجد إلا في هذه الأربع فرق، وإن لم تكن البدعة الثانية فرعًا للأولى، وشعبة من شعبها، بل هي بدعة مستقلة بنفسها ليست من الأولى بسبب.

وبيان ذلك بالمثال أن القدر أصل من أصول البدع، ثم اختلف أهله في مسائل من شعب القدر، وفي مسائل لا تعلق لها بالْقَدَرِ، فجميعهم متفقون على أن أفعال العباد خلق لهم من دون الله ـ تعالى ـ، ثم اختلفوا في فرع من فروع القدر، فقال أكثرهم: لا يكون فِعْلًا بين فَاعِلَيْنِ. وقال بعضهم وهو المردار: يجوز فعل بين فاعلين مخلوقين على التولد)... ثم خلص إلى القول: (وهكذا ابتدعت كل فرقة من هذه الفرق بدعًا تتعلق بأصل بدعته)[1].

● **هَلْ هَذِهِ الْفِرَقُ دَاخِلُونَ فِي الْأُمَّةِ، أَوْ خَارِجُونَ عَنْهَا؟**

ومعنى هذا، هل تخرجهم بِدَعُهُمْ العقدية من الملة الإسلامية، وينطبق عليهم معنى الكفر؛ بسبب ما أحدثوا من مخالفات عقدية، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: (إن هذه الفرق تحتمل من وجهة النظر أن يكونوا خارجين عن الملة، بسبب ما أحدثوا ـ فهم قد فارقوا الإسلام بإطلاق، وليس ذلك إلا الكفر؛ إذ ليس بين المنزلتين منزلة ثالثة تُتَصوَّرُ..، ويحتمل أن لا يكونوا خارجين عن الإسلام جملة، وإن كانوا قد خرجوا عن جملة من شرائعه، وأصوله..، ويحتمل وجهًا ثالثًا؛ وهو أن يكونوا هم ممن لم يفارق الإسلام، لكن مقالته كفر، وتؤدي معنى الكفر الصريح، ومنهم من لم يفارقه، بل انسحب عليه حكم الإسلام، وإن عظم مقاله، وشنع مذهبه، لكنه لم يبلغ به مبلغ الخروج إلى الكفر المحض، والتبديل الصريح)[2].

ويرى القاضي عياض عدم خروج فرق الابتداع كلها من الأمة، مستدلًا بحديث رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال: واحتجوا بقول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في هذا

---

(١) الحوادث والبدع، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) الاعتصام، ج٢، ص ١٤٩ ـ ١٩٥ بتصرف.

الحديث[١]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ»، (ولم يقلْ: منها)؛ بأن العبارة (بـ في) لا تقتضي تصريحًا بكونهم من غير الأمة، بخلاف لفظة (من)، التي هي للتبعيض، وكونهم من الأمة، مع أنه قد روى عن أبي ذر، وعلي، وأبي أمامة، وغيرهم في هذا الحديث: يخرج من أمتي، وسيكون من أمتي، وحروف المعاني مشتركة، فلا تعويل على إخراجهم من الأمة بـ (في)، ولا على إدخالهم بـ(من)، لكن أبا سعيد رضي الله عنه أجاد ما شاء في التنبيه الذي نبه عليه، وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة، وتحقيقهم للمعاني، واستنباطها من الألفاظ، وتحريرهم لها، وتَوَقِّيهم في الرواية، فهذه المذاهب المعروفة لأهل السنة)[٢].

وتبعًا لهذا الرأي القائل: بأنهم خارجون في الأمة، وليسوا خارجين عنها؛ فإن السلف حَرَّرُوا مسائل التكفير بحق هذه الفرق، من حيث الجزم بتكفير بعضها، وعدم تكفير البعض الآخر.

حُكْمُ تَكْفِيرِ فِرَقِ الابْتِدَاعِ:

لقد فصل العلماء في مسألة تكفير الفرق الهالكة؛ حيث يقول الإمام الشَّاطبي: (إنا إذا قلنا بأن هذه الفرق كُفَّارٌ على قول من قال به، أو ينقسمون إلى كافر، وغيره، فكيف يُعَدُّونَ من الأمة؟! وظاهر الحديث يقتضي أن ذلك الافتراق إنما هو مع كونهم من الأمة، وإلا فلو خرجوا من الأمة إلى الكفر لم يعدوا منها البتة كما تبين، وكذلك الظاهر في فرق اليهود، والنصارى أن التفرق فيهم حاصل مع كونهم هودًا، ونصارى، فيقال في الجواب على هذا السؤال: إنه يحتمل أمرين:

أَحَدُهُمَا: أنا نأخذ الحديث على ظاهره في كون هذه الفرق من الأمة، ومن أهل

(١) نص الحديث: أتى أبي سلمة وعطاء بن يسار أبي سعيد الخدري فسألاه عن الحرورية قال: لا أدري من الحرورية، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج في هذه الأمة (ولم يقل منها) قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم... الحديث، مسلم، كتاب الزكاة، باب اعطاء المؤلفة قلوبهم، ح رقم ١٠٦٤، المختصر، ج١، ص ٣٨٣.

(٢) القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، ج٢، ص ١٠٦١ - ١٠٦٢ .

الْقِبْلَةِ، ومن قيل بكفره منهم، فإما أن يسلم فيهم هذا القول، فلا يجعلهم من الأمة أصلًا، ولا أنهم يعدون في الفرق، وإنما نعد منهم من لا تخرجه بدعته إلى كفر، فإن قال بتكفيرهم جميعًا، فلا يسلم أنهم المرادون بالحديث على ذلك التقدير، وليس في حديث الخوارج نص على أنهم من الفرق الداخلة في الحديث، بل نقول المراد بالحديث فرق لا تخرجهم بِدَعُهُمْ عن الإسلام، فليبحث عنهم.

وإما أن لا نتبع الْمُكَفِّرَ على إطلاق بالتكفير، ونفصل الأمر، ويخرج من العدد من حكمنا بكفره، ولا يدخل تحت عمومه إلا ما سواه مع غيره ممن لم يذكر في تلك العدة.

وَالِاحْتِمَالُ الثَّانِي: أن نعدهم من الأمة على طريقة لعلها تتمشى في الموضع؛ وذلك أن كل فرقة تدعي الشريعة، وأنها على صوبها، وأنها المتبعة لها، وتتمسك بأدلتها، وتعمل على ما ظهر لها من طريقها، وهي تناصب العداوة من نسبتها إلى الخروج عنها، وترمي بالجهل، وعدم العلم مَنْ نَاقَضَهَا؛ لأنها تدعي أن ما ذهبت إليه هو الصراط المستقيم دون غيره، وبذلك يخالفون من خرج عن الإسلام؛ لأن المرتد إذا نَسَبْتَهُ إلى الارتداد، أقرَّ بِهِ، ورضيه، ولم يسخطه، ولم يُعَادِكَ؛ لتلك النسبة، كسائر اليهود، والنصارى، وأرباب النِّحَلِ المخالفة للإسلام، بخلاف هؤلاء الفرق؛ فإنهم مُدَّعُونَ المؤالفة للشارع، والرسوخ في اتِّباع شريعة محمد ﷺ، وإنما وقعت العداوة بينهم، وبين أهل السنة؛ بسبب ادعاء بعضهم على بعض الخروج عن السُّنَّةِ؛ ولذلك تجدهم مبالغون في العمل، والعبادة، والشاهد لهذا كله، مع اعتبار الواقع، حديث الخوارج، فإنه قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ...» ثم قال رسول الله ﷺ «يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ»[(١)]، فقوله ﷺ: يحسبون أنه لهم ـ واضح فيما قلنا، ثم إنهم يطلبون اتباعه بتلك الأعمال؛ ليكونوا من أهله، وليكون حجة لهم ـ، فحين حرفوا تأويله، وخرجوا عن الجادة كان عليهم، لا لهم)[(٢)].

---

(١) الحديث في مسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، ح رقم ١٠٦٦، المختصر، ج١، ص٣٨٥.

(٢) الشاطبي، الاعتصام، ج٢، ص ٢٠٢ـ ٢٠٤ بتصرف.

وعلى هذا القول، يجب التفريق بين من كَفَّرَهُ علماءُ السَّلَفِ، ومن لم يكفروه، ومن توقفوا في تكفيره، وهذه النصوص الآتية توضح هذه العناصر؛ حيث يقول شيخ الإسلام: (وقد نص الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ تعالى ـ على أن الجهمية كُفَّارٌ، فلا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام؛ وهم الزنادقة.

وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، وجعلوا أصول البدع خمسة، فعلى قول هؤلاء يكون كل طائفة من المبتدعة الخمسة اثنا عشر فرقة، وعلى قول الأولين: يكون كل طائفة من المبتدعة الأربعة ثمانية عشر فرقة.

وهذا ينبى على أصل آخر: وهو تكفير أهل البدع، فمن أخرج الجهمية منهم لم يكفرهم، فإنه لا يكفر سائر أهل البدع، بل يجعلهم من أهل الوعيد، بمنزلة الفساق، والعصاة، ويجعل قوله (هم في النار)، مثل ما جاء في سائر أهل الذنوب؛ مثل أكل مال اليتيم، وغيره، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾، [النساء: ١٠].

وأما السلف، والأئمة، فلم يتنازعوا في عدم تكفير المرجئة، والشيعة المفضلة، ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء، وإن كان من أصحابه من حكى تكفير جميع أهل البدع من هؤلاء، وغيرهم ـ خلافًا عنه، أو في مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء، وغيرهم، وهذا غلط على مذهبه، وعلى الشريعة.

وأما الخوارج، والروافض، ففي تكفيرهم نزاع، وتردد عن أحمد، وغيره، وأما القدرية الذين ينفون الكتابة، والعلم، فَكَفَّرُوهم، ولم يكفروا من أثبت العلم، ولم يثبت خلق أفعال العباد)[١].

وفي نص آخر لشيخ الإسلام، يزيد الأمر، وضوحًا، فيقول: (وكذلك سائر الثنتين

(١) الفتاوى، ج٣، ص ٣٥٠ بتصرف.

وسبعين فرقة من كان منافقًا، فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقًا، بل كان مؤمنًا بالله ورسوله في الباطن لم يكن كافرًا في الباطن، وإن أخطأ التأويل، كائنًا ما كان. خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق، ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومن قال: إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل من الملة، فقد خالف الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين -، بل، وإجماع الأئمة الأربعة، وغير الأربعة، فليس فيهم من كَفَّرَ كل واحد من الثنتين والسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضًا ببعض المقالات[١].

ويفصل أبو منصور البغدادي في هذه المسألة، فيقول: (وإن كانت بدعته من جنس بدع الرافضة الزيدية، أو الرافضة الإمامية، ومن جنس بدع أكثر الخوارج، أو من جنس بدع المعتزلة، أو من جنس بدع النجارية، أو الجهمية، أو الضرارية، أو المجسمة من الأمة، كان من جملة أمة الإسلام في بعض الأحكام، وهو أن يدفن في مقابر المسلمين، ويدفع إليه سهمه من الغنيمة، إن غزا مع المسلمين، ولا يمنع من دخول مساجد المسلمين، ومن الصلاة فيها، ويخرج في بعض الأحكام عن حكم أمة الإسلام؛ وذلك أنه لا تجوز الصلاة عليه، ولا الصلاة خلفه، ولا تحل ذبيحته، ولا تحل المرأة منهم للسني، ولا يصح نكاح السنية من أحدهم)[٢].

ويقول الشيخ سلمان العودة: (والحق أن الحديث لا دلالة فيه على التكفير؛ لأن الوعيد بالنار لا يقتضي الخلود فيها، وقد توعد النبي ﷺ بالنار على كثير من الذنوب، والمعاصي التي لا يختلف أهل الحق على عدم التكفير بمجردها، كإباق العبد من مواليه كما أن عده لهم من الأمة يعني أنهم مسلمون في الجملة؛ حيث سماهم من هذه الأمة، والأصل أن المسلم باق على إسلامه، لا يخرج منه إلا بيقين)[٣].

---

(١) الفتاوى، ج٧، ص ٢١٨، وانظر القاضي، الشفاء ج٢، ص ١٠٨٥ .

(٢) الفرق بين الفرق، ص ٢٣٢ .

(٣) صفة الغرباء، ص ٦٢، وانظر د. ناصر العقل، مقدمات في الأهواء، ص ٧٦ .

• **الْجَزْمُ بِتَكْفِيرِ بَعْضِ الْفِرَقِ:**

وإذا كان علماء السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ قد توقفوا في تكفير بعض الفرق إلا أنهم جزموا بتكفير بعضها أيضًا، وعدوها خارجة عن الملة الإسلامية، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: (ولقد فصل بعض المتأخرين في التكفير تفصيلًا في هذه الفرق، فقال: ما كان من البدع راجعًا إلى اعتقاد وجود إله مع الله؛ كقول السَّبئية في علي رضي الله عنه أنه إله، أو حَلَّ الإله في بعض أشخاص الناس؛ كقول الجناحية، إن الله ـ تعالى ـ له روح، يحل في بعض بني آدم، ويتوارث، أو إنكار رسالة محمد ﷺ؛ كقول الغرابية، إن جبريل غلط في الرسالة، فأداها إلى محمد ﷺ، وعلي كان صاحبها، أو استباحة المحرمات، وإسقاط الواجبات، وإنكار ما جاء به الرسول ﷺ؛ كأكثر الغلاة من الشيعة، مما لا يختلف المسلمون في التكفير به، وما سوى ذلك من المقالات، فلا يبعد أن يكون معتقدها غير كافر)[1].

ويصرح شيخ الإسلام بتكفير الجهمية، فيقول: (والمأثور عن السلف، والأئمة إطلاق أقوال بتكفير الجهمية المحضة الذين ينكرون الصفات، وحقيقة قولهم: إن الله لا يتكلم، ولا يرى، ولا يباين الخلق، ولا له علم، ولا قدرة، ولا سمع، ولا بصر، ولا حياة، بل القرآن مخلوق، وأهل الجنة لا يرونه كما لا يراه أهل النار، وأمثال هذه المقالات، وأما القدرية الذين ينفون الكتابة، والعلم فكفروهم، ولم يكفروا من أثبت العلم، ولم يثبت خلق الأفعال)[2].

وقال أبو سعيد الدارمي ـ رحمه الله ـ (ناظرني رجل ببغداد منافحًا عن هؤلاء الجهمية، فقال لي: بأية حجة تُكَفِّرُونَ هؤلاء الجهمية؟، وقد نهى عن إكفار أهل الْقِبْلَةِ بكتاب ناطق، تُكَفِّرُونَهُمْ، أَمْ بِأَثَر، أم بإجماع؛ فقلت: ما الجهمية عندنا من (أهل القبلة، وما نكفرهم إلا بكتاب مسطور، وأثر مأثور، وكفر مشهور..)[3] ثم أخذ يعدِّد

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص ١٩٧ .

(٢) الفتاوى، ج٣، ص ٣٥٠ بتصرف.

(٣) الرد على الجهمية (ضمن عقائد السلف) ص ٣٤٦، ت النشار وطالبي.

الأدلة على تكفيرهم.

وحكم أبو منصور البغدادي بكفر جملة من الفرق، فقال: (فإن كان على بدعة الباطنية، أو البيانية، أو المغيرية، أو المنصورية، أو الجناحية، أو السبئية، أو الخطابية من الرافضة، أو كان على دين الحلولية، أو على دين أصحاب التناسخ، أو على دين الميمونية، أو اليزيدية من الخوارج، أو على دين الخابطية، أو الحمارية من القدرية، أو كان ممن يحرم شيئًا ممن نص القرآن على إباحته باسمه، أو أباح ما حرم القرآن باسمه، فليس هو من جملة أمة الإسلام)[١].

ونختم هذه الفقرة بهذا النص للقاضي عياض ـ رحمه الله ـ تعالى ـ؛ حيث يقول عن تكفير الفرق: (اعلم أن تحقيق هذا الفصل، وكشف اللبس فيه مورده الشرع، ولا مجال للعقل فيه، والفصل البين في هذا أن كل مقالة صرحت بنفي الربوبية، أو الوحدانية، أو عبادة أحد غير الله، أو مع الله، فهو كفر؛ كمقالة الدهرية، وكذلك القرامطة، وأصحاب الحلول، والتناسخ من الباطنية، والطيارة من الرافضة، والجناحية، والغرابية)[٢].

مَعْنَى الْوَعِيدِ الْوَارِدِ فِي الْحَدِيثِ:

أما الوعيد الوارد في الحديث لِلْفِرَقِ الْهَالِكَةِ بدخولهم في النار، فقد تعرض له العلماء بالبحث، فهل هو على إطلاقه، أم هو من باب الوعيد؟ وهل هم في المشيئة إن شاء أدخلهم النار، وإن شاء عفا عنهم؟ وهل هذا الوعيد يقتضي الخلود، أم إنه عذاب مؤقت؟ كما هو وارد في وعيد عصاة المؤمنين؟

يقول الإمام الشاطبي مجيبًا على هذه الأسئلة (إنه ﷺ أخبر أنها كلها في النار، وهذا وعيد يدل على أن تلك الفرق قد ارتكبت كل واحدة منها معصية كبيرة، وذنبًا عظيمًا، إذ قد تقرر في الأصول أن ما يتوعد الشر عليه مخصوصيته كبيرة، إذ لم يقل

(١) الفرق بين الفرق، ص ٢٣٢، وانظر نصوص مقاربة الإسفراييني، التبصير في الدين ١٤٣ ـ ١٤٤

(٢) القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، ج٢، ص ١٠٦٥ بتصرف.

كلها في النار، إلا من جهة الوصف الذي افترقت بسببه عن السواد الأعظم، وعن جماعته، وليس ذلك إلا لبدعة مفرقة، إلا أنه ينظر في هذا الوعيد، هل هو أَبَدِيٌّ، أم لا؟ وإذا قلنا: إنه غير أبدي هل هو نافذ، أم في المشيئة؟.

أَمَّا المطلبُ الأَوَّلُ، فيبنى على أن بعض البدع مخرجة من الإسلام، أو ليست مخرجة منه، والخلاف في الخوارج، وغيرهم من المخالفين في العقائد موجود؛ فحيث نقول بالتكفير، لزم منه تأبيد التحريم على القاعدة، (أن الكفر والشرك لا يغفره الله ـ سبحانه ـ)، وإذا قلنا بعدم التَّكْفِيرِ، فيحتمل على مذهب أهل السنة أمرين:

أَحَدُهُمَا: نفوذ الوعيد من غير غفران، ويدل على ذلك ظواهر الحديث، وقوله هنا «كُلُّهَا فِي النَّارِ»؛ أي مستقرة، ثابتة فيها، فإن قيل: ليس إنفاذ الوعيد بمذهب أهل السُّنَّةِ، قيل: بلى، قد قال به طائفة منهم في بعض الكبائر في مشيئة الله ـ تعالى ـ، لكن دليل الدليل في خصوص كبائر على أنها خارجة عن ذلك الحكم، ولا بد من ذلك، فإن المتبع هو الدليل ـ فكما دلهم على أن أهل الكبائر على الجملة في المشيئة كذلك، دلهم على تخصيص ذلك العموم في قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، [النساء:٤٨]، فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾، [النساء:٩٣]، فأخبر أولًا أن جزاءه جهنم، وبالغ في ذلك، بقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، [النساء:٩٣] عبارة عن طول المكث، ثم يخلص المؤلف إلى القول: قال مالك ـ رحمه الله ـ (إن العبد لو ارتكب جميع الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئًا، وجبت له أرفع المنازل؛ لأن كل ذنب بين العبد وربه هو منه على رجاء، وصاحب البدعة ليس هو منها على رجاء، إنما يهوي بها في نار جهنم، فهذا منه نص في إنفاذ الوعيد.

وَالثَّانِي: (أن يكون مقيدًا بأن يشاء الله ـ تعالى ـ إصلاءَهم في النار، وإنما حمل قوله «كُلُّهَا فِي النَّارِ»؛ أي هي ممن يستحق النار، كما قالت الطائفة الأخرى في قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾، [النساء:٩٣]؛ أي ذلك جزاؤه، فإن عفا عنه، فله العفو إن شاء الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾، [النساء:٤٨]، فكما ذهبت طائفة من الصحابة، ومن بعدهم إلى أن القاتل في المشيئة)[١].

وقد قال بهذا أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: (وهذا يبنى على أصل آخر؛ وهو تكفير أهل البدع، فمن أخرج الجهمية منهم لم يكفرهم، فإنه لا يكفر سائر أهل البدع، بل يجعلهم من أهل الوعيد بمنزلة الفساق، والعصاة، ويجعل قوله: هُمْ فِي النَّارِ، مثل ما جاء في سائر الذنوب؛ مثل أكل مال اليتيم، وغيره، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ﴾، [النساء: ١٠])[٢].

وهذه القواعد التي بنى عليها العلماء الأفاضل أحكامهم على فرق الابتداع هي قواعد السلف الصالح، الذين يتحرزون في إطلاق الأحكام على المخالفين بغير دليل شرعي صحيح، وهذا يبين مدى فهم علماء السلف، وأنهم ينطلقون من أسس ثابتة، قوية، بخلاف فرق الابتداع الذين ليس لهم حظ من علم، أو فقه، أو ورع، فهم يصدرون الأحكام الظالمة على أهل السنة، والجماعة، ويصفونهم بأقبح الأوصاف؛ كالحشوية والمشبهه، وغيرها.

وهكذا استحق أهل السنة، والجماعة أن يكونوا خيار هذه الأمة، والأمناء المخلصين على دينها ـ فهم الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة بإذن الله، وهم الطائفة المرضية عند الله في الدنيا والآخرة.

٧ـ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ:

لقد ذكرنا جملة من الأحكام التي تخص فرق الابتداع الهالكة التي نص عليها الحديث الوارد في الافتراق، وهذه الأحكام إنما قررها العلماء عندما خالفت هذه الفرق القواعد، والأصول التي تدين بها الفرقة الناجية، فهي الحاكمة على أهل الشذوذ والانحراف، وهي المهيمنة على غيرها بأخذها الكامل لعقائد الإسلام، وتشريعاته،

---

(١) الشاطبي، الاعتصام، ج٢، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩ بتصرف.

(٢) الفتاوى، ج٣، ص ٣٥١.

وهي الأمينة على الوحي الرباني، والإرث النبوي، وسيرة الصحابة الكرام؛ لأنها لم تتلبس ببدعة مخالفة لما جاء به القرآن، والسنة وسيرة الصحابة، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: (وذلك أن هذه إنما تصير فرقًا بخلافها للفرقة الناجية، في معنى كلي في الدين، وقاعدة من قواعده، لا في جزئي من الجزئيات، إذ الجزئي، والفرع الشاذ، لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعًا، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية)[١].

فأهل السنة والجماعة هم جمهور الإسلام العظيم، الذي افترقت عنهم فرق الابتداع، وهذا المسمى الذي أخذته لنفسها يطابق واقعها تمام المطابقة؛ فهم (الآخذون بسنة رسول الله ﷺ العالمون بها، والعاملون بمقتضاها، والمُمْتَثِلُونَ لقول الرسول ﷺ (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي)؛ فالسُّنَّةُ (هي ما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ من الشرع، والدين، والهدي الظاهر، والباطن، وتلقاه عنهم التابعون، ثم تابعوهم، ثم أئمة الهدى العلماء الْعُدُول، المقتدون بهم، ومن سلك سبيلهم إلى يوم القيامة)[٢]، ومن هنا صار أهل الحق المتبعون للسنة، أهل السنة، فهم الجديرون بذلك على الحقيقة، أما تسميتهم بالجماعة؛ فلأنهم اجتمعوا على الحق، وأخذوا به، واقتفوا أثر جماعة المستمسكين بالسنة من الصحابة والتابعين، وأتباعهم، ولأنهم أجمعوا على الحق، وعلى اتباع الجماعة أهل السُّنَّةِ، والحق؛ ولأنهم دائمًا بحمد الله يجتمعون على أئمتهم، ويجتمعون على الجهاد، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجتمعون على السنة والاتباع، وترك البدع، والأهواء، والافتراق، فهم الجماعة التي عناها الرسول ﷺ ووصفها، وأمر بالأخذ بها)[٣].

ويفصل الشيخ عمر الأشقر معنى أهل السنة والجماعة، بأنهم المتبعون لمنهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام؛ حيث يقول: (وقد أصبحت فئة الصحابة في عهد الرسول ﷺ هم المقياس الذي يقاس به الحق على مدار التاريخ ما تنازع الناس،

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص ٢٠٠ .

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣، ص ٣٥٨ .

(٣) د. ناصر العقل، مفهوم أهل السنة والجماعة، ص ٨٧ - ٨٨ .

واختلفوا، فإن الفرقة المتميزة صاحبة المنهج الصائب، هم الذين يختطون الخطة التي كان عليها الصحابة من قبل، ويتبعون المنهج الذي اتبعه الصحابة، وساروا عليه.

وقد تلقى التابعون عن الصحابة منهجهم ومسارهم علمًا، وعملًا، واستمر هذا المنهج يتلقاه اللاحقون عن السابقين، ويكثر أصحاب هذا المنهج، أو يقلون، ولكن لا يخلو منهم جيل، أو زمان تصديقًا لقول الرسول ﷺ «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْنَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ»[1].

وهذه الفئة التي تمثلت في جيل الصحابة وفي الأجيال التي اتبعتهم على نهجهم من بعدهم، هم الذين يمثلون الخط الأصيل في هذه الأمة، فهم ليسوا فرقة من الفرق الإسلامية، أو جماعة من الجماعات، وإنما هم أهل الحق، وهم الجماعة، فالجماعة في الإسلام، أولئك السائرون على الحق المتمسكون به، ولو كانوا فئة قليلة، ولا عبرة هنا بالقلة، والكثرة.

وليس معنى ذلك أن وجود الطائفة المنصورة، أهل السنة، والجماعة، كان قليلًا، بل هم السواد الأعظم في هذه الأمة في كل جيل، وعصر، وقد بقيت الفرق المخالفة مجموعات جزئية في الأمة الإسلامية، لم يستطع واحد منهم أن يزاحم أهل السنة، والجماعة في أن يصبح هو جماعة المسلمين)[2].

ثم يخلص إلى القول: (بأن أهل السنة، والجماعة هم الفئة التي استوعبت دين الله المنزل علمًا صحيحًا، وفقهًا سليمًا، ومثلته في واقع الحياة عملًا صائبًا، وسلوكًا سويًا، وحكموه في مجتمعهم تحكيمًا عادلًا شاملًا، وقد تحقق ذلك في الرسول ﷺ وأصحابه في حياته، ومثل الصحابة هذه الفئة من بعد الرسول ﷺ تمثيلًا قويًا، ورأينا كيف صفت نفوس الصحابة، ومنهجهم من الانحرافات العقدية، والبدع، والضلالات.

ورأينا كيف قامت الانحرافات في آخر جيل الصحابة، وكيف تميز عامة المسلمين

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأشقر، أهل السنة والجماعة، ص ٣١ - ٣٢ .

بالمنهج السوي، وأصبح خط الصحابة المرتبط بالكتاب والسنة هو المعلم الأصيل بين الفرق المختلفة على مر العصور، وأصبحت الخطوط الخارجة عنه هي خطوط أهل البدع، والضلالة، فأهل السنة هم أهل الطريقة السديدة الصافية من الابتداع في دين الله، البعيدة عن كل انحراف عقائدي الذي اجتمعت كلمتهم على الحق الذي جاء به الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة من الصحابة، ومن نهج نهجهم من التابعين، ومن بعدهم بإحسان إلى يوم الدين)[١].

ويقول قوام السنة الأصبهاني: (والدليل على أن الفرقة الناجية هم أهل السنة، والجماعة أن أحدًا لا يشك أن الفرقة الناجية هي المتمسكة بدين الله، ودين الله الذي نزل به كتاب الله، وبينته سنة رسول الله ﷺ، وهم القائلون أن الله واحد، «ليس كمثله شيء وهو السميع العليم»، لا يشاركه شيء من الموجودات بوجه من الوجوه؛ لأنه لو شاركه واحد في ذلك، لكان مثلًا له في الوجه الذي شاركه فيه، فلا يسمى إلا بما سمى به نفسه في كتابه، أو سماه به رسول الله ﷺ، وأجمعت عليه الأمة، أو أجمعت الأمة على تسميته به، ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسـوله ﷺ، أو أجمع عليه المسلمون)[٢].

ولما كانت هذه الفئة هي أهل السنة، والجماعة، على هذه الأصول العقدية، والشرعية الواضحة الجلية؛ فلذلك عدها الرسول ﷺ فرقة واحدة، ولهذا القول مغزاه الهام، وقد فصل الإمام الشاطبي معاني هذا القول، فقال: (إن النبي ﷺ لم يعين من الفرق إلا فرقة واحدة، وإنما تعرض لعدها خاصة، وأشار إلى الفرقة الناجية حين سُئِلَ عنها، وإنما وقع ذلك كذلك، ولم يكن الأمر بعكس لأمور:

أَحَدُهَا: أن تعيين الفرقة الناجية هو الآكد في البيان بالنسبة إلى تعبد المكلف، والأحق بالذكر، إذ لا يلزم تعيين الفرق الباقية إذا عينت الواحدة، وأيضًا، فلو عينت

---

(١) أهل السنة والجماعة، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) الحجة في بيان المحجة، ج٢، ص ٣٨٣.

الفرق كلها إلا هذه الأمة، لم يكن بد من بيانها؛ لأن الكلام فيها يقتضي ترك أمور، وهي بدع، والترك للشيء لا يقتضي فعل شيء آخر، لا ضدًّا، ولا خلافًا، فذكر الواحدة هو المفيد على الإطلاق.

وَالثَّانِي: أن ذلك أوجز؛ لأنه إذا ذكرت الفرقة الناجية علم على البديهة أن ما سواها مما يخالفها ليس بناج، وحصل التعيين بالاجتهاد، بخلاف ما إذا ذكرت الفرق إلا الناجية، فإنه يقتضي شرحًا كبيرًا، ولا يقتضي في الفرقة الناجية اجتهادًا.

الثَّالِثُ: أن ذلك أحرى بالستر...، وذلك أن النبي ﷺ بين ذلك بقوله: ما أنا عليه، وأصحابي، فأجاب بأن الفرقة الناجية من اتصف بأوصافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأوصاف أصحابه، وكان ذلك معلومًا عندهم، غير خفي، فاكتفوا به، وربما يحتاج إلى تفسيره، بالنسبة إلى من بعد تلك الأزمان.

وحاصل الأمر أن أصحابه كانوا مقتدين به، مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم، فالقرآن إنما هو المتبوع على الحقيقة، وجاءت السنة مُبَيِّنَةً له، فالْمُتَّبِعُ للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم، فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله ـ تعالى ـ وهو معنى قوله ﷺ (ما أنا عليه، وأصحابي)، فالكتاب والسنة هما الطريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره، فناشئ عنهما، هذا هو الوصف الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهو معنى ما جاء في الرواية الأخرى من قوله: «وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»؛ لأن الجماعة في وقت الإخبار كانوا على ذلك الوصف»[1].

● أما عن معنى الجماعة المراد في الحديث، فقد ذكر الإمام الشاطبي، وغيره عدة أقوال؛ وَمِنْهَا:

أَوَّلًا: أَنَّهَا السواد الأعظم ـ من أهل الإسلام، وهو الذي يدل عليه كلام أبي

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ بتصرف.

غالب[١]: أن السواد الأعظم، هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم، فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم في شيء من الشريعة، أو في إمامهم، وسلطانهم، فهو مخالف للحق، ومن قال بهذا ـ أبو مسعود الأنصاري، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ فروي أنه لما قتل عثمان، سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة فقال: عليك بالجماعة؛ فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر، حتى تستريح، أو يستراح من فاجر...، وقال ابن مسعود: عليكم بالسمع، والطاعة؛ فإنها حَبْلُ اللهِ الذي أمر به، ثم قبض يده، وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذي تحبون في الفرقة.

وعن الحسين قيل له: أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ فقال: أي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أمة محمد على ضلالة، فعلى هذا القول: يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة، وعلماؤها، وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم؛ لأنهم تابعون لهم مقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم، فهم الذين شذوا، وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع؛ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة، لم يدخلوا بسوادهم بحال)[٢].

ويؤيد هذا القول الإمام النووي، فيقول: (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله ـ تعالى ـ من زمن النبي ﷺ إلى الآن، حتى يأتي أمرُ اللهِ المذكور في الحديث)[٣].

وَالثَّاني: أَنَّهَا جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة، مات

---

(١) لم يصرح المؤلف باسمه، وانظر مجموعة من كنيته أبو غالب، تهذيب التهذيب، ج١٢، ص ٢١٥.

(٢) الاعتصام، ج٢، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١,

(٣) النووي، بشرح مسلم، ج١٣، ص ٦٧.

ميتة جاهلية؛ لأن جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين)(١).

وَالثَّالِثُ: أَنَّ الجماعة هي الصحابة على الخصوص؛ فإنهم الذين أقاموا عماد الدين، وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلًا، ومن قال بهذا عمر بن عبدالعزيز قال مالك: كان عمر بن عبدالعزيز يقول: سَنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمالًا لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها، ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها، من اهتدى بها، مهتد، ومن استنصر، بها منصور، ومن خالفها، اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرًا، فقال مالك: فأعجبني عزم عمر على ذلك، فعلى هذا القول، فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله ﷺ «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، فكأنه راجع إلى ما قالوه، وما سنوه، وما اجتهدوا فيه حجة على الإطلاق، وبشهادة رسول الله ﷺ لهم بذلك خصوصًا في قوله: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»، وأشباهه، أو لأنهم المتقلدون لكلام النبوة، المهتدون بالشريعة ـ الذين فهموا أمر دين الله بالتلقي من نبيه مشافهة على علم، وبصيرة بمواطن التشريع، وقرائن الأحوال، بخلاف غيرهم، فإذًا كل ما سنوه، فهو سُنَّةٌ من غير نظر فيه، بخلاف غيرهم؛ فإن فيه لأهل الاجتهاد مجالًا للنظر ردًّا، وقبولًا، فأهل البدع إذًا غير داخلين في الجماعة قطعًا على هذا القول)(٢).

ويفصل الشيخ عمر الأشقر هذا القول، فيقول: «وجود الفئة التي تمثل الحق في عقائدها، وفكرها، وتصوراتها، وقد كانت هذه الفئة متمثلة في صحابة الرسول ﷺ، فلم يعرف عن واحد من الصحابة أنه كان رأسًا من رءوس البدعة، والضلال، أو أنه يقول بقول من الأقوال التي نشزت، وندت من بعد، فلم يكن فيهم من قال بقول الخوارج، أو الشيعة، أو المرجئة، أو القدرية، أو المعتزلة)(٣).

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص ٢٦١.

(٢) الاعتصام، ج٢، ص ٢٦٢- ٢٦٣، وانظر د. الأشقر، أهل السنة والجماعة، ص ٣١.

(٣) أهل السنة والجماعة، ص ٢٧.

فعلى هذا القول تكون الفئة المتبعة للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين حملوا لنا القرآن، والسنة، فالمتبعون لهم بحق، هم أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية، بإذن الله ـ تعالى.

الرَّابِعُ: أَنَّ الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر، فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم، وهم الذين ضمن الله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن لا يجمعهم على ضلالة)[1].

الْخَامِسُ: ما اختاره الطبري «الإمام» من أن الجماعة جماعة المسلمين، إذا اجتمعوا على أمر، فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلزومه، ونهى عن فراقه فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم)[2].

ثم يخلص الإمام الشاطبي بعد ذكر هذه الأقوال الخمسة، فيقول: (فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة، والاتباع، أنهم المرادون بالأحاديث، فلنأخذ ذلك أصلًا ويبنى عليه معنى آخر؛ وذلك أن الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد سواء ضموا إليهم العوام، أم لا، فإن لم يضموا إليهم، فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم، فمن شذ منهم، فمات فميتته جاهلية، وإن ضموا إليهم العوام ـ فبحكم التبع؛ لأنهم غير عارفين بالشريعة، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء، فإنهم لو تمالئوا على مخالفة العلماء فيما حدوا لهم، لكانوا هم الغالب، والسواد الأعظم[3] في ظاهر الأمر؛ لقلة العلماء، وكثرة الجهال، فلا يقول أحد: إن اتباع جماعة العوام، هو المطلوب، وإن العلماء هم المفارقون

(١) الاعتصام ج٢، ص ٢٦٣.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٦٥.
(٣) قال الدكتور ناصر العقل: يستثنى من ذلك عصر الصحابة والتابعين، فإن السواد الأعظم في ذلك الوقت على الحق لقرب الناس من عهد النبوة ولتزكية النبي ﷺ للقرون الفاضلة، أما من بعدهم فلا عبرة بالكثرة لعموم الأدلة التي تدل على أن الناس سيكثر فيهم الخبث، انظر د. العقل، مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة، ص ١٤، ط١، دار الوطن، الرياض.

للجماعة، والمذمومون في الحديث، بل الأمر بالعكس، وأن العلماء هم السواد الأعظم، وإن قلوا، والعوام هم المفارقون للجماعة إن خالفوا، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم. ومن هنا لما سئل ابن المبارك عن الجماعة الذين يقتدى بهم أجاب بأن قال: أبو بكر وعمر ـ قال فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت، والحسين بن واقد ـ قيل: فهؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟ قال: أبو حمزة السكري، وهو محمد بن ميمون المروزي[١]. فلا يمكن أن يعتبر العوام في هذه المعاني بالإطلاق، وعلى هذا لو فرضنا خلو الزمان من مجتهد، لم يمكن اتباع العوام لهم، ولا عد من سوادهم أنه السواد الأعظم المنبه عليه في الحديث...

وأيضًا فاتباع نظر من لا نظر له، واجتهاد من لا اجتهاد له محض ضلالة، ورمي في عماية، وهو مقتضى الحديث الصحيح «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا»... قال إسحاق: لو سألت الجهال عن السواد الأعظم، لقالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عَالَمٌ متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه، وتبعه فهو الجماعة، ثم قال إسحاق: لم أسمع عالمًا منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم فانظر حكايته، تبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس وأن لم يكن فيهم عالم، وهو وهم العوام، لا فهم العلماء)[٢].

وَخُلَاصَةُ الْقَولِ (أَنَّ المفهوم الشرعي للجماعة الذي يستنبط من مجموع النصوص الشرعية، وآثار الأئمة، والعلماء يدور حول معان متقاربة، تنتهي كلها إلى أن الجماعة شرعًا هم: أَهْلُ السُّنَّةِ والاتباع، أهل الحق، والفرقة الناجية، وهم الصحابة، والتابعون لهم بإحسان من أئمة الهدى، أهل العلم، والفقه في الدين، ومن اقتدى بهم، واتبع

(١) إمام مشهور، صدوق، سمع زياد بن علاء، وأبا إسحاق، روى عنه ابن المبارك، وخلق كثير، وهو أكبر شيخ لنعيم بن حماد، وثقة يحيى بن معين، وقال العباس بن مصعب: كان مجاب الدعوة.... توفي سنة سبع وستين ومئة، يقال: إنما عرف بالسكري لحلاوة منطقه، الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٤، ص ٥٣.

(٢) الاعتصام ج٢، ص ٢٦٦- ٢٦٧ بتصرف.

سبيلهم من المؤمنين إلى قيام الساعة، فهم الذين اجتمعوا على السنة، وأجمعوا عليها واجتمعوا على الحق، وعلى أئمتهم، فجاء اسمهم ووصفهم مركبًا من أهل السنة، والجماعة، فهم أهل السنة حقًّا، الذين نقلوها، وحفظوها، وتمسكوا بها، وتواصوا بها وعلموها، وعملوا بها، ورعوها حق رعايتها)[1].

● وقد اشتهرت الفرقة الناجية بمسميات حميدة بعد الهجمة الابتداعية التي قام بها الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والقدرية، وغيرهم، فاشتهروا بأهل الحديث ـ؛ لعنايتهم بالسنة، ووضعها الموضع اللائق بها بعد القرآن الكريم، والعناية بما جاءت به السنة من مسائل عقدية، موافقة للكتاب العزيز، وتقديم نصوص الكتاب والسنة، على آراء الرجال، والمحدثات من الأقوال.

وفي هذا يقول الخطيب البغدادي: (وقد جعل الله ـ تعالى ـ أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة، فهم أمناء الله في خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته، والمجتهدون في حفظ ملته أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأيًا تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث؛ فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم، والرسول فئتهم، وإليه نسبتهم)[2].

ويصفهم ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ تعالى ـ فيقول: (فأما أصحاب الحديث؛ فإنهم التمسوا الحق من وجهته، وتتبعوه من مظانه، وتقربوا إلى الله ـ تعالى ـ باتباعهم سنن رسول الله ﷺ، وطلبهم لآثاره، وأخباره؛ برًّا، وبحرًا، وشرقًا وغربًا، يرحل الواحد منهم راجلًا، مقويًا في طلب الخبر، أو السنة الواحدة، حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة، ثم لم يزالوا في التنقير عن الأخبار، والبحث عنها حتى فهموا صحيحها من سقيمها، وناسخها من منسوخها، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأي، فنبهوا

---

(١) د. ناصر العقل، مفهوم أهل السنة والجماعة، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، ص ٩.

على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافيًا، وبسق بعد أن كان دارسًا، واجتمع بعد أن كان متفرقًا، وانقاد للسنن من كان عنها معرضًا، وتنبه لها من كان عنها غافلًا، وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد أن كان يحكم بقول فلان، وفلان)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والفرقة الناجية هم أهل الحديث، والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله، وأعظمهم تميزًا من صحيحها، وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها، وأتباعًا لها تصديقًا، وعملًا، وحبًا، وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها[٢].

ويبين شيخ الإسلام أسباب نجاتهم؛ لأنهم أهل الكمال في العقيدة، والشريعة؛ فيقول: (من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة بما يتحلون به من صفات الكمال، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقًا أُخْرَى؛ مثل: المعقول، والقياس، والرأي، والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحاجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك، وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها، وخلاصتها؛ فهم أكمل الناس عقلًا، وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالًا، وأقومهم جدلًا، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا، وأحدهم بصرًا ومكاشفة، وأصوبهم سمعًا، وأعظمهم، وأحسنهم وجدًا، وذوقًا، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة، والحديث بالنسبة إلى سائر الملل)[٣].

ثم يقول في موضع آخر: (وكذلك الشافعي، وإسحق، وغيرهم، إنما نبلوا في الإسلام باتباع أهل الحديث، وكذلك البخاري، وأمثاله إنما نبلوا بذلك، وكذلك مالك، والأوزاعي، والثوري، وأبو حنيفة، إنما نبلوا في علومهم، وقُبل قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة...، وكذلك المسائل الاعتقادية الخبرية، لم ينبلْ أحد من الطوائف

(١) تأويل مختلف الحديث، ص ٨٠.

(٢) الفتاوى، ج٣، ص ٣٤٦ بتصرف.

(٣) الفتاوى، ج٤، ص ٩ - ١٠.

ورؤسهم عند الأمة إلا بما معه من الإثبات والسنة(١).

● وَمِنْ أسماء الفرقة النَّاجية ـ الطائفةُ المنصورة ـ ولا تكون منصورة إلا إذا حازت رِضَى اللهِ ـ تَعَالَى ـ باعتقاد ما جاء به القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ومحبة الصحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وباستقامتها على هذا المنهج الإلهي الحق، عند ذلك تكون منصورة دائمًا ـ كما قال النبي ﷺ «لَا يَزَالُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ»(٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ»(٣).

وقد تواترت أحاديث الطائفة المنصورة، ورواها جمع كبير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ؛ ومنهم (المغيرة بن شعبة، ومعاوية بن أبي سفيان، وثوبان، وجابر بن سمرة، وجابر بن عبدالله، وسعد بن أبي وقَّاص، وعقبة بن عامر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، وقرة بن إياس، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب، وسلمة بن نفيل الكندي، والنَّوَّاس بن سمعان، وأبو أمامة الباهلي، ومرة بن كعب البهزي، وشرحبيل بن السمط الكندي، ومعاذ بن جبل إضافة إلى بعض المراسيل؛ ولذلك صرح عدد من العلماء المعتبرين بتواتر هذا الحديث؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، والسيوطي، والزبيدي، والكتاني)(٤).

قال يزيد بن هارون بعد ذِكْرِ حديث الطائفة المنصورة: (إن لم يكونوا أصحاب

---

(١) الفتاوى، ج٤، ص ١١.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ح رقم ٣٦٤٠، وح رقم ٣٦٤١، الفتح ج٦، ص ٦٣٢، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ (لا تزال طائفة) ح رقم ١٩٢١، المختصر، ج٢، ص ١٤٩.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ (لا تزال طائفة) ح رقم ١٩٢٠، المختصر، ج٢، ص ١٤٨.

(٤) انظر العودة، صفة الغرباء، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

الحديث، فلا أدري من هم)[١].

وقال عبدالله بن المبارك: (هم عندي أصحاب الحديث)[٢].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: (إن لم يكونوا أصحاب الحديث، فلا أدري مَنْ هم)[٣].

وقال أحمد بن سنان: (هم أهل العلم، وأصحاب الآثار)[٤].

● وقد استدرك الشيخ سلمان العودة على هذا المصطلح الاستدراك الآتي، فقال: (وينبغي التنبيه إلى تغير المصطلحات بمرور الأزمنة، واختلاف مدلولها بين عصر وعصر عند كثير من الناس، وإذا كان الأئمة ـ رحمهم الله ـ يطلقون على أهل الحديث في الماضي، أنهم الفرقة النَّاجِيَةُ، والطائفة المنصورة، فإن اصطلاح أهل الحديث، قد ضاقت دائرته عند الكثيرين حتى صار علمًا على فئات قد تكون أهل الحديث، ولكنها ليست أهل الحديث.

ولذلك لا يحسن إطلاق الفرقة الناجية على فئات محددة تتسمى بأهل الحديث، وإن كانت هي فعلًا من أهل الحديث، بل ينبغي إعادة هذا الاصطلاح إلى مفهومه الواسع الصحيح ـ كما سيأتي.

والأسباب التي تدعو إلى عدم إطلاق اسم الناجية على فئة بعينها ممن يحمل اسم أهل الحديث، أو ما شابهه.

فإنه يقتضي أن يكون غيرها من الْفِرَقِ الهالكة، ولو كان موافقًا لها في منهجها، ومعتقدها، وأصولها، ما دام لا يحمل نفس الاسم الذي تحمله، ولا يجتمع حول الراية التي تجتمع حولها، وعلى سبيل المثال يوجد في زماننا هذا فئات شَتَّى، تحمل أسماء عديدة، تختلف باختلاف البلدان، بل تختلف في البلد الواحد، بل ويقع بينها أحيانًا شيء من الشحناء، والاختلاف، وتنافر القلوب، كما يقع بين غيرها، ولكنها متقاربة في منهجها، متفقة على الأصول التي تقوم عليها، وتدعو إليها، وهؤلاء يمثلون في

(١) (٢) (٣) (٤) الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، ص ٢٦ ـ ٢٧.

الجملة منهجًا واحدًا على ما بينهم من تفاوت، ولو ادعى مُدَّعٍ إطلاق لفظ الفرقة الناجية على بعضهم دون بعض، أو عليهم دون غيرهم من أهل السُّنة العاملين بها، مهما اختلفت أسماؤهم، لحرم من هذه الميزة العظيمة فئاتٌ، وطوائف أُخرى في بقاعٍ شتَّى من الأرض ممن لا يحملون هذه الأسماء.

فالعدل، والإنصاف يقتضي أن لا تكون الفرقة الناجية أشخاصًا محددة فحسب، بل خصائص، وسمات، ينبني عليها مَنْهَجٌ يُتَّبَعُ، وَطَرِيقٌ تُسلك، وأصول يلتزم بها؛ بحيث يكون الموافق لهذه الأصول، المتبع لهذا المنهج، المتحلي بهذه الخصائص، والسمات، ممن يرجى دخوله فيها؛ فردًا كان، أو جماعة، وبأي اسم تسمى مادام لا يدين ببدعة، ولا يتعمد مخالفة الكتاب والسنة.

أَمَّا الكلمةُ السابقةُ المنسوبة إلى الإمام أحمد: فعلى تقدير ثبوتها، فإنه يقصد بهذا الاصطلاح (أَهْلُ الْحَدِيثِ) القوم الدائنون بالمعتقد الذي كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه الملتزمون بالنصوص، المجانبون لطرائق أهل الكلام، التابعون للحق، والدليل متى استبان لهم، ولو كان على خلاف ما عهدوه، وورثوه، وتعلموه، ويدخل في هؤلاء: أَتْباع المذاهب الفقهية الأربعة، وغيرها من مذاهب أهل السنة، إذا كانوا على المعتقد الصحيح، غير مؤوِّلين، ولا محرِّفين، ولا مبدِّلين، ولا مشبهين.

وبعض عوام المسلمين الذين لم يدخل في شيء من البدع، والانحراف، وآمنوا بالله، وأسمائِهِ، وصفاته، وأقرُّوا بالتوحيد، وجانبوا الشِّركَ...)[1].

● وبعد هذا الاستدراك، يبدو لنا أن الْفِرْقَةَ النَّاجِيَة ليست محصورة في زمن من الأزمان، أو مكان من الأمكنة؛ فهي عنوان امتداد الإسلام الصحيح إلى قيام الساعة، مهما ضعفت، وتكالب عليها الأعداء، فإن بقائها في بقاء منهجها الواضح، وفي سلامة معتقد أتباعها، وبعدهم عن البدع، والانحرافات؛ فهي (فرقة من البشر يكون فيها في بعض الأزمان الأئمة المشهورون الأفذاذ الذين يشرحون أصولها، ومناهجها،

(١) العودة، صفة الغرباء، ص ١١٨ - ١٢٠ بتصرف.

ويقيمون الأدلة على صوابها، ويدافعون عنها، ويخلفهم في أزمان أُخَر من لا يملكون القدرة نفسها التي كان يملكها، أولئك، كما أنه يوجد في هذه الفرقة، مهما بلغت من الفضل، والعلم، والدين أخطاء، وزلات، وسقطات، وهفوات، ويوجد في داخلها نزاعات، واختلافات، ومشاحنات، ومشاجرات، سُنَّةُ اللهِ في عباده)، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾، [الأحزاب:٦٢].

ويكفي أن ننظر إلى تاريخ هذه الفرقة؛ لندرك أن هذا أمر طبيعي، وفطري، لا ينفك عنه البشر)[١].

● هذه أسماء الفرقة الناجية المشرفة، ولكن فِرَقُ الابتداع عندما رأت شمولية هذه الفرقة في أخذها للعقيدة، والشريعة قامت بنعتها بالأسماء الباطلة، الحاقدة، فوصموها بالحشوية، والجبرية، والمجبرة، والمرجئة، وكلها أوصاف تليق بمن ألصقوها بأهل السنة والجماعة.

حيث يقول ابن المرتضى: (والحشوية لا مذهب لهم منفرد، وأجمعوا على الجبر، والتشبيه، وجَسَّمُوا، وصوَّروا، وقالوا بالأعضاء، وقدم ما بين الدفتين من القرآن؛ ومنهم أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وداود بن محمد الكرابيسي، ومِنْ متأخريهم محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ، صنَّفَ كتابًا في أعضاء الرَّبِّ ـ سبحانه وتعالى عن ذلك)[٢].

وقال القمي، والنوبختي: (وفرقة يُسمَّون الشُّكَّاكُ، والبترية، وأصحاب الحديث؛ منهم سفيان بن سعيد الثوري، وشريك بن عبدالله، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس، ونظراؤهم من أهل الحشو، والجمهور العظيم، وقد سموا الحشوية)[٣].

ومن مؤرخي الخوارج ـ أبو سعيد القلهاني؛ حيث يصف أهل السنة، والجماعة

(١) العودة، صفة الغرباء، ص ٧١ ـ ٧٢ بتصرف.

(٢) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ٢٤.

(٣) المقالات والفرق، ص ٦، وفرق الشيعة، ص ٦.

بقوله: (وهي الصفاتية، والحشوية من المشبهة؛ وهم الذين يثبتون لله - تعالى - صفات خبرية؛ كاليدين، والوجه، وبالغ أكثرهم في هذه الصفات إلى التشبيه بصفات المخلوقين؛ فسموا صفاتية، وسَمَّوْا نفوسَهمْ سلفية، وخلفية؛ وهم ممن تسمى بالسنَّة، والجماعة، وقد سماهم أهل الاستقامة؛ (أي الخوارج بزعمه) أهل الفرقة، وأهل الفتنة؛ لأنهم يجمعون بين قوم قد قتل بعضُهُمْ بعضًا، وسفك بعضهم دماءَ بعض، وبين القاتل، والمقتول، والظالم، والمظلوم)[1].

ولا شك أن هذه الأسماء أليق بِفِرَقِ الابتداع التي قالت بكل المقالات المنحرفة، ولم يقل بها أهل السنة، والجماعة؛ فالشيعة الأوائل، هم الذين شَبَّهوا، وكذَّبُوا، وحشوا الأخبار الباطلة، ووضعوها على رسول الله ﷺ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (هذا اللفظ بعينه: إن اللهَ جسمٌ؛ له طول، وعرض، وعمق، أول من قال به عرف أنه قاله في الإسلام شيوخ الإمامية؛ كهشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، وهذا مما اتفق عليه نقل الناقلين للمقالات في الملل والنحل من جميع الطوائف؛ مثل: أبي عيسى الوراق، وزرقان، والنوبختي، والأشعري، وابن حزم، والشَّهْرَسْتَانِي)[2].

ثم ينفي - رحمه الله - تعالى - المزاعم السابقة كلها، فيقول: (هذه المقالات التي نقلها لا تعرف عن أحد من المعروفين بمذهب أهل السنة، والجماعة، لا من أئمة أصحاب أبي حنيفة، ولا مالك، ولا الشافعي، ولا أحمد بن حنبل، لا من أهل الحديث، ولا من أهل الرأي؛ فلا يعرف في هؤلاء من قال: إن الله - تعالى - جسم، طويل، عريض، عميق، وأنه يجوز عليه المصافحة، وأن الصالحين من المسلمين يعاينونه في الدنيا، فإن كان مقصوده بجماعة الحشوية، والمشبهه بعض هؤلاء، فهو كذب ظاهر عليهم ثم قال: إن الطائفة إنما تتميز باسم رجالها، أو بنفس أحوالها؛ فالأول كما يقال - النجدات، والأزارقة، والجهمية، والنجارية، والضرارية، ونحو ذلك.

(١) القلهاني، الفرق الإسلامية، ص ١٤١.

(٢) منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٥٠١ - ٥٠٢,

وَالثَّاني ـ كما يقال: الرافضة، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والخوارج، ونحو ذلك فأما لفظ الحشوية، فليس فيه ما يدل على شخص معين، ولا مقالة معينة، فلا يدري من هم هؤلاء ـ وقد قيل إن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد، فقال: كان عبدالله بن عمر حشويًّا، وكان هذا اللفظ في اصطلاح من قاله، يريد به العامة الذين هم حشو ـ كما تقول الرافضة عن مذهب أهل السنة مذهب الجمهور، فإن كان مراده بالحشوية طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة دون غيرهم؛ كأصحاب أحمد، أو الشافعي، أو مالك ـ فمن المعلوم أن هذه المقالات لا توجد فيهم أصلًا، بل هم يكفرون من يقولها، ولو قدر أن بعضها وجد في بعضهم، فليس ذلك من خصائصهم ...، وإن كان مراده بالحشوية أهل الحديث على الإطلاق ـ؛ سواء كانوا من أصحاب هذا، أو هذا، فاعتقاد أهل الحديث هو السنة المحضة؛ لأنه هو الاعتقاد الثابت عن النبي ﷺ، وليس في اعتقاد أحد من أهل الحديث شيء من هذا، والكتب شاهدة بذلك.

وإن كان مراده بالحشوية، عموم أهل السنة، والجماعة، مطلقًا، فهذه الأقوال لا تعرف في عموم المسلمين، وأهل السنة، وجمهور المسلمين، ولا يظنون أن أحدًا قال هذا، وإذا كان في بعض جهال العامة من يقول هذا، أو أكثر من هذا لم يجز أن يجعل هذا اعتقادًا لأهل السنة والجماعة يعابون به، وإنما العيب فيما قالته رجالُ الطائفة، وعلماؤُهَا)[1].

«وأما لفظ المشبهه، فلا ريب أن أهل السنة والجماعة، والحديث من أصحاب مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وغيرهم، متفقون على تنزيه الله ـ تعالى ـ عن مماثلة الخلق، وعلى ذم المشبهة الذين يشبهون صفاته بصفات خلقه، ومتفقون على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله»[2].

● لقد حقق أهل السنة والجماعة معاني الفرقة الناجية التي أخذت دين الله بكماله بعيدًا عن البدع، والانحرافات العقدية، وعندما برزت فرق الابتداع تدعو إلى تحكيم

---

(١) منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٥١٦ ـ ٥٢٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٥٢٢,

العقل، وتقديمه على الكتاب والسنة، قام أهل السنة، والجماعة بوضع المؤلفات التي تنصر السُّنَّةَ، وأتت بالنصوص الصحيحة من السنة في العقيدة متابعين القرآن في إثبات العقائد، فظهرت المؤلفات حين اشتداد المعركة مع فرق الابتداع؛ ومنها (السُّنَّةُ) رسالة للإمام أحمد ـ يرحمه الله ـ، في عرض بعض مسائل الاعتقاد، وكتاب السُّنَّةُ، لعبدالله بن الإمام أحمد ت٢٩٠، والسُّنَّةُ، لأبي بكر بن الأشرم ت٢٧٢، والسُّنَّةُ ـ، لابن أبي عاصم في العقيدة ت٢٨٧ ، والسُّنَّةُ، للمروزي في العقيدة ت٢٩٤ ـ، وصريح السُّنَّةُ، للطبري في العقيدة ت٣١٠، والسُّنَن، للخلال في العقيدة ت٣١١، وشرح السنة، لابن أبي زمنين في العقيدة ت٣٩٩، والشرح، والإبانه لابن بطة ـ ت٣٨٧، فاشتهر إطلاق السنة على العقيدة السليمة، ومنهج السلف الصالح في أصول الدين، فإذا قيل: مذهب أهل السنة، فإن المقصود به عقيدتهم، ومذهبهم في الاعتقاد في أصول الدين)[1].

وبهذا يتضح لنا مدى استحقاق أهل السنة والجماعة لمعنى الفرقة الناجية في الحديث النبوي السابق ذكره، فهم الجماعة ـ وهم السواد الأعظم ـ وهم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية؛ بوسطيتها، وإيمانها، وسلامة معتقدها، وكونها الفرقة المنتسبة للصحابة؛ قولًا، وفعلًا، المقرَّةُ بذلك، وإن شابها بعض المخالفات، أو الضعف؛ فهي الامتداد الحق لمذهب أهل الحق الذي ارتضاه الله ـ تعالى ـ للأمة الخاتمة، قال ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، [آل عمران: ١١٠]، وهذه الأوصاف لا بد من وجودها على مر الزمان حتى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، وحاملها هم أتباع الفرقة الناجية بإذن الله.

* * * * *

(١) د. العقل، مفهوم أهل السنة والجماعة، ص ٤٤ ـ ٤٥ بتصرف.

الْفَصْلُ الثَّانِي
أَسْبَابُ الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِي؛ الْخَارِجِيَّةُ، وَالدَّاخِلِيَّةُ

تَمْهِيدٌ

لقد كثرت الآراء حول الأسباب الداخلية، والخارجية للافتراق العقدي بين المسلمين، فمن قائل أن الْفِرَقَ نشأت بسبب آثار خارجية بحتة، ومن قائل إنها نشأت بسبب أمور داخلية بحتة، ولا دخل لأرباب الأديان، والملل الأخرى في هذه النشأة.

يقول الدكتور حسام الدين الألوسي: (يجب أن يتجنب الإنسان في هذا الصدد موقفين متطرفين ـ الأول: يريد أن يلغي كل أثر مسيحي، أو يهودي، والآخر يحاول أن يرجع كل فكرة إسلامية إلى المسيحية، واليهود)[1].

ولذلك لزم الأخذ بهذه الآراء بتحفظ شديد؛ لأن جملة كبيرة من المستشرقين، والباحثين حاولوا ما استطاعوا جلب أسباب خارجية، وضخموها، واختراع أسباب داخلية مع تضخيمها أكثر مما عليه في الواقع، وَوَصَلَ الأمر ببعض المستشرقين إلى الزعم بأن كل ما جاء به الإسلام مأخوذ من أصول نصرانية، أو يهودية، أو فارسية .. ويصل التطرف بالمستشرق «دي لاسي أوليري» القول: (والحقيقة أن الثقافة الإسلامية في الأصل جزء رئيسي من المادة الهلينية الرومانية، وحتى الفقه الإسلامي قد صيغ، وتطور من أصول هلينية)[2].

ويرجع أحمد أمين بعض العقائد الإسلامية التي دلت عليها النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة، يرجعها إلى عقائد زرادشت، فيقول: (ولعلك من قراءة مذهبهم تشعر بما كان لهم من أثر كبير في المسلمين، وسيتضح ذلك تمام الوضوح عند الكلام على المذاهب الدينية، إلا أنه يصح لنا أن نذكر هنا إجمالًا أن عقيدة العامة من المسلمين في

(١) د. حسام الدين الالوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص ٩٢.

(٢) أوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ص ٦، ترجمة إسماعيل البيطار، بيروت، ١٩٨٢م.

الصراط بهذا النمط الذي يحكيه زرادشت، وفي الأعراف على هذا الوجه، وتحليق الروح على الجسد، وإقامة الشعائر لذلك ثلاثة أيام، كل هذه عقائد تشبه مشابهة تامة ما في الديانة الزرادشتية)[١].

إن الزعم بأن كل عقيدة جاء بها الإسلام ترجع إلى عقيدة أخرى سابقة عليه هو محاولة لهدم هذا الدين، وأصالته وتميزه، ومثل هذه المزاعم جاء بها المستشرقون، ومن تابعهم محاولين إبراز أثر دياناتهم في الفكر الإسلامي، وأنها كانت عوامل بناء بزعمهم، وخاصة عند حديثهم عن القدرية، وحرية الإرادة المزعومة.

ولكن المسلمين يرون أن أثر الأديان المنحرفة كان أثرًا سلبيًا في انحراف أتباع هذه الفرق عن الفكر الإسلامي الصحيح الذي جاء به الرسول ﷺ واعتقده الصحابة الكرام، والتابعون، وتابعوهم إلى يومنا الحاضر.

ونحن نرى أن الآثار الخارجية، لعبت دورها الهام في تفريق المسلمين، وهذه الآثار هي محاولة مستمرة؛ لتفريق شمل الأمة، وتحطيمها، وقد أشار القرآن الكريم إلى محاولات أهل الأديان، والملل المنحرفة، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾، [البقرة:١٠٩].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، [آل عمران:٦٩].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾، [النساء:٨٩].

وقال ـ تعالى ـ في بيان جامع عن حرص اليهود، والنصارى على إضلال المسلمين، ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾،

---

(١) فجر الإسلام، ص ١٠٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١١، ١٩٧٥م.

[البقرة ١٢٠].

وبجانب هذا التحذير الرباني من رغبة اليهود والنصارى، في تفريق الأمة، وإضلالها، فقد حذر النبي ﷺ من أتباع أهل الأديان، وانحرافاتهم، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ، لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ)!![1].

وقد صدق الواقع التاريخي وقوع هذه الآثار السلبية بجهود علماء النصارى، واليهود، ودهاقنة الفرس، والهنود في إحداث العقائد المنحرفة، وفي هذا يقول الأستاذ أنور الجندي: (غير أن الفكر البشري لم يستسلم إزاء هذه الموقعة الفاصلة بين عهدين في تاريخ البشرية ـ عهد جاهليتها، وعهد إسلامها لله ـ لم يستسلم الفكر البشري بوثنيته، وإثنينيته، وتعدده، وإلحاده، وإباحيته، وعاد يتجمع من جديد؛ ليضرب الإسلام، والفكر القرآني في أعماقه، فظهرت عشرات الفرق، والدعوات، والمذاهب من داخل الإسلام تحاول من خلال إطار زائف أن تحتضن هذه الفلسفات، والوثنيات، وتزاحم بها منهج التوحيد الخالص ـ وتتخذ من أسلوب المنطق العقلي، أو الإلهام الروحي سبيلاً إلى إعلاء مناهج التحلل، والإباحة، والخروج، عن حدود الله ـ تعالى)[2].

ومع كل هذا فلسنا مع الذين يرجعون كل ما حدث في الأمة لهذه الملل، فإن الملل المعادية لولا أنها وجدت أرضًا مناسبة؛ لزرع الفتنة، لما تمكنت من نشر ضلالاتها بين المسلمين.

● وفي مقابل تطرف القائلين بالآثار الخارجية وجدنا كذلك من يرفض الأسباب

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح رقم ٣٤٥٦، الفتح، ج٦، ص ٤٩٥، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ح رقم ٢٦٦٩، المختصر ج٢، ص ٤٢٣.

(٢) أنور الجندي، الإسلام في مواجهة الفلسفات الوثنية، ص ٢٣، دار الكتاب اللبناني.

الخارجية، ويرجع كل ما حدث في الأمة لأسباب داخلية بحتة، ويعتبر انحراف هذه الفرق عن عقائد الإسلام الصحيحة تطورًا طبيعيًا في مسار الأمة ـ؛ حيث يقول الدكتور عبدالحليم محمود: (وكل هذه المواقف كانت طبيعية لا شأن للأثر الأجنبي أو الدخيل فيها، ولكن التعصب المذهبي، أخذ يملي على أصحابه، ما شاءت الظنون، وما شاءت الأهواء تشويهًا، أو انتقاصًا لهذه الآراء التي ظهرت ظهورًا طبيعيًا؛ ولذلك يجب أن لا نعير أية أهمية، لما يذكره ابن نباتة مثلًا في سرح العيون، أو المقريزي في خططه عن أصل مذهب الجبر ـ، أو أصل مذهب الاختيار، فلسنا، ـ والحق يقال ـ بحاجة إلى سوسن نصراني، أو إلى طالوت يهودي على أن يكون أصلًا لهذه المذاهب في الإسلام، ولسنا كذلك بحاجة إلى قرائين يهود نصيبين، أو ربانيين، أو يهود عقليين؛ لتفسير نشأة الجبر، أو الاختيار في الإسلام، إذ إن نشأتها الطبيعية لا لَبْسَ فيها، ولا إبهام؟!!)[(١)].

ويؤكد الدكتور عبدالحليم رأيه هذا أثناء حديثه عن الشيعة، ونشأتهم، فيقول: (ولكنا نرى أن السبب في نشأة الشيعة لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم في الإسلام، ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة في عبدالله بن سبإ، وإنما هو أقدم من ذلك، قنواته الأولى ترجع إلى شخصية علي رضي الله عنه من جانب، وصلته بالرسول ﷺ من جانب آخر!!)[(٢)].. وبعد أن يدلل على رأيه يختم، فيقول: (ولعل فيما تقدم ما يدل على أن أصل الشيعة لم يكن يهوديًا، ولم يكن فارسيًا، كما يزعم بعض المستشرقين، وإنما نشأت الشيعة نشأة طبيعية، ونمت نموًا طبيعيًا!!)[(٣)].

إن هذا الرأي الذي أبداه الدكتور عبدالحليم تنقضه الوقائع التاريخيه لنشأة هذه الفرق التي سنبرزها، واضحة عند حديثنا عنها.

---

(١) د. عبدالحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام، ص ٢١٦، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) وص١٧٥ بتصرف.

ويرى الدكتور محمد البهي أن الأسباب الخارجية لا تكون مؤثرة في أصل العقيدة، وإنما في طريقة العرض، والمعالجة؛ حيث يقول: (فهل لهذا كله من وجود فرقة إسلامية تعتقد التشبيه، وأخرى ترى التنزيه، ومن تأخر وجود الفرق الإسلامية عن الفرق اليهودية على العموم، ومن وجود اختلاط بين اليهود، والمسلمين يصح أن ندعي تأثر التفكير الإسلامي الإلهي في التشبيه، وعدمه بعلم الكلام اليهودي في ذلك كما يميل بعض المؤلفين في تاريخ الديانات، والثقافات الدينية من الشرقيين والمستشرقين إلى القول بذلك، أم أن التفكير الإسلامي الإلهي مع وجود هذه الدواعي له استقلاله على الأقل في وجود عقيدتي التشبيه، والتنزيه، وإن لم يبق له هذا الاستقلال في توجيه الاعتقاد بهما...، ثم يقول: (ولذلك يعد مقبولًا عند التروي أن يكون تأثر المسلمين باليهود هنا في طريق جدلهم حول إثبات التشبيه، ونفيه، وفي نوع المعالجة لطرفي هذه المسألة، إن قيل بتأثر في الجملة، كما يعد أميل إلى القبول، أن يوجه التأثير، والتأثر على هذا النحو، لو ادعى تأثر اليهود في مثل ذلك بغيرهم ممن سبقهم، فالتوجيه لعقيدة ما، ونوع معالجتها هما مظنة أن تتأثر جماعة بجماعة أخرى فيهما. أما تأثر ذات العقيدة بأمر ما، فتكاد تكون أمرًا يظهر في كل جماعة إنسانية معتقدة)[1].

فالدكتور لا ينفي الأثر الخارجي، وإنما ينسبه إلى الطريقة في المعالجة، والجدل، ولكن هذا التحفظ الذي أبداه الدكتور البهي يخالف ما ثبت حقيقة من وجود شخصيات من مختلف الملل اليهودية، والنصرانية، والفارسية، والهندية، أحدثت افتراقًا عقديًا بين المسلمين ما لا يمكن إنكاره، أو التغاضي عنه.

ويرد الدكتور هاشم فرغل على ما قاله الدكتور البهي، فيقول: (وأحب أن أقول في هذا المقام، إن النزعة الإنسانية تستثار بعد خمود، أو توجه بعد غموض، بدواعي التقليد، والرواسب الثقافية في البيئة، كما أحب أن أقول إن طريقة المعالجة لفكرة ما هي مثل أصل الفكرة في أن كليهما قد يرجع فيما يرجع إليه إلى أصالة في النفس

(١) د. محمد البهي، الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي، ص ٦٢ - ٦٣، بتصرف، ج٦، وهبة، القاهرة، ١٤٠٢هـ.

الإنسانية، ونزعة كامنة فيها، وكثير من طرق العلاج ترجع إلى الإنسان بما هو إنسان إذن، فالتفسير بالنزعة الإنسانية في جانب الأصل دون المعالجة غير مقنع، ومهما يكن من أمر هذه النزعة، فهي كما قلنا بالتقليد كما بالدس تستثار، وتوجه)[1].

والصحيح الذي أعتقده في الأسباب الخارجية للافتراق العقدي أنها أسباب حقيقية أسهمت في إحداث الفرقة، وقد صادفت لتحقيق مآربها، أسبابًا داخلية، من فتن، وحروب، وجهل في أوساط بعض المسلمين، جعلت أرباب الملل المعادية، يستغلون هذه الأجواء المشحونة، فأطلقوا فيها الشبهات، والانحرافات التي استجابت لها فئات الجهل، والضلال في المجتمع الإسلامي الناشئ.

والأهم من كل هذا أن الأسباب الخارجية كانت لها دوافع ذاتية في نفوس أرباب الأديان الأخرى؛ الذين دخلوا على هذه الأمة بشتى السُّبُلِ، والوسائل للتخريب من الداخل، وقد كانت هذه السبل المنحرفة واضحة جلية لعلماء السلف الأوائل الذين حذروا منها، وكشفوا لنا بمقالاتهم التي وصلتنا كل هذه الممارسات المنحرفة.

● وبجانب الإشارة إلى الأسباب الخارجية التي أسهمت في إحداث الفرقة العقدية بين المسلمين، لا ينكر أحد أن هناك أسبابًا داخلية من فتن، وحروب، وجهل، وقد حذر القرآن الكريم من هذه الفرقة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، [الأنفال:٤٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ ﴾، [آل عمران:١٠٥].

وقد أشار النبي ﷺ إلى تغير الأحوال من بعده، وبروز الفتن، والحروب، والأثرة بين المسلمين أنفسهم، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: (أشرف النبي ﷺ على أطم من الآطام، فقال: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي أَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ مَوَاقِعَ الْقَطْرِ»[2].

وفي حديث حذيفة بن اليمان المشهور أنه قال: «كانَ الناسُ يسألونَ رسولَ اللهِ ﷺ

---

(١) د. هاشم فرغل، عوامل نشأة علم الكلام، ص ١٦٤.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ح رقم ٣٥٩٧، الفتح، ج٦، ص ٦١١.

عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية، وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال، نَعَمْ، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ»، قلت: وما دخنه ـ قال: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ، وَتُنْكِرُ»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قلت: يا رسول الله، صِفْهُمْ لنا، قال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قُلت: فما تأمرني، إن أدركني ذلك؟ قال: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمَامَهُمْ»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة، ولا إمام؟ قال: «فَاعْتَزِلْ (تِلْكَ) الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعُضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١].

فهذا الحديث فيه إشارة إلى تغير أحوال المسلمين، وحدوث الفرقة لأسباب داخلية بينهم، وقد نهى ـ عليه السلام ـ عن التنافس على الدنيا؛ لأنها من أسباب هلاكهم، وتفرقهم، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟ قال عبدالرحمن بن عوف: نكون كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»[٢].

ونهى النبي ﷺ عن اتباع المتشابه من القرآن، وعندما قرأ الآية من سورة آل عمران، قال: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرْهُمْ»[٣]، وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يحذرون من فرقة الأمة الداخلية؛

(١) البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، ح رقم ٧٠٨٤، الفتح ج١٣، ص ٣٥.

(٢) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، أوله، ح رقم ٢٩٦٢.

(٣) البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ ح رقم ٤٥٤٧، الفتح، ج٨، ص ٢٠٩.

ولذلك عاقب عمرُ ابنُ الخطاب صَبِيغًا التميمي الذي كان يجادل في متشابه القرآن، وحذر عثمان ﵁ أيضًا من الفتنة، وعواقبها، فعندما أشرف على الناس، وهو محصور قال: (أيها الناس، لا تقتلوني، واستعتبوني، فوالله، لئن قتلتموني لا تصلون جميعًا أبدًا، ولا تجاهدون عدوًّا جميعًا أبدًا، ولتختلِفُنَّ حتى تصيروا هكذا، وشبَّك بين أصابعه، وقرأ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾[1][هود: ٨٩].

وهكذا نجد أن هناك أسبابًا داخلية، معلومة، ومؤثرة كانت سببًا في انحراف المسلمين، وتفرقهم بجانب الأسباب الخارجية التي أسهمت في إذكاء الفتنة، والصراع حتى حدثت الفرقة العقدية.

وقد قصدنا من هذا التمهيد إثبات حقيقة هذه الأسباب التي سنتوسع في تفصيلها في المباحث القادمة، وحتى لا نقع فيما، وقع فيه بعض الباحثين من قصر الأسباب على خارجية فقط، أو داخلية فقط.

١ـ دَوْرُ الْيَهُودِ فِي الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ

أَثَرُ الْيَهُودِ فِي نَشْأَةِ الْفِرَقِ:

لقد واجه المسلمون في بداية دعوتهم الفتية، أتباع الديانة اليهودية المحرفة في المدينة المنورة، وقد كان علماء اليهود، وعوامهم ينتظرون مبعث نبي آخر الزمان؛ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، وقد روى ابن إسحاق قال: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن رجال من قومه قالوا: (إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله، وهداه لنا، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك، وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا، وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد، وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله ـ تعالى ـ، وعرفنا ما كانوا

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المختصر، ج١٦، ص ٢٠٦.

يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نَزَلَ هؤلاء الآيات من البقرة، ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، [البقرة: ٨٩](١).

وقال السدي: (كانت العرب تمر بيهود، فتلقى اليهود منهم أذى، وكانت اليهود تجد نعت رسول الله ﷺ محمد في التوراة، أن يبعثه الله، فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به حسدًا، وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل فما بال هذا من بني إسماعيل)(٢).

الْيَهُودُ وَعَدَاؤُهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ:

فكانت مجابهة اليهود للدعوة الإسلامية عدائية منذ عهدها الأول؛ ففي حياته ﷺ برزت أساليب اليهود الماكرة في إثارة الأسئلة، والشكوك، وإثارة الفتن بين الأنصار تارة، وبين الأنصار، والمهاجرين تارة أخرى عن طريق أتباعهم من المنافقين، وبكيدهم للمسلمين، وتأليب الأحزاب من قبائل الجزيرة؛ لمهاجمة المدينة المنورة، والقضاء على الرسول ﷺ وأتباعه، ومشاركتهم في هذه الحروب مما حدا بالرسول ﷺ إلى إخراجهم من المدينة المنورة، وتطهيرها من رجسهم، وإفسادهم.

وَقَدْ مَارَسَ الْيَهُودُ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ ﷺ ألوانًا من الحرب الفكرية، والعقدية؛ للصد عن سبيل الله، فقد كانوا يلقنون المشركين كيف يسألون رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بَعَثَتْ قريش ـ النضرَ بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصِفَا لهم صِفَتَهُ، وأخبراهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص ٢١٠، ت السقا وآخرون، ط٢، القاهرة، ١٩٧٥م.
(٢) النيسابوري، أسباب النزول، ص ٢٤، ت د. مصطفى البغا، ج١، ١٤٠٨هـ، دمشق.

لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئنا لتخبرونا عن صاحبنا، فقال لهما اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أَخْبَرَكم بهن، فهو نبيٌّ مرسلٌ، وإن لم يفعلْ، فالرجل مُتقَوِّلٌ، فَرَوا فيه رأيَكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم، فإنه كان لهم أمر عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض، ومغاربها، ما كان نبؤه؟، وسلوه عن الروح ما هو.. إلخ)[١].

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن وسائل اليهود الخبيثة لتخريب هذا الدين، والابتداع فيه منذ زمن النبي ﷺ فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، [آل عمران:٧٢].

وقد ورد في مناسبة هذه الآية عن الحسن، والسدي: (تواطأ اثنا عشر حبرًا من يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض، ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمدًا ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وبطلان دِينِهِ، فإذا فعلتم ذلك، شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب، وهم أعلم به منا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية، وأخبر نبيه محمدًا ﷺ والمؤمنين[٢].

وقد أفصحوا عن عقيدتهم الفاسدة في حق الإله في التوراة التي حَرَّفَتْهَا أيديهم إضافة إلى ما قالوه في حياة النبي ﷺ، ومن ذلك ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، [المائدة:٦٤].

وقد حفل الكتاب العزيز ببيان انحرافات اليهود في زمان أنبيائهم، وكفرهم[٣]،

(١) الطبري، جامع البيان، ج١٥، ص ١٩١,

(٢) النيسابوري، أسباب النزول، ص ٩٢ ـ ٩٣، ت د. مصطفى البغا.

(٣) لقد أحصيت في رسالة الماجستير والتي عنوانها (أثر الانحراف العقدي عند اليهود على الفكر الصهيوني المعاصر) أحصيت ما يزيد على تسعمائة وستين آية وردت في القرآن الكريم تتحدث عن اليهود وانحرافاتهم.

وحكم عليهم بالزيغ الكامل؛ الذي لا يرجى بعده أن يحملوا أمانة الدين، فأصبحوا أعداء لرسل الله، ورسالاته قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، [الصف:٥].

وفي ظل هذه الأحكام الربَّانية القاطعة بحق اليهود، وما حملته قلوبهم العليلة من الحقد، والحسد على صاحب الرسالة الخاتمة، ومحتواها، فقد اتخذ اليهود لأنفسهم جانب العداء لهذا الدين، وأهله، فلم تهدأ مؤامراتهم الدنيئة، فدخلوا في سراديب الظلام يكيدون لهذا الدين، وأهله، وقد تنامت أحقادهم، وضغائنهم ضد الإسلام، وأهله، فعكفوا على دراسة الخطط، والسبل الكفيلة بتفريق المسلمين، وإحداث البدع، والانحرافات العقدية بينهم.

مُلاحَظَاتٌ لَابُدَّ مِنْهَا حَوْلَ الْأَثَرِ الْيَهُودِيِّ فِي الْفِرَقِ:

● ولكن قبل الدخول في شرح هذا الأثر، وبيان مواقعه لا بد من تقرير الأمور التالية:-

أَوَّلًا: أن الأثر اليهودي في إحداث الفرقة العقدية بين المسلمين ما كان يقدر له النجاح لولا أنه وجد أرضًا مناسبة لعمله، ووجد من يستمع له من عوام المسلمين الجدد، ومن المنافقين الذين هم دومًا عونًا لليهود، وكل الملل الكافرة على أهل الإسلام المخلصين.

ثَانِيًا: أن الأثر اليهودي تضافرت جهوده الهدامة مع ملل أخرى حاقدة على هذا الدين، وأهله من النصارى، والمجوس، وغيرهم؛ لإحداث هذه الفرقة العقدية، وكل واحد منهم كان يعمل في نطاقه الذي يتوقع فيه نجاحه، ولعل أهم ما يميز الدور اليهودي من بين هذه الملل هو التخطيط، وإحداث العقائد الضالة، ونشرها اعتمادًا على عقائد تلك البلدان التي ناصرت فرق الابتداع في فارس، والعراق، وغيرها من البلدان.

ثَالِثًا: بجانب هذا الدور المخرب من اليهود، وقادتهم، وأحبارهم، نجد أن منهم من آمن بهذا الدين حق الإيمان، وناصره حق النصرة؛ فمنهم: الصحابة، والتابعون،

وتابعوهم إلى يوم الدين، فهناك عبدالله بن سلام الصحابي الجليل الناصح لهذه الأمة صاحب السيرة الحميدة، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وإخوانه الذين أسلموا، وكانوا من خيار التابعين، وغيرهم مما لا نعلمه، أو لم تدون أسماؤهم في الكتب، فهؤلاء، وغيرهم ممن أسلم، وأخلص في دينه، لا يجوز أن ندخلهم تحت قائمة أعداء الإسلام، كما فعل بعض الكتاب المعاصرين، فلو شككنا في إسلام كل يهودي، أو نصراني، أو فارسي، مخلص بحجة أنه كان يدين بأحد هذه الأديان لنقضنا أهم أساس من أسس هذا الدين؛ وهو أنه دين البشرية جمعاء، يدخله جميع أتباع الأمم، ويكون فيهم المخلص الصادق، ويكون فيهم المنافق الزنديق؛ فهذا القيد من الأهمية بمكان؛ لذا لزم التنويهُ.

الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ فِي التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ:

● لقد كان الأثر السلبي الذي أثاره اليهود في أوساط المسلمين مبكرًا، ولا نعرف كيف تسرب، وإن كان الافتراض الممكن، قد يكون بسبب الفضول عند العامة في سؤال أحبار اليهود، أو بسبب اختلاط المسلمين باليهود في العراق، وفارس، ومصر، والشام، واليمن؛ حيث أجلوا عن الجزيرة العربية، ويوضح هذا الأثر تلك الصرخة المدوية التي أطلقها عبدالله بن عباس رضي الله عنه؛ حيث قال : (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب؟ وقد حدثكم الله: أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: ﴿ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، [البقرة٧٩]، أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله، ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم)[١].

إن هذه الأسئلة لعلماء أهل الكتاب من اليهود، والنصارى عن القصص، أو تفسير القرآن قد أحدثت فيما بعد ما يسمى بالإسرائيليات، التي خاضت في مسائل

---

(١) البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة، ح رقم ٢٦٨٥، الفتح، ج٥، ص ٢٩١.

الإلهيات، والنبوات، والقصص القرآني، والمعاد وغيرها، فانتشرت هذه الآراء اليهودية، وروج لها ضعاف الرواة؛ حيث يقول الدكتور حسين الذهبي: (والتفسير، والحديث، كلاهما تأثر إلى حد كبير بثقافات أهل الكتاب على ما فيها من أباطيل، وأكاذيب، وكان للإسرائيليات فيها أثر سيء؛ حيث تقبلها العامة بشغف ظاهر، وتناقلها بعض الخاصة في تساهل يصل أحياناً إلى حد التسليم بها على ما فيها من سخف بيِّن وكذب صريح، الأمر الذي كاد يفسد على كثير من المسلمين عقائدهم، ويجعل الإسلام في نظر أعدائه دين خرافة، وترهات)[1]. ويخرج الدكتور الذهبي بالنتيجة التالية عن خطورة الإسرائيليات على كل عقائد المسلمين، فيقول: (إنها تفسد على المسلمين عقائدهم بما تنطوي عليه من تشبيه، وتجسيم لله ـ سبحانه ـ، ووصفه بما لا يليق بجلاله، وكماله، وبما فيها من نفي العصمة عن الأنبياء، والمرسلين، وتصويرهم في صورة من استبدت بهم شهواتهم، ودفعتهم ملذاتهم، ونزواتهم إلى قبائح، وفضائح، لا تليق بإنسان عادي، فضلًا عن أن يكون نبيًّا)[2].

(وأنها كادت تذهب بالثقة في بعض علماء السلف من الصحابة، والتابعين، فقد أسند من هذه الإسرائيليات المنكرة شيء ليس بالقليل إلى نفر من سلفنا الصالح الذين عرفوا بالثقة، والعدالة، واشتهروا بين المسلمين بالتفسير، والحديث، واعتبروا من المصادر الدينية الهامة عند المسلمين، فَاتُّهِمُوا من أجل نسبة هذه الإسرائيليات إليهم بأبشع الاتهامات، وعدهم بعض المستشرقين، ومن مشى في ركابهم من المسلمين مضللين مدسوسين على الإسلام، وأهله، ومن أكثر هؤلاء السلف نيلًا، وتحاملًا عليه، أبو هريرة وعبدالله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، ممن لهم في الإسلام قَدَمٌ راسخة)[3].

أما عن أثر الإسرائيليات في الفرق، فقد كان واسعًا، فعندما نشأت فرق الابتداع

(١) د. الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص ٢٥، ط٢، دمشق، ١٤٠٥هـ.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩.

(٣) د. الذهبي، الإسرائيليات، ص ٤٣.

المختلفة، وجدت هذه الآراء المنحرفة توافق انحرافها، فكانت مصدرًا من مصادر التعبئة الفكرية لأتباعها، فإن المبتدع لا يهمه أن يؤيد بدعته من أي المصادر التي توافقها.

فَالشِّيعَةُ مثلًا: كانت أولى مصادرها تنبع من الآراء، والعقائد الضالة التي نشرها ابن سبإ[١] منذ نشأتها الأولى، فهو أول من فرق بين الصحابة، فجعل منهم محب لعلي، وجعل منهم مبغض له، وحاشاهم ذلك، وطعن على الخلفاء السابقين على علي رضي الله عنه، وأتى بعقيدتي الوصية، والرجعة التي ما زالت من أهم أعمدة البناء الشيعي إلى وقتنا الحاضر.

الْيَهُودُ وَدَوْرُهُمْ فِي الْفِتْنَةِ، وَمَا أَعْقَبَهَا مِنَ الِافْتِرَاقِ:

وقد ساهم اليهود ـ أيضًا ـ بإثارة الفتنة بين المسلمين، وإذكائها، وما حدث فيها من اقتتال، وأحقاد أفرزت أول فرقتين كبيرتين من فرق الابتداع، فنشأ عن تلك الفتنة فرقتي الشيعة، والخوارج، يقول الدكتور نايف معروف: (إن عبدالله بن وهب الراسبي أول أمير للخوارج، كان على صلة قوية بابن سبأ؛ حيث قال الإمام الذهبي إن عبدالله ابن وهب الراسبي كان من السبئية اليمنية، وذكر المسعودي أن رسول الخوارج إلى علي رضي الله عنه يوم النهروان كان من يهود السواد، وأن أبا عبيدة معمر بن المثنى الخارجي، والذي شهر بالطعن على بعض أنساب النبي ﷺ كان جده يهوديًا، ويلاحظ أيلي سالم أن ثورات الخوارج الأولى كانت في العراق، وفارس؛ حيث يوجد عدد كبير من اليهود)، ثم يخلص إلى القول: (إن العلائق الخطيرة بين رءوس الخوارج الأول، وبين ابن سبأ، وأنصاره تجعلنا نميل إلى أن حركة الخوارج قد نمت، وترعرعت في أحضان السبئية، وأنها إحدى ولائدها التي كانت تعمل في الظلام حتى تهيأت لها الفرصة المواتية، فخرجت إلى ميدان العمل العلني بعد التحكيم)[٢].

ويوافق الدكتور ناصر العقل ما ذكره الدكتور نايف معروف، فيقول: (أول عقائد الافتراق التي ظهرت في الأمة، وهي العقائد السبئية ـ عقائد الشيعة، وأصول الخوارج ـ،

---

(١) سوف نتعرض لابن سبإ، والسبئية بتوسع أكبر عند حديثنا عن الشيعة بإذن الله.

(٢) د. نايف معروف، الخوارج، ص ٥٨ ـ ٥٩ بتصرف.

وهي أول ما سمع المسلمون، وأول ما سمع الصحابة من عقائد الافتراق، وبذور الفرقة بين المسلمين يهمس بها أصحابها همسًا، وقد قال بها شخص غريب الأطوار اختلف في اسمه، والأشهر أنه عبدالله بن سبإ، فقال بها، وأخذ يوسوس بها بين المسلمين، فاعتنقها كثير من المنافقين، ومن الكائدين الذين كادوا للإسلام، ومن الجهلة، وحدثاء السِّنِّ، ومن الموتورين الذين ظهر الإسلام على بلادهم، وعلى أديانهم، وقوض ملكهم بحمد الله، فاعتنقوا مقولات ابن سبأ، فسارت بين المسلمين سرًّا حتى ظهرت منها الشيعة، والخوارج، هذا بالنسبة لأول العقائد، ومقولات الفرق التي ظهرت بين المسلمين، وهي تخالف أصول الإسلام، وتشمل سائر أمور العقيدة)[1].

ثم يقول: (أما أول الفرق ظهورًا وافتراقًا عن إمام المسلمين، وعن جماعتهم، فهي الخوارج، والخوارج نزعة نزعت من السبئية ـ الخوارج هي سبئية، وبعض الناس يظن أن السبئية شيء، والخوارج شيء آخر، والحقيقة أن الخوارج هم نبتة من نبتات السبئية النكدة، وكذلك الشيعة...، هذا رغم ما بين الخوارج، والشيعة من بعض الفوارق، فإن الأصل واحد، وكلها نشأت عن أحداث الفتنة على عثمان رضي الله عنه التي أثارها ابن سبأ بأفكاره، وعقائده، وأعماله...، والفرق بين الخوارج والشيعة صنعه المبطلون إمعانًا في تفريق الأمة بمعنى أن ابن سبإ بذر بذورًا تناسب طائفة من أهل الأهواء، وبذورًا أخرى تناسب طائفة أخرى، وجعل بينهم شيئًا من العداء؛ لتفترق الأمة)[2].

● وفي نطاق فرقة الشيعة التي أنشأها ابن سبإ برزت مقالات التشبيه، فقالت السبئية بألوهية علي رضي الله عنه، وأنه في السحاب، وأنه لم يمت، ولا يموت حتى يسوق العرب في عصاه، مما حدا بأمير المؤمنين لإحراق هؤلاء الزنادقة، فقد ذكر ابن حجر في الفتح عن عبدالله بن شريك العامري عن أبيه قال: (قيل لعلي إن هنا قومًا على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم، فقال لهم: ويلكم ما تقولون ـ قالوا: أنت ربنا، وخالقنا، ورازقنا ـ، فقال: ويلكم إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب

(١) د. ناصر العقل، الافتراق، ص ٢٩.

(٢) د. ناصر العقل، الافتراق، ص ٣٠ ـ ٣١ بتصرف.

كما تشربون، إن أطعت الله، أثابني إن شاء، وإن عصيته، خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله، وارجعوا، فأبوا ـ فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر ـ فقال: قد والله رجعوا ـ يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم، فقالوا: كذلك، فلما كان الثالث: قال: لئن قلتم ذلك، لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنبر، ائتني بفعلة معهم مرورهم، فخد لهم أخدودًا بين المسجد، والقصر، وقال: احفروا، فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب، فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها، أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم حتى إذا احترقوا، قال:

إِنِّـي إِذَا رَأَيْـتُ أَمْـرًا مُـنْـكَـرَا أَوْقَدْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قُنْبُرَا

قال ابن حجر: وهذا سند حسن)[١].

وقد تتابعت سلسلة السبئية، والمشبهة في فرق المنصورية، والخطابية، والمغيرية، والبيانية، وظهر التشبيه بأقبح صوره في مقالات هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، فكان التشبيه جزء من عقائد الشيعة، والسبئية.

ولا شك في ذلك، فاليهود هم مشبهة ـ، وهذه توراتهم تعبر عن هذا المعنى، في أكثر مواقع حديثها عن الإله، فتصوره يمشي، ويأكل، ويراه بنو إسرائيل، ويصافحونه[٢].

الْيَهُودُ وَدَوْرُهُمْ فِي مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ:

وإذا كان الأثر اليهودي واضحًا لا شك فيه في فرق الشيعة، وعقائدها، فهو ليس بعيدًا ـ أيضًا ـ من مقالات المعتزلة، وانحرافاتها، فإن الذي تولى القول بخلق القرآن كان أبوه يهوديًّا، وهو بشر المريسي، فقد روى الخطيب البغدادي عن إسحاق بن إبراهيم قال: مررت في الطريق، فإذا بشر المريسي والناس عليه مجتمعون، فمر يهودي، فأنا سمعته يقول: لا يفسد عليكم كتابكم كما أفسد أبوه علينا التوراة[٣]؛ يعني أن

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٢، ص ٢٧٠.

(٢) سوف نعرض لهذه المسائل بالتفصيل في أماكنها عند حديثنا عن الفرق.

(٣) وهذا القول في غاية المكر من هذا اليهودي فقد ساوى بين القرآن الكريم والتوارة المحرفة من قبل والد أبي بشر المريسي؟! فيلاحظ.

أباه كان يهوديًا)[١].

وقال صالح العجلي قال: حدثني أبي قال: رأيت بشرًا المريسي ـ عليه لعنة الله ـ مرة واحدة شيخًا قصيرًا دميم المنظر، وسخ الثياب، وافر الشعر، أشبه شيء باليهود وكان أبوه يهوديًا صباغًا بالكوفة في سوق المراضع، ثم قال: لا يرحمه الله، ولقد كان فاسقًا)[٢].

وقال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ عند ترجمته لأبي داود (ت: ٢٤٠هـ): وكان داعية إلى القول بخلق القرآن، وغيره من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريسي، وأخذ بشر من الجهم بن صفوان، وأخذه الجهم من الجعد بن درهم، وأخذه الجعد من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت، وكان زنديقًا، فأفشى الزندقة)[٣].

دَوْرُ الْيَهُودِ فِي التَّرْجَمَةِ، وَنَقْلِ الْفَلْسَفَةِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ:

لقد كانت الترجمة إحدى العوامل الخطيرة التي خلطت الفكر الإسلامي بالفكر اليوناني الوثني، وكان يتولاها النصارى واليهود الذين كانوا يحرفون هذه المترجمات، تبعًا لعقائدهم التي يعتقدون بكل ما فيها من انحرافات بعيدة عن الدين الحق الذي جاء به موسى، والمسيح ـ عليهما السلام ـ، وقد أسهم اليهود في هذه الترجمات في هجمة مركزة على هذا الدين؛ لمعارضة الكتاب والسنة، وشغل المسلمين في آراء، وأفكار فلسفية لا قيمة لها، يقول حنا الفاخوري: إن ثلاثة من علماء اليهود شاركوا في حركة الترجمة، وكانوا قد أخذوا الطب عن أطباء ومترجمين نصارى)[٤].

---

(١) تاريخ بغداد، ج٧، ص ٦١.

(٢) المصدر السابق، ج٦، ص٦١، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٢٨١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٢٩٤، ط٣، ١٤٠٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) حنا الفاخوري، وخليل الجر، ج٢، ص ٢٠، ط٢، ١٤٠٢هـ، دار الجيل، بيروت.

ويقول الدكتور الألوسي: (إن هناك مدرستين يهوديتين كانت متخصصة في الترجمة؛ وهما مدرسة صورويا، ومباديثا؛ حيث ورثوا عن النساطرة علم الطب)[1].

ومما لا شك فيه أن هذه الترجمات اليهودية قد خضعت للتزييف، والتحريف، حتى تأتي بالشبه والمجادلات الفلسفية التي تؤجج الخلاف بين المسلمين الذين ارتضوا الاطلاع عليها، فراموا الرد، والبيان، فسقطوا في حبائل هذه الترجمات، ونقلوا شبهها، وانحرافاتها إلى معتقدات المسلمين، وعلومهم، ومن أبرز القضايا التي خاضت بها هذه الترجمات مسائل الألوهية، التي أدت إلى بروز المتكلمين، والفلاسفة الذين طبقوا هذه المباحث العقيمة على مسائل الصفات، وغيرها، وأصبحوا يخضعون نصوص القرآن والسنة النبوية إلى هذه المباحث الجدلية، والوثنية.

● والخلاصة التي نخرج بها عن طبيعة الأثر اليهودي أنه أثر لا ينكره أحد؛ وذلك أن اليهود قابلوا نبوة النبي ﷺ بالإنكار، والحسد، وكادوا لهذا الدين، وأهله المكائد في حياته ﷺ، وتجمعت قواهم بالخفاء أحيانًا، وبالعلن أحيانًا بعد وفاته ﷺ، فلا عجب أن يستخدموا كل الوسائل؛ للإساءة، والتخريب لعقيدة هذه الأمة، وسلوكياتها، ولعل من أبرز وسائلهم، وأخطرها على الإطلاق دخول حاخاماتهم لهذا الدين بإعلان إسلامهم المزيف المبني على الكيد، والخديعة، ومن أبرز من أعلن إسلامه، وكان منافقًا زنديقًا عبدالله بن سبإ، جاب الأمصار شرقًا، وغربًا، وجعل له صنائع فيها من المنافقين حتى أسهموا في إذكاء نار الفتنة، وإشعالها، وعندما رأى اليهود ميزة هذا المسلك بدءوا يدخلون في الإسلام علانية، فقد روى الإمام الذهبي (أن كعب الأحبار ذهب إلى بيت المقدس، فلما علم بمقدمه اليهودُ، فأتوا إليه، فقال لهم كعب: إن هذا كتاب قديم، وإنه بِلُغَتِكُمْ، فاقرءوه، ـ فقرأه قارئهم، فأتى على مكان فيه، فضرب به الأرض، فغضب نعيم (أحد مرافقي كعب)، فأخذه، وأمسكه، ثم قرأ قارئهم حتى أتى على ذلك المكان، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، [آل عمران:٨٥] فأسلم منهم اثنان وأربعون حبرًا؛ وذلك في خلافة

---
(١) الألوسي، الفلسفة الإسلامية، ص ١٠٢.

معاوية، ففرض لهم معاوية، وأعطاهم)[١].

ونحن كما سبق وقلنا لا نشك في إسلام أي ملة من الملل، إذا كانت مخلصة صادقة، ولكن ثبت أن إسلام جملة من اليهود، وغيرهم - كان قصده الدخول لمجتمع المسلمين، وزرع الشبهات في وسطه، وإثارة الفتن، والحروب، حقدًا، وحسدًا على هذا الدين الخاتم، والذي بمجيء نبيه، وكتابه انتهت النبوة، والكتاب من بني إسرائيل الذين زاغت قلوبهم عن حمل أمانة الدين، وأعطاها الله - سبحانه - لبني إسماعيل بشخص رسولنا محمد ﷺ المبعوث للعالمين نذيرًا، وبشيرًا.

ولم يقتصر عبث اليهود وأدوارهم الهدامة على فترتنا هذه - بل كان لهم من المكائد والدسائس ما لا يحصى، حتى حاضرنا المشاهد المنظور، ولكن الله حافظ لهذه الأمة، ولدينها مهما بلغ كيدهم، وتخطيطهم وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾، [الطارق١٥إلى١٧].

٢- أَثَرُ النَّصَارَى فِي نَشْأَةِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ

كان لسعة انتشار الإسلام أثناء الفتوحات الكبرى أثر كبير في انحسار معظم الأديان المهيمنة على أراضي تلك الفتوحات، وكان من أبرز هذه الأديان النصرانية التي دخل معظم أتباعها في الإسلام، وبقيت فئات قليلة متمسكة بنصرانيتها في مناطق متفرقة في بلاد الشام، ومصر، والعراق، واليمن، وغيرها، ولعل أهم ما يميز هذه البقايا، التعصب، والحقد، والكراهية للإسلام؛ كالرهبان، والقسس، وأتباع المدارس الدينية، وأرباب الفلسفة الذين كانت تسيطر عليهم آراء دينية نصرانية مختلطة بالفكر اليوناني، وغيره من الأفكار الوثنية.

وقد كان عداء هؤلاء النصارى للإسلام يتمثل في مواقف منظمة؛ وذلك من خلال

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث، ٦١ - ٨٠، ص ٢٨٨، ت د. عمر التدمري، ط١، ١٤١٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

الأسئلة، والمحاورات التي يبدو أن طابعها الاستفسار، وهي في حقيقتها شبهات تلقى في الوسط الإسلامي، ثم يتسع نطاقها فيما بعد، وقد استطاع النصارى استخدام كل الوسائل للنفوذ إلى الجدل، والنقاش مع المسلمين فدخلوا إلى دور الخلافة على أنهم أطباء، وهم في الحقيقة قسس محترفون، كانوا يلتقون مع العلماء في أثناء هذه الزيارات ويساهمون في المحاورات، والمجادلات العلمية، ولقد كان لهذا الجانب الأثر الكبير في فتح الجدال في مسائل القدر، فكان غيلان القبطي ويوحنا الدمشقي من النصارى في الذين يدخلون على الخلفاء، ويجادلون الخلفاء، والعلماء في مسائل العقيدة، وخاصة القدر، وهذا ما سنقرره في الصفحات التالية بإذن الله.

● دِرَاسَةٌ مُوجَزَةٌ لِطَبِيعَةِ النَّشَاطِ النَّصْرَانِيِّ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ:

قبل البدءِ في الحديث عن طبيعة النشاط النصراني يجب الحذر من مقالات المستشرقين الذين استطاعوا اختراع أوهام ليست صحيحة بإرجاع كل المقالات، وحتى مصادر العقيدة الإسلامية إلى أصول نصرانية، أو يهودية، وكما قال الدكتور عبدالمجيد بن حمدة عن كتابات المستشرقين: (إنها تتضمن في أغلب الحالات معلومات تبدو في شكل حقائق، وهي في الواقع نتائج خاطئة لافتراضات خاطئة، ولقد عودنا المستشرقون على الدس، والتنقيب في مظان النقص، ومظاهر الاختلاف)[1].

ومن هنا برزت شخصية يوحنا الدمشقي كمؤثر نصراني في بعض الفرق الإسلامية، وقد تنامت عوامل عدة على تنامي خطره، واتساع دائرة فساده، وسوف نعرف بهذه الشخصية حسب ما توفر لدينا من نصوص، محاولين بيان منهج المستشرقين الذي ذكره الدكتور عبدالمجيد سابقًا، بالزهو، والخيلاء عند وصفهم ليوحنا الدمشقي، فهو متمسك بنصرانيته؛ حيث يقول لويس غرديه: (ولد القديس يوحنا في دمشق نحو ٦٧٥م الموافق ٥٦هـ، وكانت هذه المدينة، قد استسلمت لجيوش المسلمين

(١) د. عبدالمجيد بن حمدة، المدارس الكلامية بأفريقية، ص ١٤، ط١، ١٤٠٦هـ، دار العرب، تونس.

في سنة٦٣٥م الموافق ١٤هـ، وإن الأسقف الذي فتح لهم الباب الشرقي كما يقول البلاذري هو ابن سرجون الملقب بالمنصور.. وإنه لأمر ذو بال حقًّا، إذا عرفنا بوضوح أن ابن سرجون هذا كان يوحنا الدمشقي حفيده)[1].

ويقال (إن راهبًا أسر في إيطاليا من قبل المسلمين، واسمه قوزما، وأحضر إلى دمشق، فأخذ عنه يوحنا اللغة اليونانية، وآدابها، والعلوم، والفلسفة، والموسيقى)[2].

وقد كان والد القديس يوحنا الدمشقي المشرف على جمع الجزية من النصارى، وقد خلف يوحنا أباه في هذه الوظيفة، ثم اعتزل في دير مارسابا، ويشير غرديه إلى أن سبب اعتزاله تلك التنظيمات الجديدة التي قام بها الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز والتي كان من أهمها الحد من سلطة أهل الكتاب يهودًا، أو نصارى من التدخل في شئون الدولة الإسلامية، وكان من أبرز هذه التنظيمات أن أصدر الخليفة أمرًا بعدم بناء كنائس، أو مجامع نصرانية جديدة، واضطرتهم الإجراءات الجديدة إلى التخلي عن كنيسة القديس يوحنا لقاء احتفاظهم بالكنائس الموجودة خارج الأبراج)[3].

فهل كانت إجراءات عمر بن عبدالعزيز دافعًا للنصارى للعمل بصورة أوسع، وأدق في الكيد للإسلام، وخاصة بعد وفاته، والذي لم يعمر طويلًا في الحكم؟ وهل عاد النصارى إلى سابق عهدهم بعد وفاته ـ رحمه الله ـ؟؛ فلذلك برزت القدرية قوية، تدعو لباطلها، بقيادة غيلان القبطي، ومساعدة يوحنا الدمشقي كل هذه التساؤلات ممكنة، والإجابة عليها قد تكون واضحة من خلال اتساع حركات الابتداع في الشام بالذات؛ حيث ظهرت القدرية، ثم ظهرت المعتزلة في العراق تحمل مقالة النصارى في نفي القدر.

يقول الدكتور النشار: (كانت الأحاديث بين النصرانية والإسلام في مبدإ الأمر

(١) غرديه وقنواتي، فلسفة الفكر الديني، ج٢، ص ٣٣، ترجمة صبحي الصالح وفريد جبر، ط٢، ١٤٠٣هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) خليل الزور، الحياة العلمية في الشام، ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤ ـ ٣٥، بتصرف.

أحاديث جدل في لين، ورقة، ثم أخذت صورة أخرى من الشدة في عهد الأمويين حين اصطدم يوحنا الدمشقي في جدال عنيف مع المسلمين حول وحدة الله، وطبيعة الكلمة، وقد اعتبر يوحنا الدمشقي الإسلام عقيدة فلسفية؛ ولذلك بدأ يعد العدة لمواجهتها، ويضع أصول الجدل مع هذه العقيدة، ويبين للمسيحيين طريق مناقشة العقائد الإسلامية، ثم بلغ النقاش بعد ذلك ذروته على يد حنا النقيوسي المصري، وقد رحل إلى الحبشة، وبدأ يرسل رسائله إلى الأقباط في مصر، يحاول فيها مناقشة العقائد الإسلامية، والحيلولة دون اعتناقهم للإسلام)[1].

إذًا كانت دوافع الجدل النصراني ليست فقط الرد على الإسلام، وإنما منع الأتباع من الدخول في الدين الجديد، ولعل هذه المحاولات استطاعت إبقاء هذه الأقليات النصرانية في مصر، وبلاد الشام، والعراق، وغيرها من بلاد الإسلام.

وينقل الأستاذ أحمد أمين صورة من هذه المجادلات التي وضعها يوحنا الدمشقي، فيقول: (إذا قال لك العربي ما تقول في المسيح ـ فقل له: إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم بما سمي المسيح في القرآن، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى القول: كلمة الله ألقاها إلى مريم، وروح منه، فإن أجاب بذلك، فأساله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة، أو غير مخلوقة، فإن قال مخلوقة، فليرد عليه، بأن الله إذن كان ولم تكن له كلمة، ولا روح ـ قال يحيى: (يوحنا)، فإن قلت ذلك ـ فستفحم العرب؛ لأن من يرى الرأي زنديق في نظر المسلمين)[2].

ويقول المستشرق بيكر (إن المناظرات بين المسلمين ونصارى الشام اضطرت المسلمين إلى تحديد أفكارهم، واتخاذ موقف في حل مشكلات دينية فلسفية، ويبني هؤلاء العلماء رأيهم على أن يوحنا الدمشقي ألف كتابًا جدليًا؛ لإثبات آراء مسيحية من القرآن، وبين فيه كيفية مجادلة المسلمين في بعض النقاط، ولكن يغلب على الظن أن هذا الكتاب ألف لإعداد النصارى داخل الكنيسة؛ للدفاع عن عقيدتهم، وذلك

---

(١) د. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص ٩٣.

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص ٣٤٣، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت.

بعد أن اتصل يوحنا في أثناء خدمته في القصر الأموي بمفكري الإسلام، ورجال الدولة، وعرف نقاط الخلاف، وكيفية إعداد النصارى لمواجهتها، والتاريخ لم يحك لنا خبر مناظرات ذات شأن، أو على نطاق واسع ولم تكن الظروف لتسمح بذلك فيما عدا دوائر الخاصة، على أنه لا بد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم في الشام أثره في تحرير العقول؟!! أما الأثر الأكبر الذي لا يدانيه غيره، فهو أولًا دخول أهل الديانات، والمذاهب الفلسفية المختلفة في الإسلام، وتفكيرهم فيه من وجهة نظر فلسفية، أو دينية أخرى، أما كتاب يوحنا فكان باليونانية فهو إذن لمن يقرؤها، ثم إن يوحنا كان موظفًا في الدولة، فالكلام في مهاجمة دينها جهارًا غير معقول، وطريقة الكتاب تدل على الحاجة إلى الدفاع أكثر من دلالتها على مجرد رغبة في نقد عقائد المسلمين)[١].

إن هذه النقاط السابق ذكرها من قبل المستشرق بيكر تبدو معقولة جدًّا، فإن يوحنا الدمشقي ما كان له أن ينتقد عقائد المسلمين جهارًا، وان الفترة التي عاشها من عمر الدولة الأموية لا تسمح له بمثل هذا النقد، فهو في حقيقته مجرد جامع للجزية من النصارى، وقد عاش في عهود زاهرة من حياة الدولة الأموية فعبدالملك بن مروان كان سيفه مسلطًا على القدرية، بقتله معبد الجهني - ثم عمر بن عبدالعزيز كان يجادل غيلان (ولم يذكر أن جادل يوحنا الدمشقي (على ما سيأتي عند حديثنا على القدرية) ثم برز غيلان في عهد هشام فقتل هشام غيلان، ولكن من الممكن القول أن يوحنا كان له دور في إذكاء المجادلات عن طريق غيلان وغيره من القدرية وإعداد النصارى داخل الكنائس، ومحاولة منعهم من دخول الإسلام لعله هو الجهد الأكبر ليوحنا، فإن الأمة في هذه المرحلة ما كان يسمح خلفاؤها لنصراني أن يهاجم عقائدها في مجالسهم أو يناصروه على علماء الأمة، وكل من قال ذلك فهي استنتاجات لا دليل عليها.

بل إن برنارد لويس يرى أن المسلمين كانوا هم البادئين في نقد عقائد النصارى،

---

(١) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٨، ترجمة عبدالهادي أبو ريدة، ط٢، ١٣٥٧هـ، مكتبة النهضة، مصر.

ولعل هذا كان دافعه الدعوة للإسلام ورغبة علماء الأمة في إسلام النصارى الباقين بينهم حيث يقول: (إن مناظرات يوحنا الدمشقي كانت لإعطاء النصارى إجابات للرد على المسلمين الذين يوجهون النقد للعقائد المسيحية وكذلك كتب تلميذ يوحنا تيودور أبو قرة بعض المحاورات التي كانت تدور حول إنكار ألوهية الرب الكلمة، وكان المسلمون كما رأينا من قبل هم البادئين بالتحدي)[١]

أما عن طبيعة آراء يوحنا الدمشقي، فيقول لويس غرديه بزهو واضح: (جاء نتاج الدمشقي ضخمًا متنوعًا، فيه الخطابة، والأشعار الدينية، والتفاسير المستلهمة من القديس يوحنا ذي الفم الذهبي، والزهديات، إلا أن العمل اللاهوتي المحض هو الأعظم شأنا، وضع معظمه في الدفاع، والجدل؛ ردًّا على محطمي الأيقونات، والنساطرة، واليعاقبة، والقائلين بالمشيئة الواحدة في المسيح، والمسلمين، والمانويين، وخرافات العوام)[٢].

ويرى الدكتور فيليب حتى (بلا دليل صحيح يسند رأيه عن مناظرات في حضرة الخلفاء) أن مناظرات يوحنا (كانت تدور حول حرية الإرادة، والقضاء والقدر، وكانت البادرة التي استهلت عهد الحركة العقلانية في الإسلام، وكان يقول إن الله خلق العالم، وتركه يجري بقوة استمراره!!.. ومن أطرف ما كتب محاورتان ساقهما بين مسلم ومسيحي، شدد فيها على ألوهية المسيح، وحرية الإرادة الإنسانية، وكان الغرض من هذا الكتاب أن يكون تبريرًا للنصرانية، ومستندًا لهداية النصارى في مناقشة المسلمين، ولعل مادته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري أمام الخليفة، ويشترك هو فيها بالذات مما يشهد على أنه كان يعرف القرآن والحديث معرفة المسلمين لها)[٣].

وهذا الزعم لعله غير صحيح؛ لأن المكتوب عن يوحنا ليس مناظرة جرت في

---

(١) برنارد لويس، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٠٥، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبدالمجيد عابدين وإسماعيل البخاري، ط٣، ١٣٩٠هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٢) غردية، فلسفة الفكر الديني، ج٢، ص ٣٦.

(٣) حتى، موجز تاريخ الشرق، ص ١٧٥ - ١٧٦.

حضرة خليفة، كما قلنا، وإنما كتابٌ كتبه في كنيسته؛ ليقرأه النصارى، كما قال بيكر، وليس معقولًا أن يحدث هذا في عهد خلفاء بني أمية، كما سبق وأوضحتُ، وقد تنبه الأستاذ أنور الجندي لشخصية يوحنا الدمشقي، فصحح بعض المفاهيم حوله، فقال: (اختلف الرأي في أمر يوحنا الدمشقي وإن لم يختلف في أنه أكبر علماء اللاهوت في الكنيسة الأرثوذكسية، وأنه حاول إيقاف الدعوة الإسلامية، فألف رسالتين على شكل محاورة بين مسيحي ومسلم في شأن ألوهية المسيح، وحرية الإرادة الإنسانية؛ الغرض منها تبرير النصرانية، والاستناد إلى أفكارها في مواجهة مفهوم التوحيد..، وقد استدرج يوحنا (بعض) المسلمين إلى القول بخلق القرآن، والصفات الإلهية؛ وهي مسائل لم يكن المسلمون يخوضون فيها، والمعروف أن الجعد بن درهم الذي قتله خالد القسري من القائلين بخلق القرآن، وكان من زملائه، غيلان، ومعبد الجهني...، ومن فتنة يوحنا الدمشقي ظهرت هذه الفئة الباغية التي وصفها المستشرقون، والغربيون، والشعوبيون العرب بأنهم أحرار الفكر؛ (أي القدرية)...، والواقع أن معبدًا، وغيلان، والجعد لم يبتكروا هذا القول بالقدر، وتعطيل الصفات، وخلق القرآن من عندهم، ولكنهم تأثروا بكتابات يوحنا الدمشقي، والصابئة الحرانية، والمانوية)[1].

نَمَاذِجُ مِنْ جِدَالِ النَّصَارَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ:

سبق أن ذكرنا نوعًا من الجدل دار بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجاثليق النصارى؛ عندما خطب خطبته الشهيرة في الجابية[2]، فكانت هذه الحادثة تصور نوعًا من الجدال، والاعتراض من قبل النصارى على عقيدة من عقائد الإسلام، ولعل النصارى ادخروا هذه الحادثة، وعملوا في الخفاء، حتى أسهموا في انحراف جملة من

---

(١) أنور الجندي، الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، ص ٤٩٢، بتصرف، دار الاعتصام، القاهرة.

(٢) انظر عبدالله بن وهب القرشي، كتاب القدر، ص ١١٣، ت د. عبدالعزيز العثيم، وانظر تهذيب ابن عساكر، ج٥، ص ١٨٠.

المحسوبين على الإسلام؛ مثل: معبد الجهني، وغيلان، فظهرت بدعة القدرية إلى الوجود، والذي يبدو من مناقشة أمير المؤمنين للجاثليق، ورده عليه أنها حدثت في جمع كبير من الناس، ولعل غالبتهم من مسلمي الفتح الجدد الذين كانوا يعتنقون النصرانية قبل إسلامهم، ويلاحظ أهمية تعقيب راوي الخبر بقوله: (حيث افترق الناس، ولا يختلف في القدر اثنان)؛ فهذا التعقيب يعني أن عقيدة القدر بهذا التوضيح قد حسمت تمامًا في نفوس الناس، واستقامت على اعتقاد الإسلام الحق في مسألة القدر.

ولكن أبرز المناقشات التي كانت تدور بين المسلمين والنصارى كانت في الشام وعن طبيعتها يقول الدكتور عمر فروخ: (وقد كان السائل دومًا أحد رجلين: إما رجلًا يطلب جوابًا يطمئن به قلبه، وإما رجلًا يريد أن يجادل؛ لإدخال البلبلة في القلوب المطمئنة)[١].

ومن هذه المجادلات ما رواه ابن عساكر عن محاورة طويلة دارت بين خالد بن يزيد ابن معاوية، ومجموعة من الرهبان النصارى؛ حيث يقول خالد بن يزيد: (كانت لي حاجة بالجزيرة، فاتخذتها طريقًا مستخفيًا، قال: فبينما أنا أسير بين أظهرهم؛ فإذا بشماسة ورهبان، وكان رجلًا لبيبًا، ولسنا ذا رأي؛ (أي الشماسة)، فقلت لهم: ما جمعكم ها هنا؟ قالوا: إن شيخًا سياحًا نلقاه في كل يوم مرة في مكانك هذا فنعرض عليه ديننا.. قال: وكنت رجلًا معنيًا بالحديث، فقلت: لو دنوت من هذا، فلعلي أسمع منه شيئًا أنتفع به، قال: فدنوت منه، فلما نظر إلي قال: ما أنت من هؤلاء، قلت أجل، قال: من أمة محمد ﷺ أنت؟ قلت: نعم، قال: من علمائهم، أو من جهالهم قال: قلت: لست من علمائهم، ولا من جهالهم ـ قال: ألستم تزعمون في كتابكم أن أهل الجنة يأكلون، ويشربون، ولا يبولون، ولا يتغوطون. قال: قلت: نعم، نقول ذلك، وهو كذلك قال: فإن لهذا مثلًا في الدنيا، فما هو: قال قلت: مثل هذا الصبي في بطن أمه يأتيه رزق الرحمن بكرة وعشيًا لا يبول، ولا يتغوط ـ قال: فتربد وجهه، وقال لي: ألم تزعم أنك لست من علمائهم. قال: قلت: بلى، ما أنا من علمائهم، ولا من جهالهم ـ

(١) د. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، ص ٢٠٨.

قال: ألستم تزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون، ولا ينقص مما في الجنة. قال: نقول ذلك، وهو كذلك ـ قال: فإن لهذا مثلًا في الدنيا فما هو: قال: قلت: مثل هذا مثل رجل أتاه الله علمًا وحكمة، وعلمه كتابه، فلو اجتمع جميع خلق الله، فتعلموا منه ما نقص من علمه شيئًا، قال: فتربد وجهه.. فقال لي: ألستم تقولون في صلاتكم: السَّلَامُ عَلينا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالحين ـ قال قلت: بلى قال: فلهي عني، ثم أقبل على أصحابه، وقال: ما بسط لأحد من الأمم ما بسط لهؤلاء من الخير، إن أحد هؤلاء إذا قال في صلاته: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لم يبق عبد صالح في السماوات والأرض إلا كتب له بها عشر حسنات[1]، ثم قال لي: ألستم تستغفرون للمؤمنين والمؤمنات، قلت بلى، فقال لأصحابه: إن أحد هؤلاء إذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات لم يبق عبد مؤمن في السماوات من الملائكة، ولا في الأرض من المؤمنين، ولا من كان في عهد آدم، أو من هو كائن إلى يوم القيامة إلا كتب الله له بها عشر حسنات، قال: ثم أقبل علي فقال: إن لهذا مثلًا في الدنيا، فما هو؟ قلت: كمثل رجل مر بملإ كثير كانوا، أو قليل ، فسلم عليهم، فردوا عليه، ودعا لهم، فدعوا له. قال: فَتَرَبَّدَ وجهه، فقال: ما رأيت في أمة محمد ﷺ من هو أعلم منك؛ فسلني عَمَّا بدا لك قال: فقلت: كيف أسأل من يزعم أن للهِ ولدًا، قال: فشق مدرعته حتى أبدى عن بطنه ـ ثم رفع يديه، فقال لا غَفَرَ الله لمن قالها؛ منها فررنا، واتخذنا الصوامع)[1].

ولو وقفنا نحلل هذا النص، لوجدنا أن هناك فضولًا جدليًا لدى الجانبين، ولعله كان من جهة النصارى؛ لطرح المعضل من المسائل التي يعرفون لها جوابًا، وأنهم كانوا يبتعدون عن الخوض في معتقدهم في المسيح، وكان المسلمون يعيبون عليهم هذا المعتقد، ولكن قد يأتيهم من المسلمين من هو ضعيف الحجة ـ وقد يضلونه، ولقد كان لذكاء خالد بن يزيد، وسرعة بديهته في الرد، دور في إبطال مرادهم في إضلاله، وزرع الشبهات في صدره.

إن هذا النموذج من المناقشات يبين الحرية الفكرية التي كان يحياها أتباع الديانات

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٨، ص ٣٤، بتصرف.

الأخرى في المجتمع الإسلامي، فقد طبق المسلمون المبدأ القرآني ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، [البقرة:٢٥٦]، ولا شك أن المجادلين المسلمين كانوا أصنافًا؛ فمنهم القوي؛ كخالد بن يزيد، ومنهم ضعيف الحجة، الذي قد يلتبس عليه شيءٌ من هذه الشبهات التي تلقي، وتزرع في نفسه انحرافًا عن معتقده الحق، فلا يستبعد أن تكون إحدى هذه المجادلات من أهم الأسباب التي أسهمت في انحراف معبد الجهني - مثلًا -، وغيره من أرباب البدع الذين انحرفوا، وأصبحوا دعاة لهذه المذاهب البدعية.

وكان النصارى يجادلون المسلمين في مسائل عقلية، ولكن الله كان يوفق لهذه الأمة من يَرُدُّ عليهم؛ فقد روى ابن عساكر عن إياس بن معاوية بن قرة - رحمه الله - تعالى - قال: كنت في الشام، وكنت صبيًّا، فاجتمع النصارى يضحكون من المسلمين، وقالوا: إنهم يزعمون أنه لا يكون تفل للطعام في الجنة، قال: قلت: يا معلم، أَلَيْسَ يزعم الناس أن أكثر الطعام يذهب في البدن - فقال: بلى، فقال: قلت فما تنكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله، فقال: أنت شيطان[1].

ويبدو من تكرار هذه الشبهات أنها قد تكون مأخوذة عن يوحنا الدمشقي، أو من توجيهات القسس، والرهبان في مجامعهم التي يدرسون فيها ديانتهم، ولا شك أن الحرب الجدلية مع النصارى قد أثمرت لصالحهم بعض ضعاف الإيمان، وضعيفي الحجة فانسلخوا عن دينهم، ورددوا مقالاتهم - كما نشاهد في وقتنا الحاضر، فيمن انسلخ عن دينه، وافتتن بالنصارى، وأصبح جنديًّا يدافع عن حضارة الغرب، وعلمانيته، وفسقه، وفجوره.

الْأَثَرُ النَّصْرَانِيُّ فِي نَشْأَةِ بَعْضِ الْفِرَقِ وَمُؤَسِّسِيهَا:

إن الباحث في أسباب الافتراق الْعَقَدِي بين المسلمين يجد أن هناك أثرًا نصرانيًّا واضحًا في نشأة بعض الفرق، وأفكار مؤسسيها، فإذا كان ابن سبأ له الدور المباشر في إذكاء نار الفتنة بين المسلمين، وتفريقهم إلى فرق متناحرة، فإن شخصية يوحنا

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٥، ص ٩٤.

الدمشقي ليست بعيدة عن هذا الجانب، إذ نظَّم النصارى أنفسهم للكيد لهذا الدين، وأهله؛ وذلك بطرح المفاهيم النصرانية عن القدر، والصفات التي تلقفها ذوو العقائد الزائفة؛ مثل: معبد الجهني، وأعلن غيلان القبطي إسلامه لهذا الهدف - أيضًا.

ولقد عزا علماء السلف قول معبد الجهني في القدر إلى النصارى؛ حيث قال مسلم ابن يسار: (إن معبدًا الجهني يقول بقول النصارى)(١)، وهذا القول من هذا التابعي الجليل لا يعني إطلاق الكلام بدون دليل، فهو يعتمد على أمرين؛ الأول نسبة القول إلى رجل من النصارى، وهو سوسنة؛ حيث قال الإمام الأوزعي: (أول من نطق في القدر، رجل من أهل العراق، يقال له سوسن، كان نصرانيًّا، فأسلم، ثم تنصر، أخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد)(٢).

والأمر الثاني: هو معرفة التابعين بطبيعة معتقد النصارى في القدر؛ ولذلك قالوا: إنه يقول بقول النصارى، فهذان الأمران يؤكدان حدوث هذا الأثر، وهو رد على من قال إنه تطور طبيعي في الفكر الإسلامي، ولكنه الانحراف، فإن العقيدة لا تخضع للتطور الذي يخالف أصولها.

ومن الآثار النصرانية في الفرق أثرهم في الفرقة الخابطية من القدرية المعتزلة؛ حيث كان صاحبهم أحمد بن خابط يقول: للخلق إلهان أحدهما قديم، والآخر مُحْدَثٌ؛ وهو عيسى بن مريم - عَلَيْهِ السَّلام - وكان يقول: عيسى بن مريم ابْنُ الله، لا على معنى الولادة، ولكن على معنى أنه تبناه، وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة، وهو الذي يقول الله - تعالى - فيه ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾، [الفجر:٢٢](٣).

وظهر الأثر النصراني في فرق الحلولية - ومنهم الحلمانية المنسوبون إلى أبي حلمان الدمشقي، وكان أصله من فارس، ومنشؤه حلب، وأظهر بدعته بدمشق، فنسب إليها،

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٢٥، ص ١١٨.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج٢٥، ص ١١٧، سوف نتوسع في دراسة شخصيات القدرية عند حديثنا عن هذه الفرقة بإذن الله.

(٣) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٢٣٩.

وكان يسجد لكل صورة حسنة)[١].

وَقَال أبو حَاتِم الرازي عن الرافضة، وشبههم بالنصارى؛ (لأنهم ضاهوا النصارى في القول في أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقالوا فيه مثل قول النصارى في المسيح ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ، فقالت الغلاة منهم في ألوهيته، كما قالت النصارى بألوهية المسيح ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا)[٢].

وقال الشهرستاني عن غلاة الشيعة ـ أيضًا ـ: (وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية، ومذاهب التناسخية، ومذاهب اليهود، والنصارى، إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسرت هذه الشبهات في أذهان الشيعة الغلاة)[٣].

ويرى زهدي جاد الله أن القدرية، والمعتزلة تأثرت تأثرًا كبيرًا بالآراء النصرانية، ويذكر تأثرهم بالقول في القدر، وأن الخير من الله، والقول بالأصلح، ونفي الصفات، والأسماء، والمجاز، والتأويل[٤]. وقال أبو الحسن الأشعري ناسبًا مقالة الجهمية إلى النصارى: (وزعمت الجهمية كما زعمت النصارى؛ لأن النصارى زعمت أن كلمة الله حواها بطن مريم، وزادت الجهمية عليهم، فزعمت أن كلام الله مخلوق حل في شجرة)[٥].

وهكذا كان لشبه النصارى الأثر الكبير في انحراف مَنِ انحرف عن منهج السلف،

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) أبي حاتم الرازي، كتاب الزينة، ص ٢٧٠، ت عبدالله السامرائي، ملحق بكتاب الغلو والغلاة في الحضارة الإسلامية، ط٣، ١٤٠٨هـ، دار واسط، بغداد.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٧٣، ت عبدالعزيز الوكيل.

(٤) زهدي جارالله، المعتزلة، ص ٢٧ ـ ٢٨، ط١، ١٩٧٤م، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.

(٥) أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ص ٨٨، ت الشيخ حماد الأنصاري، ط ١٤٠٩هـ، ط الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

ورام الرد عليهم بسلاحهم الفلسفي الذي يحملونه؛ ولذلك فإننا نخالف الأستاذ هاشم فرغل[١] بأن نشأة علم الكلام ضرورية للرد على النصارى؛ وذلك لأن اختيار منهج غير منهج السلف كان بسبب انحراف سابق للمتكلمين عن طريقة السلف، فلما نشأ علم الكلام اضطرهم إلى التخلي عن أصول، وعقائد إسلامية أصيلة اعتمادًا على أصولهم الفاسدة الجديدة التي حملوها معهم من فلسفات النصارى، واليهود.

دَوْرُ النَّصَارَى فِي تَرْجَمَةِ الثَّقَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْوَثَنِيَّةِ:

وكان من أبرز جهود النصارى ممثلة بأطبائهم، وفلاسفتهم، اللجوء إلى ترجمة المنطق اليوناني بوثنيته، وإلزاماته الفاسدة، ولقد كانت هناك جهود ذاتية من قِبَلِ النصارى للتعجيل في طرح هذه الوثنيات المعارضة للكتاب والسنة، وكان من أبرز النصارى الذين قاموا بجهود ذاتية في الترجمة (الراهب إطغانوس المصري الذي كان يعمل بمدرسة الإسكندرية، وكان يقوم بالترجمة من اليونانية، والقبطية، وبخاصة كتب الحكمة، والنجوم)[٢].

ويقول ابن النديم إن (خالد بن يزيد (ت:٥٤هـ)[٣] كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلًا في نفسه، وله همة، ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانية ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الصنعة من اللسان اليوناني، والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان، وكان باللغة الفارسية إلى العربية أيام الحجاج)[٤].

---

(١) د. هاشم فرغل، عوامل نشأة علم الكلام، ص ١٨٠، ط ١٣٩٢هـ، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

(٢) د. محمد الصادق العفيفي، التطور العلمي عند المسلمين، ص ٤٣.

(٣) وقد نفى الإمام الذهبي ما قاله ابن خلكان أنه كان يعرف الكيمياء وصنف فيها ثلاث رسائل فقال: هذا لا يصح، وقد أثنى عليه الذهبي وأنه له اهتمام بالحديث، انظر سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ٣٨٣.

(٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٣٨، دار المعرفة، بيروت.

ويقول ابن أصيبعة: (إن ماسرجون المصري - ترجم أهوارون بن أعين القسي من السريانية، ويعد من الكتب النفيسة التي تناولت الحكمة، وغيرها - ترجمه لمروان بن الحكم، ويقول - أيضًا -: إن ماسرجون كان يهودي المذهب سريانيًا، وكان في أيام بني أمية، وإنه تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهارون بن أعين إلى العربية)[1].

وكان من المترجمين - أيضًا -: أبو العلاء سالم كاتب هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥) الذي نقل رسائل أرسطو، وكان ممن يجيدون العربية، واليونانية حتى أنه أعاد النظر فيما سبق ترجمته، وأصلح الكثير من أخطائه)[2].

ويذكر ابن النديم وابن أبي أصيبعة مجموعة كبيرة من الأطباء النصارى النقلة[3]، والذين كان لهم الدور الأكبر في نقل الفلسفات اليونانية، ونشرها في أوساط المسلمين، وما كان الطب إلا غطاءً يستتر تحته هؤلاء القسس، وذلك من أجل نشر الفكر اليوناني لمعارضة علوم الكتاب والسنة؛ ولأن الكتب المترجمة لم تقتصر على الكتب الطبية، والعلمية إن وجدت، وإنما تعدتها إلى مجالات العقيدة، والحكمة، والأخلاق، والسلوك من وجهة نظر يونانية وثنية.

وبهذا يتضح لنا ذلك الهجوم النصراني الشرس على مراكز التجمع العلمي في أرض الخلافة، وتزيين ما لديهم من فكر وثني، ثم ترجمته، وكانت النتيجة إحداث غزو فكري كان له أثره في فرقة الأمة، وتشتيت جهودها، وإبعاد جملة من علمائها عن علوم الكتاب والسنة، وتوزيع الجهود؛ للاطلاع على هذا الفكر الوثني المترجم، ثم اعتناقه أو وضع مسائل العقيدة على أصوله كما فعل المعتزلة، والجهمية، وغلاة الشيعة، والباطنية، والقرامطة، وإخوان الصفا، وكل هذه الفئات المنحرفة، التي انحرفت عن التصور الصحيح للعقيدة ما هي إلا إحدى مؤثرات حركة الترجمة التي بدأت على صورة كتب طبية، ثم اتسع نطاقها لتشمل شتى مسائل العقيدة، والعلوم.

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط٤، ١٤٠٨هـ، دار الثقافة، بيروت.

(٢) الفهرست، ص ١١٧.

(٣) انظر الفهرست، ص ٣٤١، وعيون الأنباء، ج١، ص ١٧٤.

وَالْخُلَاصَةُ: أن الأثر النصراني في افتراق المسلمين لا يمكن تجاهله، أو إنكاره، وكان نطاقه محدودًا فيمن رضي بأن يكون فريسة لفلاسفة النصارى، واليونان، وعندما دخل هؤلاء الذين انخدعوا بالفكر النصراني في صراع مع علماء الأمة؛ كالقدرية، والمعتزلة، والجهمية كان نصيبهم الهزيمة، والخزي، والعار، وبقي منهج السلف هو الذي يفتخر المؤمنون بالانتساب إليه.

٣- أَثَرُ الْفُرْسِ فِي نَشْأَةِ الْفِرَقِ

لقد كانت أرض فارس مليئة بالملل، والمذاهب ذات العقائد المختلفة، والمتناقضة، وعندما جاءت جيوش الفتح الإسلامي، وسيطرت على الأرض، والإنسان في هذه البقاع الكبيرة دخل في الإسلام عدد كبير من أتباع هذه الملل، وكان منهم المؤمن المخلص الصادق، وكان منهم المنافق الزنديق، والحاقد الذي أعلن إسلامه ظاهرًا، وبقي مجوسيًّا كافرًا في باطنه، ولعل كثرة هذه العقائد، والملل المختلفة كان لها الدور الأكبر في أن أرض فارس بالذات أسهمت إسهامًا كبيرة في زرع الفرقة، والشقاق في الوسط الإسلامي، على مر تاريخه الطويل، وكان لهذه الملل رؤساء، وقادة، وكَهَنَة معابد النيران الذين اتحدت قواهم؛ لمحاربة هذا الدين الجديد، وزرع الشكوك، والشبهات، والانحرافات الْعَقَدِية بين أتباعه.

● ونظرة موجزة على عقائد الفرس تعطي ضوءًا على طبيعة هذه الملل، وكثرتها، وتشابكها؛ حيث يقول الشهرستاني عن عقائد المجوس: (أثبتوا أصلين، إلا أنهم زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزلين بل النور أزلي، والظلمة محدثة، ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها؛ أمن النور حدثت، والنور لا يحدث شرًّا جزئيًّا، فكيف يحدث أصل الشر؟ أم من شيء آخر، ولا شيء يشرك النور في الإحداث، والقدم، وبهذا يظهر خبط المجوس، ومن مذاهبهم الكيومرثية أصحاب المقدم الأول كيومرث: أثبتوا أصلين يزدان، وأهرمن، وقالوا يزدان أزلي قديم، وأهرمن محدث مخلوق)[1].

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٣٤.

ومن مذاهبهم الزرادشتية نسبة إلى زرادشت، وقولهم (إن النور، والظلمة أصلان متضادان، وكذلك يزدان، وأهرمن، وهما مبدأ موجودات العالم، وحصلت التراكيب من امتزاجهما، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة)[١]، ومن مذاهبهم الثنوية: (وهؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا: بحدوث الظلام، وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم، واختلاف في الجوهر والطبع، والفعل، والخير، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح)[٢]، ويتبع الثنوية المانوية، والمزدكية، والديصانية، والمرقيونية، والكنيوية، والصيامية، والتناسخية؛ حيث زعم (ماني أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين؛ أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم)[٣].

أما المزدكية: فزادت على المانوية قولها: (أن النور يفعل بالقصد، والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط، والاتفاق، والنور عالم حساس، والظلام جاهل أعمى)[٤]. أما الديصانية: فقد أثبتوا أصلين؛ نورًا، وظلامًا؛ فالنور يفعل الخير قصدًا، واختيارًا، والظلام يفعل الشر طبعًا، واضطرارًا، فما كان من خير، ونفع، وطيب، وحسن، فمن النور، وما كان من شر، وضرر، وفتن، وقبح فمن الظلام)[٥]، وزاد المرقيونية على من سبقها، فقالت إن هناك (أصلًا ثالثًا هو المعدل الجامع، وهو سبب المزاج؛ فإن المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع، وقالوا: إن الجامع دون النور في المرتبة، وفوق الظلمة، وحصل من الاجتماع، والامتزاج هذا العالم)[٦]. أما (الكينوية فزعموا أن الأصول

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٥٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

ثلاثة: النار، والأرض، والماء، وإنما حدثت الموجودات من هذه الأصول دون الأصلين الذين أثبتهما الثنوية)[١]، (والصيامية أمسكوا عن طيبات الرزق، وتجردوا لعبادة الله، وتوجهوا في عبادتهم إلى النيران؛ تعظيمًا لها، وأمسكوا ـ أيضًا ـ عن النكاح، والذبائح، والتناسخية، قالوا بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص إلى شخص)[٢].

إن هذه المعتقدات الفارسية سوف يكون لها أكبر الأثر في بعض الفرق التي نشأت في الوسط الإسلامي، وخاصة في فرق القدرية، والمعتزلة، وعلى نطاق أوسع في فرق الشيعة الغلاة، وغيرها من الغلاة، وهذا ما سنلاحظه في عرضنا التالي، فقد كان للفتوحات الإسلامية، الأولى التي اجتاحت أرض فارس الدور الأكبر في إحداث تغيير كبير في معتقدات أهل هذه البلاد، وهذا التغيير يمكن حصره في جانبين؛ فالجانب الأول: هو تحقيق وعد الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ في سورة النصر ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾، [سورة النصر١إلى٣]، فكانت أرض فارس كغيرها من البلاد المفتوحة أقبل أهلها على هذا الدين، ودخلوا فيه أفواجًا، وبرز منهم كبار العلماء الذين خدموا هذا الدين.

والجانب الثاني: يتمثل في أولئك الذين استمروا على معتقداتهم الوثنية، وازدادوا تعصبًا، وحقدًا، وكراهية لهذا الدين الجديد، وهم الذين نذروا أنفسهم لحرب الإسلام، والمكيدة الدائمة لأهله، هم الذين سيكون لهم الأثر الكبير في نشأة الفرق الضالة، التي هي في حقيقتها حركات مجوسية بحتة، اتخذت رداء الإسلام لتخفي تحته عقائدها، وسلوكياتها المنحرفة.

• الْأَثَرُ الْفَارِسِي فِي مُؤَسِّسِي الْفِرَقِ وَعَقَائِدِهَا

• يلاحظ الباحث في معظم فرق الابتداع أن أغلب قادتها، وأصحاب المقالات فيها هم من الموالي، وهذا المصطلح؛ أي الموالي له معنيان الأول: (ولاء العتاقة، كأن

(١)، (٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٥٤.

يعتق الرجل عبدًا، أو أمة، فيصير المعتق منسوبًا إلى المعتق بالولاء...، ثانيهما: ولاء الموالاة: وهو أن ينتمي رجل لآخر بالمخالطة، والمحالفة، فينتسب إليه، أو ينتمي إلى قبيلة من القبائل، فينسب إليها، وقد أقر الإسلام هذا النوع من الولاء)[1]، وهؤلاء إنما عرفوا في المجتمع الإسلامي بعد أن جلبهم معهم الفاتحون من الصحابة، وأكثرهم كانوا من أهل البلاد المفتوحة الذين انتسبوا بالولاء لسادات الصحابة، والفاتحين المسلمين لحمايتهم في مجتمعات جديدة غير مجتمعاتهم التي خرجوا عنها؛ حيث إن الفتح الإسلامي جعل أهل معظم الأمصار ينتقلون بحرية، فكان هؤلاء الأعاجم ينتسبون إلى قبائل العرب بالولاء، وبعضهم كانوا عبيدًا ثم انفكت عنهم هذه العبودية بسبب دفعهم أموالًا للمكاتبة، أو بسبب حركة تحرير العبيد التي كان يحض عليها الإسلام ثم انتسبوا إلى الصحابة، وغيرهم من المسلمين بالولاء.

ولكن هؤلاء الموالي - أيضًا - فيهم من هم أصحاب ديانة، وعلم، وفهم؛ كالحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، ونافع مولى عبدالله بن عمر، والزهري، وغيرهم من سادات التابعين الذين يطول حصرهم، ومنهم من هو منافق زنديق؛ كالحارث بن سعيد مُدَّعِي النبوة الكذاب، والمغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان، والجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وغيرهم من أرباب البدع، والضلال ومن هؤلاء برز قادة فرق الابتداع الذين قادتهم انحرافاتهم الذاتية عن عقيدة الإسلام للقول بهذه المبتدعات الشاذة، فقد دخلوا الإسلام؛ ليمكنوا لأنفسهم بين عامة الناس، ويخلطوا بين الإسلام، وبين ما توارثوه من عقائد باطلة، فقاموا باختلاق هذه المشكلات الْعَقَدِية، تحت مسميات عدة، فتارة تحت مسمى العقل، وضرورة ملائمة النصوص القرآنية، والنبوية له، ومن هنا نشأت دعوة رد الأحاديث النبوية، في ظل شروط التواتر التي وضعوها لقبول أحاديث العقائد، كما فعل المعتزلة، وغيرهم، ولكننا نريد أولًا أن نعطي بعض

---

(١) شمس الدين السرخسي، المبسوط، ج٣٠، ص ٣٨، ص ٤٤، بتصرف، ط٣، دار المعارف، وانظر د. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ص ١٥٠، ط١، ١٩٦٤م، دار العلم للملايين، بيروت، وانظر د. توفيق برو، تاريخ العرب القديم، ص ٢٥٩، ط١، ١٤٠٢هـ، دار الفكر، سوريا.

التفصيلات عن هذه البدع، وأربابها الذين جاءوا من فارس، وأسسوا المقالات المبتدعة في العقيدة، ففي نطاق الخوارج التي هي من أولى الفرق المبتدعة افتراقًا عن الأمة، وعندما هزمهم علي رضي الله عنه في النهروان هرب منهم اثنان إلى بلاد فارس، كما يقول البغدادي؛ (حيث فر منهم رجلان إلى سجستان، ومن أتباعهما خوارج سجستان)[١].

ويقول الدكتور على الشابي عن هذا الهروب، ونتائجه: (وقد انبث هؤلاء الدعاة في منطقة كبيرة تمتد من حدود منطقة الري إلى مشارف السند، فداخلوا الأهليين، واستغلوا نقمة المسلمين، ومنذئذ ما انفكت مقصدًا للخوارج، ومناطًا للدعوة، ومسرحًا لحروب مذهبية طيلة القرون الثلاثة الأولى)[٢]، وقد اتخذت العلاقة بين الخوارج المارقين، والفرس صورة الاتحاد في الأهداف في حرب الدولة الإسلامية التي يمثلها العرب، وفي هذا يقول الدكتور الشابي: (إن اللقاء الحاصل بين الخوارج، والفرس إثر وقعة النهروان اتخذ له أشكالًا مختلفة تتمثل في انضمام جانب من موالي البصرة، والكوفة لهم، وأظهر مثال على ذلك خروج أبي ليلى بالكوفة سنة ٤٢ مع ثلاثين خارجيًا من الموالي قتلوا جميعًا، كما تتمثل في بعض من شردوا ممن نجوا في تلك الواقعة إلى أرض إيران، ثم في تمركز المندحرين من خوارج البصرة بقيادة نافع بن الأزرق الأهواز، والمناطق الإيرانية المصاقبة لها)[٣] ومع طيلة الإقامة التي أقامها الخوارج، وكبار قادتهم في بلاد الفرس، فقد تسربت إلى فرقهم أنواع من الانحلال الذي كان يعيشه الفرس، فقالوا به في نطاق فرقهم، ومثال ذلك ما قالته فرقة الميمونية من (إجازة نكاح بنات البنين، وبنات البنات، وبنات بنات الأخوات، وبنات بني الإخوة، ويقولون إن الله حرم نكاح البنات، والأخوات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وأحل ما وراء ذلك)[٤]. قال البغدادي: ومن استحل بعض ذوات المحارم، فهو في

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨٠٩، الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٤٩.

(٢) علي الشابي، مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص ١٣٩، ط١، دار بوسلامة تونس.

(٣) د. الشابي، مباحث، ص ١٣٨.

(٤) الحميري، الحور العين، ص ٢٢٥، ت كمال مصطفى.

حكم المجوس، ولا يكون المجوسي معدودًا من فرق الإسلام)[١]، وبلغ ببعض الخوارج أن قالوا مماثلة للمجوس، (إن الله ـ عز وجل ـ يبعث رسولًا من العجم، وينزل عليه كتابًا من السماء، وينسخ بشرعه شريعة محمد ﷺ، وزعم أن أتباع ذلك النبي المنتظر هم الصابئون)[٢]، وقد قال هذا يزيد بن أبي أنيسة الخارجي، وبهذا يتضح أن الخوارج المارقين عندما انحرف بعضهم مع انحراف الفرس الذين عاشوا بينهم، فقالوا بمقالاتهم، ثم أمّلوهم بأن الله سيبعث نبيًّا من العجم!!.

وفي نطاق فرق الشيعة برز الفرس بكل قوتهم، واعتنقوا مذهب التشيع للتستر خلفه، فقد قال ابن سبأ بهذا المذهب، وعندما هرب من سيف علي رضي الله عنه عندما أراد قتله إلى المدائن؛ حيث مذاهب المجوس، والصابئة، نشر أكاذيبه حول علي رضي الله عنه واعتنق هذه العقائد الضالة جمهور كبير من أهل تلك البلاد حتى أن ابن سبأ بعث بمجموعة من هؤلاء إلى علي رضي الله عنه ليقولوا له (أنت الإله ـ أنت ربنا، فقال رضي الله عنه لهم: ارجعوا فإني علي بن أبي طالب أبي مشهور، وأمي مشهورة، وأنا ابن عم محمد ﷺ، فقالوا: لا نرجع، دع داعيك، فأحرقهم بالنار)[٣].

وبعد وفاة علي رضي الله عنه عكف هؤلاء المنحرفون من الموالي على اقتناص الفرص المتاحة لطرح ضلالاتهم، وكان أن ظهرت حركة المختار بن أبي عبيد، فقام بجانبه كيسان الفارسي يعلمه، ويلقنه الأكاذيب التي ألقاها إلى أتباعه، وجيشه الذي كان لا يسمع فيه لغة العرب؛ لغلبة الموالي عليه، والذين انضموا لهذه الحركة؛ أملًا منهم في نجاحها، ثم انقضاضهم على دولة الإسلام في حينها، فبرزت مقالات الوصي، والمهدي التي قال بها المختار عن محمد بن الحنفية، وهو كاذب في ذلك، ثم عندما توفي، زعم كيسان أن ابن الحنفية حي يرزق، وأنه بجبل رضوى عنده عسل، وماء، وقال ذلك

---

(١) الفرق بين الفرق، ص ٢٨١.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٧٩.

(٣) ابن عساكر، المختصر، ج١٢، ص ٢٢٢.

السيد الحميري في شعره المشهور)[١].

ثم برز الأثر الفارسي بقبحه، وإلحاده في شخصيات غلاة الشيعة من الموالي؛ كالمغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان التميمي، وأبي الخطاب الأجدع، وأبي منصور العجلي، وغيرهم ممن قالوا بالمقالات الكفرية.

ثم انغمست هذه الفرق الضالة بمضمون الحياة الفارسية من الانحلال، وادعاء الحلول، والتناسخ الذي قالت به عقائدهم التي سبق ذكرها.

أما في نطاق فرقة القدرية النفاة، فإن سوسنة الفارسي كان من الذين أخذ معبد الجهني عنهم مقالته في نفي القدر، فقد روى ابن عساكر عن ابن عون قال: إن أول من تكلم في القدر رجل من الأساورة يقال له سوسنة كان لحيقًا (الدعي الملتصق بغير أبيه) قال: ما سمعته قال لأحد لحيقًا غيره، فإذا ليس له تبع عليه إلا الملاحيق، ثم تكلم فيه بعده رجل يقال له معبد الجهني)[٢]، وقد نسب بعض علماء السلف بدعة القدرية إلى المجوس، فقد كان مجاهد يقول عن المبتدعة: يبدءون فيكونون مرجئة، ثم يكونون قدرية، ثم يصيرون مجوسًا)[٣]، (وسئل عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقيل له يا أبا عبدالرحمن، إن قومًا يتكلمون في القدر بشيء، فقال: أولئك يصيرون إلى أن يكونوا مجوس هذه الأمة)[٤]، ووجه المشابهة بين القدرية، والمجوس: أن المجوس قالوا إن خالق الخير هو النور، وخالق الشر هو الظلمة، وبهذا شابهت القدرية المجوس بقولهم أن لا قدر، وقولهم إن العبد خالق لفعله حتى لا ينسبوا فعل الشر لله ـ تعالى ـ بزعمهم فاتخذوا التنزيه غطاء لنفي القدر، والعلم الإلهي، متأثرين بعقائد الفرس الضالة، ثم امتد هذا التأثير الفارسي في المعتزلة، فواصل بن عطاء من الموالي، وكذلك عمرو بن عبيد (فأبوه من سبي فارس)[٥]، ثم إن أكثر مفكري المعتزلة من فارس، أو من

---

(١) الفرق بين الفرق، ص ٥٣، سوف نعرض لتفاصيل مقالات هذه الفرق في حينها، ولكننا نأتي بها هنا للاستشهاد على الأثر الفارسي فقط.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج٥، ص ١١٧.

(٣)، (٤) اللالكائي، شرح اعتقاد أهل السنة ج٤، ص ٦٤٥، وص ٦٩٨.

(٥) أنظر، ابن الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٦٦، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٨١.

الموالي؛ كأبي الهذيل العلاف، والنظام، وبشر بن المعتمر، وأبي عيسى الوراق، والخياط، وهشام الفوطي، ومحمد بن عبدالله الإسكافي، وغيرهم، وفي هذا يقول الدكتور النشار: (وفي فارس ـ أيضًا ـ، ومن فرس صيغ الإسلام صيغة معتزلية، وكان أعظم فلاسفة المعتزلة فرسًا، وفي فارس ـ أيضًا ـ وعلى أيدي علماء الفرس أخذ المذهب الأشعري صورته النهائية)[1].

وقد أسهم في كل هذه الفرق وفي نشأتها عاملان أساسيان كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ (سوء الفهم، وسوء القصد)[2]، فبجانب العجمة، وعدم فهم المراد اللغوي في مجمل النصوص الشرعية، والْعَقَدِية جاء سوء القصد، والرغبة في التخريب الْعَقَدِي، وتحريف النصوص، على الوجهة المبتدعة المخالفة لمنهج السلف، جاء ذلك في معظم فرق الابتداع التي أسهم في إنشائها العلماء الفرس، ذوو العقائد المنحرفة السابقة، وقد قال جملة من المؤرخين القدامى، والمحدثين بالرغبة في هذا التخريب، ونحن ننقلها مع تحفظنا على صيغة التعميم الواردة فيها، وذلك أننا نرى أن هذه البدع في العقائد إنما جاء بها من زاغت عقيدته، وهناك من علماء فارس من هم محل تقدير، واحترام كبير في نفوس أهل السنة؛ لأنهم من كبار علماء السلف؛ حيث يرجع ابن حزم نشأة الفرق، وخروجها على الأمة إلى شيوع الشعوبية بينهم، ورغبتهم في الانقضاض على الدولة الإسلامية لإعادة مجدها الغابر؛ حيث يقول: (والأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الْفُرْسَ كانوا في سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر في أنفسهم الأحرار، والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرًا تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي رضي الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى

(١) نشأة الفكر الفلسفي، ج٢، ص ٣٧٧.

(٢) ابن القيم، الصواعق المرسلة، ج٢، ص ٥١٠.

حتى أخرجوهم عن الإسلام)(١).

ثم يقول: (ومن هذه الأصول الملعونة حدثت الإسماعيلية، والقرامطة، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة قائلتان بالمجوسية المحضة، ثم مذهب مزدك الذي كان على عهد أنوشروان بن قباذ ملك الفرس، وكان يقول بوجوب تساوي الناس في النساء، والأموال)(٢)، ويقول أحمد أمين (مع تحفظنا على التعميم) كما سبق وقلنا: (ودخل كثير من الفرس في الإسلام، وتعلم كثير منهم العربية، حتى كان منهم في الجيل الثاني من يتكلم العربية؛ كأحد أبنائها، ولكن برغم هذا كله لم يصبحوا في جملتهم كالعرب في عقيدتهم، بل اعتنقوا الإسلام، فصبغوه بصبغة الفارسية، ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم، وتقاليده، ففهموا الإسلام بالقدر الذي يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالًا، كان من أثر ذلك أن تدخل تعاليم في الإسلام جديدة، ونزعات دينية جديدة، ظهر أثرها فيما بعد، وأظهرها في الإسلام التشيع، والتصوف)(٣). ويرى المستشرق فان فلوتن أن الفرس كانوا وراء بروز الفرق، فيقول: (ذهب هؤلاء يتلمسون سعادتهم الروحية بعيدًا عن الإسلام، وعقائده، وقد وجدت العقائد البابلية القديمة، والآرية، وغيرها الطريق إلى نفوس هؤلاء، وهكذا نشأت من اختلاط هذه العقائد بالإسلام مذاهب جديدة طالما كانت تظهر فيها العقائد الإسلامية تغمرها الأمواج المتلاطمة من الخرافات، والبدع)(٤)، ويرجع بعض الباحثين معتقد الشيعة الغالي في علي رضي الله عنه، وآل البيت إلى المعتقدات التي توارثها الفرس في حكامهم، وأكاسرتهم؛ حيث يقول المستشرق دوزي: (كانت الشيعة في حقيقتها فارسية، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنس العربي الذي يحب الحرية، وبين الجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع؛ كالعبيد، لقد كان مبدأ انتخاب خليفة للنبي ﷺ أمرًا غير معهود، ولا مفهوم؛ لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم؛

---

(١)، (٢) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج٢، ص ٢٧٣، وص ٢٧٤ بتصرف.

(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٩٨، ط١١، ١٣٩٥هـ.

(٤) فان فلوتن، السيادة العربية، ص ٨٣، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم.

ولهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد ﷺ لم يترك ولدًا يرثه، فإن عليًا هو الذي يجب أن يخلفه، وإن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي رضي الله عنه، ومن هنا فإن جميع الخلفاء ما عدا عليًا كانوا في نظرهم مغتصبين للخلافة لا تجب لهم طاعة، وقد اعتادوا أن يروا ملوكهم أحفادًا منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي، وذريته، فالطاعة المطلقة للإمام الذي من نسل علي كانت في نظرهم الواجب الأعلى، حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب استطاع بعد ذلك بغير الأئمة أن يفسر سائر الواجبات، والتكاليف تفسيرًا رمزيًا، وأن يتجاوزها، ويتعداها ـ لقد كان الإمام عندهم كل شيء إنه الله قد صار بشرًا؟!!، فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات ذلك هو الأساس في مذهبهم)[1]، ويؤيد هذا الرأي قول أوجست ملر (بأن الفرس كانوا يميلون إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسيد لروح الله الذي تنقل في أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء)[2]، ويرى درامتر (أن العناصر الفارسية التي اعتنقت الإسلام ظاهريًا أدخلت في الإسلام الفكرة الهندية الآرية التي تقول بالعائلة الإلهية المختارة التي تنقل في أصلابها النور الإلهي جيلًا بعد جيل منتهية بالمسيح المنتظر هذه الفكرة أدخلت في الإسلام، وتبلورت في آل البيت، وشخص علي)[3].

إن هذه المعتقدات الفارسية ربما أثارها عبدالله بن سبإ في أوساط الفرس الذين تشيعوا لآل البيت على أساس هذا المعتقد الفارسي القديم، وتابعه على ذلك معظم فرق الغلاة الذين ظهروا فيما بعد فقالوا بإلهية الأئمة، وأنهم يعلمون كل شيء، وبذلك كان التشيع هو الرداء الذي يخفون تحته هذه العقائد الفارسية الهدامة الباطلة.

الثَّوْرَاتُ الْفَارِسِيَّةُ وَإِسْهَامُهَا فِي نَشْأَةِ الْفِرَقِ.

● ولم يقف الأثر الفارسي عند نشر المقالات، والعقائد المنحرفة، بل ترجم هذا الانحراف إلى خروج على المجتمع الإسلامي، ومحاولة تحطيمه عن طريق الحركات الثورية المتعددة التي شارك فيها الموالي الفرس ابتداء من حركة المختار بن أبي عبيد،

(١)، (٢)، (٣) د. عرفان عبدالحميد، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص ٣٤ـ ٣٥ بتصرف.

وامتدادًا في الثورات المستمرة، وكان من أبرزها ثورة أبي مسلم الخراساني، وأتباعه الذين ألهوه، وثورة سنباذ، وثورة الأستاذسيس التي كانت تطمع للهيمنة على البلاد المفتوحة، وإعادتها إلى سيطرة الفرس، وإعادة عقائد الفرس إلى أهل هذه البلاد، وفي هذا يقول الدكتور السامرائي: «لقد كان رد الفعل هذا يتجلى في ذات الإنسان؛ فإن هذا الإنسان اندفع ليفتش عن أمثاله من المتذمرين الحانقين على الإسلام، فوجد هناك أعدادًا كبيرة منهم؛ لذلك فإن ردود الفعل الفردية التي ظهرت في بدء الدعوة الإسلامية، وفي بدء انتصار المسلمين، تحولت إلى ردود فعل جماعية منتظمة، كان منها من أعلن تمرده، ومحاربته للإسلام وسلطته، وكان منها من انتظم في أحزاب معارضة، وفِرَقٍ دينية متطرفة، عمل فيها على محاربة الإسلام فكريًّا»[١].

ويقول الدكتور هاشم فرغل: «فقد ظهرت أشكال، وزعامات جديدة لهذه المذاهب (الفارسية)؛ ظهرت الزرادشتية في أتباع بيها فريد، الذي أعلن حركته بعد عام ١٣١هـ، وتحركت المزدكية في الخرمية، وأتباعها من المسلمين، والراوندية، والبابكية، والمارزبارية»[٢].

وقد كان أبو مسلم الخراساني ينوي الاستقلال عن الخلافة العباسية؛ ولذلك رفض الحضور إلى بغداد، إلا بعد أن وعده المنصور بالأمان، ولكنه عندما حضر قتله، وقد رموه بالزندقة[٣]، وكان الفرس ينظرون إليه نظرة تقديس، وقد نسجوا حوله كثيرًا من المعتقدات الباطلة؛ «ففي سنة سبع وثلاثين ومئة، خرج سنباذ يطالب بدم أبي مسلم، وقد كان سنباذ هذا مجوسيًّا، تغلب على قومس، وأصبهان؛ فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشًا، هم عشرة آلاف فارس، عليهم جمهور بن مرار العجلي، فالتقوا في همذان والري بالمفازة، فهزم جمهور سنباذ، وقتل من أصحابه ستين ألفًا، وسبى

---

(١) د. عبدالسلام السامراني، الغلو والفرق الغالية، ص ٢٩.

(٢) د. هاشم فرغل، عوامل نشأة علم الكلام، ص ١٨٣.

(٣) انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٧٢.

ذراريهم، ونساءهم، وَقُتِلَ سنباذُ بعد ذلك، فكانت أيامه سبعين يومًا»[١].

وفي سنة١٤١هـ خرجت الراوندية للثأر لأبي مسلم الخراساني - أيضًا -، وهم يقولون بتناسخ الأرواح، فأتوا قصر المنصور، وجعلوا يطوفون حوله، ويقولون: «هذا قصر ربنا»، وأمر المنصور بحبس مجموعة منهم، ولكنهم أعدوا حيلة للوصول إلى المنصور لقتله؛ بأن أعدوا نعشًا، وجعلوا يطوفون به، حتى وصلوا إلى القصر، وخرج إليهم المنصور، ولكن معن بن زائدة نصحه بالعودة، وجرت معركة عنيفة معهم، كادوا أن يصلوا إلى القصر؛ فقام إليهم معن بن زائدة، فقاتلهم، حتى أتى على آخرهم»[٢].

وفي سنة ١٥٠هـ خرج أحد طغاتهم؛ واسمه استاذسيس، حتى استولى على عامة خراسان، وكان مصيره مصير من سبقه»[٣]. ومن الثورات الخَطِرَةِ التي قام بها الفرس ثورة المقنع الخراساني، الذي ظهر في عهد الخليفة المهدي، «وادعى الإلهية لنفسه، على مخاريق أخرجها، كان في الأول على هذا المذهب، وتابعه مبيضة ما وراء النهر؛ وهؤلاء صنف من الخرمية، دانوا بترك الفرائض، وقالوا: الدين معرفة الإمام فقط»[٤].

وقد وجَّه الخليفة إليه جيشًا كبيرًا، «وتحصن في إحدى القلاع، فلما أيقن بالهلاك، جمع نساءه، وأهله، وسقاهم السم، فأتى عليهم، وأمر أن يُحْرَقَ هو بالنار؛ لئلا يُقْدَرَ على جثته، وقيل: بل هو أحرق نفسه، وقال لأتباعه: «من أحب أن يرتفع معي إلى السماء، فليلقِ نفسه معي في هذه النار»[٥].

ومن الثورات الفارسية الخطيرة «ثورة بابك الخرمي، الذي كان هدفه القضاء على الإسلام، ومن أهم مبادئهم الإيمان بالحلول، وقالوا بحلول روح الله بجسد بابك الخرمي، تعالى الله عن قولهم، وتؤمن بالتناسخ، وأباحوا النساء، وسائر الشهوات،

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٣٨٨.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ٣٩٥.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٤٩٦.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٥٤.

(٥) ابن كثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٥٨.

وطبّقوا ذلك، وكانوا يجتمعون في صعيد واحد»[١]. واستمرت هذه الثورة التي اشترك فيها أعداد هائلة من الفرس ما يزيد على عشرين عامًا، حتى استطاع الأفشين في عهد المعتصم القضاء عليها[٢]، ويقول الدكتور النَّشَّار عن هذه الحركة: «بقي عشرين عامًا يحارب المأمون، ثم المعتصم، حربًا عنيفة، وقتل من المسلمين أعدادًا لا يمكن حصرها، وقد اعتبر المؤرخون، على اختلاف منازعهم، مقتله، والقضاء عليه، أعظم نصر للإسلام؛ حيث يقول المقدسي: وكان ذلك من أعظم الفتوح في الإسلام ويوم قُبِضَ عليه كان عيدًا للمسلمين»[٣]. لقد كانت هذه الثورات الفارسية تمثل قمة الغلو الفارسي في التلبس بعقائدهم السابقة، ولقد قامت هذه الثورات في العصر العباسي؛ لأن الفرس استطاعوا، في هذه الفترة، التي سبقت قيام الدولة العباسية، التجمعَ، والتلاقيَ، وتمحيص الفكر الفارسي، في نفوس أتباعهم؛ حتى استطاعوا القيام بمثل هذه الحركات؛ وذلك أن مفاجأة الإسلام لهم أوهنت في نفوسهم سُبُلَ التنظيم، والالتقاء، فلما ظهرت الحركات الشيعيَّة المختلفة، انضموا تحت لوائها، وساندوا الدعوة العباسية، حتى إذا استلمت مقاليد الأمور، ومالت إلى مذهب أهل السنة والجماعة؛ وخاصة في أول عهدها، كانت هذه المجموعات الشعوبية المتعصبة قد استعدت مبكرًا للانقضاض على الدولة الإسلامية، والبدء في حربها على هذه الشاكلة، وبهذه الأعداد الهائلة، التي احتقنت نفوسهم بالكراهية لهذا الدين وأهله.

فنشأة هذه الحركات الثورية كانت تبعًا لنشأة الفرق التي احتضنت هؤلاء المنافقين، الذين انطلقوا يحاربون الأمة بأجمعها، تَحْدُوهُمُ الروح الفارسية المعبئة بعقائد الثنوية، والمجوسية، والحلول، والتناسخ، والانحلال الخلقي بشتى أنواعه، ولكن الله ـ عز وجل ـ هيأ لهذه الأمة من رد عنها غائلة هذه الفرق الضالة، التي تلبست فيما بعد بلباس التشيع، والفاطميين، والإسماعيليين، حتى سيطروا على مساحات هائلة من العالم

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ١٨٤، وأنظر الديلمي، بيان مذهب الباطنية، ص ٢٤.
(٢) ابن الأثير، ج٥، ص ٢٣٤.
(٣) د. النشار، نشأة الفكر، ج١، ص ٢٠٩.

الإسلامي، ونشروا فسقهم، وفجورهم، وانحرافهم الْعَقَدِي، ثم انحسرت دعواتهم الباطلة، ولكنها استمرت في مناطق شتى من العالم الإسلامي؛ كما هو مشاهد، ومنظور!!

● دَوْرُ الْفُرْسِ فِي التَّرْجَمَةِ وَأَثَرُهُ فِي نَشْأَةِ الْفِرَقِ

لقد كانت الترجمة التي قام بها بعض أبناء الفرس تمثل التعبئة الفكرية لأتباعهم، ومَنِ انحرف بانحرافهم، وهي تمثل طرحًا معاديًا للكتاب والسنة، وطعنًا في الأديان عمومًا، والتشكيك في كل ذلك، وكان أول المترجمين المعروف بزندقته وإلحاده عبدالله بن المقفع، الذي ترجم مجموعة من الكتب الهندية، والفارسية، إلى العربية؛ حيث يقول البيروني (ت:٤٤٠) عن كتاب «كليلة ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع: «بودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب «بنج تنتر»؛ وهو المعروف عندنا بكتاب «كليلة ودمنة»؛ فإنه تردد بين الفارسية، والهندية، ثم العربية، والفارسية على السنة، قوم لا يُؤْمَنُ تغييرهم إياه؛ كعبدالله بن المقفع في زيادته باب «برزويه» فيه؛ قاصدًا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب «المنانية»، وإذا كان متهمًا فيما زاد، لم يَخْلُ عن مثله فيما نقل»[(١)]، ويقول في موضع آخر: «ثم جاءت طامَّة أخرى من جهة الزنادقة أصحاب «ماني»؛ كابن المقفع، وكعبدالكريم بن أبي العوجاء، وأمثالهم؛ فشككوا ضِعَافَ الغرائز في الواحد الأول؛ من جهة التعديل، والتجوير، وأمالوهم إلى التثنية، وزينوا عندهم سيرة «ماني»؛ حتى اعتصموا بحبله»[(٢)].

ويقول الدكتور النَّشَّار عن ابن المقفع: «كان روزبه هو الاسم الفارسي القديم لعبدالله بن المقفع؛ أكبر أعداء الإسلام على الإطلاق، قضى أكبر سِنِي حياته في عهد الدولة الأموية، وكان زرادشتيًا؛ لاشتهاره بالقيام بطقوس المجوس عامَّة، وقيل كان مانويا مزدكيًا، وقد قام بترجمة كتاب مزدك المعروف باسم «ديستاو»؛ لينشر العقائد المزدكية، وسنرى عمله هذا يؤتي ثماره البغيضة؛ فسرعان ما تتكون، في أوائل العصر

(١) البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، ص ١١١، ط٢، سنة ١٤٠٣هـ، عالم الكتب، بيروت.
(٢) البيروني، المصدر السابق، ص ١٩٦.

العباسي، فرق مزدكية كثيرة، كما أنه كتب كتاب «الدُّرَّة اليتيمة» في معارضة القرآن، غير أن أهم كتاب قام بترجمته هو كتاب «كليلة ودمنة»، وقد ضمن هذا الكتاب باب «برزويه»، وهذا الباب من أخطر الأبواب في نقد الأديان؛ يتكلم عن تعارض الأديان، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها، بينما يعتبر العقل وحده أعظم وسيلة، وأفضلها، للمعرفة، كان ابن المقفع يرمي إلى نشر الإلحاد والتحلل، في الإسلام بالذات»[١].

وقد كان مضمون هذه الكتب المترجمة ـ كما سبق وقلت ـ مضمونًا إلحاديًّا تخريبيًّا، موجَّهًا إلى العرب، وخاصَّة الذين مالوا للطرق الفلسفية، الباحثين عن معرفةٍ خارجة عن الكتاب والسنة، وقد عبثت بهذه الترجمات عقول وقلوب الزنادقة والشعوبيين، الذين انطلقوا يطعنون بالإسلام، ويجدون في مثل هذه الكتب ما يعينهم على حربهم الظالمة ضد هذا الدين وأهله، ثم امتدت أيدي هؤلاء الزنادقة إلى آيات القرآن الكريم بالتأويل، والزعم أن لها باطنًا وظاهرًا، ثم قاموا بوضع الأحاديث المكذوبة؛ للطعن على الرسول ﷺ، والصحابة، وأهل الحديث؛ وكل هذا اتِّباعًا لمنهج التراجمة، الذين أباحوا لأنفسهم وضع الأكاذيب، والقيام بهذه الهجمة المسعورة لمحاربة هذا الدين وأهله، ولكن الله حفظ دينه، وأظهره على الدين كله، فقد كان مصير هؤلاء الزنادقة، وأولهم ابن المقفع، الخزي، والعار، والقتل، بعد أن اتضحت خفايا نفوسهم القذرة؛ «فقد قُتِلَ على الزندقة سنة خمس وأربعين ومئة»[٢]، كان المهدي بن المنصور الخليفة يقول: «ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع»[٣].

وهكذا كان الأثر الفارسي شديد الوطأة على أتباعه السابقين، وعلى فرق الشيعة، إلى يومنا الحالي؛ حيث بدأ متخفيًا بحب آل البيت، ثم تغلغل أتباعه بعقائدهم الباطلة في معظم الحركات المناوئة لدول الإسلام، وراموا هدم دولها، والسيطرة عليها، ثم نثروا في ترجماتهم تراثهم، وتراث الهنود، بزندقته، وإلحاده؛ لمزاحمة القرآن والسنة،

---

(١) النشار، نشأة الفكر، ج١، ص ٢٠٤.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ١٥٣.

(٣) ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٥١.

والطعن في سلف الأمة؛ من صحابه، وتابعين، وتابعيهم إلى يوم الدين، وأسَّسوا مذاهبهم لتأخذ طابع الاستمرار للعداء لهذه الأمة، وجعلوها خصومة لا تنتهي بين الخلفاء الراشدين الثلاثة، وبين علي، خلاف توهموه، وسطَّروه، وهو أكذوبة، حتى أصبح حقيقة عقدية عندهم، لا تقبل النقاش؛ فانحازوا بفارسيتهم عن العالم الإسلامي، وعن أهل السنة والجماعة، بهذه المذاهب المشوبة بالعقائد الفارسية، وما زالت مناوأتهم لأهل الحق قائمة، لا تنتهي.

٤ـ الْأَثَرُ الْهِنْدِيُّ فِي نَشْأَةِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لا بد لنا قبل عرض الأثر الهندي في الفرق الإسلامية من عرض موجز لبعض عقائدهم، التي وصل أثرها إلى العالم الإسلامي؛ حيث يجمل الشهرستاني عقائد الهند؛ فيقول «عنهم البراهمة، وهم المنكرون للنبوات أصلًا، ومنهم من يميل إلى الدهر، ومنهم من يميل إلى مذهب الثنوية، ويقول بملة إبراهيم ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ، وأكثرهم على مذهب الصابئة، ومناهجها، فمن قائل بالروحانيات، ومن قائل بالهياكل، ومن قائل بالأصنام، إلا أنهم مختلفون في شكل الهياكل التي ابتدعوها، وكيفية أشكال وضعوها، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين؛ علمًا، وعملًا»[1].

(فالديانة البرهمية، التي يرجع وجودها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تُنْسَبُ إلى رجل منهم، يُقَال له براهم، وقد مهد له نفي النبوات أصلًا، وقرر استحالة ذلك في العقول»[2]، «ثم إن البراهمة تفرقوا أصنافًا؛ فمنهم أصحاب البددة، ومنهم أصحاب الفكرة، ومنهم أصحاب التناسخ، ومعنى البد عندهم شخص في هذا العالم، لا يُولد، ولا يَنْكِح، ولا يَطْعَمُ، ولا يشرب، ولا يهرَمُ، ولا يموت»[3]، «وأما أصحاب الفكرة، منهم العلماء بالفلك، والنجوم، وأحكامها المنسوبة إليها، وهم يعظِّمون الفكر، ويقولون هو المتوسط؛ فهم القائلون إن الأكوار، والأدوار، تتكرر إلى ما لا نهاية،

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥٠٦.

(٢) الشهرستاني، مصدر سابق، ص ٥٠٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٠٨.

ويحدث في كل دور ما حدث في الأول، والثواب، والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها»(١)، ويقول البيروني عن عقيدة التناسخ عند الهنود: «ونظرتهم أن الأرواح لا تموت، ولا تفنى، ولكنها تنتقل من بدن إلى بدن، من الأرذل إلى الأفضل، دون عكسه؛ لتترقى النفس في الكمال، حتى يتحقق شوقها، ويتحد العاقل، والعقل، والمعقول، ويصير واحدًا، والأرواح الشريرة تتردد في النبات، ومرذول الهوام»(٢).

ومنهم السمنية الذين يثبتون الحقيقة، لكنهم يَنفون بعض الحقائق؛ إذ هم منكرون لما يُشاهد بالحواس الخمس: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس؛ فأبطلوا المعقولات، ومخبر الأخبار المتواترة، ونحوها)(٣).

هذه بعض آراء الهنود الْعَقَدِية التي كان لها أثر فيما بعد في فرق غلاة الشيعة، القائلين بالحلول والتناسخ، وكان للسمنية أثر في انحراف الجهم عن العقيدة الحقة، عندما جادلوه، وهذا ما سنراه فيما بعد، إلا أننا نقدم مقدمة عن بداية العلاقة بين المسلمين والهنود؛ فالمسلمون كان لهم اهتمام مبكر في الهند، تمثلها رغبة الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه في نشر الدعوة الإسلامية فيها؛ مما حدا به إلى «بعث حكيم بن جبلة العبدي إلى السند، فنزلها، ثم قدم عثمان، فسأله عنها، فقال: «ماؤها وشل (أي قليل)، ولصُّها بطل، وسهلها جبل، إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا»، فلم يوجه عثمان إليها أحدًا حتى قُتِلَ»(٤).

قال ابن حزم: «ثم لم تزل السند تُغْزَى إلى زمان زياد بن أبيه (ت:٥٣هـ)؛ فإنه وجَّه إليها سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي (مات في إمارة الحجاج)، ففتح مكران عنوة، وسكنها، ثم لم تزل إلى أن ولاها الحجاجُ بن يوسف (ت:٩٥) محمدَ بن

---

(١) المصدر السابق، ص ٥١٠.

(٢) البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، ص ٣٩.

(٣) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ٥٥.

(٤) ابن عبدالبر، الاستيعاب، بهامش الإصابة، ج١، ص ٣٢٤، وابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص ٤٤.

القاسم الثقفي (ت:٩٨)، ففتح باقي السند»[1]، وكان من أكبر غنائمه السبي الكثير الذي جلبه معه، «والذي انتشر في البلاد الإسلامية، وأصبح الجيل السندي عنصرًا من العناصر المكونة للأمة الإسلامية، وازدهرت التجارة، وكثرت التنقلات في المملكة الإسلامية، وكذلك تنقلات المسلمين في البلاد الهندية، وأصبح هناك تبادل ثقافي، بجانب التبادل التجاري»[2]، والحقيقة أنه ليس تبادلًا ثقافيًا، بل محاولات للهدم والتخريب من السمنية، وزنادقة الهنود؛ للصد عن سبيل الله، وإثارة الشبهات والشكوك في المجتمع الإسلامي، يقابله انعتاق الهنود من عبودية الكفر، والطبقات، والظلم الكبير الذي كان يعانيه المجتمع الهندي، ثم تقبُّله لعقيدة الإسلام، وانخراط المؤمنين فيه، وبقاء أتباع الكهنة، ومن لم يرضَ الله له الهداية بقي على كفره، وشركه، وكل ذلك بمشيئة الله، وإرادته، وحكمته ـ سبحانه وتعالى.

ويقول حنا الفاخوري، وخليل الجر إن الاتصال مع الهنود كان مبكرًا في عهد الدولة الأُموية؛ فيقولا: «وقد عرف المسلمون الرهبان الرحل من البوذيين، أو من الذين قلدوا طريقة عيشهم، ونظرتهم إلى الحياة، وكانوا كثيرين بين مسلمي بلاد الشام، والعراق في عهد الدولة الأموية، وعهد بني العباس»[3].

ولا يُعْلم إن كان هناك هنود شاركوا في ترجمة الفكر الوثني الهندي إلى اللغة العربية، لكن الثابت أن التراجمة الفرس قد نقلوا ذلك الفكر إلى المجتمع الإسلامي؛ لمزاحمة الكتاب والسنة، وتشتيت المسلمين عن طريق إشغالهم في الخرافات الوثنية الهندية، والقصص الهندي الذي قام بترجمته عبدالله بن المقنع، كما سبق وأشرنا إليه من ترجمته لكتاب «كليلة ودمنة»، وكانت الترجمة غير أمينة؛ حيث يقول الدكتور النَّشَّار: «اتصل المسلمون بمذاهب الهنود عن طريق البصرة، سواء من فارس، أو من الهند، انتشر السنديون في البصرة وغيرها، ثم نقلت آراءهم، وكتبهم من الفارسية،

(١) ابن حزم، موجز تاريخ الإسلام، ص ٩٦، ط١، ١٤٠٩هـ، دار الإيمان، ت بديع اللحام.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ج١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣ بتصرف.

(٣) فاخوري والجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج١، ص ٥٩٥.

ومن السنسكريتية، وتصدى مفكرو الإسلام لهم»[١].

ومتابعة لمحاولات الموالي من الفرس والهنود تخريب العقيدة الإسلامية، وطرح الآراء الضالة في وسطهم؛ فقد اعتنت أسرة البرامكة في ترجمة كتب الهنود، ونشرها على الناس في الخلافة العباسية؛ فقد ذكر ذلك ابن النديم؛ فقال: «حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند؛ ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم، وأن يكتب له أديانهم؛ فكتب إليه كتاب «مذاهب الهند»، قال محمد بن إسحق: الذي عُنِيَ بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد، وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند، وإحضارها علماء طبها، وحكماءها»[٢].

ولعل الهنود عندما انتشر الإسلام بينهم، وآمن به المخلصون حق الإيمان، وحَقَدَ عليه المنافقون أشد الحقد؛ فأخذوا منه جانبًا من جوانبه الظاهرة، وبقيت قلوبهم معلقة بعقائد التناسخ والحلول، التي انتشرت فيما بعد في وسط فرق الغلاة والصوفية الذين انتشروا في شتى بقاع الإسلام، ثم إن إحضار البرامكة لهؤلاء الهنود الموصوفين بأنهم أطباء وحكماء، لعل هؤلاء كان لهم دور في الكتابة أو الترجمة، أو الدعوة لمعتقدات باطلة في صفوف المسلمين، أو نشر سبل التصوف الغالي، وإمداد فرق الغلاة بطرائق الهنود الْعَقَدِية في الحلول والتناسخ، وغيرها، التي اتحدت مع الدعوات الفارسية، التي استخدمت كل وسائل التعبئة الْعَقَدِية المخالفة للإسلام، وللقرآن، والسنة. أما عن دور الهنود في نشأة الفرق الضالة في العالم الإسلامي، فإن هذا يبدو واضحًا جليًا في النشاط الهدَّام الذي قام به بعض دعاة السمنية المشركين، الذين كان لهم الأثر الأكبر في انحراف الجهم بن صفوان؛ ومن ثم بروز فرقة الجهمية، ومقالاتها الضالة، في نفي الصفات؛ فقد روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فقال: «إنه كان مما بلغنا من أمر الجهم، عدو الله، أنه كان من أهل خراسان، من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات، وكلام، وكان أكثر كلامه في الله ـ تعالى ـ، فلقي أناسًا من المشركين، يقال لهم

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص ٢٢٠.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٨٤.

السمنية، فعرفوا الجهم، فقالوا له: نكلمك، فإن ظَهَرَت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك؛ فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألست تزعم أن لك إلهًا؟ قال الجهم: نعم، فقالوا له: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا، قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قالوا: فشممتَ له رائحة؟ قال: لا، قالوا: فوجدتَ له حسًّا؟ قال: لا، قالوا: فوجدت له مجسًّا؟ قال: لا، قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم؛ فلم يدر من يعبد أربعين يومًا، ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى؛ وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله، من ذات الله، فإذا أراد أن يُحْدِثَ أمرًا دخل في بعض خلقه، فتكلم على لسان خلقه، فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار، فاستدرك حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني: ألست تزعم أن فيك روحًا؟ قال: نعم، فقال: هل رأيت روحك؟ قال: لا، قال: فسمعتَ كلامه؟ قال: لا، قال: فوجدت له حسًّا، أو مجسًّا؟ قال: لا، قال: فكذلك الله؛ لا يُرَى له وجه، ولا يُسْمع له صوت، ولا يُشَمُّ له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان... إلخ»[1].

ومن هذه المناقشة برزت الجهمية التي كان صاحبها متلبسًا بعقائد الفرس، مع أستاذه الجعد بن درهم، المتهم بالمانوية، والزندقة؛ فكل هذه العوامل أسهمت في انحراف الجهم، وقيامه بالدعوة إلى نفي الصفات، وفصل الإيمان عن العمل، والقول بالجبر، في ضلالات كثيرة، تشمل معظم مسائل العقيدة.

وكان للسمنية ـ أيضًا ـ دور في بروز المعتزلة والزنادقة؛ فقد روى الأصفهاني «أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى، وصالح بن عبدالقدوس، وعبدالكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد، قال أبو أحمد جرير بن حازم: «فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي، ويختصمون عنده، فأما عمرو بن عبيد، وواصل، فصاروا إلى الاعتزال، وأما الأزدي، فمال إلى قول السمنية؛

---

(١) عقائد السلف، أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٦٥ ـ ٦٦، جمع د. النشار وطالبي.

وهو مذهب من مذاهب الهند»[١].

فإذا صح هذا النص، فإنه يبدو لنا أن مجالس الثنوية، والمجوس، والهنود السرية كانت تؤسس المذاهب المبتدعة عند اقتناصها لأمثال هؤلاء؛ فكانت طريقة الجدال والنقاش تؤدي إلى انحراف من يدافعون، بزعمهم، عن الإسلام؛ لتخرج منهم فكرًا مشوَّهًا؛ كما أخرجت مثل هذه المجالس اعتزال واصل، وعمرو بن عبيد، والزنادقة المشار إليهم في النص السابق، وكما أنتج النقاش الذي قام به السمنية مع الجهم رجلًا متحيرًا مخلطًا، قاده تحيره ذلك إلى ابتداع منهج الضلالة، واستغنائه تمامًا عن منهج الرسول ﷺ، والصحابة، والتابعين، في إثبات الصفات، والإيمان بها، إلى نقيض ذلك، والقول بتعطيلها، ونفيها، وهذه النتيجة ليست مستغربة من أولئك الذين فضلوا مجالس الثنوية، والمجوس، على مجالس العلم الإسلامي، بل إن هذه المجالس المشبوهة قد تكون هي التي دفعت واصلًا، وعمر بن عبيد، إلى التشويش على مجلس الحسن البصري، وطرح ضلالتهم في المنزلة بين المنزلتين، التي كانت مقدمة منهم للقول في نفي الصفات، وغيرها من الضلالات.

ثم برز الأثر الهندي متحالفًا مع الفكر الفارسي، في الحركات الباطنية القائلة بالحلول والتناسخ؛ كالبيانية، والمغيرية، والخابطية، من المعتزلة»[٢].

ولعل مقالات النفاة، والمشبهة، كما يقول البيروني، كان للفكر الهندي بها دوره؛ حيث يقول: «إن بعض خواصهم يسمي الله ـ تعالى ـ «نقطة»؛ ليبرئه عن صفات الأجسام، ثم يطالع ذلك عاميُّهم، فيظن أنه عظَّمه بالتصغير، ولا يبلغ به فهمه إلى تحقيق النقطة، فيتجاوز سماجة التشبيه، والتحديد، إلى قوله: إنه بطول اثني عشر إصبعًا في عرض عشر أصابع، تعالى عن التحديد والتعديد.

ومثل ما حكيناه؛ من إحاطته بالكل، حتى لا يخفى عليه خافية؛ فيظن عاميهم أن

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص ١٤٦، دار صادر، بيروت، وسوف نعالج هذا النص بتوسع عند حديثنا عن واصل بإذن الله.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥.

الإحاطة تكون بالبصر، والبصر بالعين، والعينان أفضل من العور، فيصفه بألف عبارة عن كمال العلم، وأمثال هذه الخرافات الشنيعة عندهم موجودة، وخاصَّة في الطبقات التي لم يُسَوَّغْ لهم تعاطي العلم»[١].

ويقول الأستاذ أحمد أمين: «وفي قصص «ألف ليلة وليلة» ما يشير إلى مذهب التناسخ، وأن نظرية التناسخ تسلم إلى مذهب الحلول؛ حيث يتحد العقل، والعاقل، والمعقول، وتصير كلها شيئًا واحدًا، وهذا النظر كان له أثر كبير في مذهب الصوفية»[٢].

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية مدى الأثر الذي أحدثته الوثنية الهندية في بعض المتصوفة؛ حيث قال: إن ابن سبعين (الصوفي المنحرف) كان يريد الذَّهاب إلى الهند، وقال إن أرض الإسلام لا تسعه»[٣].

ويرى الدكتور أحمد صبحي أن مباحث النبوات إنما نشأت بسبب إنكار الهنود لذلك؛ فيقول: «وكان لمذهب الهنود في إنكار النبوات دور في بروز مباحث إثبات النبوات، ودلائل النبوة، من قبل علماء الإسلام، وأصبح مبحث دلائل النبوة من أهم مباحث علم الكلام»[٤].

وقد ذكر ابن المرتضى حكاية عن رغبة ملك السند في مناقشة علماء المسلمين، وزَعَمَ أن هارون الرشيد استعان بالمعتزلة؛ حيث نورد هذه الرواية، ثم نعقب عليها؛ قال: إن ملك السند بعث إلى هارون الرشيد بكتاب، قال فيه: «إنك رئيس قوم، لا ينصفون، ويقلدون الرجال، ويغلبون بالسيف، فإن كنت في ثقة من دينك، فوجِّه إليَّ من أناظره، فإن كان الحق معك اتبعناك، وإن كان معي تبعتني، فوجَّه إليه قاضيًا،

(١) البيروني، تحقيق، ما للهند من مقولة، ص ٢٦.
(٢) فجر الإسلام، ج١، ص ٢٤١.
(٣) الرسائل والمسائل، ج١، ص ١٨٢.
(٤) د. أحمد صبحي، مباحث في علم الكلام، المعتزلة، ج١، ص ٨٠، وانظر د. هاشم فرغل، عوامل نشأة علم الكلام، ص ١٩٩.

وكان عند الملك رجل من السمنية، وهو الذي حمله على هذه المكاتبة، فلما وصل القاضي إليه أكرمه، ورفع مجلسه، فسأله السمني، فقال: أخبرني عن معبودك، هل هو القادر؟ قال: نعم، قال: فهو قادر أن يخلق مثله، فقال القاضي: هذه المسألة من علم الكلام، وهو بدعة، وأصحابنا ينكرونه، فقال السمني: مَن أصحابك؟ فقال: فلان، وفلان ... وعد جماعة من الفقهاء، فقال السمني للملك، قد كنت أعلمتك دينهم، وأخبرتك بجهلهم، وتقليدهم، وغلبتهم بالسيف، قال: فأمر ذلك الملك القاضي بالانصراف، وكتب معه إلى الرشيد: إني كنت بدأتك بالكتاب، وأنا على غير يقين مما حُكِي لي عنكم، فالآن قد تيقنت ذلك بحضور القاضي، وحكى له في الكتاب ما جرى. فلما ورد الكتاب على الرشيد، قامت قيامته، وضاق صدره، وقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟ ! قالوا: بلى، يا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدال في الدين، وجماعة منهم في الحبس، فقال أحضروهم، فلما حضروا، قال: ما تقولون في هذه المسألة؟ فقال صبي من بينهم: هذا السؤال محال؛ لأن المخلوق لا يكون إلا محدثًا، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يُقَال يقدر على أن يخلق مثله، أو لا يقدر، فقال الرشيد: وجِّهوا الصبي إلى السند؛ حتى يناظرهم، فقال: إنه لا يُؤْمَنُ أن يسألوه عن غير هذا؛ فيجب أن توجِّه فمن يفي بالمناظرة في كل العلم؛ فقال الرشيد: فمن لهم؟ فوقع اختيارهم على معمر بن عباد، فلما قرب من السند، بلغ خبره ملك السند، فخاف السمني أن يُفْتَضَحَ على يديه، وقد كان عَرَفَه من قبل؛ فدس من سَمَّهُ في الطريق، فقتله»[1].

ومما يُؤْسَفُ له أن هذا النص مصطنع الحكاية، قُصِدَ منه ازدراء المحدثين، وعلماء السلف ـ رحمهم الله ـ تعالى ـ، وهذه الوسيلة من وسائل المعتزلة في اصطناع بطولات زائفة لهم، وغيرهم من الجهمية، والباطنية، والغلاة، أول من وقع في حبائل السمنية الهنود، عندما جادلوهم، فأخرجوهم عن الطريق السلفية إلى الطريق البدعية، التي جلبوها من السمنية الهنود، والفرس، ومما يسقط هذا النص أن السند في زمن هارون

---

(١) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

الرشيد كانت من أرض الخلافة الإسلامية؛ حيث تولى الرشيد الخلافة سنة (١٧٠هـ)، وتوفي سنة (١٩٣هـ)[١]، وأما معمر بن عباد الذي صيغت له هذه الحادثة، وألفت، فلم يذكر قط في ترجمته أنه سافر إلى السند، أو أنه ناظر السمنية، ومما يبطل هذه الدعوى أن معمر بن عباد توفي سنة (٢١٥)؛ أي بعد وفاة هارون الرشيد باثنين وعشرين سنة، ولم يُذْكر أنه توفي بالسم، أو أنه سافر إلى السند»[٢].

فهذه هي الحقيقة التي نتوخاها من هذا العرض؛ وهي أن فرق الابتداع هي بقايا لهذه الأمم، التي دحرها الإسلام، ودحر عقائدها الوثنية، وبمثل هذه الأكاذيب أخذت تدافع عن نفسها، بعدما هُزِمَتْ أمام عقيدة السلف الصالح؛ فأخذت تضع البطولات الزائفة؛ لتُجَمِّلَ بها وجهها الشائه القبيح.

لقد كانت الآثار الخارجية للافتراق الْعَقَدِي تمثل الهجمة الشرسة للصد عن سبيل الله، وقد تضافرت في كل فرق الابتداع عوامل خارجية وعوامل داخلية، وجدت توافقًا، وهوى في نفوس أصحابها؛ مما حدا بهم إلى الانسلاخ عن الأمة، وعن مصدر فخرها، وعزتها؛ الكتاب، والسنة، ومنهج الصحابة، والتابعين؛ فانطلقت تغترف من المعين الآسن الذي كانت تحياه هذه الأمم المنحرفة، مبتعدة عن الوحي الرباني.

هذه هي الأسباب الخارجية للافتراق الْعَقَدِي، الذي سنفصله فيما بعد، ونرى كيف افترقت هذه الفرق عن أهل السنة والجماعة، وما مقالاتها، وما وزن رجالها بين علماء السلف، وما نهاياتها التي انتهت إليها.

* * * *

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٢٧، ص ٣٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص ٥٤٦، وتاريخ الإسلام حوادث، ٢١١ - ٢٢٠، ص ٤١٣.

٥ـ الْأَسْبَابُ الدَّاخِلِيَّةُ لِلِافْتِرَاقِ الْعَقَدِي

تَمْهِيدٌ:

سبق وأن عرضنا للأسباب الخارجية للافتراق، والممثلة في الأثر اليهودي، والنصراني، والفارسي، والهندي، ورأينا ذلك الدور الهدام الذي لعبته فئات متعددة من أرباب هذه الملل في إحداث الفُرْقَة الْعَقَدِية بين المسلمين. ونحن لا نرى أن هذه الملل كانت قادرة وحدها على إحداث الفرقة الْعَقَدِية بين المسلمين، لولا أنها وجدت أسبابًا داخلية أسهمت في تحقيق أهدافها، وكل هذه الأمور، وغيرها، تقع تحت قاعدتين أصليتين؛ كما يقول الإمام الشاطبي؛ فإن الاختلاف الحاصل بين الأمة له سببان: «أحدهما: لا كسب للعباد فيه، وهو الراجع إلى سابق القدر، والآخر: هو الكسبي، وهو المقصود بالكلام»[١].

والاختلاف الكسبي الذي عناه الإمام الشاطبي هو ما يكون سببه الناس؛ سواء كانت بمؤثرات خارجية، أو عوامل داخلية، وقد تتظافر المؤثرات الخارجية مع العوامل الداخلية، وتُحدث مثل هذه الفرقة، وسوف نرى فيما يلي جملة من العوامل الداخلية التي تظافرت مع المؤثرات الخارجية لإحداث هذه الفرقة الْعَقَدِية بين المسلمين.

* أَحْدَاثُ الْفِتْنَةِ الْكُبْرَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

لعل أخطر ما قابله المسلمون في النصف الأول، من القرن الهجري الأول، هو تلك الفتنة الكبرى التي حدثت بسبب مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت٣٥)، وقد كان النبي ﷺ قد حذَّر الأمة من فتن المستقبل؛ فقد روى البخاري، ومسلم، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟» قالوا: لا، قال: «فَإِنِّي أَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»[٢].

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص ١٦٤.

(٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب آطام المدينة، ح ١٨٧٨، الفتح، ج٤، ص ٩٤، ومسلم، كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، في رقم ٢٨٨٥، المختصر، ج٢، ص ٥١٧.

ويفسر ابن حجر هذا الحديث الشريف؛ فيقول: «وإنما اختُصَّت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك؛ فالقتال بالجمل، وصفين، كان بسبب قتل عثمان، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك، أو عن شيء تولد عنه، وحسن التشبيه بالمطر لإرادة التعميم، لأنه إذا وقع في أرض عمها، ولو في بعض جهاتها»(١).

وقد كان الخليفة عثمان رضي الله عنه يعي تمامًا نتيجة هذه الفتنة؛ ولذلك حذَّر أمته، والمشاركين فيها، من عاقبتها؛ فعن أبي ليلى الكندي قال: «رأيت عثمان أشرف على الناس، وهو محصور في الدار، فقال: يأيها الناس لا تقتلوني، واستعتبوني، فوالله، لئن قتلتموني، لا تُصَلُّونَ جميعًا أبدًا، ولا تجاهدون عدوًّا جميعًا أبدًا، ولتختَلِفُنَّ حتى تصيروا هكذا ـ وشبك بين أصابعه ـ، وقرأ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾، [هود: ٨٩]»(٢).

وقد حدث ـ فعلًا ـ ما حذر منه هذا الخليفة المظلوم؛ عندما توجه المسلمون لقتل بعضهم البعض، ولم يعودوا يُصَلُّونَ مجتمعين، ولا قاتلوا عدوًّا مجتمعين ـ أيضًا ـ، وأصبح لكل فرقة منهم قائد، وإمام، وقُتِلَ، بعد قتله ـ رضوان الله عليه ـ عشرات الألوف من المسلمين، بأيدي بعضهم البعض، وقد نبَّه لهذا ـ أيضًا ـ الصحابي الجليل عبدالله بن سلام رضي الله عنه؛ حيث قال عندما كان عثمان رضي الله عنه محصورًا: «أيها الناس، لا تقتلوا عثمان، واستعتبوه؛ فوالذي نفسي بيده، ما قتلت أمة نبيها، فأصلح ذات بينهم، حتى يُهْرِيقُوا دم سبعين ألفًا، وما قتلت أمة خليفتها، فيصلح الله بينهم، حتى يهريقوا دم أربعين ألفًا، وما هكلت أمة حتى يرفعوا القرآن على السلطان»، ثم قال: «لا تقتلوه، واستعتبوه»، فلم ينظروا فيما قال. قال سليمان: «قلت لحميد بن هلال: كيف يرفعون

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج٣، ص ١٣.
(٢) ابن عساكر، المختصر، ج١٦، ص ٢٠٦.

القرآن على السلطان؟» قال: «ألم تر إلى الخوارج كيف يتأولون القرآن على السلطان»[١].

وقد صدَّق الواقع الأليم ما قاله عبدالله بن سلام رضي الله عنه؛ فقد روى خليفة بن خياط، عن المعلى أبي حاتم، عن جدته، قالت: «خرجنا إلى قتلى الجمل، فعددناهم بالقصب عشرين ألفًا»[٢]، وكانت نتيجة معركة صفين؛ كما يقول محمد بن سيرين - رحمه الله -: «افترقوا على سبعين ألفًا، يُعَدُّونَ بالقصب»[٣].

لقد كانت الفتنة التي مرت بالمسلمين من أبرز عوامل افتراقهم المبكر، وقد سبق وأن أشرنا إلى الأثر الخارجي من خلال عبدالله بن سبأ في الفتنة، إلا أن وقودها كان الجسد الإسلامي، ونتائجها كانت اهتزاز وَحدة المسلمين، وتناحرهم، وبروز المقالات البدعية بينهم. وبعد أن انتهت أحداث معركة صفين الدامية، وحكم الحكمان، ظهرت أولى بوادر الافتراق الْعَقَدِي بين المسلمين؛ فانحاز الخوارج في حروراء، وأطلقوا عبارة «لاحكم إلا لله»، وأعلنوا التكفير لأول مرة بين أفراد الأمة، وامتدت دائرة التكفير لتصل إلى عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه، ومن حكم، ومن رضي بالتحكيم، فظهرت عبارات التكفير على ألسنة المسلمين، لهذه الفئة أو تلك، وبرزت نتائج هذه الفتنة بظهور فرقة الخوارج، ثم ظهرت الشيعة المتسترة بحب علي رضي الله عنه، بقيادة عبدالله بن سبأ، وبقيت في سراديب الظلام، تؤسس نحلتها الضالة، حتى أحرق علي منهم القائلين بألوهيته، ثم اختلفوا، حتى ظهروا في فرق الغلاة المتعددة.

وكان من نتائج هذه الفتنة - أيضًا - بروز مقالة المرجئة، الذين توقفوا في أمر المقتتلين في الفتنة. وعندما حدثت فتنة عبدالرحمن بن الأشعث في سنة ٨٣هـ، اتسعت دائرة المرجئة؛ لتبحث في مسائل واسعة؛ مثل: الإيمان والعمل، وزيادة الإيمان ونقصانه، ثم برزت المرجئة الغلاة، الذين يُسقطون العمل تمامًا، ويفصلونه عن الإيمان.

(١) ابن عساكر، المختصر، ج١٦، ص٢٠٨.

(٢) تاريخ خليفة خياط، ص ١٨٦.

(٣) تاريخ خليفة خياط، ص ١٩٤.

وهكذا كان للفتنة الأولى، وما لحقها من فتن، الدور الأكبر في فُرقة المسلمين، وتناحرهم، وبروز الفرق، والنحل الضالة، وفي ظل هذه الأجواء المشحونة بالكراهية، عمدت فرق الضلال إلى تأسيس مقالاتها البدعية، مخالفة لمنهج الصحابة الكرام، والسلف الصالح، الذي بقي واضحًا لا تشوبه شائبه، بالرغم من كل هذه الغيوم، وهذا الظلام المحيط به.

أَثَرُ النِّزَاعِ عَلَى الْإِمَارَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ

قبل الحديث عن هذا النزاع، يجب تصحيح خطأ تاريخي، وقع فيه مؤرخو الفرق، وتابعهم المعاصرون على ذلك؛ وهو قول الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة؛ إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان»[(١)]. وقد استغل هذا النص الشيعة أبشع استغلال؛ وذلك أنهم قالوا إن النزاع على الإمامة بدأ منذ وفاة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وإن هناك فرقة بين الصحابة كانت ترى الإمامة لعلي رضي الله عنه، وإنهم لا يعترفون بإمامة الثلاثة (أبي بكر، وعمر، وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ)، وسوف نورد أولًا هذه التوضيحات الهامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، حول هذا الموضوع، ثم نعقب بعد ذلك على النزاعات التي حدثت في الأمة؛ بسبب الرغبة في الإِمْرَةِ والمُلْك، والتي كانت من أسباب افتراق الأمة، وتناحرها.

قال شيخ الإسلام؛ ردًّا على مقالة الشهرستاني التي أوردها ابن المطهر الرافضي: «إن هذا من أعظم الغلط؛ فإنه، ولله الحمد، لم يُسَلَّ سيف على خلافة أبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا كان بين المسلمين في زمنهم نزاع في الإمارة، فضلًا عن السيف، ولا كان بينهم سيف مسلول على شيء من الدين»[(٢)]؛ فالقتال الذي كان في زمن علي لم يكن على الإمامة؛ فإن أهل الجمل، وصفين، والنهروان، لم يقاتلوا على نصب إمام غير علي، وما كان معاوية يقول أنا الإمام دون علي، ولا قال ذلك طلحة، ولا الزبير؛ فلم يكن أحد ممن قاتل عليًّا قبل الحكمين نصب إمامًا يقاتل على طاعته؛ فلم يكن شيء

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٢.

(٢) منهاج السنة النبوية، ج٦، ص ٣٢٤.

من هذا القتال على قاعدة من قواعد الإمام المنازع فيها، لم يكن أحد من المقاتلين يقاتل طعنًا في خلافة الثلاثة، ولا ادعاء النص على غيرهم، ولا طعنًا في جواز خلافة علي؛ فالأمر الذي تنازع فيه الناس من أمر الإمامة؛ كنزاع الرافضة، والخوارج، والمعتزلة، وغيرهم، لم يقاتل عليه أحد من الصحابة أصلًا، ولا قال أحد منهم إن الإمام المنصوص عليه هو علي، ولا قال إن الثلاثة كانت إمامتهم باطلة، ولا قال أحد منهم إن عثمان، وعليًا، وكل من والاهما، كافر؛ فدعوى المدعي أن أول سيف سُلَّ بين أهل القبلة كان مسلولًا على قواعد الإمامة، التي تنازع فيها الناس - دعوى كاذبة، ظاهره الكذب، يُعْرَفُ كاذبها بأدنى تأمل، مع العلم بما وقع، وإنما كان القتال قتال (فتنة)، عند كثير من العلماء، وعند كثير منهم هو من باب قتال أهل العدل والبغي، وهو القتال بتأويل سائغ لطاعة غير الإمام، لا على قاعدة دينية، ولو أن عثمان نازعه منازعوه في الإمامة، وقاتلهم، لكان قتالهم من جنس قتال علي، وإن كان ليس بينه وبين أولئك نزاع في القواعد الدينية.

ولكن أول سيف سل على الخلاف في القواعد الدينية سيف الخوارج، وقتالهم من أعظم القتال، وهم الذين ابتدعوا أقوالًا خالفوا فيها الصحابة، وقاتلوا عليها، وهم الذين تواترت النصوص بذكرهم، وعلي رضي الله عنه لم يقاتل أحدًا على إمامة من قاتله، ولا قاتله أحد على إمامته نفسه، ولا ادعى أحد قط في زمن خلافته أنه أحق بالإمامة منه؛ لا عائشة، ولا طلحة، ولا الزبير، ولا معاوية، ولا أصحابه، ولا الخوارج، بل كل الأمة كانوا معترفين بفضل علي، وسابقته، بعد قتل عثمان، وأنه لم يبق في الصحابة من يماثله في زمن خلافته. وبالجملة، فكل من له خبرة بأحوال القوم، يعلم علمًا ضروريًا أنه لم يكن من المسلمين مخاصمة بين طائفتين في إمامة الثلاثة، فضلًا عن قتال، وكذلك علي: لم يتخاصم طائفتان في أن غيره أحق بالإمامة منه، وإن كان بعض الناس كارهًا لولاية أحد من الأربعة، فهذا لا بد منه، فإن من الناس من كان كارهًا لنبوة محمد ﷺ؛ فكيف لا يكون فيهم من يكره إمامة بعض الخلفاء؟»[1].

(١) منهاج السنة النبوية، ج٦، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ بتصرف.

ثم يخلص إلى القول: «ولا كان في الصحابة من يقول إن أبا بكر، وعمر، وعثمان، لم يكونوا أئمة، ولا كانت خلافتهم غير صحيحة، ولا من يقول: إن خلافتهم ثابتة بالنص، ولا من يقول: إن بعد مقتل عثمان كان غير علي أفضل منه، ولا أحق منه بالإمامة. فهذه القواعد الدينية[١]، التي اخْتُلف فيها من بعد الصحابة، لم يختلفوا فيها بالقول، ولا الخصومات، فضلًا عن السيف، ولا قاتل أحد منهم على قاعدة في الإمامة؛ فقَبْل خلافة علي لم يكن بينهم قتال في الإمامة، ولا في ولايته، لم يقاتله أحد على أن يكون تابعًا لذاك، والذين قاتلوا مع علي لم يقاتلوا لاختصاص علي دون الأئمة قبله بوصف، بل الذين قاتلوا معه كان يقرون بإمامة من قبله، وشائعًا بينهم أن أبا بكر أفضل منه، وقد تواتر عنه نفسه أنه كان يقول ذلك على المنبر، ولم يظهر عن الشيعة الأُوَل تقديم علي على أبي بكر، وعمر، فضلًا عن الطعن بإمامتهما[٢]. «وأما الحرب التي كانت بين طلحة، والزبير، وبين علي، فكان كل منهما يقاتل عن نفسه، ظانًّا أنه يدفع صول غيره عليه، ولم يكن لعلي غرض في قتالهم، ولا لهم غرض في قتاله، بل كانوا قبل قدوم علي يطلبون قتلة عثمان، وكان للقتلة من قبائلهم من يدفع عنهم؛ فلم يتمكنوا منهم، فلما قدم علي، وعرَّفوه مقصودهم، عرَّفهم أن هذا ـ أيضًا ـ رأيه، لكن لا يمكن حتى ينتظم الأمر، فلما علم بعض القتلة ذلك، حمل على أحد العسكرين، فظن الآخرون أنهم بدءوا؛ القتال فوقع القتال بقصد أهل الفتنة، لا بقصد السابقين الأوَّلين، ثم وقع قتال على المُلك»[٣].

بعد هذا البيان الشافي من شيخ الإسلام، يتضح لنا أن النزاعات التالية في الأمة كانت للتنازع على الملك، والإمرة، وقد أسهمت في تمزيق الأمة، وتعميق شقة الخلاف بينها، فقد روى البخاري عن أبي المنهال، قال: «لما كان ابن زياد، ومروان،

---

(١) يقصد بالقواعد الدينية، قواعد الصفات، والقدر، والإيمان، والوعد، والوعيد؛ التي سبق له الحديث عنها، انظر ص ٣٣٦ من نفس الجزء.

(٢) منهاج السنة النبوية، ج٦، ص ٣٣٨.

(٣) منهاج السنة النبوية، ج٦، ص ٣٣٩.

بالشام، وثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة، فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي، حتى دخلنا عليه في داره، وهو جالس في ظل عِلِّيَّةٍ له من قصب، فجلسنا إليه، فأنشا أبي يستطعمه الحديث، فقال: يا أبا برزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعته تكلم به: إني احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطًا على أحياء قريش؛ إنكم، يا معشر العرب، كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة، والقلة، والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمد ﷺ، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم، إنَّ ذاك الذي بالشام، والله، إنْ يقاتل إلَّا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم (يعني الخوارج)، والله، إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة، والله، إن يقاتل إلا على الدنيا»[(١)].

فهذا التنازع على الإمرة والملك كان من أسباب فُرقة الأمة، وتبلورت الفرق حول معتقدات بدعية، أفرزتها ظروف الفرقة والاقتتال، وقد كان الصحابة الكرام يرون أن هذا التقاتل كان على الإمرة والملك؛ فعن سعيد بن جبير قال: «خرج علينا عبدالله بن عمر، فرجونا أن يحدثنا حديثًا حسنًا، قال: فبَادَرَنَا إليه رجل: يا أبا عبدالرحمن، حدثنا عن القتال في الفتنة، والله يقول: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾، [البقرة: ١٩٣]، فقال: هل تدري ما الفتنة ـ ثكلتك أمك ـ؟ إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك»[(٢)].

وهذا التنازع الذي حدث في زمن يزيد مع الحسين رضي الله عنه، وما أعقبه من استشهاده، بعد أن غدر به شيعة العراق، الذين أوهموه بأنهم يريدون توليته، ولكنهم خذلوه، وأسلموه إلى القتل، واستغل الشيعة السبئية هذه الحادثة بتأجيج مشاعر المحبين لآل البيت، وبناء العقائد السبئية حول آل البيت، على الصورة الغالية التي ظهرت في

---

(١) البخاري، كتاب الفتن، باب إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج فقال بخلافه ح رقم ٧١١٢، الفتح، ج١٣، ص ٦٨.

(٢) البخاري، كتاب الفتن، قول النبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق، ح رقم ٧٠٩٥، الفتح، ج١٣، ص ٤٥.

المغيرية، والبيانية، وغيرها مما سيأتي بيانه في الفرق الشيعية الغالية، وعلى أساسه فيما بعد بنت الإمامية بدعتها.

ثم برزت حركة المختار الذي كان يهوى امتلاك العراق، وقال بآرائه البدعية الضالة، وما زعمه أن جبريل كان ينزل عليه، ومن هنا تأسست فرقة المختارية الكيسانية، وبنت بدعتها على أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر، وأنهم دعاة له، وعندما مات محمد بن الحنفية، زعموا أنه حي بجبل رضوى، عنده عسل وماء[1]، ثم حصل قتال بين عبدالله بن الزبير، والدولة الأموية، وانتهى بقتله، وصلبه، ثم قامت حركة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث، وانتهت بالهزيمة سنة (٨٣هـ)، وبرزت بعدها مقالات الإرجاء المبْتَدَعة، كما سنبينه في فرقة المرجئة، ثم برزت حركات الغلو الشيعية؛ كالمغيرية، والبيانية، وغيرها، ثم عندما قام الإمام زيد بالخروج على هشام بن عبدالملك، وانتهى خروجه بالهزيمة، ظهرت فرقة الزيدية، والروافض الذين ساندوه في البداية، ثم عندما سألوه عن أبي بكر، وعمر، وعندما تولاهما انفضوا عنه، وقيل لهم روافض[2]، فبرزت فرقة الزيدية، وكان هذا نتاج القتال على الملك.

ثم عندما قام الحارث بن سريج بثورته المشئومة، يعاونه المشركون الترك، وكان بجانبه الجهم بن صفوان، والمرجئة التي انتعشت في إطار حركته، وعندما قام يزيد بن الوليد على ابن عمه الوليد بن يزيد، قامت بمناصرته على طلب الملك فرقة القدرية، وعندما قام مروان بن محمد لطلب الملك شمَّر لمقاتلة القدرية، ولكنه كان جعديًّا - أيضًا -، وهكذا كانت هذه المنازعات حول طلب المُلك والإمارة سببًا من أسباب نشأة الفرق، وسببًا من أسباب انتعاش فرق قد قمعت في فترات سابقة؛ مثل القدرية التي قمعها هشام، ولكنها انتعشت عندما اعتنق رأيها يزيد بن الوليد[3].

---

(١) انظر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤١.

(٢) انظر السكسكي، البرهان، ص ٦٥.

(٣) سوف نعرض لهذه التفصيلات عند حديثنا على هذه الفرقة.

• أَثَرُ ظُهُورِ الْعَصَبِيَّةِ وَالشُّعُوبِيَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ

لقد كان لانتصار الإسلام الحاسم السريع في الفتوحات الإسلامية أكبر الأثر في كبت المنافقين، والحاقدين، داخل قبائل الجزيرة العربية، وداخل بلاد الأمم المفتوحة؛ من أهل فارس، وغيرها من البلاد التي هيمن عليها الإسلام.

ولقد كان لشعوب هذه البلاد قادة، ورؤساء، وبمجيء الإسلام سُلِبَتْ مكانة من بقي على شركه وكفره، فعكفت هذه الفئات المكبوتة بنفاقها، وزندقتها، تدبِّر المكائد لهذه الأمة، وتثير فيها جوانب العصبية، والشعوبية، وتزعم أن العرب قد سلبوا مكانة الفرس العالمية، وتروج في وسط قبائل العرب أن قريشًا سلبت مكانتها ـ أيضًا ـ، فكانت هذه الهمسات والتناجي أحد أسباب الافتراق الْعَقَدِي في الأمة؛ ومثال ذلك أن الخروج على الخليفة الراشد عثمان ﷺ، ثم الخروج على علي ﷺ بدأ من مثل هذا التناجي، والذي أسهمت فيه قوى خارجية؛ مثل السبئية، وكانت مادته القبائل العربية، التي انطلقت تؤلف جماعات، وتناظر ولاة الأمصار، وتحاورهم على أنهم هم الأولى بتولي الأمور، بدلًا من قريش.

ولقد روى الطبري رواية توضح بداية الفُرقة بين الأمة التي كانت السبب المباشر في نشوء الخوارج، وما يتبعها من الفرق؛ فقد روى الطبري «أن سعيد بن العاص كان يأتيه نازلة أهل الكوفة، ووجوه أهل الشام، وأهل القادسية، وقُرَّاء أهل البصرة، فجلس إلى الناس يومًا، فدخلوا عليه، فبينما هم جلوس يتحدثون، قال خنيس بن فلان: ما أجود طلحة بن عبيدالله! فقال سعيد بن العاص: إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادًا، والله، لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشًا رغدًا. فقال عبدالرحمن بن خنيس، وهو حدث: والله، لوددت أن هذا الملطاط لك (يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة)، قالوا: فضَّ الله فاك! والله لقد هممنا بك، فقال خنيس: غلام فلا تجازوه، فقالوا: يتمنى له سوادنا، قال: ويتمنى لكم أضعافه، قالوا: يتمنى لنا وله، قال: ما هذا بكم، قالوا: أنت أمرته بها، فثار إليه الأشتر، وابن ذي الحبكة،

وصعصة، وابن الكواء، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابي[1]، فأخذوه، فذهب أبوه ليمنعه، فضربوهما حتى غُشِيَ عليهما. وجعل سعيد يناشدهم، ويأبون، فسمعتْ بذلك بنو أسد؛ فجاءوا، فأحاطوا بالقصر، وركبت القبائل، فعاذوا بسعيد، وقالوا: أفلِتْنا، وخلِّصْنا، فخرج سعيد إلى الناس، فقال: أيها الناس، قوم تنازعوا، وتهاووا، وقد رزق الله العافية؛ فكتب أشراف أهل الكوفة، وصلحاؤهم، إلى عثمان في إخراجهم (كان ذلك سنة ٣٣هـ)؛ فكتب عثمان بتسييرهم إلى معاوية رضي الله عنه، وبعث لمعاوية يقول: «إن أهل الكوفة أخرجوا إليك نفرًا خُلِقُوا للفتنة، فارْعَهُمْ، وقم عليهم، فإنْ أنست منهم رشدًا فاقبل منهم، وإن أعيوك فارددهم عليهم. فلما قدموا على معاوية، رحب بهم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل لا يتغدى ويتعشى إلا معهم، فقال لهم يومًا: إنكم قومٌ من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم (قريشًا)، وإن قريشًا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم، إن أئمتكم لكم اليوم جُنَّة؛ فلا تشذوا عن جُنَّتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المئونة. والله، لتَنْتَهُنَّ أو لَيَبْتَلِيَنَّكُمُ الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية، في حياتكم، وبعد موتكم. فقال رجل من القوم: أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية؛ فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخْتُرِقَت خُلِصَ إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن؛ علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلًا؛ أعظِّم عليك أمر الإسلام، وأذكرك به، وتذكرني في الجاهلية، وقد وعظتك، وتزعم لما يُجِنُّك أنه يُخْتَرق، ولا يُنْسب ما يُخْتَرق إلى الجُنَّة، أخزى الله أقوامًا أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم، افقهوا، ولا أظنكم تفقهون: إن قريشًا لم تَعِزَّ في جاهلية، ولا إسلام إلا بالله ـ عز وجل ـ، لم تكن بأكثر من العرب،

---

(١) يلاحظ على هذه الشخصيات أنها هي التي خرجت لقتل عثمان رضي الله عنه وكان منهم الخوارج أيضا مثل ابن الكواء، وكمثل بن زياد، وعمير بن ضابي.

ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحسابا وأمحضهم أنسابًا، هل تعرفون عربًا أو عجمًا، أو سودًا أو حمرًا، إلا قد أصابه الدهر في بلده، وحرمته بدولة، إلا ما كان من قريش؛ فإنه لم يُرِدْهُمْ أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم (يقصد الفرس)، أفٍّ لك ولأصحابك... إلخ»[1].

إن هذه النظرات العصبية التي برزت في صفوف بعض أبناء القبائل، كانت إحدى العوامل في ظهور الفرق، وخاصة فرقة الخوارج، التي كان من أبرز شخصياتها من ورد اسمه في هذا النص، ويجب أن يُعْلَمَ أن هذه العصبيات ظهرت في نفوس من زاغت عقيدتهم، ولا يصح تعميم هذه الجاهليات على هذه القبائل، كما رَوَّجَ لذلك المستشرقون، ومن تابعهم من الكُتَّاب المعاصرين؛ فبحثوا أسباب الافتراق من وجهة نظر عنصرية بحتة، وهذا ما لا نقره، ولا نقبل به، إلا أننا نقول إن هذه التصورات الجاهلية، كما وصفها معاوية رضي الله عنه، إنما نشأت في نفوس من انحرف عن الإسلام الحق، فرام الدعوة للافتراق عن طريق إثارة هذه العصبيات، والطعن على قريش، فيجب أخذ هذه الظاهرة في حدودها الضيقة، بأشخاص من دعوا لها، وجمعوا شذاذ الآفاق للثورة على عثمان رضي الله عنه، ثم الخروج على علي رضي الله عنه، ومتابعة مسلك الخروج، والنقمة المستمرة على خلفاء دول الإسلام؛ تبعًا لفتنتهم الأولى، التي أحرقت كل ما في صدورهم من الإسلام والإيمان؛ فانطلقوا يُصَنِّفُونَ الناس إلى قرشي، ومضري، وربعي، وفارسي، وعربي.

ولم تقتصر الدعوات العصبية والشعوبية في نطاق بعض القبائل العربية، التي حسد بعض أبنائها قريشًا على هذه المكانة الرفيعة، التي نالتها بسبب نبوة الرسول ﷺ، وكونهم أعلم الناس، وأكملهم عقلًا، بل ظهرت العنصريات، والشعوبية، في نطاق بعض الموالي المنحرفين، الذين لم يؤمنوا بهذا الدين حق الإيمان، ودخلوه نفاقًا وتسترًا، مع العلم أننا لا نعمم هذا الكلام؛ فقد أسلمت الجمهرة الغالبة من شعوب البلاد

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٦٣٤ - ٦٣٥ بتصرف.

المفتوحة، وكان فيهم المنافق الزنديق، وكان أغلبهم المؤمن الصادق، الذي آمن بهذا الدين الإيمان الحق، وجاهد في الله الجهاد الحق، ولعل نظرة خاطفة إلى أسماء علماء الحديث، والتفسير، واللغة، وغيرها من فنون العلم، تكفي لرد دعاوى المبطلين، الذين زعموا أن الموالي كلهم كانوا يكرهون العرب، وقريشًا؛ فهذا الإمام البخاري، والإمام مسلم، وغيرهم من العلماء الأجلاء، هم من الموالي الذين خدموا هذا الدين، وحفظوا حديث الرسول ﷺ، على صورته الصحيحة، وفي هذا يقول الشيخ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ: «إن الأخيار من طبقات سالم مولى أبي حذيفة، وعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، والحسن البصري، وعبدالله بن المبارك، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وأبي حاتم الرازي، وابنه عبدالرحمن، وأندادهم، وتلاميذهم، واستقبلوا هداية الإسلام السليمة الأصلية، بأرواحهم، وعقولهم، وفتحوا لها أبوابهم، وصدورهم، وأحلوا لغتها محل لغاتهم، وعملوا بسننها بدلًا من سننهم، ونسخوا بإيمانها كل ما كانوا، أو كان أباؤهم عليه من قبل؛ فأسهموا في حفظ كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وحرصوا على فهمها، كما كان يفهمها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعائشة، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، ومن ائتم بهم، وسار على منهاجهم، حتى صاروا، بنعمة الله، إخوانًا للمسلمين، كصالحي المسلمين، وأئمة للمسلمين، كسائر أئمة المسلمين»[1].

فهذا الاستدراك ضروري، كسابقه الذي استدركناه على قبائل العرب؛ فقد خرج من هذه الشعوب المفتوحة من أضمر الحقد والكراهية لهذا الدين وأهله؛ فانطلقوا يزرعون فيه فتنهم، ويشاركون في كل دور هدام؛ لتعريف حركته، وانتشاره؛ وفي هذا يقول ابن حزم: «والأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا في سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر، في أنفسهم الأحرار، والأبناء، وكانوا يعدُّون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما امْتُحِنُوا بزوال الدولة عنهم، على

(١) الألوسي، مختصر التحفة الاثنا عشرية، د. ت محب الدين الخطيب، ط ١٤٠٤هـ، الإفتاء، الرياض.

أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرًا، تَعَاظَمَ الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام؛ بالمحاربة، في أوقات شتى»[١].

وقد حذَّر النبي ﷺ من هذه العصبية، والشعوبية؛ فقد روى الترمذي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «يَا سَلْمَانُ، لَا تُبْغِضْنِي، فَتُفَارِقَ دِينَكَ»، قلت: يا رسول، الله كيف أبغضك، وبك هداني الله؟ قال: «تُبْغِضُ الْعَرَبَ؛ فَتُبْغِضُنِي»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا دليل على أن بغض جنس العرب، ومعاداتهم، كفر، أو سبب للكفر، ومقتضاه: أنهم أفضل من غيرهم، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان؛ لأنه لو كان تحريم بغضهم كتحريم بغض سائر الطوائف، لم يكن ذلك سببًا لفراق الدين، ولا لبغض الرسول، بل كان يكون نوعًا من عدوان، فلما جعله سببًا لفراق الدين، وبغض الرسول ﷺ دل على أن بغضهم أعظم من بغض غيرهم، وذلك دليل على فضلهم»[٣]، وقد ظهرت هذه العصبية في وسط الفرس أكثر من غيرهم، وكان ذلك في انضمام الكثير منهم إلى الحركات الخارجة على الدولة الأموية والعباسية؛ حيث خرج مع المختار بن أبي عبيد جملة كبيرة من الموالي الذين كانوا مادة فرقة الكيسانية، وفرق الغلاة الشيعية، فيما بعد؛ حيث يُنْسَبُ الغلو الذي جاء به المختار، والأكاذيب، «إلى كيسان أبي عمرة، مولى عرينة، فقام ذات يوم على رأسه، فرأى الأشراف يحدثونه، ورآه قد أقبل بوجهه، وحديثه إليهم، فقال لأبي عمرة بعض أصحابه من الموالي: أما ترى، يا أبا إسحاق، قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا؛ فدعاه المختار، فقال له: ما يقول لك أولئك الذين رأيتهم يكلمونك؟ فقال له، وأسر إليه: شق عليهم ـ أصلحك الله ـ صرفك وجهك عنهم إلى العرب، فقال له: قل لهم لا يَشْقُقْ

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل،ج٢، ص ٢٧٣، المحققة.

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب في فصل العرب، ح رقم ٣٩٢٧، ج٥، ص ٧٢٣، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج١، ص ٣٨٥، ت. د. ناصر العقل.

ذلك عليكم، فأنتم مني، وأنا منكم، ثم سكت طويلًا، ثم قرأ: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾، [السجدة: ٢٢]، قال: فحدثني أبو الأشعر موسى بن عامر، قال: ما هو إلا أن سمعها الموالي منه، فقال بعضهم لبعض: أبشروا، كأنكم، والله، به قد قتلتم»[١]. ويصف ربيعة بن المخارق جيش المختار؛ فيقول: يأهل الشام، إنكم إنما تقاتلون العبيد الأُبَّاق، وقومًا قد تركوا الإسلام، وخرجوا منه، ليست لهم تقية، ولا ينطقون بالعربية. قال: فوالله، ما كنت لأحسب ذلك، حتى قاتلناهم»[٢].

فهذا الواقع التاريخي يعبر عن أن الموالي من الفرس، وغيرهم، قد انضموا لهذه الحركات الخارجة على الدولة الأموية؛ لتحقيق مآربهم في تمزيق الأمة، والهيمنة على أرض العراق، وفارس، فكانت هذه الأماني الفارسية في نفوس هؤلاء الشعوبيين هي إحدى عوامل افتراقهم عن الأمة، واختيارهم لمنهج خاص، ووجدوا في التشيع لآل البيت تحقيقًا لهذه الأماني. وقد غطّى هذا التشيع على كل انحرافاتهم الْعَقَدِية، وسلوكياتهم الانحلالية، ولعل نظرة عابرة إلى أرباب الفرق الشيعية الغالية تجد أن قادتها من الموالي المنحرفين؛ كالمغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان، وغيرهم ممن سنوضح آراءهم في فرق الشيعة، ولعل العصبية والشعوبية هي دافعهم إلى التحيز في نطاق هذه الفرق الضالة، ولم يكن التعصب حكرًا على الموالي فقط، بل كان هناك من العرب من أظهر التعصب، وكان مشهودًا به، ولعل هذه العصبية كانت تعزز عصبية الموالي بالجهة المقابلة؛ فقد أورد صاحب «العقد الفريد: قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى (العباسي)[٣]، وكان جائرًا، شديد العصبية: من كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن (البصري)، قال: ثم من؟ قلت: محمد بن

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٤٤٨.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٤٥٣.

(٣) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، ولي العهد، كان فارس بني العباس وسيفهم المسلول جعله السفاح ولي العهد بعد المنصور، ساهم في توطيد دعائم الدولة العباسية، عاش خمسا وستين سنة. توفي سنة ١٦٨هـ بالكوفة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ٤٣٤.

سيرين، قال: فما هما؟ قلت: موليان، قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبير، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار، قال: فما هؤلاء؟ قلت موالي، فتغير لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فاربد وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس، وابنه، وهمام بن منبه، قال: من هؤلاء؟ قلت: من الموالي، فانتفخت أوداجه، فانتصب قاعدًا، ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبدالله الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربدًا، واسْوَدَّ اسودادًا، حتى خِفْتُهُ، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فازداد تغيظًا، وحنقًا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فما كان؟ قلت: مولى، قال: فتنفس الصُّعَدَاءَ، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله، لولا خوفه، لقلت: الحكم بن عتبة، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر؛ فقلت إبراهيم (النخعي)، والشعبي، قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: الله أكبر! وسكن جأشه»[1].

إن هذا النص يعبر عن عدة حقائق؛ من أهمها: أن هؤلاء العلماء الموالي من شتى البلاد المفتوحة، والذين حازوا قصب السبق، وتبوءوا الصدارة العلمية في حلقات العلم الإسلامي؛ لتبطل ما زعمه المستشرقون، والمتعصبون، من القوميين العرب، الذين زعموا أن أغلب الموالي كانوا غير مؤمنين حق الإيمان بهذا الدين، الذي قبلوه، وآمنوا به، وأخلصوا له كل الإخلاص؛ حتى برزوا في شتى علومه، فهذه الحقيقة تُعَبِّرُ عن أن هذا الدين دين البشرية جمعاء، ولقد كان خيار الموالي من كبار علماء الأمة، أخذوا هذا العلم، ونشروه بصدق وأمانة.

ويبين لنا هذا النص أن العصبية ليست محصورة على الموالي، بل هي موجودة فيمن قدَّموا عصبيتهم على التسامح الإسلامي؛ كمثل هذا الذي اغتاظ، واشتاط، حينما لم

(١) ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، ص ٣٦٣ - ٣٦٤، ت. د. عبدالمجيد الترحيني، ط١ ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

يجد فقهاء عربًا، وهدأت نفسه عندما أخبره بوجود فقيهين من علماء العرب، فهذه النظرة العصبية الضيقة أسهمت في تأجيج مشاعر العصبية، في نطاق من هم ليسوا عربًا، وتحولت هذه المشاعر إلى كراهية متبادلة، ثم قامت باقتناص أي فرصة للتحزب، والخروج على الأمة الإسلامية، ثم كونوا فرق الانحراف، والابتداع، وهذا ما حدث في فرق الشيعة، وغيرها.

أَثَرُ ظُهُورِ الْجَدَلِ الْعَقَدِيِّ، وَالْمَيْلِ إِلَى التَّأْوِيلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ

لقد حذَّر القرآن الكريم من الجدل في الدين؛ لما يسببه من افتراق في الأمة، وقد جاءت أغلب الآيات التي تخص الجدال في معرض الذم؛ حيث يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، [الحج :٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، [غافر: ٣٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، [غافر: ٥٦].

وقد حذَّر النبي ﷺ من الجدال؛ فقال ﷺ: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمِ»[١]، وكان أول جدال مبتدع في هذه الأمة بعد وفاة نبيها محمد ﷺ ما روي عن مجادلة صبيغ بن عسيل التميمي[٢]، في متشابه القرآن؛ فقد روى الدارمي عن نافع مولى عبدالله بن عمر: «أن صبيغًا العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن، في أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فلما

---

(١) البخاري، كتاب التفسير، باب قوله ـ تعالى ـ ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ ح رقم ٤٥٢٣، الفتح، ج٨، ص ١٨٨.

(٢) تعرضنا لقصة صبيغ مفصلة في مبحث الخوارج الآتي بإذن الله.

أتاه الرسول بالكتاب، فقرأه، فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب؛ فتصيبك مني به العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر: تسأل مُحْدَثَةً، فأرسل عمر إلى رطائب من جريد، فضربه، حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برئ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برئ، فدعا به؛ ليعود له، قال: فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي، فاقتلني قتلًا جميلًا، وإن كنت تريد أن تداويني، فقد، والله، برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن لا يجالسه أحد من المسلمين؛ فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حَسُنَتْ توبته، فكتب عمر: أن يأذن للناس بمجالسته»[(١)].

وعن سعيد بن المسيب قال: جاء الصبيغ التميمي إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾، قال: هي الريح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾، قال: السحاب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾، قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴾، [الآيات بمجموعها من سورة الذاريات: ١-٤]، قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأمر به عمر رضي الله عنه، فضرب مئة، وجُعِلَ في بيت، فإذا برئ دعا به، فضربه مئة أخرى، ثم حمله على قتب، وكتب إلى أبي موسى: حَرِّمْ على الناس مجالسته، ثم لِيَقُمْ خطيب، فلْيَقُلْ: إن صُبَيْغًا طلب العلم وأخطأه، فلم يزل وضيعًا في قومه، بعد أن كان سيدًا فيهم»[(٢)].

وهذا ما حذَّر منه الرسول ﷺ، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ

(١) الدارمي، السنن، باب من هاب الفتيا، رقم ١٥٠، ج١، ص ٥١، وابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٤٩٨.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج١١، ص ٤٥ - ٤٦.

وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ»[١].

وقد نصت الآية على أن هؤلاء المتبعين للمتشابه يبتغون أمرين: الأول: ابتغاء الفتنة، والثاني: التأويل الباطل، ولو نظرنا إلى أرباب البدع، على مختلف أنواعهم، لوجدنا أنهم أحدثوا هذين الأمرين، وكان جنوحهم إلى المتشابه، وجعله محكمًا، وجعل المحكم متشابهًا؛ كما فعل الجهمية في آيات الصفات، وغيرها من مسائل العقيدة، وكما فعل المعتزلة ـ أيضًا ـ في نفس الاتجاه، يضاف إليهم الشيعة، الذين أوَّلُوا آيات الكتاب العزيز على هواهم، وكل هذا حدث بسبب الجدال والخصومة، والتي كانت مادتها المتشابه الذي لا يوجد له ضابط عند فرق الابتداع، فكان الجدال في هذه المسائل من أهم أسباب افتراقهم عن الأمة، ولو استعرضنا الجدال في الأمة، لوجدنا أنه سبب افتراق كثير من الفرق؛ فجدال الخوارج، من بدايته، كان من أسباب انحرافهم، وافتراقهم، وكل هذا يرجع إلى اتباعهم الهوى في الجدال، بلا رصيد علمي؛ من كتاب أو سنة، يعتمدون عليه؛ ولذلك «كان ابن عمر رضي الله عنه يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكُفَّار، فجعلوها على المؤمنين»[٢].

وقال ابن عباس: «فأما الذين في قلوبهم زيغ، من أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون؛ فلبس الله عليهم، فأما المؤمنون، فيقولون: آمنا به، كلٌّ من عند ربنا: محكمه، ومتشابهه»[٣]، وكان أبو أمامة رضي الله عنه يفسر قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، قال: الخوارج، وأهل البدع[٤].

---

(١) البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ ح رقم ٤٥٤٧، الفتح، ج٧٨، ص ٢٠٩.

(٢) البخاري، كتاب إستتابة المرتدين، باب قتل الخوارج، فتح الباري، ج١٢، ص ٢٨٢.

(٣) ابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٤٩٣.

(٤) ابن بطة، ج٢، ص ٤٩٤.

وكان قتادة يقول عن هذه الآية: «إن لم تكن الحرورية، والسبئية، فلا أدري من هم، ولعمري، لو كان أمر الخوارج هدى، لاجتمع، ولكنه كان ضلالة؛ فتفرق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله، وجدتَ فيه اختلافًا كثيرًا، فوالله، إن الحرورية لبدعة، وإن السبئية لبدعة، ما أنزلت في كتاب، ولا سنة من نبي»[(١)].

وكان الجدال أحد الأسباب التي أدت إلى بروز نفاة القدر، الذين كان أولهم معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وكانت مجادلاتهم مع أهل الأديان الأخرى؛ كالنصارى، والمجوس، سببًا في انحرافهم، ثم انتقلوا إلى الوسط الإسلامي، حتى أحدثوا فُرقة في الأمة، تبعها بروز المعتزلة، الذين فتحوا باب الجدال في القدر، وفي بدعتهم المنكرة في المنزلة بين المنزلتين، وكذلك المرجئة، إنما نشئوا بسبب مجادلاتهم في مسائل عقدية؛ كمرتكب الكبيرة، وعلاقة الإيمان بالعمل، وزيادة الإيمان ونقصه.

وكان من نتائج الجدال الذي أحدثته فرق الابتداع ميلها إلى تأويل آيات الكتاب العزيز، والأحاديث النبوية الخاصة بمسائل العقيدة، ومن أبرزها الخوض في مسائل الأسماء والصفات، على الصورة المبْتَدَعة، التي أدت بهم إلى تعطيلها، وصرفها عن ظاهرها، كل هذا ليوافق هوًى مبتدعًا في نفوسهم؛ حيث رُوِيَ أن أول خلاف في الأسماء والصفات إنما أحدثه الجدال والخصومة التي ابتدأها الجهم بن صفوان؛ من مناقشته للسمنية أولًا، ثم دخوله في جدال مع علماء عصره، وأبرزهم مقاتل بن سليمان؛ فقد روى ابن عدي عن العباس بن مصعب قال: «قدم مقاتل مرو، فتزوج بأم أبي عصمة، وكان يقص في الجامع بمرو، فقدم عليه جهم، فجلس إلى مقاتل، فوقعت العصبية بينهما، فوضع كل واحد منهما على الآخر، ينقض على صاحبه»[(٢)]. وقد نقل ابن كثير عن ابن عساكر «أن الجعد بن درهم (أستاذ الجهم) كان يتردد على وهب بن منبه (ت١١٣)، وأنه كلما راح إلى وهب يغتسل، ويقول: «أجمع للعقل»، وكان يسأل وهبًا عن صفات الله ـ عز وجل ـ، فقال له وهب يومًا: ويلك يا جعد! أقصر

---

(١) ابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٤٩٥.

(٢) الكامل في الضعفاء، ج٦، ص ٤٢٩.

المسألة عن ذلك؛ إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا ما قلنا ذلك، وأن له عينًا ما قلنا ذلك، وأن له نفسًا ما قلنا ذلك، وأن له سمعًا ما قلنا ذلك، وذكر الصفات؛ من العلم، والكلام، وغير ذلك، ثم لم يلبث أن صُلِبَ، ثم قتل»[1].
وقد عد ابن قيم الجوزية الميل إلى التأويل الباطل أنه من أكبر الجنايات التي مرت على الأمة الإسلامية، فقال: «ومن جنايات التأويل ما وقع في الإسلام من الحوادث بعد موت رسول الله ﷺ، إلى يومنا هذا؛ فجرى بسبب هذا التأويل الباطل ما جرى، ثم جرت الفتنة التي جَرَّت قتل عثمان بالتأويل، ولم يزل يأخذ التأويل مأخذه حتى قُتِلَ به عثمان، فأخذ في الزيادة والتولد؛ حتى قُتِلَ به بين علي ومعاوية بصفين سبعون ألفًا، أو أكثر، من المسلمين، وقُتِلَ أهل الحرة بالتأويل، وقُتِلَ يوم الجمل بالتأويل من قُتِلَ، ثم كان قَتْلُ ابن الزبير، ونصب المنجنيق على البيت بالتأويل، ثم كانت فتنة ابن الأشعث، وقُتِلَ من قُتِلَ من المسلمين بدير الجماجم بالتأويل، ثم كانت فتنة الخوارج، وما لقي المسلمون من حروبهم، وأذاهم، بالتأويل، ثم خروج أبي مسلم، وقتله بني أمية، وتلك الحروب العظام، بالتأويل، ثم خروج العلويين، وقتلهم، وحبسهم، ونفيهم، بالتأويل، إلى أضعاف ما ذكرنا من حوادث الإسلام التي جَرَّها التأويل»[2].

وقد كان التأويل، والجنوح إليه، من أهم أسباب اختلاف المسلمين في أسماء ربهم وصفاته، وغيرها من مسائل العقيدة؛ فبرز ذوو العقول القاصرة عن إثبات صفات الرب، يؤولونها على غير مراد ربنا، ورسوله ﷺ؛ فنشأت على أثر ذلك فرق الضلال؛ من الجهمية المعطِّلة، والمعتزلة، واعتقدت عقائدهم فرق الشيعة والخوارج.

- **أَثَرُ مُقَابَلَةِ الْبِدْعَةِ بِبِدْعَةٍ مُضَادَّةٍ لَهَا فِي الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ:**

لقد كانت البدع التي ظهرت في وسط الأمة الإسلامية هي ردود أفعال لمن ليس لهم نصيب من العلم والفهم، واتباع طريقة السلف؛ فيردون على أصحاب البدعة

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص ٣٦٥.

(٢) ابن القيم، الصواعق المرسلة، ج١، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ بتصرف، ت. د. علي الدخيل الله، ط١، ١٤٠٨هـ، دار العاصمة، الرياض.

السابقة ببدعة جديدة مخالفة لها، ومخالفين لمنهج السلف الوسطي، الذي يعتقد الحق في كل مسائل العقيدة والشريعة؛ وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكثير من الناس مع أهل البدع الكلامية والعملية بهذه المنزلة: إما أن يوافقوهم على بدعهم الباطلة، وإما أن يقابلوها ببدعة أخرى باطلة، وإما أن يجمعوا بين هذا وهذا، وإنما الحق في أن لا يوافق المبطل على باطل أصلًا، ولا يُدْفَعُ باطله بباطل أصلًا، فيلزم المؤمنُ الحقَّ؛ وهو ما بعث الله به رسوله ﷺ، ولا يخرج عنه إلى باطل يخالفه؛ لا معارضة لمن قاله، ولا معارضة بالباطل لمن قال باطلًا، وكلا الأمرين يستلزم معارضة منصوصات الكتاب والسنة، بما يناقض ذلك، وإن كان لا يظهر ذلك في بادئ الأمر»[1].

وهذا السبب من الأسباب الظاهرة المنظورة، والتي يُستَدل عليها من واقع الحياة الذي مرت به الأمة الإسلامية، فأول البدع الْعَقَدِية التي ظهرت كانت بدعة الخوارج المارقة، وحملت في بدعتها التكفير للمسلمين، وأولهم عثمان وعلي - رضي الله عنهما -، والقول بأن الإمامة عامة، وليست محصورة في قريش، وقابلها بذلك الشيعة السبئية، ومن جاء بعدهم؛ فكفروا أبا بكر، وعمر، وعثمان، وجمهور الصحابة - رضوان الله عليهم - وغلوا غلوًّا شديدًا في علي رضي الله عنه، حتى رفعوه إلى مستوى الألوهية؛ مما حدا به إلى تحريقهم، وقتلهم، ثم استمر الشيعة الغلاة في اختلاق العقائد الباطلة حول أبناء علي - رضي الله عنهم -، وأسسوا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ظهرت المرجئة؛ ردًّا على الخوارج المارقين، ودعوا إلى التحلل من الواجبات، وقال غلاتهم: لا يضر مع الإيمان معصية، مقابلين الخوارج بدعواهم تكفير أرباب الكبائر، وخلودهم في النار، ثم ابتدعت المعتزِلة بدعتها في مرتكب الكبيرة؛ بقول واصل بالمنزلة بين المنزلتين، بدعوى من عقله العليل، لا يسندها دليل من كتاب ولا سنة، وعندما ظهرت المعطِّلة النفاة من الجهمية، قابلتهم المشبِّهة لبدعتهم - أيضًا -، وقالوا بالتجسيم، وظهرت فرقة القدرية النافية للقدر، الزاعمة أن الأمر [انف]، وأن

(١) درء تعارض العقل والنقل، ج٧، ص ٢٩٢.

العبد خالق لأفعاله، وغيرهم من ضلالات العقول العاجزة عن فَهم النصوص القرآنية، ونصوص السنة النبوية، ثم قابلتها بدعة الجبرية الجهمية التي قالت إن العبد مجبور على أفعاله، وإنه كالريشة في مهب الريح، وكل هذه البدع قال بها من لم تلتزم عقولهم وقلوبهم بالمنهج السوي، الذي جاء به القرآن والسنة؛ منهج السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم.

أَثَرُ الْغُلُوِّ وَالتَّشَدُّدِ فِي الِافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ:

فقد حذَّر النبي ﷺ من هذا المنهج الذي لا يطيقه عامة الناس، والذي يجنح إليه ذوو العقول القاصرة، التي تتوهم أنها تقدر على تطبيق للدين ومتطلباته فوق المستوى الذي كان عليه الرسول ﷺ، وصحابته الكرام؛ ولذلك حذَّر النبي ﷺ من الخوارج قبل خروجهم، وقد اعتبر النبي ﷺ ظهورهم ظهور أول فُرقة في المسلمين؛ فوصفهم بالمارقة، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ (ولم يقل منها) قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ ـ أو حناجرهم ـ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(١).

ومعلوم ذلك الغلو الذي مارسه الخوارج؛ ابتداء من جنوحهم لتكفير من سواهم، ووصفهم أنفسهم بأنهم هم أهل الإسلام الحق، وأن من عداهم كفار، حلال دماؤهم، وأموالهم، ونساءهم، ثم قتلهم لأهل الإسلام ـ وتركهم لأهل الأوثان ـ، وقصتهم مع خباب بن الأرت ـ كما سيأتي ـ تؤكد هذا الوصف، وخروجهم على المجتمع الإسلامي بكامله، وتسميتهم دار جماعة المسلمين دار كفر، وهي دار من عداهم، ومن لا يقول بقولهم، ووصفهم للدار التي يقيمون فيها بدار الإسلام، وحروبهم، وويلاتهم التي مارسوها ضد الأمة، تؤكد غلوهم، ومروقهم من الدين.

ثم من الغلو ـ أيضًا ـ الغلو في حب الأشخاص، ورفعهم إلى مراتب الألوهية، كما غلت الشيعة في علي رضي الله عنه، وأبنائه، وأبناء أبنائه؛ فوصفوهم بصفات خارجة عن نطاق

---

(١) البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج، رقم ٦٩٣١، الفتح، ج١٢، ص ٢٨٣.

البشر؛ مما كان سببًا في افتراقهم عن الأمة، وبعدهم عنها.

ثم من الغلو الذي عانت منه الأمة الغلو في النفي للأدلة التي جاء بها الكتاب والسنة، في كثير من العقائد؛ كغلو نفاة القدر في نفي العلم الإلهي، وإهمالهم للنصوص القرآنية والنبوية التي تؤكد ذلك، ثم غلو الجبرية في القول بأن العبد مجبور على أفعاله، وهذا القول مبتدع من أصله، فلم يُؤْثر عن الرسول ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، أنْ قالوا بهذا، وإنما ابتدعه الغلاة؛ لتعطيل الشريعة، وإبطال الثواب والعقاب.

وكذلك من الغلو المَقِيتِ الذي واجهته الأمة غلو المرجئة في فصل الإيمان عن العمل، ونفي زيادة الإيمان ونقصانه؛ لتتيح للفُسّاق أن يعملوا كل المحرمات، وطمأنتهم بأن أصل إيمانهم باقٍ، ولا يضره شيء من ذلك.

ثم إن من أكبر الغلو الذي مزَّ ق الأمة غلو المعطِّلة النُّفاة، أرباب التأويل الفاسد؛ من الجهمية، والمعتزِلة، ومن تابعهم، الذين عمدوا لصفات الله ـ تعالى ـ، فعطلوها عن مراد الله ورسوله؛ ففرقوا الأمة بمقالاتهم الغالية المبتدعة، حتى بقي الخلاف في هذه المسائل يشُقُّ صف الأمة إلى يومنا الحاضر.

● **أَثَرُ الْجَهْلِ وَسُوءِ الْقَصْدِ عِنْدَ الْمُبْتَدِعَةِ فِي الإِفْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:**

إن هذا العامل ينطبق على فئتين من فئات المجتمع؛ فهو ينطبق على من قال بالمقالات البدعية، التي نشأت عنها فرق الضلال، والفئة الثانية فئة العامة، التي انضوت تحت ألوية البدعة، فلكل طائفة منهم نصيب من الجهل المؤدي إلى الفُرقة، يُضاف إلى ذلك سوء مقصد أرباب البدع، ومكرهم، وخداعهم لعامة الناس الذين تابعوهم على هذه المُبتدَعات، وقد أرجع ابن القيم حدوث مثل هذا إلى أمرين: سوء الفَهم، وسوء القصد؛ حيث يقول: «ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أولى أن يُصَار إليه ممَّا فهمه مَن بعدهم، فانضاف (حسن قصدهم، إلى حسن فهمهم)؛ فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، واليوم الآخر، ولا يُحْفَظُ عنهم في ذلك خلاف، لا مشهور، ولا شاذ، فلمَّا حَدَثَ بعد انقضاء عهدهم

مَن (ساء فهمه، وساء مقصده)، وقعوا في أنواع من التأويل؛ بحسب (سوء الفهم، وفساد القصد»[١].

وهذا القول ينطبق على هؤلاء المبتدعة، الذين ساء فهمهم للنصوص الشرعية؛ بالرغبة في تخريب عقيدة الأمة؛ عن طريق الجنوح للتأويلات، وساء مقصدهم الفاسد؛ وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: «وذلك أن الإحداث في الشريعة، إنما يقع من جهة الجهل، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل، وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق، وهذا الحصر بحسب الاستقراء من الكتاب، والسنة»[٢]، ثم يقول في موضع آخر: «إن البدع لا تقع من راسخ في العلم، وإنما تقع ممن لم يبلغ مبلغ أهل الشريعة، المتصرفين في أدلتها، والشهادة بأن فلانًا راسخ في العلم، وفلان غير راسخ، في غاية الصعوبة؛ فإن كل من خالف، وانحاز إلى فرقة، يزعم أنه الراسخ، غير قاصر النظر»[٣].

ولدينا بعض الشواهد الدالة على جهالة أرباب البدع بالعقيدة والشريعة، نأتي بها لبيان سوء فهمهم، وسوء مقصدهم، في الإحداث الذي أحدثوه في هذه الأمة؛ فقد روى الخطيب البغدادي «أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو، يخلف الله وعده؟ قال: لا، قال: أفرأيت إن أوعده على عمل عقابًا، يخلف وعده؟ فقال أبو عمر (من العجمة): أتيت، يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تعد خلفًا، ولا عارًا، أن تعد شرًا ولا تفعله؛ ترى ذلك كرمًا وفضلًا، إنما الخلف ان تَعِدَ خيرًا، ثم لا تفعله»[٤]؛ فهذا عمرو بن عبيد، بجهله بعلوم العربية، وعجميته، بنى مقالته في مرتكب الكبيرة على إنفاذ الوعيد، وأصبحت أصلًا من أصول الضلال في فرقة المعتزِلة، وهو نوع من أنواع الجهل الذي بنى المعتزِلة عليه أصل مذهبهم المبتدَع.

---

(١) ابن القيم، الصواعق المرسلة، ج٢، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

(٢) الاعتصام، ج٢، ص ٢٩٣.

(٣) الاعتصام، ج٢، ص ٢٩٠.

(٤) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٦.

ولعل هذا الجهل يعبر عن طبيعة رجال فرق الابتداع، الذين اخترعوا مقالاتهم البدعية بعيدًا عن حلقات علم السلف، وهذا الأمر ملاحظ في أغلب الفرق؛ فلم تكن فرقة الخوارج ترى مجالسة علماء السلف لتلقي العلم عنهم، فبرزت في غلوها، وتنطعها؛ نتيجة للجهل بالأحكام الشرعية، والعقدية، أما الشيعة الأُوَل، فقد كانت حلقاتهم منحصرة في التلقين المبتدَع الغالي، على أيدي السبئية، والموالي الجَهَلَة؛ كالمغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان، والمعلى بن خنيس، وغيرهم من الشخصيات المنحرفة.

أما المعتزِلة، فقد لفت نظري البحث الذي أجراه الدكتور طريف الخالدي على أكثر من ستة وعشرين من شخصيات المعتزِلة، فخلص من ذلك إلى قوله: «ووجدت أن ستة عشر منهم كانوا من أصحاب الحرف، أو من طبقة أصحاب الحرف، أو من طبقة التجار، ثم عددهم»[1]، والمشهور عن هؤلاء المتكلمين عدم تلقيهم لعلوم الشريعة، أو جلوسهم في حلقات علماء الحديث، ولم يذكرهم علماء الجرح والتعديل من رواة الحديث؛ لعدم حفظهم لذلك، أو رغبتهم في الحفظ؛ فنشأ عندهم الجهل في مصادر العقيدة، واعتمدوا على عقولهم العليلة، التي خاضت في مسائل الصفات، متبعين للهوى، بدون دليل يرجعون إليه.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ما ذهب إليه الإمام الذهبي؛ حيث قال عن علماء المعتزِلة وغيرهم: «هذا الضرب لا أعلم له رواية؛ مثل بشر المريسي، وأبي إسحاق النظَّام، وأبي الهذيل العلاف، وثمامة بن الأشرس، وهشام بن الحكم الرافضي المشبِّه، وضرار بن عمرو، ومعتمر بن أبي المعتمر العطار، وهشام بن عمرو الغوطي، وأبي عيسى الملقب بالمردار، وأبي موسى الفراء؛ فلكونهم لم يرووا الحديث، لم أحفل بذكرهم، ولا استوعبتهم، فأراح الله منهم!»[2].

---

(١) د. طريف الخالدي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص ٣١، ط٢ ١٣٩٩هـ، دار الطليعة، لبنان.

(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٢، ص ٢٣.

أما الجهم بن صفوان، رائد التعطيل والانحراف في مسائل الصفات، وجُلِّ مسائل العقيدة، فإن جهله بالأدلة الشرعية هو الذي جعل السمنية الهنود[1] يتغلبون عليه في المناظرة، هذه المناظرة التي كانت سببًا في انحرافه، ودعوته إلى نفي الصفات الإلهية، عندما استدرك حجة النصارى، ومما يوضح جهل الجهم ما رواه البخاري، عن عبدالعزيز بن سلمة، قال: «إن كلام جهم صنعة بلا معنى، وبناء بلا أساس، ولم يُعَدَّ قط من أهل العلم، ولقد سُئِلَ جهم عن رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها، فقال: عليها العدة، فخالف كتاب الله بجهله، وقال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩]»[2].

فإذا كان الجهم لا يعرف كيف يفتي بمثل هذه المسألة، مع وضوح دليلها من الكتاب العزيز، فأي رصيد علمي من العقيدة كان معه، عندما ناقشه السمنية المشركون، فكان في خصومته، وجداله، معتمدًا على عقله العليل، الجاهل بالكتاب والسنة، ومنهج الصحابة في العقيدة، ولم يكن يحمل أدنى الأسلحة للرد على مثل هؤلاء الخصوم.

أما الجهل من جهة عامة الناس الذين توزعوا، وكثَّروا سواد المبتدعة، فهو أشهر من أن تُضْرب عليه الأمثلة؛ فإن عامة الناس لا تطيق تلقي العلم، وفهمه حق الفهم، ولذلك يوجد في كل المجتمعات، وفي كل الأزمنة، جمهرة كبيرة، نصيبها من العلوم الشرعية قليل جدًّا، فيلجئون إلى أهل العلم في السؤال والإفتاء، والمجتمع الإسلامي، في هذه المرحلة، كان مجتمعًا متعدد الأجناس، ومعلوم بالفطرة ميل كل شعب من الشعوب إلى علماء من جنسه، وكان هناك العلماء الصادقون العاملون، وكان هناك من تلبس بلباس العلماء، وهو مبتدِع ضال، وهؤلاء المبتدعة لا شك أنهم يجدون من العوامِّ من يوافقهم على بدعتهم، إذا كانت تبيح لهم المحرمات؛ كما فعل غلاة الشيعة الإباحيون، وكما فعل غلاة الخوارج المارقون، الذين وافقهم على منهجهم من يسري

(١) انظر مجموعة عقائد السلف، رسالة الإمام أحمد في الرد على الجهمية، ص ٦٧.

(٢) البخاري، خلق أفعال العباد، ص ٣٢، ت. د. عبدالرحمن عميرة، ط٢، دار عكاظ.

في دمه الغلو والتشدد؛ وللتدليل على هذه الحقيقة نذكر هذه الحادثة، التي تؤكد أن الجهل في عوام أهل العراق، وفارس، فاق كل تصور؛ وذلك أن السبئية عندما نفت وفاة علي رضي الله عنه، فأوهمت هؤلاء العوام بأنه حي يُرْزق، وهذا النص يعبر عن هذه الحقيقة؛ فقد روى ابن قتيبة، قال: «بلغني عن أبي عاصم، عن إسماعيل بن مسلم المكي، قال: كنت بالكوفة، فإذا قوم من جيراني يكثرون الدخول على رجل، فقلت: من هذا الذي تدخلون عليه؟ فقالوا: هذا (علي بن أبي طالب)، فقلت: أدخلوني معكم، فمضيت معهم، وخبأت معي سوطًا تحت ثيابي، فإذا شيخ بَطِينٌ، فقلت له: أنت علي بن أبي طالب؟ فأوما برأسه: أي نعم، فأخرجت السوط، فما زلت أقنعه، وهو يقول: لتاوي لتاوي، فقلت لهم: يا فَسَقَة، علي بن أبي طالب نبطي؟! ثم قلت له: ويلك! ما قصتك؟ قال: جعلت فداك! أنا رجل من السواد، أخذني هؤلاء، فقالوا: أنت علي بن أبي طالب»[1].

فأمثال هؤلاء العوام كانوا هم مادة الفرق المبتدِعة، فكانت طروحات هذه الفرق المخالفة للدين الحق، المتساهلة في الأمور الشرعية، تجد لها أتباعًا من أمثال هؤلاء، ولو كانت العامة على درجات عالية من الفَهْم والتمييز بين الحق والباطل، لما استطاعت أي فرقة من فرق الضُلَّال أن تنمو، وتكثر، ولماتت مع موت من ابتدأها، ومن دعا إليها.

• الرَّدُّ عَلَى تفْسِيرِ الْمُعَاصِرِينَ لِلافْتِرَاقِ الْعَقَدِيِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

وقبل أن نختم هذا الفصل، عن الأسباب الداخلية للافتراق الْعَقَدِي، نود أن نعطي فكرة موجزة عن تناول بعض المعاصرين لأسباب، أخرى قالوا بها انطلاقًا من واقع العصر الحاضر، الذي يعيشونه، وتبعًا لدعوات معاصرة؛ كالاشتراكية، والديمقراطية، والرأسمالية؛ فحاولوا قياس الواقع الإسلامي الأول على ضوء هذه الدعوات الجاهلية؛ مما حدا بهم إلى الطعن بالصحابة، وحمل أسباب الافتراق على أسباب سياسية بحتة أحيانًا، يبرزون فيها التنافس على الخلافة والإمارة، أو حملها على أسباب اقتصادية بحتة، أو غيرها من المناهج المعاصرة التي توهموها، وضخَّموها، على غير حقيقتها

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، ص ١٤٩.

الصحيحة.

فالدكتور الجابري يضع كتابًا كاملًا يُزيِّفُ فيه الحقائق أكبر تزييف، عندما يفسر كل ما جرى في فترة الخلفاء الراشدين، والخلافة الأموية، يفسره من جانبين فقط: اقتصادي، وسياسي، ويضع ثلاث مراحل قامت عليها الدعوة الإسلامية: مرحلة العقيدة[١]، ثم مرحلة القبيلة[٢]، ثم مرحلة الغنيمة[٣]، وهو يعتقد أن فترة الرسول ﷺ كانت مرحلة العقيدة، ثم رجعت الأمة من بعده إلى مرحلة القبيلة، ثم تناحرت على الغنائم التي جاءت بها الفتوح، ثم يتحدث عن الحركة التنويرية؛ وهي، في رأيه، حركة نشأة الفرق، ويتولى الإشادة بالفرق الضالة، وأهمها فرقة القدرية[٤]، ثم يتهم الدولة الأموية، وخلفاءها، بالقول بالجبر، والإرجاء، ثم يحاول تبرير مقالة الجهم بالإرجاء والجبر، وينسب ذلك إلى الواقع الأليم الذي كان يعيشه الموالي»[٥]. ويخالف الدكتور الجابري جميع أصحاب المقالات والفرق، ويزعم أن الجهم بن صفوان لم يكن جبريًّا، وأنه، بثورته مع الحارث بن سريح، كان يعارض جبرية بني أمية، التي اخترعها الباحثون المعاصرون من أنفسهم، وليس لهم دليل عليها؛ كما سنوضحه[٦].

أما الدكتور هشام جعيط، فقد ألف كتابًا باللغة الفرنسية، وتُرْجِمَ إلى العربية، وقد شحنه بالتفسير السياسي، والاقتصادي لأحداث الفتنة، ونشأة الفرق، ويركز على تفسير الفتوح الإسلامية، وأحداث الفتنة على هذا المنهج، ومما قاله في هذا: «لقد كانت قوة (جيوش الفتح) لا يمكنها أن تظل ساكنة؛ لان دولة المدينة كانت (تلهث) لإشباع قاعدة واسعة أكثر فأكثر؛ من خلال تقديم مزيد من الغنائم لها»، ثم يقول:

(١) عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص ٥٧، ط٢، ١٤١١هـ، المركز الثقافي بيروت.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٣١٩.

(٦) انظر، الجابري، العقل السياسي، ص ٣٢٠.

«فلم تكن تدخل ـ إطلاقًا ـ في حساب تلك الأيدلوجيا فكرة اعتناق الشعوب الأخرى للإسلام»(١). والكتاب بمجموعه صورة من هذا العرض الذي أخذ يضع الأرقام والعملات عن الغنائم، ويحولها إلى عملات معاصرة، ثم يتباكى كما تباكى الدكتور الجابري على توزيع الغنائم، والفيء، والعطاء، وأن أشراف قريش، وحدهم، هم الذين كانوا يأخذون الأعطيات، وكان هذا الدافع الاقتصادي برأيه هو الذي كان سببًا في خروج الفرق، ومقاتلتها للدولة، وكذلك فعل الدكتور الجابري، وزاد على ذلك قوله إن احتكار قريش للسلطة هو العامل السياسي الآخر الذي أسهم في نشأة الفرق.

وأما الدكتور النَّشَّار، فلا يبعد عنهما كثيرًا؛ فهو يزعم أن الخلاف السياسي بين الصحابة حدث يوم السقيفة، وانفجر بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، ثم يفسر نشأة كل الفرق نشأة سياسية، ومن ذلك قوله: «فالإرجاء، من وجهة نظر الباحثين، كان أداة سرية لخدمة الأمويين، ومحاولة تبرير وجودهم كمغتصبين للخلافة الإسلامية»(٢)، مع العلم أن هناك ثورتين أسهم بهما المرجئة، ثورة ابن الأشعث، وثورة الحارث بن سريح، ضد الدولة الأموية، وهذه الحقيقة تُبْطِلُ دعوى الدكتور وغيره، ثم يزعم أن «عليًا، عندما ساوى بين الناس في العطاء، قام بالانتفاضة عليه الزبير، وطلحة، وقاموا بإثارة الحروب ضده، ثم يزعم أن سبب نشأة المعتزِلة هو عدم رعاية السلطان لأموال بيت المال، وعدم توزيعها بالتساوي، وكذلك يفسر نشأة القدرية...إلخ»(٣).

ونحن بدورنا نريد الرد على هذه المزاعم؛ فنقول إن حصر أسباب الافتراق في هذين العنصرين مبالغة غير مقبولة، وقد أوحتها ـ كما قلت سابقًا ـ ظروف العصر الذي يعيشه مثل هؤلاء الكُتَّاب، أما الحقيقة الكبرى التي لا يمكن أن تغطيها هذه المحاولات اليائسة، فإن مجتمع العدل، والمساواة، إنما كان نموذجه الأمثل هذه الفترة

(١) د. هشام جعيط، الفتنة، ص ٤٣، دار الطليعة، بيروت.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، ط١، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٦.

الذهبية من تاريخ الإسلام، ونوضح ذلك بالآتي:

أما من الناحية السياسية، فإن المطالبة بأن تكون الخلافة غير محصورة بقريش نادى بها الخوارج، وبعض القدرية، وهم يمثلون المنهج الخارج على السنة النبوية، التي قالت بذلك، ونصت عليه، أما الإشادة بالثورات التي قام قادتها ينادون بتولي الأمور، فكانت إحدى أسباب الفُرقة الْعَقَدِية، وقد كان لها أسبابها، وظروفها المتشعبة، إلا أن بعض المعاصرين يربطونها بالنواحي الاقتصادية، وينقمون على الخلفاء؛ كما نقم البغاة الخارجون على عثمان رضي الله عنه.

والحقيقة أن الواقع الاقتصادي كان من أبرز الحقائق المستقرة في حياة المسلمين، وهذه هي بعض الشواهد على ذلك؛ فقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون ـ رحمه الله ـ قال: «رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يُصَاب بأيام، ووقف على حذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف[1]، قال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا حمَّلتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمرًا هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا أن تكون حملتما الأرض ما لا تطيق، قالا: لا، فقال عمر: لئن سلمني الله، لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدًا، فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب»[2].

فأين هو الظلم الاقتصادي في خلافة عمر رضي الله عنه، إذا كان هذا همه، ومقصده؟ وهو الذي لم يرضَ لحذيفة، وعثمان، أن يضعا خراجًا على الموالي وغيرهم فوق طاقتهم.

أما عثمان رضي الله عنه، فهو من أصحاب السابقة العظمى، الذي نذر نفسه وماله لخدمة هذا الدين؛ فهو ذو الجود والكرم، ومناقبه أكثر من أن تُحصى، وأكبرها تجهيز جيش العُسرة، فهل بعد هذا الإنفاق الذي قال له رسول الله ﷺ منه: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ

---

(١) كان قد بعثهما إلى أرض السواد ليضربان عليها الخراج وعلى أهلها، انظر فتح الباري، ج٧، ص ٦٢.

(٢) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق، ح رقم ٣٧٠٠، الفتح، ج٧، ص ٥٩.

الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ»[١]، وقال له عندما حفر بئر رومة: «مَنْ يَحْفُرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ»، فحفرها عثمان»[٢]، هل بعد هذا الإنفاق يتهم بأخذ مال المسلمين، وهو أتقى من ذلك، وأعظم؟ وما يهمنا هنا وصف الحالة الاقتصادية في عهده، فقد روى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال: «أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قل ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا، يقال لهم: يا معشر المسلمين، اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على أرزاقكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على السمن والعسل، والأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو مُتَّقًى، وذات البين حسن، والخير كثير، وما من مؤمن يخاف مؤمنًا، ومن لقيه فهو أخوه، قد كان من ألفته، ونصحيته، ومودته، قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة، فإذا كانت فاصبروا، وقال الحسن: فلو أنهم صبروا حين رأوها، لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء، والرزق، والخير الكثير. قالوا: لا والله، ما نصابرها. فوالله، ما وردوا، وما سلموا، والأخرى كان السيف مخمدًا عن أهل الإسلام، فسَلُّوه على أنفسهم، فوالله، ما زال مسلولًا إلى يوم الناس هذا، وايم الله، إني لأراه سيفًا مسلولًا إلى يوم القيامة»[٣]، وعن سعيد بن المسيب، قال: «كانت المرأة تجيء في زمان عثمان إلى بيت المال فتحمل وقرها (جملها)، وتقول: اللهم بدِّلْ أو غيِّرْ، فقال حسان بن ثابت رضي الله عنه حين قُتِلَ عثمان بن عفان:

قُلْتُمْ بَدِّلْ فَقَدْ بَدَّلَكُمْ ... سَنَةً حَرَّى وَحَرْبًا كَاللَّهَبْ
مَا نَقِمْتُمْ مِنْ ثِيَابٍ خَلْفَهُ ... وَعَبِيدٍ وَمِيَاهٍ وَذَهَبْ[٤]

وكان رضي الله عنه يصرف لكل مولود في الإسلام عطاء، فعن محمد بن هلال، عن جدته، وكانت تدخل على عثمان، وهو محصور، فولدت هلالًا، ففقدها يومًا، فقيل

---

(١)، (٢) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان، أوله، الفتح، ج٧، ص٥٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ج٧، ص ٢٢٤، دار الكتب العلمية.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٠٣.

له: إنها قد ولدت هذه الليلة غلامًا، قالت: فأرسل إليَّ بخمسين درهمًا، وشقيقة سنبلانية[١]، وقال: هذا عطاء ابنك، وكسوته، فإذا مرت به سنة رفعناه إلى مئة»[٢].

وكان رضي الله عنه من أعلم الناس بأحوال الأمة؛ فكان يحذِّر من التهالك على الدنيا؛ فيقول: «أما بعد، فإني قد حملت، وقد قبلت، وإني متبع، ولست بمبتدِع، ألا وإن لكم عليَّ، بعد كتاب الله - عز وجل -، وسنة نبيه ﷺ، ثلاثًا: اتباع من كان قبلي، وسَنَّ سنة أهل الخير، والكف عنكم، إلا فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خَضِرَةٌ قد شهيت إلى الناس، ومالَ إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة»[٣].

لقد كانت سيرة عثمان المالية سيرة راشدية صحيحة، وإن ما يردده بعض المعاصرين هي مزاعم البغاة المارقين، الذين خرجوا عليه - رضوان الله عليه -، واستمر علي رضي الله عنه بتشدد أكبر في الأموال، واشْتُهِرَ هذا عنه، واتسمت خلافته في التوزيع الأمثل للعطايا والفيء، حتى مع المخالفين، والخارجين عليه، فعندما خرج الخوارج، كان يقول لهم: «لكم علينا ثلاثة: أن لا نمنعكم من المساجد، ولا من رزقكم من الفيء، ولا نبدأكم بقتال»[٤].

ثم عندما جاءت الدولة الأموية اتسعت رقعة البلاد المفتوحة، وكانت من أغنى دول الإسلام على الإطلاق، وكانت العطايا متوفرة لجميع أفراد المجتمع الإسلامي؛ من السادة إلى العبيد، والموالي، وبلغ ذروة العدل والخير في خلافة عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - حتى أغنى الناس، وزوج العُزَّاب، وفك رق العبيد، واستمرت هذه الحالة في عهود الخلفاء الأمويين، إلى أن ظهر يزيد بن الوليد بن عبد الملك، الذي كان قدريًا

---

(١) نوع من أنواع القماش.

(٢) ابن كثير، ج٧، ص ٢٢٥.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٦٩٣.

(٤) ابن حجر، فتح الباري، ج١٢، ص ٢٨٤.

مائلًا للقدرية»[١]، وقد لقب «بالناقص؛ لنقصه الناس من أعطياتهم ما كان زاده الوليد بن يزيد في أعطياتهم؛ وهي عشرة، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام»[٢].

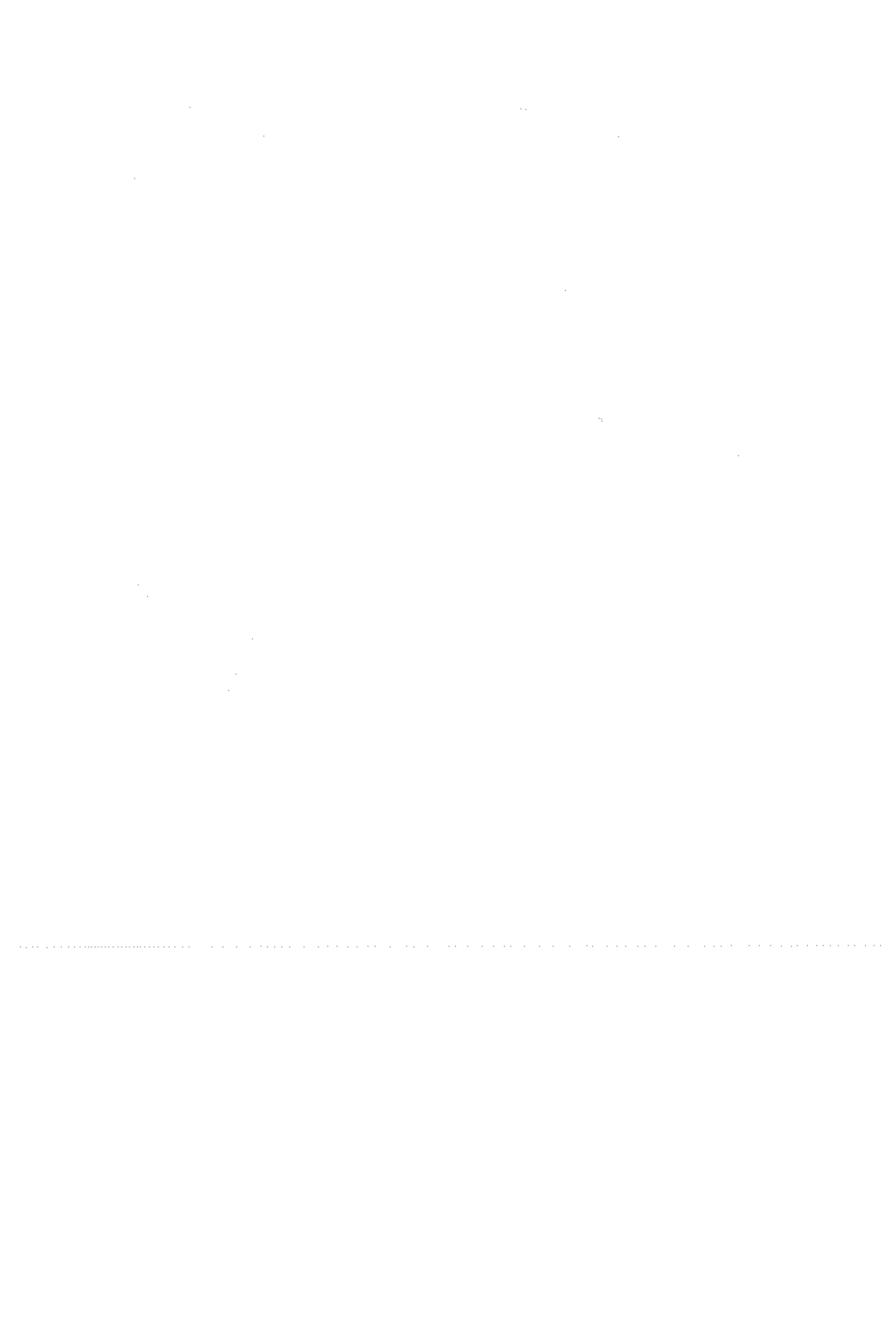
فلم تكن الدولة الأموية تعاني من أي ضائقة مالية لتمنع الناس عطاياهم، كما توهم المعاصرون، الذين يفسرون التاريخ، ونشأة المذاهب والفرق، وكل الأحداث الإسلامية، يفسرونها على ضوء التفسير المادي للتاريخ، الذي قال به هيجل، وماركس، وإنجلز، وغيرهم من شذاذ الآفاق، ولكن الحقيقة الكبرى، التي لا يمكن أن تخفيها مثل هذه المحاولات اليائسة، هي أن الواقع العظيم الذي فرضه الإسلام على البشرية جمعاء، جعل أرباب الملل الخارجية يعادونه، ويحاربونه؛ لأنه دين الله الحق؛ فانطلقوا يمارسون ممارساتهم الهدَّامة لإيقاف زحف هذا الدين وأتباعه؛ كما أوضحناها من قبل، ثم صادفت هذه المحاولات الهدامة ظروفًا داخلية أسهمت في بروز الفرق المنحرفة على الصورة التي سبق ذكرها.

وعلى هذا الأساس الشمولي الكامل يجب أن تُحَلَّلَ الوقائع والأحداث، والله أعلم.

* * * * *

(١) تاريخ، ج٤، ص ٢٥٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ١٣.



الْبَابُ الثَّالِثُ

فِرَقُ الِابْتِدَاعِ وَمَوْقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنْهَا

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: الْخَوَارِجُ.
الْفَصْلُ الثَّانِي: الشِّيعَةُ.
الْفَصْلُ الثَّالِثُ: فِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةِ الْأُولَى.
الْفَصْلُ الرَّابِعُ: الْمُرْجِئَةُ.
الْفَصْلُ الْخَامِسُ: فِرْقَةُ الْمُعْتَزِلَةِ.
الْفَصْلُ السَّادِسُ: الْمُشَبِّهَةُ.
الْفَصْلُ السَّابِعُ: الْجَهْمِيَّةُ.





الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

الخَوَارِجُ

١ـ إِخْبَارُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ ظُهُورِ الخَوَارِجِ:

لقد أخبر النبي ﷺ عن كثير من الأمور المستقبلية، بوحي من الله ـ تعالى ـ، وكان إخباره عن الخوارج أحد هذه الأمور المستقبلية؛ ليقطع على المتنطعين الغلاة العبث بهذا الدين، فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُطَبِّقُ هذا الدين التطبيق الذي أراده الله ـ عز وجل ـ، وكان خير المطبِّقين له هم الصحابة الكرام، وكان يوجههم التوجيهات الصحيحة، البعيدة عن التنطع والغلو؛ فتركوا خلفهم ميراثًا ضخمًا لمن جاء بعدهم، في التطبيق الأمثل لمسائل هذا الدين، في عباداته، ومعاملاته، ومعتقداته، فكان هذا الميراث، بسعته، وبساطته، زادًا لمن جاء بعدهم، يجد فيه الغناء عن الزيادةِ والعنتِ الذي لا صلة لهذا الدين به.

ولعل مبدأ الخروج الذي ابتدعه الخوارج هو خلاف ما ذكرنا عن هذا المنهج؛ فهم الذين تجرأ سَلَفُهُمْ على مقام النبوة، في شخص رسول الله ﷺ وطلب منه العدل، ورسول الله ﷺ هو أعدل البشر، فاتخذوا الطعن، والتشدد، منهجًا لهم، ولم يسعهم ما كان النبي ﷺ يمارسه من شعائر هذا الدين، بالرفق، بلا إفراط، ولا تفريط؛ فتوهموا تطبيقًا، وفهمًا فوق تطبيق وفهم صاحب الرسالة نفسها؛ فلذلك حذر النبي ﷺ منهم، ومن غلوهم، في أوصاف متعددة، سوف نقف عند سردنا لهذه الأحاديث عن الخوارج، والتي وعاها الصحابة الكرام، وفهموها، وكانوا يتوقعون ظهورهم في أي وقت؛ فلما ظهروا، عالج أمرهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بما أوصى به النبي ﷺ.

والأحاديث الواردة في ذم الخوارج وقتالهم بلغت حد التواتر؛ حيث قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، بعد أن عدد طرق أحاديث الخوارج، واستقصاها: «فهذه اثنتا عشرة طريقا إليه، ستراها بأسانيدها، وألفاظها»، ومثل هذا يبلغ حد

التواتر[١]، وقد نقل الكتاني عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: «والأحاديث في ذمهم (يعني الخوارج)، والأمر بقتالهم، كثيرة جدًّا، وهي متواترة عند أهل الحديث؛ مثل أحاديث الرؤية، وعذاب القبر، وفتنته، وأحاديث الشفاعة، والحوض»[٢]، ومع أن هذه الأحاديث، ورد أغلبها في صحيحي البخاري ومسلم، وكتب السنن الأخرى، إلا أن بعض الباحثين المعاصرين، وتحت (ضغوط دهاقنة الاستشراق، والغزو الفكري) توجهوا للطعن بهذه الأحاديث؛ حيث قال د. نايف معروف في رسالته عن الخوارج، والتي كتبها في الجامعة اليسوعية في بيروت: «أما شيوع حديث المارقة، وانتشاره على ألسنة الرواة، وإلصاقه بالخوارج، فعلى الأرجح أنه كان بعد ظهور الحرورية، وانطباق أوصافهم، على روح الحديث، ومعناه؛ مما جعل الناس يتناقلونه على نطاق واسع، وقد يكون خصوم الخوارج من المسلمين هم الذين تعمدوا إشاعته؛ ليكون عونًا لهم في حربهم لهؤلاء الناس، ثم جاء الرواة، والمؤرخون، فوجدوا اتفاق الناس على صحة الرواية، فأثبتوها في مؤلفاتهم، وسيرهم»[٣].

ومثل هذه الشبهات يجدها الباحث في دائرة المعارف الإسلامية، في مادة الحديث؛ حيث زعم هؤلاء المستشرقون أن الأحاديث ألفت من قبل الرواة؛ لتناسب الأحوال المستجدة، وهذا غاية في الكذب، والتبجح؛ من أناس منهج هو الشك رائدهم، ونشئوا في أممهم، لا يعرفون ضوابط الرواية، والتحديث، التي اختصت بها أمة الإسلام، ولا عجب أن نواجه مثل هذه المطاعن من أعداء أمتنا، ولكن العجب أن يردد أبناء هذه الأمة هذه الشبهات، في رسائلهم العلمية، على أنها حقائق مسلمة، وهي، في الحقيقة، من مزاعم المستشرقين، ومكائدهم.

وهذه بعض الأحاديث عن الخوارج التي قيلت في مناسبة مشهورة ظاهرة، قبل

(١) البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٩٠.

(٢) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص ٤٨، ج٢، دار الكتب السلفية، القاهرة.

(٣) الخوارج في العصر الأموي، ص ١٩، ط٣، ١٤٠٦هـ، دار الطليعة، بيروت.

خروجهم، وكانت المناسبة اعتراض ذي الخويصرة (أول الخوارج)[1] على قسمة رسول الله ﷺ للغنائم، وهو أعدل الخلق، وأحسنهم قسمة.

فقد روى البخاري، ومسلم، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله، إن هذه القسمة ما عُدِلَ فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله، لأخبرن النبي ﷺ، فأتيته، فأخبرته، فقال: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى؛ فَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا، فَصَبَرَ»[2].

● وروى البخاري، ومسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة، فقسَّمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بن كلاب، فغضب قريش، والأنصار؛ قالوا: يعطي صناديد أهل نجد، ويدعنا؟ قال: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ»، فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، محلوق، فقال: اتق الله، يا محمد. فقال: «مَنْ يُطِعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ، أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونَا؟ فسأله رجل قَتْلَهُ، أحسبه خالد بن الوليد، فمنعه، فلما وَلَّى قال: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا - أَوْ مِنْ عَقِبِ هَذَا - قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ؛ لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[3].

---

(١) لقول الشهرستاني، (وهم الذين أولهم ذو الخويصرة، وآخرهم ذو الثدية) الملل والنحل، ص ١١٦.

(٢) البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، ح رقم ٣١٥٠، الفتح، ج٦و ص ٢٥١، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، ح رقم ١٠٦٢، المختصر، ج١، ص ٣٨١.

(٣) البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله - تعالى - ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ في رقم ٣٣٤٤، الفتح، ج٦، ص ٣٧٦، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج والمبتدعة، ح رقم ١٠٦٤، المختصر، ج١، ص ٣٨٢.

وفي رواية لجابر بن عبدالله (ت: ٧٨هـ) رضي الله عنه، أن الحادثة حصلت بالجعرانة، عند منصرفه من حنين، «وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطي الناس، فقال: يا محمد، اعدل. قال: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ، لَقَدْ خِبْتُ، وَخَسِرْتُ، إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني، يا رسول الله، أقتل هذا المنافق، فقال: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا، وَأَصْحَابَهُ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[1].

وفي رواية قال خالد بن الوليد (ت٢١هـ): يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «لَا، لَعَلَّهُ يَكُونُ يُصَلِّي»، فقال خالد: وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»، قال: ثم نظر إليه، وهو مقفٍ، فقال: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، قال: أظنه قال: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ»[2].

وفي رواية لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله وهو يقسِّمُ أقسامًا، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال يا رسول الله: اعدل، فقال: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ، وَخَسِرْتُ، إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه؛ فأضرب عنقه، فقال: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ - وَهُوَ قِدْحُهُ -، فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى قُذَذِهِ، فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج في رقم ١٠٦٣، المختصر، ج١، ص ٣٨١.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي وخالد - رضي الله عنهما - إلى اليمن، ح رقم ٤٣٥١، الفتح، ج٨، ص ٦٧، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج رقم ١٠٦٤، ج١، ص ٣٨٢.

الْفَرْثُ وَالدَّمُ، آيتُهُمْ رَجلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تُدَرْدِرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ»، قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم، وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتمِسَ فَوُجِدَ، فأُتِيَ به، حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعت»[1].

وعن سويد بن غفلة (ت:٨٢هـ)، قال: قال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ، فَلَأَنْ أخِرَّ من السماء أحب إلي من أكذب عليه، وإذا حدَّثتكم فيما بيني وبينكم، فإن الحرب خدعة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

وعن أبي ذر (ت: ٣٢هـ) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي (أو: سَيَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي) قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»[3].

وعن سهل بن حنيف (ت: ٣٨هـ) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَتِيهُ قَوْمٌ قِبَلَ الْمَشْرِقِ، (مُحَلَّقَةٌ) رُءُوسُهُمْ»[4].

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ ذكر قومًا يكونون في أمته، يخرجون في فُرقة من الناس، (سيماهم التحالق) قال: «هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ (أو: مِنْ شَرِّ

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ح رقم ٣٦١٠، الفتح، ج٦، ص ٦١٧، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، ح رقم ١٠٦٤، المختصر، ج١، ص ٣٨٣.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ح رقم ٣٦١١، الفتح، ج٦، ص ٦١٨، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، ح رقم ١٠٦٦، المختصر، ج١، ص ٣٨٦.

(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، ح رقم ١٠٦٧، المختصر، ج١، ص ٣٨٦.

(٤) مسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، ح رقم ١٠٦٨، المختصر، ج١، ص ٣٨٦.

الْخَلْقِ)، يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ»(١).

لقد ذُكِرَتْ هذه الأحاديث بمناسبة معروفة؛ وهي اعتراض ذي الخويصرة على قسمة رسول الله ﷺ، ويبدو أن هذه الحادثة وقعت مرتين: مرة عندما قسَّم النبي ﷺ ما بعثه عليٌّ من اليمن، والثانية في الجعرانة، عند قسمة غنائم حنين، وأن ذا الخويصرة هذا غير ذي الثدية المذكور بأنه آية للخوارج.

وقد نصَّت هذه الأحاديث على عدة أوصاف لهؤلاء الخوارج، وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأنهم يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان، وأنهم يمتازون بكثرة الصلاة، وكثرة الصيام، وأنهم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، وأن سيماهم التحالق؛ أي حلق الرءوس الدائم.

٢ـ التَّطَوُّرُ التَّارِيخِيُّ لِظُهُورِ فِرْقَةِ الْخَوَارِجِ:

إن هذه الأوصاف التي جاءت بها الأحاديث النبوية عن الخوارج، جاءت للتحذير منهم، ومن غلوهم، الذي يمثل خطورة كبرى على هذا الدين، وقد أنبأ النبي ﷺ أنه سيخرج من عقب هذا المعترض هؤلاء الخوارج؛ ولذلك فقد كان الصحابة الكرام يتوقعون خروجهم في أي وقت، وسوف نعرض، فيما يلي، للتخوف الذي كان يُبديه الخلفاء الراشدون من ظهور الخوارج.

فعندما تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ارتدت العرب، ومنعت الزكاة، وقام هذا الخليفة الراشد بقتالهم؛ حتى استقرت الجزيرة العربية ثانية، وقد تألف أبو بكر رضي الله عنه قادة المرتدين، ولكنه منعهم من المشاركة في الفتوحات، إلا جنودًا تحت قيادة الصحابة، ولم ينظر الصحابة الكرام إلى هذه الردة على أنها هي دعوة الخوارج التي أخبر عنها النبي ﷺ، وانتهت فترة الصِّدِّيق رضي الله عنه، بعدما تولى بهذه الطريقة الحاسمة إعادة العرب إلى دائرة الإسلام، وكان قرار حروب الردة من أعظم الفتوحات الربانية على هذا الخليفة الراشد ـ رضوان الله عليه ـ؛ فهو رجل المرحلة المهمة في تاريخ الإسلام، الذي

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، ح رقم ١٠٦٥، المختصر، ج١، ص ٣٨٤.

قدَّره الله ـ عز وجل ـ في سابق علمه، وكان أبو بكر الصدِّيق ﷺ، أعظم خلفاء الأمة على الإطلاق، لا يدانيه في هذه المكانة أحد، كيف لا، وهو ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾، [التوبة: ٤٠].

وعـندما تولى الخلافة، بعد أبي بكر الصديق ﷺ، الخليفة الراشـــد الفاروق عمـر ﷺ، وقد اتسعت رقعة الإسلام، كان ﷺ يرقب الأحداث، وكلما سمع عن ظاهرة غريبة كان يعالجها بنفسه؛ ومن أبرز هذه الظواهر التي اهتم بها عمر ﷺ ظاهرة البحث، والتنقير، والسؤال عن المتشابه، التي بدأها صبيغ بن عسيل التميمي، والغريب في هذا الرجل أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يظن أنه من الخوارج الذين أنبأ النبي ﷺ عن خروجهم. قال ابن عساكر مُعَرِّفًا بصبيغ الذي سأل عمر بن الخطاب عما سأله، فجلده، وكتب إلى أهل البصرة ألا يجالسوه: «وفد على معاوية، ولم يزل بِشَرٍّ بعد جلد عمر له، حتى قُتِلَ في بعض الفتن، وهو الذي كان يتتبع مشكل القرآن»(١)؛ «حيث سأل عمر ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾، قال: هي الريح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾، قال: السحاب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾، قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال فأخبرني عن ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴾، [الآيات: ١-٣]، قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقوله ما قلته»(٢).

وروى الدارمي (ت٢٥٥) في سننه، عن نافع مولى عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن صبيغًا العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب، فقرأه، فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب؛ فتصيبك مني العقوبة الموجعة، فأتى به، فقال عمر: تسأل مُحْدَثَةً، فأرسل عمر إلى رطائب من

(١) ابن عساكر، المختصر، ج١١، ص ٤٥.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج١١، ص ٤٥.

جريد، فضربه بها، حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برئ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برئ، فدعا به ليعود له، قال: فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي، فاقتلني قتلًا جميلًا، وإن كنت تريد أن تداويني، فقد، والله، برئت؛ فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري، أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حَسُنَتْ توبته، فكتب عمر: أن يأذن للناس بمجالسته[1].

وفي رواية لابن عساكر أن عمر أوصى، فقال: احملوه على قتب، وابلغوا به حيه، ثم ليَقُمْ خطيب فيَقُلْ: إن صبيغًا طلب العلم وأخطأه، فلم يزل وضيعًا في قومه، بعد أن كان سيِّدًا فيهم، وكان صبيغٌ في البصرة كأنه بعير أجرب، يجيء إلى الحلقة، ويجلس، وهم لا يعرفونه، فتناديهم الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين عمر؛ فيقومون عنه، ويدعونه[2].

أما كيف أن عمر كان يراه أنه من الخوارج، فالنصان التاليان يوضحان ذلك؛ فقد قال صبيغ نفسه: «جئت عمر بن الخطاب، وعلي غديرتان وقلنسية، فقال عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ مِنَ الْمَشْرِقِ حِلْقَانُ الرُّءُوسِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلُوهُ، وَطُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ»، ثم أمر ألا أُؤْوَى، ولا أُجَالَسَ[3]. وفي رواية أخرى: أنه لما سأله، قال له عمر: ضع عن رأسك، فإذا له وفرة، فقال عمر: أما والله، لو رأيتك محلوقًا لضربت الذي فيه عيناك، ثم كتب إلى أهل البصرة: لا تجالسوه. قال: فلو جاء ونحن مئة تفرقنا»[4].

---

(١) الدارمي، السنن، ج١، ص ٥١، رقم ١٥٠، ت. عبدالله هاشم مدني، نشر باكستان ط ١٤٠٤هـ.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج١١، ص ٤٦ بتصرف.

(٣) المصدر السابق، ج١١، ص٤٥.

(٤) ابن عساكر، ج١١، ص ٤٦، وانظر ترجمته في (ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٢، ص ١٩٨، ط ١٤٠٩هـ) دار الفكر لبنان.

فيلاحظ من هذه النصوص أن عمر رضي الله عنه طبق النصوص النبوية ليكتشف حال صبيغ، وهل هو من الخوارج الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم يحلقون رءوسهم؟ فلذلك أمره بالكشف عن رأسه، وزيادة في الحذر فقد عزله عن مجالس العلم والمجتمع؛ حتى لا يثير الشبهات بين الناس. وهكذا مضى عهده ـ رضوان الله عليه ـ وكان أهل البدع مقموعين، لا يجرءون على الإعلان عن شبهاتهم، وبدعهم.

●وعندما تولى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتخوف من الخوارج، ومن فتنتهم، وكانت الميزة الظاهرة لهؤلاء الخوارج هي حلق الرءوس الدائم كما قلنا؛ فعن عبدالله بن الصامت ابن أخي أبي ذر قال: دخلت مع أبي ذر على عثمان، فلما دخل إليه حسر عن رأسه، وقال: والله ما أنا منهم يا أمير المؤمنين (يريد الخوارج)، قال ابن شوذب: سيماهم التسبيت (يعني الحلق)، فقال له عثمان: صدقت، يا أبا ذر، إنما أرسلت إليك لتجاورنا بالمدينة»[1].

وفي رواية: قال أبو ذر لعثمان: يا أمير المؤمنين، افتح الباب، لا تحسبني من قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية[2].

ومما يوضح أن الصحابة كانوا ينتظرون خروج الخوارج ـ أيضًا ـ أن أبا ذر قال لعثمان ـ أيضًا ـ: أحسبتني منهم، يا أمير المؤمنين، والله، ما أنا منهم، ولا (أدركهم)، ثم استاذنه إلى الربذة»[3].

وهذا النص يبين عمق الفَهم الذي كان يتمتع به الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه؛ فقد كانت بوادر الفتنة، وظهور الخوارج تلوح بالأفق؛ فآثر رضي الله عنه الاعتزال في الربذة، وقد توفي رضي الله عنه قبل خروج المارقة، في سنة ٣٢هـ.

ولم ينتهِ عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه إلا وقد فتح البغاة باب الفتنة، الذي تلته

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٢٨، ص ٢٩٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٧١.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠.

أحداث جسيمة؛ فقد اقتتل المسلمون في معركة الجمل، وزادت شقة الخلاف بينهم، ثم اقتتلوا في موقعة صفين، والتي من خلالها بدأت تتوضح دعوة الخوارج المارقين، في غلوهم، وتعنتهم الممقوت، وأحكامهم الظالمة، التي أطلقوها على الخليفة الراشد علي رضي الله عنه، وهو الذي هيأه الله ـ تعالى ـ لقتال هؤلاء المارقة، وخضد شوكتهم، وقد أسهمت حروبه رضي الله عنه في الحد من دعوة الخوارج، وتحجيمها، وهذه من أعظم مناقبه رضي الله عنه؛ فقد قاتلهم وفق النصوص التي سمعها من الرسول ﷺ، وطبقها عليهم.

ولو تتبعنا السرد التاريخي لهذه الأحداث، لطال بنا المقام، ولكننا سنعرض لأهم الملامح الهامة التي أبرزت الخوارج على الهيئة التي وصفهم بها رسول الله ﷺ؛ فنشأة الخوارج الأصلية هي نشأة داخلية بالدرجة الأولى، (وإن كنا لا نلغي الأثر الخارجي تمامًا في هذه النشأة؛ كما سيأتي، إلا أن الأوصاف التي أطلقها الرسول ﷺ عليهم تبدو ذاتية فيهم، وذلك من خلال الغلو، والتنطع، والتسرع، في الأحكام على الغير، وممارسة القتل بدون تورع، وترك أهل الأوثان، وقتلهم لأهل الإسلام؛ فهذه الأوصاف ذاتية فيهم، وقد مارسوا هذه الأوصاف ممارسة فعلية طيلة فترة حياتهم.

فقد بدأت الخوارج تمارس غلوها منذ أن أجبرت عليًا رضي الله عنه على وقف القتال في معركة صفين، ثم أجبروه على التحكيم، ولما حدث التحكيم، وجيء بالكتاب الذي اتفق عليه الحكمان، (خرج الأشعث بن قيس (ت٥٨ هـ) بذلك الكتاب يقرأه على الناس، ويعرضه عليهم، فيقرءونه، حتى مر به على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية، وهو أخو أبي بلال، فقرأه عليهم، فقال عروة بن أدية: تُحَكِّمُونَ في أمر الله ـ عز وجل ـ الرجال؟ لا حكم إلا لله، ثم شد بسيفه، فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة، واندفعت الدابة، وصاح به أصحابه: أن املك يدك، فرجع؛ فغضب للأشعث قومه، وناس كثير من أهل اليمن»[1].

ومن هنا بدأ أمر الخوارج يتضح، ويظهر؛ حيث يصف عمارة بن الربيع حالهم؛

(١) الطبري، تاريخ الامم، ج٣، ص ١٠٤.

فيقول: «خرجوا مع علي إلى صفين، وهم متوادون أحباء، فرجعوا متباغضين أعداء، ما برحوا من عساكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله، ويتشاتمون، ويضطربون بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداء الله، أدهنتم في أمر الله ـ عز وجل ـ، وحكمتم؟! وقال الآخرون: فارقتم إمامنا، وفرقتم جماعتنا، فلما دخل علي الكوفة، لم يدخلوا معه، حتى أتوا حروراء، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفًا، ونادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربيعي التميمي، وأمير الصلاة ابن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله ـ عز وجل ـ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[1].

وروى ابن عساكر عن عبدالله بن شداد (ت ٨٣هـ) أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت له ليالي مقتل علي رضي الله عنه: هل أنت صادقي عما أسالك عنه؟ قال: وما لي لا أصدقك؟ قالت: فحدثني عن قصتهم (أي الخوارج)، قال: «فإن عليًا لما كاتب معاوية، وحكَّم الحكمين، خرج عليه ثمانية آلاف من قُرَّاء الناس، حتى نزلوا بأرض يُقال لها حروراء، من جانب الكوفة، عتبوا عليه، وقالوا: انسلخت من قميص ألبسك الله، واسم سمَّاك الله به، ثم انطلقت، فحكَّمت في دين الله الرجال، فلا حكم إلا لله، فلما بلغ عليًا ما عتبوا عليه، ففارقوا أمره، أذَّن مؤذن: ألا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد قرأ القرآن، فلما امتلأت الدار من قراء الناس، جاء بالمصحف إمامًا عظيمًا، فوضعه عليٌّ بين يديه، وطفق يحركه بيده، ويقول: أيها المصحف، حَدِّث الناس، فناداه الناس: ما تسأل عنه؟ إنما هو مداد وورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ فقال: أصحابكم الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾، إلى قوله: ﴿ يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾، [النساء: ٣٥]، فأمة محمد ﷺ أعظم حقًا، وحرمة، من امرأة ورجل»[2]. ويروي أبو الحسن الأشعري بداية ظهور الخوارج؛

(١) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٨.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج١٨، ص ٥١.

فيقول: «فاضطرب أهل العراق على عليٍّ ـ رضوان الله عليه ـ، وأبوا عليه إلا التحكيم، وأن يبعث عليٌّ، ويبعث معاوية حكمًا؛ فأجابهم علي إلى ذلك، بعد امتناع أهل العراق عليه، وبعد التحكيم قالوا له: فإن عدت إلى قتالهم، وأقررت على نفسك بالكفر، إذا أجبتهم إلى التحكيم، وإلا، نابذناك، وقاتلناك؛ فقال علي ـ رضوان الله عليه ـ: قد أبيت عليكم في أول الأمر، فأبيتم إلا إجابتهم إلى ما سألوا، فأجبناهم، وأعطيناهم العهود، والمواثيق، وليس يسوغ لنا الغدر، فأبوا إلا خلعه، وإكفاره بالتحكيم، وخرجوا عليه؛ فسموا خوارج؛ لأنهم خرجوا على علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ، وصار اختلافًا إلى اليوم[1].

٣ـ أَسْمَاءُ الْخَوَارِجِ الَّتِي اشْتَهَرُوا بِهَا:

وقد سمِّي الخوارج بجملة من الأسماء؛ منها: الخوارج، والحرورية، والشراة، قال أبو الحسن الأشعري: «وللخوارج ألقاب؛ فمن ألقابهم الوصف لهم بأنهم خوارج، ومن ألقابهم الحرورية، ومن ألقابهم الشراة، ومن ألقابهم المارقة، ومن ألقابهم المحكمة، وهم يرضون بهذه الألقاب كلها، إلا بالمارقة؛ فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، والسبب الذي له سموا خوارج خروجهم على علي بن أبي طالب ﷺ، والذي له سُمُّوا مُحَكِّمَةً إنكارهم الحَكَمَيْنِ، وقولهم: لا حكم إلا لله، والذي له سموا حرورية نزولهم بحروراء في أول أمرهم، والذي له سموا شراة قولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله؛ أي بعناها بالحق»[2].

ويعرِّف الشهرستاني الخوارج فيقول: «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمَّى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان»[3].

---

(١) مقالات الاسلاميين، ص ٤، تصحيح، هلموت رتير، ط٣، دار إحياء التراث، بيروت.

(٢) المصدر السابق، المقالات، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٤.

ويضيف السكسكي (ت ٦٨٣) ـ رحمه الله ـ؛ فيقول: «وسميت خوارج لخروجهم على علي رضي الله عنه يوم الحكمين، حين كرهوا التحكيم، وقالوا: لا حكم إلا لله؛ تعريضًا بسَبّ علي رضي الله عنه، وخرجوا من قبضته، وقالوا: شككت في أمرك، وحكَّمت عدوك في نفسك؛ فسُمُّوا بذلك الشكاكية، ومضوا عنه، ونزلوا بأرض يُقال لها حروراء، فسُمُّوا بذلك حرورية، وقالوا: اشترينا أنفسنا من الله ـ تعالى ـ؛ فسموا لذلك شراة»[1].

٤ـ أَبْرَزُ فِرَقِ الْخَوَارِجِ، وَمَقَالاَتُهَا الْعَقَدِيَّةُ:

المُحَكِّمَةُ الأُولَى: لعل هذه الفرقة هي الفرقة الأم، التي تفرعت عنها فيما بعد فرق الخوارج؛ فهم «الذين خرجوا على أمير المؤمنين رضي الله عنه، حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، ورأسهم عبدالله بن الكواء، وعتاب بن الأعور؛ وهو عبدالله بن وهب الراسبي (ت ٣٨)، وعروة بن جرير، ويزيد بن أبي عاصم المحاربي، وحرقوص بن زهير البجلي (ت ٣٧)، المعروف بذي الثدية، وكانوا يومئذ في اثني عشر ألف رجل، أهل صلاة وصيام، أعني يوم النهروان»[2].

ويروي ابن حجر (ت ٨٥٢) أن ابن عباس عندما ناظرهم[3]، ورجع الكثير منهم، خرج إليهم علي بن أبي طالب، فأطاعوه، ودخلوا معه الكوفة، معهم رئيسهم المذكور (عبدالله بن الكواء، وشبت التميمي)، ثم أشاعوا أن عليًا تاب من الحكومة؛ ولذلك رجعوا معه، فبلغ ذلك عليًا؛ فخطب، وأنكر ذلك، فتنادوا من جوانب المسجد: لا حكم إلا لله، فقال: كلمة حق يُراد بها باطل، فقال لهم: لكم علينا ثلاث: أن لا نمنعكم المساجد، ولا من رِزْقِكِمْ من الفيء، ولا نبدؤكم بقتال، ما لم تحدثوا فسادًا، وخرجوا شيئًا بعد شيء، إلى أن اجتمعوا بالمدائن، فراسلهم في الرجوع، فأصروا على

(١) عباس بن منصور السكسكي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، ص ١٧، ت. د. بسام العموش، ط١، ١٤٠٨هـ، مكتبة المنار، الأردن.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٥.

(٣) سنأتي على ذكر هذه المناظرة عند ردود علماء السلف على الخوارج.

الامتناع، حتى يشهد على نفسه بالكفر؛ لرضاه بالتحكيم، ويتوب، ثم راسلهم - أيضًا -، فأرادوا قتل رسوله، ثم اجتمعوا على أن من لا يعتقد معتقدهم يُكَفَّر، ويباح دمه، وماله، وأهله، وانتقلوا إلى الفعل، فاستعرضوا الناس، فقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين، ومر بهم عبدالله بن خباب بن الأرت (ت ٣٨هـ)، وكان واليًا لعلي على بعض تلك البلاد، ومعه سرية، وهي حامل، فقتلوه، وبقروا بطن سريته عن ولد، فبلغ عليًّا، فخرج إليهم في الجيش الذي كان هيأه للخروج إلى الشام، فأوقع بهم بالنهروان، ولم يَنْجُ منهم إلا دون العشرة، ولا قُتِلَ ممن معه إلا نحو العشرة»[(١)]. وروى الطبري في تاريخه قال: قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل من جانب المسجد: لا حكم إلا لله، فقام آخر، فقال مثل ذلك، ثم تولى عدة رجال يحكمون، فقال علي: الله أكبر! كلمة حق يُلْتَمَسُ بها باطل، أما إن لكم عندنا ثلاثًا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدءونا»[(٢)].

وقد كانت هذه الصيحات المنكرة تعبِّر عن غلو الخوارج، ومروقهم، وذهاب هيبة الخليفة الراشد من نفوسهم؛ وذلك بتكفيره، وطلبهم منه التوبة، ومع كل هذه الإساءات البالغة من هؤلاء الخوارج فلم يبدأهم علي رضي الله عنه بالحرب، وكانت نيته رضي الله عنه العودة لقتال أهل الشام، بعد نهاية الهدنة معهم، وقد أشار عليه بعض أصحابه بقتال الخوارج أولًا، ولكن الذي عجَّل في قتال علي للخوارج هو استعراضهم للناس بالقتل، وقتل عبدالله بن خباب بن الأرت رضي الله عنه، ولعل هذه الحادثة أبرزت الخوارج على الوصف الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فهم يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان؛ فقد روى ابن سعد أصل الحادثة على رجل من الخوارج، ثم فارقهم من عبدالقيس، قال: دخلوا قرية، فخرج عليهم عبدالله بن خباب ذعرًا، قالوا: لن تراع قال: والله لقد رعتموني، قالوا: لن تراع، قالوا: أنت عبدالله بن خباب صاحب رسول الله؟ قال:

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٢، ص ٢٨٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١١٤.

نعم، قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثًا يحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثنا؟ قال: نعم سمعت أبي يحدث عن رسول الله ﷺ[(١)] ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، قال: فإن أدركت ذلك فكن عبدالله المقتول، قال أيوب بن حميد: ولا أعلمه إلا قال: ولا تكن عبدالله القاتل. قالوا: أسمعت هذا من أبيك يحدِّثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: فقدَّموه على ضفة النهر، فضربوا عنقه، فسال دمه كأنه شراك نعل، وبقروا أم ولده؛ (فبهذا استحل عليٌّ قتالهم)[(٢)]، وفي رواية للإمام الطبري أنهم سألوه عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وأنه تولاهما، فلما سألوه عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنه أعلم بالله منكم، وأشد تَوَقِّيًا على دينه، وأنفذ بصيرة، فقالوا: إنك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها، لا على أفعالها، والله لنقتلنك قِتلة ما قتلناها أحدًا، فأخذوه، فكتفوه، ثم أقبلوا به، وبامرأته، وهي حُبْلَى مُتِمٌّ، حتى نزلوا تحت نخل مواقر، فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم، فقذف بها في فمه، فقال أحدهم: بغير حلها، وبغير ثمن؟! فلفظها، وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه، فأخذ بيمينه، فمر به خنزير لأهل الذمة، فضربه بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير، فأرضاه عن خنزيره، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس، إني لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثًا، ولقد أمَّنتموني، قلتم لا روع عليك، فجاءوا به، فأضجعوه، فذبحوه، وقتلوا زوجه»[(٣)].

وذكر المبرد أنهم بعد ما قتلوا عبدالله بن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزوجته، «مرُّوا على رجل نصراني، فساوموه على نخلة، فقال: هي لكم، فقالوا: ما كنا لنأخذها إلا بثمن. قال:

---

(١) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتاب الفتن، باب تكون فتنة، ح، رقم ٧٠٨٢، الفتح، ج١٣، ص٣٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص١٩٠.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٩، وقصة قتل عبدالله بن خباب، وأكل الخارجي للتمرة، ثم قتل الخنزير رواها ابن حجر في المطالب العالية بسند قوي، ج٢، ص ٣١٩، رقم ٤٥٠٥، ت. حبيب الأعظمي، دار المعرفة، لبنان.

ما أعجب هذا، تقتلون عبدالله بن خباب، ولا تقبلون منا جني نخلة!![(١)].

أمام هذه الحادثة الخطيرة برزت حقيقة الخوارج؛ فهم يقتلون صحابيًا جليلاً، ويسترضون ذميًا في خنزير، فكانت هذه الحادثة قد عجّلت بالقضاء عليهم؛ فقد ظهر خطرهم على الأمة، وعلى أمنها ودينها، فكان قدر الله ـ تعالى ـ أن أكرم عليًا رضي الله عنه أن قاتل هؤلاء المارقة، وخضد شوكتهم، وفرّق من تبقى منهم في الأمصار، قال ابن حزم: «وقتل أهل النهروان من الخوارج، ونِعْمَ الفتح كان، أَنْذَرَ به النبي ﷺ»[(٢)].

تحقيق هام للتفريق بين ذو الثديه، وذو الخويصرة، وحرقوص بن زهير، وأنه لا يوجد بين الخوارج صحابي واحد

ومن النقاط الهامة التي تستوقفنا عند هؤلاء المُحَكِّمَةِ، أو الخوارج، أنهم ذكروا وجود صحابة من بينهم، ونصوا على وجود حرقوص بن زهير، الذي له ذكر في الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وكعادة فرق الابتداع التي تنسب نفسها إلى الصحابة، فلم يكن الخوارج بعيدين عن هذه الأكذوبة؛ حيث يقول أحد مصنفيهم؛ وهو محمد بن سعيد القلهاني: «فلما علم بذلك المسلمون (يعني الخوارج)، وتحققوا منه (أي من علي) الحكومة، ورجوعه إليها بعد التوبة (بزعمهم)، فارقوه، وخرجوا مُحَكِّمِينَ الله ـ تعالى ـ، وهم سيارة الله في الأرض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ فخرجوا من عنده، ونزلوا أرضًا من أرض الكوفة، يقال لها حروراء، فاجتمع فيها يومئذ عشرة آلاف من خيار (الصحابة)، ورؤساء المسلمين، وفقهائهم، وقرائهم، وعلمائهم؛ فيهم يومئذ عبدالله بن وهب الراسي، وهو أول إمام عقدوا له، وفيهم حرقوص بن زهير السعدي، وجماعة من المهاجرين، والأنصار»[(٣)]. هذه مزاعم أحد مصنفي الخوارج، عن وجود صحابة من المهاجرين والأنصار في صفوفهم، ومع سقوط هذه الدعوى، وعدم

---

(١) المبرد الكامل في اللغة والأدب، ج٢، ص ١٥٨، مؤسسة المعارف، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) ابن حزم، موجز تاريخ الإسلام، ج١٧، ت. بديع اللحام، ط١، ١٤٠٩هـ، دار الإيمان.

(٣) القلهاني، الفرق الإسلامية، ص ٧١ ـ ٧٢، ت. محمد عبدالجليل، ط ١٤٠٤هـ، تونس ويرجح أنه ألف هذا الكتاب قبل سنة ١٠٧٠هـ، المقدمة، ص ٦.

صحتها، إلا أن هناك ثلاثة أسماء وردت في نطاق المُحَكِّمَةِ الأولى من الخوارج تحتاج إلى بيان، وتوضيح لطبيعة حالها؛ من حيث ذكرها في نطاق الصحابة؛ وهذه الأسماء هي: حرقوص بن زهير، وذو الخويصرة، وذو الثدية، فهل هذه الأسماء تعبر كل واحدة منها عن شخصية مستقلة بذاتها، أم أنها تعبر عن شخصيتين فقط؛ باعتبار حرقوص شخصية واحدة، وذي الثدية، وذي الخويصرة شخصية واحدة؟ أم أن حرقوص بن زهير يمثل هذه الأسماء كلها؟

وهذه المسألة في غاية الإشكال؛ وذلك لورود كل شخصية بأخبار منفصلة عن الأخرى؛ فأول ذكر لذي الخويصرة عند اعتراضه على قسمة رسول الله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري السابق ذكره، وأول ذكر لحرقوص بن زهير في خلافة عمر ابن الخطاب، عندما بعثه عمر بن الخطاب مددًا للمسلمين لحرب الهرمزان[(١)]، وأول ذكر لذي الثدية جاء على لسان رسول الله ﷺ؛ عند قوله: «آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ»[(٢)].

فلنعرض أولًا لذي الخويصرة، الذي اعترض على رسول الله ﷺ؛ فقد عَرَّف به ابن حجر، فقال: ذكره ابن الأثير في الصحابة، مستدركًا على من قبله، ولم يورد في ترجمته سوى ما أخرجه البخاري، من حديث أبي سعيد السابق، ذكره، ثم قال: وأخرجه من تفسير عبدالرازق ـ ولكن قال فيه: إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي؛ وهو حرقوص بن زهير ـ قلت (أي ابن حجر): ووقع في موضع آخر في البخاري؛ فقال: عبدالله بن ذي الخويصرة [وعندي في ذكره في الصحابة وقفة][(٣)].

وباعتبار هذا النص، فإن ذا الخويصرة يكون قد اعترض على النبي ﷺ في سنة ثمان للهجرة، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا، وَمِنْ عَقِبِ هَذَا...»، وصف الخوارج الذي ذكرناه سابقًا؛ فهل هلك ذو الخويصرة بعد فترة، وقبل

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٩٦.

(٢) سبق تخريجه في هذا الفصل.

(٣) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ٤٨٥.

خروج الخوارج، وكان شخصية مستقلة؟ ولو كان ذو الخويصرة هو حرقوص بن زهير، لما بعثه عمر بن الخطاب على رأس مدد للمسلمين لحرب الهرمزان؛ خاصة وأنه قد استاذن النبي ﷺ في قتله، ثم إن ذا الخويصرة ـ أيضًا ـ ليس هو ذا الثدية ـ؛ لقول النبي ﷺ «آيَتُهُمْ رَجُلٌ مُخَدَّجٌ»، أو أن إحدى يديه كثدي المرأة، فلو كانت هذه الأوصاف موجودة في ذي الخويصرة لذكره باسمه، وأشار إلى شخصه الماثل؛ مما يجعلنا نميل إلى أن ذا الخويصرة شخصية مستقلة، وأنه قد يكون هلك قبل خروج الخوارج على علي رضي الله عنه، والله أعلم.

ثم هل كان ذو الخويصرة أحد المنافقين الذين لا يعرفون المعتقد الحق بالنبوة؛ ولذلك وصفه ابن تيمية فقال: «فهذا المبتدِع الجاهل لَمَّا ظن أن ما فعله الرسول ليس بعدل، كان ظنه كاذبًا، وكان إنكاره ظالمًا، وهذا حال كل مبتدِع»[1]. ومن كان هذا وصفه كيف يُعَدُّ من الصحابة؟!

أما حرقوص بن زهير، فقد مضى في نص ذي خويصرة تَوَقُّفُ ابن حجر من أنه من الصحابة؛ فحرقوص بن زهير أول ما يبدو؛ كما قلت، هو «بعث عمر له لحرب الهرمزان»[2]، ثم يظهر على رأس الخارجين على عثمان رضي الله عنه»[3]، «وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه هرب إلى قبيلة بني سعد، فآوته، ومنعته في ستة آلاف مقاتل»[4]، ثم يظهر في صف الخوارج، وهو يقول لعلي: «لا حكم إلا الله، تب من خطيئتك»[5]، ويبدو في معركة النهروان في وصف الخوارج؛ «حيث يقتله أبو المعتز الكناني في نفس المعركة»[6].

---

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج٧، ص ١٨١.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٤٩٦.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ٦٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٩ ـ ٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٣، وابن الأثير الكامل في التاريخ، ج٣، ص ١٦٩.

(٦) الطبري، ج٣، ص ١٢١ ـ ١٢٢، وابن الأثير، ج٣، ص ١٧٥.

ولكن ابن حجر عندما أتى على ترجمته؛ كما سبق وقلت، توقف في وضعه في الصحابة، ثم ذكر عن الهيثم بن عدي «أن الخوارج تَزْعُمُ أن حرقوص بن زهير كان من أصحاب رسول الله ﷺ، وأنه قُتِلَ معهم يوم النهروان، قال: فسألت عن ذلك، فلم أجد أحدًا يعرفه، وذكر بعضُ مَن جمع معجزات النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ إِلَّا وَاحِدٌ»؛ فكان هو حرقوص بن زهير، والله أعلم»[1].

ومع تردد ابن حجر السابق، فقد أورد في المطالب العالية رواية ضعيفة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حضرت رسول الله ﷺ يوم حنين، وهو يقسِّم الغنيمة، فذكر الحديث في قول الرجل هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فحضرت بعد ذلك مع علي حين قتلهم بالنهروان، فالتمسه علي (يعني المخدَّج)، فلم يجده، قال: ثم وجده بعد ذلك على هذا النعت، فقال علي: أيكم يعرف هذا؟ فقال رجل من القوم: نحن نعرفه، هذا حرقوص، وأمه هاهنا، قال: فأرسل إلى أمه، فقال لها: ممن هذا؟ قالت: ما أدري، يا أمير المؤمنين، إلا أني كنت في الجاهلية أرعى غنمًا لي بالربذة، فغُشِيَ عليَّ شيء كهيئة الظلمة، فحملت منه، فولدت هذا»[2].

وهذه الرواية، مع ضعفها، فهي في غاية الغرابة، ولا يحصل بها المقصود من حسم هذا الإشكال؛ وهو أن حرقوصًا هو المخدج، والله أعلم؛ وذلك لانفصال أخبار حرقوص وقتله، عن مقتل ذي الثدية.

ويردد ابن الأثير ما ذكره الطبري، ويذكر ـ أيضًا ـ أنه قُتِلَ مع الخوارج سنة سبع وثلاثين[3]، وعندما ذكر الطبري وفاة حرقوص، ذكر بعدها قصة ذي الثدية، والبحث

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ٣٣٠.

(٢) ابن حجر، المطالب العالية بزوائد الثمانية، ج٤، ص ٣١٣، رقم ٤٥٠٠، ت. حبيب الرحمن الأعظمي، وقد رمز للحديث بالضعف، قال الهيثمي، رواه أبو يعلي مطولا وفيه أبو معشر نجيح وهو ضعيف.

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص ٤٧٤.

عنه بين القتلى[١]، وكذلك ابن الأثير[٢]، وذكره الدينوري[٣] - أيضًا - في رواية منفصلة عن مقتل حرقوص بن زهير، فهل كان حرقوص بن زهير صحابيًّا أم لا؟!

الحقيقة التي يمكن ملاحظتها أن حرقوصًا هذا ورد أول ذكر له عند الفتوحات، ولم يُذْكَرْ على عهد الرسول ﷺ، فذِكْرُهُ في هذه المرحلة يعني أنه أسلم مؤخرًا، بعد وفاة الرسول ﷺ، وهذا الأمر ليس مستغربًا؛ إذ أسلم الكثير من قبائل العرب، ولم يشاهدوا الرسول ﷺ، ولم يُعَدُّوا من الصحابة.

الثاني: أن الرواية أنه شهد الحديبية تحتاج إلى توثيق، وتصحيح، ولا يعقل أن يؤتى بنص مثل هذا للخروج من هذا الإشكال؛ هذا إذا ثبتت صحة هذا النص الغريب الذي نقله ابن حجر عن الهيثم بن عدي، دون أن يكون له سند يعرف.

والثالث: يبدو أن حرقوصًا هذا ليس هو ذا الخويصرة، وليس هو ذا الثدية الذي سنأتي على ذكره؛ وذلك لسرد أحداث خاصة بهذين الشخصين في أمكنة مختلفة.

أما الشخصية الثالثة، فهي شخصية ذي الثدية، وهو علامة الخوارج، كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تُدَرْدِرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ»، قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم، وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالْتُمِسَ، فوُجِدَ، فَأُتِيَ به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعت»[٤].

وروى الإمام البسوي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال، ذكر رسول الله ﷺ (ذا الثدية)، فقال: «شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ؛ كَرَاعِي الْخَيْلِ، يَحْتَدِرُهُ رَجُلٌ مِنْ بُجَيْلَةَ يُقَالُ لَهُ

(١) الطبري، ج٣، ص ١٢٢.

(٢) وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص ١٧٥.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٠٨.

(٤) الحديث سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم.

الْأَشْعَبُ أَوِ ابْنُ الْأَشْهَبِ عِلَايَةٌ فِي قَوْمٍ ظَلَمَةٍ»[١]. وكان سعد بن أبي وقاص يقول: قتل علي شيطان الردهة؛ يعني المخدَّج. يريد - والله أعلم -: قتله أصحاب علي بأمره)[٢]؛ فإخبار النبي ﷺ عن علامة ستأتي يُعْرَفُ بها الخوارج المارقون، ولو كان ذو الخويصرة تنطبق عليه هذه الأوصاف، لكان مشاهدته، وإشارة النبي ﷺ حالة كافية، أما العلامة، فإنها ستظهر في رجل يكون في زمان قادم؛ ولذلك بحث علي رضي الله عنه، وقال لأصحابه: «التمسوا فيهم المخدَّج، فالتمسوه، فلم يجدوه، فقام علي رضي الله عنه بنفسه، حتى أتى ناسًا قد قُتِلَ بعضهم على بعض، قال: أخروهم، فوجدوه مما يلي الأرض؛ فكبر ثم قال: صدق الله، وبلَّغ رسوله، قال: فقام إليه عبيدة السلماني، فقال: يا أمير المؤمنين، والله الذي لا إله إلا هو لسمعتَ هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو، حتى استحلفه ثلاثًا، وهو يحلف له»[٣].

وفي رواية أن عليًا رضي الله عنه قال: انظروا، فنظروا، فلم يجدوا شيئًا، فقال: ارجعوا، فوالله ما كَذَبْتُ، ولا كُذِبْتُ، مرتين أو ثلاثًا، ثم وجدوه في خَرِبَةٍ، فأتوا به، حتى وضعوه بين يديه»[٤].

ونحن نتساءل: هل كان ابن الثدية ذا أهمية كبرى في حركة الخوارج، أم أنه علامة على صدق حال علي رضي الله عنه، وصواب حربه لهم؛ ولذلك كان فرحه الشديد الذي عبر عنه بالصورة السابقة ذكرها؟ وأمام هذه النصوص التي تشير إلى هذه الشخصيات الثلاثة، فإننا نميل إلى أنها شخصيات مستقلة، وأن ذا الخويصرة هو أحد المنافقين الذين خرج من عقبهم مثل حرقوص بن زهير، وذي الثدية، وأن حرقوص بن زهير ليس

---

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٣، ص ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠٧.

(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، النووي بشرح مسلم، ج٧، ص ١٧٢.

(٤) مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، النووي بشرح مسلم، ج٧، ص ١٧٣، وانظر تفاصيل قتل ذو الثدية في الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ١٢٢ - ١٢٣.

صحابيًّا؛ كما توقف بذلك ابن حجر، وقد أتيت بهذه المقارنة لإثبات حقيقة إسلامية كبرى؛ وهي أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يشاركوا في أي بدعة من البدع المنكرة؛ وأولها بدعة الخوارج، وعلى هذا الأصل العظيم لا يمكن قبول دعوى الخوارج أن حرقوص بن زهير هو أحد الصحابة، والله أعلم.

مَقَالَةُ المُحَكِّمَةِ الأُولَى الَّتِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهَا:

تعتبر هذه الفرقة أول من فارق جماعة المسلمين، بغلوها، وتنطعها الذي سبق بيانه؛ حيث توجهت لقتال الأمة، مُمَثَّلَةً بخليفتها الراشد علي رضي الله عنه، وكانت نواتهم الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه، ولعل أكبر ما يميزهم هو الجرأة على قتل المسلمين، واستباحة دمائهم؛ تبعًا لغلوهم، وتطرفهم؛ حيث يقول الملطي: فهم المُحَكِّمَةُ الذين كانوا يخرجون بسيوفهم في الأسواق، فيجتمع الناس على غفلة، فينادون: لا حكم إلا لله، ويضعون سيوفهم فيمن يلحقون من الناس، فلا يزالون يقتلون حتى يُقْتَلُوا، وكان الواحد منهم إذا خرج للتحكيم لا يرجع حتى يقتل، فكان الناس منهم على وجل وفتنة، ولم يبقَ منهم اليوم أحد على وجه الأرض، بحمد الله»[١].

أما أبرز انحرافاتهم الْعَقَدِية، فهي تكفير الصحابة الكرام؛ حيث يقول أبو الحسن الأشعري: «أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ، أَنْ حَكَّمَ، وهم مختلفون: هل كُفْرُهُ شرك أم لا؟ وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر، إلا «النجدات»؛ فإنها لا تقول ذلك، وأجمعوا على أن الله ـ سبحانه ـ يعذب أصحاب الكبائر عذابًا دائمًا، إلا «النجدات» أصحاب نجدة»[٢].

وقال أبو منصور البغدادي: «الخوارج، على اختلاف فرقها، يجمعها القول بتكفير علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعائشة ـ رضوان الله عليهم ـ، وجيشهما، وتكفير

---

(١) الملطي، التنبيه والرد على أهل البدع والأهواء، ج ٤٧، ط ١٤١٣هـ، المكتبة الأزهرية، القاهرة.

(٢) أبو الحسن الأشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، ص ٨٦.

معاوية رضي الله عنه، وأصحابه بصفين، وتكفير الْحَكَمَيْنِ، ومن حَكَّمَهُمَا، أو رضي بحكمها، وتكفيرها من ارتكب كبيرة، ووجوب الخروج على السلطان الجائر، وإن كان على رأيهم[١]. ثم قال: فهؤلاء هم الذين خرجوا من الخوارج، والمحكمة، ولم يحدثوا مذهبًا غير ما حكيناه عنهم[٢].

ومن بدعهم التي قالوا بها بدعتهم في الإمامة؛ «إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم، وعاشر الناس على من مثلوا له من العدل، واجتناب الجور، كان إمامًا، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه، وإن غيَّر السيرة، وعدل عن الحق، وجب عزله، أو قتله، وهم أشد الناس قولًا بالقياس، وجوَّزوا أن لا يكون في العالم إمام أصلًا، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبدًا، أو حرًّا، أو نبطيًّا، أو قرشيًّا»[٣]. هذه مقالات الْمُحَكِّمَةِ الأولى من الخوارج الذين فارقوا الأمة، وابتدعوها بغلوهم وتطوفهم.

فِرْقَةُ الأَزَارِقَةِ وَبِدَعُهُمُ الْعَقَدِيَّةُ:

●اتِّبَاعُ نَافِعِ بْنِ الأَزْرَقِ الْحَنَفِيِّ الْمُكَنَّى بِأَبِي رَاشِدٍ: «ولم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عددًا، ولا أشد منهم شوكة»[٤]، «وهو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج بقوله بالبراءة من القعدة، والمحنة لمن قصد عسكره، وإكفار من لم يهاجر إليه»[٥]، «وكان خروجه بالبصرة، ثم الأهواز، فغلبوا عليها، وعلى كورها، وما وراءها من بلدان فارس، وكرمان، في أيام عبدالله بن الزبير، وقتلوا عماله في هذه النواحي.

(١) أبو منصور البغدادي، الملل والنحل، ص ٥٨، ت والبير نصري نادر، ط٢، دار المشرق بيروت.

(٢) المصدر السابق، التبصير في الدين، ص ٤٥، ت كمال الحوت، ط١، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب بيروت، وانظر الفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٤٩، ت محمد البغدادي.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٦، ط١و ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨٢.

(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٨٦.

وكان معه من أمراء الخوارج عطية بن الأسود الحنفي، وعبدالله بن الماحوز، وأخواه عثمان والزبير، وعمرو بن عمير العنبري، وقطري بن الفجاءة المازني، وعبيدة بن هلال اليشكري، وعبد ربه الصغير، وعبد ربه الكبير، في زهاء ثلاثين ألف فارس، ممن يَرَى رأيهم، وينخرط في سلكهم»[١].

مَقَالَاتُهُمْ وَانْحِرَافَاتُهُمُ الْعَقَدِيَّةُ:

قال الشهرستاني: وبدع الأزارقة ثمانية: إحداها: أنه أكفر عليًا رضي الله عنه، وقال: إن الله أنزل في شأنه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾، [البقرة: ٢٠٤]، وصوب عبدالرحمن بن ملجم ـ لعنه الله ـ وقال: إن الله أنزل في شأنه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾، [البقرة: ٢٠٧]، وعلى هذه البدعة مضت الأزارقة، وزادوا عليه تكفير عثمان، وطلحة، والزبير، وعائشة، وعبدالله بن عباس رضي الله عنه، وسائر المسلمين معهم، وتخليدهم في النار جميعًا»[٢].

والثانية: أنه أكفر القَعَدَة، وهو أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كان موافقًا له على دينه، وأكفر من لم يهاجر إليه»[٣]، قالوا إن القعدة، ممن كان على رأيهم، عن الهجرة إليهم، مشركون، وأوجبوا امتحان من قعد عن عسكرهم إذا ادعى أنه منهم، أن يُدْفَعَ إليه أسيرٌ من مخالفيهم، ويأمروه بقتله، فإن قتله صدقوه في دعواه أنه منهم، وإن لم يقتله قالوا: هذا منافق مشرك، وقتلوه»[٤].

والثالثة: «إباحة قتل أطفال المخالفين، والنسوان معهم»[٥]، «ويرون أن أطفال المشركين في النار، وأن حكمهم حكم آبائهم، وكذلك أطفال المؤمنين؛ حكمهم

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٩.
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٢٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٢١.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨٣.
(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٢١ـ ١٢٢.

حكم آبائهم»[١]. «وأباحوا قتل الأطفال، والعميان، والعجائز، والعرجان، وكانوا يطرحون الأطفال في قدور الأقط، وهي تغلي»[٢]، «وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار»[٣].

وقال ابن حزم: «وقالوا باستعراض كل من لقوه من غير عسكرهم، ويقتلونه إذا قال أنا مسلم، ويحرمون قتل من انتمى إلى اليهود، أو إلى النصارى، أو إلى المجوس. وبهذا شهد عليهم رسول الله ﷺ بالمروق من الدين؛ كما يمرق السهم من الرمية؛ إذ قال - عليه السلام -: «إِنَّهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَتْرُكُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ»، وهذا من إعلام نبوته ﷺ؛ إذ أنذر بذلك، وهو من جزئيات الغيب، فخرج نصًّا كما قال»[٤].

والرابعة: «إسقاط الرجم عن الزاني؛ إذ ليس في القرآن ذكره، وإسقاط حد القذف عمن قذف المحصن من الرجال، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء»[٥]، «وقطعوا يد السارق في القليل والكثير، ولم يعتبروا في السرقة نصابًا»[٦].

والخامسة: أن التقية غير جائزة في قول، ولا عمل»[٧].

والسادسة: «تجويزه أن يبعث الله - تعالى - نبيًّا يعلم أنه يَكْفُرُ بعد نبوته، أو كان كافرًا قبل البعثة»[٨].

---

(١) الأشعري، مقالات، ص ٨٩.

(٢) السكسكي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، ص ٢١.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨٣، والإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٥٠.

(٤) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٥، ص ٥٢، ت. د. محمد نصير، ود. عبدالرحمن عميرة، ط١، ١٤٠٣هـ، دار عكاظ للنشر والتوزيع، جدة.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢١.

(٦) الفرق بين الفرق، ص ٨٤.

(٧) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٢٢.

(٨) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٢٢.

والسابعة: «اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كَفَرَ كُفْرَ ملة، خرج به عن الإسلام جملة، ويكون مخلدًا في النار مع سائر الكفار»[1].

وتبعًا لجهل الخوارج، وقلة فقههم، وفَهْمهم، فقد كانت هذه الانشقاقات المتعددة سببًا في كثرة فِرَقِهِمْ، وافتراقهم عن بعضهم البعض، وكان هذا الافتراق يحدث نتيجة آراء، أو اجتهادات، إذا خالف قائدهم فيها أحد، فعلى الفور ينشئ المخالف فرقة جديدة، ومن الأمثلة على الانشقاقات ما روي أن «امرأة من أهل اليمن عربية ترى رأي الخوارج، تزوجت رجلًا من الموالي على رأيها، فقال لها أهل بيتها: فَضَحْتِنَا، فأنكرت ذلك، فلما أتى زوجها قالت له: إن أهل بيتي، وبني عمي، قد بلغهم أمري، وقد عيَّروني، وإني خائفة أن أُكْرَهَ على تزويج بعضهم؛ فاختر مني إحدى ثلاث خصال: إما أن تهاجر إلى عساكر نافع؛ حتى نكون مع المسلمين في حوزهم، ودارهم، وإما أن تخبئني حيث شئت، وإما أن تخلي سبيلي، فخلى سبيلها، ثم إن أهل بيتها استكرهوها؛ فزوجوها ابن عم لها، لم يكن على رأيها، فكتب ممن بحضرتها بأمرها إلى نافع بن الأزرق، يسألونه عن ذلك، فقال رجل منهم: إنها لم يَسَعْهَا ما صنعت، ولا وسع زوجها ما صنع من قبل هجرتها؛ لأنه كان ينبغي لهما أن يلحقا بنا؛ لأننا اليوم بمنزلة المهاجرين بالمدينة، ولا يسع أحدًا من المسلمين التخلف عنا، كما لم يَسَعْ التخلف عنهم، فتابعه على قوله ذلك نافع بن الأزرق، وأهل عسكره، إلا نفرًا يسيرًا، وبرئوا من أهل التقية»[2].

فكانت مثل هذه الاجتهادات، والنقاشات، التي تعبر عن عدم إلمامهم بالقضايا الفقهية، وانعزالهم في أفهام خاصة بهم، كانت كل هذه سببًا لافتراقات متعددة؛ لذلك نشأت فرقة النجدات عن مخالفة آراء الأزارقة في تكفير القعدة، وهذا ما سنلاحظه عن النجدات في الفقرات التالية:

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٢٢، ومقالات الإسلاميين، ص ٨٧.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٨٨.

فِرْقَةُ النَّجْدَاتِ

أَتْبَاعُ نَجْدَةَ بْنِ عَامِرٍ الْحَنَفِيِّ

يقول أبو الحسن الأشعري: «ثم خرج نجدة بن عامر الحنفي من اليمامة، في نفر من الناس، وأقبل إلى الأزارقة يريدهم، فاستقبلهم نفر من أهل عسكر نافع، وأخبروه ومن معه بإحداث نافع الذي أحدثه، وأنهم برئوا منه، وفارقوه عليها، وأمروا نجدة بالمقام، وبايعوه، فمكث نجدة زمانا، ثم إنه بعث بعثًا إلى أهل القطيف، واستعمل عليهم ابنه، فقتل، وسبى، وغنم، فأخذ ابن نجدة، وأصحابه عدة من نسائهم، فقوموا كل واحدة منهن بقيمة على أنفسهم، ونكحوهن قبل أن يقسمن، وأكلوا من الغنائم قبل أن تقسم، ثم رجعوا إلى نجدة، وأخبروه بذلك، فعذرهم نجدة بجهالتهم، فتابعه على ذلك أصحابه، وعذروا بالجهالات إذا أخطأ الرجل في حكم من الأحكام من جهة الجهل»[1].

فنشأت النجدات مخالفة للأزارقة في ذلك؛ فقالت «بإكفار من كَفَّرَ القعدة منهم عن الهجرة إليهم، وأكفروا من قال بإمامة نافع، وأقاموا على إمامة نجدة، إلى أن اختلفوا عليه في أمور نقموها منه، فلما اختلفوا عليه صاروا ثلاث فرق:

١ـ فرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفي إلى سجستان، وتبعهم خوارج سجستان؛ ولهذا قيل لخوارج سجستان في ذلك الوقت «عطوية».

٢ـ وفرقة صارت مع أبي فديك حربًا على نجدة، وهم الذين قتلوا نجدة.

٣ـ وفرقة عذروا نجدة في إحداثه، وأقاموا على إمامته»[2].

مَقَالَاتُ النَّجْدَاتِ الْعَقَدِيَّةُ:

وتبعًا لهذه الافتراقات التي تنشأ من نقاشات لا يُوجَدُ بينهم من يحسم مادتها

---

(١) الأشعري، المقالات، ص ٨٩ ـ ٩٠، وانظر الملل والنحل، ص ١٢٣.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨٨.

بدليل صحيح من الكتاب والسنة ـ نشأت فيهم مقالات منحرفة، زادت على من سبقهم من المُحَكِّمَةِ، والأزارقة، وهي تعبر بحق عن قلة علمهم، وأنهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، كما وصفهم الرسول ﷺ، ومن أبرز مقالاتهم أنهم قالوا: «الدين أمران: أحدهما معرفة الله، ومعرفة رسله ـ عليهم السلام ـ، وتحريم دماء المسلمين، وأموالهم، وتحريم الغصب، والإقرار بما جاء من عند الله جملة؛ فهذا واجب، وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهالته، حتى تقوم عليهم الحجة في جميع الحلال، فمن استحل شيئًا من طريق الاجتهاد مما لعله محرم، فمعذور على حسب ما يقول الفقهاء من أهل الاجتهاد، قالوا: ومن خاف العذاب على المجتهد في الأحكام المخطئ، قبل أن تقوم عليه الحجة، فهو كافر، قالوا: ومن ثقل عن هجرتهم، فهو منافق. وحُكِيَ أنهم استحلوا دماء أهل المقام، وأموالهم في دار التقية، وبرئوا ممن حرمها، وتولوا أصحاب الحدود، والجنايات من موافقيهم، وقالوا لا ندري، لعل الله يعذب المؤمنين بذنوبهم، فإن فعل فإنما يعذبهم في غير النار بقدر ذنوبهم، ولا يخلدهم في العذاب، ثم يدخلهم الجنة، وزعموا أن من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة، ثم أصر عليها، فهو مشرك، وأن من زنى، وسرق، وشرب الخمر غير مصر، فهو مسلم»[1].

فِرْقَةُ الصُّفْرِيَّةُ

وهم أتباع زياد بن الأصفر[2]، «وقيل أتباع النعمان بن صفر، وقيل بل نسبوا إلى عبدالله بن صفار، وقيل بل نسبوا إلى صفرة علتهم»[3]، وقد رجح الدكتور جلي نسبتهم إلى عبدالله بن صفار، الذي كان مع نافع[4]، وأكبر انشقاقات الخوارج نشأت

(١) مقالات الإسلاميين، ص ٩٠ ـ ٩١، وانظر الملل والنحل، ص ١٢٣، حيث نقل نص الأشعري نفسه، وانظر البغدادي، الملل والنحل، ص ٦٧، والفرق بين الفرق، ص ٨٩,

(٢) مقالات الإسلاميين، ص ١٠١، والشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٣٧، والبغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٩٠,

(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٥٤.

(٤) د. أحمد جلي دراسة، عن الفرق وتاريخ المسلمين، الخوارج والشيعة، ص ٧٢، ط٢، ١٤٠٨هـ، مركز الملك فيصل للبحوث ، الرياض.

من هذه الفرقة؛ كما قال أبو الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ: «وأصل قول الخوارج إنما هو قول الأزارقة، والإباضية، والصفرية، والنجدية، وكل الأصناف سوى الأزارقة، والإباضية، والنجدية، فإنما تفرعوا من الصفرية»[(١)].

● أما مقالاتهم الْعَقَدِية، «فهم في الجملة كقولة الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون، غير أن الصفريين لا يرون قتل أطفال مخالفيهم، ونسائهم، والأزارقة يرون ذلك»[(٢)]، (وخالفوا الأزارقة، والنجدات، والإباضية في أمور؛ منها: أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال، إذا كانوا موافقين في الدين، والاعتقاد، ولم يُسْقطوا الرجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين، وتخليدهم في النار، وقالوا: التقية جائزة في القول دون العمل»[(٣)]، وقالوا: «ما كان من الأعمال عليه حد واقع فلا يتعدى بأهله الاسم الذي لزمهم به الحد، وليس يكفر بشيء ليس أهله به كافرًا؛ كالزنا، والقذف، وهم قذفة زناة، وما كان من الأعمال ليس عليه حد؛ كترك الصلاة، والصيام، فهو كافر»[(٤)].

ونُقِلَ عن زياد بن الأصفر قوله: «نحن مؤمنون عند أنفسنا، ولا ندري لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله، وقال: الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان؛ والكفر كفران: كفر بإنكار النعمة، وكفر بإنكار الربوبية؛ والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سنة، وبراءة من أهل الجحود فريضة»[(٥)]، (وانفرد زياد) هو وفرقته بأن قالوا: من عَرَفَ الله، وكفر بما سواه؛ من كتاب، أو نبي، أو جنة، أو نار، أو غير ذلك، وعمل سائر المعاصي؛ من قتل، أو زنا، أو غيره، فهو بريء من الشرك، ومن جَهِلَ الله ـ تعالى ـ، وأنكره، فهو مشرك»[(٦)].

(١) الأشعري، مقالات، ص ١٠١.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٩٠.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٣٧.

(٤) الأشعري، مقالات، ص ١٠١، وانظر الإسفراييني، ص ٥٣١.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٣٧.

(٦) اليافعي، ذكر مذاهب الفرق الثنتين والسبعين، ص ٤٠، ت. د. موسى الدويش، ط١، ١٤١٠هـ، دار البخاري للنشر، المدينة المنورة.

فِرْقَةُ الإِبَاضِيَّةِ

أتباع عبدالله بن إباض[١]، «وقد عاصر نافع بن الأزرق؛ حيث كان معه في سنة ٦٤، في إحدى وقعاته الحربية، مع عبيدالله بن زياد»[٢]، وهذا الرأي يخالف ما ذكره الشهرستاني؛ حيث قال عنه: «إنه خرج أيام مروان بن محمد»[٣].

ويُرْجِعُ الدكتور نايف معروف هذا الخلاف إلى التباس بين اسمين ظهرا في فرقة الخوارج؛ فيقول: «ولعل أرجح الأقوال أن البذرة الأولى للمذهب الإباضي تعود إلى عبدالله بن إباض الذي كان مع نافع بن الأزرق، ثم انفصل عنه بعد إحداثه، وأن الذين نسبوها إلى أيام مروان بن محمد قد وقعوا في التباس من أمرهم؛ إذ إن الذي ظهر في أواخر العهد الأموي هو رأس الإباضية حينذاك؛ عبدالله بن يحيى الإباضي»[٤]، ثم إن عبدالله بن إباض قد توفي سنة٨٦ هـ[٥]، وهذا ما يؤكد أن عبدالله بن إباض من أوائل الخوارج الذين عاصروا بدايات الخلافة الأموية، ومات أغلبهم في زمانها، بل إن أغلب فرق الخوارج قد انقرضت مبكرًا، ولم يبق منهم إلا الإباضية، الذين لهم وجود في بعض البلاد العربية؛ كعمان، والجزائر.

● ويقول الدكتور جلي: «ورغم ما قام به ابن إباض، وارتباط هذه الجماعة باسمه، فان الإباضية يعودون بأصولهم لا إلى ابن إباض فحسب، بل إلى جماعة من التابعين، وتابعي التابعين؛ كجابر بن زيد، وأبي عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة، والربيع بن حبيب، وغيرهم»[٦].

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٢٢، ت. د. ثروت عكاشة، ط٤، دار المعارف، القاهرة.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٣٩٩.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٣٤.

(٤) د. معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ٢٣٨.

(٥) الزركلي، الأعلام، ص ٦١، ط٦، ١٤٠٤هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

(٦) د. جلي، دراسة عن الفرق، ص ٧٦.

ويَعْتَبِرُ الدكتور عامر النجار أن جابر بن زيد هو مؤسس مذهب الإباضية، متابعًا لمزاعم الإباضية؛ حيث يقول: «ويرجع الفضل في تنظيم أسلوب الدعوة الإباضية إلى جابر بن زيد (ت ٩٦)؛ حتى أن بعضهم يعده أول الأئمة؛ مما يبين لنا أن جابر بن زيد كان المسئول عن التنظيم السري الإباضي»، ثم يضيف: «والحق أن مجهود جابر في تنظيم الدعوة الإباضية كان مجهودًا بارزًا، حتى توفي سنة ٩٦»(١).

● وسوف نأتي على إبطال هذا الزعم من مصادر السلف، الذين ينفون هذه الدعوى بروايات حية عاشرها، تُبْطل مزاعم أرباب الفرق، الذين يحاولون نسبة أنفسهم إلى الصحابة، والتابعين؛ فجابر بن زيد ـ رحمه الله ـ «كان من كبار أصحاب ابن عباس رضي الله عنه، وكان ابن عباس يمتدحه، ويقول عنه: لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علمًا مما في كتاب الله، وكان إذا سأله الناس يقول: تسألوني عن شيء، وفيكم جابر بن زيد؟»(٢).

وسئل أيوب السختياني: هل رأيت جابر بن زيد؟ قال: نعم، كان لبيبًا، لبيبًا، لبيبًا!»(٣)، وقال إياس بن معاوية: أدركت البصرة، وما لهم مفتٍ يفتيهم غير جابر بن زيد»(٤)؛ فمَنْ هذه سيرته، كيف يُنْسَبُ إلى الخوارج، وهو يفتي أهل السنة في مساجدهم، ويسمعه علماؤها، فلا ينكرون عليه شيئًا؟ وعندما أشيعت حوله هذه الإشاعات، سألوه عنها، ونفاها، وشهدوا هم ـ أيضًا ـ أنْ لا صلة له بأي فرقة من فرق الابتداع؛ فقد روى الإمام البسوي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨)، عن عمرو قال: «ما علمت من جابر بن زيد رأي الإباضية قط، ولا سمعته منه، لقد قرأت عليه رسالة

---

(١) د. عامر بن نجار، الخوارج، ص ٨٦، بتصرف ولعل الدكتور النجار نقل هذا النص عن عوض خليفات في كتابه الأصول التاريخية للفرقة الأباضية، ص ٢٩، وقد نقل الأستاذ جلي أيضا هذا النص ص ٧٧.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث، ٨٠ ـ ١٠٠، ص ٥٢٤، ت. د. عبدالسلام التدمري، وانظر البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ١٢، وطبقات ابن سعد، ج٧، ص ١٣٣.

(٣)، (٤) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

الحسن بن محمد (في الإرجاء)، فقال: ما أحببت شيئًا كرهه، ولا كرهت شيئًا أحبه»[(١)].

وسأله الحسن البصري ـ رحمه الله ـ فقال له: «إن الإباضية تتولاك، قال: فقال: أبرأ إلى الله منهم، قال: فما تقول في أهل النهر؟ قال أبرأ إلى الله منهم»[(٢)]، وقال حماد بن زيد: «كان بريئًا مما يقولون، وكانت الإباضية ينتحلونه»[(٣)]. وروى الحجاج بن أبي عيينة عن هند بنت المهلب، وذكروا عندها جابر بن زيد، فقالوا إنه كان إباضيًا، فقالت: كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعًا إلي وإلى أمي، فما أعلم شيئًا كان يُقَرِّبُني إلى الله إلا أمرني به، ولا شيئًا يباعدني عن الله ـ عز وجل ـ إلا نهاني عنه، وما دعاني إلى الإباضية قط، ولا أمرني»[(٤)].

وقد ذكر الدكتور جلي أن الربيع بن حبيب له مسند مروي عن جابر بن زيد، وتَعْتَبِرُ الإباضية هذا المسند من كتبهم، وقد أبدى عليه الكثير من الملاحظات، ثم نقل قول الأستاذ أبو لبابة حسين إنه ثبت الانقطاع الواضح الجلي؛ مرسل، منقطع، معضل، وهو دليل كافٍ لرد الحديث، بغض النظر عن إظهار الانقطاعات الخفية عند التنقيب، وغيرها من ألوان الجرح التي ترد الحديث وتسقطه»[(٥)].

ولا نعلم إن كانت نسبة هذا المسند صحيحة، أم أن أحد علمائهم، المسمى الورجلاني، هو الذي جمعه من كتب الأحاديث، ونسب رواياته لجابر بن زيد ـ رحمه الله ـ، خاصة إذا علمنا أن شيخ الإسلام ينفي أن يكون للخوارج كتب مؤلفة، ولم يطلع على شيء منها حتى عصره؛ حيث يقول: «وأقوال الخوارج إنما عَرَفْنَاها من نقل

---

(١) البسوي، المعرفة، ج٢، ص ١٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ١٣٥.
(٣) نفس المصدر، ج٧، ص ١٣٥.
(٤) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٣، ص ٨٩، ط١، ١٤٠٧هـ، دار الريان، القاهرة.
(٥) د. جلي، دراسة عن الفرق، ص ٨١.

الناس عنهم، ولم نقف لهم على (كتاب مصنف)، كما وقفنا على كتب المعتزِلة، والرافضة، والزيدية»[١].

وبهذا يتضح لنا تهافت الفكر الإباضي في نسبة بدعتهم إلى الصحابة الكرام، ونسبة مسندهم إلى أحد التابعين، مع أنهم ليس لهم اشتغال في الحديث وعلومه، بل إن بعدهم عن هذه العلوم الشريفة هو الذي أودى بهم إلى الانحرافات الْعَقَدِية، والانشقاقات المتكررة، التي كان منبعها آراءهم، واجتهاداتهم الخاصة، البعيدة عن منهج الكتاب والسنة.

مَقَالَاتُ الْإِبَاضِيَّةِ الْعَقَدِيَّةُ:

على الرغم مما قيل عن اعتدال فرقة الإباضية، فإن هذا الاعتدال يرجع إلى العصور المتأخرة، أما في بدايات نشأة الفرقة، في العصر الأموي، فإن فرقة الإباضية كانوا يقولون بقول الْمُحَكِّمَةِ الأولى، ويقولون بتكفير علي، وعثمان، والصحابة المشاركين في حرب صفين، والجمل؛ «فقد زعموا أن عليًا ﷺ هو الحيران، الذي ذكره الله في القرآن، وأن الصحابة الذين يُدْعَوْنَ إلى الهدى أهل النهروان، وزعموا أن عليًا هو الذي أنزل ـ سبحانه ـ فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، [البقرة: ٢٤٠]، وأن عبدالرحمن بن ملجم هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، [البقرة: ٢٠٧][٢].

وتعتقد الإباضية الأولى «أن مخالفيهم من أهل القبلة كفار، غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم؛ من السلاح، والكراع عند الحرب، حلال، وما سواه حرام، وحرام قتلهم، وسبيهم في السر غيلة، إلا بعد نصب القتال، وإقامة الحجة، وقالوا: إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان؛ فإنه دار بغي، وأجازت شهادة مخالفيهم على أوليائهم، وقالوا: إن

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص ١٣ ـ ٤٩.

(٢) الأشعري، مقالات، ص ١٠٢، وص ١٠٤.

مرتكبي الكبائر منهم موحدون، لا مؤمنون»(١).

«واختلفوا في النفاق على ثلاثة أقوال: «فقال فريق منهم إن النفاق براءة من الشرك والإيمان جميعًا، واحتجوا بقول الله - عز وجل - في المنافقين: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، [النساء: ١٤٣]، وفرقة منهم قالت: لا نُزِيلُ اسم النفاق عن موضعه، ولا نسمي بالنفاق غير القوم الذين سماهم الله - تعالى - منافقين، منهم من قال بأن المنافق ليس بمشرك، وزعم أن المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا موحدين، وكانوا أصحاب كبائر، فكفروا، وإن لم يدخلوا في حد الشرك»(٢).

«وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كَفَرَ كُفْرَ نعمة، لا كُفْرَ الملة، وتوقفوا في أطفال المشركين، وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام، وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلًا»(٣).

هذا ملخص لمقالات أكبر فرق الخوارج، أتينا بها، وبآرائها التي قالتها، في حدود فترة الدراسة المطلوبة؛ حيث تمثل قمة الغلو، والانحراف، والشذوذ عن نهج أهل السنة، والجماعة، أما ما قيل عن اقتراب فرقة الإباضية في بعض معتقداتها، وأحكامها، من أهل السنة، فهو من جانب تخفيف الغلو الذي مارسه الخوارج في عصرهم الأول، «ولعل هذا الاعتدال هو الذي أتاح لفرقة الإباضية فرصة البقاء، والاستمرار إلى يومنا هذا، في بعض مناطق شمال إفريقيا، وعمان، وزنجبار»(٤).

وبجانب الانحرافات الْعَقَدِية التي شذَّت بها الفرق التي سبق ذكرها، فإن بعض الفرق المتفرعة عن هذه الخمسة زادت بمقالات كَفَّرَتْهُمْ، وأخرجتهم عن أمة الإسلام؛ ومنها:

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٣٤، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٠٣.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٠٦، وانظر السكسكي، البرهان، ص ٢٢.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل ص ١٣٥.

(٤) د. نايف معروف، الخوارج، ص ٢٣٩.

فِرْقَةُ الْيَزِيدِيَّةِ: «أتباع يزيد بن أبي أُنَيْسَةَ الخارجي، وكان على رأي الإباضية من الخوارج، ثم إنه خرج عن قول جميع الأمة؛ لدعواه أن الله ـ عز وجل ـ يبعث رسولًا من العجم، وينزل عليه كتابًا من السماء، وينسخ بشرعه شريعة محمد ﷺ، وزعم أن أتباع ذلك النبي المنتظر هم الصابئون المذكورون في القرآن، وكان مع هذه الضلالة يتولى من شهد لمحمد ﷺ بالنبوة من أهل الكتاب، وإن لم يدخل في دينه، وسمَّاهم بذلك مؤمنين، وعلى هذا القول يجب أن يكون العيسوية، والموشكانية من اليهود مؤمنين؛ لأنهم أقروا بنبوة محمد ﷺ (للعرب)، ولم يدخلوا في دينه، وليس بجائز أن يُعَدَّ في فِرَقِ الإسلام من يَعُدُّ اليهود من المسلمين، وكيف يُعَدُّ من فرق الإسلام من يقول بنسخ شريعة الإسلام؟!»[1]

● **فِرْقَةُ الْمَيْمُونِيَّةِ**: وهم ينتسبون «إلى إمامهم ميمون، وقيل إن ميمونًا هذا كان رجلًا من أهل بلخ، وقيل بل كان عبدالكريم بن العجرد، وهم يجيزون نكاح بنات البنين، وبنات البنات، وبنات بنات الأخوات، وبنات بني الإخوة، ويقولون: إن الله حَرَّمَ نكاح البنات، والأخوات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وأحل ما وراء ذلك»[2].

«ثم إنه خالف العجاردة في الإرادة، والقدر، والاستطاعة، وقال في هذه الأبواب الثلاثة بقول القدرية، المعتزِلة عن الحق، ولو بقي ميمون هذا على هذه البدع التي حكيناها عنه، ولم يَزِدْ عليها ضلالة سواها، لنسبناه إلى الخوارج، ولكنه زاد على القدرية، وعلى الخوارج، بضلالة اشتقها من دين المجوس؛ وذلك أنه أباح بنات الأولاد من الأجداد، ثم زاد على هذه الْكُفْرِيَّاتِ المخرجة عن الملة؛ «بإنكاره أن تكون سورة

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٧٩، بتصرف، وانظر الشهرستاني، الملل، ص ١٣٦، والمقريزي الخطط، ج٢، ص ٣٥٥، والأشعري مقالات، ص ١٠٣، اليافعي، ذكر مذاهب الثنتين والسبعين، ص ٤٦.

(٢) أبو سعيد نشوان الحميري، الحور العين، ص ٢٢٥، ت. كمال مصطفى، المكتبة اليمنية صنعاء، ط٢، ١٤٠٥هـ، وانظر الفرق بين الفرق، ص ٢٨٠، والشهرستاني، في الملل، ص ١٢٩، وانظر ابن حزم، الفصل، في الملل، ج٥، ص ٥٣.

يوسف من القرآن، ومنكر بعض القرآن كمنكره كله، ومن استحل بعض ذوات المحارم، فهو في حكم المجوس، ولا يكون المجوسي معدودًا من فرق الإسلام»[١].

وذكر المقدسي (ت ٥٠٧) «أنهم، مع إنكارهم لسورة يوسف، وأنها ليست من القرآن (بزعمهم)، أنكروا - أيضًا - سورة ﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ (الشورى) »[٢].

* **فِرْقَةُ البِدَعيَّةِ:** إحدى فرق الخوارج التي لم تُنْسَبْ إلى شخص مؤسس، وهم يقولون إن الصلوات ركعتان بالعشي، وركعتان بالغداة، لا غير ذلك؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾، [هود: ١١٤]، ويقطعون بالشهادة على أنفسهم، وموافقيهم، أنهم من أهل الجنة، من غير شرط، ولا استثناء»[٣].

وقال ابن حزم إضافة لبدعهم المنحرفة السابقة: إنهم يرون الحج في جميع شهور السنة، ويحرمون أكل السمك حتى يُذْبَحَ، ولا يرون الجزية من المجوس، ويُكَفِّرُونَ من خطب في الفطر والأضحى، ويقولون إن أهل النار في لذة ونعيم، وأهل الجنة كذلك»[٤].

● فِرْقَةُ الحَفْصِيَّةِ: «وهم أصحاب حفص بن أبي مقدام من الإباضية؛ حيث قالوا: من عرف الله - تعالى -، وكفر بالنبي ﷺ، فهو كافر، وليس بمشرك، فان جَهِلَ الله - تعالى -، وجحده، فهو حينئذ مشرك»[٥]، وقال الإسفراييني: «وكان حفص يقول: ليس بين الكفر والإيمان إلا معرفة الله؛ فمن عَرَفَهُ فهو مؤمن، وإن كان كافرًا بالرسول، وبالجنة، والنار، واستحل جميع المحرمات؛ كالقتل، والزنا، واللواط، والسرقة، فهو كافر، ولكنه بريء من الشرك»[٦].

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٨١.

(٢) المقدسي، ج٥، ص ١٣٨، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

(٣) الحميري، الحور العين، ص ٢٣٢، البدء والتاريخ، ج٥، ص ١٣٨.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٥، ص ٥٢، وانظر المقدسي.

(٥) ابن حزم، الفصل، ج٥، ص ٥٥.

(٦) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٥٩.

إضافة إلى رأيهم القبيح في الصحابة، وعلى رأسهم عثمان، وعلي - رضي الله عنهما -، وامتداحهم لابن ملجم قاتل علي رضي الله عنه ».

إن هذه النماذج التي قدمناها عن بعض فرق الخوارج؛ لتبين لنا أن سبل الابتداع، والضلال التي سلكتها هذه الفرق، وتشعباتها، قد آثرت جلب كل انحرافات الأمم الأخرى؛ من المجوس، والنصارى، وإلصاقها بالإسلام، وهذا يوضح لنا المدلول الواسع الذي عناه الرسول ﷺ؛ من أنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية؛ فقد تاهت بهم السبل، حتى أوغلوا في ضلالتهم إلى هذه الأقوال المنكرة.

ولقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يفهمون معنى حديث رسول الله ﷺ، وكيف أدى غلو الخوارج، وتنطعهم، إلى بلوغ أعلى درجات الانحراف، الذي أسهم في سقوطهم، واندثارهم. وسوف نرى فيما يأتي، بإذن الله، كيف رد علماء السلف على الخوارج؛ مما أسهم في انحسار دعوتهم، واضمحلالها، وبقاء الإسلام باعتداله، ووسطيته الحقة، التي أرادها الله ورسوله، وطبقها صحابته الكرام، وخلفاء الأمة على مر تاريخها.

٥- مَوْقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ الْخَوَارِجِ:

لعل من أبرز ما يمتاز به الخوارج عن غيرهم من الفرق الأخرى عدم اختلاطهم بجمهور الأمة، وانعزالهم في مواطن خاصة لهم؛ حيث يمارسون غلوهم، وتنطعهم، بعيدًا عن عامة الناس؛ فطبيعة الخوارج في الأصل طبيعة انعزالية، تفرض عليهم ممارسة بدعهم في أجواء خاصة، وكانت النتيجة المتوقعة من هذا الانعزال قلة النقاشات مع علماء السلف، إلا ما ندر من أسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنه، يُضَافُ إلى ذلك ضحالة الفكر الخارجي، وانحساره بمسائل محدودة؛ كالبراءة من القعدة، وجدالهم حول البراءة من الأطفال، وتكفير مرتكب الكبيرة، وكلها مسائل فرضتها ممارساتهم العنيفة، من قتل المخالفين.

ولعل وصف الرسول ﷺ لهم على الهيئة التي سبق ذكرها في الأحاديث

الصحيحة، يُبْرِزُ ما قلناه عنهم؛ من سطحية المعرفة، والتعامل مع النصوص بصورة ظاهرية، دون فقه، أو تفكير؛ ولذلك تمسكوا بعبارتهم المشهورة: «لا حكم إلا لله»، بالرغم من الجهود التي بذلها علي رضي الله عنه، وابن عباس، وغيرهم لإقناعهم بمشروعية التحكيم، وأن له سابقة جاء بها القرآن، وطبقها الرسول ﷺ، ومع كل ذلك تمسكوا بظاهر هذا القول الذي كانوا يرددونه بصورة هستيرية، فَقَدَ أصحابها عقولهم، وبنوا على هذه العبارة مسائل في التكفير، والبراءة، واستباحة قتل الآخرين.

والحقيقة أن هذه السطحية تعبر عن حقيقة مروقهم من الدين؛ كما وصف الرسول ﷺ، بالرغم من كثرة قراءتهم للقرآن، وغلوهم في تعبدهم؛ مما وصفهم به النبي ﷺ، وهذا الانحراف الذاتي في نفوس هؤلاء الخوارج يمثل قمة الجهل، وعدم الاستعداد لسماع البيان، الحق الذي يُزِيلُ غشاوة الجهل عن عيونهم، وعقولهم.

ونَتَجَ عن هذا التنطع الشديد، والإصرار على رفض التحكيم، وتكفير الصحابة - عدم وجود محاورات، ومجادلات، بين علماء السلف وهؤلاء الخوارج؛ وذلك لطبيعة المسلك المتشدد الذي سلكه الخوارج مع خصومهم، ثم لقلة علمهم وفَهْمِهِمْ؛ مما يجعلهم عرضة للفشل في المجادلة والمحاورة، وهذا ما يلجئهم إلى الطريقة الوحيدة التي يُتْقِنُونَهَا؛ وهي القتال، والسيف، وما حوارهم مع عبدالله بن خباب إلا شاهد على ما نقول، ثم عندما حاورهم علي رضي الله عنه، وابن عباس، وَرَجَعَ معه أربعة آلاف، فما كان منهم إلا أنهم خضعوا لإشاعة لا يُعْلَمُ مصدرها، ولعلها من السبئية، من أن عليًا رضي الله عنه رَجَعَ عن التحكيم، وقال بقولهم، وعندما نفى علي رضي الله عنه هذه الإشاعة، ما كان من بعضهم إلا العودة للخروج ثانية[1]؛ ولذلك فإن ردود علماء السلف على الخوارج تتمثل أولًا في المحاورات التي كانت أيام علي رضي الله عنه، ثم اتُّخِذَ منهج القتال لرد غائلتهم عن الأمة، وحمايتها من سيادة هذا المنهج الغالي المتشدد، وسوف نفصل هذه المواقف، وغيرها، في الفقرات الآتية.

---

(١) انظر الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ١١٤.

مُحَاوَرَةُ الْخَوَارِجِ وَبَيَانُ فَسَادِ مَذْهَبِهِمْ:

عندما اختلف جيش علي رضي الله عنه، وطُرِحَتْ مسألة التحكيم، كانت نواة الخوارج في جيش علي رضي الله عنه هم الذين أجبروه على التحكيم، ولما حصل ذلك، رفضوا من علي العودة عنه، ولعل الذي كان وراء هذه المواقف المتناقضة ابن سبأ، الذي همُّه تمزيق الأمة، وإدامة فُرقتها، وإسالة دمائها؛ فعندما قال له حرقوص بن زهير: «تب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم، حتى نلقى ربنا، فقال له علي رضي الله عنه: «قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابًا، وشرطنا شروطًا، وأعطينا عليها عهودنا، ومواثيقنا»[١].

وعندما انعزلوا عن جيشه رضي الله عنه ، كان يأمل بعودتهم بالحوار والبيان، الذي يوضح خطأ ما ذهبوا إليه؛ ولذلك بعث إليهم عبدالله بن عباس، وحاورهم حواره المشهور، الذي سنأتي على ذكره. وقد نسبت بعض المؤلفات هذا الحوار لعلي نفسه، ولا تَضَارُبَ بين هذين الرأيين؛ إذ شبهات الخوارج في حينه كانت محصورة في أسئلتهم، والإجابة عليها لا تعدو ما قاله ابن عباس، وعلي - رضي الله عنهم -، وقد رُوِيَتْ هذه المناظرة بصور متعددة، وسوف نوردها من مؤلفات أهل السنة؛ وذلك لتلاعب أهل الأهواء في هذه المناظرة؛ فقد أوردها الشيعة في نهج البلاغة[٢]، وأوردها ابن أعثم في كتاب الفتوح، وشحنها بالوصي، وغيرها من ألفاظ الشيعة[٣]، وأوردها القلهاني الإباضي في كتاب «الفرق الإسلامية»، وضمنَّها قبول عبدالله بن عباس، ونزلوه عند رأي الخوارج، وأظهر أن ابن عباس رضي الله عنه غلبه الخوارج في هذه المناظرة، وهذا من الكذب الذي مارسته فرق الابتداع، وقلبت به الحقائق؛ لترويج باطلها؛ حيث أوردها تحت عنوان: في مناظرة المسلمين مع ابن عباس رضي الله عنه[٤]، ثم ختمها، بعد أن استغرقت

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ١١٣.

(٢) ص ١٨٤، ت. د. صبحي الصالح، ط٢، ١٤٠٢هـ، دار الكتاب اللبناني.

(٣) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٤، ص ٢٤٩، ط١، ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) القلهاني، الفرق الإسلامية، ص ٧٥.

الصفحات من ٧٥ إلى ٨٤، وطابعها عرض فكر الخوارج، وعقائدهم، وختمها بقوله: «وانصرف من عندهم، وهو مقرٌّ لهم، ومعترف أنهم قد خصموه، ونقضوا عليه ما جاء به مما احتج به عليهم، فرجع ابن عباس إلى علي، فلما رآه قام إليه، فناجاه، وكره أن يسمع أصحابه قولهم، وحجتهم التي احتجوا بها، فقال له: ألا تعينني على قتالهم؟ فقال له ابن عباس: لا، والله، لا أقاتل قومًا خصموني[1].

ولولا طول هذه المناظرة على رواية الخوارج، لنقلتها، ولكن لكثرة أباطيلها، وقلبها الحقائق، آثرت أن لا أُسَوِّدَ صحائف هذا البحث بأكاذيب هذا القلهاني، ومزاعمه الباطلة، وهذه رواية أهل السنة لهذه المناظرة، التي تمثل قولًا فاصلًا وحاسمًا في إبطال شبهات الخوارج المارقين.

فقد روى الإمام البسوي (ت ٢٧٧هـ) عن سمَّاك بن أبي زميل الدؤلي، قال: قال ابن عباس: إنه لما اعتزلت الخوارج دخلوا رأيًا، وهم ستة آلاف، وأجمعوا أن يخرجوا على علي بن أبي طالب، وأصحاب النبي ﷺ معه، قال: وكان لا يزال يجيء إنسان فيقول: يا أمير المؤمنين، إن القوم خارجون عليك ـ يعني عليًا ـ، فيقول: دعوهم؛ فإني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسوف يفعلون، فلما كان ذات يوم، أتيته قبل صلاة الظهر، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أبردنا بصلاة، لعلي أدخل على هؤلاء القوم فأكلمهم، فقال: إني أخافهم عليك، فقلت: كلا، وكنت رجلًا حسن الخلق، لا أؤذي أحدًا، فأذن لي، فلبست حلة من أحسن ما يكون من اليمن، وترجلت، ودخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أر قومًا قط أشد منهم اجتهادًا، جباهم قرحت من السجود، وأيديهم كأنها ثفن الإبل، وعليهم قمص مرحضة، مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر[2]، فسلمت عليهم، فقالوا: مرحبًا يا بن عباس، ما جاء بك؟ قال: قلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، ومن عند صهر رسول الله ﷺ علي، وعليهم نزل القرآن،

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢) وهذا الحال مطابق لوصف النبي ﷺ بقوله: تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، سبق تخريجه.

وهم أعلم بتأويله، فقالت طائفة منهم: لا تخاصموا قريشًا؛ فإن الله قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، [الزخرف: ٥٨]، فقال اثنان أو ثلاثة: لو كلمتهم، فقلت لهم: ترى ما نقمتم على صهر رسول الله ﷺ، والمهاجرين، والأنصار، وعليهم نزل القرآن، وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله منكم؟ قالوا: ثلاثًا، قلت: هاتوا، قالوا: أما إحداهن، فإنه حكَّم الرجال في أمر الله ـ عز وجل ـ، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، [الأنعام: ٥٧]، فما شأن الرجال، والحُكْمُ بعد قول الله ـ عز وجل؟ فقلت: هذه واحدة، وماذا؟ قالوا: وأما الثانية، فإنه قَاتَل، ولم يَسْبِ، ولم يَغْنَمْ، فلئن كانوا مؤمنين، فما حل لنا قتالهم، وسبيهم. وماذا الثالثة؟ قالوا: إنه محا نفسه من «أمير المؤمنين»، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فإنه لأمير الكافرين. قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا. قلت لهم: أما قولكم: حكَّم الرجال في أمر الله ـ عز وجل ـ، فأنا أقرأ عليكم في كتاب الله ـ عز وجل ـ ما ينقض قولكم؛ أفترجعون؟ قالوا: نعم. قلت: فإن الله ـ عز وجل ـ قد صيَّر من حكمه إلى الرجال في ربع درهم، ثمن أرنب، وتلا هذه الآية: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، [المائدة: ٩٥]، إلى آخر الآية[1]، وفي المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾، [النساء: ٣٥] ... إلى آخر الآية، فنشدتكم بالله: هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم، وفي حقن دمائهم، أفضل، أم حكمهم في أرنب، وبضع امرأة؛ فأيهما ترون أفضل؟ قالوا: بل هذه. قال: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم: قاتل، ولم يَسْبِ، ولم يَغْنَمْ، فتسبون أمَّكُمْ عائشة، فوالله، لئن قلتم: ليست بأمنا، لقد خرجتم من الإسلام، والله، لئن قلتم نسبيها، ونستحل منها ما يُسْتَحَلُّ من غيرها، لقد خرجتم من الإسلام؛ فأنتم بين الضلالتين؛ أن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، [الأحزاب: ٦]، فإن قلتم ليست بأمنا،

(١) نص الآية الكريمة مكان الاستشهاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

لقد خرجتم من الإسلام، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، وأما قولكم: محا نفسه من «أمير المؤمنين»، فأنا آتيكم بمن ترضون يوم الحديبية، كاتب المشركين؛ أبا سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، فقال: «يَا عَلِيُّ اكْتُبْ: هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، فقال المشركون: والله، لو نعلم أنك رسول الله ﷺ ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ؛ امْحُ يَا عَلِيُّ، وَاكْتُبْ: هَذَا مَا كَاتَبَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ»، فوالله، لرسول الله ﷺ خير من علي، فقد محا نفسه، قال: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم؛ فقتلوا»[1].

إن هذه المناظرة تبين هشاشة فكر الخوارج، وتزمتهم حول شبهات باطلة تمسكت بها عقولهم العليلة، وآثرت السير في منهجها المتشدد، والمخالف لروح هذا الدين ووسطيته، فأباحت لهم هذه الآراء الباطلة قتل الصحابة، والتابعين، وخيار الأمة، وترك أهل الأوثان، والأديان الأخرى، والمحافظة عليهم، ولما تبين لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنهم هم المعنيون بأحاديث النبي ﷺ الشريفة، التي سمعها، ووعاها، أكثر الصحابة في عهده، قام بقتالهم، وهو المنهج الثاني الذي سار عليه الخلفاء من بعده.

وقد كان علماء السلف ـ رحمهم الله ـ يحذرون من الخوارج، ومن بدعتهم الضالة، ولدينا هذا النص، الذي يوضح ذلك؛ فقد روى ابن عساكر، عن داوود بن قيس[2]، قال: «كان لي صديق من أهل بيت خولان، يُقَالُ له أبو شمر ذو خولان، فخرجت من صنعاء أريد كرنبة (مدينة بصقلية على البحر)، فوجدت كتابًا مختومًا، في ظهره: إلى أبي شمر ذي خولان، فجئته، فوجدته حزينًا، فسألته، فقال: قدم رسول

---

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج١، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤، وقد أتيت بنص البسوي لكونه أقدمهم ورواها غيره عنه، وانظر نصوص هذه المناظرة في الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ١٠٩، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص ١٦٦، وابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٩٢، ط دار الكتب العلمية، بيروت، وابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ٩١، وقد اشتهرت هذه المناظرة وهي موجودة في مصادر كثيرة بروايات أهل السنة والجماعة.

(٢) روى عن وهب من منبه وذكره ابن حبان في الثقات، انظر ابن حجر تهذيب التهذيب، ج٣، ص ١٧٢، والسمعاني، الأنساب، ج٣، ص ٥٥٦.

من صنعاء، فذكر لي أن أصدقاء لي كتبوا إلي كتابًا، وضيعه الرسول، قلت: فهذا الكتاب قد وجدته، فقرأه، فقلت: أقرئنيه، قال: إني أستحدث سنك، قلت: وما فيه؟ قال: ضرب الرقاب، قلت: لعله كتبه إليك ناس من أهل حروراء في زكاة مالك، قال: من أين تعرفهم؟ قلت: إني، وأصحاب لي، نجالس وهب بن منبه، فيقول لنا: «أيها الأحداث، احذروا هؤلاء الأغمار، هؤلاء الحروراء، لا يدخلوكم في رأيهم المخالف؛ فإنهم غِرَّةٌ لهذه الأمة»، فدفع إلي الكتاب، فإذا فيه: إنا نوصيك بتقوى الله، وحده، لا شريك له، فإن دين الله رشد وهدى في الدنيا، ونجاة ونور في الآخرة، وإن دين الله طاعة الله، ومخالفة من خالف سنة نبيه، وشريعته، فإذا جاءك كتابنا هذا، فانظر ما افترض الله عليك من حقه؛ تستحق بذلك ولاية الله، وأوليائه، والسلام.

فقلت: إني أنهاك عنهم، قال: كيف أتبع قولك، وأترك قول من هم أقدم منك، قلت: أفتحب أن ندخلك على وهب بن منبه؟ ومسعود بن عوف والٍ على اليمن، فوجدنا عند وهب نفرًا من جلسائه، فقال بعضهم: من هذا الشيخ؟ فقلت: هذا أبو شمر ذو خولان، وله حاجة؛ يريد أن يستشير أبا عبدالله في بعض أمره، فقام القوم.

فقلت: يا أبا عبدالله، إن ذا خولان من أهل القرآن، وأهل الصلاح، فيما علمنا، وأخبرني أنه عرض له نفر من حروراء، وقالوا له: زكاتك التي تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك فيما بينك وبين الله؛ لأنهم لا يضعونها في مواضعها؛ فأدها إلينا؛ فإنا نضعها في مواضعها؛ نقسمها في فقراء المسلمين، ونقيم الحدود، ورأيت أن كلامك، يا أبا عبدالله، أشفى له من كلامي، وذكر لي أنه يؤدي إليهم الثمرة، للواحدة مئة فرق على دوابه، فقال له وهب: يا ذا خولان، أتريد أن تكون بعد الكِبَرِ حروريًّا؛ تشهد على من هو خيرٌ منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غدًا، حين يقفك الله ومن شهدت عليه؟ الله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى، وأنت تشهد عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك وشهادتك شهادة الله؟ أخبرنا، يا ذا خولان: ما يقولون لك؟ فقال خولان: يأمرونني ألا أتصدق إلا على من يرى رأيهم، ولا أستغفر إلا لهم، فقال له وهب: صَدَقْتَ، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم

في الصدقة، فإنه قد بلغني أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، أفإنسان ممن يعبد الله، ويوحده، ولا يشرك به شيئا، أحب إلى الله من أن تطعمه من جوع أو هرة؟! والله ـ تعالى ـ يقول في كتابه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، [سورة الدهر: ٨ ـ ٢٢]، ثم قال وهب: ما كاد ـ تبارك وتعالى ـ أن يفرغ من تعديد ما أعد الله لهم بذلك الطعام في الجنة، وأما قولهم: لا تستغفر إلا لمن رأى رأيهم؛ أفهم خير من الملائكة؟ والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، [الشورى: ٥]، وأنا أقسم بالله ما كانت الملائكة ليقدروا على ذلك، ولا ليفعلوا، حتى أمروا به؛ لأن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، [الأنبياء: ٢٧]، وفسر ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، [غافر: ٧].

ألا ترى، يا ذا الخولان، أني قد أدركت صدر الإسلام؟ فوالله، ما كانت الخوارج جماعة إلا فرقها الله على شر حالاتها، وما أظهر أحد منهم رأيه قط إلا ضرب الله عنقه، وما اجتمعت الأمة على رجل قط من الخوارج، ولو أمكن الله الخوارج من رأيهم فسدت الأر ض، وقُطِّعَتِ السبل، وقُطِعَ الحج إلى بيت الله الحرام، وعاد أمر الإنسان جاهلية، وإذًا لقام أكثر من عشرة، أو عشرين رجلًا، ليس منهم رجل، إلا وهو يدعو إلى نفسه بالخلافة، ومع كل رجل منهم أكثر من عشرة آلاف، يقاتل بعضهم بعضًا، ويشهد بعضهم على بعض بالكفر، حتى يصبح المؤمن خائفًا على نفسه، ودينه، ودمه، وأهله، وماله، لا يدري أين يسلك؟ أو مع من يكون؟ غير أن الله بحكمه، وعلمه، ورحمته، نظر لهذه الأمة فجمعهم، وألف بين قلوبهم على رجل واحد، ليس من الخوارج، فحقن الله به دماءهم، وستر به عوراتهم، وعورات ذراريهم، وجمع به فرقتهم، وآمن به سبلهم، وقاتل به عن بيضة المسلمين عدوهم، وأقام به حدودهم، وأنصف به مظلومهم، وجاهد به ظالمهم؛ رحمة من الله ـ تعالى ـ، فقال: ﴿وَلَوْلَا

دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، [البقرة: ٢٥١]، وقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، [آل عمران: ١٠٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾، [غافر: ٥١]؛ فأين هم من هذه الآية؛ فلو كانوا مؤمنين نُصِرُوا، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾، [الصافات: ١٧١-١٧٣]، فلو كانوا جند الله غلبوا، ولو مرة واحدة في الإسلام، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾، [النور: ٥٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾، [التوبة: ٣٣]، وأنا أشهد أن الله قد أنفذ للإسلام ما وعده؛ من الظهور، والتمكين، والنصر على عدوهم، ومن خالف رأي جماعتهم.

أفلا يَسَعُكَ، يا ذا خولان، من أهل التوحيد، وأهل القبلة، وأهل الإقرار بشرائع الإسلام، وسننه، وفرائضه، ما وسع نبي الله نوحًا من عَبَدَةِ الأصنام والكفار؛ إذ قال له قومه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾، [الشعراء: ١١١]؟ أَوَ لا يَسَعُكَ منهم ما وسع نبي الله وخليله إبراهيم من عبدة الأصنام؛ إذ قال: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾، [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦]؟ أَوَ لا يسعك ما وسع عيسى من الكفار الذين اتخذوه إلهًا من دون الله، إن الله قد رضي قول نوح، وقول إبراهيم، وترك قول عيسى إلى يوم القيامة؛ ليقتدي به المؤمنون ومن بعدهم، يعني: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، [المائدة: ١١٨].

ولا يخالفون قول أنبياء الله، ورأيهم، فبمن نقتدي إذا لم نقتد بكتاب الله، وقول أنبيائه، ورأيهم، واعلم أن دخولك علي رحمة لك إن قبلت مني، وحجة عليك غدًا عند الله، إن تركت كتاب الله، وعدت إلى رأي الحروراء، قال ذو خولان: فما تأمرني؟ فقال وهب: انظر زكاتك المفروضة، فأدها إلى من ولَّاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليه؛ فإن الملك لله وحده، وبيده، يؤتيه الله من يشاء، وينزعه ممن يشاء، فمن ملكه الله، لم يَقْدر أحد أن ينزعه منه، فإذا أديت الزكاة المفروضة إلى ولي الأمر برئت منها، فإن كان فضلٌ، فَصِلْ به أرحامك، ومواليك، وجيرانك من أهل الحاجة، وضَيِّفْ من ضافك. فقام ذو خولان، فقال: أشهد أني نزلت عن رأي الحرورية، وصَدَّقْتُ ما قلت، فلم يلبث ذو خولان إلا يسيرًا حتى مات»[1].

إن هذا النص يبينِّ مدى إمعان الخوارج في طبيعتهم الذاتية؛ من قتل أهل الإسلام، ومحاولة السيطرة عليهم؛ بأخذ أموالهم، بحجة أنهم يضعونها في أماكنها؛ تبعًا لمنهجهم في الطعن على الولاة، وعدم الاعتراف بهم، ثم يبين فهم علماء السلف لواقع الخوارج؛ فكان هذا الجهد المبارك الذي قام به التابعي الجليل وهب بن منبه، بهذا التوضيح المفصل، المدعَّم بالأدلة الصادقة المحكمة، التي استطاعت اقتلاع هذه الشبهة من صدر هذا الرجل، فكان هذا النص، بحق، معبرًا تمام التعبير عن حال الخوارج، ومعبرًا عن حقيقة مذهبهم، وفساده، ومعبرًا، في نفس الوقت، عن عمق الفهم، والوعي الذي كان يتمتع به علماء السلف - رحمهم الله -، الذين وقفوا لهذه البدع بالمرصاد، ونافحوا عن عقيدة هذه الأمة، بدون خوف، ولا وجل من سيوف الخوارج، وغلوهم، وكان هذا منهجهم مع كل أرباب؛ البدع وذلك برفضها، وتوضيح فسادها للناس.

قِتَالُهُمْ عِنْدَمَا ثَبَتَ أَنَّهُمْ هُمُ الْمَعْنِيُّونَ بِأَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ:

فهذا المسلك في التعامل مع الخوارج، إنما قرره النبي ﷺ، وأوصى به؛ كما ذكرنا

---

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٢٦، ص ٣٨٨ - ٣٩٢.

من قبل؛ وذلك بقوله ﷺ: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأُقَتِّلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[١]، وفي رواية قال: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأُقَتِّلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودٍ»[٢]، وفي رواية قال: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣]، وامتدح النبي ﷺ قاتلهم؛ فقال: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»[٤].

وقد بشَّر علي رضي الله عنه الجيش الذي يقاتلهم بالبشرى العظيمة، على لسان رسول الله ﷺ؛ فقال: «لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لنكلوا عن العمل»[٥]، فكانت معالم هذا المسلك واضحة تمام الوضوح أمام الخليفة الراشد علي رضي الله عنه، وكان قتاله لهم منقبة عظيمة من مناقبه رضي الله عنه، وفتحًا من فتوح الإسلام العظيمة، التي صدَّ بها هجمة الغلو، والانحراف عن هذه الأمة، التي لو تمكن من رقابها هؤلاء المارقة، لساموها سوء العذاب، وانحرفت بدينها كما انحرفوا هم فيما بعد، حتى اضمحلوا، وذهبوا.

ويلاحظ - أيضًا - على توجيه الرسول ﷺ بقتالهم أنه قال بأنه سيقتلهم (كقتل عاد وثمود)، ومعنى هذا؛ كما يقول الإمام النووي: «أي قتلًا عامًّا مستأصِلًا، كما قال - تعالى -: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾، [الحاقة: ٨]، وفيه الحث على قتالهم»[٦].

وقد طبَّق علي رضي الله عنه هذه الوصية خير تطبيق، وكانت معركة النهروان قريبة من استئصالهم؛ حيث «لم ينفلت منهم إلا أقل من عشرة، وما قُتِلَ من المسلمين إلا أقل من عشرة؛ فانهزم اثنان منهم إلى عمان، واثنان إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل مورون باليمن، وظهرت بدع الخوارج في هذه

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم.

(٢) سبق تخريجه أيضا.

(٣) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم.

(٤) مسلم، كتاب الزكاة، باب قتال الخوارج، رقم ١٠٦٦، المختصر، ج١، ص ٣٨٤.

(٥) مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، النووي، ج٧، ص ١٧١.

(٦) النووي، بشرح مسلم، ج٧، ص ١٩٢.

المواضع منهم، وبقيت إلى اليوم»(١).

وقد طبّق الخوارج مبدأ الخروج، واستحلال قتل المسلمين، وطبّق فيهم الخلفاء سنة القتال؛ فقد خرج منهم مجموعات في عهد علي رضي الله عنه؛ مثل الحارث بن راشد، وأشرس بن عوف بالأنباء، وغفلة التميمي، وغيرهم؛ فقاتلهم جميعًا، وخرج في زمان معاوية رضي الله عنه الأزارقة، وآخرون(٢).

وقد شهد الصحابي الجليل أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قتل بعضهم، وبيَّن هذا البيان الشافي عن حال الخوارج؛ فقد روى ابن عساكر بن أبي غالب قال: إن أبا أمامة قدم دمشق، فوجد على باب المسجد ستة وعشرين رأسًا من رءوس الخوارج، فيهم رأس عبدربه الصغير، ففاضت عبرته، فقال: كلاب النار، كلاب النار، شر قتلى تحت ظل السماء (ثلاث مرات)، خير قتلى من قتلهم هؤلاء (ثلاثًا)، قلت: فاضت عبرتك؟ قال: رحمة لهم؛ إنهم كانوا مؤمنين، قلت: أكانوا مؤمنين؟ قال: نعم؛ أما تعلم الآية التي في آل عمران، إن هؤلاء كان في قلوبهم زيغ، وفتنة، فَزِيغَ بهم (يقصد قوله - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾، [آل عمران: ٧]، ألا تعلم التي بعد المئة ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾، [آل عمران: ١٠٦]؟ قلت: فهم هؤلاء؟ قال: نعم، قلت: أشيء من رأيك، أم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إني إذًا لجريء (ثلاث مرات)، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثِنْتَيْنِ - أَوْ ثَلَاثٍ - وَسَبِعِينَ فِرْقَةً، شك أبو غالب، كُلُّهَا فِي النَّارِ، لَيْسَتِ السَّوَادَ الأَعْظَمَ»(٣)، وقاتلهم المسلمون حتى قضوا عليهم على يد المهلب بن أبي صفرة، والحجاج بن يوسف، وغيرهم، في عهود خلفاء بني أمية، وبني العباس؛ فكان هذا المسلك من أعظم المسالك التي حفظت هذه الأمة، وحفظت دينها، من شرور هذه

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٧.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨١.

(٣) ابن عساكر، المختصر، ج٦، ص ٢٨٥، والحديث رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب من سورة آل عمران ح رقم ٣٠٠٠، ج٥، ص ٢٢٦، وقال هذا حديث حسن.

البدعة الضالة، المتسترة بالتعبد والزهد، والتي لا تحوي في قلوبهم أي حب، أو رحمة لهذه الأمة؛ ولذلك حذر ابن عباس رضي الله عنه من التأثر بهذا التعبد والاجتهاد؛ فقال: «ليس الحرورية بأشد اجتهادًا من اليهود والنصارى، وهم يضلون»(١).

ومما يجب العلم به أن عليًا رضي الله عنه، والصحابة، لم يكونوا يُكَفِّرُون أولئك الخوارج في عهدهم؛ لأن مقالاتهم لم تكن تؤدي إلى الكفر، وذلك قبل أن يوغل الخوارج في الانحراف؛ «فقد سئل علي رضي الله عنه عن أهل النهروان: أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فروا، قيل أفمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا، فقيل: فما هم، يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا، فقال: فقاتلناهم ببغيهم علينا»(٢).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن عليًا رضي الله عنه عامل الخوارج معاملة البغاة، ولم يكفرهم؛ حيث قال: «وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وغيره، لم يُكَفِّروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ما خرجوا عليه، وتحيزوا بحروراء، وخرجوا عن الطاعة، والجماعة، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا، ولا حقكم من الفيء، ثم أرسل إليهم ابن عباس، فناظرهم فرجع نحو نصفهم، ثم قاتل الباقي، وغلبهم، ومع هذا لم يَسْبِ لهم ذرية، ولا غَنِمَ لهم مالًا، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين؛ كمسيلمة الكذاب، وأمثاله، بل كانت سيرة علي والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة، ولم ينكر أحد على عليٍّ ذلك؛ فَعُلِمَ اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام»(٣)، ويقول: «وقد اتفق الصحابة، والعلماء بعدهم، على قتال هؤلاء؛ فإنهم بغاة على جميع المسلمين، سوى من وافقهم على مذهبهم، وهم يبدءون المسلمين بالقتال، ولا يندفع شرهم إلا بالقتال، فكانوا أضر على المسلمين من قطاع الطرق؛ فإن أولئك إنما

(١) الملطي، التنبيه والرد، ص ١٨٤، وانظر ابن حجر، فتح الباري، ج١٢، ص ٢٨٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٩٠، ط مكتبة المعارف، بيروت، وانظر ابن تيمية، منهج السنة النبوية، ج٥، ص ٢٤٢.

(٣) منهاج السنة النبوية، ج٥، ص ٢٤١.

مقصودهم المال، فلو أعطوه لم يقاتلوا، وإنما يتعرضون لبعض الناس، وهؤلاء يقاتلون الناس على الدين، حتى يرجعوا عما ثبت بالكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، إلى ما ابتدعه هؤلاء، بتأويلهم الباطل، وفَهمهم الفاسد للقرآن، ومع هذا، فقد صرح علي ﷺ بأنهم مؤمنون، ليسوا كُفَّارًا، ولا منافقين»[1].

ثم يضيف شيخ الإسلام قائلًا: «ومما يدلل على أن الصحابة لم يُكَفِّرُوا الخوارج أنهم كانوا يصلون خلفهم، وكان عبدالله بن عمر ﷺ، وغيره من الصحابة، يُصَلُّون خلف نجدة الحروري، وكانوا ؟ - أيضًا - يحدثونهم، ويفتونهم، ويخاطبونهم كما يُخَاطِبُ المسلم المسلم، كما كان عبدالله بن عباس يجيب نجدة الحروري، لَمَّا أرسل إليه يسأله عن مسائل، وحديثه في البخاري[2]، وكما أجاب نافع بن الأزرق عن مسائل مشهورة، وكان نافع يناظره في أشياء في القرآن، كما يتناظر المسلمان[3]، وما زالت سيرة المسلمين على هذا ، ما جعلوهم مرتدين كالذين قاتلهم الصدّيق رضي الله عنه ، هذا ، مع أمر رسول الله ﷺ بقتالهم في الأحاديث الصحيحة، وما روي من أنهم: «شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتِيلٍ مَنْ قَتَلُوهُ»، في الحديث الذي رواه أبو أمامة، رواه الترمذي[4]، وغيره؛ أي أنهم شرٌّ على المسلمين من غيرهم؛ فإنهم لم يكن أحد شرًّا على المسلمين منهم، لا اليهود، ولا النصارى؛ فإنهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم، مستحلين لدماء المسلمين، وأموالهم، وقتل أولادهم، مُكَفِّرِين لهم،

(١) المصدر السابق، ج٥، ص ٢٤٣.

(٢) نبه المحقق د. رشاد سالم - رحمه الله - على أن حديث نجدة في مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات يرضح لهن، وقال: لم أعرف مكان الحديث في البخاري، هامش ص ٢٤٧.

(٣) أورد السيوطي، صفحات طويلة من هذه الأسئلة استغرقت من ص ١٢١ - ١٣٣، من كتاب الإتقان في علوم القرآن (الجزء الأول) ثم قال بأنه حذف منها نحو بضعة عشر سؤالا وهي أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفرادا منها بأسانيد مختلفة عن ابن عباس.

(٤) رواه الترمذي في السنن، ٥/٢٢٦، كتاب التفسير، من سورة آل عمران، ح رقم ٣٠٠٠، وقد سبق تخريجه.

وكانوا مُتَدَيِّنين بذلك؛ لعظم جهلهم، وبدعتهم المضلة»[١].

وعندما خرجوا أيام عمر بن عبدالعزيز قاتلهم - رحمه الله -، وكان ينذرهم، ويعذر لهم قبل القتال؛ فقد أخرج ابن سعد، عن عبدالحميد بن عمران، قال: بعثني عمر بن عبدالعزيز في خلافته إلى الخوارج الذين خرجوا عليه، فكَلَّمتهم، فقلت: ما الذي تنقمون عليه؟ قالوا: ما ننقم عليه إلا أنه لا يلعن من كان قبله من أهل بيته؛ فهذه مداهنة منه، قال: فكف عمر عن قتالهم حتى أخذوا الأموال، وقطعوا السبيل، فكتب إليه عبدالحميد بذلك، فكتب إليه عمر: أما إذا أخذوا الأموال، وأخافوا السبيل، فقاتلهم، فإنهم رجس»[٢].

وكان - رحمه الله - يرى حبسهم، وإعادة متاعهم إلى أهليهم؛ فعن حازم بن حسين، قال: قرأت كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى عامله في الخوارج: فإن أظفرك الله بهم، وأدالك عليهم، فرد ما أصبت من متاعهم إلى أهليهم»[٣].

وعن المنذر بن عبيد قال: حضرت كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالرحمن بن زيد: ومن أخذت من أسراء الخوارج فاحبسه حتى يحدث خيرًا، قال: فلقد مات عمر ابن عبدالعزيز، وفي حبسه منهم عدَّة»[٤].

وقال يحيى الغساني: كان عمر ينهى سليمان بن عبدالملك عن قتل الحرورية، ويقول: ضمنهم الحبس حتى يحدثوا توبة، فأُتي سليمان بحروري، فقال له سليمان: هيه. فقال الحروري: وماذا أقول يا فاسق بن الفاسق؟ فقال سليمان: عليَّ بعمر بن عبدالعزيز، فلما جاء قال: اسمع مقالة هذا، فأعادها الحروري، فقال سليمان لعمر: ماذا ترى فيه؟ فسكت، قال عزمت عليك لتخبرني بما ترى عليه، قال أرى أن تشتمه كما

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج٥، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٧.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٢٧٧.

شتمك، قال: ليس الأمر كذلك، فأمر به سليمان فضربت عنقه، وخرج عمر، فأدركه خالد صاحب الحرس، فقال: يا عمر، كيف تقول لأمير المؤمنين ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك؟ والله لقد كنت متوقعًا أن يأمرني بضرب عنقك، قال: لو أمرك لفعلت؟ قال: إي والله، فلما أَفْضَت الخلافة إلى عمر جاء خالد، فقام مقام صاحب الحرس، فقال: عمر يا خالد، ضع هذا السيف عنك، وقال: اللهم، إني قد وضعت لك خالدًا، فلا ترفعه أبدًا، ثم نظر في وجوه الحرس، فدعا عمرو بن مهاجر الأنصاري، وقال: يا عمرو، والله، لتعلمن أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكن سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد، فرأيتك تحسن الصلاة، وأنت رجل من الأنصار، خذ هذا السيف؛ فقد وليتك حرسي»[1].

ولعل الدافع لمواقف عمر هذه هو انحسار الخطر الخارجي الذي كانت تمثله تلك الجماعات الخارجة، التي كانت تداهم المدن، وتقتل الناس، فهو قد قاتل الخوارج قتالًا جماعيًا، أما الأفراد الذين لا يشكلون خطورة كبرى، فكان يرى حبسهم، حتى يحدثوا توبة، ولعل هذا المسلك كان له كبير الأثر في عودة بعض الخوارج، وكفهم عن الفساد في فترة خلافة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله.

هذا ما تَوَفَّر لدينا من مواقف للصحابة ، ولعلماء السلف، من بدعة الخوارج، وهي تمثل الإسلام الحق الذي يرفض الغلو، والتنطع الذي أراد الخوارج أن يفرضوه على الأمة، ولكن الله رد غائلتهم، وبقي المنهج الوسطي منهج السلف السائد على هذه الأمة، ولله الحمد.

* * * * *

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٧١، ت قاسم الرفاعي، ومحمد العثماني، ط١، ١٤٠٦هـ، دار العلم، بيروت.

الْفَصْلُ الثَّانِي
الشِّيعَةُ

يحسن بنا، ونحن نؤرخ لنشأة الفرق في هذه المرحلة، أن نتتبع ظروف النشأة الحقيقية لما عرف بفرقة الشيعة، وعلاقة علي ﵁، وأبنائه، وأبناء أبنائه من بعده، بهذا المسمى؛ وذلك عن طريق الكشف عن المواقف الحقيقية التي وقفها آل البيت من الذين ينتسبون إليهم في هذه المرحلة، ثم دراسة الأحداث الجسيمة التي تعرض لها آل البيت، وبيان مواقف المنتسبين إليهم؛ من خذلان لهم، وعدم وفائهم بكل الوعود التي وعدوهم بها، من النصرة على مخالفيهم، وكان منهجهم إسلامهم إلى القتل؛ كما حدث في كربلاء؛ عندما استشهد الحسين ﵁، وكما حدث لزيد بن علي ـ رحمه الله ـ؛ عندما استشهد ـ أيضًا ـ في الكوفة، وسوف يظهر ما أعقب هذه الأحداث من بروز لمسميات شيعية مختلفة، تنتسب إلى آل البيت، ثم نعرض للانحرافات العَقَدِية التي قالت بها في هذه المرحلة، ثم نختم ذلك بمواقف علماء السلف من هذه الفرقة، وعقائدها.

١ـ عَبْدُاللَّهِ بْنُ سَبَإٍ، وَدَوْرُهُ فِي نَشْأَةِ التَّشَيُّعِ:

سوف نعرض لنشأة التشيع معتمدين على مصادر علماء أهل السنة الذين هم الثقات الأخيار لدينا، وإن كنا سنقدم جملة من أقوال الشيعة القدماء والمحدثين، ولن ندخل في جدال معهم في هذا الشأن، إنما سنعرض هذه الأقوال لنبين طبيعة العرض الشيعي لهذه النشأة، وخاصة على أيدي المعاصرين، الذين بدءوا منذ ستة عشر عامًا تقريبًا بطرح آراء ماكرة، وقاموا بنشرها في وسط أهل السنة والجماعة، وخاصة في نطاق المثقفين منهم، والذين يعيشون في أمريكا، وأوربا، ومن هذه الأساليب الترضي على الخلفاء الثلاثة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعدم ذكر ما قاله علماؤهم السابقون عنهم، ثم التدرج في ذلك، حتى إذا وصلوا إلى خلافة علي ﵁ بدءوا بالطعن في خلافتهم، وأعمالهم، ومن أبرز محاولات الكُتَّاب الشيعة المعاصرين ـ أيضًا ـ تقديم

تفسير شيعي خاص بأحداث الفتنة الأولى، وما أعقبها من ثوارت في العصر الأموي، ومناصرة كل حركات الخروج على الدولة الأموية، واعتبارها حركات رسالية، ويرون أن هذه الحركات كان يغذيها آل البيت (بزعمهم)؛ لاستمرار جذوة الثورة المزعومة، كما يقول محمد تقي المدرسي[1].

لكن المحاولات الشيعية المعاصرة اهتمت كثيرًا بنفي صلة التشيع باليهود، وبابن سبإ خصوصًا، وحاولت جهدها أن تُرْجِعَ أسباب النشأة إلى حادثة السقيفة، متابعين من سبقهم من علماء الشيعة القدماء، ولكن عن طريق طرح عجيب؛ وهو أن عليًّا رضي الله عنه كان يمثل الاتجاه الإسلامي، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وجمهور الصحابة كانوا يمثلون الاتجاه القبلي (بزعمهم)، وهذه الصياغة الماكرة تمثل نوعًا جديدًا من أنواع الطعن بالصحابة بأسلوب معاصر، خدَّاع للشباب المسلم، الذي ليس له رصيد من العلم بالعقائد الشيعية، وأسسها التي قامت عليها.

فعلماء الشيعة القدماء والمحدثون يرون أن الافتراق العَقَدِي في الأمة بدأ منذ اجتماع السقيفة، ويعتبرون أن الخلاف حول الإمامة قد أحدث هذه الفُرْقَةَ المزعومة بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وممن قال بهذا الزعم النوبختي؛ حيث يقول: «فافترقت الأمة بعد موته ﷺ ثلاث فرق: فرقة منها سُمِّيَتِ الشيعة، وهم شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنهم افترقت صنوف الشيعة كلها، وفرقة منهم ادعت الإمرة والسلطان؛ وهم الأنصار، ودعوا إلى عقد الأمر لسعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه، وفرقة مالت إلى أبي بكر أبي قحافة»[2]، ويضيف الناشئ الأكبر (ت ٢٩٣) فرقة رابعة (بزعمه)؛ وهم «أهل الردة، الذين امتنعوا عن أداء الزكاة إلى خليفة رسول الله ﷺ، أبي بكر الصديق»[3].

---

(١) التاريخ الإسلامي دروس وعبر، ص ١٨، ط١، ١٤٠٤هـ، دار الجيل، بيروت.

(٢) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢ ـ ٣، وتابعه على قوله، القمي، المقالات والفرق، ص ٣.

(٣) الناشئ الأكبر، مسائل الإمامة، ص ١٤، ت. يوسف فان إس، بيروت ١٩٧١م.

ومما لا شك فيه أن هذه المزاعم الباطلة تهدف إلى جعل الإمامة أصلًا من أصول العقيدة، التي يزعم الشيعة أن الفُرْقَةَ العَقَدِية حدثت بسببها؛ ليتسنى لهم القول إن عليًا كان إمامًا مفترض الطاعة في هذه المرحلة، وإن هناك مجموعة من الصحابة الكرام تجمعوا حوله، وإنهم كانوا يمثلون الاتجاه الإسلامي الرسالي (بزعمهم) ضد تيار القبلية، الذي اخترعته عقولهم العليلة، وهذا الزعم في غاية البطلان؛ فإن أول افتراق عَقَدِي حدث في الأمة هو خروج الخوارج على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وظهور الشيعة المبتدعة الذين كان قائدهم عبدالله بن سبإ.

أما المعاصرون، فإنهم يرددون نفس المزاعم، ويرون أن الفرقة العَقَدِية حدثت بعد اجتماع السقيفة؛ ليؤكدوا مزاعم من سبقهم، وليفتروا على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فِرْيَتَهُمُ الشنيعة، من أن الصحابة الكرام حدثت بينهم فرقة عَقَدِية؛ وممن قال بهذا الزعم الباطل أمير مهنا، وعلي خريس؛ حيث قالا: «يُجْمِعُ المؤرخون على أن الفِرَقَ في الإسلام، أو بداياتها، انطلقت من السقيفة؛ حيث دعا الأنصار إلى اجتماعهم الشهير، في محاولة للحد من هيمنة المهاجرين، واستئثارهم بالأمر، بعد غياب الرسول ﷺ، الذي جسد وجوده عنصر التوازن في المدينة لمصلحة الفئة الأولى، مُقَدِّرًا فيها الدور التاريخي في نصرة الإسلام، والانتقال به من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة؛ ومن هنا، فإن حركة الأنصار هذه شكلت ما يمكن اعتباره أولى الفِرَقِ في الإسلام، في الوقت الذي ظهرت فيه بوادر اتجاهات سياسية ثلاثة متصارعة بصورة ما حول السلطة: الاتجاه الأول: الذي فاز بالخلافة التي انعقدت لأبي بكر، بدعم أساسي من عمر بن الخطاب، وآخرين مهدوا السبيل لبيعة الخليفة الأول، معتمدين على سرعة الحركة والمبادرة، أما الثاني، فقد امتد على مساحة أوسع، ممثلًا بعلي بن أبي طالب، الذي تكتل حوله فريق من الصحابة الأوائل، وبعض الأنصار، فضلًا عن بني هاشم؛ وُجِدَ فيه من الصفات ما يؤهله لقيادة تلك المرحلة، وقد انبثق عن هذا الاتجاه ما عُرِفَ فيما بعد بالتشيع، ويبقى الاتجاه الثالث الذي لم يكن معلنًا في تلك الفترة المبكرة، وهو الاتجاه الأموي، الذي راهن على علي أولًا، ثم ما لبث أن التحق بركب

الخلافة الأولى، قبل أن يجد ظرفه الملائم في خلافة عثمان؛ أحد وجوه الأسرة الأموية، والانطلاق عبرها إلى أهدافه في السلطة، وهذا الواقع حمل معه بذرة الانقسام بين المسلمين، وما لبثت الخلافة أن تحولت في ظله إلى قضية متفجرة؛ لِتتمحْوَرَ حولها المسائل، وتنحسر عن القضايا الأخرى في المجتمع الإسلامي[1].

أما الدكتور إبراهيم بيضون، فَيُحَلِّلُ المسألة على النحو التالي: «وهكذا، فإن قراءة متمعنة للوضع السياسي في المدينة، عشية وفاة النبي ﷺ، تضعنا أمام اتجاهات ثلاثة، كانت تتجاذب بصورة مباشرة، أو خجولة، من أجل السيطرة على الحكم:

١ـ **الِاتِّجَاهُ الْقُرَشِيُّ**: وهو في أساس تكوينه عبارة عن تحالفات مصلحية بين كبار التجار، والأغنياء، والصيارفة الذين سيطروا على الاقتصاد المكي قبيل الإسلام، وكان أبو سفيان واجهة هذا التحالف، وممثل الأرستقراطية القبلية المهزومة من قريش، وثقيف.

٢ـ **الِاتِّجَاهُ الْإِسْلَامِيُّ**: الذي جسد النزعة الجماعية في الدولة الصاعدة، واعْتُبِرَ امتدادًا طبيعيًا سمي بالجماعة الإسلامية، التي شكلت جمهور الدولة الأولى، أو بمعنى آخر: كان المعبر عن مصالح الفئات المتوسطة، والمحدودة الدخل، التي تحسنت أوضاعها المعيشية، والاجتماعية، بشكل جذري في المجتمع الجديد، وكان الممثل لهذا الاتجاه، بصورة عفوية، علي بن أبي طالب، الذي اعْتُبِرَ أحد أبرز وجوه النخبة الإسلامية المناضلة، ولقد ضم هذا الاتجاه، إضافة إلى علي وأسرته الهاشمية، مجموعة نخبوية أخرى، كانت مقربة من النبي ﷺ؛ من أمثال سلمان الفارسي (ت ٣٦هـ)، وأبي ذر الغفاري (ت ٣٢هـ)، وعمار بن ياسر (ت ٣٧هـ)، والمقداد بن عمرو (٣٣هـ)

٣ـ **الِاتِّجَاهُ الْوَسَطِيُّ**: الذي تألف من شخصيات قيادية بارزة (أبو بكر، عمر بن الخطاب، أبو عبيدة بن الجراح ـ رضوان الله عليهم ـ) ،أسهمت بأدوار مؤثرة،

---

(١) أمير مهنا وعلى خريس، الفرق الإسلامية، ص ٥، ط١، ١٤١٢هـ، المركز الثقافي، بيروت.

وطليعية[١]، في نضالات الدعوة والدولة، وكان عمر الشريان الرئيس لهذا الاتجاه، الذي ظل إلى التكتل أقرب، وظلت قوته مرتبطة بقياداته، دون أن يكون له امتداد بعيد في الجماعة التي التأمت حول أبي بكر في السقيفة؛ حيث التقت وسطيته القرشية، مع وسطية قريش نفسها، التي كانت أوسط العرب دارًا، ونسبًا، حسب الطرح الذي ينتمي إليه. وتجدر الإشارة إلى أن سياسة هذا الاتجاه، بعد ارتقائه سدة الحكم، تقاطعت مع سياسة الاتجاه الإسلامي، أو الكثير منها، مؤديًا ذلك إلى معادلة فريدة؛ حيث التحول يتم عادة من موقع السلطة، نحو الاتجاه المحافظ أو التقليدي؛ باعتبار أن الأخيرة تجد عادة الكثير من القواسم المشتركة معه، خلافًا للاتجاه الإسلامي، الذي تعاطى مع القضايا المطروحة بصورة جذرية، ومتماسكة»[٢].

ويضع الدكتور حسن عباس حسن خلافة أبي بكر الصديق أحد عوامل افتراق المسلمين؛ حيث يقول: «إن خلافة أبي بكر الصديق، والتي ترتبت على بيعة السقيفة، كانت بداية الخلافات بين المسلمين؛ ومن ثم فإن عمر رأى أن خلافة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، ولكنها فلتة وقعت، وترى الشيعة أنها فلتة كان يجب أن لا تقع، ومن هنا كان الافتراق»[٣].

هكذا يصور الشيعة الواقع الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ، وهو تصوير باطل، وغير صحيح؛ حيث هو قول ظاهر البهتان، وقد أبطل علماء السلف هذه الدعاوى الباطلة في مؤلفات كثيرة؛ أبرزها ما سطره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الشامل «منهاج السنة النبوية»، وما نقله من أقوال علماء السلف السابقين في تفنيد أكاذيب الشيعة،

---

(١) انظر لهذا المدح والثناء وما سيعقبه من طعن ونسبتهم إلى العصبة القرشية كما سبق وأشرنا في مقدمة هذا البحث.

(٢) د. إبراهيم بيضون، تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول، ص ١٥ - ١٦، ط١، سنة١٤٠٥هـ، دار اقرأ، بيروت.

(٣) د. حسن عباس حسن، الفكر السياسي الشيعي، ص ٨٨، ط١ ١٤٠٨هـ، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت.

ولكننا سنبين بطلان هذه الآراء خلال عرضنا التالي لنشأة التشيع، من المصادر الصحيحة للأئمة الأعلام، من أهل السنة والجماعة، وسيكون هذا العرض، بخصائصه، ونتائجه، الرد الأمثل على دعوى الشيعة القدامى والمعاصرين في مسألة نشأة الشيعة، والفُرْقَة المبكرة التي زعموها، بعد وفاة النبي ﷺ.

ومن المشهور بين أهل السنة والجماعة، وعلماء الشيعة، ومؤرخيهم، أن أول من ابتدع بدعة التشيع هو عبدالله بن سبإ؛ فهو الذي جاب الأمصار يدعو لضلالاته، وعقائده المنحرفة، بين من تابعوه على ضلاله وكفره، ولكن مع ثبوت وجوده، والعقائد، والآراء التي قال بها، إلا أن مجموعة من الباحثين المعاصرين من الشيعة اخترعوا أكذوبة نفي وجوده أصلًا، حتى لا يُوصَمَ أصل التشيع، الذي يدينون به، بأن أول من اخترعه هو يهودي، مخالفين بذلك من سبقهم من علماء نحلتهم، الذين تكلموا عنه، وقالوا بِغُلُوِّهِ، وإلحاده، فأتى هؤلاء الذين انفتحوا على المستشرقين والغرب، فوجدوا مذهب الشك الديكارتي[1]، فطبقوه على شخصية ابن سبإ؛ لأنه يُذَكِّرُهُمْ بالأصل اليهودي الذي ظنوا أنهم بوسيلتهم هذه يستطيعون التخلص منه، ولكن أنَّى لهم ذلك، وهذه حقائق التاريخ، وروايات المحدثين، تتحدث عنه، وعن زندقته، وغلوه، وإلحاده، وفساده الذي عاثه في الأرض؟

وقد قال بهذا الإنكار المتهافت من الكُتَّاب الشيعة الدكتور علي الوردي، في كتابه «وُعَّاظ السلاطين»، والدكتور كامل مصطفى الشيبي، في كتابه «الصلة بين التصوف والتشيع»، ومحمد جواد مغنية، في كتابه «التشيع»، وعبدالله الفياض، في كتابه «تاريخ الإمامية»، وهاشم معروف الحسني، في كتابه «الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة»،

---

(١) نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، ت ١٦٥٠م، حاول تطبيق المنهج الرياضي على الفلسفة، ورفض الأخذ بالتقليد فأقام فلسفته على الشك المنهجي، فشك في معارفه جميعا، حسية كانت أو عقلية، لاحتمال أن يكون مخدوعا فيها، لكنه وجد أن ثمة شيئا لا يقبل الشك، وهو حقيقة كونه يشك، ولم يكن ليستطيع الشك لو لم يكن موجودا، إذن فهو موجود لأنه يشك، ولما كان الشك تفكيرا فهو موجود لأنه يفكر، انظر الموسوعة العربية الميسرة، ج١، ص ٨٣٤.

ومرتضى العسكري، في كتابه «عبدالله بن سبإ»، وكتابه الآخر «عبدالله بن سبإ وأساطير أخرى»، وتابعهم على ذلك الدكتور طه حسين، الذي شكك في وجوده، في كتابه «علي وبنوه»، والدكتور محمد كامل حسين، في كتابه «أدب مصر الفاطمية»، والدكتور حامد حفني داود، في كتابه «التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية»، والدكتور عبدالعزيز الهلابي، في بحثه المنشور في حوليات كلية الآداب الكويتية، والغريب أن جملة من المستشرقين الذين تعرضوا لابن سبإ لم يقولوا بإنكار شخصيته، وتفاوتت آراءهم في مسألة نسبة الأحداث إليه فقط، وهناك جملة من المستشرقين شككوا في شخصيته؛ مثل: برنارد لويس، ويوليوس فلهوزن، وفرييد لاندر، والأمير كايتان»[١].

ولن نكرر ما كتبه الأساتذة الأفاضل الذين ردوا على هذا الزعم الباطل والمتهافت؛ كالدكتور سعدي الهاشمي، والذي توّج آخر أعماله في هذا المجال بكتابه القيِّم والنفيس بعنوان «الرواة الذين تأثروا بابن سبإ»[٢]؛ فقد جمع جملة من الرواة الذين اعتنقوا آراء ابن سبإ، وكانوا يقولون بها، فكان هذا الجهد غاية في قوة الحجة الدامغة، التي تبطل دعاوى أرباب مذهب الشك، الذي استخدمه كثير من أعداء هذا الدين، فإذا لم توافقهم شخصية، تسلطوا عليها بهذا المذهب الهدام، وقد فنَّد هذا الزعم الباطل ـ أيضًا ـ الأستاذ سليمان بن حمد العودة، ود. محمد المحزون، وغيرهم ممن تعرضوا له ضمن بحوثهم؛ ومن هذا المنطلق، فإننا لن نلتفت إلى هذا الإنكار المعروفة أهدافه، ومقاصده، والذي هيأ الله له من فنَّده، وأبطله؛ ولهذا، فإننا سنتعامل مع

---

(١) انظر حول هذه المؤلفات والرد عليها، د. سعدي الهاشمي، ابن سبإ حقيقة لا خيال، ط١، ١٤٠٦هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الأستاذ سليمان حمد العودة، عبدالله بن سبإ، وأثره في إحداث الفتنة، ط٣، ١٤١٢هـ، دار طيبة الرياض، والدكتور محمد أمحزون، عبدالله بن سبإ في ميزان البحث العلمي، مقالة في مجلة البيان العدد ٨٠ ربيع أول ١٤١٥هـ، والعدد ٨١ ربيع ثاني ١٤١٥هـ، والدكتور فتحي محمد الزغبي في غلاة الشيعة، ط١، ١٤٠٩هـ، وإحسان إلهي ظهير، الشيعة والتشيع، ط٢، ١٤٠٤هـ.

(٢) ط١، ١٤١٣هـ.

الحقيقة الواضحة؛ وهي أن أحد الزنادقة المنافقين قد أعلن إسلامه؛ ليعبث بمعتقدات المسلمين؛ عن طريق إضلالهم، وطرح العقائد الفاسدة بينهم.

فمن الثابت تاريخيًّا أن ابن سبإٍ من يهود اليمن؛ حيث قال الإمام الطبري: «كان عبدالله بن سبإٍ يهوديًّا من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان رضي الله عنه، ثم تنقل في بلدان المسلمين، يحاول ضلالتهم؛ فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه، حتى أتى مصر، فاعتمر فيها»[(١)]، وينقل ابن عساكر نص الطبري، ولكنه يصحح العبارة الأخيرة، فيقول: فاغتمز فيهم؛ أي طعن في عقيدتهم[(٢)]، وكان مبتدأ أمره في التخريب ما قاله ابن عساكر، قال: «كان مبدأ الطعن على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إفساد عبدالله بن سبإٍ، الذي تنسب إليه السبئية، ويُعْرَفُ بابن السوداء، ولما خرج ابن السوداء إلى مصر، نزل على كنانة بن بشر مَرَّةً، وعلى سودان بن حمران مرة، وانقطع إلى الغافقي، فشجعه الغافقي؛ فتكلم، وأطاف به خالد بن ملجم، وعبدالله بن زريرة، وأشباه لهم، فصرف لهم القول فلم، يجيبوه إلى شيء مما يجيبون إلى الوصية، فقال: «عليكم نابُ العرب وحجرهم، ولسنا من رجاله[(٣)]، فأروه أنكم تزرعون، ولا تزرعوا العام شيئًا؛ حتى تنكسر مصر، فتشكونه، فيُعْزَلَ عنكم، ونسأل من هو أضعف منه، ونخلو بما نريد، ونظهر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[(٤)].

وقال الإمام الطبري: «فقال لهم فيما يقول: لَعَجَبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويُكَذِّبُ بأن محمدًا يَرْجِعُ، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، [القصص: ٨٥]؛ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال: فقُبِلَ ذلك عنه، ووضع لهم (الرجعة)، فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك: إنه

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص٦٤٧.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج١٢، ص ٢١٩.

(٣) ناب القوم: سيدهم، والحجر هنا: الداهية وهو عمرو بن العاص أمير مصر يومها.

(٤) ابن عساكر، المختصر، ج١٦، ص ١٨٢.

كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي (وصي) محمد ﷺ، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصي رسول الله، وتناول أمر الأمة، ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ؛ فانهضوا في هذا الأمر، فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر، فبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار، بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مِصْرٍ منهم إلى مِصْرٍ آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا المدينة، وأوسعوا الأرض (إذاعة)، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويُسِرُّونَ غير ما يُبْدُون؛ فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابْتُلِيَ به هؤلاء، إلا أهل المدينة؛ فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار؛ فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس»(١).

لقد بدأ نشاط ابن سبإ في خلافة عثمان؛ حيث قرر اليهود إسلامه ليَسْهُلَ عليه التنقل، والحركة، ودراسة الأحوال، واقتناص ضِعَاف الإيمان، وتنظيمهم للقيام بعبء دعوته الهدامة، في الأماكن التي يصعب عليه الإقامة الطويلة فيها، ثم نشر هذه العقائد بين الجَهَلَة، وعوامِّ الناس؛ وفي هذا يقول عبدالله بن سعد اليافعي (ت ٧٦٨): إن ابن سبإٍ أسلم، لا رغبة في الإسلام، بل للإفساد بين الأنام، وهو الذي أغرى، وثور النيران، حتى قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه(٢)، وقال الشيخ السكسي (ت ٦٨٣): «إن عبدالله بن سبإٍ كان يهوديًّا من أهل صنعاء، ثم أسلم، لا رغبة في الإسلام، ولكن ليَغُرَّ المسلمين

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٦٤٧، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٧٧.

(٢) ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة، ص ٨٧، ومن الأمور العجيبة أن ابن أبي شيبه في مصنفه ذكر ما يفيد أن قاتل عثمان حقيقة هو عبد الله بن سبأ من حديث أبي سعيد مولى أسيد الأنصاري قال: (ودخل عليه رجل له الموت الأسود فخنقه ثم خرج وكان ابن سبأ يسمى ابن السوداء). المصنف ج١٥ـ ص٢١٧ـ ط الدار السلفية ـ الهند. ١٤٠٢هـ

بإسلامه؛ فيفسد أمورهم، ويغري بينهم إلى أن حمل أهل مصر على الاجتماع على قتل عثمان رضي الله عنه»[(١)].

ومما يعزز مقالتنا من أن ابن سبأ في هذه المرحلة كان يطوف في البلدان ليغري المسلمين بالثورة؛ ومن ثم الفتنة، والاقتتال، ما رواه الطبري عن تنقله في الأمصار، ثم بذر بذور الخروج، والثورة على الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه؛ فقد ذهب إلى الشام، قال الإمام الطبري: «لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر، فقال: يا أبا ذر، ألا تَعْجَبُ إلى معاوية؛ يقول: المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ قال: يرحمك الله، يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟ قال: فلا تقله، قال: فإني لا أقول: إنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين، قال: وأتى ابنُ السوداء أبا الدرداء، فقال له: من أنت، أظنك والله يهوديًّا»[(٢)].

ونحن، إن كنا نقبل من النص تسلل ابن سبإٍ، وإثارته مثل هذه التساؤلات، فإننا لا نقبل ـ إطلاقًا ـ أن يكون لابن سبإٍ أدنى تأثير على الصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه، فقد عُرِفَ رضي الله عنه بالزهد، والتقشف، وكانت دعوته للتخفف من الدنيا إشفاقًا على المسلمين من فتن الدنيا، والتعلق بها، ولم يكن أبو ذر يعيب على معاوية رضي الله عنه أنه منع المسلمين حقهم أو فيئهم أو غنائمهم؛ فهذا لم يكن موجودًا، وإنما كان له اجتهاد، وفقه في مسألة كنز الأموال، والذهب، والفضة، ولعل هذه الرواية من الروايات التي أطلقها ابن جرير، ولم يستدرك عليها، وواجب المحققين النظر فيها، وتوجيهها الوجهة الصالحة.

وكان من تنقلاته المشهورة ـ أيضًا ـ ذهابه للبصرة، واكتشاف أميرها له؛ حيث روى الطبري: «أنه قدم إلى البصرة، واجتمع إليه نفر من أهلها، فطرح لهم ابن السوداء، ولم

---

(١) البرهان في معرفة عقائد الإيمان، ص ٨٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٦١٥، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٥٧.

يصرح[١]، فقبلوا منه، واستعظموه، وأرسل إليه عبدالله بن عامر (ت ٥٩)، فسأله: ما أنت؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام (وهذه الحادثة يؤرخها الطبري سنة ٣٣هـ، ولعلها بداية إسلام ابن سبإ؛ أي بداية الترتيب لأحداث الفتنة»، ورغب في جوارك، فقال: ما يبلغني ذلك، اخرج عني، فخرج حتى أتي الكوفة، فَأُخْرِجَ منها، فاستقر بمصر، وجعل يكاتبهم، ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم»[٢].

وكان من نتائج هذه التنقلات، والمكاتبات، تأليب المنافقين، والمارقين، والترتيب للفتنة التي بدأت تغلي مراجلها على أيدي النزاع من القبائل، الذين اقتنصهم ابن سبإ، وسيرهم في ركب الضلالة، بعد أن مهد لذلك في نفوسهم بالطعن على الصحابة، وذوي السابقة منه، ثم إعمال السيف في رقاب خيارهم، وعلى رأسهم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يكن الهدف ـ مطلقًا ـ الدعوة لتولية علي رضي الله عنه، بقدر ما كان القصد إسالة الدماء، وفتح باب الأحقاد، والثارات، وتفريق المسلمين على الصورة المؤسفة التي انتهت إليها الأحداث.

مَقَالَاتُ ابْنِ سَبَإٍ الْمُنْحَرِفَةُ:

وقد كان الغطاء الذي اتخذته السبئية في هذه المرحلة الدعوة لعلي، وأنه هو الوصي، ولكن الحقيقة أنه ما كان لابن سبإ، ولا غيره، من نزاع القبائل البغاة المارقين، أن يطيقوا حكم علي رضي الله عنه، ولا سياسته، وعدله، واستقامته، وما كان يسمح لهم أن يزرعوا العقائد المنحرفة حول شخصه، فضلًا عن أن يرى بالطعن على من سبقه من إخوانه البررة، من الخلفاء الراشدين. ومن خلال التتبع لبذور النحلة السبئية الضالة، فإننا نلمح أنها صرحت ببعض العقائد حول علي رضي الله عنه، وكان ينفيها عن نفسه، ومن ذلك أنهم أشاعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عهد له بالإمارة من بعده، وهذه الدعوة الباطلة هي

(١) وهذا الطرح وعدم التصريح يعني أنه كان في بداية نشاطه، ولعله لم يحدد شخصية علي رضي الله عنه في مسألة الوصية والرجعة وغيرها من الأكاذيب التي اخترعها ودعا لها وتقبلها منه عامة الناس وجهلتهم الذين تستهويهم مثل هذه الغرائب.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٦٣٩، وابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٧٢.

أساس بدعة التشيع حتى وقتنا الحاضر؛ فقد امتدت دائرتها بالطعن على الخلفاء السابقين، والطعن على جمهور الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وكان علي رضي الله عنه ينفي هذا الزعم؛ فقد روى سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) عن سعيد بن عمرو، قال: «خَطَبَنَا علي، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا من الإمارة شيئًا، ولكن رأي رأيناه، فاسْتُخْلِفَ أبو بكر، فقام، واستقام، ثم اسْتُخْلِفَ عمر، فقام واستقام، ثم ضُرِبَ الدين بجرانه، وفي رواية عن قيس بن عباد، قال: سمعت عليًا يقول: والله، ما عهد إلي رسول الله ﷺ عهدًا، إلا شيئًا عهده إلى الناس، ولكن الناس وقعوا في عثمان، فقتلوه، فكان غيري فيه أسوأ حالًا وفعلًا مني»[1].

ومن المقالات الباطلة التي قال بها ابن سبإٍ في هذه المرحلة الزعم أن لدى علي علمًا خاصًا، وأن النبي خصَّه بشيء من ذلك، وقد رد علي رضي الله عنه على هذه الأكذوبة، فقد روى البخاري عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أُعْطِيَهُ رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»[2].

وروى ابن عساكر عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: «خطبنا علي فقال: من زعم أن عندنا شيئًا نقرؤه إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، فقد كذب»[3].

ومن المقالات الباطلة التي قال بها ابن سبإٍ ـ لعنه الله ـ، واطلع عليها علي رضي الله عنه أنه أول من أظهر البراءة من أبي بكر، وعمر، وعثمان، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ؛ فقد روى ابن عساكر: «قال أبو الطفيل: رأيت المسيب بن نجية، أتى به مُلَبِّبَهُ (يعني ابن السوداء)، وعلي على المنبر، فقال علي: ما شأنه؟ فقال: يكذب على الله، وعلى

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الراشدين، ج١، ص ٦٣٩، وقد سبق بيان ذلك في عدة نصوص تبطل دعوى السبيئة.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ح رقم ١١١، الفتح، ج١، ص ٢٠٤.

(٣) ابن عساكر، المختصر، ج١٨، ص ٢١، والذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الراشدين، ص ٦٣٧.

رسوله، فقال علي ﷺ: ما لي ولهذا الخبيث الأسود؟ يعني عبدالله بن سبإٍ، وكان يقع في أبي بكر، وعمر»[١].

وقد نقل هذه الرواية القمي، والنوبختي، من مؤرخي الشيعة القدماء؛ قالا: «وكان (أول) من أظهر الطعن على أبي بكر، وعمر، وعثمان، والصحابة، وتبرأ منهم، وادعى أن عليًا أمره بذلك، فأخذه علي، فسأله عن ذلك: فأقر به، وأمر بقتله، فصاح الناس من كل ناحية: يا أمير المؤمنين، أتقتل رجلًا يدعو إلى حبكم، أهل البيت، وإلى ولايتك، والبراءة من أعدائك؟! فسيره إلى المدائن، وحكى جماعة من أهل العلم أن عبدالله بن سبإٍ كان يهوديًا، فأسلم، ووالى عليًا، وكان يقول، وهو على يهوديته، في يوشع بن نون وصي موسى بهذه المقالة، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله ﷺ في علي بمثل ذلك، وهو (أول)[٢] من شهد بالقول بفرض إمامة علي بن أبي طالب، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه، وأكفرهم؛ فمن هاهنا (قال) من خالف الشيعة أن أصل الرفض مأخوذ من (اليهودية)»[٣].

إن هذا النص على الرواية الشيعية يحوي بعض الحق، والكثير من الأباطيل؛ فمن الحق الذي طابق الواقع التاريخي قولهم إن أول من ابتدع مقالات الشيعة هو ابن سبإٍ، وهو أول من وضع سب الصحابة، والبراءة منهم، وقال بالوصية، أما الأباطيل، فهي وصفهم أن لعلي أعداء، ويقصدون بذلك الصحابة، ومن سبقهم من الخلفاء، وأن عليًا استجاب لصيحات الشيعة، وترك قتله، بزعم أنه يدعو لحب آل البيت، وأنه سيّره للمدائن، وقد تابعهم على هذا الزعم البغدادي؛ حيث قال: «إن عبدالله بن سبإٍ ابن السوداء يهودي، من أهل الحيرة [والمشهور أنه من صنعاء]، فأظهر الإسلام، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق، ورياسة، فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيًا، وأن عليًا ﷺ وصي محمد ﷺ، وأنه خير الأوصياء، كما أن محمدًا خير

(١) ابن عساكر، المختصر، ج١٢، ص ٢٢٢.

(٢) انظر إلى طبيعة كلمة أول من قال بإمامة علي، من هذين العالمين الشيعيين.

(٣) القمي، الفرق والمقالات، ص ٢٠، والنوبختي، فرق الشيعة، ص ١٩.

الأنبياء، فلما سمع ذلك منه شيعة علي، قالوا لعلي: إنه من محبيك، فرفع علي قدره، وأجلسه تحت درجة منبره، ثم بلغه غلوه فيه، فهم بقتله، فنهاه ابن عباس عن ذلك، وقال له: إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام، وتحتاج إلى مداراة أصحابك، فلما خشي من قتله الفتنة التي خافها ابن عباس، نفاه إلى المدائن؛ فافتتن به الرعاع، بعد قتل علي رضي الله عنه، ثم قال: وقال المحققون من أهل السنة: إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم؛ بتأويلاته في علي، وأولاده، لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى - عليه السلام -؛ فانتسب إليه الرافضة، حين وجدهم أعرف أهل الأهواء في الكفر، ودلَّس ضلالته في تأويلاته»[1].

بعد عرض هذه النصوص، نود أن نضع عليها بعض الملاحظات الآتية؛ وذلك لتحرير مقالة ابن سبإ بعيدًا عن الخلط والتشويش، وأول الملاحظات التي يجب التأكيد عليها هي أن ابن سبإ أعلن إسلامه في نطاق المجتمع الإسلامي الكبير، الذي يقبل كل مسلم جديد، إذا طبَّق مطالب الدين الظاهرة؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، وغيرها، وأولها النطق بالشهادتين ابتداءا، ولم يكن المسلمون الأوائل ينقبون عن النوايا الداخلية للداخلين الجدد في دين الله، مع هذه السماحة التي وجدها هؤلاء المسلمون الجدد؛ فقد برز بينهم مَنْ بيَّتَ المكر والخديعة للأمة؛ من أمثال دهاقنة أرباب الأديان المختلفة، الذين عكفوا على دراسة هذا الدين؛ بُغْيَةَ الطعن فيه، ثم استحداث عقائد منحرفة؛ ومن ثم محاولة إلصاقها بشخصيات هامة؛ كشخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومع هذا الجهد المركز، الذي شنه هؤلاء الزنادقة المنافقون، في زرع الشُّبَهِ والمعتقدات المنحرفة، إلا أنهم واجهوا قاعدة إسلامية صلبة؛ فلم يستسلم لأكاذيب ابن سبإ إلا الأعاجم، وعوام الناس؛ ممن لا نصيب لهم من العلم والإيمان، وقد ترعرعت عقائده الفاسدة في أرض فارس، والعراق، ولكنها لم يُكْتَبْ لها الاستمرار في مصر، والشام، والحجاز؛ وذلك بفضل توفيق الله لعلماء السلف، الذين اقتلعوا هذه

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٣٥.

الأكاذيب؛ فقد روى الخطيب البغدادي، وابن عساكر، عن عثمان بن صالح، قال: «كان أهل مصر ينتقصون عثمان، حتى نشأ فيهم الليث بن سعد، فحدثهم بفضائله؛ فكفوا عن ذلك، وكان أهل حمص ينتقصون عليًّا، حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائله؛ فكفوا عن ذلك»[١].

وكان من أساليب الدعوة السبئية نشر الأقوال الكاذبة، عن الفتن والملاحم التي ستقع، والتي كانوا يهيئون النفوس إليها؛ فلذلك نشروها في مصر، وغيرها من البلدان، وعندما تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بعث مجموعة من العلماء لدحض هذه الأكاذيب، وتوجيه الناس إلى علوم الشريعة؛ فبعث «بيزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨هـ) إلى مصر، حيث كان فقيهًا، وكان حليمًا عاقلًا، وهو أول من أظهر العلم، والمسائل، والحلال والحرام، بمصر، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب، والملاحم، والفتن، وقال العلاء بن كثير: يزيد أول من سنَّ العلم بمصر، وكانوا يتحدثون بالفتن، والملاحم، والترغيب»[٢].

ثم يلاحظ على نص البغدادي قوله إن ابن عباس رضي الله عنه اقترح على عليٍّ عدم قتل ابن سبإ، وأن عليًّا وافقه على ذلك، وهذا القول لا يمكن قبوله ـ إطلاقًا ـ، ولا يصح ـ أيضًا ـ، وذلك أنه لا يمكن لعلي، ولا لابن عباس، أن يداري ابن سبإ على حساب العقيدة، ثم كيف يسيِّره إلى المدائن لينشر ضلالاته هناك، ويعطيه الحرية الكاملة؟! ولكن الصحيح الذي نرجحه هو ما قال به شيخ الإسلام ابن تيمية؛ من أن ابن سبإ قد هرب عندما علم بنية علي لقتله، قال ـ رحمه الله ـ: «وقد ثبت عن علي في صحيح البخاري، وغيره، من نحو ثمانين وجهًا، أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر[٣]، وثبت عنه أنه حرق غالية الرافضة، الذين اعتقدوا فيه الإلهية، وروي عنه

---

(١) تاريخ بغداد، ج١٣، ص ٧، وابن عساكر، المختصر، ج٢١، ص ٢٥١.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص ٣٠٤.

(٣) انظر نص البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا» ح رقم ٣٦٧١، الفتح ج٧، ص ٢٠.

بأسانيد جيدة أنه قال: لا أُوتَى بأحد يُفَضِّلُنِي على أبي بكر، وعمر، إلا جلدته حد المفتري، وعنه أنه طلب عبدالله بن سبإ لَمَّا بلغه أنه يسب أبا بكر، وعمر؛ ليقتله، فهرب منه»[1].

وعندما هرب إلى المدائن التي وجد فيها بغيته؛ حيث كانت تعج بالملل المختلفة، التي أتاحت له التعرف على عقائدها، وأفكارها، ومنها بدأ يدعو إلى ألوهية علي رضي الله عنه، وفي هذا يحدد شيخ الإسلام ابن تيمية أقسام الشيعة في هذه المرحلة، والتي تعود في مجملها إلى السبئية، وهي عبارة عن تطور مقالة السبئية؛ حيث قال: «وُجِدَتْ في أيامه الشيعة، لكن كانوا مختفين بقولهم، لا يظهرونه لعلي وشيعته، بل كانوا ثلاث طوائف: **طائفة تقول إنه إله**، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار، وخَدَّ لهم أخاديد عند باب مسجد بني كندة، وقيل إنه أنشد شعرًا:

لَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرَا أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قُنْبُرَا

والثانية السَّابَّةُ: وكان قد بلغه عن ابن السوداء، أنه كان يسب أبا بكر، وعمر، فطلبه، قيل إنه طلبه فهرب منه.

والثالثة: المُفَضِّلَةُ: الذين يفضلون عليًّا على أبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فتوافر عنه أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعمر»[2].

ولكننا نرجح أن قول ابن سبإ بألوهية علي كان قد ابتدعه في المدائن، في وسط من سُمُّوا، فيما بعد، الشيعة الغلاة، الذين بعث ابن سبإ مجموعة منهم إليه ليعلنوا ألوهيته، وسوف نقوم بترتيب هذه النصوص، وتصويبها؛ فقد روى ابن عساكر، عن جابر الجعفي، قال: لما بويع علي رضي الله عنه خطب الناس، فقام إليه ابن سبإ، فقال له: أنت دابة الأرض، قال: فقال له: اتق الله، فقال له: أنت الملك، فقال له: اتق الله، فقال له: أنت

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٨، ص ٤٧٣، وانظر منهاج السنة النبوية، ج١، ص ٣٠٨.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٣، ص ٣٣ ـ ٣٤، وانظر منهاج السنة النبوية، ج١، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨.

خلقت الخلق، وبسطت الرزق، فأمر بقتله، واجتمعت الرافضة، فقالت دعه، وانفه إلى «ساباط المدائن»؛ فانك إن قتلته بالمدينة خرجت أصحابه علينا، وشيعته، فنفاه إلى «ساباط المدائن»، فثَمَّ القرامطة والرافضة، قال: ثم قامت إليه طائفة؛ وهم السبئية، وكانوا أحد عشر رجلًا، فقال: ارجعوا، فإني علي بن أبي طالب، أبي مشهور، وأمي مشهورة، وأنا ابن عم محمد ﷺ، فقالوا: لا نرجع، دع داعيك؛ فأحرقهم بالنار، وقبورهم في الصحراء أحد عشر مشهورة، فقال من بقي منهم؛ ممن لم يكشف رأسه منهم علنًا، إنه إله، واحتجوا بقول ابن عباس: لا يعذب بالنار إلا خالقها، وقد عذَّب بالنار قبل علي أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ وذلك أنه رُفِعَ إليه رجل يُقَال له الفجاءة، فقالوا: إنه شتم سيدنا رسول الله ﷺ بعد وفاته، فأخرجه إلى الصحراء، فأحرقه بالنار، قال: فقال ابن عباس: قد عذَّب أبو بكر بالنار؛ فاعبدوه ـ أيضًا!»[(١)].

إن مقدمة هذا النص فيها نظر؛ وذلك أن ابن سبإ لم يَقُلْ مثل هذا في المدينة، وإنما كان ذلك في العراق، ثم كيف يتقبل علي رضي الله عنه هذه الصفات، ثم يلتفت إلى أولئك الذين منعوه من إنزال العقوبة بهذا الكافر الزنديق؟ ثم لماذا يقترحون نفيه إلى «ساباط المدائن» بالذات؟ ثم يفيد النص أن الشيعة ليسوا شيعة علي، وإنما شيعة ابن سبإ، فهم متبعون لابن سبإ في عقائده، وتوجيهاته، وهي، بلا شك، حقيقة الشيعة الذين أسس بناءهم ابن سبإ؛ فإنهم يوالون الزنادقة، ولا يعرفون من عقائد الإسلام شيئًا، فهم منغلقون على تلك الدوائر المنحرفة، التي تلقنهم خلاف عقائد الإسلام، التي نشئوا عليها، وأسسوا عليها نحلتهم الضالة.

والقول بألوهية علي رضي الله عنه، من قبل السبئية، من الأمور التي أجمعت عليها مصادر أهل السنة، والجماعة، وكذلك الشيعة الأوائل؛ حيث قال الأشعري (ت ٣٢٤): «إن

---

(١) ابن عساكر، المختصر، ج١٢، ص ٢٢٢، وقد اورد ابن حجر في الفتح أن أبو بكر حرق البغاة في النار بحضرة الصحابة، وحرق خالد بن الوليد بالنار فساق أهل الردة وأكثر علماء المدينة يجيزون تحريق الحصون والراكب على أهلها قاله الثوري والأوزاعي، انظر، فتح الباري، ج٦، ص ١٥٠.

ابن سبإٍ نفسه قال لعلي رضي الله عنه: أنت أنت»[١]، وقال الملطي (ت ٣٧٧): «فأولهم الفرقة الغالية من السبئية، وغيرهم، وهم أصحاب عبدالله بن سبإٍ، قالوا لعلي رضي الله عنه: أنت أنت، قال: ومن أنا؟ قالوا: الخالق البارئ»[٢]، ويرى البغدادي والإسفراييني أنه ادعى أولًا أن عليًا كان نبيًّا، ثم زاد عليها، وقال بألوهيته؛ حيث «إن ابن سبإٍ كان يقول في أول أمره إن عليًّا كان نبيًّا، ثم زاد على ذلك، فقال: كان إلهًا، وكان يقول: هو الإله في الحقيقة، وكان يدعو الخلق إلى مقالته، فأجابته جماعة إليها في وقت علي - كرم الله وجهه -، وزاد البغدادي: ودعا إلى ذلك قومًا من غواة الكوفة»[٣].

وقال المقدسي: «وفرقة تغلو غُلُوًّا شديدًا، وتقول قولًا عظيمًا، وهم أصحاب عبدالله بن سبإٍ، يقال لهم السبئية؛ قالوا لعلي: أنت إله العالمين، أنت خالقنا، ورازقنا، وأنت محيينا، ومميتنا، فاستعظم علي ذلك من قولهم، وأمر بهم؛ فأحرقوا بالنار، فدخلوا النار، وهم يضحكون، ويقولون: الآن صح لنا أنك إله؛ إذ لا يعذب بالنار إلا رب النار، وزعم إخوانهم، بعد ذلك، أنهم لم تمسَّهم النار، وإنما صارت عليهم بردًا وسلامًا»[٤].

ويزعم القمي أن ابن سبإٍ قال بذلك بعد وفاة علي رضي الله عنه؛ حيث قال: «فهذا مذهب السبئية، ومذهب الحربية؛ وهم أصحاب عبدالله بن عمر الحربي الكندي، في علي رضي الله عنه، وقالوا بعد ذلك في علي إنه إله العالمين، وإنه توارى عن خلقه سخطًا منه عليهم، وسيظهر[٥].

ولا شك أن هذا زعم باطل؛ فالمشهور أن ابن سبإٍ قال بذلك في حياة علي رضي الله عنه، ويقول ابن المرتضى إن ابن سبإٍ قال بذلك في أواخر حياة علي رضي الله عنه؛ حيث قال: «ثم حدث أواخر أيام علي رضي الله عنه قول ابن سبإٍ، فإنه أفرط في وصفه؛ بأن زعم أنه إله، وأفرط

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٥، والمقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٥٢.

(٢) الملطي، التنبية والرد، ص ١٨، والشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٧٤.

(٣) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ١٢٣، والبغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٣٣، والرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص ٧١.

(٤) المقدسي، البدء والتاريخ، ج٥، ص ١٢٥.

(٥) القمي، الفرق والمقالات، ص ٢١.

في بغض كبار الصحابة؛ بأن كَفَّرهم، فنفاه علي من الكوفة إلى المدائن، فأقام بها إلى أن مات علي رضي الله عنه، فرجع ابن سبإٍ إلى الكوفة، واستمال قومًا من أهلها في سب الصحابة، فبقي في الروافض إلى الآن»[١].

وروى الإمام البخاري هذه الحادثة عن عكرمة، قال: إن عليًا رضي الله عنه حرق قومًا، فبلغ ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»، ولقتلتهم؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[٢]، وقد أورد ابن حجر تحريق علي للسبئية في شرحه في موضع آخر من فتح الباري»[٣].

ومما يلفت النظر أن ابن حجر قال في «لسان الميزان» عن ابن سبإٍ: «من غلاة الزنادقة، ضالٌّ مضلٌّ، أحسب أن عليًا حرقه بالنار، وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء»[٤]، وهذا الأمر لا يُستبعد؛ لهوان الرجل، وسقوطه، وعدم اعتباره عند الصحابة، والتابعين، الذين عاشوا في ذلك العصر، إلا أحد الشواذِّ الزنادقة، الذين جابهتهم الدعوة الإسلامية في سنواتها الأولى، فكان حرقه، أو حرق فئته الضالة، مهمة عادية لإنهاء دعوة هذه الزمرة الهدامة، التي لا تستحق الذكر والتدوين، ولعل هذا يفسر لنا اندثار أخبار ابن سبإٍ بعد وفاة علي رضي الله عنه، ولعل القائل بعد ذلك إن عليًا حيٌّ لم يَمُتْ أحد الأتباع، هذا إذا صحت رواية ابن حجر.

ومن المقالات الشاذَّة التي قال بها ابن سبإٍ قوله: إن القرآن جزء من تسعة أجزاء، وقد ورد هذا القول في رسالة الإرجاء المنسوبة إلى الحسن بن محمد بن الحنفية (ت ٩٩)؛ حيث قال: «ومن خصومة هذه السبئية التي أدركنا؛ إذ يقولون هُدِينَا لوحي ضل عنه الناس، وعلم خفي، ويزعمون أن نبي الله كتم تسعة أعشار القرآن، ولو كان نبي الله كاتمًا شيئًا مما أنزل الله، لكتم شأن امرأة زيد: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

(١) ابن المرتضى، المنية والأول، ص ٨٦.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله، ح رقم ٣٠١٧، الفتح، ج٦، ص ١٤٩.

(٣) فتح الباري، ج١٢، ص ٢٧٠.

(٤) لسان الميزان، ج٣، ص ٣٥٨.

عَلَيۡهِ﴾، [الأحزاب: ٣٧]، وقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، [التحريم: ١]، وقوله: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾، [الإسراء: ٧٢][1].

وهذه المقالة تتردد على ألسنة معظم الشيعة؛ مما يعني أنهم ما زالوا يقتاتون على مقالات السبئية.

ومن المقالات المنحرفة التي قال بها ابن سبإٍ الزعم بأن عليًا رضي الله عنه حيٌّ يُرْزَقُ، وإنكار موته، ولعل هذه المقالة جاءت لتعزيز أكاذيبهم في دعوى ألوهية علي رضي الله عنه؛ فقد أورد الجاحظ عن زحر بن قيس (أحد أصحاب علي رضي الله عنه)، قال: «قدمت المدائن بعدما ضُرِبَ علي بن أبي طالب، فلقيني ابن السوداء، فقال لي: ما الخبر؟ قلت: ضُرِبَ أمير المؤمنين ضربة يموت الرجل من أيسر منها، ويعيش من أشد منها، قال: لو جئتمونا بدماغه في مئة صرة، لعلمنا أنه لا يموت حتى يذودكم بعصاه»[2].

في هذه المرحلة تبدأ العقائد السبئية بالتطور، وهي اللحظة التي تتمناها قوى الضلال؛ لتبدأ بنشر أكاذيبها، وهذا ما يلاحظ من هؤلاء الكذبة؛ فلم يمت أحد من آل البيت إلا نسج الشيعة حوله من الأكاذيب ما لا يحصى، وهذا ما سنلاحظه عند موت ابن الحنفية، والباقر، وجعفر الصادق، الذين رفعهم الزنادقة إلى مراتب النبوة، والألوهية، ولقد أسس هذا المنهج ابن سبإٍ؛ فما أن وصله خبر وفاة علي رضي الله عنه حتى كانت الخطوة التالية جاهزة الإعداد؛ فركب ركب الضلالة، ليعلنوا للناس أن عليًا لم يَمُتْ، ولم يكن هذا بالقول فقط، بل ذهبوا ليستأذنوا عليه، وكأنه حي يُرْزَقُ، قال: قال القمي، بعد نقله لنص مشابه لنص الجاحظ السابق ذكره: «ثم مضوا من يومهم حتى أناخوا بباب علي، فاستأذنوا عليه استئذان الواثق بحياته، الطامع في الوصول إليه، فقال لهم من حضره من أهله، وأصحابه، وولده: سبحان الله! ما علمتم أن أمير المؤمنين قد اسْتُشْهِدَ؟ قالوا: إنا لنعلم أنه لم يقتل، ولا يموت حتى يسوق العرب بسيفه، وسوطه،

(١) النص، في كتاب الأستاذ سليمان بن حمد العودة، عبدالله بن سبإ، ص ٢٠٦، وقد أوردنا قبل قليل هذا النص عن ابن حجر لسان الميزان، ج٣، ص ٣٥٨.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص ٨١.

كما قادهم بحجته، وبرهانه، وإنه ليسمع النجوى، ويعرق تحت الدثار الثقيل، ويلمع في الظلام كما يلمع السيف الصقيل الحسام»(١).

ثم يمني هؤلاء الجَهَلَة الذين انقادت عقولهم، وجوارحهم، إلى أكاذيبه؛ فيقول لهم: «والله ليَنْبُعَنَّ لعلي في مسجد الكوفة عينان، تفيض إحداهما عسلًا، والأخرى سمنًا، ويغترف منهما شيعته(٢)، وقد رد عليهم الحسن، وابن عباس، هذا الزعم الكاذب في أوانه؛ حيث قال الحسن: «فَلِمَ ورثنا ماله، وتزوج نساؤه»(٣)، وقال ابن عباس: «لو علمنا ذلك ما زوجنا نساءه، ولا اقتسمنا ميراثه»(٤).

ويتابع ابن سبإٍ أكاذيبه في إغواء أتباعه؛ ليثبت لهم أن عليًا ما زال حيًّا؛ فقد روى ابن قتيبة، قال: «بلغني عن أبي عاصم، عن إسماعيل بن مسلم المكي، قال: كنت بالكوفة، فإذا قوم من جيراني يُكثرون الدخول على رجل، فقلت من هذا الذي تدخلون عليه، فقالوا: هذا علي بن أبي طالب، فقلت: أدخلوني معكم، فمضيت معهم، وخبأت معي سوطًا تحت ثيابي، فإذا شيخ أصلع بطين، فقلت له: أنت علي بن أبي طالب؟ فأومأ برأسه: أي نعم، فأخرجت السوط، فما زلت أقنعه، وهو يقول: لتاوي لتاوي، فقلت لهم: يا فسقة، علي بن أبي طالب نبطي؟! ثم قلت له: ما قصتك؟ قال: جعلت فداك، أنا رجل من السواد، أخذني هؤلاء، فقالوا لي: أنت علي بن أبي طالب»(٥).

ولما فسدت هذه الخطة الماكرة لربط غوغاء الكوفة، وفارس، بهذه الأكاذيب التي تزعم استمرار حياة علي رضي الله عنه، اخترع السبئيون عقيدة خاصة بهم، تعفيهم من هذا الحرج الذي تكشفه الحقائق الواقعة في وسط الناس؛ فزعموا أن عليًا في السحاب؛

---

(١) الفرق والمقالات، ص ٢١، والحميري، الحور العين، ص ٢٠٦.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٣٥.

(٣) المطلي، التنبيه والرد، ص ١٨.

(٤) الحميري، الحور العين، ص ٢٠٦.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، ص ١٤٩، وقد سبق أن ذكرنا هذا النص.

حيث يقول البغدادي: «وزعم ابن سبإٍ أن المقتول ليس عليًّا رضي الله عنه، وإنما كان شيطانًا تصور للناس على صورة علي، وأن عليًّا صعد إلى السماء، كما صعد عيسى ـ عليه السلام ـ، وقال: كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى، كذلك كذبت النواصب، والخوارج، في دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصًا مصلوبًا شبهوه بعيسى؛ كذلك القائلون بقتل علي، رأوا قتيلًا يشبه عليًّا، فظنوا أنه علي، وعلي قد صعد إلى السماء، وإنه سينزل إلى الدنيا، وينتقم من أعدائه. وزعم بعض السبئية أن عليًّا في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد، قال: عليك السلام، يا أمير المؤمنين»[1].

ويرى الشهرستاني أن ابن سبإٍ قال بهذه المقالات بعد موت علي رضي الله عنه؛ فقال: «وإنما أظهر ابن سبإٍ هذه المقالة بعد انتقال علي رضي الله عنه، واجتمعت عليه جماعة؛ وهم أول فرقة قالت بالتوقف، والغيبة، والرجعة، وقالت بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة، بعد علي رضي الله عنه»[2].

ويرى الملطي أن فرقة من السبئية يقولون إن عليًّا في السحاب، قال: الفرقة الثانية من السبئية يقولون: إن عليًّا لم يَمُتْ، وإنه في السحاب، وإذا نشأت سحابة بيضاء، صافية، منيرة، مبرقة، مرعدة، قاموا إليها، يبتهلونْ، ويتضرعونْ، ويقولون: قد مر علي بنا في السحاب»[3].

وقال إسحاق بن سويد العدوي[4]:

بَرِئْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ ... مِنَ الْغَزَّالِ مِنْهُمْ وَابْنِ بَابِ
وَمِنْ قَوْمٍ إِذَا ذَكَرُوا عَلِيًّا ... يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَى السَّحَابِ

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٣٤.

(٢) الملل والنحل، ص ١٧٤.

(٣) الملطي، التنبيه، ص ١٨، والإسفراييني، التبصير، ص ١٢٣، والمقريزي، خطط، ج٢، ص ٣٥٢.

(٤) توفي سنة ١٣١، كان يحمل على علي رضي الله عنه، انظر السمعاني، الأنساب، ج٢، ص ١٦٩، والرازي، الجرح والتعديل، ج٢، ص ٢٢٢، وسير أعلام النبلاء، ج٦، ص ٤٧.

وَلَكِنِّي أُحِبُّ بِكُلِّ قَلْبِي ... وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ
رَسُولَ اللَّهِ وَالصِّدِّيقَ حُبًّا ... بِهِ أَرْجُو غَدًا حُسْنَ الثَّوَابِ[1]

وقد ترتب على معتقدات السبئية بالقول بالرجعة إلى الدنيا إبطال الآخرة؛ حيث كان يقول الشيخ اليافعي والسكسكي: «إنه أول من قال بالرجعة إلى الدنيا، وأبطل الآخرة هو ورفقته، كما قالت السبئية إن عليًا لم يَمُتْ، وانفردوا بأن قالوا: ما هناك آخرة، ولا قيامة، سوى قيام القتلى، ويدور الزمان كما كان، ثم يعود الناس إلى الدنيا، مستقبلين لأولها، قالوا: فمن كان مضى في الدور الأول سلخت روحه سَلْخَ البهيمة في الدور الثاني؛ لتعذر رجوعه فيها»[2].

هذه هي المبتدعات العَقَدِية التي أتى بها ابن سبإ، وأتباعه، ويمكن تلخيصها على النحو التالي: القول بالوصية؛ أي أن النبي ﷺ أوصى لعلي من بعده، ثم انتقاص أبي بكر، وعمر، وسب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، والبراءة منهم، ثم زعمه أن القرآن جزء من تسعة أجزاء، ثم القول بنبوة علي رضي الله عنه، ثم القول بألوهية علي رضي الله عنه، ثم القول برجعته، وإنكارهم موته، وإنه دابة الأرض، ثم إنه في السحاب، وإن الرعد صوته، والبرق سوطه، وقد قدمنا هذه المبتدعات المنكرة بصورة موسعة، وبالروايات التي استطعنا الوصول إليها، من مصارد أهل السنة، والجماعة، ومن المصادر الشيعية القديمة، التي وافقت أهل السنة في هذا الشأن.

ومما لا شك فيه أن مبتدعات ابن سبإٍ والسبئية لم تنتهِ عند هذا الحد؛ فقد ظهرت حركات شيعية أخرى، كانت تَنْهَلُ من هذا المعين الآسن، وتُعَبِّئُ أتباعها بهذه المعتقدات الباطلة؛ متابعة لمنهج السبئية، الذين يضلون الغوغاء، ويسيطرون على عقولهم، وجوارحهم، وهذا ما سنلاحظه في الفرق التالية، بإذن الله ـ تعالى.

---

(١) الفرق بين الفرق، ص ٢٣٥، والحميري، الحور العين، ص ٢٠٦.

(٢) انظر اليافعي، ذكر عقائد الثنتين والسبعين، ص ٨٧، والسكسكي، البرهان، ص ٨٥.

٢ـ الشِّيعَةُ مِنْ وَفَاةِ عَلِيٍّ ﷺ حَتَّى قِيَامِ حَرَكَةِ المُخْتَارِ:

لقد كانت السبئية هي الصورة الأولى من صور التشيع، التي انتسبت؛ كما رأينا، إلى علي ﷺ، بالغلو، والتأليه، والأكاذيب المختلفة، وكانت مواجهة علي ﷺ لهم بتلك الصورة القوية التي حرقهم بها، هذه المواجهة الحاسمة يكاد المرء يقطع يقينًا بعدها أنها حولتهم إلى حركة معادية لآل البيت، وهي، في الأصل، معادية، ومخربة، وإنما أشاعت حب آل البيت بين الغوغاء، الذين أضلتهم في مبتدعاتها الكاذبة، وقد اتخذت من هذا الحب، والولاء المزيف، ستارًا لهذا العداء الذي كانت أبشع صوره تنظيم صفوفها لإيقاع آل البيت في مصائب متتالية؛ كما حدث للحسين ﷺ، ثم الدعوة لكراهية الصحابة، واتهامهم بالردة، والكفر.

ولكن أبرز ما يميز هذه المرحلة، هو تعلق السبئية، وغوغاء الشيعة الذين أنتجتهم في سراديبها المظلمة، بأبناء علي ﷺ ، ونسجها لعقائد باطلة حولهم؛ فبعد استشهاد علي ﷺ اجتمع أهل العراق على ابنه الحسن ﷺ، وسوف نعطي صورة من صور حياة هذه الصحابي الجليل، وعظيم إحساسه بواقع الأمة، وهمومها، بعيدًا عن نظرة الشيعة الضيقة، واهتماماتها الرديئة؛ فقد كان ﷺ من المعارضين لتسلم والده عليٍّ الخلافة، وقد سبق وأوردنا أقواله، فلو كان يعلم أن أباه منصوص على إمامته، لما عارضه في ذلك، ولكنه يعيش في بحبوحة عقيدة السلف، أهل السنة، والجماعة، ولم تتلوث نفسه الكريمة بهذه الأسرار الكاذبة التي اخترعها الزنديق عبدالله بن سبإٍ.

ولقد كان همه الوحيد حقن دماء المسلمين، وإعادة وَحْدتهم التي مزقتها الخلافات المشهورة، ولا شك أنه رجل المرحلة الهامة في التئام جرح الأمة وهو الذي بشر النبي ﷺ أنه سيد، وأنه سيصلح به الله بين فئتين؛ فقد روى البخاري عن الحسن، أنه سمع أبا بكرة يقول: «سمعت النبي ﷺ على المنبر، والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة، ويقول: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[١].

(١) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ ح رقم ٣٧٤٦، الفتح، ج٧، ص ٩٤.

وقد كان رضي الله عنه أحد أهداف السبئية؛ حاولوا ثنيه عن الصلح مع معاوية رضي الله عنه، وذلك لأن أهم أهداف السبئية هو إستمرار الخلاف في الأمة، وتأجيج نار الحروب بينها، ولكن الله ـ عز وجل ـ هيأ لهذه الأمة هذا الصحابي المؤمن رضي الله عنه، قال ابن عساكر هذا النص الذي يوضح الكيد المستمر من السبئية في منع الصلح، واجتماع المسلمين، واستغلال الإشاعة، والكذب؛ قال: «وعندما قُتِلَ أبوه، بايعه أربعون ألفًا، وبايعه أهل الكوفة، وأطاعوه، وأحبوه أشد من حبهم لأبيه، وعندما بايعوه طالبوه بالمسيرة إلى أهل الشام، وأقبل معاوية في أهل الشام، وبينما الحسن بالمدائن، إذ نادى مناد في عسكره: ألا إن قيس بن سعد قد قُتِلَ! وكان من قُوَّاد الحسن، قال: فشد الناس على حُجْرة الحسن، فانتهبوها، حتى انْتُهِبَ بساطه، وجواريه، وأخذوا رداءه من ظهره، وطعنه رجل من بني أسد، يقال له ابن أقيصر، بخنجر مسموم في إليته، فتحول من مكانه الذي انتهب فيه متاعه، إلى منزل الأبيض قصر كسرى، فقال: عليكم لعنة الله من أهل قرية؛ فقد علمت أنه لا خير فيكم؛ قتلتم أبي بالأمس، واليوم تفعلون بي هذا، ثم دعا عمرو بن سلمة الأرحبي، فأرسله، وكتب معه إلى معاوية بن أبي سفيان، يسأله الصلح، ويسلم له الأمر»(١).

وقال رضي الله عنه واصفًا حال أتباعه: «إنا، والله، ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فَشِيبَت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مبتدئكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وإنا لكم كما كنا، ولستم لنا كما كنتم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، فأما الباقي فمتخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددنا عليه، وحاكمناه إلى الله ـ عز وجل ـ بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه، وأخذنا لكم الرضا»(٢).

---

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٧، ص ٣٤، وانظر ابن حجر، الإصابة، ج١، ص ٣٣٠.

(٢) ابن عساكر، ج٧، ص ٣١٦، وانظر ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٢، ص ١٤.

ومما يجب العلم به، واعتقاده تمام الاعتقاد، أن الحسن رضي الله عنه يخاطب في خطبته هذه عموم أهل الكوفة، ومن في عسكره، ويجب أن لا يُعْتَقَدَ أنهم الشيعة السبئية، بل هم جمهور الناس، وهو يوضح خذلانهم له، كما خذلوا والده، أما السبئية المنحرفون، فهم أولئك الذين يعيشون في سراديب الظلام، بين الغوغاء، والأعاجم، وهم الذين يسيرون في صفوف جيش الحسن لإثارة الفتن، وترويج الإشاعات؛ كما روجوا إشاعة مقتل قيس، وعملوا بعد ذلك ما عملوا بالحسن رضي الله عنه، ثم جَمَعَهُمْ ـ عليه رضوان الله ـ في قصر المدائن، فقال لهم: «يأهل العراق، لو لم تذهل نفسي عنكم إلا لثلاث لذَهِلَتْ: قتلكم أبي، ومطعنكم بطني، واستلابكم ثقلي، أو ردائي، عن عاتقي، وإنكم قد بايعتموني أن تسالموا من سالمت، وتحاربوا من حاربت، وإني بايعت معاوية، فاسمعوا له، وأطيعوا، ثم قام فدخل القصر، وأغلق الباب دونهم»(١).

ولما وقف يعلن تنازله لمعاوية، قال هذه الكلمات التي تكتب بماء الذهب، مُجْهِزًا بذلك على فكرة السبئية بالوصية، وغيرها من الإشاعات الباطلة، قال: «أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى، وأن أعجز العجز الفجور، ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حق أمرئ كان أحق به مني، أو حق لي تركته لمعاوية؛ إرادة إصلاح المسلمين، وحقن دمائهم: ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ ﴾، [الأنبياء: ١١١]، ثم استغفر، ونزل»(٢)، وقال في رواية أخرى: «أيها الناس، فإن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، إن لهذا الأمر مدة، والدنيا دُوَلٌ»(٣).

وكان مثالًا في الفَهْمِ، والخلق، والصبر على أقوال من يجهله، ويجهل المهمة التي ادَّخره الله لها؛ فقد جاء إليه «مالك بن ضمرة، وقال له: السلام عليك، يا مُسَخِّمَ وجوه المؤمنين، فقال: يا مالك، لا تقل ذلك، إني لما رأيت الناس تركوا ذلك إلا أهله، خشيت أن يُجْتَثُّوا عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين في الأرض ناع، فقال:

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ٧٥٣، وابن عساكر، المختصر، ج٧، ص ٣٦.

(٢) ، (٣) ابن عساكر، ج٧، ص ٣٦ ـ ٧٣، وابن أثير، أسد الغابة، ج٢، ص ١٥.

بأبي أنت وأمي! ذرية بعضها من بعض»[١]، وروى البسوي أنه لما قدم الحسن بن علي الكوفة، قام له رجل منّا يُقَال له أبو عامر سفيان بن ليلى، فقال: السلام عليك، يا مُذِلَّ المؤمنين، قال: فقال: لا تقل ذاك، يا أبا عامر، لست بمذل المؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك»[٢].

وروى زيد بن أسلم قال: «دخل رجل على الحسن المدينة، وفي يده صحيفة، فقال: ما هذه؟ قال: من معاوية، يَعِدُ فيها ويتوعد، قال: قد كنت على النصف منه، قال: أجل، ولكني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفا، أو ثمانون، أو أكثر، أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدي الله: فيم أهريق دمه؟»[٣].

وقال ابن عبدالبر: «روينا من وجوه أن الحسن بن علي لما حضرته الوفاة قال للحسين أخيه: يا أخي، إن أباك ـ رحمه الله ـ لما قُبِضَ رسول الله ﷺ استشرف لهذا الأمر، ورجا أن يكون صاحبه، فصرفه الله عنه، ووليها أبو بكر، فلما حضرت أبا بكر الوفاة، تشوف لها ـ أيضًا ـ، فصرفت عنه إلى عمر، فلما احْتُضِرَ عمر، جعلها شورى بين ستة، هو أحدهم، فلم يَشُكَّ أنها لا تعدوه، فصُرِفَتْ عنه إلى عثمان، فلما هلك عثمان بُويِعَ، ثم نُوزِعَ، حتى جرد السيف، وطلبها، فما صفا له شيء منها، [وإني، والله، ما أرى أن يجمع الله فينا ـ أهل البيت ـ النبوة، والخلافة]، فلا أعْرِفَنَّ ما استخفك (سفهاء) أهل الكوفة، فأخرجوك، إني وقد كنت طلبت إلى عائشة إذا مت أن تأذن لي؛ فأدفن في بيتها مع رسول الله ﷺ، فقالت: نعم، وإني لا أدري، لعلها كان ذلك منها حياءً، فإذا أنا مت فاطلب ذلك إليها، فإن طابت نفسها، فادفني في بيتها، وما أظن القوم إلا سيمنعونك إذا أردت ذلك، فإن فعلوا، فلا تراجعهم في ذلك، وادفني في بقيع الغرقد؛ فإن فيمن فيه أسوة»[٤].

---

(١) المصدر السابق، ج٧، ص ٣٨.

(٢) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٣، ص ٤١٠.

(٣) ابن عساكر، ج٧، ص ٣٨، وابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ٤٤.

(٤) ابن عبدالبر، الاستيعاب في أسماء الأصحاب بهامش الإصابة، ج١، ص ٣٧٧، =

لقد توفي الحسن رضي الله عنه سنة خمسين من الهجرة، وقد توارت الشيعة المبتدعة، في هذه المرحلة، منذ تسليمه الأمر لمعاوية، حتى توفي معاوية رضي الله عنه، فقامت القوى الخفية من السبئية تنفخ من جديد لإحداث فتنة بين المسلمين؛ وذلك بإرسال الكتب على ألسنة وجوه قبائل الكوفة، حتى أقنعوا الحسين رضي الله عنه بالخروج؛ ليُقْتَلَ هناك، بعد أن خذلوه، وانفضوا من حوله كعادتهم، ولكن قبل عرضنا لخروج الحسين رضي الله عنه، لا بد من الإشارة إلى مقتل أحد الصحابة الكرام، المخلصين لعلي رضي الله عنه؛ وهو حجر بن عدي رضي الله عنه، فقد كان رجلًا شديدًا قويًّا في دين الله، وكان آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، يصحح للولاة أخطاءهم، ويطالبهم بصرف عطايا الناس في مواقيتها؛ فقد روى ابن عساكر قال: «وقد استعمل معاوية على العراقين زياد بن أمية، فلما قدم الكوفة دعا حجر بن الأدبر، فقال: يا أبا عبدالرحمن، كيف تعلم حبي لعلي؟ قال: شديدًا، قال: فإن ذلك قد انسلخ أجمع، فصار بغضًا؛ فلا تكلمني بشيء أكرهه، فإني أُحَذِّرُكَ، فكان إذا جاء إبان العطاء، قال حجر لزياد: أخرج العطاء، فقد جاء إبانه، فكان يخرجه، وكان لا ينكر من زياد شيئًا إلا رآه عليه، فخرج زياد إلى البصرة، واستعمل على الكوفة عمرو بن حريث، فصنع عمرو شيئًا كرهه حجر، فناداه وهو على المنبر، فرد عليه ما صنعه، وحصبه هو وأصحابه»[1].

وروى ابن سعد: أن الشيعة كانوا يختلفون إليه، ويقولون: «إنك شيخنا، وأحق الناس بإنكار هذا الأمر، وكان إذا جاء إلى المسجد مشوا معه، ثم إن ابن زياد قبض عليه، وبعث به إلى معاوية رضي الله عنه ».

وقبل أن يُقْتَلَ وقف يدعو، ويقول: «اللهم، إنا نستعديك على أمتنا؛ فإن أهل العراق شهدوا علينا، وإن أهل الشام قتلونا»[2].

= وابن عساكر، ج٧، ص ٤١، وابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص ١٥، الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص ٤٠.

(١) ابن عساكر، ج٦، ص ٢٣٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، بتصرف، وانظر الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

لقد كان حجر بن عدي أحد ضحايا الوشاية الشيعية، التي تؤجج نار الخلاف، ثم تترك من قدمته لقيادتها للقتل، ولعل هذه الخطة الماكرة اتبعتها السبئية للقضاء على أهل العلم والفضل، من أنصار الإمام علي ﷺ؛ ليُخَلُّوا الجو لأولئك الغلاة المتسترين، الذين ينتظرون الفرصة لإعلان عقائدهم الهدَّامة، وهذا ما بدا واضحًا من خلال بروز شخصيات الابتداع؛ مثل: المختار، والمغيرة، وبيان، ومنصور، وأبي الخطاب، الذين هم من نتاج السبئية، وصنائعها.

ومما يؤكد عِظَمَ هذه الوشاية ما قاله معاوية لعائشة ـ رضي الله عنها ـ، عندما قَدِمَ عليها، فاستاذن، فأبت أن تأذن له، فلم يزل حتى أذنت له، فلما دخل عليها قالت: «أنت الذي قتلت حجرًا؟ قال: لم يكن عندي أحد ينهاني، وقيل إنها قالت له: ما حملك على قتل أهل عذراء؛ حجرًا، وأصحابه، فقال: يا أم المؤمنين، إني رأيت قتلهم صلاحًا للأمة، وأن بقاءهم فساد للأمة، وقال: أقتل حجرًا أحب إلي من أن أقتل معه مئة ألف»[١].

وعاتبه مالك بن هبيرة، فقال: «يا أمير المؤمنين، أسأت في قتلك هؤلاء النفر، ولم يكونوا أحدثوا ما استوجبوا به القتل، فقال معاوية: قد كنت هممت بالعفو عنهم، إلا أن كتاب زياد ورد يُعْلِمُني أنهم رؤساء الفتنة، وأني متى قتلتهم اجتثت الفتنة من أصلها»[٢].

ولقد كان هذا الفعل من أعظم الأخطاء التي وقع فيها معاوية ﷺ، وقد خطَّأه جملة من الصحابة، أولهم السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ؛ فقد «بعثت برسالة مع عبدالرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية، فلما وصل وجدهم قد قُتِلُوا، فقال: يا أمير المؤمنين، أين غرب عنك حِلم أبي سفيان؟ فقال: غَيْبَةُ مثلك عني من قومي»[٣]،

---

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٣، ص ٤١٦، ابن عساكر، المختصر، ج٦، ص ٢٤١ بتصرف.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٢٤٣.

وفي رواية أن عائشة كتبت في رسالتها: «اللهَ اللهَ في حجر وأصحابه!»، فوجده عبدالرحمن قد قُتِلَ، فقال لمعاوية: «أين غرب عنك حِلم أبي سفيان في حجر وأصحابه، ألا حبستهم في السجون، وعرضتهم للطاعون. قال: حين غاب عني مثلك من قومي. وعندما قدم معاوية إلى عائشة قال لها: دعيني وحجرًا حتى نلتقي عند ربنا»[1].

وروى سعيد بن المسيب عن مروان بن الحكم قال: دخلت مع معاوية على أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فقالت: يا معاوية، قتلت حجرًا وأصحابه، وفعلت الذي فعلت، أما خشيتَ أن أخبِّئَ لك رجلًا، فيقتلك؟ قال: لا، إني في بيت أمان، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْإِيمَانُ قَيْدُ الْقَتْلِ»، لا يقتلك مؤمن يا أم المؤمنين، كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك؟ قالت: صالح، قال: فدعيني وحجرًا حتى نلتقي عند ربنا ـ عز وجل»[2].

وكان ابن عمر يخبر عنه، فأُخْبِرَ بقتله وهو بالسوق، فأطلق حبوته، وولى وهو يبكي[3]، وكان معاوية رضي الله عنه نادمًا أشد الندم على قتل حجر؛ فقد روى سفيان الثوري قال: قال معاوية: «ما قتلت أحدًا، إلا وأنا أعلم فيمَ قتلته، وما أردت به، إلا حجر بن عدي؛ فإني لا أعرف فيمَ قتلته، ودخل عليه عبدالله بن يزيد بن أسد، وهو في مرضه الذي مات فيه، فرأى منه جزعًا، فقال: ما يجزعك، يا أمير المؤمنين؟ إن مت فالجنة، وإن عشت فقد علم الله حاجة الناس إليك، فقال: رحم الله أباك، إنْ كان لنا لناصحًا؛ نهاني عن قتل ابن الأدبر؛ يعني حجرًا، ثم عاده عبدالله بن يزيد، فعاد معاوية مثل ذلك القول»[4].

إن هذا الحدث الذي تمثل بقتل حجر بن عدي، وسبعة معه، من وجوه أهل العراق،

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج١، ص ٤٦٢.

(٢) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٣، ص ٤١٧.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ج١، ص ٣١٥.

(٤) ابن عساكر، المختصر، ج٦، ص ٢٤٢.

كان أحد المراحل التي مرت بها حركة التشيع المبتدع، التي استغلته لترويج أفكارها، وتأجيج نار الفتنة من جديد؛ وذلك لما أحدثه هذا الأمر من تحرك الشيعة، وتطلعهم إلى الاتصال بالحسين رضي الله عنه، وإيهامه أنهم يريدون توليته، ونصرته؛ حيث «خرج نفر من أشراف الكوفة إلى الحسين بن علي، فأخبروه الخبر، فاسترجع، وشق عليه، فأقام أولئك النفر يختلفون إلى الحسين بن علي، وعلى المدينة يومئذ مروان بن الحكم، فترقى الخبر إليه، فكتب إلى معاوية يُعْلِمُهُ أن رجالًا من أهل العراق قدموا إلى الحسين بن علي - رضي الله عنهما -، وهم مقيمون عنده، يختلفون إليه، فاكتب إلي بالذي ترى، فكتب إليه معاوية: لا تعرض للحسين بشيء، فقد بايعنا، وليس بناقض بيعتنا، ولا مخفر ذمتنا»[1].

وكانت العلاقة بين معاوية والحسين علاقة طيبة؛ حيث كان يفد مع أخيه الحسن إلى الشام، وكان يأخذ عطاياه؛ حيث قدما عليه مرة، فاستقبلهما، وقال: «مرحبًا وأهلًا، وكان يعطيهما عطاءً جزيلًا، وقد أطلق لهما في يوم واحد مئتي ألف، وقال: خذاها، وأنا ابن هند، والله لا يعطيكماها أحد قبلي، ولا بعدي، فقال الحسين: والله، لن تعطي أنت، ولا أحد قبلك، ولا بعدك رجلًا أفضل منا، ولما توفي الحسن كان الحسين يفد على معاوية في كل عام، فيعطيه، ويكرمه، وقد كان في الجيش الذين غزوا القسطنطينية مع يزيد بن معاوية في سنة إحدى وخمسين»[2].

وعندما توفي معاوية رضي الله عنه، واستخلف ابنه يزيد، رفض الحسين، وعبدالله بن الزبير، إعطاء البيعة ليزيد، في هذه الأثناء برز الشيعة من جديد، وحرَّكوا وجوه أهل الكوفة للكتابة للحسين؛ ليَقْدَمَ إليهم، وليبايعوه، وكانت هذه الكتب ترد إلى الحسين بشكل عجيب؛ حيث يروي الدينوري فيقول: «فلما بلغ أهلَ الكوفة وفاةُ معاوية، وخروج الحسين إلى مكة، اجتمع جماعة من الشيعة في منزل سليمان بن صرد، واتفقوا على أن يكتبوا إلى الحسين، يسألونه القدوم عليهم؛ ليسلموا له الأمر، ويطردوا النعمان بن

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٥٣.

بشير، فكتبوا إليه بذلك، ثم وجهوا بالكتاب مع عبيدالله بن سبيع الهمذاني، وعبدالله السلمي، فوافوا الحسين بمكة، لعشر خلون من شهر رمضان، فأوصلوا الكتاب إليه، ثم لم يُمْسِ يومه ذاك حتى ورد عليه بشر بن مسهر الصيداوي، وعبدالرحمن الأرحبي، ومعهما خمسون كتابًا من أشراف أهل الكوفة، ورؤسائها، كل كتاب منها من الرجلين، والثلاثة، والأربعة بمثل ذلك، فلما أصبح وافاه هانئ بن هانئ السبيعي ، وسعيد الخثعمي، ومعهما ـ أيضًا ـ نحو من خمسين كتابًا، فلما أمسى ـ أيضًا ـ ذلك اليوم، وَرَدَ عليه سعيد الثقفي، ومعه كتاب واحد من شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، ويزيد بن الحارث، وكان هؤلاء الرؤساء من أهل الكوفة، وتتابعت عليه في أيام رسل الكوفة ما ملأ خرجين»[(١)].

وقد استجاب لهم الحسين، وبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ له البيعة، وعندما وصل مسلم بن عقيل إلى هناك بايعه ما يزيد على ثمانية عشر ألف، فكتب إلى الحسين أن اقدم؛ فقد تمهدت لك البيعة، وكان أمير الكوفة النعمان بن بشير، فسمع بخبر مسلم، فجعل يضرب عن ذلك صفحًا، ولا يعبأ به، وقام فخطب الناس، ونهاهم عن الاختلاف، والفتنة، وأمرهم بالائتلاف والسنة، وقال: «إني لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب علي، ولا آخذكم بالظنة»[(٢)].

وبلغ الخبر يزيد؛ فقام بعزل النعمان، وتولية عبيدالله بن زياد، الذي تمكن من القبض على مسلم بن عقيل، ثم قتله، بعد أن تنكر له الشيعة الذين بايعوه؛ حيث يروى الطبري، وابن كثير «أن جموع المبايعين الذين كانوا مع مسلم توجهوا معه إلى قصر الإمارة، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيدالله بن زياد، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف، وتهددوهم، وتوعدوهم، وأخرج عبيدالله بعض الأمراء، وأمرهم أن يركبوا في الكوفة، يُخَذِّلُونَ الناس عن مسلم بن عقيل، ففعلوا ذلك، فجعلت المرأة تجيء إلى ابنها، وأخيها، وتقول له: ارجع إلى البيت، الناس يكفونك، ويقول الرجل

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٩.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٢٧٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٥٤.

لابنه، وأخيه: كأنك غدًا بجنود الشام قد أقبلت، فماذا تصنع معهم؟ فتخاذل الناس، وانصرفوا عن مسلم بن عقيل، حتى لم يَبْقَ إلا في خمس مئة نفس، ثم تَقَالُّوا، حتى بقي في ثلاث مئة، ثم تقالُّوا، حتى بقي معه ثلاثون رجلًا، فصلى بهم المغرب، وقصد أبواب كندة، فخرج منها في عشرة، ثم انصرفوا عنه، فبقي وحده»[1].

أما الحسين رضي الله عنه، فقد وقف له الصحابة ينصحونه بعدم الذَّهاب، ويحذرونه من وعود الشيعة، التي لا تساوي شيئًا، وسوف نعرض لبعض هذه الأقوال التي تبين أن الحسين كان مسيره لرأي رآه أملًا في وعود أصحاب هذه الكتب المبعوثة إليه، ولم يَقُل بنص، ولا وصية، ولا أي شيء مما أَلَّفَهُ الشيعة على لسانه، فيما بعد.

وقد كان محمد بن الحنفية ـ رحمه الله ـ مَنْ أخبر الناس بهؤلاء الشيعة المتخاذلين، فكان في أمرهم «أنه قدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية، وطلبوا إليه أن يخرج معهم، فأبى، وجاء إلى الحسين، فأخبره بما عرضوا عليه، وقال: إن القوم إنما يريدون أن يأكلوا بنا، ويشيطوا (يهدرون) دماءَنا»[2].

بهذه البساطة يصور ابن الحنفية أهداف الشيعة، فهل معنى كلامه أن هؤلاء السبئية يريدون استغلالهم للوصول إلى حكم العراق، والعبث بعقيدة الأمة؛ بالتزييف،والأكاذيب، وهذا ما أُرَجِّحَهُ، والدليل على ذلك سيأتي عندما استولى المختار على العراق، وما أتى به من الانحرافات العَقَدِية، التي كانت تُبَرِّرُ سلوكه، وهزائمه.

وقد حاول الصحابة المعاصرون لهذا الحدث منع الحسين من المسير إلى العراق، ونصحوه بأن لا يذهب؛ ومنهم عبدالله بن عباس رضي الله عنه، الذي قال له: «يا بن عم، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبَيِّنْ لي ما أنت صانع؟

قال: إني قد أجمعت المسير في أحد يوميَّ هذين، إن شاء الله ـ تعالى ـ، فقال له ابن

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣٢، ص ٢٧٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٥٧.

(٢) ابن عساكر، المختصر، ج٧، ص ١٣٦، والذهبي، تاريخ الإسلام حوادث، ٦١ ـ ٨٠، ص ٥.

عباس: فإني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني ـ رحمك الله ـ: أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم، فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم، وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب، والقتال، ولا آمن عليك أن يَغُرُّوك، ويكذبوك، ويخالفوك، ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك، فيكونوا أشد الناس عليك، فقال له الحسين: وإني أستخير الله، وأنظر ما يكون»[1].

ويصف ابن عباس الشيعة، فيقول للحسين: «يا بن عم، إني أتصبر، ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غُدُرٌ؛ فلا تَغْتَرَّنَّ بهم»، إلى أن قال: «أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه بالحجاز، فوالله الذي لا إله إلا هو، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك، وناصيتك، حتى يجتمع علي وعليك الناس، أطعتني وأقمت، لفعلت ذلك»[2].

وقال رضي الله عنه: «أين تريد يا بن فاطمة؟ قال: العراق وشيعتي، فقال: إني لكاره لوجهك هذا، تخرج إلى قوم قتلوا أباك، وطعنوا أخاك حتى تركهم سخطة وملة لهم؟ أذكرك الله أن تغرر بنفسك»[3].

ويقال إن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه قد نصحه بعدم الخروج، وطلب منه البقاء في مكة، ولكن الحسين رضي الله عنه رد عليه، فقال: «إن أبي حدثني أن لها كبشًا به تُسْتَحَلُّ حرمتها به، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش»[4].

وروى الشعبي «أن ابن عمر رضي الله عنه كان بمكة، فبلغه أن الحسين بن علي قد توجه إلى

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٢٩٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٦١.
(٢) الطبري، ج٣، ص ٢٩٥، وابن عساكر، ج٧، ص ١٤٢.
(٣) ابن عساكر، المختصر، ج٧، ص ١٣٩.
(٤) الطبري، ابن الأثير، ج٣، ص ٢٩٥، الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٢٧٥، قال ذلك مخافة أن يقتل في مكة المكرمة.

العراق، فلحقه على مسيرة ثلاث ليالٍ، فقال: أين تريد؟ قال: العراق، وإذا معه طوامير (صحائف)، وكتب، فقال: هذه كتبهم، وبيعتهم، فقال: لا تأتهم، فأبى، فقال ابن عمر: إني محدثك حديثًا أن جبريل أتى النبي ﷺ، وسلم، فخيره بين الدنيا والآخرة، واختار الآخرة، ولم يرد الدنيا، وإنك بضعة من رسول الله، والله، ما يليها أحد منكم[١]، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، قال: فاعتنقه ابن عمر، وبكى، وقال: أستودعك الله من قتيل»[٢].

وقال سعيد بن مينا: سمعت عبدالله بن عمر يقول: عجَّل حسينٌ قدره، والله، لو أدركته ما تركته يخرج إلا أن يغلبني، ببني هاشم فتح هذا الأمر، وببني هاشم يختم، فاذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان، قال ابن كثير: وهذا، مع حديث ابن عمر، يدل على أن الفاطميين أدعياء كذبة، لم يكونوا من سلالة فاطمة»[٣].

وقال عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام للحسين رضي الله عنه: «إنه بلغني أنك تريد المسير إلى العراق، وإني مشفق عليك من مسيرك، إنك تأتي بلدًا فيه عماله، وامراؤه، ومعهم بيوت المال، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم، والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه»[٤].

وجاءه: أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، فقال: يا أبا عبدالله، إني لكم ناصح، وإني عليكم مشفق، وقد بلغني أنه كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة، ويدعونك إلى الخروج، فلا تخرج؛ فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم، وأبغضتهم، وملوني، وبغضوني، وما بلوت منهم وفاءً، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم ثبات، ولا عزم على أمر، ولا صبر على سيف»[٥].

---

(١) سبق وأن قال بمثل هذا الحسن بن علي - رضي الله عنهما.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٦٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٦٣، وابن عساكر، ج٧، ص ١٣٩.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٢٩٤.

(٥) ابن عساكر، المختصر، ج٧، ص ١٣٧.

ولقيه في الطريق الفرزدق الشاعر، فقال له الحسين: «بيِّنْ لنا نبأ الناس خلفك، فقال له الفرزدق: من الخبير سألت: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء»(١).

وقد حذره من الخروج جابر بن عبدالله، وأبو واقد الليثي، وعمرة بنت عبدالرحمن، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن مطيع(٢)، ولكن الحسين ﵁ آثر المسير، فلما وصل قرب القادسية، لقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال: ارجع؛ فإني لم أدع لك خلفي خيرًا، وأخبره الخبر؛ فهم أن يرجع، وكان معه إخوة مسلم، فقالوا: والله، لا نرجع حتى نصيب بثأرنا، أو نُقْتَلُ، فساروا، وكان عبيدالله قد جهز الجيش لملاقاته، فوافوه بكربلاء، فنزلها، ومعه خمسة وأربعون نفسًا من الفرسان، ونحو مئة راجل، فلقيه الحسين، وأميرهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان عبيدالله ولَّاه الري، وكتب له بعهده عليها إذا رجع من حرب الحسين، فلما التقيا قال له الحسين: اختر مني إحدى ثلاث: إما أن ألحق بثغر من الثغور، وإما أن أرجع إلى المدينة، وإما أن أضع يدي في يد يزيد، فقبل ذلك عمر منه، وكتب به إلى عبيدالله، فكتب إليه: لا أقبل منه حتى يضع يده في يدي، فامتنع الحسين؛ فقاتلوه، فقُتِلَ معه أصحابه، وفيهم سبعة عشر شابًّا من أهل بيته، ثم كان آخر ذلك أن قُتِلَ، وأتي برأسه إلى عبيدالله بن زياد، فأرسله، ومن بقي من أهل بيته، إلى يزيد، ومنهم علي بن الحسين، وكان مريضًا، ومنهم عمته زينب، فلما قدموا على يزيد، أدخلهم على عياله، ثم جهزهم إلى المدينة، قلت (أي ابن حجر): وقد صنف جماعة من القدماء في مقتل الحسين تصانيف، فيها الغث والسمين، والصحيح والسقيم، وفي هذه القصة التي سقتها غنيً، وقد صح عن إبراهيم النخعي أنه كان يقول: «لو كنت فيمن قاتل الحسين، ثم أدخلت الجنة، لاستحييت أن أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ، وقد كان استشهاده ﵁ يوم عاشوراء، سنة إحدى

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٢٩٦.

(٢) انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث، ٦١ - ٨٠، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٢٩٥ وما بعدها.

وستين»[١].

إن هذه النهاية المؤلمة التي انتهت إليها الأحداث، باستشهاد الحسين، ومن معه، إنما يتحمل وزرها أولئك الذين غرروا به، وكاتبوه حتى جاء إلى العراق، وهذه ليست المرة الأولى التي يغدر الشيعة بها بآل البيت؛ حيث يقول عبدالقاهر البغدادي: «روافض الكوفة موصوفون بالغدر، والبخل، وقد سار المثل بهم فيهما؛ حتى قيل: أبخل من كوفي، وأغدر من كوفي، والمشهور من غدرهم ثلاثة أشياء:

أحدها: أنهم بعد قتل علي رضي الله عنه بايعوا ابنه الحسن، فلما توجه لقتال معاوية غدروا به في «ساباط المدائن»، فطعنه سنان الجعفي في جنبه، فصرعه عن فرسه، وكان ذلك أحد أسباب مصالحته معاوية.

والثاني: أنهم كاتبوا الحسين بن علي رضي الله عنه، ودعوه إلى الكوفة؛ لينصروه على يزيد بن معاوية، فاغتر بهم، وخرج إليهم، فلما بلغ كربلاء، غدروا به، وصاروا مع عبيدالله بن زياد يدًا واحدة عليه، حتى قُتِلَ الحسين، وأكثر عشيرته بكربلاء.

والثالث: غدرهم بزيد بن علي بن الحسين، بعد أن خرجوا معه على يوسف بن عمر، ثم نكثوا بيعته، وأسلموه عند اشتداد القتال، حتى قُتِلَ، وكان من أمره ما كان»[٢].

إن هذه النهاية الأليمة لِعَلَمٍ من أعلام الإسلام؛ كما وصفه عبدالله بن جعفر، وقال فيه: «أما بعد، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم طُفِئَ نور الإسلام، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجل في السير»[٣]، وبعد أن قتل هذا العلم الشامخ، تعمقت الخلافات

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ٣٣٤، وانظر رواية ابن كثير الموسعة والتي عنون لها فقال:(هذه صفة مقتله من كلام أئمة هذا الشأن لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب) البداية والنهاية، ج٨، ص ١٧٤.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٣٧، وانظر ابن كثير، ج٨، ص ٢٠٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ١٦٩.

في الأمة، وبرز قرن التشيع الغالي السبئي يرتب الأمور لظهور الغلاة، متخذين مقتل الحسين الذي كانوا هم أحد أسبابه؛ بخذلانه، وعدم الوفاء بما وعدوه، فاتخذوا من هذه الحادثة محطة جديدة استغلوها لتأجيج نار الصراع بين الأمة، ثم التباكي على مقتل الحسين، ويقيني الذي أعتقده أن هذا الحزب المزعوم، الذي كان وبالًا على آل البيت، قد انتهى دوره، وبرزت أهدافه المقيتة، ولكنه تخفى بآل البيت؛ عن طريق المبتدعة، فيما بعد، لإحداث الفُرْقة العَقَدِية بين الأمة، وأما المناصرون الصادقون لآل البيت، فسيظهرون بحركة التوّابين، ويُقْتَلُ معظمهم، ويخلو الجو لأرباب الفتنة، الذين أنشئوا الكيسانية، والمغيرية، والبيانية، وغيرها من فرق الضلال، التي انتسبت في آل البيت.

وسوف ننهي حديثنا عن هذه المرحلة بعرض لحركة التوّابين ـ رحمهم الله ـ، والذين نعتبرهم إحدى الحركات المخلصة الصادقة في عقائدها، وإنما قامت لتصحيح الخطإ الكبير؛ من خذلانها للحسين رضي الله عنه، وهذه الحركة لم يُؤْثَرْ عنها أي عقائد مبتدعة؛ فقائدها «سليمان بن صرد رضي الله عنه، أحد الصحابة المعمرين؛ حيث كان عمره عند موته ثلاثًا وتسعين سنة، وكان ممن كاتب الحسين، ثم تخلف عنه، ثم قام بحركته المشهورة للثأر من قتلة الحسين»[1].

وروى البلاذري عن بداية حركة التوابين؛ فقال: «لما قُتِلَ الحسين بن علي، تلاقت الشيعة بالتلاوم، ففزعوا إلى خمسة نفر من رؤس الشيعة؛ وهم: سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة، والمسيب به نجية الفزاري، وكان من خيار أصحاب علي، وعبدالله بن سعد الأزدي، وعبدالله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي، فقام المسيب بن نجية، فقال: فإنا قد ابتلينا بطول العمر، فنرغب إلى ربنا في أن يجعلنا ممن يقول له غدًا: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾، [فاطر: ٣٧]، وقد بلا الله أخبارنا كاذبين في أمر ابن ابنة نبينا، وقد بلغتنا كتبه، وقد أتتنا رسله، وسألنا نصره عودًا وبدأً، وعلانية وسرًّا، فبخلنا بأنفسنا، حتى قُتِلَ إلى جانبنا، فلا نحن نصرناه

---

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص ٧٦، وابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص ٤٤٩.

بأيدينا، ولا خذلنا عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة من عشائرنا، فما عُذِرْنَا عند ربنا»[١].

وقد اكتملت استعداداتهم في سنة خمس وستين للهجرة؛ «فاجتمع لسليمان بن صرد سبعة عشر ألفًا، وقيل: عشرون ألفًا، أو يزيدون، فلما عزم على المسير بهم، لم يصفَ معه منهم سوى أربعة آلاف، فقال المسيب بن نجية لسليمان: إنه لا ينفعك الكارة، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية، وباع نفسه لله، وأمضى لأمرك»[٢].

وعندما التقى الجيشان «دعا الشاميون أصحاب سليمان إلى الدخول في طاعة مروان بن الحكم، ودعا أصحاب سليمان الشامية إلى أن يسلموا إليهم عبيدالله بن زياد؛ فيقتلونه عن الحسن، وامتنع كل من الفريقين أن يجيب إلى ما دعا إليه الآخر؛ فاقتتلوا قتالًا شديدًا[٣]، وكانت نهاية المعركة قتل سليمان بن صرد، وعدد كبير من أتباعه في هذه المعركة»[٤].

وبعد هذه المعركة التي قاتل فيها أنصار آل البيت المخلصون، بدأت تبرز فرق الغلاة السبئية، الذين روجوا أكاذيبهم على العامة، واستباحوا ذلك، فما كان الحسين بن علي، ولا سليمان بن صرد، ولا أتباعهما من أهل العلم والفضل، ليكذبوا على الناس، كما استباح مَن جاء بعدهم الكذب، وزعم أنه من شيعة آل البيت، وادَّعى المخاريق الباطلة، وهذا ما سنعالجه في المبحث التالي، والخلاصة التي نعتقدها أن هذه المرحلة التي مرت، قد خرج أنصار آل البيت المخلصون من مسمى الشيعة، وبقي هذا الاسم في طوائف أهل البدعة والضلالة، الذين أسسوا مذهبهم على مناوئة الأمة، ابتداءً من

---

(١) أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، مكتبة المثنى، بغداد، الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٣٩٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ٢٥٥.

(٣) ابن كثير، ج٨، ص ٢٥٧.

(٤) خليفة خياط، التاريخ، ص ٢٦٢، وابن كثير، ج٨، ص ٢٥٨، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٥٤٠، حيث قال:(وقتل ابن صرد وعامة التوابين).

الصحابة الكرام، وانتهاءً بجمهور أهل السنة؛ وذلك عن طريق طرح العقائد، والاجتهادات المخالفة للمنهج الحق.

وفي هذا يقول شاه عبد العزيز الدهلوي، بعد ذكره للسبئية وظهورها، قال: «ولما ظهرت، ما ارتضى الشيعة المخلصون بلقب (الشيعة)؛ فتركوه؛ تحرزًا عن الالتباس، وكراهة للاشتراك الاسمي مع أولئك الأرجاس، ولقَّبوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة، فما وقع في بعض الكتب؛ كـ«تاريخ الواقدي»، و«الاستيعاب»، من أن فلانًا كان من الشيعة ـ مثلًا ـ، لا ينافي ما وقع في غيرها من أنه من رؤساء أهل السنة؛ حيث المراد بالشيعة هناك الشيعة الأولى، وكان أهل السنة منهم، وكيف لا، وهم يرون فرضية حب أهل البيت، وعلي ـ كرم الله وجهه ـ عمادهم؟»[1].

٣ـ غُلَاةُ الشِّيعَةِ حَتَّى نِهَايَةِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ:

الْكَيْسَانِيَّةُ أَوِ الْمُخْتَارِيَّةُ:

تنسب هذه الفرقة إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقيل إنها تنسب إلى كيسان، وفي هذا يقول الدكتور فتحي محمد الزغبي: «ومرد هذا الخلط، وذلك التخبط في توزيعها، راجع إلى علة تسمية الكيسانية، والاختلاف في الشخص الذي نُسِبَتْ إليه، وكذلك إلى كثرة الفروع التي انبعثت عنها»[2]، ويُرَجِّحُ الدكتور الزغبي أن كيسان هو صاحب شرطة المختار؛ لأن صاحب شرطته المكنى بأبي عمرة كان اسمه كيسان، وكان له تأثير كبير على المختار[3].

ومسند هذا الترجيح ما قاله أبو الحسن الأشعري: «إن المختار نفسه كان يُقال له كيسان، ثم يقول: إنه مولى لعلي أبي طالب»[4]، وقال النوبختي والقمي: «إن المختار

(١) الألوسي، مختصر التحفة الاثنا عشرية، ص ٧.

(٢) د. الزغبي، غلاة الشيعة، ص ٩١.

(٣) الزغبي، غلاة الشيعة، ص ٩٣، بتصرف.

(٤) مقالات الإسلاميين، ص ١٨.

قد أثر به كيسان صاحب شرطته، وأمره بالانتقام من قتلة الحسين، وكان صاحب سره، ومؤامرته، والغالب على أمره»[١]، ويُعَرِّفُ به ابن عبدالبر، فيقول: «كان أبوه من جلة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وُلِدَ عام الهجرة، وليست له صحبة، ولا رواية، وأخباره غير مرضية، حكاها عنه ثقات؛ مثل سويد بن غفلة، والشعبي، وغيرهما، وكان قد طلب الإمارة إلى أن قتله مصعب بن الزبير بالكوفة، سنة سبع وستين، وكان قبل ذلك معدودًا في أهل الفضل، والخير، يرائي بذلك كله، ويكتم الفسق، فظهر منه ما كان يُضْمر، والله أعلم، إلى أن فارق ابن الزبير، وطلب الإمارة، وكان المختار (يتزين) بطلب دم الحسين، ويُسِر طلب الدنيا والإمارة، فيأتي منه الكذب، والجنون، وكانت إمارته ستة عشر شهرًا، وروي عن مغيرة بن ثابت بن هرمز قال: حمل المختار مالًا من المدائن، من عند عمه، إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخرج كيسًا فيه خمسة عشر درهمًا، فقال هذا من أجور المومسات، فقال علي: ويلك! ما لي وللمومسات، ثم قام وعليه مقطعة له حمراء، فلما سلم قال علي: ما له ـ قاتله الله! ـ؟ لو شُقَّ عن قلبه الآن، لوُجِدَ ملآن من حب اللات والعزى، يقال: إنه كان أول أمره خارجيًا، ثم صار زبيريًا، ثم صار رافضيًا، فالله أعلم، وكان يضمر بغض علي بن أبي طالب، ويَظْهَرُ منه لضعف عقله أشياء»[٢].

وذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» وقال:

«وأخباره غير حسنة، رواها عنه الشعبي وغيره، إلا أنه كان بينهما ما يوجب أن لا يسمع كلام أحدهما في الآخر»[٣]، ولكن ابن حجر يرد على هذا الزعم فيقول: «إن ابن الأثير أدرج هذا القدر في كلام ابن عبدالبر، وليس هو فيه، ولا هو بصحيح؛ فإن الشعبي لم ينفرد بما حكاه عن المختار، والشعبي مجمع على ثقته، والمختار بالعكس؛ قد

---

(١) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٠ ـ ٢١، والقمي، الفرق والمقالات، ص ٢١ ـ ٢٢ بتصرف.

(٢) ابن عبدالبر، الاستيعاب بهامش الإصابة، ج٣، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٦,

(٣) ابن الاثير ـ أشد الغابة، ج٥، ص١٢٣.

شَهِدَ عليه بدعوى النبوة، والكذب الصريح، جماعة من أهل البيت(١)، وقال ابن حزم: «وأما المختار، فكان متهمًا في دينه، مظنونًا به الكفر»(٢).

ومما يدلك على صحة هذه المطاعن المنسوبة للمختار، ما رواه الإمام مسلم، والإمام أحمد، وابن ماجة، وغيرهما؛ فقد روى مسلم أن أسماء بنت أبي بكر قالت للحجاج: «أما إن رسول الله ﷺ حدثنا: «إِنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا»، فأما الكذاب، فرأيناه، وأما المبير، فلا إخالك إلا إياه، قال: فقام عنها ولم يراجعها»(٣).

ويصف المختار نفسه، ومطامعه في الحكم والسلطة؛ فيقول: «إنما أنا رجل من العرب، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ورأيت مروان انتزى على الشام، فلم أكن بدونهم، فكنت كأحدهم»(٤).

وقد قدم نفسه للشيعة على أنه الذي سيأخذ بثأر الحسين، وكان يتزين بذلك؛ كما قال ابن عبدالبر، وكل ذلك لهدف في نفسه؛ هو الوصول لحكم العراق، ووافق هوى لدى الشيعة السبئية، أسهموا في إضلاله، وجعلوه يطرح معتقدات باطلة حول النبوة، والوَصِيِّ، والمهدي، وغير ذلك، ومما يلاحظ على هذه الفرقة توليها لمحمد بن الحنفية، مع أنه ليس من أبناء فاطمة ـ رضي الله عنها ـ؛ مما يدلل على أن السبئية كانوا يلصقون دعاواهم الباطلة بأي شخصية يرونها مناسبة لنشر معتقداتهم الباطلة حولها، وقد عاش ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ بعد المختار، أكثر من أربعة عشر عامًا، وعندما توفي ادعوا أنه حي، وأنه بجبل رضوى، عنده عسل وماء، مع العلم أنه ليس هناك أي إشارة حول

---

(١) الاصابة، ج٣، ص٥١٩.

(٢) ابن حزم ـ الفصل، ج٥، ص٢٩.

(٣) مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب ذكر كذاب ثقيف ح رقم٢٥٤٥/ المختصر ج١٢، ص٣٧٩، وانظر ابن ماجة ـ السنن ـ كتاب الديات ـ باب من أمن رجلًا ح رقم٢٦٨٩/ ج٢، ص٨٩٦، والبنا ـ الفتح الرباني ـ ترتيب المسند، ج٢٣، ص١٨٨. الماوردي ـ أعلام النبوة، ص١٥٦، ط١، سنة١٤٠٨، دار احياء العلوم ـ بيروت.

(٤) الذهبي ـ تاريخ الاسلام ـ حوادث ٦١ـ٨٠، ص٥٩.

لقيا هؤلاء المنحرفين لمحمد بن الحنفية، وإنما روجوا هذه الإكاذيب إرضاءً لهؤلاء الغوغاء الذين سيطرت عليهم السبئية.

الْعَقَائِدُ الْمُنْحَرِفَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ وَأَتْبَاعُهُ:

إن الحقيقة التي يجب اعتقادها هي أن هذه التُّرّهات التي جاء بها المختار إنما هي امتداد للعقائد السبئية الباطلة، والتي حاول المختار أن يظهرها بصورة عملية من خلال الأحداث التي عاشها هو وأتباعه؛ يقول البغدادي: «ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة؛ فقالوا له: أنت حجة هذا الزمان، وحملوه على دعوى النبوة، فادعاها عند خواصه، وزعم أن الوحي ينزل عليه، وسجع بعد ذلك»(١).

ومن العقائد التي جاء المختار؛ ليبرر تطلعه إلى الحكم والسلطة، زعمه أنه يمهد الطريق للمهدي، والذي هو (بزعمه) محمد بن الحنفية؛ حيث قال للشيعة حين اجتمعوا إليه: «أما بعد، فإن المهدي ابن الوصي(٢)، محمد بن علي، بعثني إليكم أمينًا ووزيرًا، ومنتجبًا وأميرًا، وأمرني بقتال المحلين، والطلب بدماء أهل بيته الطيبين»(٣).

ولكن المختار كان يكذب على أتباعه في دعوى المهدية المزعومة، ولكن غوغاء السبئية سرعان ما يصدقون كل ما يُقال لهم، ومما يدلل على كذب المختار أنه اشترط لصحة كون ابن الحنفية هو المهدي أن يضربه بالسيف، فلما علم عزم محمد بن الحنفية على المجيء للعراق، خاف من قدومه افتضاح أمره، وذهاب رياسته وولايته، فقال لجنده: «إنا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة، وهو أن يُضْرب بالسيف ضربة، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية، فأقام بمكة خوفًا من أن يقتله المختار»(٤).

---

(١) الفرق بين الفرق، ص٤٧ ـ ٤٨.

(٢) لاحظ عبارات السبئية (الوصى) التي نقلها المختار حيث هذه العبارات هي صلب معتقدات ابن سبإ حتي يطرب لها الشيعة المبتدعة.

(٣) البلاذري ـ أنساب الاشراف، ج٥، ص٢١٨.

(٤) البغدادي ـ الفرق بين الفرق، ص٤٧، وانظر الرازي ـ اعتقادات فرق، ص٧٨.

وبهذا يتضح أن هذه الدعوى الباطلة كان مقصودًا منها تجمع الشيعة السبئية حوله؛ لتحقيق مآربه، وأن دعوى المهدية المزعومة، في قرارة نفسه، لا وجود لها؛ إذ لا بد من امتحان هذا المهدي بضربه بالسيف؛ وهو ما فهمه ابن الحنفية أن المختار يكذب في انتسابه لآل البيت؛ فلذلك آثر عدم الاتصال به أو بأتباعه، وإنما هم الذين نسجوا حوله العقائد الفاسدة، بالرغم من امتداد عمره إلى سنة ٨١هـ، ولم يُؤْثر عن هؤلاء المنحرفين أن اتصلوا، به أو قابلوه، ولكنه منهج السبئية بالعمل بعيدًا عن هؤلاء الأعلام الأطهار، وإلصاق الأكاذيب بهم، وهم برآء من ذلك.

وقد تبرأ منه ابن الحنفية، «حين وصل إليه أنه قد لبَّس على الناس أنه من دعاته ورجاله، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها المختار؛ من التأويلات الفاسدة، والمخاريق المموهة»[١].

ادِّعَاؤُهُ النُّبُوَّةَ وَنُزُولُ الْوَحْيِ عَلَيْهِ:

قال البغدادي: «ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة؛ فقالوا له: أنت حجة هذا الزمان، وحملوه على دعوى النبوة؛ فادعاها عند خواصه، وزعم أن الوحي ينزل عليه، وسجع بعد ذلك فقال: «أما وممشي السحاب، الشديد العقاب، السريع الحساب، العزيز الوهاب، القدير الغلاب، لأنْبِشَنَّ قبر ابن شهاب، المفتري الكذاب، المجرم المرتاب... إلخ»[٢].

ومن أسجاعه ـ أيضًا ـ أنه قال: «والله، لأعلون مِنبرًا بعد مِنبر، ولأفلن عسكرًا بعد عسكر، ولأخيفن أهل الحرمين، ولأذعرن المشرقين والمغربين، وإن خبري لفي زبر الأولين»[٣].

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن رفاعة القتباني، قال: «دخلت على المختار،

(١) الشهرستاني ـ الملل والنحل، ص١٤٩.

(٢) الفرق بين الفرق، ص٤٧.

(٣) البلاذري ـ أنساب الاشراف، ج٥، ح رقم٢١٤.

فألقى لي وسادة، وقال: لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لألقيتها لك، قال: فأردت أن أضرب عنقه، فذكرت حديثًا حدثنيه أخي عمرو بن الحمق ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَمَّنَ مُؤْمِنًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ»[1]، وفي رواية قال: لولا كلمة سمعتها من عمرو بن الحمق الخزاعي لمشيت فيما بين رأس المختار وجسده»[2].

وفي رواية للإمام أحمد: «إن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان عنده رجل من أهل الكوفة، فجعل يحدثه عن المختار، فقال ابن عمر: إن كان كما تقول فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ ثَلَاثِينَ دَجَّالًا كَذَّابًا»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام (أي الذين يزعمون نزول الوحي عليهم) المختار بن أبي عبيد، الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أنه قال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»، وكان الكذاب المختار بن أبي عبيد، والمبير الحجاج بن يوسف، فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه يُنْزَلُ إليه، فقالا: صدق؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾، [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢]، وقال الآخر: وقيل إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾، [الأنعام: ١٢١][4].

قَوْلُهُ بِتَجْوِيزِ الْبَدَاءِ عَلَى اللَّهِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ: قال الشهرستاني: «والبداء له معانٍ: البداء في العلم؛ وهو أن يظهر له خلاف ما علم، ولا أظن عاقلًا يعتقد هذا الاعتقاد، والبداء في الإرادة؛ وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم، والبداء في

---

(١) البنا، الفتح الرباني، ج٢٣، ص ١٨٩، ح رقم ٤٠٣.

(٢) ابن ماجة ـ السنن ـ كتاب الديات ـ باب من أمن رجلًا ح رقم٢٦٨٨، ج٢، ص٨٩٦، والحديث إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) البنا ـ الفتح الرباني، ج٢٣، ص١٩٠، ح رقم٤٠٥.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص٤٧، دار الباز ـ مكة المكرمة.

الأمر؛ وهو أن يأمر بشيء، ثم يأمر بشيء آخر بعده، بخلاف ذلك، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء؛ لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال إما بوحي يُوَحى إليه، وإما برسالة من قبل الإمام، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء، وحدوث حادثة، فإن وافق كونه قوله، جعله دليلًا على صدق دعواه، وإن لم يوافق قال: قد بدا لربكم»[(١)].

ويقول البغدادي: «وكان السبب في قول المختار بالبداء أنه أنفذ صاحب جيشه أحمد بن شميط (ت ٦٧هـ) مع جيش كثيف إلى قتال مصعب بن الزبير، وأخبرهم بأن الله قد وعده بأن الظفر يكون لهم، فرجعوا إليه منهزمين، وسألوه عن وعده إياهم بالظفر، فقال: إن الله بدا له، أما سمعتم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، [الرعد ٣٩][(٢)].

وقد كان الغوغاء من السبئية يعتقدون أنه يعلم الغيب بعد إشاعة ذلك بينهم، فقد روي أن الشعبي كان جالسًا في مجلس المختار، وأخذ يخبرهم بأن جيشه قد قتل عبيدالله بن زياد، فقال أحد الجالسين للشعبي: أتؤمن الآن يا شعبي؟ قال: قلت بأي شيء أؤمن؟ أؤمن بأن المختار يعلم الغيب؟ فقال: لا أؤمن بذلك أبدًا، فقال الرجل: والله لا تؤمن يا شعبي حتى ترى العذاب الأليم»[(٣)].

وقيل: كان رجل يقول: «قد وُضِعَ لنا اليوم وحي ما سمع الناس بمثله، فيه نبأ ما يكون»[(٤)].

الزَّعْمُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ نَزَلَتْ لِتَأْيِيدِهِ: قال البغدادي: «ثم إن أهل الكوفة خرجوا على المختار لما تكهن، واجتمعت (السبئية) إليه، مع عبيد أهل الكوفة، لأنه وعدهم أن

(١) الشهرستاني: الملل والنحل. ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) البغدادي ـ الملل والنحل، ص٤٨، والإسفراييني ـ التبصير في الدين، ص٣٤، والفرق بين الفرق، ص٥٢.

(٣) الطبري ـ تاريخ الأمم، ج٣، ص٤٨٢.

(٤) الذهبي ـ سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٥٤٢.

يعطيهم أموال ساداتهم، وقاتل بهم الخارجين عليه، فظفر بهم، وقتل منهم الكثير، وأسر جماعة منهم، وكان من الأسراء رجل يُقال له: سراقة بن مرداس البارقي، فقدم إلى المختار، وخاف البارقي أن يأمر بقتله، فقال للذين أسروه، وقدموه إلى المختار: ما أنتم أسرتمونا، ولا أنتم هزمتمونا بعدتكم، وإنما هزمتنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البلق فوق عسكركم، فأعجب المختار قوله هذا، فأطلق عنه، فلحق بمصعب بن الزبير (ت ٧١هـ)، بالبصرة، وكتب منها إلى المختار بهذه الأبيات:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا إِسْحَاقَ أَنِّي ... رَأَيْتُ الْبُلْقَ وَهْمًا مُصْمَتَاتِ
أُرَى عَيْنَيَّ مَا لَمْ تَنْظُرَاهُ ... كِلَانَا عَالِمٌ بِالتُّرَّهَاتِ
كَفَرْتُ بِوَحْيِكُمْ وَجَعَلْتُ نَذْرًا ... عَلَيَّ قِتَالَكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ»[1]

اتِّخَاذُهُ الْكُرْسِيَّ، وَزَعْمُهُ أَنَّهُ كَتَابُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: فقد روى الإمام الطبري، عن طفيل بن جعدة، قال: أعدمت مرة من الورق (المال)، فإني لكذلك، إذ خرجت يومًا، فإذا زيات جار لي، له كرسي قد ركبه وسخ شديد، فخطر على بالي أن لو قلت للمختار في هذا، فرجعت فأرسلت إلى الزيات: أرسل إلي بالكرسي، فأرسل إلي به، فأتيت المختار، فقلت: إني كنت أكتمك شيئًا لم أستحل ذلك، فقد بدا لي أن أذكره لك، قال: وما هو؟ قلت: كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه، كأنه يرى أن فيه أثرة من علم، قال: سبحان الله! فأخرت هذا إلى اليوم، ابعث إليه، ابعث اليه، قال: وقد غسل، وخرج عود نضار، قد تشرب الزيت فخرج يبص، فجيء به وقد غشي، فأمر لي باثني عشر ألفًا»[2].

وفي رواية: أنه بعد ما جيء بالكرسي، «دعا بـ«الصلاةُ جامعة»، فاجتمعوا، فقال: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فيكم، وقد كان في بني إسرائيل التابوت، وإن فينا مثله، اكشفوا هذا، فكشفوا الأثواب، وقامت السبئية، فرفعوا أيديهم إلي،

(١) الفرق بين الفرق، ص٤٩. والإسفراييني - التبصير في الدين، ص٣٣.

(٢) الطبري - تاريخ الامم، ج٣، ص٤٧٦.

فأنكر شبث بن ربعي، فضُرِبَ، فلما انتصروا على عبيدالله بن زياد، افتتنوا بالكرسي، وتغالوا فيه، فقلت: إنا لله، وندمت، فلما زاد كلام الناس غُيِّبَ، وكان المختار يربطهم بالمحال، والكذب، ويتألفهم بقتل النواصب»(١).

وقد استخدموه في إحدى المعارك، «فمر بهم إبراهيم بن الأشتر، ومعه أصحابه، حتى انتهى إلى أصحاب الكرسي، وقد عكفوا حوله، وهم رافعوا أيديهم إلى السماء يستنصرون، فقال إبراهيم: اللهم، لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء، سنة بني إسرائيل، والذي نفسي بيده، إذ عكفوا على عجلهم، فلما جاز القنطرة إبراهيم وأصحابه، انصرف أصحاب الكرسي، وفي هذا يقول فيهم أعشى همذان الشاعر:

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنَّكُمْ سَبَئِيَّةٌ ... وَإِنِّي بِكُمْ يَا شُرْطَةَ الشِّرْكِ عَارِفُ
وَأُقْسِمُ مَا كُرْسِيُّكُمْ بِسَكِينَةٍ ... وَإِنْ كَانَ قَدْ لُفَّتْ عَلَيْهِ اللَّفَائِفُ
وَأَنْ لَيْسَ كَالتَّابُوتِ فِينَا وَإِنْ سَعَتْ ... شَبَامٌ حَوَالَيْهِ وَنَهْدٌ وَخَارِفُ
وَإِنِّي امْرُؤٌ أَحْبَبْتُ آلَ مُحَمَّدٍ ... وَتَابَعْتُ وَحْيًا ضُمِّنَتْهُ الْمَصَاحِفُ
وَتَابَعْتُ عَبْدَاللَّهِ لَمَّا تَتَابَعَتْ ... عَلَيْهِ قُرَيْشٌ شُمْطُهَا وَالْغَطَارِفُ(٢)

ثم إن الكيسانية التي ورثت هذه الأباطيل في حياة المختار، تابعت مسيرها في الضلالة، وأخذ السبئية يعبئون أتباعها بمعتقداتهم الباطلة التي قالوا بها في زمن علي ﷺ، فاهتبلوا هذه الفرصة في غوغاء الكوفة، وما جاورها، فقالوا برجعة محمد بن الحنفية، وإنه حي يُرْزَقُ، فقالت الكربية (أصحاب أبي كرب الضرير) إن محمد بن الحنفية حي بجبال رضوى، أسد عن يمينه، ونمر عن شماله، يحفظانه، يأتيه رزق غدوة وعشية، إلى وقت خروجه، وزعموا أن السبب الذي من أجله صير على هذه الحال؛ أن يكون مغيبًا عن الخلق، أن لله ـ تعالى ـ فيه تدبيرًا لا يعلمه غيره، ومن القائلين بهذا كُثَيِّرٌ الشاعر، وفي ذلك يقول:

وَسِبْطٍ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى ... يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ

(١) الذهبي ـ سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٥٤١.

(٢) الطبري ـ تاريخ الأمم، ج٣، ص٤٧٦ ـ ٤٧٧، وانظر الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٤٩.

تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ[١]

ويناشده السيد الحميري بالعودة السريعة فيقول:

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فَدَتْكَ نَفْسِي أَطَلْتَ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا
أَضَرَّ بِمَعْشَرٍ وَالَوْكَ مِنَّا وَسَمُّوكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
وَعَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا مُقَامَكَ عِنْدَهُمْ سِتِّينَ عَامَا[٢]

وقال نشوان الحميري: «وقالت الفرقة الثانية من الكيسانية؛ وهم أصحاب الرجعة (حيان السرَّاج، ومن قال بقوله): إن محمد بن الحنفية ميت بجبال رضوى، وإنه يرجع إلى الدنيا، ويُبْعث قبل يوم القيامة، ويُبْعث معه شيعته، فيملك بهم الدنيا، ويملأ الأرض عدلًا، كما ملئت جورًا، ولا تقبل التوبة ممن خالفه»[٣].

وقالت فرقة منهم؛ وهي الهاشمية، بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله ورضوانه، وانتقال الإمامة منه إلى ابنه أبي هاشم، قالوا: فإنه أفضى إليه أسرار العلوم[٤].

والخلاصة في هذه الفرقة، وتفرعاتها، كما يقول البغدادي: «وتكفير هؤلاء واجب في إجازتهم على الله البداء، وقولهم بأنه يريد شيئًا ثم يبدو له، وقال: ما رأينا، ولا سمعنا بنوع من الكفر، إلا وجدنا شعبة منه في مذاهب الروافض»[٥].

وهكذا تبدو هذه الفرقة إحدى صنائع السبئية، التي استطاعت تعبئة أتباعها بعقائدها الفاسدة، التي كادت تندثر، ولكنها وجدت بغيتها في فرقة الكيسانية، التي طبق المختار عقائدها في أرض الواقع؛ فاستخدم البداء لتعليل أفعاله، ومزاعمه، وهزائمه،

---

(١) الأشعري ـ مقالات الإسلاميين، ص١٩، وانظر ـ الناشئ الأكبر ـ مسائل الإمامة، ص٢٦.

(٢) البغدادي ـ الملل والنحل، ص٥١.

(٣) الحميري: الحور العين، ص٢١٣.

(٤) الشهرستاني ـ الملل والنحل، ص١٥٠.

(٥) البغدادي ـ الملل والنحل، ص٥٢-٥٣، بتصرف.

ثم نثر هذه الأباطيل التي تلقفها غوغاء الشيعة، والتي أسهمت فرق أخرى في تثبيتها، والدعوة لها، وهذا ما سنعرضه فيما يأتي.

فِرْقَةُ الْمُغِيرِيَّةِ

تُنْسب هذه الفرقة إلى المغيرة بن سعيد، وهو أحد قنائص السبئية، الذين أسهموا في نشر عقائدها، ولكن لا نعلم إن كان المغيرة، قد عاصر المختار بن أبي عبيد، أو كيسان؛ وذلك لعدم وجود أي إشارة تفيد ذلك، ولكن الشيء الذي نرجحه أن المغيرة، ومن عاصره من الغلاة الذين اشتهرت أخبارهم في أوائل القرن الثاني، كانوا يخضعون لتلقينات السبئية الغلاة، إن لم يكونوا هم قادة السبئية في هذه المرحلة، ومما يؤكد هذا ما قاله ابن قتيبة؛ حيث قال: «وأما المغيرة، فكان مولى لبجيلة، وكان سبئيًا، وصاحب نيرنجات (صاحب سحر وشعوذة)»[١]، وقال العقيلي: «من كبار الرافضة، وممن يؤمن بالرجعة[٢]، وكان يُظْهِرُ في بدء أمره موالاة الإمامية، ويزعم أن الإمامة، بعد علي، والحسن، والحسين، إلى سبطه محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي، وزعم أنه هو المهدي المنتظر، ثم إنه أظهر لهم بعد رياسته عليهم نوعًا من الكفر الصريح»[٣].

الْعَقَائِدُ الْمُنْحَرِفَةُ الَّتِي قَالَ بِهَا الْمُغِيرَةُ بْنُ سَعِيدٍ:

إن العقائد المنحرفة التي جاء بها المغيرة بن سعيد هي أمتداد لعقائد السبئية؛ كما قلت سابقًا، وكان من حرصهم على استمرارها، والدعوة إليها، أنهم كانوا يبرزون، بين الفينة والأخرى، بعض الأشخاص، والحركات الهدَّامة، الذين كانوا منغلقين على دوائر السبئية في الكوفة، وغيرها من أرض العراق، وفارس، وكأنها لم تسمع أن هناك إسلامًا توحيديًّا، ودينًا ينهى عن الشرك، وعبادة المخلوقين، وهذا، في اعتقادي، شيء طبيعي من أناس لا يعرفون مجالس العلم الصحيح، وإنما هم يجدون راحتهم في سراديب السبئية المظلمة المقيتة، وإذا ما استقرت هذه العقائد الضالة في نفوسهم،

---

(١) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار، ج٢، ص١٤٩.

(٢) الضعفاء الكبير، ج٤، ص١٧٧.

(٣) البغدادي ـ الفرق بين الفرق، ص٢٣٨، بتصرف.

خرجوا إلى المجتمع بكل شراسة، يدعون لهذه الأباطيل الكافرة، ومن هذه الأوساط الفاسدة سنرى جملة من هؤلاء الكفرة المشعوذين، وسوف نعرض الأباطيل التي جاء بها المغيرة بن سعيد.

ادِّعَاؤُهُ النُّبُوَّةَ: فقد كان المغيرة بن سعيد يدعي أنه نبي، وأنه يعلم اسم الله الأكبر[١]، وقال ابن عدي: «سمعت ابن حماد يقول: المغيرة بن سعيد قُتِلَ على ادعاء النبوة، كافرًا بالله، كان أشعل النيران بالكوفة بالتمويه والشعبذة، حتى أجابه خلق إلى ما قال»[٢].

وقال الإسفراييني: «فلما استقام له التقدم بين الروافض، ادعى لنفسه النبوة، وكان يدعي أنه يعرف اسم الله الأعظم، وأنه يحيي به الموتى، ويهزم به الجيوش»[٣].

وكان ـ لعنه الله ـ يُفَضِّلُ عليًّا على جميع الأنبياء والرسل؛ قال الأعمش: «دخلت على المغيرة بن سعيد فسألته عن فضائل علي، فقال: «إنك لا تحتملها، قلت: بلى، فذكر آدم، فقال: علي خير منه، ثم ذكر من دونه من الأنبياء، فقال: علي خير منهم، حتى انتهى إلى محمد ﷺ، فقال: علي مثله، فقلت: كذبت! عليك لعنة الله! قال: قد أعلمتك أنك لا تحتملها»[٤].

كان يقول إن عليًّا رضي الله عنه يحيي الموتى؛ فقد سأله الأعمش، فقال: كان علي يقدر على أن يحيي ميتًا؟ قال: أي، والذي فلق الحبة، لقد كان قادرًا أن يحيي ما بيني وبين آدم، قال أحمد بن سليمان: فَلِمَ لم يحيِ نفسه؟»[٥]، وروى العقيلي عن الأعمش قال: «قلت: والله، لأسألنه، فقلت: أكان علي يحيي الموتى؟ قال: أي، والذي نفسي بيده، ولو شاء أحيى عادًا وثمودًا، قلت: من أين علمت ذاك؟ قال: أتيت بعض أهل

(١) الحميري ـ الحور العين، ص٢٢٢، الأشعري ـ مقالات، ص٧.

(٢) ابن عدي ـ الكامل في ضعفاء الرجال، ج٦، ص٢٣٥١.

(٣) الإسفراييني ـ التبصير في الدين، ص١٢٥.

(٤) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد، ج٢، ص٢٤٦.

(٥) ابن عدي ـ الكامل، ج٦، ص٢٣٥١.

البيت، فسقاني شربة من ماء، فما بقي شيء إلا وقد علمته»[١].

ادِّعَاؤُهُ الأُلُوهِيَّةَ وَقَوْلُهُ بِالتَّشْبِيهِ: قال الرازي: «أتباع المغيرة بن سعيد [ادعى] الإلهية، ثم أحرقوا بالنفط والنار»[٢].

وكان يقول: «إن معبوده رجل من نور، على رأسه تاج من نور، وله من الأعضاء مثل ما للرجال، فالألف موضع قدمه؛ لاعوجاجها»[٣].

وذكر كيف ابتدأ الخلق؛ فزعم: «أن الله ـ جل اسمه ـ كان وحده، لا شيء معه، فلما أراد أن يخلق الأشياء، تكلم باسمه الأعظم، فطار فوقع فوق رأسه التاج، وقال ذلك قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، [الأعلى: ١]، قال: ثم كتب بإصبعه على كفه أعمال العباد؛ من المعاصي، والطاعات، فغضب من المعاصي، فعرق، فاجتمع من عرقه بحران، أحدهما مالح مظلم، والآخر نيِّرٌ عذب، ثم اطلع في البحر، فأبصر ظله، فذهب ليأخذه، فطار فانتزع عين ظله، فخلق منها شمسًا، ومحق ذلك الظل، وقال لا ينبغي أن يكون معي إله غيري، ثم خلق الخلق كله من البحرين، فخلق الكفار من البحر المالح المظلم، وخلق المؤمنين من النيِّر العذاب»[٤].

وكان يسب الصحابة، وأولهم أبو بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: قال الأعمش: «أول من سمعت يسب أبا بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ المغيرة بن سعيد»[٥]، وعن إبراهيم بن الحسن، قال: «دخل عليَّ المغيرة بن سعيد وأنا شاب، أشبه برسول الله ﷺ، فذكر من قرابتي، وشبهي، وأمله في، قال: ثم ذكر أبا بكر وعمر، ولعنهما وبرئ منهما، وقال: قلت: يا عدو الله، أعندي؟ قال: فخنقته خنقًا، قال: فقلت له: أرأيت قولك للمغيرة فخنقته خنقًا؟ أخنقته بالكلام، أم بغيره؟ قال: بل خنقته حتى أدلع لسانه»[٦].

(١) العقيلي ـ الضعفاء الكبير، ج٤، ص١٧٩، ص١٨٠.
(٢) الرازي ـ اعتقادات فرق المسلمين، ص٧٢.
(٣) الحميري ـ الحور العين، ص٢٢٢.
(٤) الأشعري ـ مقالات الإسلاميين، ص٧ ـ ٨ والفرق بين الفرق، ص٢٤٠.
(٥)، (٦) العقيلي ـ الضعفاء الكبير، ج٤، ص١٨٠.

ويزعم هذا الكذاب فيقول: «إن الله أرسل محمدًا إلى الناس كافة، وهو ظل، ثم عرض على السماوات أن يمنعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأبين، ثم على الأرض، ثم الجبال، فأبين، ثم على الناس كلهم، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه، فأمره أن يتحمل منه، وأن يغدر به، ففعل ذلك أبو بكر، وذلك قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، [الأحزاب: ٧٢]، قال: وقال عمر: أنا أعينك على علي؛ لتجعل لي الخلافة بعدك، وذلك قوله: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾، [الحشر: ١٦]، والشيطان عنده عمر»[(١)].

وكانت هذه النظرة للصحابة من تأويلاتهم الفاسدة، التي أسسها ابن سبإ، ونشرها المغيرة بن سعيد، ومن جاء بعده من فرق الغلاة السبئية، فلما اطلع خالد بن عبدالله القسري على كفره وإلحاده سن فيه وفيمن تبعه سنة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه؛ فحرقهم بالنار، قال أبو بكر بن عياش: «رأيت خالد بن عبدالله القسري حين أتى المغيرة بن سعيد وأتباعه، فقتل منهم رجلًا، ثم قال: أحيه، وكان يريهم أنه يحي الموتى، فقال: والله، ما أحيي الموتى، فأمر خالد بن بِطُنٍّ قصب، فأضرم نارًا، ثم قال للمغيرة: اعتنقه، فأبى، فعدا رجل من أصحابه، فاعتنقه، والنار تأكله، فقال خالد: هذا، والله، أحق منك بالرياسة، ثم قتله، وقتل أصحابه، وقد قتل في حدود العشرين ومئة»[(٢)].

وذكر الطبري أن بيان بن سمعان كان من ضمن الذين حرقهم خالد القسري ـ رحمه الله[(٣)].

البيانية:

المنسوبة إلى بيان بن سمعان التميمي، صاحب المغيرة، الذي حرقه خالد القسري معه، كان يقول: «إن الله ـ عز وجل ـ على صورة الإنسان، وإنه يهلك كله إلا وجهه،

(١) الأشعري ـ مقالات، ص٨٧، والفرق بين الفرق، ص٢٤١.

(٢) ابن حجر ـ لسان الميزان، ج٦، ص٩٠.

(٣) الطبري ـ تاريخ الأمم، ج٤، ص١٧٥.

وادعى بيان أنه يدعو الزهرة فتجيبه، وأنه يفعل ذلك بالاسم الأعظم، فقتله خالد بن عبدالله القسري، وحُكِيَ أن كثيرًا منهم يثبت لبيان بن سمعان النبوة، ويزعم كثير من البيانية أن أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية نص على إمامة بيان بن سمعان، ونصبه إمامًا»[1].

وكان أتباعه «يزعمون أن الله ـ تعالى ـ حل في علي وأولاده»[2].

ويقول البغدادي أن أتباعه اختلفوا فيه؛ «فمنهم من زعم أنه كان نبيًّا، وأنه نسخ بعض شريعة محمد ﷺ، ومنهم من زعم أنه كان إلهًا، وذكر هؤلاء أن بيانًا قال لهم: إن روح الإله تناسخت في الأنبياء والأئمة، حتى صارت إلى أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، ثم انتقلت إليه منه ـ يعني نفسه ـ، فادعى لنفسه الربوبية على مذاهب الحلولية، وزعم ـ أيضًا ـ أنه هو المذكور في القرآن في قوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، [آل عمران: ١٣٨]، وقال: أنا البيان، وأنا الهدى، والموعظة، ورُفِعَ خبر بيان إلى خالد القسري، في زمان ولايته في العراق، فاحتال على بيان، حتى ظفر به، وصلبه، وقال له: إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذي تعرفه فاهزم به أعواني عنك.

وهذه الفرقة خارجة عن جميع فرق الإسلام؛ لدعواها إلهية بيان، كما خرج عابدوا الأصنام عن فرقة الإسلام، ومن زعم منهم أن بيانًا كان نبيًّا فهو كمن زعم أن مسيلمة كان نبيًّا، وكلا الفريقين خارجان عن فرق الإسلام[3].

المَنْصُورِيَّةُ:

«أتباع أبي منصور العجلي، وكانوا على مقالة المغيرية، وزادوا عليهم بأن أباحوا الزنا

---

(١) الأشعري ـ مقالات الإسلامين، ص٥ ـ ٦.

(٢) الرازي ـ اعتقادات، ص٧١، وانظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٥٢.

(٣) البغدادي ـ الفرق بين الفرق، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ بتصرف، وانظر القمي، الفرق بين الفرق والمقالات، ص٥٥، والنوبختي، فرق الشيعة، ص٣٠.

واللواطية»[١]، وكان أصحابه يزعمون أن أبا منصور قال: آل محمد هم السماء، والشيعة هم الأرض، وإنه هو الكسف الساقط. وأبو منصور هذا رجل من بني عجل، وزعم أبو منصور أنه عُرِجَ به إلى السماء، فمسح معبوده رأسه بيده، ثم قال له: أي بني، اذهب فبلغ عني، ثم نزل به إلى الأرض، ويمين أصحابه إذا حلفوا أن يقولوا: لا والكلمة، وزعم أن عيسى أول من خلق الله من خلقه، ثم علي، وأن رسل الله ـ سبحانه ـ لا تنقطع أبدًا، وكفر بالجنة والنار، وزعم أن الجنة رجل، وأن النار رجل، واستحل النساء، والمحارم، وأحل ذلك لأصحابه، وزعم أن الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والخمر، والميسر، وغير ذلك من المحارم حلال، وقال: لم يحرم الله ذلك علينا، ولا حرم شيئًا نقوي به أنفسنا، وإنما هذه الأشياء أسماء رجال حرم الله ـ سبحانه ـ ولايتهم، وتأول في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾، [المائد: ٩٣]، وأسقط الفرائض، وقال هي أسماء رجال أوجب الله ولايتهم، واستحل خنق المخالفين، وأَخْذَ أموالهم، فأخذه يوسف بن عمر الثقفي، والى العراق في أيام بني أمية، فقتله»[٢].

ونقل ابن حزم عن «هشام بن الحكم الرافضي في كتابه المعروف بـ«الميزان»، وهو أعلم الناس بهم؛ لأنه جارهم بالكوفة، وجارهم بالمذهب: أن الكسفية، خاصة، يقتلون من كان منهم، ومن خالفهم، ويقولون نعجل المؤمن إلى الجنة، والكافر إلى النار»[٣]، «ومن قتل أربعين من أهل القبلة دخل الجنة، أخزاهم الله!»[٤].

وقد حكم البغدادي بكفرهم؛ فقال: «وكفرت هذه الطائفة بالقيامة، والجنة، والنار، وتأولوا الجنة على نعيم الدنيا، والنار على محن الناس في الدنيا، واستحلوا، مع هذه

---

(١) الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص٧٣.

(٢) الأشعري ـ مقالات، ص٩ ـ ١٠.

(٣) ابن حزم ـ الفصل، ج٥، ص٤٥، وانظر الإسفراييني ـ التبصير في الدين، ص١٢٦ـ والشهرستاني ـ الملل والنحل، ص١٧٨، والحور العين، ص٢٢٢.

(٤) اليافعي ـ ذكر مذاهب الثنين والسبعين، ص٨٧.

الضلالة، خنق مخالفيهم، واستمرت فتنتهم على عادتهم إلى أن وقف يوسف بن عمر الثقفي، والي العراق في زمانه، على عورات المنصورية، فأخذ أبا منصور العجلي، وصلبه، وهذه الفرقة غير معدودة في فرق الإسلام»(١).

الجَنَاحِيَّةُ:

«أصحاب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، ذي الجناحين، يزعمون أن عبدالله بن معاوية كان يدعي أن العلم ينبت في قلبه كما ينبت الكمأة والعشب، وأن الأرواح تناسخت، وأن روح الله جل اسمه كانت في آدم، ثم تناسخت حتى صارت فيه، وزعم أنه رب، وأنه نبي، فعبده شيعته، وهم يكفرون بالقيامة، ويدعون أن الدنيا لا تفنى، ويستحلون الميتة، والخمر، وغيرها من المحارم، ويتأولون قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ ﴾، [المائدة: ٩٥]»(٢)، وكانوا «يدعون أن عبدالله بن معاوية لم يَمُتْ، وأنه في جبل أصفهان إلى أن يخرج، والمشهور أن أبا مسلم، صاحب دولة بني العباس، بعث إليه عسكرًا، فصلبوه، وقتلوه»(٣).

الخَطَّابِيَّةُ:

«أصحاب أبي الخطاب بن أبي زينب، يزعمون أن الأئمة أنبياء محدثون، ورسل الله وحججه على خلقه، لا يزال منهم رسولان، واحد ناطق، والآخر صامت، فالناطق محمد ﷺ، والصامت علي بن أبي طالب، فهم في الأرض اليوم، طاعتهم مفترضة على جميع الخلق، يعلمون ما كان، وما هو كائن، وزعموا أن أبا الخطاب نبي، وأن أولئك الرسل فرضوا طاعة أبي الخطاب، وقالوا: الأئمة آلهة، وقالوا في أنفسهم مثل ذلك، وقالوا: ولد الحسين أبناء الله وأحباؤه، ثم قالوا ذلك في أنفسهم، وتأولوا قول

(١) البغدادي ـ الفرق بين الفرق، ص٢٤٥.

(٢) الأشعري ـ مقالات، ص٦.

(٣) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص١٢٦، وانظر تفاصيل خبره واتهام أتباعه باللواط، كان قتله سنة١٢٩هـ ـ الطبري، ج٤، ص٣١٧، وانظر الفرق بين الفرق، ص٢٤٦ ـ وابن قتيبة المعارف، ص٢٠٧.

الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾، [الحجر: ٢٩]، قالوا: فهو آدم، ونحن ولده، وعبدوا أبا الخطاب، وزعموا أنه إله، وزعموا أن جعفر بن محمد (الصادق) إلههم ـ أيضًا ـ، إلا أن أبا الخطاب أعظم منه، وأعظم من علي، وخرج أبو الخطاب على أبي جعفر المنصور، فقتله عيسى بن موسى في الكوفة»[(١)]، «وهم يزعمون أن الله حل في علي، ثم في الحسن، ثم في الحسين، ثم في زين العابدين، ثم في الباقر، ثم في الصادق، وتوجه هؤلاء إلى مكة في زمن جعفر الصادق، وكانوا يعبدونه، فلما سمع الصادق بذلك، لعنه وطرده، فأبلغ بذلك أبا الخطاب رئيسهم، فزعم أن الله ـ تعالى ـ قد انفصل عن جعفر، وحل فيه (أي في أبي الخطاب)، وأنه هو أكمل من الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا!»[(٢)].

وهذه الفرقة كان بداية نشاطها في العصر الأموي، واستمرت في العصر العباسي، «حتى قُتِلَ أبو الخطاب على يد عيسى بن موسى، والي الكوفة من قبل العباسيين سنة ١٤٣»[(٣)].

هذه هي الفرق الغالية التي ظهرت في العصر الأموي، وبعضها قُتِلَ قادتها في العصر العباسي، وإن كانت النشأة في العصر الأموي، وهي التي تجمعت حول الفكرة السبئية الأولى، وانتعشت في حركة المختار بن أبي عبيد، وبلغت أوج نشاطها في المغيرية، والبيانية، ومن تبعها من فرق الضلال، والملاحظ أنه يجمعها القول بألوهية الأئمة، وألوهية قادتها، وقد عدد ابن حزم أكثر من إحدى عشرة فرقة قالت بألوهية الأئمة، وألوهية قادتها[(٤)].

ثم من ادعاء النبوة للأئمة أولًا، ثم لقادتها، ثم القول بالحلول، ثم التناسخ، ثم

---

(١) الأشعري ـ مقالات، ص١١ـ والفرق بين الفرق، ص٢٤٧.

(٢) الإسفراييني ـ التبصير، ص١٢٦ـ والرازي ـ اعتقادات فرق، ص٧٢، وانظر ـ الحميري ـ الحور العين، ص٢٢٠ـ وابن حزم الفصل، ج٥، ص٤٨، والشهرستاني، ص١٨٠.

(٣) ابن العماد الحنبلي ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج١، ص٢١١، ط١٤٠٩، وانظر ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٢٦.

(٤) ابن حزم ـ الفصل، ج٥، ص٤٨ ـ ٤٩.

البداء، ثم التشبيه ثم التأويل، ثم الرجعة[(١)]، ومما يُؤسَف له ـ حقًّا ـ أن هذه الأسس ما زالت تقتات عليها فرق التشيع، على مختلف مشاربها، في عصرنا الحاضر، وقد توجهت المطاعن الكثيرة لهذه العقائد الفاسدة، حتى أن الدكتور موسى الموسوي؛ وهو أحد علماء الشيعة، يتعرض لنقدها؛ فيقول عند حديثه عن البداء، الذي يدين به الشيعة: «تفسير الخطإ يعني الاستمرار فيه، وعدم الخروج منه حتى قيام الساعة، ومن هنا أود القول إنه لو كانت لبعض علمائنا الشجاعة العلمية، وخلوص النية، ونقاء الفكر، وصفاء الذهن، لَمَا ساروا في درب شائك لتفسير كلام موضوع، أو جملة موضوعة، أو فكرة تتنافى مع أصول العقيدة، والبديهيات العقلية معًا؛ فالقول بالبداء، والإصرار عليه، والإبقاء عليه في كتب الزيارات والروايات معًا، هو النموذج الأكمل في الإصرار على العزة بالإثم، وما دامت الحالة هذه، فطريق الخلاص من الأوهام صعب وعسير، والعناية الإلهية لا تشمل قومًا قال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، [لقمان: ٢٠]، وكما قلنا قبل قليل، وفي فصل الرجعة، إن مفهوم البداء غامض عند الأكثرية الساحقة من أبناء الشيعة الإمامية، بل لا يعرفون شيئًا عن فحواها، وحتى إذا سألتهم عن معنى الكلمة فهم يحيرون جوابًا، ولكن مع هذا، وهو من دواعي الأسف والحزن العميق، فيما وصلت إليه حال هذه الأمة، بفضل زعاماتها المذهبية، أن هناك عشرات الآلاف من الشيعة، وإن شئت فقل مئات الآلاف منهم، يكررون الجملة التالية:

السلام عليكما يا من بدا لله في شأنكما»[(٢)].

وهكذا هو شأن الغوغاء الأوائل الذين سيطر على عقولهم أتباع السبئية فلقنوهم

---

(١) انظر لتفصيل هذه الآراء ما سبق عرضه من معتقدات هذه الفرق في بحثنا هذا، ثم الدكتور عبدالرحمن بدوي ـ مذاهب الإسلاميين، ج٢، ص١٠، والدكتور عبدالله السامرائي ـ الغلو والفرق الغالية، ص١٢٥ وما بعدها، والدكتور موسى الموسوي ـ الشيعة والتصحيح، ص١٤١ وما بعدها.

(٢) د. الموسوي ـ الشيعة والتصحيح، ص١٤٧. عام ١٤٠٨هـ.

كراهية الصحابة، وألهوا الأئمة، وأشركوا مع الله خلقه، وأتوا بالمخاريق الضالة، التي سببت فُرْقة عقدية في الأمة، ما زالت تعاني من ويلاتها إلى وقتنا الحاضر.

واستمرت هذه القوى المتسترة بآل البيت، وكلما ظهر فيهم عالمٌ، أو صاحب فضل، قاموا يمنونه بالخلافة، وحكم الأمة، ثم يسلمونهم إلى القتل، فيقومون بتأسيس فرق جديدة، وهذا ما حدث لزيد بن علي ـ رحمه الله ـ، والذي كانت حركته في أواخر العصر الأموي، ولكن الآراء المخالفة لأهل السنة تبلورت، فيما بعد، في العصر العباسي، وإن كانت هذه الفرقة تُعْتبر قريبة من أهل السنة في عقائدها، وإن كان قولها بإمامة المفضول مع وجود الفاضل، هذا القول من مبتدعات الفرقة، وليس من أقوال زيد ـ رحمه الله.

وسوف نعرض فيما يلي صورة من صور الغدر الذي مارسه الشيعة بأئمة آل البيت، وحادثة الإمام زيد تُعْتبر فاجعة عظيمة، مرت بهذه الأمة نتيجة لنهج الشيعة المشهور والمتكرر؛ في النفخ على نار الحروب، ثم خذلان من زعموا أنهم سينصرونه ويؤازرونه، وملخص القصة، كما ذكرها الإمام الطبري في تاريخه، أن الإمام زيدًا قدم على هشام بن عبدالملك، فوجد من هشام شيئًا من الجفاء، وحصلت بينهم المحاورة التالية؛ «حيث ذُكِرَ أن زيدًا حلف لهشام على أمر، فقال له: لا أصدقك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضى بالله، ولم يضع قدر أحد عن ألا يرضى بذلك منه، فقال له هشام: لقد بلغني، يا زيد، أنك تذكر الخلافة، وتتمناها، ولست هناك، وأنت ابن أمة، فقال زيد: إن لك، يا أمير المؤمنين، جوابًا، قال: تكلم، قال: ليس أحد أولى بالله، ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وَوَلَدَ خيرَهم محمدًا ﷺ، وكان إسماعيل ابن أمة، وأخوه ابن صريحة مثلك، فاختاره الله، وأخرج منه خير البشر، وما على أحد من ذلك؟ جده رسول الله ﷺ، ما كانت أمه (أمة)، فقال له هشام: اخرج، قال: أخرج، ثم لا تراني إلا حيث تكره»[1].

---

(١) الطبري ـ تاريخ الأمم، ج٤، ص١٩٦، وانظر البسوي ـ المعرفة، ج٣، ص٤٤٨، وابن عساكر ـ المختصر، ج٩، ص١٥٥.

واجتمعت عليه شيعة العراق، وكان يوسف بن عمر الثقفي يأمره بالخروج، فخرج يومًا، حتى وصل القادسية، «فلحقته الشيعة، فقالوا له: أين تذهب عنا، ومعك مئة ألف رجل من أهل الكوفة، يضربون دونك بأسيافهم غدًا، وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة؟ فلم يزالوا به حتى رجع، ولما رجع إلى الكوفة أعطوه المواثيق، والأيمان المغلظة، فجعل يقول: إني أخاف أن تخذلوني، وتسلموني؛ كفعلكم بأبي، وجدي، فيحلفون له، فيقول داود بن علي: يا بن عم، إن هؤلاء يغرونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك؛ جدك علي بن أبي طالب، حتى قتل، والحسن من بعده؛ بايعوه، ثم وثبوا عليه، فانتزعوا رداءه من عنقه، وانتهبوا فسطاطه، وجرحوه، أوليس قد أخرجوا جدك الحسين، وحلفوا له بأوكد الأيمان، ثم خذلوه، وأسلموه، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه؛ فلا تفعل، ولا ترجع معهم؛ إني لخائف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم»(١).

وبعث عبدالله بن حسن بكتاب إلى زيد بن علي، قال فيه: «يا بن عم، إن أهل الكوفة نُفُخ العلانية، خُوُر السريرة، هُوُج في الرخاء، جُزُع في اللقاء، تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، لا يبيتون بعده في الإحداث، ولا ينئون بدولة مرجوة، ولقد تواترت إلي كتبهم(٢) بدعوتهم، فصممت عن ندائهم، وألبست قلبي غشاءً عن ذكرهم؛ يأسًا منهم، واطِّراحًا لهم، وما لهم مَثَلٌ إلا ما قال علي بن أبي طالب: إن أُهْمِلْتُمْ خفتم، وإن حُوربتم خرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم»(٣).

وقد غدرت الشيعة، بالفعل، بزيد ـ رحمه الله ـ مقابل مبلغ من المال؛ وقدره خمسة آلاف درهم، أعطاها يوسف بن عمر إلى مملوك خراساني ألكن، «قد تلطف إلى

---

(١) الطبري ـ تاريخ الأمم ج٤، ص١٩٦-١٩٧ بتصرف.

(٢) انظر إلى مخاطبتهم معظم علماء آل البيت، فهل هي إحدى الحيل السبئية للإجهاز عليهم والخلاص منهم؟!

(٣) الطبري ت تاريخ، ج٤، ص١٩٨.

الشيعة، فأخبرهم أنه قدم من خراسان حبًّا لآل البيت، وأن معه مالًا يريد أن يقويهم به، فلم يزل المملوك يلقى الشيعة، ويخبرهم عن المال الذي معه، حتى أدخلوه على زيد، فخرج، فدل يوسف على موضعه، فوجه يوسف إليه الخيل، فنادى أصحابه بشعارهم، فلم يجتمع إليه منهم إلا ثلاث مئة، أو أقل، فجعل يقول: كان داود بن علي أعلم بكم؛ قد حذرني خذلانكم، فلم أحذر»(١).

وقد سُئِلَ عيسى بن يونس عن الرافضة والزيدية، فقال: «أما الرافضة فإنهم جاءوا إلى زيد بن علي حين خرج، فقالوا: تبرأ من أبي بكر، وعمر؛ حتى نكون معك، فقال: (لا)، بل أتولاهما، وأبرأ ممن يبرأ منهما، قالوا: إذًا نرفضك؛ فسميت الرافضة، وأما الزيدية، فقالوا بقوله، وحاربوا معه، فنسبوا إليه، وكان زيد ـ رحمه الله ـ يقول: الرافضة حربي، وحرب أبي، في الدنيا والآخرة، مرقت الرافضة علينا؛ كما مرقت الخوارج على علي ـ رضي الله عنه»(٢).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الشيعة افترقوا عند سؤالهم لزيد عن أبي بكر، وعمر، فقال: «ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية؛ فإنه لما سُئِلَ عن أبي بكر، وعمر، فترحَّم عليهما، رفضه قومه، فقال لهم: رفضتموني؛ لرفضهم إياه، وسُمِّيَ من لم يرفضه من الشيعة زيديًّا؛ لانتسابهم إليه»(٣).

ولكن مما يجب توضيحه أن السبئية هم أول من قالوا برفض إمامة أبي بكر، وعمر، وتابعها على ذلك الغلاة، ومنهم هؤلاء الذين جاءوا لزيد ـ رحمه الله ـ؛ ليبرروا خذلانهم، وجبنهم، ولعلمهم أن زيدًا، وكل آل البيت، هم على عقيدة أهل السنة والجماعة في كل شيء؛ ومن ذلك توليهم للشيخين أبي بكر، وعمر، ولا يُظَنُّ أبدًا بأحد من هؤلاء الأبرار أن يخالفوا عقيدة الأمة الحقة، التي حمل لواءها جميع

---

(١) الطبري، ج٤، ص٢٠٩.

(٢) ابن عساكر، ج٩، ص١٥٣، والذهبي ـ تاريخ الإسلام ـ حوادث ١٢١ـ١٤٠، ص١٠٦، وسير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٩٠.

(٣) ابن تيمية ـ منهاج السنة النبوية، ج١، ص٣٥.

الصحابة، وأولهم أبو بكر، وعمر.

وقد كان مقتله ـ رحمه الله ـ سنة اثنتين وعشرين ومئة، وقد مر ـ رحمه الله ـ على قوم من الشيعة المزعومين، وهو على حمار، قد خولف وجهه، فقاموا إليه يبكون، فقال لهم: «يا أخابث خليقة الله، أسلمتموني للقتل، ثم تبكون علي؟ !»[(١)].

وهكذا انتهت حياة هذا العالم المجاهد على هذه الصورة المؤلمة، التي أسهم فيها هؤلاء الشيعة المتخاذلون، الذين غرروا بهؤلاء الأعلام، وجعلوا الخروج سمة غالبة فيهم، بدون تحقيق أي هدف من الأهداف، وقد أحصى أحد الباحثين الخروج «الذي بلغ ستة وستين خروجًا حتى سنة ٣٥٨ هـ»[(٢)]، ولكن الإمام زيدًا ـ رحمه الله ـ لم يُؤْثر عنه أي انحراف عقدي، بل تطورت هذه العقائد، فيما بعد، في العصر العباسي؛ ومن هنا فإننا لا نعد المقالات التي قال بها المتأخرون عن الإمام زيد أنها عقائده هو، بل عقيدته هي عقيدة السلف، عقيدة أهل السنة والجماعة.

٤ـ مَوْقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ الشِّيعَةِ الْغُلَاةِ:

لقد واجه علماء السلف ـ رحمهم الله ـ تعالى ـ كل فرق الابتداع، بمناهجهم الأصلية، التي تعتمد على الأسس الحقة؛ متمثلة بالكتاب والسنة، ومسيرة الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ، وكانت مواجهتهم لهؤلاء الغلاة تعتمد على هذه الأصول الواضحة، التي لا لبس فيها؛ فالتشيع الذي ابتدعه ابن سبإٍ، بغلوه وإلحادة، وزندقته، كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمة أن ابن سبإٍ اليهودي كان منافقًا زنديقًا، وهو الذي أسس بدعة التشيع، على الصورة الغالية المنحرفة[(٣)]، هذا التشيع قابله علماء السلف بالإنكار والاستغراب، ومما يثلج الصدر ـ حقًا ـ ويفرح كل مسلم غيور، أن أول من قام بالإنكار والرفض لهذه المبتدعات المنحرفة هم آل البيت أنفسهم، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، الذي سنعرض لموقفه ﷺ من خلافة من سبقه من الخلفاء

(١) ابن عساكر ـ ج٩، ص١٥٨ـ وخليفة خياط التاريخ، ص٣٥٣.

(٢) ناصر الدين شاه ـ العقائد الشيعية ورجال القرن العشرين، ص٩٨، ط١، ١٤٠٧.

(٣) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى، ج١٣، ص٣١.

ـ رضوان الله عليهم أجمعين.

حيث لا يشك أحد من المسلمين أن عليًا رضي الله عنه من أكابر الصحابة إيمانًا، وعلمًا، وعملًا، وجهادًا؛ فقد إجتمعت فيه خصال عظيمة، كانت مصدر إعجاب ومحبة من قبل جميع المسلمين، وكانت هذه هي السمة العامة في كل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ؛ فقد كان هناك جملة من الصحابة الكرام من ذوي الفضل، والسابقة، الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة، وشهدت لهم الأحداث صدق إيمانهم، وإخلاصهم، فكانوا في المرتبة الأولى المقدَّمة عند المسلمين؛ كأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وفضائلهم يطول حصرها، وكان علي رضي الله عنه يرى أفضلية أبي بكر، وعمر، على غيرهم من جمهور الصحابة، وقد كان النبي ﷺ كثير الثناء على أصحابه، وثناؤه على أبي بكر، وعمر، وعثمان، مشهور ومعروف، وكذلك ثناؤه على علي رضي الله عنه، كثنائه على من سبقه، ولم يكن هذا الثناء ليعطي أحدًا منهم سمة غير سمة المسلم الصادق، الذي لا يعني إعطاءه مرتبة النبوة، أو العصمة، أو الإمامة التي قال بها الشيعة.

وكان المسلمون ينظرون إلى علي رضي الله عنه نظرة محبة وإعجاب، كغيره من الصحابة الكبار؛ لقربه من رسول الله ﷺ، ولأنه زوج ابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، ولجهاده واجتهاده المشهور، ولزهده رضي الله عنه، فلم يكونوا يضعونه في مرتبة غير هذه المرتبة.

وعندما توفي الرسول ﷺ، واجتمع المسلمون في السقيفة على عجل، بعد أن علم أبو بكر، وعمر، باجتماع إخوانهم الأنصار؛ فخافوا أن يحدثوا بيعة، وتحدث فتنة، وقام أبو بكر ببيان من هو أحق بخلافة الرسول ﷺ من قريش، وحسم هذا الجدال في لحظات،ورضي المهاجرون والأنصار بتولية أبي بكر رضي الله عنه، وأخذ البيعة العامة من المسلمين، ولم يكن علي رضي الله عنه ممن شهد البيعة في السقيفة، وعتب لأنهم لم يشاوروه في هذا الأمر، ثم حدث أن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ طلبت من أبي بكر ميراثها من رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سمع من رسول الله ﷺ أن الأنبياء لا يورثون أحدًا، وأن ما تركوه صدقة؛ فقد روى البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «أن

أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر، يسألنه ميراثهن، فقالت عائشة: أليس قال رسول الله ﷺ: «لَا نُورَثُ؛ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[(١)].

وروى البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «إن فاطمة ـ عليها السلام ـ ابنة رسول الله ﷺ، سألت أبا بكر الصديق، بعد وفاة رسول الله ﷺ، أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ، مما أفاء الله عليه، فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لَا نُورَثُ؛ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، فغضبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى تُوُفِّيَت، وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر»[(٢)].

ويُقال إن عليًّا تخلف عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه في هذه الفترة، وكان جمهور الصحابة والمسلمون في المدينة يعرفون هذا الأمر، وكانوا يحبون دخول علي فيما دخل فيه الناس من البيعة لأبي بكر، فلما توفيت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، شعر علي رضي الله عنه بأن الناس لا ترضى بعدم دخوله في البيعة، واستنكر وجوه الناس، حتى ذهب هو لمصالحة أبي بكر، وسنترك الرواية تتحدث عن ذلك؛ لنبين أن عليًّا رضي الله عنه لم تُغْتَصَبْ منه الخلافة كما زعم السبئيون، ولم يكن الناس يرون أفضليته على أبي بكر؛ بدليل ما سيأتي في هذا الحديث، والذي يبطل مزاعم الذين كتبوا الأحداث تبعًا لهواهم، الذي افتعلته عقولهم العليلة.

فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت[(٣)]: «فلما توفيت (فاطمة)، دفنها زوجها علي ليلًا، ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، [وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس؛ فالتمس مصالحة

---

(١) البخاري ـ كتاب الفرائض ـ باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا صدقه، ح رقم٦٧٣٠، الفتح ج١٢، ص٧، وانظر حماد بن إسحاق ـ تركة النبي ﷺ، ص٨١. ت د. أكرم العمري.

(٢) البخاري ـ كتاب فرض الخمس ـ باب فرض الخمس ح رقم٣٠٩٢-٣٠٩٣/ الفتح ج٦، ص١٩٧.

(٣) صدر هذا الحديث ما سبق ذكره من رواية عائشة أيضًا تركناه خشية التكرار.

أبي بكر، ومبايعته]، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأتنا أحد معك (كراهة لمحضر عمر)، فقال عمر: لا، والله، لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عسيتهم أن يفعلوا بي؟ والله، لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد علي، فقال: [إنا قد عرفنا فضلك، وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيرًا ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى؛ لقرابتنا من رسول الله ﷺ، نصيبًا، حتى فاضت عينا أبي بكر]، فلما تكلم أبو بكر قال: [والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال، فلم آلُ فيه عن الخير، ولم أترك أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته، فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر، رقي على المنبر، فتشهد، وذكر شأن علي، وتخلفه عن البيعة، وعذره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر، وتشهد علي، فعظم حق أبي بكر، وحدَّث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ولا إنكارٌ للذي فضله الله به، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصيبًا، فاستبد علينا، فوجدنا في أنفسنا؛ فَسُرَّ بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى علي قريبًا، حين راجع الأمر المعروف»[1].

هذه الرواية العظيمة، والتي هي في أعلى درجات الصحة، توضح الأمر ببساطة شديدة؛ فان عليًا رضي الله عنه، لم يكن يرى في نفسه أنه أولى بالخلافة من أبي بكر، بدليل ثنائه عليه، واعترافه بسابقته وفضله، وإنما كان عاتبًا على عدم مشورته، وإسهامه في هذه البيعة، التي حدثت في السقيفة.

ولعظم هذه الرواية، ولتصويرها للواقع أحسن تصوير، فقد أوردها أحد علماء الشيعة القدماء؛ وهو الناشئ الأكبر (ت ٢٩٣) في كتابه «مسائل الإمامة»[2]؛ مما يدلك على أن الشيعة الأوائل لم يكونوا يفضلون عليًا على أبي بكر، وعمر، وإنما كان

(١) البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة خيبر ح رقم٤٢٤١/ الفتح ج٧، ص٤٩٣، ومسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب حكم الفيء رقم ١٧٥٩/ المختصر ج٢، ص٧٠.

(٢) انظر ـ مسائل الامامة، ص١٠ـ١١ـ ت ـ يوسف فان أس.

النزاع في تفضيل علي على عثمان ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ، وهذا يدعونا إلى القول أن بذرة التشيع كانت ترسم خيوطها بعيدًا عن جمهور المسلمين، وعامتهم، الذين استنكر علي رضي الله عنه وجوههم، وسعى إلى إرضائهم؛ بمصالحة أبي بكر، والدخول في بيعته، فأين كانت تُنْسَجُ خيوط التشيع، التي كان لا يعلمها علي رضي الله عنه، ولا عامة المسلمين، لقد كان تأخر علي عن البيعة أحد الأمور التي استغلها بغاة الفتنة؛ ليظهروا أن عليًا كان يرغب بالخلافة؛ لأنه الوصي (بزعمهم)، ولكن تغلب الجانب الآخر كان هو السبب في سكوته، ثم في دخوله البيعة، واخترعوا لذلك فكرة التقية، أما علماء السلف، فقد وجهوا هذا الحدث التوجيه السليم، الذي كان يعبر عن الأحداث الحقيقية، بعيدًا عن هذه المزاعم، التي كانت تخفي الفتنة من وراء تأويلاتها الباطلة.

يقول الإمام النووي عن سبب تخلف علي رضي الله عنه عن البيعة: «ولم يكن انعقاد البيعة، وانبرامها، متوقفًا على حضوره؛ فلم يجب عليه الحضور لذلك، ولا لغيره، فلما لم يجب لم يحضر، وما نُقِلَ عنه قدح في البيعة، لا مخالفة، ولكن بقي في نفسه عتب، فتأخر حضوره إلى أن زال العتب، وكان سبب العتب أنه، مع وجاهته، وفضيلته في نفسه، في كل شيء، وقربه من النبي ﷺ، وغير ذلك ـ رأى أنه لا يُسْتَبَدُّ بأمر إلا بمشورته، وحضوره، وكان عذر أبي بكر، وعمر، وسائر الصحابة واضحًا؛ لأنهم رأوا المبادرة بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف ونزاع، تترتب عليه مفاسد عظيمة»[(١)].

ويعلل ابن حجر قول عائشة: «وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة»: «أي كان الناس يحترمونه إكرامًا لفاطمة، فلما ماتت، واستمر على عدم الحضور عند أبي بكر، قصر الناس عن ذلك الاحترام؛ لإرادة دخوله فيما دخل فيه الناس؛ ولذلك قالت عائشة: «ولما جاء، وبايع، كان الناس قريبًا إليه»، وكأنهم كانوا يعذرونه في التخلف

(١) النووي ـ شرح صحيح مسلم، ج١٢، ص٧٨، وانظر أبي نعيم الأصفهاني، كتاب الإمامة والرد على الرافضة، ص٢٦١ت د. علي الفقيهي، ط١، ١٤٠٧، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة.

عن أبي بكر في مدة حياة فاطمة؛ لشغله بها، وتمريضها، وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ، وقال المازري: العذر لعلي في تخلفه، مع ما اعتذر به، أنه يكفي في بيعة الإمام أن يقوم من أهل الحل، والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده، ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته، والانقياد له؛ بأن لا يخالفه، ولا يشق العصا عليه، وهذا كان حال علي؛ لم يقع منه إلا التأخر عن الحضور عند أبي بكر(١).

لقد سقنا هذا الحديث، وما قيل حوله؛ لنخرج بالنتيجة التالية؛ وهي أن عليًا رضي الله عنه كان راضيًا تمام الرضا بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فبايعه، وكان في طاعته، ومحبته، ولم يُؤْثر عنه أنه طلب الإمامة لنفسه، أو أن أحدًا من الصحابة خالف أبا بكر، أو أنه زعم أن أبا بكر اغتصب حقًّا لعلي رضي الله عنه، أو لغيره، فمضت خلافة الصديق على الاجتماع، والألفة، ولله الحمد.

وكان موقفه رضي الله عنه من عمر بن الخطاب، وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ موقف السمع والطاعة حتى استشهد، وقد أورد ابن عساكر ـ رحمه الله ـ هذا النص الهام، الذي يوضح أن عليًا رضي الله عنه ما كان يري أن النبي ﷺ قد أوصى له بشيء؛ حيث روى الحسن البصري، فقال: «لما قدم علي البصرة في إثر طلحة وأصحابه، قام عبدالله بن الكواء، وابن عباد، فقالا: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرك هذا، أَوَصِيَّةٌ أوصاك بها رسول الله ﷺ، أم عهد عهده إليك، أم رأي رأيته حين تفرقت الأمة، واختلفت كلمتها؟ فقال: ما أكون أول كاذب عليه، وفي رواية: ولا، والله، إن كنت أول من صدَّق به، فلا أكون أول من كذب عليه، والله، ما مات رسول الله ﷺ موت فجاءة، ولا قتل قتلًا، ولو كان عندي من النبي ﷺ في ذلك عهد ما تركت أخا تيم بن مرة، وعمر بن الخطاب، يقومان على منبره، ولقاتلتهما بيدي، ولو لم أجد إلا بردي هذا، قال: ولقد مكث في مرضه كل ذلك، يأتيه المؤذن، فيؤذنه بالصلاة، فيقول مروا أبا بكر ليصلي

(١) ابن حجر: فتح الباري ـ ج٧، ص٤٩٤ـ بتصرف، وانظر بتوسع المحب، الطبري ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج١، ص٢٤٤، ط١ـ١٤٠٥ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

بالناس، ولقد تركني، وهو (يرى مكاني)، ولو عهد إلي شيئًا لقمت به، حتى عرضت في ذلك امرأة من نسائه، فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس، فقال لها: إنكن صواحب يوسف، فلما قُبِضَ رسول الله ﷺ، نظر المسلمون في أمرهم، فإذا رسول الله ﷺ قد وَلّى أبا بكر أمر دينهم، فولوه أمر دنياهم، فبايعه المسلمون، وبايعْتُهُ معهم، فكنت أغزو إذا أغزاني، وآخذ إذا أعطاني، وكنت سوطًا بين يديه في إقامة الحدود، فلو كانت محاباة عند حضور موته لجعلها في ولده، فأشار بعمر، ولم يألُ، فبايعه المسلمون، وبايعته معهم، فكنت أغزو إذا أغزاني، وآخذ إذا أعطاني، وكنت سوطًا بين يديه في إقامة الحدود، فلو كانت محاباة عند حضور موته لجعلها في ولده فأشار بعمر ولم يأل وكَرِهَ أن ينتخب منا، معشر قريش ، رجلًا، فيوليه أمر الأمة، فلا يكون فيه إساءة لمن بعده، إلا لحقت عمر في قبره، فاختار منا ستة، أنا فيهم، لنختار للأمة رجلًا منا، فلما اجتمعنا، وثب عبدالرحمن بن عوف، فوهب لنا نصيبه منها، على أن نعطيه مواثيقنا، فأخذ بيد عثمان فبايعه، ولقد عرض في نفسي ذلك، فلما نظرت في أمري، فإذا عهدي قد سبق بيعتي، فبايعت، وسلمت فكنت أغزو إذا أغزاني، وآخذ إذا أعطاني»[1].

وكان رضي الله عنه يقول: «والله، ما عهد إلي رسول الله ﷺ عهدًا، إلا شيئًا عهده إلى الناس، ولكن الناس وقعوا في عثمان، فقتلوه، فكان غيري فيه أسوأ حالًا، وفعلًا مني»[2].

وكان، وهو على فراش موته، يمتدح خلافة أبي بكر الصديق، فعن صعصعة بن صوحان، قال: «لما ضُرِبَ عليٌّ أتيناه، فقلنا: استخلف، قال: إن يرد الله بكم خيرًا استعمل عليكم خيركم؛ كما أراد بنا خيرًا، واستعمل علينا أبا بكر»[3].

---

(١) ابن عساكر ـ المختصر، ج١٨، ص٤١-٤٢، والذهبي ـ تاريخ الإسلام ـ عهد الراشدين، ج١، ص٦٤٠، والسيوطي ـ تاريخ الإسلام، ص١٩٧.

(٢) الذهبي ـ تاريخ الاسلام، جـ١، ص٦٣٩.

(٣) المصدر السابق ـ الذهبي، ج١، ص٦٤٦.

وعندما طُعِنَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان علي من أشد الناس حزنًا عليه؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «وُضِعَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على سريره، فتكنفه الناس، يدعون، ويثنون، ويُصَلُّون عليه، قبل أن يُرْفَعَ، وأنا فيهم، قال: فلم يرُعْني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه، فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك؛ وذاك أني كنت أكثر ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر، وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر، وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر، وعمر، فإذا كنت لأرجو، أو لأظن، أن يجعلك الله معهما»[1].

وعندما حُوصِرَ عثمان رضي الله عنه، «وبلغ عليًا أن عثمان يُرَادُ قتله، قال للحسن وللحسين: اذهبا بسيفيكما، حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحدًا يصل إليه، حتى أن الحسن ضُرِبَ بسهم، حتى تخضب بالدماء، فما كان من البغاه الخارجين إلا أنهم تسوروا، حتى دخلوا عليه بيته من فوقه، فلما قُتِلَ عثمان رضي الله عنه، وبلغ الخبر عليًا، وطلحة، والزبير، وسعدًا، ومن كان بالمدينة، فخرجوا، وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم، حتى دخلوا على عثمان، فوجدوه مقتولا، فاسترجعوا، فقال علي لابنيه: كيف قُتِلَ أمير المؤمنين، وأنتما على الباب، ورفع يده فلطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة، وعبدالله بن الزبير، وخرج وهو غضبان، حتى أتى منزله، وجاء الناس يُهْرَعُونَ إليه، فقالوا له نبايعك؛ فَمُدَّ يدك؛ فلا بد من أمير، فقال علي: ليس ذلك إليكم، إنما ذلك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر، فهو خليفة، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليًا؛ فقالوا: ما نرى أحدًا أحق بها منك، مُدَّ يدك نبايعك، فبايعوه»[2].

وروى عمر بن شبة (ت ٢٦٢)، عن محمد بن يحيى، قال: حدثني بعض أصحابنا

(١) مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل عمر رقم ٢٣٨٩/ المختصر، ج٢، ص٣١٣.

(٢) ابن عساكر ـ المختصر، ج١٦، ص٢٣٢، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٧٨، ابن حجر الهيثمي ـ الصواعق المحرقة، ص١٨١-١٨٢، بتصرف.

قالوا: «جاء قوم يطلبون عليًا، بعد قتل عثمان رضي الله عنه، فلم يجدوه، فسألوا الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: أين أمير المؤمنين؟ قال: في حش كوكب[(١)]، رَحْمَةُ الله عليه ـ يعني عثمان رضي الله عنه »[(٢)]، وروي ـ أيضًا ـ أن الحسن بن علي رضي الله عنه رد على رجل يسأله فقال: ألا إنهم يزعمون أن عليًا قتله ـ أي عثمان رضي الله عنه، فقال: قَتَلَهُ من قَتَلَهُ، لعن الله قَتَلَةَ عثمان، ثم قال علي: أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير، كما قال الله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾، [الحجر: ٤٧][(٣)].

لقد كانت علاقة علي رضي الله عنه بالخلفاء الثلاثة كما وصف هو علاقة محبة، ومودة، وسمع، وطاعة، ولم يكن إلا أزهد الناس في تولي الخلافة وتبعاتها، ولو كان لديه نص فيها، كما زعم المبطلون، لأخذها، ولكنها تُرَّهات نُسِجَتْ في الخفاء؛ كما سنبين ثم لو كانت الخلافة بالنص لعلي لما قال له الحسن ابنه لا تأخذها، ورد عليه علي رضي الله عنه يبين سبب قبوله، وهذه النصوص توضح ذلك؛ فقد قال لأبيه، وهو سائر إلى حرب الجمل: «يا أبت، أشرت عليك حين قُتِلَ عثمان، وراح الناس إليك وغدوا، وسألوك أن تقوم بهذا الأمر، ألَّا تقبله، حتى تأتيك طاعة جميع الناس في الآفاق، وأشرت عليك حين بلغك خروج الزبير، وطلحة، بعائشة إلى البصرة، أن ترجع إلى المدينة فتقيم في بيتك، وأشرت عليك حين حُوصِرَ عثمان أن تخرج من المدينة، فإن قُتِلَ قُتِلَ وأنت غائب، فلم تقبل رأيي في شيء من ذلك، فقال له علي: أما انتظاري طاعة جميع الناس من جميع الآفاق، فإن البيعة لا تكون إلا ممن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار، فإذا رضوا وسلموا، وجب على جميع الناس الرضا والتسليم، وأما رجوعي إلى بيتي، والجلوس فيه، فإن رجوعي، لو رجعت، كان غدرًا بالأمة، ولم آمن أن تقع الفرقة، وتتصدع عصا هذه الأمة، وأما خروجي حين حُوصِرَ عثمان، فكيف أمكنني ذلك، وقد كان الناس أحاطوا بي كما أحاطوا بعثمان؛ فاكفف يا بني عما أنا أعلم به

(١) هو المكان الذي دفن فيه عثمان رضي الله عنه.

(٢)، (٣) عمر بن شبة ـ تاريخ المدينة المنورة، ج٣، ص١١٣١ ـ ١١٣٢ ـ ت فهيم محمد شلتوت ـ بدون تاريخ.

منك»[١].

وفي رواية لابن عساكر عن ابن عباس قال: «خرجنا مع علي إلى الجمل، ست مئة رجل، فسلكنا الربذة، فنزلناها، فقام إليه ابنه الحسن بن علي يبكي بين يديه، وقال: ائذن لي فأتكلم، فقال علي: تكلم، ودع عنك أن تخن خنين الجارية، فقال الحسن: إني كنت أشرت عليك بالمقام، وأنا أشير به عليك الآن، إن للعرب جولة، ولقد رجعت إليها عوازب أحلامها، قد ضربت إليك آباط الإبل حتى يستخرجوك، ولو كنت في مثل جحر الضب»[٢].

وقد عد الإمام علي رضي الله عنه الأمر قدرًا وابتلاءً؛ حيث قال ردًّا على الحسن رضي الله عنه: «الحمد لله الذي يبتلي من يشاء، بما يشاء، ويعافي من يشاء، أما، والله، لقد ضربت هذا الأمر ظهرًا لبطن، أو ذنبًا ورأسًا، فوالله، إنْ وجدت له إلا القتال أو الكفر بالله، يحلف بالله عليه: اجلس، يا بني، ولا تخن خنين الجارية»[٣].

إن هذه الروايات تبين الواقع الصحيح الذي كان يعيشه المسلمون، عندما ادلهمت عليهم خطوب الفتنة، وهذا الواقع يبين، بوضوح تام، أن عليًّا، وأبنائه ـ رضوان الله عليهم ـ، كغيرهم من جمهور الصحابة، في حياتهم، وفي خلافتهم، وتوليهم لأمور الأمة، لم يكونوا معصومين، ولا مميزين عن الناس، إلا بتقواهم وإيمانهم.

أما مواقف أحفاد علي رضي الله عنه من بعده، فقد اجْتَهَدْتُ في الحصول عليها من تراجمهم، والتي كانت عناية ابن عساكر بها أكبر من غيره، فقد أتى على أغلب الأقوال المنسوبة إليهم، وهي تعبر عن صفاء عقيدتهم، وأنهم من خيرة علماء السلف، الذين يفتخر بهم أهل السنة والجماعة؛ فهذه الأقوال المنسوبة إليهم تعبر عن عمق فهمهم، والتزامهم بمنهج السلف، وتبين كذلك بطلان كل المزاعم الكاذبة التي ألصقها

(١) الدينوري ـ الأخبار الطوال، ص١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) ابن عساكر المختصر ـ ج١٨، ص٤٧.

(٣) المصدر السابق، ج١٨، ص٤٧.

الشيعة بهم، والتي ألفوها عليهم، فيما بعد؛ كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فيقول: «الكذب على هؤلاء في الرافضة أعظم الأمور، لا سيما على جعفر الصادق؛ فإنه ما كُذِبَ على أحد ما كُذِبَ عليه، حتى نسبوا إليه كتاب «الجفر»، و«البطاقة»، و«الهفت»، و«اختلاج الأعضاء»، و«جدول الهلال»، و«أحكام الرعود والبروق»، فهذه المصنفات إنما صُنِّفَتْ بعد موت جعفر بن محمد بنحو مئتي سنة؛ فإن جعفر بن محمد توفي سنة ثمان وأربعين ومئة، وهذه وُضِعَت في أثناء المئة الرابعة، لَمَّا ظهرت الدولة العبيدية، وبنوا القاهرة بمصر، فصنفت على مذهب أولئك الإسماعيلية؛ كما يدل على ذلك ما فيها»[1].

وسوف نقدم هذه الأقوال الهامة، التي تظهر لأول مرة، فيما أعلم، بهذه الكثرة، وبهذا الشمول، الذي تَرُدُّ فيه على معظم مزاعم الشيعة الباطلة، ومن المعلوم أن ابن سبإٍ توجه إلى القول بالوصية، والطعن على خير هذه الأمة؛ أبي بكر الصديق، وعمر - رضي الله عنهما -، وجمهور الصحابة الكرام، وكانت هذه المطاعن تهدف إلى إشاعة الكراهية لمن حملوا هذا الدين، وأسسوا بنيانه مع رسول الله ﷺ.

وقد كانت حركة الطعن على هؤلاء الأبرار نشطة، ولا تهدأ، وهذا ما سنلمحه من تساؤلات هؤلاء الذين غررت بهم السبئية، وجاءوا يسألون عن صحة هذه المزاعم الباطلة.

وقد سبق أن ذكرنا مواقف علي رضي الله عنه من أبي بكر، وعمر، وسنذكر الآن جملة من هذه الردود والمواقف.

تولي أبي بكر، وعمر، وجمهور الصحابة - رضوان الله عليهم -، وهذا القول رد على الشيعة، الذين أسسوا كراهية الصحابة في نفوس أتباعهم؛ بأحداث اخترعوها، وزَعْمٍ باطل زعموه حول اغتصاب الخلافة من علي رضي الله عنه، فجعلوا هذا الكذب أساسًا مستمرًا للعداء القائم بينهم وبين أهل السنة والجماعة، ولكن سيرة أبناء علي، وأبناء

---

(١) ابن تيمية - منهاج السنة النبوية، ج٢، ص٤٦٤ - ٤٦٥ بتصرف.

أبنائه، تبطل هذا الزعم الباطل؛ فقد كان علي بن الحسين (ت ٥٩٣) ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، يوقر الشيخين توقيرًا كبيرًا؛ فعن أبي حازم قال: «ما رأيت هاشميًّا أفقه من علي بن الحسين؛ سمعته وهو يُسْأَلُ: كيف منزلة أبي بكر، وعمر، عند رسول الله ﷺ؟ فأشار بيده إلى القبر، ثم قال: منزلتهما منه الساعة، هما ضجيعاه»(١)، وروى محمد بن علي بن الحسين (ت ١١٤) قال: «جاء رجل إلى أبي ـ يعني علي بن الحسين ـ فقال: أخبرني عن أبي بكر، قال: عن الصِّدِّيق تسأل؟ قال: قلت ـ رحمك الله ـ، وتسميه الصديق؟ قال: ثكلتك أمك، قد سمَّاه صِدِّيقًا من هو خير مني ومنك؛ رسول الله ﷺ، والمهاجرون، والأنصار، فمن لم يسمه صِدِّيقًا، فلا صَدَّق الله قوله في الدنيا ولا في الآخرة، اذهب فأحب أبا بكر، وعمر، وتولهما، فما كان من إثم ففي عنقي»(٢).

وكان الحسن بن محمد بن الحنفية (ت ٩٨هـ) يقول: «من كان سألنا عن أمرنا ورأينا، فإنا قوم نقول: الله ـ عز وجل ـ ربنا، والإسلام ديننا، ومحمد ﷺ نبينا، والقرآن إمامنا، وهو حجتنا، نرضى من أئمتنا بأبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، نرضى أن يطاعا، ونسخط أن يغضبا، نوالي وليهما، ونعادي عدوهما»(٣).

وكان من مسالك علماء السلف مناقشة هؤلاء المغرَّر بهم؛ فقد روى ابن عساكر أن علي بن الحسين قدم عليه قوم من أهل العراق، قال: «فجلسوا إليَّ، فذكروا أبا بكر، وعمر، فمسوا منهما، ثم ابتركوا في عثمان ابتراكًا (أي شتموه) رضي الله عنه، قال فقلت لهم: أخبروني: «أنتم من المهاجرين الأولين الذين قال الله ـ عز وجل ـ فيهم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؟ [الحشر: ٨]، قالوا: لسنا منهم، قلت: وأنتم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(١) ابن عساكر ـ ج١٧، ص٢٤١، والذهبي سير أعلام، ج٤، ص٣٩٥.

(٢) ابن عساكر ـ ج١٧، ص٢٤١، والذهبي سير أعلام، ج٤، ص٣٩٥.

(٣) ضياء الدين المقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب، ص٧٤، ت محيي الدين نجيب، والشيخ عبدالقادر الأرناؤوط، ط١ سنة١٤١٣ ـ دار العروبة ـ الكويت.

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؟ [الحشر: ٩]، قالوا: لسنا منهم، قال لهم: أما أنتم فقد تبرأتم من الفريقين أن تكونوا منهم، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة، الذين قال الله ـ عز وجل ـ فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، [الحشر: ١٠]، قوموا عني، لا قرَّب الله دوركم! فإنكم متسترون بالإسلام، ولستم من أهله»(١).

إن هذه الحادثة تبين لنا أن هناك حركة منظمة عاكفة على تأصيل كراهية الصحابة في نفوس هؤلاء الغوغاء الحاقدين، الذين غفلوا تمامًا عن هذه النصوص التي بينها هذا العالم الرباني عند رده عليهم، وقد كان هؤلاء الجهلة المارقون يتوهمون أنهم، بكراهيتهم وسبهم لكبار الصحابة، يكسبون مودة، وقربة من آل البيت، وغاب عن أذهانهم أن آل البيت هم أولى الناس بالدفاع عن هذا الدين، ورد الأفكار الباطلة الزائفة؛ ولذلك رد عليهم ـ رحمه الله ـ هذا الرد، ووصمهم بأنهم متسترون بهذا الدين، وليسوا من أهله.

وقال عروة بن عبدالله: «سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر: ما قولك في حلية السيف؟ قال: لا بأس به، قد حلى أبو بكر الصِّدِّيق سيفه، قلت: وتقول: «الصِّدِّيق»، قال: فوثب وثبة استقبل القبلة، ثم قال: نعم «الصِّدِّيق»، نعم «الصِّدِّيق» (ثلاثًا)، فمن لم يَقُل «الصِّدِّيق»، فلا صَدَّق الله قوله في الدنيا والآخرة، وفي رواية أنه قال: كانت قائمة سيف أمير المؤمنين عمر فضة، قلت: «أمير المؤمنين»؟ قال: نعم»(٢).

وكان من عظيم فقههم أنهم يرون أن البراءة من الشيخين هي براءة من علي رضي الله عنه، فقد قال زيد بن علي ـ رحمه الله ـ لهاشم بن البريد: «يا هاشم، اعلم، والله، أن البراءة من أبي بكر،

(١) ابن عساكر، ج١٧، ص٢٤١ـ والذهبي، سير، ج٤، ص٣٩٥، والمقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب، ص٧٠.

(٢) ابن عساكر، ج٢٣ـ ص٨١، والذهبي ـ سير، ج٤، ص٤٠٨.

وعمر، البراءة من علي ـ رضي الله عنهم ـ، فان شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر»[١].

ونقل عن محمد بن علي ـ رحمه الله ـ الإجماع على توليهما؛ فقال: «أجمع بنو فاطمة على أن يقولوا في أبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، أحسن ما يكون من القول»[٢].

وسئل محمد بن علي: «أكان منكم أحد ـ أهل البيت ـ يسب أبا بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ؟ قال: لا، فَأَحِبَّهُمَا، وتولَّهما، واستغفر لهما، ثم قال: أيسب الرجل جده؟ أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة، إن لم أكن أتولاهما، وأبرأ من عدوهما، وكانت أم جعفر بن محمد أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه»[٣].

وكانوا يرون أن الذي يستحل سب الشيخين حلال قتله؛ فعن جابر قال: «قال لي محمد بن علي: إن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا، ويتناولون أبا بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، ويزعمون أني آمرهم بذلك، فأبلغهم أني إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده، (لو وليت، لتقربت إلى الله بدمائهم)، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما، وأترحم عليهما، إن أعداء الله ـ عز وجل ـ لغافلون عنهما»[٤].

وكانوا يسمون سابيهم المُرَّاقَ، ويعتبرون ذلك من الكبائر؛ فعن حكيم بن حبير قال: «سألت أبا جعفر محمد بن علي عمن ينتقص أبا بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فقال: أولئك المُرَّاق، وأوصى ابنه جعفر الصادق، فقال له: يا بني، إن سب أبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، من الكبائر، فلا تُصَلِّ خلف من يقع فيهما»[٥].

(١) المقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب، ص٧٥.

(٢) ابن عساكر، ج٢٣، ص٨١، وسير أعلام، ج٤، ص٤٠٦.

(٣) ابن عساكر، ج٢٣، ص٨١، وسير أعلام، ج٤، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٤) المقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب، ص٧٥، وابن عساكر، ج٢٣، ص٨٢.

(٥) ابن عساكر، ج٢٣، ص٨٢.

بطلان القول بالوصية:

وكان لعلماء السلف من آل البيت الفضل في إبطال مزاعم الشيعة حول الوصية، وأن أبا بكر، وعمر، قد اغتصبا حق علي ﷺ، كما رَوَّجَهُ المبطلون، فقد روى كثير النواء، قال: «قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: أي جعلني الله فداك: إن الناس يقولون: إن أبا بكر، وعمر ظلماكم، وذهبا بحقكم، فقال: لا، والذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، ما ظلمانا، ولا ذهبا من حقنا ما يزن حبة خردل، قلت: أي، جعلني الله فداك، أما تولاهما؟ فضرب يده على عاتقي، وقال لي: ويحك يا كثير! تولهما في الدنيا والآخرة، فما أصابك ففي عنقي، برئ الله ورسوله ممن كذب علينا، أهل البيت ـ يعني المغيرة بن فلان الساحر، وبيان ـ، إنما كَذِبَا علينا، وقال: كان علي بالكوفة خمس سنين، فما قال لهما إلا خيرًا، ولا قال أبي إلا خيرًا، ولا أقول إلا خيرًا»[(١)].

وقدم إليه رجل من أهل العراق، قال: «أتيته، فسلمت عليه، فقعدت إليه، فقال: لا تقعد إلينا، يا أخا العراق، فإنكم قد نُهِيتُمْ عن القعود إلينا، قال: فقعدت، فقلت: يرحمك الله! هل شهد عليٌّ موت عمر؟ فقال: سبحان الله! أوليس القائل: ما أحد من الناس ألقى الله ـ عز وجل ـ بمثل عمله أحب إلي من هذا المسجى عليه ثوبه؟[(٢)]، ثم زوجه ابنته، فلولا أنه رآه أهلًا أكان يزوجها إياه، وتدرون من كانت ـ لا أبا لك اليوم ـ؟ كانت أشرف نساء العالمين، كان جدها رسول الله ﷺ، وأبوها علي ﷺ، ذو الشرف، والمنقبة في الإسلام، وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وجدتها خديجة ـ رضي الله عنها ـ، قلت: فإن قومًا عندنا يزعمون أنك تتبرأ منهما، وتنتقصهما، فلو كتبت إليهم كتابًا بالانتهاء عن ذلك، قال: أنت أقرب إلي منهم، أمرتك أن لا تجلس إلي، فلم تطعني؛ فكيف يطيعني أولئك؟»[(٣)].

---

(١) ابن عساكر، ج٢٣، ص٨٣، والمقدسي ـ النهي، ص٧٧.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في المبحث السابق.

(٣) ابن عساكر ـ المختصر، ج٢٣، ص٨٣.

وسُئِلَ ـ رحمه الله ـ عن آية، **فعممها على جميع الصحابة**؛ حيث قال عبدالملك بن أبي سليمان: «قلت لمحمد بن علي: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، [المائدة: ٥٥]، قال: هم أصحاب النبي ﷺ، قال: قلت: فإنهم يقولون هو علي، قال: علي منهم»[(١)].

أما جعفر الصادق الذي يَنْسب إليه الشيعة الكثير من مبتدعاتهم، وهو بريء منها، «فقد وُلِدَ سنة ثمانين للهجرة، ورأى بعض الصحابة، أحسبه رأى أنس بن مالك، وسهل بن سعد، وكان يغضب من الرافضة، ويمقتهم، إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر، ظاهرًا وباطنًا»[(٢)]، فهو بهذا قد عاش أكثر من خمسين سنة من عمره في العصر الأموي؛ إذ توفي سنة ثمان وأربعين ومئة، وقد عاصر الأحداث الهامة، وخبر الغلاة، وعلم مقاصدهم الهدامة، وقد سار على منهج من سبقه من آل البيت؛ في اتباع عقيدة السلف، ورفض كل مبتدعات الشيعة، وغيرهم من فرق الابتداع، وكان يتولى الشيخين، ويثني عليهما، خلافًا لأكاذيب الشيعة؛ فقد روى زهير بن معاوية قال: «قال أبي لجعفر بن محمد: إن لي جارًا يزعم أنك تبرأ من أبي بكر، وعمر، فقال جعفر: برئَ الله من جارك، والله، إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر، ولقد اشتكيت شكاية، فأوصيت إلى خالي عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر»[(٣)].

وكان يقول: «كان آل أبي بكر يُدْعَوْنَ على عهد رسول الله ﷺ آل رسول الله ﷺ»[(٤)]، وعن سالم بن حفصة قال: «سألت أبا جعفر، وابنه جعفرًا، عن أبي بكر وعمر، فقال: يا سالم تولهما، وابرأ من عدوهما؛ فإنهما كانا إمامي هدى، ثم قال جعفر: يا سالم،

---

(١) ابن عساكر، ج٢٣، ص٨٤.
(٢) الذهبي ـ سير أعلام، ج٦، ص٢٥٥.
(٣) ابن عساكر، ج٦، ص٢٥٨ـ والذهبي ـ سير أعلام، ج٦، ص٢٥٨.
(٤) الذهبي ـ سير أعلام، ج٦، ص٢٥٨.

أيسب الرجل جده؟ أبو بكر جدي، لقد ولدني مرتين»[١].

● ونادى في مُلَاءٍ كبير، وقال لقوم ذاهبين إلى العراق: «إنكم، إن شاء الله، من صالحي أهل مصركم، فأبلغوهم عني: من زعم أني إمام معصوم مفترض الطاعة، فأنا منه بريء، ومن زعم أني أبرأ من أبي بكر، وعمر، فأنا منه بريء»[٢]، فلم يكن أحد من آل البيت يرى أنه معصوم، أو أن لديه **علمًا خاصًا**، وعندما تسربت مثل هذه الأكاذيب عنهم قاموا بنفيها، والتشنيع على مُرَوِّجِيهَا، فهم كانوا يجالسون العلماء، ويأخذون عنهم، ولم يستغنِ أحد منهم عن ذلك؛ فهذا علي بن الحسين ـ رحمه الله ـ كان «يجالس زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، فقال له رجل من قريش: تَدَعُ قريشًا، وتجالس عبد بني عدي، فقال علي: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع»[٣]، وطلب مرةً من مسعود بن مالك أن يجمعه بسعيد بن جبير، وقال له: «ما حاجتك إليه؟ قال: أشياء أريد أن أساله عنها، إن الناس يأتوننا بما ليس عندنا»[٤]، وكان يسأل مسعود بن مالك: «ما فعل سعيد بن جبير؟ قال: قلت: صالح، قال: ذاك رجل كان يمر بنا، فنسائله عن الفرائض، أشياء مما ينفعنا الله بها، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، وأشار بيده إلى العراق»[٥].

وكانوا ينفون أنهم **مفترضة طاعتهم على الأمة**، كما يزعمُ السبئيون؛ فقد روى ابن سعد، قال: «أخبرنا شبابة بن سوار، قال: أخبرنا فضيل بن مرزوق، قال: سألت عمر بن علي، وحسين بن علي، عمي جعفر، قلت: هل فيكم أهل البيت إنسان مفترضة طاعته، تعرفون له ذلك، ومن لم يَعْرِفْ له ذلك، فمات، مات ميتة جاهلية؟

---

(١) سير أعلام، ج٦، ص٢٥٩ـ عبدالله بن أحمد ـ السنة، ج٢، ص٥٥٨ـ والذهبي ـ تاريخ الإسلام، حوادث، ١٤١، ص٩٠.

(٢) سير أعلام، ج٦، ص٢٥٩ـ عبدالله بن أحمد ـ السنة، ج٢، ص٥٥٨ـ والذهبي ـ تاريخ الإسلام، حوادث،١٤١، ص٩٠.

(٣) ، (٤) ابن عساكر، ج١٧، ص٢٣٣.

(٥) ابن عساكر، ج١٧، ص٢٣٣.

فقالا: لا، والله، ما هذا فينا، ومن قال هذا فينا فهو كذَّاب، قال: فقلت لعمر بن علي: رحمك الله! إن هذه منزلة تزعمون أنها كانت لعلي أن النبي ﷺ أوصى إليه، ثم كانت للحسن أن عليًّا أوصى إليه، ثم كانت للحسين أن الحسن أوصى إليه، ثم كانت لعلي بن الحسين أن الحسين أوصى إليه، ثم كانت لمحمد بن علي أن عليًّا أوصى إليه، فقال: والله لمات أبي فما أوصى بحرفين، قاتلهم الله! والله إنْ هؤلاء إلا متأكلون بنا، قال: قلت: هذا خنيس الخرؤ، قال: ما خنيس الخرؤ؟ قال: قلت المعلى بن خنيس، قال: نعم المعلى بن خنيس، والله لفكرت طويلًا، أتعجب من قوم، لبَّس الله عقولهم، حتى أضلهم المعلى بن خنيس»[1].

وكان علي بن الحسين يتبرأ من المختار، ويلعنه، عندما ثبت ما نُسِبَ إليه من الأكاذيب، والأباطيل؛ «فقد وقف ـ رحمه الله ـ على باب الكعبة، يلعن المختار، فقال له رجل: يا أبا الحسين، لِمَ تَسُبُّهُ، وإنما ذُبِحَ فِيكُمْ، قال: إنه كان كذَّابًا، يكذب على الله ورسوله»[2].

وكانوا ينفون **القول بالرجعة** التي روجها غلاة الشيعة؛ فقد سأله جابر الجعفي، «فقال: قلت لمحمد بن علي: أكان منكم أحد، أهل البيت، يزعم أن ذنبًا من الذنوب شرك؟ قال: لا، قلت: أكان منكم، أهل البيت، أحد يقر بالرجعة، قال: لا، قلت: أكان منكم، أهل البيت أحد يسب أبا بكر، وعمر، قال: لا؛ فأحبهما، وتولاهما، واستغفر لهما»[3].

وكان أهل البيت ينفون عن أنفسهم العمل بالتقية، التي اخترعها الشيعة؛ فقد سئل محمد الباقر عن الصلاة خلف ولاة بني أمية فقال للسائل: «صلِّ خلفهم؛ فإنا

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات، ج٥، ص٢٤٩، وقد ذكر هذا النص ابن عساكر، ج١٧، ص٢٤٢، والمعلى بن خنيس من الشخصيات الغامضة وقد أتى ابن حجر على ترجمته وقال أنه من كبار الرافضة وأتى بالنص السابق فقط، انظر لسان الميزان، ج٦، ص٧٥.

(٢) ابن عساكر، ج١٧، ص٢٤٣ـ والذهبي سير أعلام، ج٤، ص٣٩٧.

(٣) ابن سعد ـ الطبقات، ج٥، ص٢٤٦، وابن عساكر، ج٢٣، ص٨١.

نصلي خلفهم، قال: قلت: يا أبا جعفر، إن ناسًا يزعمون أن هذا منك تقية، قال: قد كان الحسن والحسين يصليان خلف مروان، يبتدران الصف، وإن كان الحسين ليسبه، وهو على المنبر حتى ينزل، أفتقية هذه»(١).

وكان الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يتوعد الرافضة بالقتل لو أمكنه الله منهم؛ حيث قال: «والله، لئن أمكننا الله منكم، لنقطعن أيديكم، وأرجلكم، ثم لا نقبل منكم توبة، فقال له رجل: لم لا تقبل منهم توبة؟ قال: نحن أعلم بهؤلاء منكم، إن هؤلاء إن شاءوا صدقوكم، وإن شاءوا كذبوكم، وزعموا أن ذلك يستقيم لهم في التقية، ويلك! إن التقية إنما هي باب رخصة للمسلم، إذا اضطر إليها، وخاف من ذي سلطان، أعطاه غير ما في نفسه، يدرأ عن ذمة الله ـ عز وجل ـ، وليس بباب فضل، إنما الفضل في القيام بأمر الله، وقول الحق، وايم الله، ما بلغ من أمر التقية أن يُجْعَلَ بها لعبد من عباد الله أن يضل عباد الله»(٢).

نص جامع بإبطال عقائد الشيعة

ويبطل الحسن بن الحسن كل عقائد الشيعة الباطلة حول آل البيت؛ حيث يقول لأحد الغلاة: «ويحكم! أحبونا لله ـ عز وجل ـ، فإن أطعنا الله، فأحبونا، وإن عصينا الله، فأبغضونا، قال: فقال له الرجل: أنتم ذوو قرابة من رسول الله ﷺ، وأهل بيته، فقال: ويحكم! لو كان الله نافعًا بقرابة من رسوله، بغير عمل بطاعته، لنفع بذلك من هو أقرب إليه منا: أباه، وأمه، والله، إني لأخاف أن يُضَاعَفَ للعاصي منا العذاب ضعفين، والله إني لأرجو أن يؤتى المحسن منا أجره مرتين، ويلكم! اتقوا الله، وقولوا فينا الحق؛ فإنه أبلغ فيما تريدون، ونحن نرضى به منكم، ثم قال: لقد أساء بنا آباؤنا وأمهاتنا إن كان ما تقولون في دين الله حقًّا، ثم لم يخبرونا به، ولم يطلعونا عليه، ولم يرغبونا فيه، فنحن، والله، كنا أقرب منهم قرابة منكم، وأوجب عليهم حقًّا، وأحق أن

(١) ابن عساكر، ج٢٣، ص٨٤، والذهبي، سير أعلام، ج٤، ص٤٠٧.

(٢) ابن عساكر، ج٦، ص٣٣٢.

يُرَغِّبُونَا فيه منكم، ولو كان الأمر كما تزعمون، وأن الله ورسوله اختار عليًّا لهذا الأمر، وللقيام على الناس بعده، إن كان أعظم الناس في ذلك خطيئة وجرمًا؛ إذ ترك أمر رسول الله ﷺ أن يقوم فيه كما أمره، أو يعذل فيه إلى الناس، قال: فقال له الرافضي: ألم يقل رسول الله ﷺ لعلي: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[1]، قال: أما، والله، أن لو عَنَى رسول الله ﷺ بذلك الإمارة والسلطان، والقيام على الناس، لأفصح لهم بذلك؛ كما أفصح لهم بالصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت، ولقال لهم: أيها الناس، إن هذا ولي أمركم من بعدي، فاسمعوا له، وأطيعوا، فإن أنصح الناس كان للمسلمين رسول الله ﷺ»[2]، وقال عبدالله بن الحسن بن علي، صاحب القول السابق لحفص بن قيس، عندما سأله عن المسح على الخفين: فقال له: «امسح، فقد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال فقلت: إنما أسألك: أنت تمسح؟ قال: ذاك أعجز لك، أخبرك عن عمر، وتسألني عن رأيي، فعمر كان خيرًا مني، ومن ملء الأرض، فقلت: يا أبا محمد، فإن ناسًا يزعمون أن هذا منكم تقية؟ قال: فقال لي ونحن بين القبر والمنبر: اللهم، إن هذا قولي، في السر والعلانية، فلا تسمعن عليَّ قول أحد بعدي، ثم قال: من هذا الذي يزعم أن عليًا رضي الله عنه كان مقهورًا، وأن رسول الله ﷺ أمره بأمر ولم ينفذه؟ وكفى إزراءً على علي ومنقصة أن يُزْعَمَ أن رسول الله ﷺ أمره بأمر، ولم ينفذه»[3].

إن هذه المناقشات الحادة، بين علماء السلف، من أهل البيت، مع الشيعة، تبين لنا خطورة هذه المبادئ الهدامة، التي كان ينشرها الشيعة حولهم، وتبين لنا معتقدهم الحق الذي كانوا يعتقدونه؛ وهو عقيدة السلف، وتبين لنا أن الشيعة كانت عاكفة في أماكن

---

(١) انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٤، ص٣٣٠.

(٢) ابن سعد ـ الطبقات، ج٥، ص٢٤٥، والمقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب، ص٧٨، وابن عساكر، ج٦، ص٣٣٢.

(٣) المقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب، ص٨٠، وانظر ترجمته في ابن سعد ـ الطبقات، ج٥، ص٣٨٥.

بعيدة، تؤسس هذه العقائد، وتصل إلى أسماع أهل البيت، ويأتي الناس من العراق، وفارس؛ ليسألوا عن هذه الأقوال، فكانت هذه الردود التي تتبرأ منها خير رد منهم، وأعظم دليل على بطلانها.

ومما يلاحظ أن عقائد الشيعة تعرضت للازدراء والاحتقار؛ لبعدها عن منهج الحق؛ فلذلك وردت بعض النصوص عن الإمام الشعبي ـ رحمه الله ـ يذم فيها الشيعة ذمًّا شديدًا، ويبين تهافت دعواهم، واعتمادهم على الكذب في جلب نصوص موضوعة؛ لتعزيز بدعتهم الضالة؛ حيث كان يقول: «لو كانت الشيعة من الطير لكانوا رخمًا، ونظرت في هذه الأهواء، وكلمت أهلها، فلم أر قومًا أقل عقولًا من الخشبية»[(١)]، وكان يقول: «لقد غلت هذه الشيعة في علي ﷺ، كما غلت النصارى في عيسى بن مريم»[(٢)]، وقال: «لو شئت أن يملأ بيتي هذا ورقًا (مالًا)، على أن أكذب لهم على علي ﷺ، والله، لا كذبت عليه أبدًا»[(٣)].

ثم يصفهم الشعبي (ت ١٠٣هـ) في نص طويل، **وينسبهم إلى اليهود والنصارى**؛ فيقول لعبدالرحمن بن مالك: «أحذرك الأهواء المضلة، وشرها الرافضة، وذلك أن منهم يهود يغمصون الإسلام ليتجاوزوا ضلالتهم، كما يغمص بولس بن شاول ملك اليهود النصرانية، لم يدخلوا في الإسلام رغبة منهم في الإسلام، ولا رهبة من الله، ولكن مقتًا لأهل الإسلام، وبغيًا عليهم، قد حرقهم علي بن أبي طالب بالنار، ونفاهم في البلدان؛ منهم عبدالله بن سبإ، نفاه إلى «ساباط»[(٤)]، وعبدالله بن يساف، نفاه إلى «جارود»، وأبو الكروبين، وآية ذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود، قالت اليهود: لا يصلح الملك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا في آل علي، وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال، وينزل سبب من السماء،

(١) عبدالله بن أحمد ـ السنة، ج٢، ص٥٤٨.
(٢) السنة، ج٢، ص٥٤٨، والحربي غريب الحديث، ج٢، ص٥٨١.
(٣) السنة، ج٢، ص٥٤٩، وانظر ابن خلدون ـ المقدمة، ص١٩٨.
(٤) سبق وأن ذكرنا ترجيح شيخ الإسلام ابن تيمية عن هروب ابن سبإ وليس نفيه.

وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي، وينادي مناد من السماء، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة، واليهود تزول عن القبلة شيئًا، وكذلك الرافضة، واليهود تنود في الصلاة، وكذلك الرافضة، واليهود تسدل أثوابها في الصلاة، وكذلك الرافضة، واليهود حرفوا التوراة، وكذلك الرافضة حرفوا القرآن(١)، واليهود يستحلون دم كل مسلم، وكذلك الرافضة، واليهود لا يرون الطلاق الثلاث شيئًا، وكذلك الرافضة، واليهود لا يرون على النساء عدة، وكذلك الرافضة، واليهود يبغضون جبريل، ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الرافضة، يقولون: غلط جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحي إلى محمد ﷺ، وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين: سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حَوَارِيُّو عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ (قالوا: أصحاب رسول الله ﷺ، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟) قالوا: حَوَارِيُّو رسول الله ﷺ، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة، لا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، ولا تقوم لهم راية، دعوتهم مدحوضة، وكلمتهم مختلفة، وجمعهم متفرق، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفاها الله، فأعاذنا الله، وإياكم، من كل هوى مضل»(٢).

إن هذه الأوصاف الجامعة جاءت من الإمام الجليل عامر بن شراحيل الشعبي، الذي عاصر القوم، وخبر حالهم؛ كما يقول ابن سعد: «كان له ديوان، وكان يغزو عليه، وكان شيعيًا، فرأى منهم أمورًا، وسمع منهم كلامهم، وإفراطهم، فترك رأيهم، وكان يعيبهم»(٣).

هذه هي الردود التي أمكننا الحصول عليها من علماء هذه الفترة، وهي قمة في

(١) لعله يقصد تأويلاتهم الباطلة، وادعائهم أن القرآن ناقص.

(٢) المقدسي ـ النهي عن سب الأصحاب ص١١٥-١١٧ ـ وابن تيمية ـ منهاج السنة، ج١، ص٢٤ وما بعدها. وابن حجر الهيثمي ـ الصواعق المحرقة، ص٢٥٢.

(٣) ابن سعد ـ الطبقات، ج٦، ص٢٦١.

القوة والالتزام بعقيدة السلف، ولقد كان رد علي رضي الله عنه عليهم؛ كما سبق ورأينا، القتل، والتحريق؛ لعلمه أن هذه الآراء والعقائد الباطلة خارجة عن الإسلام جملة وتفصيلًا، وبعد أن توضحت عقائد الشيعة، واختلطوا بأهل السنة، وخبروا حالهم، رد عليهم العلماء الردود الموسعة؛ ومن أبرزها ما سطره شيخ الإسلام في كتابه الجامع «منهاج السنة النبوية»، وغيرها من الكتب، وكتب غيره من العلماء؛ كالمقدسي، وابن حجر الهيثمي، وغيره من العلماء الذين أفردوا مقالات مطولة في الرد على الشيعة، ومن قبل هذه المصنفات الموضوعية، كتب أهل السنة في الردود على الشيعة، للإمام عبدالله بن أحمد في كتابه «السنة»، واللالكائي، والأصفهاني، والآمدي، وكتاب «الْفِرَق والمقالات»؛ كالأشعري، والملطي، والبغدادي، فكانت هذه الردود الموسعة، والتي تلت فترة دراستنا، تعتمد على مواقف أهل البيت، ابتداءً من علي، وانتهاء بأبناء أبنائه، ومن بعدهم؛ فهي التي هدمت هذا البناء الهش، الذي بنوه على الكذب والحقد والكراهية، فما أحرى القوم في عصرنا الحاضر أن يعودوا للحق الذي كان عليه أهل البيت ـ رضوان الله عليهم.

* * *

الْفَصْلُ الثَّالِثُ
فِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةِ الأُولَىٰ

١- عَرْضٌ تَارِيخِيٌّ لِنُشُوءِ فِرْقَةِ الْقَدَرِيَّةِ:

لقد انتهى عصر النبوة المبارك، وقد اكتملت أركان هذه الدين، وتوفي النبي ﷺ، وقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وفي ذلك يقول المولى - سبحانه وتعالى -: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾، [المائدة: ٣].

وكانت عقيدة القدر إحدى أركان الإيمان التي أُكْمِلَتْ عناصرها، وبيَّن الرسول ﷺ ما يجب على المؤمنين اعتقاده فيها، وآمن بها الصحابة الكرام إيمانًا كاملًا، وتلقت الأمة من بعدهم هذا المعتقد بالقبول الصادق، ولم تُعَرِّضْهُ للجدال، والخصومات الباطلة، وعندما اتسع نطاق الفتح الإسلامي، وَجَدَ المسلمون في هذه البلاد أقوامًا تدين بعقائد منحرفة؛ وخاصة في الألوهية والقدر، بل وفي جميع تصوراتها الوثنية، وقد أوجدت هذه الأوضاع الجديدة نوعًا من الجدال، والمحاورات، في كثير من المعتقدات، ومنها القدر.

وقد عرضنا نوعًا من تلك المناقشات عند حديثنا عن المناقشات العقدية بين الصحابة، وكيف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رد على الجاثليق، وكذلك أسئلة ذلك الشيخ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عن القدر، ولكننا سنحاول في هذا المبحث محاولة تحديد الزمن التقريبي لظهور القول بنفي القدر، ولعل من أقدم النصوص التي تشير إلى ظهور القدرية ما رواه ابن عساكر؛ من أن رجلًا جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: «يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، قال: طريق مظلم، لا تسلكه، قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، قال: بحر عميق لا تلجه، قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، قال: سر الله، قد خفي عليك؛ فلا تفشه، قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، قال: أيها السائل، إن الله خلقك لما شاء، أو لما شئت؟ قال: بل لما شاء، قال:

فيستعملك كما شاء، أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيبعثك يوم القيامة كما شاء، أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: أيها السائل، ألست تسأل ربك العافية؟ قال: [نعم]، قال: فمن أي شيء تسأله العافية؟ أمن البلاء الذي ابتلاك به غيره؟ قال: من البلاء الذي ابتلاني به، قال: أيها السائل، تقول: لا حول ولا قوة إلا بمن؟ قال: إلا بإذن العلي العظيم، قال: فتعلم ما تفسيرها؟ قال: تُعَلِّمُني مما علمك الله، يا أمير المؤمنين، قال: إن تفسيرها: لا يقدر على طاعة الله، ولا يكون له قوة في معصية الله، في الأمرين جميعًا، إلا بالله، أيها السائل: لك مع الله مشيئة، أو فوق الله مشيئة، أو دون الله مشيئة، فإن قلت إن لك دون الله مشيئة، فقد اكتفيت بها عن مشيئة الله، وإن زعمت أن لك فوق الله مشيئة، فقد ادعيت أن قوتك، ومشيئتك، عاليتان على قوة الله ومشيئته، وإن زعمت أن لك مع الله مشيئة، فقد ادعيت مع الله شركًا في مشيئته، أيها السائل، إن الله يشج، ويداوي، فمنه الداء، ومنه الدواء، أعَقِلْتَ عن الله أمره؟ قال: نعم، قال علي: الآن أسلم أخوكم، فقوموا فصافحوه، ثم قال علي: «لو أن عندي رجلًا من القدرية لأخذت برقبته، ثم لا أزال أجاها حتى أقطعها؛ فإنهم يهود هذه الأمة»(١).

إن هذا الخبر، بصورته المنقولة، يعطي ضوءًا على مسألة الجدال في القدر، ولو ثبتت صحة هذا الخبر، لقلنا إن نفاة القدر كانوا في عهد علي رضي الله عنه، وهذا الأمر قد يكون متوقعًا، إذا علمنا أن معبدًا الجهني كان عند حادثة التحكيم من القراء، وقد انتدبوه لسؤال الحكمين سنة ٣٧ هـ؛ حيث «قال معبد الجهني: فخرجت، فلقيت أبا موسى الأشعري، فقلت له: صحبت رسول الله ﷺ، فكنت من صالحي أصحابه، واستعملك فكنت من صالحي عماله، وقُبِضَ، وهو عنك راض، وقد وليت أمر هذه الأمة، فانظر ما أنت صانع، فقال لي: يا معبد، غدًا ندعو الناس إلى رجل لا يختلف عليه اثنان، فقلت في نفسي، أما هذا فقد عزل صاحبه، فطمعت في عمرو، فخرجت فلقيته وهو

(١) ابن عساكر، المختصر ج١٨، ص٧٣، وابن بطة الابانة ت، آدم الأثيوبي ج٢ ص٢٤٩، برواية مختصرة.

راكب بغلة يريد المسجد، فأخذت عنانه، فسلمت عليه، فقلت: أبا عبدالله: إنك قد صحبت رسول الله ﷺ، فكنت من صالحي أصحابه، قال: بحمد الله، قلت: واستعملك فكنت من صالحي عماله، فقال: بتوفيق الله، قلت: وقُبِضَ وهو عنك راض، فقال: بمن الله، ثم نظر إلي شزرًا، فقلت: وقد وليت هذا الأمر، فانظر ما أنت صانع، فخلع عنانه من يدي، ثم قال: إيهًا، تيس جهينة، ما أنت وهذا؟ لست من أهل السر، ولا من أهل العلانية، والله، ما ينفعك الحق، ولا يضرك الباطل، ثم مضى، وتركني»[1].

إن سوق هذه الحادثة يوضح أن أول داعية للقدر كان في فترة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ولكن هذا لا يعني أن معبدًا كان يدعو لإنكار القدر، وذلك لاشتهار أمره في ما بعد، ولكن هل كان هناك من يدعو لتخريب العقيدة في القدر، غير معبد، هذا ما سوف نبحثه، فيما بعد، بإذن الله، بعد أن نحدد الفترة الزمنية التي ظهر فيها إنكار القدر، لكن الذي يمكن أن نرجحه في هذه المرحلة المبكرة، بعد أن نضم جدال الجاثليق لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحادثة سؤال علي بن أبي طالب المشهورة، ووعيد علي للقدرية، أن هناك فئة كانت تثير في الخفاء نوعًا من هذه الشبهات، أو أن دهاقنة، وكهنة هذه البلاد المفتوحة، بدأت بإثارة هذه المشكلات بين المسلمين، وكان هدفها، فيما بعد، اقتناص بعض الشخصيات الإسلامية، وإضلالها، وجعلها دعاة لهذا الإنكار الهدام، وهذا ما نرجحه، عندما تظهر الشخصيات المشبوهة المنكرة للقدر، في أواخر عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم.

ومن التحديدات الزمنية لظهور هذه النحلة الضالة، القول بأنها برزت بعد وفاة معاوية رضي الله عنه؛ حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وبدعة القدرية حدثت قبل ذلك، بعد موت معاوية (ت ٦٠هـ)؛ ولهذا تكلم فيهم ابن عمر، وابن عباس، وغيرهما، وابن عباس (ت ٦٨هـ) مات قبل ابن الزبير، (ت ٧٢هـ)، وابن عمر (ت ٧٣هـ) مات عقب موته، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضعٍ وسبعين، وأكثره كان بالشام،

---

(١) ابن عساكر، المختصر ج٢٥، ص١١٥.

والعراق، والبصرة، وأقله كان بالحجاز»[١].

وروى اللالكائي عن الحسن بن محمد (ت ١٠٠هـ)، قال: «أول من تكلم في القدر، حين احترقت الكعبة[٢] (سنة ٦٤)، قال قائل: كان هذا من قضاء الله أن احترقت الكعبة، فقال آخر: ما كان هذا من قضاء الله»[٣].

وعلى هذا القول يكون القول بنفي القدر حدث في السنوات التي تلت وفاة معاوية، وكان معبد الجهني أول القائلين بذلك؛ لما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما، عن يحيى بن يعمر (ت ٨٩هـ)، قال: «كان أول من تكلم في القدر معبد الجهني، فخرجت أنا وحميد بن عبدالرحمن (ت ٩٥هـ) نريد مكة، فقلت لو لقينا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء القوم، فلقينا عبدالله بن عمر، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل المسألة إلي، فقلت يا أبا عبدالرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يتقفرون هذا العلم، ويطلبونه، ويزعمون (أن لا قدر إنما، الأمر أُنف)، قال: فإذا لقيت أولئك، فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء، والذي نفسي بيده، لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا، فأنفقه في سبيل الله، ما قبل الله منه شيئًا حتى يؤمن بالقدر؛ خير وشره... إلخ»[٤].

وقد حدد أنس بن مالك بداية القول بالقدر؛ فذكر جدال الصحابة في عهده ﷺ، ثم قال: «فلم يسمع الناس بعد ذلك أحدًا تكلم في القدر، حتى كان ليالي الحجاج بن يوسف (ت ٩٥هـ)، فأول من تكلم فيه معبد الجهني، فأخذه الحجاج بن يوسف

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج٨، ص٢٢٨.

(٢) قال الإمام الطبري (انها احترقت سنة٦٤هـ) التاريخ ج٣ ص٣٦١.

(٣) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج٤ ص٧٤٧، ت د. أحمد سعد حمدان.

(٤) البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام ح رقم٥٠، الفتح ج١ص١١٤، والمقدمة المذكورة في الحديث في مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الىيمان والىسلام والىحسان ح رقم٨٠، مختصر ج١ ص١٧.

فقتله»[١].

وهذه الرواية مقاربة - أيضًا - فإن الحجاج ولاه عبدالملك بن مروان سنة ٧٢هـ، ووجهه لقتال ابن الزبير، الذي اسْتُشْهِدَ سنة ٧٢هـ، ولكن مقتل معبد الجهني كان في سنة٨٠هـ، ووفاة ابن عمر كانت سنة ٧٣هـ، ووفاة ابن عباس كانت سنة ٦٨هـ، وهناك حادثة تبين أن معبدًا الجهني كان يدعو للقدر في حياة ابن عباس؛ فقد روى ابن بطة، عن أبي الزبير[٢] (ت ١٢٦هـ) قال: «كنا نطوف مع طاووس (ت ١٠٦هـ)، فمررنا بمعبد الجهني، قال: فقيل لطاووس: هذا معبد الذي يقول في القدر، قال: فقال له طاووس: أنت الكاذب على الله بما لا تعلم، قال: فقال: يكذب علي، قال: فدخلنا على ابن عباس، فقال له طاووس: يا أبا عباس، الذين يقولون في القدر، قال أروني بعضهم، قال: صانعٌ ماذا؟ قال: أُدْخل يدي في رأسه، ثم أدق عنقه»[٣].

من خلال هذه الروايات يتأكد لنا أن بدعة القدرية؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، كانت بعد وفاة معاوية، وعندما علم الصحابة والتابعون بها، قاموا بالرد عليهم، والبراءة منهم، وبهذا نخلص إلى القول إلى أن بدعة القدرية بدأت في الستينات في القرن الأول الهجري، وقد تكون قد قيل بها قبل هذا؛ خاصة مع أحداث الفتنة التي استغلها أرباب البدع لتأسيس مقالاتهم، ثم الجهر بها، والدعوة إليها، فيما بعد.

٣- دِرَاسَةٌ نَقْدِيَّةٌ لِشَخْصِيَّاتِ الْقَدَرِيَّةِ الأَوَائِلِ:

يلاحظ على الدراسات المعاصرة التي اهتمت بمسائل الفكر والعقيدة في صدر الإسلام، أنها أبحاث اعتمدت على دراسة الواقع العَقَدِي والفكري الأول، على ضوء لغة العصر الذي يعيشه هؤلاء المعاصرون؛ مما يدفعنا للشك في أهداف تناولهم لهذه

(١) ابن عساكر، المختصر ج٢٥ ص١١٨.

(٢) أبو الزبير، محمد بن مسلم بن تدرس، روى عن العبادلة الأربعة ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمرو بن العاص، وابن عمر بن الخطاب، توفي سنة ١٢٦هـ. انظر ابن حجر، تهذيب التهذيب ج٩ص٣٩٠.

(٣) الإبانة، كتاب القدر، ت الأثيوبي ج٢ ص٢٦٦.

الآراء والعقائد، وشخصيات أرباب البدع، والانحراف، وقد حاول هؤلاء المعاصرون الرفع من قيمة أرباب البدع، الذين ناوأهم السلف، وشنَّعوا عليهم؛ لخروجهم على عقيدة هذه الأمة، وسلفها الصالح.

وقد عمد هؤلاء الكتاب إلى اصطناع بطولات كاذبة، مصدرها الظن والتخمين لهذه الشخصيات، التي كانت في ذيل القافلة بجوار فضائل الجمهور الكبير من علماء السلف، وقد تابع هؤلاء المعاصرون كتابَ المعتزلة الأوائل في امتداح القدريين الأوائل، والدفاع عنهم، والزعم بأن مذهبهم هو الحق، ولم يتورعوا عن الكذب؛ بأن زعموا أن هذا المذهب المنحرف أخذوه عن الصحابة، الذين وضعوهم في طبقاتهم المزعومة، والجديد في هذا العرض الماكر هو ربط شخصيات الابتداع الضالة بكبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، والتابعين؛ مثل أبي ذر الغفاري، ومحمد بن الحنفية، وولديه، والحسن البصري، وغيرهم من أهل الإيمان والفضل.

ومن أبرز الشخصيات التي ظهرت العناية بها في العصر الحديث معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وهما، في نظر علماء السلف، من أوائل المبتدعة في الدين، والمنكرين لعقيدة القدر، وصورهم المستشرقون، والكتاب المعاصرون، على أنهم دعاة حرية الاختيار، الثائرون على الظلم والجبرية، وسوف نعرض لهذه الشخصيات بالتحليل والنقد، وسنعرض كذلك لأقوال المعاصرين عنهم، ونرد عليهم.

سوسنة، أو سنسويه النصراني[1]:

هذه الشخصية الغامضة، والمتلبسة بوثنيتها، ونصرانيتها، هي إحدى المراجع الأساسية في القول بنفي القدر، وغموض هذه الشخصية يبدو في انعدام المعلومات عن طبيعة نشاطها، أو مركزها العلمي، وسَنَة ميلادها ووفاتها، وإن كانت مصادر السلف تُهَوِّنُ من مركزها الفكري، وتصفه بأنه كان بَقَّالًا.

---

(١) لقد وضعت سوسنة الشخصية الأولى من دعاة القدرية لعدم معرفتنا بتاريخ ولادتها ووفاتها، وإذا كان عمرو المقصوص حقيقة واقعة فإنه يكون الشخصية الأولى نظرًا لمقتله المزعوم سنة ٦٤هـ، وعلى هذا يمكن اعتبار عمرو المقصوص الشخصية الأولى، والله أعلم.

ولنا عليها هذه التساؤلات نطرحها، فبعضها سنجيب عليه بما توفر لدينا من معلومات، وبعضها ستكون نوعًا من الشبهات المتوقعة حول هذه الشخصية الغامضة، وغيرها، نقول: ما طبيعة هذه الشخصية؟ وكيف ألقت بمعتقدها المنحرف بإنكار القدر إلى معبد الجهني؟ وما طبيعة تلك العلاقة بين سنسويه ومعبد الجهني؟ هل هي مجاورة، أو مصاهرة، أو غيرها من العلاقات التي جمعت بين الرجلين؟ وكيف كان يدعو لإنكار القدر؟ هل نطق به علانية، وعلى الملإ؟ أم أنه تولى نشرها سرًّا، وكان معبد أحد الصنائع التي اقتنصها سوسنة لنشر هذه البدعة بين المسلمين؟ وهل فكرة سوسنة هي امتداد لفكر الجاثليق الذي حاوره عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما خطب بالجابية؟ وهل كان سوسنة فردًا واحدًا، أم كان يمثل إحدى الحلقات الهدَّامة التي كانت وراءها قوى النصارى، والفرس، واليهود، وغيرهم من الملل الضالة؟ هذه بعض التساؤلات التي سنجيب على بعضها، بما يتيسر لنا من معلومات.

هذه جملة من النصوص نعرضها للكشف عن شخصية سوسنة؛ فهو نصراني، فارسي، أول من قال بنفي القدر، قال الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) - رحمه الله - تعالى -: «أول من نطق في القدر سوسن العراق، كان نصرانيًا، فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد، وأخذ غيلان القدري عن معبد»[1].

وهكذا أسلم كذبًا وتسترًا؛ حتى يُقنع معبدًا الجهني، وغيره، بمعتقده، ثم رجع إلى نصرانيته بعد أن جند أحد أبناء المسلمين لنشر ضلاله، ولا تسعفنا المصادر إن كان قد تنصر في حياة معبد، وكان يلقنه إنكار القدر، فإذا ما صلب معبد رجع سوسنة إلى نصرانيته.

ويحدد لنا ابن عون (ت ١٥١هـ)، وهو أحد المعاصرين لسوسنة ومعبد الجهني، يحدد بداية دعوتهم؛ فيقول: «أدركت الناس، وما يتكلمون إلا في علي وعثمان، حتى نشأ هاهنا حقير يُقَال له سنسويه البقال، قال: فكان أول من تكلم في القدر، قال حماد (ت ١٧٩هـ): ما ظنكم برجل يقول عنه ابن عون حقير»[2].

(١) اللالكائي، شرح اعتقاد أهل السنة ج٤ص٧٥٠.

(٢) اللالكائي، شرح اعتقاد ج٤ص٧٤٥.

فابن عون (عبدالله بن عون (ت١٥١)) يرى أن أولى الخلافات التي وقعت بين المسلمين هي التفاضل بين عثمان وعلي - رضي الله عنهما -، إلى أن نبغت نابغة القدرية الضالة، وهي من أخطر البدع التي ابْتُلِيَتْ بها الأمة في تاريخها المبكر، والذين كان سوسنة النصراني أولهم، وكان يقيم بالبصرة، هو ومعبد، وآخر من بني عوانة، قال يونس بن عبيد (ت ١٣٠هـ): «أدركت البصرة، وما بها قدري إلا سنسويه، ومعبد الجهني، وآخر ملعون في بني عوانه»[١].

ويصف ابن عون سوسنة هذا الوصف الشديد؛ فيقول: «أمران أدركتهما، وليس بهذا المصر (البصرة) منهما شيء، وأنا بين أظهركم كما ترون: الكلام في القدر، إن أول من تكلم فيه رجل من الأساورة، يقال له سنسويه، كان لحيقًا (الدعي اللصيق بغير أبيه)، قال: ما سمعته قال لأحد لحيقًا غيره، قال: فإذا ليس له تبع عليه إلا الملاحيق»[٢].

هذه هي الصورة التي رسمها علماء السلف لسوسنة النصراني، والحقيقة الهامة التي نخرج بها من هذه النصوص، هي تلمذة معبد الجهني على يد هذا النصراني الدَّعِيِّ، واشتهار ذلك عنه؛ مما يؤكد الأثر الخارجي في نشأة هذه البدعة الضالة، ومن دعا لها، واعتنق فكرها.

أما الكُتَّابُ المحدثون، فقد تراوح موقفهم من سوسنة، وأثره في نشر بدعة القدرية، بين الإنكار المطلق لهذه الشخصية؛ باعتبارها شخصية مخترعة، استعملها أهل السنة في التشنيع على القدرية، وبالتالي إنكار هذا الأثر في شخصيات القدرية الأوائل، وبين تجويز وجوده، والتشكيك في أثره، ولكن المستشرقين يتباهون بالأثر النصراني في بدع المتكلمين، والمعتزلة، وأهل البدع، والضلال؛ حيث يقول أوليري: «فكان القدرية من جهة يدافعون عن حرية الإرادة، وظهرت هذه العقيدة، أول ما ظهرت، في تعاليم معبد

---

(١) اللالكائي ج٤ص٧٤٩.

(٢) ابن عساكر، المختصر ج٢٥ص١١٧.

الجِهني سنة٨٠هـ، والذي قيل إنه كان تلميذًا لسنسويه الفارسي، ثم أصبح فيما بعد معلمًا في دمشق، وأما ما يُعْرَفُ عن القدرية الأوائل، فقليل، ولكن يُذْكَرُ أن الخليفة عبدالملك حكم على سنسويه بالموت»(١).

وليس صحيحًا ما ذكره أوليري من قتل سنسويه؛ فإن القتل كان لمعبد، ولكن المستشرقين يريدون أن يجعلوا من أسلافهم مناضلين في نشر حرية الاختيار المزعومة، التي هي أكذوبة ابتدعها النصارى، ومن تابعهم من أهل البدع، المنتسبين للإسلام، وهي مخالفة لعقيدة القدر التي جاء بها الإسلام؛ فإن الله ـ تعالى ـ خالق لأفعال العباد، والعباد ليسوا مجبورين على أفعالهم؛ كما زعمت الجبرية، فيما بعد، ومجمل أقوال المستشرقين هي تأكيد الأثر النصراني في القدرية، ومسائل علم الكلام المختلفة.

أما الدكتور النشار، فينكر أي أثر لسوسنة على معبد الجهني، ويعزو هذه النسبة لأعداء القدرية؛ للتشنيع عليهم بصلاتهم مع النصارى؛ فيقول منتصرًا لمعبد الجهني، طاعنًا في عالم من أَجَلِّ علماء السلف: «ولكن الأوزاعي، وكان من عملاء بني أمية، يَذْكُرُ أن أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن، كان نصرانيًّا، فأسلم، ثم تَنَصَّرَ، وأخذ معبد عنه، وأخذ غيلان بن مسلم الدمشقي عن معبد، ولا شك أن محاولة ربط عقائد أصحاب مذهب الإرادة الحرة بنصراني أسلم، ثم تنصر، محاولة غير صحيحة، سار عليها أصحاب الفرق المختلفة»(٢).

ويرى الدكتور عبدالرحمن بدوي ـ أيضًا ـ أن سوسنة من اختراع خصوم القدرية، والمعتزلة؛ فيقول: «هل ثارت مسألة أفعال الإنسان، والقدر، تحت تأثير أجنبي، ومسيحي بخاصة؟ لقد رأينا زَعْمَ من زَعَمَ أن نصرانيًّا اسمه سوسن اعتنق الإسلام هو الذي أثر في معبد الجهني، ودفعه إلى الكلام في القدر، ولكننا لا نعلم شيئًا عن سوسن

(١) دي لاسي أوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ص٧٥، ترجمة إسماعيل البيطار، ط١/ ١٩٨٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٢) د. النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص٣١٩، ط٧/١٩٧٧م، دار المعارف، القاهرة.

هذا، وأغلب الظن أنه من اختراع خصوم القدرية؛ ابتغاء الطعن في أصحاب المذهب، وثَمَّ شواهد كثيرة على مثل هذا الاختراع في كتب الفرق؛ بقصد الطعن، والتشهير»[١].

وللرد على هذه المزاعم أقول إن ما قاله النشّار، وبدوي، تنقضه الحقائق الثابتة من أولئك المعاصرين لسوسنة، ومعبد الجهني، بروايات موثوقة، خاضعة لمنهج علماء الحديث، الذين هم ثقات صادقون، لا نرد أقاويلهم في الرجال، إذا طعن فيهم من زاغت عقيدته في العصر الحديث، والذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن المبتدعة، وتوجهوا للطعن بالأئمة الأعلام؛ كالأوزاعي، وغيره من سادة العلماء، وقد نقل هذه الأخبار جمهرة كبيرة؛ مثل: ابن بطة، واللالكائي، وابن قتيبة، والآجري، وابن عساكر، وابن كثير، والذهبي، وغيرهم؛ فلا يتصور تواطؤ هؤلاء الثقات، في القرون المتباعدة، على اختراع شخصية سوسنة، أو غيره من المبتدعة، ولكن المعاصرين جندوا مذهب الشك على أحداث التاريخ الإسلامي؛ فالشخصية التي تعجبهم، وتوافق منهجهم الفكري، يَجْمَعُونَ لها من الفضائل، والبطولات، ما لم تعمله، والذي لا يعجبهم، ويناقض منهجهم، يتسلطون عليه بالشك، والاتهام بالعمالة.

عَمْرٌو الْمَقْصُوصُ:

الشخصية الثانية من دعاة القدرية هي شخصية عمرو المقصوص، وهي شخصية غامضة؛ فهي لم ترد في كتب أهل السنة، وانفرد بذكرها المقدسي (ت ٥٠٧هـ) في «البدء والتاريخ»، ويظهر في كتابه منهج الاعتزال، والتشيع، وذكره ابن العبري (ت ٦٣٣هـ) في «تاريخ مختصر الدول»[٢]، وقد ألصقوا هذا الشخص بالخليفة الأموي الصالح معاوية بن يزيد ـ رحمه الله ـ، وزعم المقدسي أنه علمه القول بالقدر؛ حيث يقول المقدسي عن معاوية بن يزيد (ت ٦٤هـ): «وكان قدريًّا؛ لأنه أشخص عمرًا

(١) د. بدوي، مذاهب الإسلاميين ج١ص١١٢، ط١٩٨٣/٣، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) ويظهر يقينًا أن ابن العبري أخذ عن المقدسي، وأن المقدسي لاعتزاله وتشيعه أضاف مقدمة النص من عنده ليدلل على أن مذهب القدرية ناصره الخلفاء من قديم.

المقصوص، فعلمه، فدان به، وتحققه، فلما بايعه الناس قال للمقصوص: ما ترى؟ قال: إما أن تعتدل، وإما أن تعتزل، فخطب معاوية، فقال: إنا بُلِينَا بكم، وابْتُلِيتُمْ بنا، وإن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى به، وأحق، فركب منه ما تعلمون، حتى صار مرتهنًا بعمله، ثم تقلده أبي، ولقد كان غير خليق به، فركب ردعه، فاستحسن خطأه، ولا أحب أن ألقى الله بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم، ولُّوه من شئتم؛ فوالله، لئن كانت الخلافة مغنمًا، لقد أصبنا منها حظًّا، وإن كانت شرًّا، فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها، ثم نزل، وأغلق الباب في وجوههم، وتخلى للعبادة، حتى مات بالطاعون في سنة أربع وستين، عن اثنتين وعشرين سنة، وكانت ولايته عشرين يومًا، ويقال أربعين يومًا، ويقال ثلاثة أشهر، فوثب بنو أمية على عمرو المقصوص، وقالوا: أنت أفسدته، وعلمته؛ فطمروه، ودفنوه حيًّا»(١).

إن الغريب في هذه الشخصية أنها ذُكِرَتْ فقط في «البدء والتاريخ»، ولقد بحثت عنها في كتب أهل السنة، فلم أجد عنه خبرًا، وأما ابن العبري، فقد نقل نص المقدسي، الذي يوجد جزء منه في مؤلفات أهل السنة؛ مثل: طبقات ابن سعد، وابن عساكر، والذهبي، وابن كثير، وابن الأثير، وأكبر ظني أن المقدسي حوَّر النص تبعًا لتشيعه، واعتزاله؛ فنص أهل السنة يخلو من ذكر عمرو المقصوص؛ حيث ينقل ابن سعد أقوال معاوية بن يزيد على النحو التالي: «فلما ثقل معاوية بن يزيد قيل له: لو عهدت إلى رجل عهدًا، واستخلفت خليفة، فقال: والله، ما نفعتني حيًّا، فأتقلدها ميتًا، وإن كان خيرًا، فقد استكثر منه آل أبي سفيان، لا تذهب بنو أمية بحلاوتها، وأتقلد مرارتها، والله لا يسألني الله عن ذلك أبدًا»(٢).

وفي رواية لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) قال معاوية بن يزيد: «أما بعد، فإني ضعفت

---

(١) المقدسي، البدء والتاريخ ج٦ص١٦، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ طبعه، وابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص١٩٠، تصحيح الأب أنطون اليسوعي ط١٤٠٣هـ، لبنان.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٥ص٢٩، ت محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت وابن عساكر، المختصر ج٢٥ص١١٠.

عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب، حين استخلفه أبو بكر، فلم أجده، فابتغيت ستة؛ مثل ستة الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم»[1].

إن خلو مصادر أهل السنة من ذكر عمرو المقصوص، وذكر براءة معاوية بن يزيد من تولي جده وأبيه للخلافة، يجعلنا نرجح عبث المقدسي في نصه المذكور، وزيادته زيادة توافق مذهبه، وأما هذه الحقيقة الماكرة التي تتردد كثيرًا في كتب أرباب البدع، نقول: إما أن يكون عمرو المقصوص شخصية مغمورة، عاشت في تلك الفترة، ولا صلة لها أبدًا بالخليفة معاوية، وإما أنها شخصية منتحلة؛ لتكثير سواد القدرية، وأرباب البدع.

فعمرو المقصوص لو كان يُظْهِرُ قدريته، لذكره علماء السلف، وشنَّعوا عليه؛ كما شنعوا على سوسنة، ومعبد، وغيلان، وغيرهم، ثم إن طريقة قتله؛ كما وصف المقدسي، بطمره حيًّا، لو حدثت على الملإ، لكان ذكرها أولى؛ كما ذُكِرَتْ طريقة قتل بعض المبتدعة بالحرق؛ كالمغيرة، وبعض السبئية، وكقتل الجعد بن درهم، وغيرهم.

والذي أرجحه، إن كانت شخصية المقصوص هذا حقيقية، أنه أحد المغمورين الذين لا قيمة لهم، وكما حاول المحدثون الدفاع عن سوسنة، كذلك اعتنوا بعمرو المقصوص؛ حيث يقول النشار: «أما الشخصية الثانية التي نادت بحرية الإرادة الانسانية، فهي شخصية غامضة، لم يصل إلينا من أخبارها الكثير، ومن العجب أن يظهر في دمشق عاصمة الأمويين، ومركز نظرية الجبر (حسب زعمه)، ولم تترك المصادر لنا شيئًا آخر عن حقيقة هذه الشخصية، ولم نظفر بشيء منها في كتب المعتزلة»[2].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٣ص٣١٩، ط٣/١٤٠٠، دار الكتاب العربي، بيروت، وابن كثير، البداية والنهاية ج٥ص٥٤١، والذهبي، تاريخ الإسلام ج٢ ص٣٦، أحداث ٦١-٨٠هـ.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، ج١ ص٣٢١.

ويذهب الدكتور عمر فروخ إلى أن المقصوص «من معاصري معبد الجهني، وكان معلمًا لمعاوية بن يزيد، ثم ظهر عليه القول بالقدر؛ فقتله الأمويون سنة ٨٠ هـ»[(١)]، والصحيح أن المقتول سنة ثمانين هو معبد الجهني، أما المقصوص المزعوم، فعلى رأي المقدسي يكون قد قتل سنة ٦٤هـ، وينقل الجابري نفس الخبر، ويضيف تردده في عدم وجود معلومات كافية عنه»[(٢)].

بقي أن نقول إن علماء السلف؛ كالأوزاعي، وابن عون، ويونس بن عبيد، وغيرهم، لم يذكروا عمرًا المقصوص هذا، وأنهم نصوا مباشرة على أن معبدًا الجهني أخذ نفي القدر عن سوسنة النصراني، ولكن ابن عون (ت ١٣٩هـ)، ويونس بن عبيد، يتكلمان عن البصرة؛ حيث يقول يونس بن عبيد: «أدركت البصرة، وما بها قدري سوى سوسنة، ومعبد الجهني، وآخر ملعون في بني عوانه»، وقال ابن عون مقالته السابق ذكرها[(٣)].

فهل كان ابن عون، ويونس بن عبيد، يتحدثان عن البصرة، أو العراق عامة، ولم يكونا يقصدان بلاد الشام، هذا أحد الاحتمالات، أو أن مقتل عمرو المقصوص المبكر - إذا ثبت ذلك -، واشتهار أمر سوسنة، ومعبد، جعل الاهتمام ينصب عليهما، ولكن كل هذه الافتراضات تعتمد على صدق مقالة المقدسي - إن صدقت - إن هناك شخصًا اسمه عمرو المقصوص، والله أعلم.

مَعْبَدُ الجُهَنِيُّ:

لقد اخْتُلِفَ في اسم والده؛ وذلك لوجود صحابي بهذا الاسم، قال ابن حجر عند ترجمته للصحابي الجليل معبد بن خالد الجهني أبي زرعة: «وهو أبو معبد الصحابي، غير معبد الذي تكلم في القدر، وقيل هو هو، قلت (ابن حجر)، هذا الثاني باطل؛ فإن

(١) د. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي ص٢١٣، ط٤/١٩٨٣م، دار العلم للملايين، بيروت.
(٢) الجابري - العقل السياسي العربي ص٣١٢.
(٣) سبق ذكر المرجعين للالكائي ج٤ص٧٤٩، وابن عساكر ج٢٥ص١١٧.

القدري وافق هذا الصحابي في اسم أبيه، ونسبه، واختلف في اسم أبيه، ونسبه؛ فقيل: خالد؛ مثل الصحابي، وقيل: عبدالله بن عويم، وقيل: عبدالله بن عكيم»[(١)]، وقال في موضع آخر: «تابعي أرسل حديثًا، فذكره بعضهم في الصحابة، وقيل هو معبد الجهني الذي كان أول من تكلم في القدر بالبصرة، وكان في عصر الصحابة، ولا صحبة له، فاخْتُلِفَ في اسم أبيه كما تقدم»[(٢)].

وأول حادثة يُذْكَرُ فيها معبد الجهني؛ كما سبق وقلت، هي حادثة التحكيم، عندما انتدبه القراء لسؤال الحكمين عن نتيجة مشاوراتهما، فقال له عمرو بن العاص (ت ٦١هـ) رضي الله عنه: «إيهًا، تيس جهينة، ما أنت وهذا؟ لست من أهل السر، ولا من أهل العلانية، والله، ما ينفعك الحق، ولا يضرك الباطل»[(٣)].

والقُرَّاء، كما يعرفهم شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «وكان السلف يسمون أهل الدين، والعلم، القُرَّاء؛ فيدخل فيهم العلماء، والنساك»[(٤)]، ومما لا شك فيه أنه في ذلك العصر، وإلى يومنا الحالي، فإن الأطفال يحفظون القرآن في سن مبكرة، فهل كان معبد الجهني في سن صغيرة عندما انتدبه القُرَّاء؟ فلنحاول تقريب زمن ميلاده، وعمره؛ فقد ذكر الذهبي، وابن حجر، أنه حَدَّث عن عمران بن حصين (ت ٥٢هـ)، ومعاوية (ت ٦٠هـ)، وابن عباس (٦٨ هـ)، وابن عمر (٧٣ هـ)، وحمران بن أبان (ت ٧٦هـ)[(٥)]، وهذا يعني أن معبدًا كان صغيرًا في السن؛ لروايته عن الصحابة الذين تُوُفُّوا في زمن متأخر، والذي نريد الوصول إليه من خلال هذه المقدمة هو أن بعض الكتاب المعاصرين حاولوا الربط بين معبد الجهني، والصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه؛ فقد حاول الدكتور النشار إشاعة مثل هذه الفكرة؛ عن طريق الزعم أن معبدًا تتلمذ على أبي ذر رضي الله عنه،

---

(١)، (٢) ابن حجر، الإصابة في تميز الصحابة ج٣ص٤٣٩، ص٥٢٥.

(٣) ابن عساكر، المختصر ج٢٥ص١١٦.

(٤) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٢٤.

(٥) ابن حجر ـ تهذيب التهذيب ج١٠،ص٢٠٣ والذهبي ـ ميزان الاعتدال، ج٤، ص١٤١، وتاريخ الإسلام، حوادث ٦١-٨٠، ص٣٤١.

وروى عنه، ورافقه إلى الشام، وهذه المحاولة للربط بين الرجلين يخالف بها الدكتور النشار أغلب المؤرخين الذين قالوا إن معبدًا الجهني عاش معظم حياته في البصرة، والعراق؛ حيث يقول: «أما أول أصحاب مذهب الإرادة الحرة في الإسلام، فهو معبد بن خالد الجهني، وقد نشأ معبد في المدينة، لا في البصرة، ويبدو أنه عاش في المدينة معظم حياته، ثم انتقل إلى البصرة في أواخر أيامه [كل هذا ليصل إلى قضية التلمذة]، وقد كان من تلامذة أبي ذر الغفاري، وكان أبو ذر من أعداء عثمان، والأموية، وقد روى عنه»، ثم يحاول الوصول إلى هدفه فيقول: «وقد أجمعت كتب العقائد الإسلامية على أن معبدًا هو أول من تكلم في القدر من المسلمين، وكان يعلن: لا قدر، والأمر أُنف، والأخبار عن معبد قليلة، نشأ في المدينة، وتتلمذ على أبي ذر الغفاري، ويبدو أنه رحل معه إلى الشام؛ فإن الأخبار تروي أنه روى عن معاوية؛ أي استمع إلى أحاديث يرويها معاوية عن الرسول ﷺ؛ وهذا يدل على أنه كان في صحبة أبي ذر في رحلته المشهورة إلى الشام، حين أنكر على معاوية، والأموية في دمشق، ثراءهم، وترفهم، وتلاعبهم ببيت المال، مدعين أن المال مال الله، وأعلن أبو ذر نظريته أن المال مال المسلمين؛ ونتج عن هذا إعلان الأموية لنظرية الجبر الإلهي المطلق، وأن القدر الإلهي هو الذي فرض وجودهم على المسلمين، وعلى بيت مالهم، ولا شك أن معبدًا كان يلحظ الأحداث مع أستاذه، وحين نفى عثمان رضي الله عنه أبا ذر، وأعاده إلى الحجاز، عاد معبد، وعاش في المدينة»[1]، ويخلص الدكتور النشار إلى القول: «كان معبد الجهني، إذن، من أكبر الشخصيات الإسلامية الأولى، وهو يمثل امتدادًا لمدرسة أبي ذر الغفاري، وألاحظ أن هذه المباحث القدرية الأولى، إنما نشأت عن بنية المجتمع الإسلامي حينئذ»[2].

وحاول الدكتور عابد الجابري، عند حديثه عن معبد الجهني، أن يوهم القارئ أنه من الذين روى لهم الشيخان[3]، ولكن هذا الزعم لا صحة له؛ فقد ذكر السيوطي

---

(١) ، (٢) د. النشار، نشأة الفكر الفلسفي ج١ص٣١٨، ص٣١٩.

(٣) د. الجابري، العقل السياسي العربي ص٣١٢، ط٢/١٩٩١، المركز الثقافي العربي، بيروت.

جملة من القدرية، وغيرهم ممن روى لهم الشيخان، ولم يذكر منهم معبدًا الجهني(١)، الذي حاول الدكتور النشار رفعه إلى أعلى درجات التوثيق؛ وذلك بتزويره لعبارة الذهبي بشأنه، حيث نقل النشار النص على النحو التالي: «حافظ ثقة، ولكنه مدلس رمي بالقدر»(٢)، أما عبارة الذهبي عن معبد الجهني فهي: «صدوق في نفسه، قد تكلم في القدر، ونهى الحسن عن مجالسته، وقال: هو ضالٌّ مضِلٌّ»(٣).

نَفْيُ الصِّلَةِ بَيْنَ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، وَمَعْبَدِ الْجُهَنِيِّ:

أما مزاعم الدكتور النشار حول صلة مزعومة بين معبد الجهني، وأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، فهي مزاعم لا أساس لها، ولم نظفر بنص يفيد شيئًا عن تلك العلاقة؛ فلم تذكر كتب الحديث، ولا الروايات التي في سندها معبد الجهني، أي سند يتصل بأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، الذي توفي سنة ٣٢هـ بالربذة، والتي يرجح فيها أن معبدًا كان عمره صغيرًا؛ ومن هنا، فإننا نستبعد مقابلة الرجلين، فضلًا عن المرافقة المزعومة في رحلة أبي ذر إلى الشام؛ فلا دليل عليها، ولم يؤثر أن أبا ذر توجه برفقته جمع من الناس، أو المحبين له، وكان معاوية يومها واليًا على الشام، ولم يكن خليفة، وكان أبو ذر رضي الله عنه له رأي فقهي في كنز الأموال؛ لاجتهاد ارتآه، وكان يخالفه فيه أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وأغلب الصحابة الكرام؛ حيث كان عثمان رضي الله عنه يقول له: «يا أبا ذر، عليَّ أن أقضي ما عليَّ، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد، والاقتصاد»(٤)، ولم يكن رضي الله عنه داعيًا للثورة، والعصيان؛ كما توهم المبطلون، الذين يقيسون أحداث العصر الإسلامي على غرار الدعوات الثورية المعاصرة؛ فهذه جملة من المواقف التي تعبر عن مواقف أبي ذر رضي الله عنه؛ فقد كان داعية لمنهج فقهي في كنز الأموال، وليس داعية للثورة،

---

(١) انظر السيوطي، تدريب الراوي ج١ص٣٢٤.

(٢) د. النشار، نشأة الفكر ج١ص٣٢٠.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال ج٤ص١٤١.

(٤) انظر تفاصيل هذا النقاش بين أبي ذر وعثمان وغيره من الصحابة في ابن عساكر، المختصر ج٢٨، ص٢٩٦ وما بعدها، والطبري، التاريخ ج٢ص٦١٦.

والتخريب، وقد أوصاه الرسول ﷺ بالسمع، والطاعة؛ فقد روى ابن سعد في «الطبقات» عن محمد بن سيرين أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «إِذَا بَلَغَ الْبِنَاءُ سَلْعًا(١)، فَاخْرُجْ مِنْهَا ـ ونحا بيده نحو الشام ـ وَلَا أَرَى أُمَرَاءَكَ يَدَعُونَكَ»، قال: يا رسول الله، أفلا أقاتل من يحول بيني، وبين أمرك؟ قال: «لَا»، قال: فما تأمرني؟ قال: «اسْمَعْ، وَأَطِعْ، وَلَوْ لِعَبْدٍ حَبَشِيٍّ»(٢).

وقد وفّى رضي الله عنه بهذه الوصية؛ فقد روى ابن سعد ـ أيضًا ـ عن العوام بن حوشب (ت ١٤٨)، عن شيخين من بني ثعلبه، قالا: نزلنا الربذة، فمر بنا شيخ أشعث، أبيض الرأس، واللحية، فقالوا: هذا من أصحاب رسول الله ﷺ فاستأذناه أن نغسل رأسه، فأذن لنا، وأستأنس بنا، فبينما نحن كذلك، إذ أتاه نفر من أهل العراق، حسبته قال من أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا ذر، فعل بك هذا الرجل، وفعل؛ فهل أنت ناصب لنا راية؟ فلنكمل برجال ما شئت، فقال: يأهل الإسلام، لا تعرضوا علي ذاكم، ولا تُذِلُّوا السلطان؛ فإنه من أذل السلطان، فلا توبة له، والله، لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة، أو أطول جبل، لسمعت، وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت أن ذاك خير لي، ولو سيرني ما بين الأفق إلى الأفق، أو قال: ما بين المشرق، والمغرب، لسمعت، وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت أن ذلك خير لي»(٣).

وروى ابن عساكر عن عبد بن سيدان السلمي، قال: تناجي أبو ذر، وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما، ثم انصرف أبو ذر، فقال الناس: ما لك ولأمير المؤمنين؟ قال: سامعٌ مطيعٌ، ولو أمرني أن آتي صنعاء، أو عدن، ثم استطعت أن أفعل لفعلت، وأمره عثمان أن يخرج إلى الربذة، وفي رواية: لو أن عثمان أمرني أن أمشي على رأسي لمشيت، ولو أمرني ألا أجلس ما جلست ما حملتني رجلاي، ولو كنت على بعير (يعني موثقًا)، ما

(١) موقع في المدينة المنورة.

(٢) ابن سعد، الطبقات ج٤ ص١٧١.

(٣) الطبقات الكبرى ج٤ص١٧١.

أطلقت نفسي، حتى يكون هذا الذي يطلقني»[1].

أما عن لفظ نفيه إلى الربذة، فهو غير صحيح - أيضًا -؛ فهناك من الروايات ما يفيد أنه اختار الخروج من ذاته؛ قال ابن عساكر - رحمه الله -: «ولم يسير عثمان أبا ذر، لكنه خرج هو إلى الربذة، لما تخوف من الفتنة التي حذره النبي ﷺ، فلما خرج عُقَيْبَ ما جرى بينه، وبين أمير المؤمنين عثمان، ظُنَّ أنه هو الذي أخرجه، ثم أسند عن عبدالله بن الصامت؛ (وهو ابن أخي أبي ذر)، قال، قالت أم ذر[2]: «والله، ما سير عثمان أبا ذر، ولكن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا بَلَغَ الْبِنَاءُ سَلْعًا، فَاخْرُجْ عَنْهَا»، فلما بلغ البناء سلعًا، وجاوز، خرج أبو ذر إلى الشام»[3].

وسئل الحسن البصري: «أكان عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: معاذ الله!»[4]، «وعندما خرج إلى الربذة خط فيها مسجدًا، وأقطعه عثمان رضي الله عنه صرمة من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأرسل له: أن تعاهد المدينة؛ حتى لا ترتد أعرابيًا، قال ابن عباس: وكان أبو ذر يختلف من الربذة إلى المدينة مخافة الأعرابية»[5].

وكان عثمان رضي الله عنه يحنو على أبي ذر، ويخشى عليه من دعاة الفتنة، والمارقين؛ فعن زيد بن خالد الجهني (ت ٧٨هـ)، قال: «كنت عند عثمان، إذ جاء أبو ذر، فلما رآه عثمان، قال: مرحبًا، وأهلًا بأخي، فقال أبو ذر: مرحبًا، وأهلًا بأخي، لقد أغلظت علينا في العزيمة، والله، لو عزمت علي أن أحبو، لحبوت ما استطعت، إني خرجت مع النبي ﷺ نحو حائط بني فلان، فقال لي: «وَيْحَكَ بَعْدِي!»؛ فبكيت، فقلت: يا رسول الله، وإني لباق بعدك؟! قال: «نَعَمْ، فَإِذَا رَأَيْتَ الْبِنَاءَ عَلَى سَلْعٍ، فَالْحَقْ بِالْمَغْرِبِ

(١) ابن عساكر، المختصر ج٢٨ ص٣٠١.
(٢) أم ذر، يقال أن أبا ذر تزوجها بعد وفاة النبي ﷺ، وقد مات أبو ذر وليس له عقب. انظر ابن قتيبة، المعارف ص٢٥٢- ثروت عكاشة، ط٤، القاهرة.
(٣) ابن عساكر، المختصر، ج٢٨ ص٣٠٢.
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٧٢.
(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٢ص٦١٦.

أَرْضِ قُضَاعَةَ»، قال عثمانُ: أحببت أنْ أجعلك مع أصحابك، وخفت عليك جُهَّال الناس»[١].

وعن سر تمسك أبي ذر بالعزائم، والشدة في أمر الدين، قال شداد بن أوس (ت ٥٨هـ): «كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة، ثم يخرج إلى قومه يسلم عليهم، ثم إن رسول الله ﷺ يرخص فيه بعد، فلم يسمعه أبو ذر، فتعلق أبو ذر بالأمر الشديد»[٢].

وقد سئل عنه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: «وعى علمًا عجز عنه، وكان شحيحًا على دينه، حريصًا على العلم، يكثر السؤال، وعجز عن كشف ما عنده من العلم»[٣].

هذه هي الصورة الحقيقية للصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه، والذي يبدو أن دعوة أبي ذر في الأموال استغلها أعداء الإسلام قديمًا، وحديثًا: السبئية سابقًا، عندما هيجوا الفتنة، والشيوعيون المعاصرون، الذين زعموا أنها دعوة توافق ضلال الاشتراكية العفنة المنحرفة، ولكنهم كذبوا في كل ما قالوا، فهو رضي الله عنه عندما شعر بحبائل البغاة المارقين، كَفَّ عن هذه الدعوة، وآثر الانعزال في الربذة، ولا صحة أبدًا لما يُشَاعُ، ويقال عنه: إنه غرس بذور الخروج، والثورة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه؛ فإن مضمار دعوته لم يحمل هذا الذي حَمَّلَهُ إياه الدكتور النشار، وغيره من الذين ساقوا أحداث الفتنة على ضوء مفاهيم العصر الحديث؛ ليجعلوا من المبتدعة؛ كمعبد الجهني، وغيلان القبطي، أبطالًا ساروا (بزعمهم) على نهج الصحابة.

ثم أنى لمعبد أن يسامي في سلوكه، وعلمه، وعقيدته، من استنار الحق في صدره كالشمس في وضح النهار، ثم إن معبدًا لم يثبت أنه تكلم في الأموال، ولا نادى بما نادى به أبو ذر رضي الله عنه، بل الثابت أن عبدالملك بن مروان أتى به ليؤدب ولده سعيدًا»[٤]،

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٢ص٧٠-٧١، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط رجاله ثقات.

(٢) ابن عساكر، المختصر ج٢٨ص٣٠١.

(٣) الذهبي، سير أعلام ج٢ص٦٠.

(٤) ابن عساكر، المختصر ج٢٥ص١١٤.

وكان يعيش في قصره، ويأخذ من أمواله، وإذا كان أبو ذر أستاذًا لمعبد؛ كما يزعم الدكتور النشار، فلماذا لم يرافقه إلى الربذة؛ حيث شظف العيش، والبعد عن المدينة؟ فإن لم تُتَحْ له فرصة المرافقة، فلماذا لم يُؤْثَرْ في كتب التاريخ، أو غيرها، أن هذا التلميذ قام بزيارة أستاذه بين الحين والآخر؟ ولكن الثابت تاريخيًّا أن معبدًا عاش معظم حياته في البصرة، وكان وجوده في المدينة طارئًا، وكان أستاذه الحقيقي، الذي قال عنه علماء السلف، هو سوسنة النصراني، الذي لقنه بدعة القدرية المذمومة.

والغريب ـ حقًّا ـ أن تجد الدراسات المعاصرة، التي استقت كثيرًا من أفكارها من افتراضات المستشرقين، ومناهجهم الشكية، قد تابعت فرق الضلال القديمة، التي حاولت إلصاق دعواتها المنحرفة بالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ؛ مثل محاولة القدرية إلصاق دعوتها بأبي ذر رضي الله عنه، ومحاولة المرجئة إلصاق دعوتها المنحرفة بالصحابة المعتزلين للفتنة، ومحاولة الشيعة إلصاق بدعتهم بأبي ذر، وحذيفة، وعمار، وغيرهم، الذين زعموا أنهم كانوا يرون تفضيل علي على أبي بكر، وعمر، وعثمان، وجُلِّ الصحابة.

وأخيرًا، فإننا نرى أن محاولة ربط معبد الجهني بأبي ذر هي محاولة ماكرة للترويج لشخصيات البدع، وجلب امتداد لهم؛ عن طريق الصحابة الذين وقفوا للقدرية المبتدعة، وتبرءوا منهم.

نَفْيُ الصِّلَةِ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَمَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ:

ومما يُؤْسَفُ له أن يلقي الدكتور النشار الكلام على عواهنه، ويحاول اختراع علاقة بين معبد الجهني، ومحمد بن الحنفية (ت ٨١هـ)، وإن كان لم يجرؤ، عند حديثه عن صلة معبد بأبي ذر، على نسبة القول بالقدر صراحة إليه، وإنما زعم بأخذ المنهج الثوري منه، ولكنه هنا يصرح بأن مذهب القدرية الممقوت نادى به محمد بن الحنفية، وَوَلَدَاهُ، في المدينة؛ حيث يقول الدكتور النشار: «إنه بعد عودة محمد بن الحنفية إلى المدينة، بعد مقتل أخيه الحسين (ت ٦١هـ)، إنه أسس هو، وابنه الحسن (ت ١٠٠هـ)،

وأبو هاشم (ت ٩٨هـ) مكتبًا[(١)]، وفي هذا المكتب، وفي المدينة نفسها، تبلورت الفكرة التي عرفت باسم (القدرية)، الفكرة التي تنكر أن أعمالنا إنما تجري بقدر الله، وأن علينا الخضوع التام لهذا القدر الذي لا مناص منه، ولا فرار، ورأى محمد بن الحنفية، وابنه أبو هاشم؛ وهما أصحاب البيت الذي سُلِبَ الحق، أن يعلنا في هدوء الفكرةَ المضادةَ؛ إنكار القدر، وإنكار إضافته إلى الله»[(٢)].

ثم يخلص الدكتور النشار إلى النتيجة التالية، مؤكدًا على ربط سلسلة مزعومة، ابتداءً من أبي ذر رضي الله عنه، ومرورًا بمحمد بن الحنفية، ووصولًا إلى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ؛ فيقول متسائلًا: «هل كان معبد الجهني صدًى لهذه المدرسة الْعَلَوِيَّةِ، وقد كان العلويون يعبرون عن ضمير الشعب حينئذ، كان معبد الجهني مدينيًّا أولًا، وروى عن أبي ذر الغفاري ثانيًا، ونحن نعلم أن أبا ذر الغفاري كان عَلَوِيًّا، يؤمن بأحقية علي في الخلافة، كما كان ينادي بنظرية الكنوز؛ مقاومة من يكنز الذهب، والفضة، ولا ينفقوها في سبيل (الناس)، أي يؤمن بسيلان المال، وعدم تجميعه؛ فلا شك، إذن، أن معبد الجهني إنما كان تلميذًا، وأثرًا لمدرسة محمد بن الحنفية»[(٣)].

ولتفنيد هذه المزاعم نقول: إن محمد بن الحنفية لم يكن في رفقة أخيه الحسين رضي الله عنه، عندما اسْتُشْهِدَ في كربلاء، بل كان من الناصحين له بعدم الذهاب، وحذر الحسين من غدر شيعة العراق، وخذلانهم المعهود، وفي هذا يقول الإمام الذهبي: «وكان أهل الكوفة يكتبون إلى الحسين، يدعونه إلى الخروج إليهم، وهو يأبى، فقدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية، وطلبوا إليه أن يخرج معهم، فأبى، وجاء الحسين، فأخبره بما عرضوا عليه، وقال: إن القوم إنما يريدون أن يأكلونا، ويشيطوا دماءنا»[(٤)].

(١) يبدو أن أصل حكاية المكتب التي أعجب بها الدكتور النشار موجودة عند ابن المرتضى في المنية والأمل ص١٣٢، وقد افترى ابن المرتضى هذه الحكاية ووضع ابن الحنفية في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة ووضع معه الحسن والحسين وأولادهم.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي ج١ص٢٣١-٢٣٢ بتصرف.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي ج١ص٢٣٢.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام ج٢ص٥ حوادث سنة٦٠ ـ ٨٠.

وقد نصح معظم الصحابة، والتابعين، الحسين بعدم الخروج، وكان ابن الحنفية مقيمًا في المدينة، ولم يغادرها إلى العراق، وبالرغم من عِظَم المصيبة التي حلت بالمسلمين؛ بمقتل الحسين على تلك الصورة المعروفة، فإنه لم يُؤْثَرْ عن ابن الحنفية، ولا أبناء الحسين، ولا عامة المسلمين، أن دعا إلى إنكار القدر؛ كما توهم الدكتور النشار، بل كانت عقيدتهم جميعًا عقيدة الحق التي جاء بها الكتاب، والسنة».

أما من ناحية المعاصرة، فإن ابن الحنفية ولد في سنة وفاة أبي بكر رضي الله عنه؛ سنة ١٣هـ، ومات سنة ٨١هـ؛ أي بعد سنة من صلب معبد الجهني، وقتله على قوله بالقدر، ولم يُؤْثَرْ أن معبدًا التقى بابن الحنفية، أو روى عنه شيئًا، وقد أمضى ابن الحنفية معظم حياته في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وأمضى معبد معظم حياته في البصرة.

ومن المشهور عن ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ تعالى ـ أنه لم يكن داعية لفتنة، أو خروج على خليفة، أو أمير، ويبدو هذا واضحًا من مبايعته لهم، وقدومه عليهم، وأخذ عطاياهم؛ ففي رسالة كتبها ابن الحنفية إلى عبدالملك بن مروان يقول فيها: «أما بعد، فإني لما رأيت الأمة قد اختلفت، اعتزلتهم، فلما أفضى الأمر إليك، وبايعك الناس، كنت كرجل منهم، فقد بايعتك، وبايعت الحجاج لك، ونحن نحب أن تؤمننا، وتعطينا ميثاقًا على الوفاء؛ فإن الغدر لا خير فيه»، فكتب إليه عبدالملك: «إنك عندنا محمود، أحب إلينا، وأقرب، من ابن الزبير؛ فلك ذمة الله، ورسوله: أن لا تهاج، ولا أحد من أصحابك»[1].

وقال الإمام الذهبي: «وفد على معاوية، وعبدالملك بن مروان، ولما صار محمد بن الحنفية إلى المدينة، وبنى داره بالبقيع، كتب إلى عبدالملك يستأذنه في الوفود عليه، فأذن له، فوفد على عبدالملك في إذن العامة، فيسلم مرة، ويجلس، ومرة ينصرف، فلما مضى شهر، كَلَّمَ عبدالملك خاليًا، فذكر قرابته، ورحمه، وذكر دينًا، فوعده بقضائه، ثم قضاه، وقضى جميع حوائجه»[2].

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٥ ص٨٣.

(٢) الذهبي، سير، ج٤ ص١١٢.

هذه صورة مصغرة من حياة محمد بن الحنفية ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، فأين هي دعاوى الثورة المزعومة التي كان ينادي بها ابن الحنفية، وأين هو المكتب المزعوم الذي أسسه لإنكار عقائد الأمة، الذي توهمه المبطلون، وبهذا يتضح لنا أن محاولات الكُتَّاب المعاصرين لإلصاق البدع، والانحرافات في العقيدة، للسلف الصالح، ما هي إلا نوع من التهويش الذي عشناه في العصر الحديث، والذي على الباحثين كشف زيفه، وبطلانه، أينما وُجِدَ، وبأي صورة عرض.

نَفْيُ صِلَةِ مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ بِالإِمَامِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ (ت ١١٠هـ) ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ تَعَالَى:

وامتدادًا لما سبق ذكره، فقد حاول المعتزِلة القدماء، والمستشرقون[1]، وبعض الكُتَّاب المعاصرين، نسبة القول بالقدر إلى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ؛ ليجعلوا لهم، ولأفكارهم الضالة، أصولًا عند خيار الصحابة، والتابعين، ولا سيما الحسن البصري، فقد وضعه ابن المرتضى المعتزِلي في الطبقة الثالثة، مع مجموعة علماء من السلف؛ فقال: «ومنهم الحسن بن أبي الحسن البصري، وهو سيد التابعين، ومحله في الفضل، والعلم، ودعاء الناس إلى الدين، مشهور، وقد روى داود بن أبي هند (ت ١٤٠هـ)، قال: سمعت الحسن يقول: كل شيء بقضاء الله، وقدره، إلا (المعاصي)، ورسالته إلى عبدالملك مشهورة»[2]، وزعم ابن المرتضى «أن الحسن مر بِلِصٍّ، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: قضاء الله، وقدره، فقال الحسن: كَذَبْتَ؛ أيقضي الله عليك أن تسرق، ويقضى عليك أن تُصْلَبَ؟»[3]، ثم زاد الأمر فرية عظيمة؛ فقال: «وكان الحسن أخذ المذهب عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: لقيت ثلاثة مئة من الصحابة، منهم سبعون بدريًّا»[4].

---

(١) قال الدكتور عرفان عبدالحميد: (يرى بعض المستشرقون وخاصة ريتر، وجوليا أوبرمان بأن المبشر الحقيقي لفكرة القدر هو الحسن البصري، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٦٦ط١، ١٤٠٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) المنية والأمل ص١٣٣.

(٣) المرجع السابق ص١٣٥.

(٤) المرجع السابق ص١٣٧.

وبهذا قال الدكتور الجابري عن الرسالة المنسوبة للحسن البصري، التي بعث بها إلى عبدالملك بن مروان، إنه كان يقول بالقدر، وإن معبدًا الجهني كان يتردد على مجلسه، وإنه أخذ عنه القول بالقدر»[(١)].

وينقل الدكتور النَّشَّار عن «طاش كبرى زاده» «أن معبدًا الجهني، وعطاء بن يسار، ذهبا إلى الحسن البصري، فقالا: يا أبا سعيد، هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون أموالهم، ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله، وأن الحسن أجابهما: كذب أعداء الله، ثم يقول: «ويبدو أن معبدًا تتلمذ على الحسن بعد ذلك، أو على الأقل تقابل الاثنان، وأثر كل منهما في الآخر»[(٢)].

ولكن هذه الدعاوى الباطلة تردها هذه النصوص؛ فإن الرسالة التي زعم أنه بعث بها إلى عبدالملك بن مروان هي رسالة مزورة عليه؛ بشهادة الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)؛ حيث قال: «ورأيت رسالة نُسِبَتْ إلى الحسن البصري، كتبها إلى عبدالملك بن مروان، وقد سأله عن القول بالقدر، والجبر، فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من الكتاب، ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر: خيره، وشره، من الله ـ تعالى ـ؛ فإن هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم»[(٣)].

ولا عجب أن يزور المبتدعة على علماء السلف مثل هذه المقالات؛ ولذلك اعتنى ابن المرتضى بهذه الرسالة المكذوبة على الحسن ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، ونقل منها ما خطته أيديهم؛ خدمة لبدعتهم المنكرة»[(٤)].

---

(١) د. عابد الجابري، العقل السياسي العربي ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) د. النشار، نشأة الفكر الفلسفي ج١، ص٣١٨، انظر طاش كبرى زادة ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ج٢، ص١٤٤ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) الشهر ستاني. الملل والنحل ج١ص٢٧.

(٤) انظر نص الرسالة في المنية والأمل ص١٣٣ وما بعدها.

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ يحذر الناس من معبد الجهني، ويقول: «إياكم ومعبدًا الجهني؛ فانه ضالٌّ مضلٌّ»، وقال يونس بن عبيد: «أدركت الحسن، وهو يعيب قول معبد؛ يقول: هو ضالٌّ مضلٌّ»[١].

وقال أيوب السختياني (ت ١٣١هـ): «كَذَبَ على الحسن ضربان من الناس: قومٌ القدرُ رأيهم؛ لينفقوه في الناس بالحسن، وقوم في صدورهم شنآن وبغض للحسن»[٢].

وعن حماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ)، عن حميد (حميد بن هلال (ت ١٢٠هـ)) قال: سمعت الحسن يقول: خلق الله الشيطان، وخلق الخير، وخلق الشر، فقال رجل: قاتهلم الله، يكذبون على هذا الشيخ، وقال الحسن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾، [سبأ: ٥٤]، قال: حيل بينهم، وبين الإيمان، وقال حميد: «قرأت القرآن كله على الحسن، ففسره لي أجمع على الإثبات، فسألته عن قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، [الشعراء: ٢٠٠]، قال: الشرك سلكه في قلوبهم»[٣]، وقال أبو سعيد بن الأعرابي: «كان يجلس إلى الحسن طائفة من هؤلاء، فيتكلم في الخصوص، حتى نسبته القدرية إلى الجبر، وتكلم في الاكتساب، حتى نسبته السنية إلى القدر؛ كل ذلك لافتنائه، وتفاوت الناس عنده، وتفاوتهم في الأخذ عنه، وهو بريء من القدر، ومن كل بدعة»[٤]، «فلما توفي تكشفت أصحابه، وبانت سرائرهم، وما كانوا يتوهمونه من قوله، بدلائل يلزمونه بها، لا نصًّا من قوله»[٥].

وقال الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ: «لم يبلغنا أن أحدًا من التابعين تكلم في القدر، إلا الحسن، ومكحول، فكشفنا عن ذلك؛ فاذا هو باطل»[٦].

(١) ابن عساكر، المختصر ج٢٥ص١١٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام ج٤ص٥٨٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ج٤ص٥٨٠ ـ ٥٨١.

(٤) الذهبي، سير ج٤ص٥٨٢.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام ج٤ص٦١.

(٦) الذهبي، تاريخ الإسلام ج٢ص٤٨.

وعن حبيب بن الشهيد (ت ١٠٩هـ)، ومنصور بن زاذان (ت ١٣١هـ)، قال: «سألنا الحسن عن ما بين: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ففسره على الإثبات، قلت (أي الذهبي): على إثبات أن الأقدار لله»[١] ، «وكان يقول: من كَذَّبَ بالقدر، فقد كفر»[٢].

وقيل لمحمد بن سيرين في الحسن، وما كان ينحل إليه أهل القدر، فقال: «كانوا يأتون الشيخ بكلام مجمل، لو فسره لهم لساءهم»[٣].

وبهذه النصوص يتضح تهافت المبتدعة، ومن ناصرهم في عصرنا الحاضر، الذين حاولوا إلصاق معبد الجهني بهؤلاء السادة الأعلام. وختامًا، نريد أن نعطي صورة مجملة عن حياة معبد الجهني، وكما سبق وقلت، يظهر معبد أول مرة في سؤاله للحكمين، ويستوقفنا قول عمرو بن العاص فيه: «إيهًا، تيس جهينة، ما أنت وهذا؟ لست من أهل السر، ولا العلانية، والله، ما ينفعك الحق، ولا يضرك الباطل»[٤]، ويُعَلِّقُ ابن كثير على هذا القول؛ فيقول: «وهذا تَوَسُّمٌ فيه من عمرو بن العاص؛ ولهذا كان هو أول من تكلم في القدر»[٥].

أما يحيى بن يَعْمُرَ، فإنه توجه للطعن في أخلاقه، وعلمه؛ فقال: «كان رجلًا من جهينة، فيه زهو، وكان يترقب على جيرانه، ثم إنه قرأ القرآن، وفرض الفرائض، وقص على الناس، ثم إنه صار من أمره أن زعم أن العمل أُنف، من شاء عمل خيرًا، ومن شاء عمل شرًّا»[٦].

وكان السلف يرون أن تَدَيُّنَ هؤلاء المبتدعة فيه تَلْبِيسٌ على الناس؛ حيث يقول

---

(١)، (٢) تاريخ الإسلام ج٤ص٦١.

(٣) المصدر السابق ج٤ص٦١.

(٤) ابن عساكر ج٢٥ص١١٦.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ج٩ص٣٦.

(٦) ابن عساكر، ج٢٥ص١١٧.

الجوزجاني: «كان قوم يتكلمون في القدر، احتمل الناس حديثهم لِمَا عرفوا من اجتهادهم في الدين، والصدق، والأمانة، ولم يُتَوَهَّمْ عليهم الكذب، وإن بُلُوا بسوء رأيهم؛ منهم: معبد الجهني، وقتادة، ومعبد رأسهم»(١).

وقد كان معبد الجهني على علاقة طيبة مع عبدالملك بن مروان؛ حيث «استقدمه إلى دمشق، وجعله مع ابنه سعيد يؤدبه، ويعلمه»(٢).

ولا نملك من المعلومات ما يكفي لبيان نوعية العلاقة بين عبدالملك بن مروان، ومعبد الجهني، وهل استقدمه قبل أن يقول بالقدر؟ وهذا ما أميل إليه؛ لأن دعوته للقدر ظهرت في البصرة؛ حيث يظهر في ثورة عبدالرحمن محمد بن الأشعث (ت ٨٥هـ)، وهذه المشاركة بالثورة هي التي جعلت الكتاب المعاصرين يطلقون عليه ألقاب البطولة، إلا أن الإمام الذهبي يروي عن سعيد بن عفير «أنه صُلِبَ على إنكار القدر»(٣).

وكان قتله بسبب الضغط الذي مارسه العلماء، والعامة، على عبدالملك بن مروان؛ فقد روى محمد بن زياد الألهاني (ت١٤٠هـ)، قال: «كنا في المسجد، إذ مُرَّ بمعبد الجهني إلى عبدالملك، فقال الناس: هذا هو البلاء، فقال خالد بن معدان (ت ١٠٤هـ): إن البلاء، كل البلاء، إذا كان الأئمة منهم»(٤).

فكان قتله تحت ضغط العلماء، وعامة الأمة الساخطين على إبقاء هؤلاء المبتدعة، ينشرون ضلالتهم في صفوف المسلمين، وقد اخْتُلِفَ فيمن قَتَلَهُ؛ حيث قيل إن الحجاج كان يُعَذِّبُهُ بأنواع العذاب، وقيل إن عبدالملك صلبه، ويجيب على هذا الإشكال الإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ)؛ فيقول: «يكون (أي عبدالملك) صلبه، ثم أطلقه، وقتله الحجاج، سنة ثمانين هجريه»(٥).

---

(١) الذهبي، سير ج٤ص١٨٦.

(٢) ابن عساكر ج٢٥ ص١١٤.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام ج٢ص٣٤١.

(٤) الذهبي، سير ج٤ص١٨٧.

(٥) الذهبي، سير أعلام ج٤ص١٨٧.

هذه هي الصورة الحقيقية لداعية القدرية الأول، في المجتمع الإسلامي الناشئ، وهي الصورة التي حاول المستشرقون، وغيرهم من كتابنا المعاصرين، صياغتها على غير حقيقتها، وكل هذا سببه ضغط الواقع المعاصر، والهزيمة الفكرية، التي من خلالها بدأوا بالبحث عن أولئك المنبوذين في المجتمع الإسلامي الأول، ومحاولة تحسين صورتهم الشائهة؛ بالتهويش، غير عابئين بواقع ذلك المجتمع القريب من عهد النبوة، والرسالة، ذلك العهد الذي حاول فيه أمثال معبد الجهني، ودعاة الفتنة، أن يثيروا في وسطه الشبهات، فكان مصيرهم القتل، والصلب، والتشريد، والتشهير.

ولا يصح بحال إطلاق صفة الشرعية على أولئك الخارجين عن العقيدة الحقة، بحجة التطور الطبيعي في المجتمع الإسلامي، ولا يصح ـ أيضًا ـ وضعهم في مصافِّ العلماء الصادقين، بل يجب أن يوضعوا في دائرة المبتدعين، وأهل الشبهات، وهذا ما سيزداد وضوحًا عند فضحنا للقدرية الأولى بشخص غيلان القبطي، ومن تبعه من القدرية، ثم من تَسَلَّمَ منهم راية الابتداع؛ من المعتزلة، والجهمية.

غَيْلاَنُ الْقِبْطِيُّ الْقَدَرِيُّ:

من دعاة القدرية الأولى، الذين شغلوا الأمة بهذه البدعة المنحرفة، وهو كما يبدو شخصية جمعت بين النصرانية، والإسلام، وهذا الجمع له أهميته؛ حيث نَقَلَ مُعْتَقَدَ النصارى في القدر، وربما زاد عليه باعتقاده معتقد معبد الجهني، بنفي القدر كلية، وهذا سيبدو، بوضوح، عند عرضنا لرسالة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ التي رد فيها على القدرية، الذين ينفون القدر، والعلم الأزلي.

فما طبيعة هذه الشخصية؟ وما خلفية انتماءاتها العقدية؟ ومتى التقى بمعبد الجهني؟ وكيف غاب فترة عشرين عامًا بعد مقتل الجهني، ولم يظهر له نشاط إلا في عهد عمر بن عبدالعزيز؟ ولماذا لم يُقْتَلْ مباشرة؛ كما قتل معبد؟ وهل كان يخفي معتقده الحقيقي أمام الخلفاء، ويدعو لمعتقده الفاسد في أوساط عامة الناس؟ كل هذه التساؤلات، وغيرها، سنتولى الإجابة عنها، في هذا المبحث الصغير، عن غيلان الدمشقي.

لعل أقدم إشارة لنشاط غيلان الفكري ما ذكره ابن سعد في طبقاته، عند ترجمته لميمون بن مهران ـ رحمه الله ـ (ت ١١٨هـ)؛ حيث قال: «كان ميمون بزازًا، وكان على الخراج، وهو جالس في حانوته، فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ)، يستعفيه من الخراج، فكتب إليه عمر: إنما هو درهم، تأخذه من حقه، وتضعه في حقه، فما استعفاؤك من هذا، فلم يزل على الخراج، أيام عمر بن عبدالعزيز، حتى مات عمر، واسْتُخْلِفَ يزيد بن عبدالملك (ت ١٠٥هـ)، فكان ميمون وَالِيَهُ على الخراج أشهرًا، وقد كان ميمون وَلِيَ، قبل ذلك، بيت المال بحران، لمحمد بن مروان (ت ١٠١هـ)، قبل عمر بن عبدالعزيز، فكتب إليه غيلان يَعِظُهُ في ذلك برسالة، فقال ميمون: وَدِدْتُ أن حدقتي سقطت، وأني لم أَلِ عملًا قَبْلُ له، ولا لعمر بن عبدالعزيز»[1]؛ فولاية محمد بن مروان بن الحكم كانت في بداية السبعينات؛ «حيث ولَّاه أخوه عبدالملك بن مروان الجزيرة، وأرمينية، والموصل، وأذربيجان»[2].

وبهذا نستطيع أن نقرب المسألة؛ وهي أن غيلان من الممكن أنه كان يقيم في العراق، والتقى بمعبد الجهني هناك؛ وذلك لعلمه بولاية ميمون بن مهران، ولكن: هل كان غيلان يقول بالقدر في هذه الفترة، ولم يكن ميمون بن مهران قد اطلع على فساد مذهبه فيه؟ ومهما يكن من أمر هذه الموعظة، فقد تكون في بداية إسلامه، حين كان يتأرجح بين الهدى، والضلال؛ حيث تعددت صِلَاتُهُ المشبوهة بين الحارث بن سعيد الكذَّاب، وبين القدرية، فيما بعد.

الْحَارِثُ بْنُ سَعِيدٍ الْكَذَّابُ، وَغَيْلَانُ:

ولكن الملاحظ أن غيلان القبطي لم يكن مستقيمًا في شبيبته؛ فقد روى ابن عساكر عن خالد بن اللجلاج أنه قال لغيلان: «ويحك، يا غيلان! ألم تكن زفانًا (رقاصًا)، ويلك، يا غيلان! ألم تكن قبطيًا، فأسلمت، ويلك، يا غيلان! ألم أجدك في شبيبتك، وأنت ترامي النساء بالتفاح في شهر رمضان، ثم صرت حارسًا، تخدم امرأة

(١) ابن سعد، الطبقات ج٧ص٣٣٢.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم ج٤ص٢٧٢.

حارث الكذَّاب، وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت من ذلك؛ فصرت قدريًّا، أو زنديقًا؟ وقال: ما أَرَاكَ تخرج من هوى إلا دخلت في شر منه»[1].

وسوف ننقل هذا النص الهام الذي يوضح طبيعة صِلَاتِ غيلان بالحارث بن سعيد الكذاب؛ فعن عبدالرحمن بن حسان (ت ١٠٤هـ) قال: «كان الحارث الكذَّاب (قُتِلَ سنة ٧٩هـ) من أهل دمشق، وكان مولى لأبي الجلاس، وكان له أب بالحولة[2]، فعرض له إبليس، وكان رجلًا متعبدًا زاهدًا، لو لبس جبة من ذهب، لرأيت عليه زهادة، قال: وكان إذا أخذ في التحميد، لم يسمع السامعون إلى كلام أحسن من كلامه، قال: فكتب إلى أبيه، وهو بالحولة: يا أبتاه، أعجل علي؛ فإني قد رأيت أشياء أتخوف من أن يكون الشيطان قد عرض لي، قال: فزاده أبوه عناءً، فكتب إليه أبوه: يا بني، أقبل على ما أمرت به، إن الله يقول: ﴿تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، ولست بأفَّاك، ولا أثيم؛ فامض لما أُمِرْتَ به، وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلًا رجلًا، فيذاكرهم أمره، ويأخذ عليهم بالعهد، والميثاق، إن هو رأى ما يرضى قبل، وإلا كتم عليه، قال: وكان يريهم الأعاجيب، كان يأتي إلى رخامة المسجد فينقرها بيده فتسبح، قال: وكان يطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم: اخرجوا حتى أريكم الملائكة، قال: فيخرجهم إلى دير المران، فيريهم رجالًا على جبل، فتبعه بَشَرٌ كثير، وفشا الأمر في المسجد، وكثر أصحابه، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة (ت ١٠٠هـ) ـ رحمه الله ـ تعالى ـ ،قال: فعرض على القاسم، وأخذ عليه العهد، والميثاق إن هو رضي أمرًا قبله، وإن كرهه كتم عليه، فقال له: «إني نبي»، فقال له القاسم: كذبت، يا عدو الله، ما أنت بنبي، ولا لك عهد، ولا ميثاق، قال: فقال له أبو إدريس (ت ٨٠هـ): بئس ما صنعت؛ إذ لم تلين حتى تأخذه، الآن يفر، قال: وقام من مجلسه، حتى دخل على عبدالملك، فنزل الصنبرة (موقع في الأردن)، قال: فاتهم عامة عسكره بالحارث؛ أن يكونوا يرون رأيه»[3]، «وخرج الحارث، حتى أتى بيت

(١) ابن عساكر، المختصر ج٢ص٢٣٩.

(٢) مدينة في فلسطين.

(٣) ابن عساكر ج٦ص١٥١.

المقدس، فاختفى فيها، وكان أصحابه يخرجون، يلتمسون الرجال، يدخلونهم عليه، وكان رجل من أهل البصرة قد أتى بيت المقدس، فأتاه رجل من أصحاب الحارث، فقال له: هاهنا رجل يتكلم، فهل لك أن تسمع من كلامه؟ قال: نعم، قال الوليد: وأهل البصرة يشتهون الكلام؛ فانطلق معه، حتى دخل على الحارث، فأخذ في التحميد، قال: فسمع البصري كلامًا حسنًا، ثم أخبره بأمره، وأنه نبي مبعوث مرسل، فقال له: إن كلامك حسن، ولكن في هذا نظر، قال: فانظر، فخرج البصري، ثم عاد إليه، فرد عليه كلامه، فقال: إن كلامك لحسن، وقد وقع في قلبي، وقد آمنت بك، هذا الدين المستقيم، قال: فأمر أن لا يُحْجَبَ، قال: فأقبل البصري يتردد إليه، تَعَرَّفَ مداخله، ومخارجه، وأين يهرب؟ وأين يذهب؟ حتى صار من أخص الناس به، ثم قال له: ائذن لي، قال: إلى أين؟ قال: إلى البصرة، أكون أول داعية لك بها، فأذن له، فخرج مسرعًا إلى عبدالملك، وهو بالصنبرة، فلما دنا من سرادقه، صاح: النصيحةَ، النصحيةَ، قال: وما نصيحتك؟ قال: نصيحة لأمير المؤمنين، حتى دنا من أمير المؤمنين، فأمر عبدالملك أن يأذنوا له، فدخل عنده، وطلب الخلوة بعبدالملك، وأخرج كل من كان جالسًا، وكان عبدالملك قد اتهم أهل عسكره؛ أن يكون هواهم مع الحارث، فقال ما عندك؟ قال: «الحارث»، فلما ذكر الحارث، طرح نفسه عن السرير، ثم قال: أين هو؟! فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ببيت المقدس، وقد عرفت مداخله، ومخارجه، فقصَّ عليه قصته، وكيف صنع به، فقال: أنت صاحبه، وأنت أمير بيت المقدس، وأمير ما هناك، فمر بنا بما شئت، قال: يا أمير المؤمنين، ابعث معي قومًا لا يفقهون الكلام، فَأَمَرَ بأربعين رجلًا من فرغانة[1]، فقال: انطلقوا مع هذا، فما أمركم به من شيء فأطيعوه، قال: وكتب إلى صاحب بيت المقدس: إن فلانًا أمير عليك حتى يخرج، فأطعه فيما أمرك به، فلما قدم بيت المقدس، أعطاه الكتاب، فقال: مرني بما شئت، قال: اجمع، إن قدرت، كل شمعة ببيت المقدس، وادفع كل شمعة إلى رجل، ورتبهم على أزقة بيت المقدس، وزواياها، بالشمع، فإذا قلت أسرجوا فأسرجوا جميعًا، قال:

---

(١) أناس من العجم من بلاد فارس.

فرتبهم في أزقة بيت المقدس، وفي زواياها، بالشمع، وتقدم البصري وحده إلى منزل الحارث، فأتى الباب، فقال للحاجب: استأذن لي على نبي الله، فقال: في هذه الساعة، ما يُؤْذَنُ عليه حتى يُصْبِحَ، قال: أعلمه أني إنما رجعت شوقًا إليه، قبل أن أصل، قال: فدخل عليه، فأعلمه كلامه، وأمره، قال: افتح الباب، ففتح الباب، ثم صاح البصري: أسرجوا، فأسرجت الشمع، حتى كانت أزقة بيت المقدس كأنها النهار، ثم قال: من مر بكم، فاضبطوه، قال: ودخل كما هو إلى الموضع الذي يعرفه، فنظر، فلم يجده، فطلبه، فلم يجده، فقال أصحابه: هيهات! تريدون أن تقتلوا نبي الله؟ قد رُفِعَ إلى السماء، قال: فطلبه في شق، قد كان هيأه سربًا، قال: فأدخل البصري يده في ذلك الشق، فإذا بثوبه، فاجتره، فأخرجه إلى الخارج، ثم قال للفرغانيين: اضبطوه؛ فربطوه، فبينما هم يسيرون به، إذ قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، [غافر: ٢٨]، فقال أهل الفرغانة ـ أولئك العجم ـ: «هذا كُرَانُنَا، فهات كُرَانَكَ أنت»، فسار به، حتى أتى به عبدالملك، فلما سمع به، أمر بخشبه؛ فنصبت، فصلبه، وأمر بحربة، فأمر رجلًا؛ فطعنه، فأصاب ضلعًا من أضلاعه، فكعت الحربة، فجعل الناس يصيحون: «الأنبياء لا يجوز فيهم السلاح»، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، تناول الحربة، ثم مشى بها إليه، ثم أقبل يتحسس، حتى وافى بين ضلعين، فدلعنه بها، فأنفذها؛ فقتله»[١].

إن هذه الحادثة تصور الواقع الخطير الذي كان ينمو فيه أرباب البدع، ولقد هيأ الله هذا الخليفة المجاهد لحماية عقيدة الأمة من تلاعب الكَذَبَةِ، مدعي النبوة، وقد أحدث هذا الفعل العظيم بهجة كبيرة في نفوس علماء الأمة، وجمهورها؛ يمثله قول العلاء بن زياد (ت ٩٤هـ)، قال: «ما غبطت عبدالملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثًا»[٢].

---

(١) ابن عساكر، المختصر ج٦ص١٥١-١٥٣، انظر بشأن الحارث بن سعيد: لسان الميزان ج١ص٤٣٢، الذهبي، تاريخ الإسلام ج٣ص٣٨٦، ابن حجر، لسان الميزان ج٢ص١٩٢، ابن كثير، البداية والنهاية ج٩ص٢٧.

(٢) ابن عساكر ج٦ص١٥٤.

لقد كانت حركة الحارث بن سعيد الهدامة محاولة خطيرة للانقضاض على أهم مقومات المجتمع الإسلامي الناشيء، من خلال الاتباع، وإفساد معظم عسكر الخليفة، الذين يرون رأيه الفاسد، وكان من ضمن هذه الفئة المنحرفة غيلان القبطي، الذي نذر نفسه للانضمام لكل حركة هدامة تنشأ، ويعطينا ابن عساكر معلومة قيمة عن طبيعة معتقد غيلان الفاسد في هذه المرحلة؛ قال يحيى بن مسلم (ت ١٣٠هـ): «أتيت بيت المقدس للصلاة فيه، فلقيت رجلًا، فقال: هل لك في إخوان لك؟ قلت: نعم، قال: فَبِتِ الليلة، فإذا أصبحت لقيتك، فلما أصبح لقيني، فقال: هل رأيت الليلة في منامك شيئًا، قلت: لا، إلا خيرًا، قال: فصنع بي ذلك ثلاث ليال، ثم قال: انطلق، فانطلقت معه، حتى أدخلني سربًا فيه غيلان، والحارث الكذَّاب، في أصحاب له، ورجل يقول لغيلان: يا أبا مروان، ما فعلت الصحيفة التي كنا نقرؤها بالأمس، قال: عُرِجَ بها إلى السماء، فأحكمت، ثم أهبطت، فقلت: إنا لله، ما كنت أرى أني أعيش، حتى أسمع بهذا في أمة محمد ﷺ»[1].

لقد كان غيلان ضمن إحدى المجموعات الهدامة، التي تخطط في سراديب الظلام؛ لتخريب عقيدة الأمة، وتمزيقها من داخلها، وهذه طرق أرباب الفرق المنحرفة؛ بالترصد للأشخاص، ومحاولة إضلالهم عن عقيدة الحق، ولكن الله ـ سبحانه ـ قيض لهذا الدين من يَفْضَحُ أمثال هؤلاء المارقين، ويخزيهم، وهنا يبرز السؤال الهام: أين توارى غيلان بعد مقتل الحارث بن سعيد؟ وأين أفلت من القتل؟ أم أنه هرب فترة طويلة؟ إذا علمنا أن «ولاية محمد بن مروان كانت على الجزيرة، وأرمينية، والموصل، وأذربيجان»[2]، في عهد أخيه عبدالملك بن مروان، والذي يرجح أنه كان في سنة (٦٥ هـ)؛ فيكون غيلان قد اختفى فترة تزيد على الخمسة والعشرين عامًا؛ ليظهر في آخر خلافة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ تعالى.

---

(١) ابن عساكر ج٢ص٢٤٠.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم ج٤ص٢٧٢.

غَيْلَانُ، وَمَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، وَيُوحَنَّا الدِّمَشْقِيُّ:

إن اختفاء غيلان بعد مقتل الحارث بن سعيد يحتاج إلى بحث عن صِلَاتِهِ الجديدة التي نشأت، والتي تَرَجَّحَ بسببها انتقاله إلى مقالة القدرية الضالة، بعد أن قُتِلَ مدعي النبوة الكذاب، الذي كان غيلان يخدم امرأته، ويقول عنها أم المؤمنين[(١)].

والأمر الذي يثير التساؤل هو أن علماء السلف نصوا على أن غيلان أخذ القول بالقدر عن معبد الجهني، وهذا يجعلنا نطرح الاحتمالين الآتيين: إما أن غيلان قابل معبدًا في العراق، حيث يقيم في البصرة، وهذا مستبعد؛ وذلك لانشغال غيلان مع الحارث بن سعيد، والاحتمال الثاني: هو مقابلة غيلان لمعبد الجهني في دمشق، عندما استقدمه عبدالملك بن مروان لتعليم ابنه سعيد؛ كما سبق وذكرنا، ولكن هذه اللقيا لم تطل كثيرًا؛ إذا علمنا أن الحارث بن سعيد قُتِلَ سنة (٧٩ هـ)، وصُلِبَ معبد في سنة (٨٠ هـ)؛ كما هو مشهور؛ مما يدلل على سرعة انتقال غيلان من هوى إلى هوى؛ كما وصفه خالد اللجلاج، ولكن غيلان القبطي وجد ضالته، فيما يبدو، في يوحنا الدمشقي، الذي نصب نفسه لمحاربة الأمة فكريًّا، وعقديًّا.

وقد رجح الدكتور عبدالرحمن بدوي حدوث اللقيا بين غيلان، ويوحنا الدمشقي (ت ١٠٧هـ) على النحو التالي؛ حيث قال: «كان يوحنا الدمشقي معاصرًا لمعبد الجهني، وغيلان الدمشقي، ويقطن ثلاثتهم في دمشق، في وقت واحد، والسؤال الذي لا سبيل إلى الجواب عليه هو: هل تلاقوا، وتناقشوا؟ إن رسالة يوحنا الدمشقي بعنوان: «نقاش بين مسيحي ومسلم» تؤذن بحدوث مجادلات بين يوحنا من ناحية، وبين علماء مسلمين من ناحية أخرى، وإذن، قيام مناظرات بينه، وبين المسلمين، ثابت

---

(١) قال ابن المبارك (عبدالله بن المبارك ١٨١هـ): كان من أصحاب الحارث الكذاب، وممن آمن بنبوته، فلما قتل الحارث قام غيلان مقامه، ولعل انتهاء أمر الحارث على هذه الشاكلة أنهى القضية تمامًا فإن غيلان لم يكن يملك نفس قدرات الحارث بالحيلة والكذب، ولكن الذي يرجح أنه انتقل إلى الدعوة لإنكار القدر، وتخريب عقيدة الأمة انتقامًا لمقتل أستاذه الحارث ابن سعيد. (انظر خبر ابن المبارك في لسان الميزان ج٤ص٤٩٢).

تاريخيًّا، وإذن، فالاحتمال الوحيد هو أن يكون تأثيره، إن كان له تأثير ـ حقًّا ـ، عن طريق المناظرات، والمجادلات مع المثقفين»[١].

ونحن بدورنا نتساءل: هل كانت هناك صِلَاتٌ بين سوسنة العراقي، ويوحنا الدمشقي؟ وهل استفرد كل منهما بمجموعة معينة لإضلالها، وتلقينها معتقد القدرية؟ وما الفرق بين سوسنة العراقي، وغيلان القبطي؟ وهل خضع معبد الجهني، وغيلان، إلى أستاذية يوحنا الدمشقي عليهم؟ ولماذا استخفى غيلان الدمشقي، بعد مقتل الحارث بن سعيد، أو بعد صلب معبد، ما يزيد على عشرين سنة، ليظهر في أواخر عهد عمر بن عبدالعزيز، داعية للقدر؟ الحقيقة أن غيلان الدمشقي، بمروقه، كان يبحث عن فرصة مواتيه لتخريب عقيدة المسلمين، والطعن فيها، ثم إن الحرية التي كان يتمتع بها الناس في ذلك العصر كانت تتيح مثل هذه اللقاءات، والمناظرات، وقد تكونت في منتصف القرن الأول من التاريخ الإسلامي الكثير من الجمعيات السرية الهدامة، التي استغلت مناخ الحرية، وعملت في الخفاء؛ للعيش بعقائدها المنحرفة، والعمل على تشويه عقائد الإسلام؛ عن طريق دخولهم الإسلام؛ مثل ابن سبإ، وغيلان، وسوسنة، والعمل من داخل الإسلام، وبمعاونة الكهنة، ودهاقنة الملل الأخرى المعادية.

وهذه الحقيقة ليست تخمينًا، أو توقعًا، بل أثبت الواقع التاريخي صدقها، ممثلة بعشرات الفرق المنحرفة، التي صِيغَتْ بصور مزيفة، تجمع بين العقائد المنحرفة لأهل البلاد المفتوحة، وبين الإسلام، الذي اتُّخِذَ إعلانه وقاية لهم من القتل، والشريد.

إذن الافتراض الصحيح، في هذه المرحلة الزمنية من حياة غيلان، أنه التقى بمعبد الجهني، وأخذ عنه القول بنفي القدر، يُضَاف إلى أنه كان خاضعًا ليوحنا الدمشقي، يعلمه أصول البدعة بالخفاء، وهذا التخفي الذي مارسه غيلان أَمْلَتْهُ الظروف الجديدة، بعد مقتل أستاذه معبد، سنة (٨٠ هـ)؛ بسبب القول بالقدر، ولكن ما السبب الذي جعل غيلان، بعد هذا التخفي، يقول بالقدر، في أواخر عهد عمر بن عبدالعزيز؟ إن الذي يجعلنا نختاره من أهم الأسباب أن عمر بن عبدالعزيز كان رجلًا عالمًا في مسائل

---

(١) د. بدوي، مذاهب الإسلاميين ج١ص١١٨ ـ ١١٩ بتصرف.

العقيدة، والشريعة، وازدهر العلم والعلماء في عهده، ولعله، وجد غيلان في هذه الفترة، وقد لبس لباس أهل التقوى، والصلاح، ولم يَعْلَمْ تاريخه السابق؛ من مؤازرة الحارث بن سعيد، وملازمته لمعبد الجهني، وكان يدخل على عمر بن عبدالعزيز، ويحاوره كما يحاور غيره، وكان غيلان يمتدح عمر بأنه أنقذه من الضلال، وغير ذلك، فإذا ما خرج من عنده عاد للحديث في القدر، على النحو المذموم.

وقد زعم ابن المرتضى أن غيلان القبطي قد أرسل رسالة لعمر بن عبدالعزيز قال فيها: «أبصرت، يا عمر، وما كدت، اعلم، يا عمر، أنك أدركت من الإسلام خلقًا باليًا، ورسمًا عافيًا، فيا ميتًا بين الأموات، لا ترى أثرًا فتتبع، ولا تسمع صوتًا فتنتفع، طُفِئَ أمر السنة، وظهرت البدعة، أُخِيفَ العالم فلا يتكلم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت؟ فهل وجدت، يا عمر، حكيمًا يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يُعَذِّبُ على ما قضى، أو يقضي ما يُعَذِّبُ عليه؟ أم هل وجدت رشيدًا يدعو إلى الهدى، ثم يضل عنه؟ أم هل وجدت رحيمًا يكلف العباد فوق الطاقة، أو يعذبهم على الطاعة؟ أم هل وجدت عدلًا لا يحمل الناس على الظلم، والتظالم؟ وهل وجدت صادقًا يحمل الناس على الكذب، والتكاذب بينهم؟ كفى ببيان هذا بيانًا، وبالعمى عنه عمى»(١).

وبعد عرض هذه الرسالة المزعومة يقول ابن المرتضى: «فدعا عمر غيلان، وقال: أعني على ما أنا فيه، فقال غيلان: وَلِّني بيع الخزائن، ورد المظالم، فولّاه، فكان يبيعها، وينادي عليها، ويقول: تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظَّلَمَةِ، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته، وسيرته»(٢).

هذه الرسالة المزعومة تعبر عن أماني القدرية، والمعتزلة، التي تزعم أن سيادة منهج أهل السنة، والسلف، في قرونها المفضلة، هو انحراف، فكيف يكون عمر بن عبدالعزيز قد أدرك من الإسلام خلقًا باليًا، ورسمًا عافيًا؟ وكيف طُفِئَ أمر السنة،

---

(١) ابن المرتضى، المنية والأمل ص١٣٧- ١٣٨ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص١٣٨.

وظهرت البدعة؟ وما البدعة إلا دعوة غيلان، وأمثاله، الإسلام الذي كان في عنفوان عزته، وقوته، يصفه القدرية هذا الوصف؛ لأنهم مقموعون بسبب بدعتهم المنكرة، ثم يتمادى المعتزلة بالكذب، ونصرة القدرية، ويكذبون على حقائق التاريخ؛ بأن عمر بن عبدالعزيز قد ولى غيلان رد المظالم، وهذه أكذوبة لا سند لها، وإنما ذكر ابن عساكر أن عمر بن عبدالعزيز، ولَّاه دار الضرب في دمشق»[١]، وهذه الرسالة يبدو فيها التكلف، وصياغتها بعيدة عن لغة ذلك العصر، وأكبر ظني أنها صيغت متأخرة، بعد أن استوت مذاهب القدرية، والمعتزِلة، فأخذوا يصنعون لأنفسهم أمجادًا، وبطولات؛ عن طريق، وضع مثل هذه الحكايات، التي لم تحدث أصلًا، يضاف إلى هذا تلك العبارات التي تمثل مذهب القدرية الفاسد؛ فكيف يُقِرُّ عمر بن عبدالعزيز هذه الألفاظ، ثم يدعوه للعمل في خلافته؟ إنها أماني المعتزِلة، خلفاء القدرية المبتدعة، أَنْ يكون عمر بن عبدالعزيز يوافق مذهب القدرية الباطل، وعندما عَيَّنَهُ في دار الضرب ـ أيضًا ـ أظهر غيلان مكنون نفسه الحاقد على هذا الدين؛ فعن إسحاق بن عبدالله (ت ١٣٢هـ)، قال: «لقيت غيلان القدري، فقلت له: من كان أشد الناس عليك كلامًا؟ فقال: كان أشد الناسِ علي كلامًا عمر بن عبدالعزيز، كأنه يُلَقَّنُ من السماء، ولقد كنت أطلب له المسائل، أُعْنِتُهُ فيها، فبينما أنا ذات يوم في السوق، إذا دَرَاهم بيض، يقلبها اليهودي، والنصراني، والحائض، والجنب، قلت: إن يكن يوم أظفر به فاليوم، قال: فدخلت عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه الدراهم البيض، فيها كتاب الله، يقلبها اليهودي، والنصراني، والحائض، والجنب؛ فإن رأيت أن تأمر بمحوها، فقال لي: أردت أن تحتج علينا الأمم؛ أن غيرنا توحيد ربنا، واسم نبينا، قال: فَبُهِتُّ، فلم أدر ما أرد عليه»[٢].

وعندما عَلِمَ عمر بن عبدالعزيز بأن غيلان يتكلم في القدر، أتى به، وناقشه مرات عديدة[٣]، وحصره فيها، حتى أعلن التوبة، وما لجوء هذا الخليفة العالم إلى النقاش إلا

(١) ابن عساكر، ج٢٠ص٢٤٢.

(٢) ابن عساكر، ج٢٠ص٢٤٠.

(٣) سنثبت مناقشات عمر بن عبدالعزيز عند بحثنا لردود علماء السلف على القدرية بإذن الله.

دافعًا فطريًّا منه لما يحويه من العلم ـ رحمه الله ـ، ورغبته في بيان الحجة على غيلان، وإبطال انحرافه في القدر، ولكن غيلان كان يُخَادِعُ، ويكذب، ويعلن التوبة، ثم يعود ثانية، ولقد هَمَّ عمر بن عبدالعزيز أن يقتله، لولا إيماءات عمر بن مهاجر (ت ١٣٩هـ) برأسه لغيلان، ولصالح بن سويد، بالموافقة على ما يقول عمر بن عبدالعزيز، ثم يصفه عمر بأقبح الأوصاف، حتى أنه قال له: «كيف ترى، يا بن الأتانة، تأخذ بالفروع، وتدع الأصول؟»[١]، وكان كُلَّما جُلِبَ إلى عمر بن عبدالعزيز ينكر ما يُنسب إليه من القول بالقدر، وكان يقول: «يَكْذِبُونَ علي، يا أمير المؤمنين»، وكان يقرئه من القرآن أدلة على القدر، ثم يزعم أنه ما كان سبق، وقرأ هذه الآيات.

والسؤال الذي يمكن طرحه هو: أين كان غيلان يتكلم في القدر؟ ولماذا يسكت، وينكر في حضرة الخلفاء؟ الحقيقة أن غيلان كان يجمع فئات معينة، ومحدودة، ستظهر في عهد هشام؛ حينما يسيرهم إلى جزيرة دهلك هناك، ولكن يبدو أن غيلان؛ من كثرة جداله مع أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، قد أعلن التوبة ظاهرًا، وكف عن القول بالقدر، ولكنه عاد إليه في خلافة هشام، الذي ناظره ـ أيضًا ـ قبل أن يقتله.

أما نهاية غيلان، فقد كانت ضرب عنقه، وصلبه، قال محمد بن كثير: «كان على عهد هشام بن عبدالملك (ت ١٢٥هـ) رجل يُقَالُ له غيلان القدري، فشكاه الناس إلى هشام، فَبُعِثَ به إلى هشام، فقال له: قد كثر كلام الناس فيك»[٢]، ويبدو أن هشامًا أعطاه فرصة للتوبة، ولكنه لم يَتُبْ؛ فأتى به هشام، وهو مغضب، فقال له: «ألست كنت عاهدت الله (لعمر بن عبدالعزيز) أنك لا تَكَلَّمُ في شيء من كلامك؟ قال: أَقِلْني، يا أمير المؤمنين، قال: لا أقالني الله، إن أنا أقلتك، يا عدو الله، (ويناظره هشام بنفسه لأقامة الحجة عليه؛ فيقول له: أتقرأ فاتحة الكتاب؟ قال: نعم، فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قال: قف، يا عدو

(١) ابن عساكر، المختصر ج٢٠ص٢٤٢.

(٢) ابن عساكر، المختصر ج٢٠ص٣٤٥.

الله، عَلَامَ تستعين الله؟ على أمر بيدك، أم على أمر بيده؟ من هاهنا انطلقوا به، فاضربوا عنقه، واصلبوه، قال: يا أمير المؤمنين، عَلَامَ تَضْرِبُ عُنُقِي؟ على غير حجة؟ قال: يا أمير المؤمنين، أبرز إلي رجلًا من خاصتك أناظره؛ فإن أدرك علي، أمكنته من علاوتي، فليضربها، وإن أنا أدركت عليه، فاتبعني به، فدعا له الأوزاعي»(١).

وبعد مناظرة الأوزاعي له، وعدم قدرته على الرد على شيء من الأسئلة، قتله هشام، نَقُولُ هذا للرد على أكاذيب المعتزِلة، الذين زعموا أن هشامًا أحضر غيلان، وصالح بن سويد، من أرمينية حيث كانوا يشاركون في ثورة مزعومة؛ حيث يزعم ابن المرتضى أن غيلان، وصالح بن سويد(٢)، أثَّرا في الناس، وتجمعوا حولهما، وذكر على لسان غيلان عبارات تعبر عن أن القدرية هم أهل الحق، وغيرهم أهل الباطل؛ بقوله: «قاتلهم الله! كم من حق أماتوه! وكم من باطل أحيوه! وكم من ذليل في دين الله أعزوه! وكم من عزيز في دين الله أذلوه!»(٣).

وإذا كان ابن المرتضى يدافع عن سلفه من القدرية، فإنا نستغرب أشد الغرابة أن يدافع عنه الدكتور النشار هذا الدفاع العجيب؛ فيقول: «كانت الشخصية القدرية الثالثة هي شخصية غيلان بن مسلم الدمشقي، (الشهيد) الثالث لمذهب الإرادة الحرة، (والمثل الأعلى) للدفاع عن عقيدته، والثبات عليها في وجه عتاة بني أمية»(٤)، ويحاول أن ينفي عنه أنه نصراني قبطي؛ فيقول مقالة لا دليل عليها: «فذهب البعض إلى أنه غيلان بن مسلم القبطي، وذهب البعض الآخر إلى أنه النبطي، والنبطي أقرب إلى الصحة»(٥)، وقد نسب هذا الرأي إلى البغدادي في «الفرق بين الفرق»، وبحثنا

(١) ابن عساكر ج٢٠ص٢٤٧، سوف نأتي على مناظرة الأوزاعي لغيلان، عند ردود السلف على القدرية ـ إن شاء الله.

(٢) لم نفرد صالح بن سويد في ترجمة وذلك لقلة المعلومات حوله، وإنما ذكر مع غيلان وفي ترجمته، ويبدو أن غيلان كان رئيس القدرية في عصره.

(٣) ابن المرتضى، المنية والأمل ص١٣٩.

(٤)، (٥) النشار، نشأة الفكر الفلسفي ج١ص٣٢١.

الكتاب صفحة صفحة، فلم نجد أن البغدادي ذكر ذلك: لا القبطي، ولا النبطي، وإنما أشار إليه بالدمشقي[١]، بينما لفظ «القبطي»، ورد في «المعارف» لابن قتيبة[٢]، وفي ابن عساكر، على لسان خالد بن اللجاج؛ حين قال له: «ألم تكن قبطيًّا فأسلمت؟»[٣].

ويحاول الدكتور النَّشَّار الربط بين غيلان، والحسن بن محمد بن الحنفية، ويزعم أنه درس عليه بالتخمين، ولم يورد دليلًا على ذلك؛ فيقول: «وقد درس في المدينة، فيما يبدو، على الحسن بن محمد بن الحنفية، وكان الحسن؛ كما قلنا من قبل، يعتنق الإرجاء، بل هو واضع المذهب؛ ولهذا تذكر المصادر أن الغيلانيين من المعتزلة قالت به»[٤]، أما كون ابن الحسن، وضع كتابًا في الإرجاء، فهذا لا يقتضي أن يكون غيلان قد تتلمذ عليه، خاصة وأن الحسن وضع كتابًا في الرد على القدرية، سنثبته، يُضَافُ إلى ذلك عدم ذكر أي مقابلة لغيلان، فهو ليس راويًا للحديث، ولم يُوضَعْ في كتب المحدثين، قال ابن عدي: «ولا أعلم له من المسند شيئًا»[٥]، ثم ينتصر إليه النشار على حساب علماء السلف الثقات؛ فيقول: «ورأى هشام أن يضفي على قتله لغيلان، وصاحبه صالح، بعض المشروعية، فدفع به إلى الأوزاعي؛ ليناقشه، ويفتي في أمره، وكان الأوزاعي (عميلًا وضيعًا) لبني أمية، عاش في رحابهم، يغدقون عليه الأموال، ويشترون دينه، ودنياه، ويدفعون ثمن فتاويه، وهو يحارب مجتمع المسلمين، ويفتي بقتل كل من عبَّر عن آلام هذا المجتمع»[٦]، ثم يختم بقوله: «إننا نرى بوضوح أن الرجل كان من أعظم الشخصيات الإسلامية في تاريخ الأمة الإسلامية، إنه إنما كان

---

(١) الفرق بين الفرق ص١٩.

(٢) المعارف ص٦٢٥، ت. ثروت عكاشة.

(٣) ابن عساكر ج٢ص٢٣٩.

(٤) النشار، نشأة الفكر ج١ص٣٢١.

(٥) ابن عدي، الكامل في الضعفاء ج٦ص٢٠٣٨، دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ.

(٦) النشار ج١ص٣٢٣.

يمثل المجتمع الإسلامي تمثيلًا مثاليًا؛ في مقاومته لبني أمية، وكان ضمير هذا المجتمع يتكلم باسمه، ويتعذب أشد العذاب لأجله، ولسنا نجد في كل ما ترك من كتابات، أو رسائل[1]، أثرًا لتفكير خارجي عن الإسلام، ولا نجد في كتاباته مناقشة جدلية تقوم على أسس منطقية؛ كما نرى هذا في مجامع المسيحيين في ذلك الوقت، المسلحين بالفلسفة اليونانية، والمنطق اليوناني، إنما نرى حماسًا مذهبيًا، يأخذ على الرجل كل جوانحه، وامتدادًا لدعوة التابعي الجليل معبد بن خالد الجهني (صلب ٨٠هـ)، وصديقه ابن يسار (ت ١٠٠هـ)، (ولم يكن قدريًا)، كان غيلان يمثل المجتمع الإسلامي؛ فالمسألة، إذن، هي في نطاق إسلامي بحت، ولا تتعداه، فلا أخذ أصحاب مذهب الإرادة الحرة من بيلاجيوس، ولا من يوحنا الدمشقي، ولا من غيرهما»[2].

وهكذا يَخْلُصُ الدكتور النَّشَّار إلى القول بأن دعوة غيلان الْمُنْكِرَةَ لأصل من أصول العقيدة، وركن من أركانها، هي دعوة لمذهب الإرادة الحرة، لم يسمع عنه إلا في العصر الحديث، وينكر الأثر الخارجي في هذه الدعوة، وغيلان نفسه طارئ، وخارج عن الأمة، وعالج غيلان، ومعبد، وسوسنة، مسألة القدر على غير الهدي الرباني، ولا النبوي، ويكفي ما قدمنا عن غيلان لإبطال مزاعم المعتزِلة؛ ممثلة بابن المرتضى، والمعاصرين؛ ممثلين بالدكتور النشار.

وقد كان قتل غيلان، وصلبه (سنة ١٠٧هـ)، في عهد هشام، هذا الخليفة، الذي قُتِلَ في عهده الكثير من المارقين؛ مثل غيلان، والمغيرة بن سعيد، وبيَان بن سمعان، والجعد بن درهم، وغيرهم من المبتدعة، الذين نشروا المقالات الكفرية في الأمة، وأسهموا في فرقتها العقدية، فجزاه الله خيرًا.

---

(١) لا يوجد أي كتابات أو رسائل منشورة لغيلان إلا خطب لا تعد وسطورًا. انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار ج٢ص١٢٣، ص٣٤٥، ومن المدافعين عن غيلان ـ د. عابد الجابري الذي وصفه بأن مؤسس الأيدلوجيا التنويرية بدعوته لإنكار القدر. انظر العقل السياسي العربي ص٣١٣.

(٢) د. النشار ج١ص٣٢٤.

٢ـ تَحْقِيقُ مَقَالَةِ الْقَدَرِيَّةِ الْأُولَى:

إن مقالة القدرية الأولى تقوم على نفي العلم الأزلي لله ـ تعالى ـ، وأن لا قدر، والذي يوضح هذا المعتقد الضال، ما رواه الإمام مسلم عن يحيى بن يعمر، قال: «كان أول من تكلم في القدر معبد الجهني، فخرجت أنا، وحميد بن عبدالرحمن، نريد مكة، فقلت: لو لقينا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء القوم، فلقينا عبدالله بن عمر رضي الله عنه، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل المسألة إلي، فقلت: يا أبا عبدالرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يتقفرون هذا العلم، ويطلبونه، ويزعمون (أن لا قدر، إنما الأمر أُنف)، قال: فإذا لقيت أولئك، فأخبرهم إني منهم بريء، وأنهم مني برآء» ... الحديث»[(١)].

قال الإمام النووي رحمه الله ـ تعالى ـ (ت٦٧٦هـ): «واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه أن الله ـ تبارك ـ قدر الأشياء في القدم، وعلم ـ سبحانه ـ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ـ سبحانه وتعالى ـ على صفات مخصوصة، فهي تقع على ما قدرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه ـ سبحانه ـ لم يُقَدِّرْهَا، ولم يتقدم علمه ـ سبحانه وتعالى ـ بها، وأنها مستأنفة العلم؛ أي إنما يعلمها ـ سبحانه ـ بعد وقوعها، وكذبوا على الله ـ سبحانه وتعالى، وجل عن أقوالهم الباطلة، علوا كبيرًا ـ، وسميت هذه الفرقة قدرية؛ لإنكارهم القدر»[(٢)].

وقد نقل علماء السلف جملة من الروايات التي تُعَبِّرُ عن حقيقة مقالة القدرية؛ فقد روى ابن عساكر «أنه مر رجل على غيلان، وقد قطع هشام يده، والذباب على يده، فقال له يا غيلان: هذا قضاء وقدر، قال: كذبت، لعمر الله، ما هذا قضاء ولا قدر؛ فبعث إليه هشام فصلبه»[(٣)].

وقال يحيى بن يعمر: «كان رجل من جهينة فيه زهو، وكان يترقب على جيرانه،

---

(١) سبق تخريجه، صحيح مسلم ح رقم ٨٠.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم ج١ص١٥٤.

(٣) ابن عساكر ج ٢٠ ص٢٤٢.

ثم إنه قرأ القرآن، وفرض الفرائض، وقص على الناس، ثم إنه صار من أمره أنه زعم أن العمل أُنف، من شاء عمل خيرًا، ومن شاء عمل شرًّا»[١].

ويفرق محمد بن علي بن الحسين الباقر (ت ١١٤هـ) ـ رحمه الله ـ بين مواقف الناس من القدر، عندما سأله الحارث بن شريح، قال: «سألت أبا جعفر محمد بن علي، فقال: أشامي أنت؟ فقالوا له: إنه مولاك، فقال مرحبًا، وألقى لي وسادة من أدم، قال: قلت: إن منهم من يقول: لا قدر، ومنهم من يقول: قدر الله الخير، ولم يقدر الشر، ومنهم من قال: ليس شيء كائن، ولا شيء كان إلا جرى به القلم، فقال: بلغني أن قبلكم أئمة يُضِلُّونَ الناس، مقالتهم المقالتان الأوليان، فمن رأيتم منهم إمامًا يصلي بالناس فلا تصلوا وراءه، ثم سكت هنيهة، ثم قال: من مات منهم فلا تصلوا عليه، قاتلهم الله! إخوان اليهود، قلت: قد صليت خلفهم، قال: من صلى خلف أولئك فليعد الصلاة»[٢].

وروى اللالكائي عن عكرمة بن عمار (ت ١٥٩هـ) قال: سألت يحيى بن أبي كثير (ت ١٢٩هـ): مَنِ الْقَدَرِيَّةُ؟ فقال: الذين يقولون: إن الله لم يقدر المعاصي»[٣].

وقال إسماعيل المزني (ت ٢٦٤هـ): قال الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ): «تدري من القدري؟ الذي يقول إن الله لم يخلق الشيء حتى عُمِلَ به»[٤]، وفي رواية أنه سأل الشافعي عن القدرية، فقال: «هم الذين زعموا أن الله لا يعلم المعاصي حتى تكون»[٥].

وفي رسالة للإمام العادل عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ) ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، بعثها للرد على القدرية الغلاة، الذين كانوا يراسلونه عن بُعْد، ولم يكونوا يجرءون على

(١) ابن عساكر ج٢٠ص٢٤٢.

(٢) الآجري، الشريعة ص٢٢٤، ت محمد حامد الفقي، الناشر، أنصار السنة المحمدية، لاهور.

(٣) اللالكائي، شرح اعتقاد أهل السنة جـ٤ ص٧٠٠.

(٤) اللالكائي ج٤، ص٧٠١.

(٥) اللالكائي ج٤، ص٧٠٣.

ذلك بحضرته، قال لهم: «أما بعد، فإنكم كتبتم إلي بما كنتم تستترون منه قبل اليوم، في رد علم الله، والخروج منه إلى ما كان رسول الله ﷺ يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر»[١]، ثم قال: «تقولون لو شاء العبد لعمل بطاعة الله، وإن كان في علم الله أنه غير عامل بها، ولو شاء ترك معصيته، وإن كان في علم الله أنه غير تارك لها، فأنتم إن شئتم أصبتموه، وكان علمًا، وإذا شئتم رددتموه، وكان جهلًا، وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علمًا ليس في علم الله، وقطعتم به علم الله عنكم، وهذا ما كان ابن عباس يعده للتوحيد نقضًا[٢]... ، فزعمتم أن الله أثبت في قلوبكم الطاعة، والمعصية، فعملتم بقدرتكم بطاعته، وتركتم بقدرته معصيته، وأن الله خِلْوٌ من أن يكون يختص أحدًا برحمته، أو يحجز أحدًا عن معصيته، وزعمتم أن الشيء الذي يُقَدَّرُ إنما هو عندكم اليسر، والرخاء، والنعمة، وأخرجتم منه الأعمال، وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة، أو هدى، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله، وأنكم الذين حجزتموها عن المعصية لغير قوة من الله، ولا إذن منه»[٣].

«وقلتم أنتم إن أبليس، وأولياءه من الجن، قد كانوا ملكوا رد علم الله، والخروج من قَسَمِهِ الذي أقسم به؛ إذ قال: ﴿ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، حتى لا ينفذ له علم إلا بعد مشيئتهم، فماذا تريدون بهلكة أنفسكم في رد علم الله؟ ... فأنكرتم أن الله أزاغ قومًا قبل أن يزيغوا، وأَضَلَّ قومًا قبل أن يضلوا»[٤]، «وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى، وأنما علمه (بزعمكم) حافظ، وأن المشيئة في الأعمال إليكم، إن شئتم أحببتم الإيمان، فكنتم من أهل الجنة ...»[٥]، «ثم أنتم، بجهلكم، قد أظهرتم دعوة حق على تأويل باطل، تَدْعُونَ

---

(١) الأصفهاني، حلية الأولياء ج٥ ص٣٤٦، ط٥، ١٤٠٧، دار الريان، القاهرة.

(٢) الحلية ج٥، ص٣٤٧.

(٣) الحلية ج٥، ص٣٤٨.

(٤) الحلية ج٥، ص٣٥٠.

(٥) الحلية ج٥، ص٣٥١.

الناس إلى رد علم الله، فقلتم: الحسنة من الله، والسيئة من أنفسنا»[١].

ويصنفهم الإمام الملطي على النحو التالي: «من القدرية صِنْفٌ يقال لهم المُفَوِّضَةُ، وزعموا أنهم موكلون إلى أنفسهم، أنهم يقدرون على الخير كله بالتفويض الذي يذكرون، دون توفيق الله، وهداه ....، ومنهم صِنْفٌ زعموا أن الله ـ عز وجل ـ جعل إليهم الاستطاعة تامًّا كاملًا، لا يحتاجون إلى أن يزدادوا فيه، فاستطاعوا أن يؤمنوا، وأن يكفروا، ويأكلوا، ويشربوا، ويقوموا، ويقعدوا...، وزعموا أن العباد كانوا يستطيعون أن يؤمنوا، ولولا ذلك ما عذَّبهم على ما لا يستطيعون إليه...، وصِنْفٌ أنكروا أن يكون العلم سابقًا على ما به العباد عاملون، وما هم إليه صائرون...، وصِنْفٌ أنكروا أن الله ـ عز وجل ـ خَلَقَ وَلَدَ الزنا، أو قدَّرَهُ، أو شَاءَهُ، أَوْ عَلِمَهُ ـ تعالى الله عما قالوا ـ، وأنكروا أن يكون الرجل الذي سَرَقَ في عمره كله، أو يأكل الحرام، أن يكون ذلك رزق الله ـ عز وجل ـ، وقالوا: لم يَرْزُقْهُ الله رزقًا قَطُّ إلا حلالًا...، وصِنْفٌ زعموا أن الله ـ عز وجل ـ وَقَّتَ لهم الأرزاق، والآجال، لوقت معلوم؛ فمن قَتَلَ قتيلًا، فقد أعْجَلَهُ عن أجله، ورِزْقُهُ لغير أجله، وبقي له من الرزق ما لم يَسْتَوْفِهِ، ولم يستكمله ـ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا»[٢].

ويقول القلقشندي: «هم القائلون بأن لا قدر سابق، وأن الأمر أُنف، ويستعظمون الإيمان بالقدر: خيره، وشره، ويتبرءون منه، وينكرون القول بأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويقولون: إذا كان أمر مفروغ منه ففيم يسدد الإنسان، ويقارب؟ ويطعنون في رواة حديث: «اعملوا، فكل ميسر لما خُلِقَ له»[٣].

---

(١) الحلية ج٥، ص٣٥١، كل ذلك بتصرف أثبتناها لنعطي ضوءًا على معتقد القدرية.

(٢) الملطي، التنبيه والرد ص١٧٤ـ ١٧٦ بتصرف ط١٤١٣/١هـ، زاهد الكوثري، مكتبة الأزهر، القاهرة.

(٣) القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١٣ ص٢٥١ بتصرف.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخائضون في القدر بالباطل ثلاثة أصناف: المكذبون به، والدافعون للأمر والنهي به، والطاعنون على الرب - عز وجل - بجمعه بين الأمر، والقدر، وهؤلاء شر الطوائف...، وأنت إذا رأيت تغليظ السلف على المكذبين بالقدر، فانما ذلك لأن الدافعين للأمر والنهي لم يكونوا يتظاهرون بذلك، ولم يكونوا موجودين كثيرين، وإلا منهم شر منهم»[(١)].

وَيُصَنِّفُهُمْ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

١- قَدَرِيَّةٌ مُشْرِكِيَّةٌ: فهم الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، وقالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾، [الأنعام: ١٤٨]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾، [النحل: ٣٥]، فهؤلاء يئول أمرهم إلى تعطيل الشرائع، والأمر والنهي، من الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وهو الذي يُبْتَلَى به كثيرًا، إما اعتقادًا، وإما حالًا، طَوَائِفُ من الصوفية، والفقراء، حتى يخرج من يخرج منهم إلى الإباحية للمحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات.

٢- الْقَدَرِيَّةُ الْمَجُوسِيَّةُ: الذين يجعلون لله شركاء في خلقه؛ كما جعل الأولون لله شركاء في عبادته؛ فيقولون: خالق الخير غير خالق الشر، ويقول من كان منهم في ملتنا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله - تعالى -، وربما قالوا: ولا يعلمها - أيضًا -، ويقولون: إن جميع أفعال الحيوان واقع بغير قدرته، ولا صُنْعِهِ، فيجحدون مشيئته النافذة، وقدرته الشاملة.

٣- الْقَدَرِيَّةُ الْإِبْلِيسِيَّةُ: الذين صدَّقوا بأن الله صدر منه الأمران، ولكن عندهم هذا تناقض، وهم خصماء الله؛ كما جاء في الحديث، وهؤلاء كثير في أهل الأقوال والأفعال من سفهاء الشعراء، ونحوهم من الزنادقة؛ فتدبر: كيف كانت الملل الصحيحة: الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى، والصابئون، ليس فيها في الأصل

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ج٣، ص٨٢.

قدرية، وإنما حدثت القدرية من الملتين الباطنتين: المجوس، والذين أشركوا؟»(١).

ونَخْلُصُ إلى القول، بعد عرض هذه النصوص، إن القدرية الأولى كانت تنفي القدر؛ وتبعًا لذلك، فهي تنفي العلم الإلهي، كما قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، والقدرية الأولى بهذا تكون أول من تكلم في نفي الصفات؛ فهم الذين يصفون الإله الحق بعدم العلم، وهذا من عجز عقولهم القاصرة.

وهؤلاء النفاة الأُوَلُ كان يمثلهم معبد الجهني، وسوسنة، وغيلان، وصالح بن سويد، ومن تابعهم؛ فقد نذروا أنفسهم لهذه البدعة الضالة، التي فتحت، فيما بعد، باب الشرور على الأمة، ومهدت لمن في قلوبهم مرض أن يتكلموا في الصفات، ونفيها، والقدر، وجُلِّ مسائل العقيدة، على طريقة النفاة، فبرزت المعتزلة، والجهمية الْمُعَطِّلَةُ، ومن تابعهم، فيما يسمى بالمتكلمين، الذين يُقَدِّمُونَ العقل على النقل.

ويبدو، والله أعلم، أن المعتزِلة، والقدرية المتأخرين، حاولوا التخفيف من معتقد القدرية الأولى، فأعلنوا إيمانهم بالقدر في الأزل، ولكنهم أبقوا على جزء هام من ضلال القدرية الأُوَل؛ وهو القول بأن العباد خالقون لأفعالهم، وأن الله يفعل الخير، ولا يُنْسَبُ إليه فِعْلُ الشر؛ ولعل هذا التخفيف مصدره الخوف من المصير الذي آل إليه معبد، وغيلان، وصالح بن سويد، ولكن المعتزلة طوروا هذا المعتقد، فيما بعد؛ ليضعوه تحت أصل من أصولهم الخمسة، وهو العدل، ولا يُعْلَمُ حقيقة إذا كان إعلان المعتزلة لهذا المعتقد حقيقيًّا أم أنهم يتابعون القدرية الأُوَل في النفي للقدر.

إن القدرية الأُوَل، بأشخاصها المشبوهين، الذين عرضنا لهم على هذه الهيئة، كانت من أخطر البدع التي واجهها المسلمون في قرنهم الهجري الأول، ولقد آثرت أن تكون النقول نصيه؛ كما هو المنهج المسيطر على مباحث هذه الرسالة؛ ليكون الاستنتاج منطلقًا من حقائق واقعة، وليست تخمينات، أو تأويلات.

ولقد كانت دفاعات بعض المعاصرين عن أولئك المبتدعة، والطعن بعلماء السلف،

(١) ابن تيمية ـ مجموع الفتاوى جـ٨، ص٢٥٦ ـ ٢٦١، بتصرف.

من أبرز دواعي اهتمامنا بجلب النصوص على كثرتها، وطولها؛ لإبطال مزاعم هؤلاء المدافعين، وبيان الصورة الحقيقية التي كان يعيشها أولئك المبتدعة، فهم كانوا في ذيل القافلة، ومنبوذين من المجتمع الإسلامي، الأمين على دينه، وعلى عقائده الحقة؛ في توحيد الله، وصفاته، والقَدَر، وفي كل مسائل العقيدة التي ورثها هذا المجتمع عن الرسول ﷺ، وصحابته الكرام، وكان هؤلاء المبتدعة مثار الكراهية، والسخط، من قبل علماء هذا المجتمع، وعامته؛ وهذا ما سنوضحه، بجلاء، عند عرضنا التالي لموقف علماء السلف من القدرية، وبدعتهم الضالة، بإذن الله ـ تعالى.

٤ـ جُهُودُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ:

لقد اعتبر علماء السلف بدعة القدرية من البدع الخطيرة التي تطعن في مقام الألوهية، وفي قدرة الله ـ عز وجل ـ، وكمال علمه الأزلي، الذي جاءت الرسالات كلها بإثباته، وفصَّلته التفصيلَ الكاملَ الرسالةُ المحمديةُ الخاتمةُ؛ ممثلة في كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، التي نقلها لنا الصحابة الكرام، وحفظها التابعون الكرام، وتلقتها الأمة من بعدهم بالقبول، والإيمان الصادق بها، وعندما برزت القدرية، بظروفها المشبوهة الغامضة، تدعو إلى إنكار القدر، ومخالفة نصوص الكتاب، والسنة، قام علماء السلف بالبيان، والرد عليهم.

وقد اعتنى السلف الصالح بتفسير كتاب الله، وسنة رسوله في هذا الباب، ورووا الأحاديث التي تعبر عن تمام معتقد المسلمين في القدر، وإكماله الكمال التام الذي مات الصحابة، وهم يعتقدونه، فكانت هذه الأحاديث أبلغ معاني الرد لإبطال بدعة القدرية، وقد سبق أن عرضنا هذه الروايات في فصل القدر، وكيفية إيمان الصحابة به، وعندما برز القدرية كانوا يطعنون في هذه الأحاديث، ويردونها تبعًا لهواهم، وفتنتهم التي أحدثوها في الأمة؛ قال مكحول (ت ١١٢هـ) ـ رحمه الله ـ: «حسيب غيلان الله! لقد ترك هذه الأمة في لُجَجٍ مثل لُجَجِ البحار»[١].

---

(١) ابن عساكر، ج٣٠، ص٢٤٤.

لقد اتبع السلف عِدَّةً من المناهج الهامة في رد بدعة القدرية، سوف نعرض لأبرزها وأهمها، والتي من خلالها تبرز خطورة هذه الدعوى الباطلة، وتبرز خطورة من يناصرها من المعاصرين؛ بحجة حرية الإرادة المزعومة.

● **جِدَالُهُمْ، وَمُحَاوَرَتُهُمْ:**

لقد كان الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ من أكثر علماء الأمة محاورة لدعاة القدر، وسوف نعرض لجملة من محاوراته مع غيلان؛ وذلك لأهميتها؛ فقد روى ابن عساكر «أن عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ ناقش غيلان؛ فعن عمرو بن مهاجر أن عمر بن عبدالعزيز بعث إلى غيلان، فدخل عليه، فقال: يا غيلان، أكان فيما قضى الله وقدر أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: نعم، قال: أكان فيما قضى الله وقدر أن يخلق آدم؟ قال: في أشياء سأل عنها، كل ذلك يقول: نعم، وأنا خلف عمر أشير لغيلان إلى حلقي أنه الذبح، فلما أراد أن يقوم، قال: يا غيلان، والله، ما طَنَّ ذباب بيني وبينك إلا بقدر»[1].

وقِيلَ لعمر بن عبدالعزيز: «إن غيلان يقول في القدر، فمر به غيلان، فقال: ما تقول في القدر، فتعوذ، فتلا هذه الآية: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾، [الإنسان: ١-٣]، فقال عمر: إن الكلام فيه عريض طويل؛ ما تقول في العلم؟ أنافذ هو؟ قال: نعم، قال: أما، والله، لو لم تَقُلْهَا لضربت عنقك، وفي رواية: قال عمر: أَتِمَّ السورة، ويحك! أما تسمع الله يقول: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾؟ ويحك، يا غيلان! أما تعلم أن الله ﴿ جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾؟ فقال غيلان: يا

---

(١) ابن عساكر، ج٢٠، ص٢٤١.

أمير المؤمنين، لقد جئتك جاهلًا، فعلمتني، وضالًّا، فهديتني، قال: اخرج، لا يَبْلُغَنِّي أنك تَكَلَّمُ بشيء من هذا»[1].

وفي رواية أنه بعد أن قرأ الآية السابقة قال عمر بن عبدالعزيز: «كيف ترى، يا بن الأتانة؟ تأخذ بالفروع، وتَدَعُ الأصول؟ قال: ثم بلغه أنهما أسرفا، فأرسل إليهما، وهو مُغْضَبٌ شديد الغضب، قال عمرو بن مهاجر: فقام عمر، وكنت خلفه واقفًا، حتى دخلا عليه، وأنا مستقبلهما، فقال لهما: ألم يَكُنْ في سابق علم الله، حين أمر إبليس بالسجود، أنه لا يسجد؟ قال: فقالا: [نعم]، يا أمير المؤمنين، قال: أولم يكن في سابق علم الله، حين نهى آدم عن أكل الشجرة أن لا يأكل منها، أنهما يأكلان منها؟ قال: فأومات إليهما ـ أيضًا ـ برأسي؛ أن قولا: [نعم]، فقالا: [نعم]، قال: فأمر بإخراجهما، وأمر بالكتاب إلى الأجناد بخلاف ما يقولون، فلم يلبث إلا قليلًا حتى مرض عمر؛ فلم ينفذ ذلك الكتاب[2]، وقد سبق أن عَرَضْتُ جزءًا من كتاب عمر في تحقيق مقالة القدرية، ولكن الكتابة تعني استشراء مقالة القدرية، وبروز خطرها على عقيدة الأمة؛ وهو الذي حدا بعمر ـ رحمه الله ـ أن يبعث إلى الأمصار بهذا الكتاب، ويُلْحَظُ أن الرد كان موجهًا إلى مجموعة من نفاة القدر، كتبوا إليه، وترد على المعتقد الحق الذي يدين به عمر ـ رحمه الله ـ، والمسلمون معه، فهل كان غيلان لا يجرؤ على التصريح بمعتقده الباطل؛ مما حدا به، وبأصحابه المبتدعة، أن يبعثوا كتابًا كانوا فيه أكثر جرأة في عرض مذهبهم الباطل، لعل هذا هو الصحيح، والله أعلم.

ولذلك كان غيلان يَكْذِبُ على أمير المؤمنين؛ فعندما جادله، وقطعه، كان يقول: «كنت أعمى، فبصرتني، وأصم، فأسمعتني، وضالًّا، فهديتني، فقال: اللهم، إن كان غيلان صادقًا، وإلا فاصلبه، وفي رواية: إن كان صادقًا فارفعه، ووفقه، وإن كان كاذبًا، فلا تُمِتْهُ إلا مقطوع اليدين، والرجلين، مصلوبًا، قال: فأمسك عن الكلام في القدر، فلما مات عمر بن عبدالعزيز، وأفضت الخلافة إلى هشام، تكلم في القدر،

(١) المرجع السابق ج٢٠، ص٢٤١.

(٢) ابن عساكر، ج٢٠، ص٢٤٢.

فبعث إليه هشام، فقطع يده، فمر به رجل، والذباب عليه، فقال له: يا غيلان، هذا قضاء وقدر، قال: كذبت، لعمر الله، ما هذا قضاء وقدر، فبعث إليه هشام فصلبه، فقلت له (أي ذلك الرجل): يا غيلان، هذه دعوة عمر بن عبدالعزيز، قد أدركتك»(١).

ومن المناقشات الهامة التي يظهر فيها علم هذا الخليفة الزاهد العالم عمر بن عبدالعزيز - هذه المناقشة؛ فقد بلغه أن غيلان عاود الكلام في القدر؛ فأرسل إليه، فدعاه، فقال له: «ما الذي بلغني عنك؟ تَكَلَّمُ في القدر؟ قال: يُكْذَبُ علي، يا أمير المؤمنين، ويُقَالُ علي ما لم أَقُلْ، قال: فما تقول في العلم، ويلك؟! أنت مخصوم، إن أقررت بالعلم خُصِمْتَ، وإن جحدت العلم كفرت، ويلك! أقر بالعلم تُخْصَمْ، خير من أن تَجْحَدَ فَتُلْعَنَ، والله، لو علمت أنك تقول الذي بلغني عنك، لضربت عنقك، أتقرأ ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾، قال: نعم، قال: اقرأ، فقرأ إلى أن بلغ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، قال له: كيف ترى؟ قال: كأني لم أقرأ هذه الآية قط! قال: زد، قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾، قال: قف، من جعل الأغلال في أعناقهم؟ قال: لا أدري، قال: ويلك! اللهُ، وَاللَّهِ، قال: زد، قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، قال: قف، ويلك! من جعل السد من بين أيديهم، ومن خلفهم؟ قال: لا أدري، قال: ويلك! اللهُ، واللهِ، زد، ويلك! قال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾، قال: قف، كيف ترى؟ قال: كأني، والله، لم أقرأ هذه السورة قط، فإني أعاهد الله أني لا أعود في شيء من كلامي أبدًا، فانطلق، فلما وَلَّى قال عمر بن عبدالعزيز: «اللهم إن كان أعطاني بلسانه، ومحنته في قلبه، فأذقه حر السيف»(٢).

ويؤكد الإمام الآجري على أن غيلانًا كان منافقًا كذابًا؛ فيقول: «كان غيلان مصرًا

(١) ابن عساكر، ج٢٠ص٢٤٢.

(٢) ابن عساكر ج٢٠ص٢٤٦.

على الكفر بقوله في القدر، فإذا حضر عند عمر نافق، وأنكر أن يقول بالقدر، فدعا عليه عمر بأن يجعله الله آية للمؤمنين، إن كان كذَّابًا، فأجاب الله ـ عز وجل ـ فيه دعوة عمر»[١].

وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع بين غيلان، وعلماء السلف؛ ليناقشوه؛ فقد اجتمع عنده إياس بن معاوية (ت ١٢٢هـ)، وغيلان، فقال عمر: أنتما مختلفان، وقد اجتمعتما، فتناظرا تتفقا، فقال إياس: يا أمير المؤمنين، إن غيلان صاحب كلام، وأنا صاحب اختصار، فإما أن يسألني، ويختصر، أو أسأله، وأختصر، فقال غيلان: سل، فقال إياس: أخبرني: ما أفضل شيء خلقه الله ـ عز وجل ـ؟ قال: العقل، قال: فأخبرني عن العقل: مقسوم أو مقسم؟ فأمسك غيلان، فقال له: أجب، فقال: لا جواب عندي، فقال إياس: قد تبيَّن لك أمره، يا أمير المؤمنين، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يهب العقول لمن يشاء، فمن قسم له منها شيئًا ذاده عن المعصية، ومن تركه تهور، وقال له غيلان: سل عن غير هذا، فقال له إياس: أخبرني عن العلم: قبلُ أو العمل؟ فقال غيلان: والله، لا أجبتك فيها، فقال إياس: فدعها، وأخبرني عن الخَلْقِ: خلقهم الله مختلفين أو مؤتلفين؟ فنهض غيلان، وهو يقول: والله، لا جمعني وإياك مجلس أبدًا»[٢].

وروى ابن كثير: أن إياس بن معاوية خرج من الشام قاصدًا الحج، فركب معه في المحارة غيلان القدري[٣]، ولا يعرف أحدهما صاحبه، فمكثا ثلاثًا، لا يكلم أحدهما الآخر، فلما كان بعد ثلاث، تحادثا، فتعارفا، فتعجب كل واحد من اجتماعه مع صاحبه؛ لمباينة ما بينهما في الاعتقاد في القدر، فقال له إياس: هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، [الأعراف: ٤٣]، ويقول أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، [المؤمنون: ١٠٦]،

---

(١) الشريعة ص٢٣٣.

(٢) ابن عساكر ج٥ص٩٤-٩٥.

(٣) لعل المحاورة السابقة عند عمر رحمه الله كانت بعد اجتماعهما في الحج.

وتقول الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾، [البقرة: ٣٢]، ثم ذكر له من أشعار العرب، وأمثال العجم، ما فيه إثبات القدر، ثم اجتمع أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبدالعزيز، فناظر بينهما، فقهره إياس، وما زال يحصره في الكلام حتى اعترف غيلان بالعجز، وأظهر التوبة، فدعا عليه عمر إن كان كاذبًا، فاستجاب الله منه؛ فأمكن من غيلان، فَقُتِلَ، وصُلِبَ بعد ذلك، ولله الحمد، والمنة»(١).

وبعد وفاة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ تعالى ـ «سكت غيلان عن الكلام في القدر طيلة فترة خلافة يزيد بن عبدالملك، فلما مات يزيد، أرسل إليه هشام، فقال له: ألست كنت عاهدت الله لِعُمَرَ أنك لا تَكَلَّمُ في شيء من كلامك؟ قال: أَقِلْنِي، يا أمير المؤمنين، قال: لا أَقَالَنِي الله، إن أنا أقلتك، يا عدو الله، فأحضر له الإمام الأوزاعي؛ ليناقشه المناقشة التي صُلِبَ بعدها؛ حيث قال هشام: من لهذا القدري؟ قالوا: الأوزاعي، فأرسل إليه، وكان بالساحل»(٢).

وقد روى اللالكائي هذه المناظرة الهامة: «قال له الأوزاعي: إن شئتَ سألتك عن واحدة، وإن شئتَ عن ثلاثة، وإن شئتَ عن أربع، فقال: سل عما بدا لك، قال الأوزاعي: أخبرني عن الله ـ عز وجل ـ: هل تعلم أنه قضى على ما نهى؟ قال: ليس عندي في هذا شيء، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة، ثم قلت له: أخبرني: هل تعلم أن الله حال دون ما أمر؟ قال: هذه أشد من الأولى، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه اثنتان، ثم قلت له: هل تعلم أن الله أعان على ما حرم؟ قال: هذه أشد من الأولى، والثانية، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه ثلاث قد حل بها ضرب عنقه، فأمر به هشام، فضربت عنقه.

ثم قال للأوزاعي: يا أبا عمرو، فسر لنا هذه المسائل، فقال: نعم، يا أمير المؤمنين، سألته: هل يعلم أن الله قضى على ما نهى؟ نهى آدم عن أكل الشجرة، ثم قضى عليه بأكلها، وسألته: هل يعلم أن الله قضى، وحال دون ما أمر؟ أمر إبليس بالسجود لآدم،

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج٩ص٣٤٩.

(٢) ابن عساكر ج٢٠ص٢٤٧.

ثم حال بينه وبين السجود، وسألته: هل يَعْلَمُ أن الله أعان على ما حَرَّمَ؟ حَرَّمَ الميتة، والدم، ثم أعاننا على أكلها، وقت الاضطرار إليه. قال هشام: والرابعة، ما هي يا أبا عمرو؟ قال: كنت أقول: مشيئتنا مع الله، أم دون الله؟ فإن قال: مع الله، فقد اتخذ مع الله شريكًا، أو قال: دون الله، فقد انفرد بالربوبية، فأيهما أجابني، فقد حل ضَرْبُ عنقه بها، قال هشام: حياة الخلق وقِوَام الدين العلماءُ»[1].

ثم يفضح الإمام الأوزاعي هؤلاء القدرية فيقول: «يا أمير المؤمنين، إن القدرية ما رضوا بقول الله ـ عز وجل ـ، ولا بقول الأنبياء، ولا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولا بقول الملائكة، ولا بقول أخيهم إبليس؛ فأما قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، [القلم: ٥٠]، وأما قول الملائكة: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾، [البقرة: ٣٢]، وأما قول الأنبياء، فبما قال شعيب: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾، [هود: ٨٨]، وقال إبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾، [الأنعام: ٧٧]، وقول نوح: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾، [هود: ٣٤]، وأما قول أهل الجنة، فإنهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾، [الأعراف: ٤٣]، وأما قول أهل النار: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾، [إبراهيم: ٢١]، وأما قول أخيهم إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾، [الحجر: ٣٩]»[2].

وقد حاول المستشرقون، وبعض الكتاب المعاصرين، الدفاع عن غيلان، وأن طبيعة المناظرة لم تكن واضحة (بزعمهم)؛ حيث يقول خليل الزرو: «ولا يستطيع الدارس أن يفسر الموقف الذي وقفه الأوزاعي من دماء بني أمية؛ حيث حرمها على العباسيين، مع أنه كان مُعَرِّضًا لنقمتهم، وبين إفتائه بقتل غيلان؛ لعدم استطاعته الإجابة على بعض الأسئلة الغامضة؛ فمثلًا: كان ينبغي أن يسأل السؤال الثالث بهذه الطريقة: هل أعان الله المضطر أن يفعل ما حرمه عليه عند الضرورة؟ إلا أنه يبدو أن النظرة إلى القدرية

---

(١) اللالكائي ج٤ص٧١٨-٧١٩.

(٢) ابن عساكر ج٢٠ص٢٤٦.

كانت نظرة عدائية، في أوائل القرن الثاني الهجري؛ مما جعل التابعين، وتابعيهم، ينظرون بعداء إليها»[١].

ونرد على هذا، فنقول إن غيلان كان يعرف الإجابة؛ ولذلك آثر السكوت؛ فهو الذي تَسَلَّطَ على النصوص القرآنية بالنفي، والرد؛ ولذلك كان يعرف الإجابة، ولكنه يؤثر السكوت، وإذا أجاب، فإنه يجيب بخلاف ما يعتقده، ثم إن غيلان قد أسرف في نشر بدعته الضالة، فكانت هذه المناظرة سببًا لقتله؛ لأنه آثر المعتقد الباطل، ولم يرجع إلى الحق، وينفي عن نفسه تُهْمَةَ إنكار القدر، وكان حقًّا على علماء الأمة، وعامتها، أن تُطَالِبَ بقتل المارقين المنكرين لركن من أركان عقيدتهم الإسلامية، ويزعم المستشرقون أن هشامًا قد قتل غيلان لأحقاد شخصية؛ وذلك باستنادهم لنص مزعوم، اخترعه ابن المرتضى؛ من أن هشامًا مر بغيلان، وهو ينادي على بيع متاع بني أمية، فقال هشام: أرى هذا بعيني، ويعيب آبائي، والله، إن ظفرت به، لأقطعن يديه، ورجليه»[٢]، وهذه دعاوى باطلة؛ فلم يكن غيلان يومًا مكلفًا برد المظالم المزعومة، وإنما ابن المرتضى وضع هذه الرواية ليبني عليها سبب قتل غيلان، يُضَافُ إلى ذلك أن غيلان، عندما سكت عن القول في القدر، كان على علاقة طيبة مع هشام؛ فقد ذكر الذهبي، وابن عساكر، أن هشامًا قد اصطحب معه غيلان في الحج، وكان يفتي الناس، ويحدثهم في المدينة سنة ستة ومئة»[٣]، ويقول خليل الزرو: «وهذا يعني أن هشامًا لم يكن حاقدًا عليه بعد توليه الخلافة مباشرة؛ إذ لو كان ذلك، لانتقم منه منذ بداية ولايته»[٤].

ويزعم الدكتور الجابري أن قول غيلان في القدر كان ذريعة للقبض عليه؛ لمشاركته في الثورة المزعومة، التي اخترعها ابن المرتضى؛ فيقول: «على أن أهم شخصية من

(١) الزرو ـ الحياة العلمية في بلاد الشام ص١٣٥.

(٢) المنية والأمل ص١٣٧ـ ١٣٨.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ١٠١ـ ١٢٠ص ٤٤١.

(٤) الحياة العلمية في بلاد الشام ص١٣٥.

القدرية الأوائل هو غيلان الدمشقي، وتَنْسب إليه المصادر دورًا أساسيًّا في نشر الأيدلوجيا التنويرية، وأنه كان له أتباع كثيرون من مختلف الأوساط، أما علاقته بهشام، فكانت متقلبه، ولم يَكْتَفِ غيلان بمحاربة أيدلوجيا الجبر بالفكر وحسب، بل إنه عمل على التحريض على الثورة في أرمينيا، فاتخذ هشام بن عبدالملك ذلك ذريعة لإلقاء القبض عليه، وإعدامه»[(١)].

وهذا ادعاء لا يسنده الواقع؛ فمستندهم ابن المرتضى، وأقواله في نصرة أسلافه لا يعتد بها، وقد مر معنا كيف أن غيلان ناظره عمر بن عبدالعزيز، وإياس بن معاوية عدة مرات، وهشام، والأوزاعي، وأعطي الفرصة تِلْوَ الفرصة للعودة عن ضلاله، ولكنه أبى، وقد صَوَّبَ علماء السلف فعل هشام، وهم أعلم بمصلحة العقيدة والأمة، من هؤلاء المعاصرين؛ فقد كتب رجاء بن حيوة (ت ١١٢هـ) ـ رحمه الله ـ إلى هشام بن عبدالملك: «يا أمير المؤمنين، بلغني أنك دخل عليك من قتل غيلان، وصالح، وأُقْسِمُ بالله، يا أمير المؤمنين، أن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم، والترك»[(٢)].

وكتب نمير بن أوس (ت ١١٥هـ) قاضي دمشق إلى هشام، فقال: «إن قتل غيلان من فتوح الله ـ عز وجل ـ العظام على هذه الأمة»، وكتب عبادة بن نسي (ت ١١٨هـ)؛ حيث أتاه آت، فقال: «إن أمير المؤمنين (يعني هشامًا) قد قطع يَدَيْ غيلان، ولسانه، وصلبه، فقال حقًّا ما تقول؟ قال: نعم، فقال: أصاب، والله، فيه السُّنَّة، والقضية، ولأَكْتُبَنَّ لأمير المؤمنين، فَلأُحَسِّنَنَّ له ما صنع»[(٣)].

إن منهج الجدال، والحوار، والمناظرة الذي اتبعه الخلفاء، والعلماء مع دعاة القدرية؛ ويمثلهم غيلان في هذه المرحلة، إن هذا المنهج يدل دلالة قوية على أصالة العقيدة الإسلامية، ومعتنقيها، في كل معتقداتهم؛ وخاصة في القدر، وكانوا يرون في هؤلاء المبتدعة شرور طارئة، لا بد من مقاومتها، وإسقاطها فإذا لم ينفع معها الحوار الذي يبين

(١) الجابري، العقل السياسي الغربي ص٣١٣.

(٢) ابن عساكر ج ٢٠ص٢٤٨، وانظر المجروحين لابن حبان ج٢ص٢٠٠.

(٣) ابن عساكر ج ٢٠ص٢٤٨، وانظر المجروحين لابن حبان ج٢ص٢٠٠.

لها المعتقد الحق، والذي يجب على غراره العودة عن هذا الضلال الذي تمارسه، فإن هناك سُبُلًا أخرى لحماية الأمة، وعقيدتها من هذه الدعاوى الهدَّامة، وهي قتل المبتدعة المنكرين لأصول العقيدة الإسلامية؛ مثل القدرية.

فلا يجب أن نصبح فريسة لأفكار المعاصرين، الذين لا يعرفون طبيعة المجتمع الإسلامي الناشئ، والذي يحاكمونه على مبادئ العصر الحديث، التي تُهَوِّنُ من شأن المعتقدات الدينية، وتطالب بالسماحة فيها.

وذلك لأن المجتمع الإسلامي الناشئ واجه في بداية أمره الردة، وقاتلهم أبو بكر الصديق، وواجه علي بن أبي طالب ﷺ دعوى التأليه، فحرق أصحابها بالنار، وبرزت القدرية؛ فكان الواجب القضاء عليها بكل قوة، وهذا ما قيض الله له هشامًا، فأخمد هذه البدعة، وتوارت، ويُقَالُ إنها اندثرت، فيما بعد؛ لتخرج المعتزلة، وقد أعلنت إقرارها بالعلم السابق، وبقيت فيها شعبة من القدرية الأولى.

الْكِتَابَةُ فِي فَضْحِ الْقَدَرِيَّةِ، وَعَقِيدَتِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ:

وهذا المنهج اتبعه السلف في هذه الفترة؛ وذلك بالكتابة عن المعتقد الحق، والرد على شبهات القدرية، وأول من كتب في الرد على القدرية هو الحسن بن محمد بن الحنفية؛ حيث يقول «فان إس» ناشر هذه الرسالة: «إنها كُتِبَتْ بإيحاء من عبدالملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، وإن تاريخ تأليفها يرجع إلى سنة (٧٣ هـ) »[١].

ولا يُسْتَبْعَدُ أن يكون الحسن قد كتب هذه الرسالة لعبد الملك بن مروان؛ حيث كانت القدرية تدعو لبدعتها المنكرة، بقيادة معبدالجهني الذي صَلَبَهُ عبدالملك سنة (٨٠ هـ)، فلعله استعان به لنشر هذه الرسالة بين الناس، لإبطال مزاعم القدرية، التي تنفي القدر، والرسالة الثانية هي رسالة عمر بن عبدالعزيز التي اخترنا بعض عباراتها فيما سبق، وهي تعبر ـ أيضًا ـ عن اشتداد الدعوة لإنكار القدر بقيادة غيلان القبطي، وقد كتب عمر كتابه، وكان ينوي بعثه إلى أقطار الخلافة، إلا أنه تُوُفِّيَ قبل ذلك،

---

(١) رسالتان في الرد على القدرية، حققها وترجمها فان اس ص١، بيروت ١٩٧٧م.

ولكن هذه الرسالة حُفِظَتْ كما سبق، ونقلنا منها من «حلية الأولياء»[١]، ويبدو على رسالة عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ تعالى ـ أنها تركز على إنكار القدرية للعلم الإلهي، وأن المناقشة مع القدرية بلغت من الشدة؛ بحيث أنه قرر قتل غيلان، إذا لم يرجع عن ضلاله، وقد أبرز اهتمام عمر بن عبدالعزيز بالقدرية اهتمام الخلفاء من بعده، وخاصة هشامًا، وكأنه قد وصَّى بمحاصرة القدرية، والقضاء عليهم.

الْبَرَاءَةُ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ، وَلَعْنُهُمْ، وَالدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ:

وأقدم من تبرأ من القدرية، ممن عاصرهم من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وخاصة عبدالله بن عمر رضي الله عنه؛ فقد قال ليحيى بن يعمر: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء، والذي نفسي بيده، لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا، فأنفقه في سبيل الله، ما قَبِلَ الله منه شيئًا، حتى يؤمن بالقدر: خيره، وشره»[٢]، وكان عبدالله بن عباس شديدًا عليهم؛ حيث قال، عندما سأله طاووس عن القدرية: «أروني بعضهم، قال: صَانِعٌ ماذا؟ قال: أُدْخِلُ يدي في رأسه، ثم أدق عنقه»[٣].

وكان السلف يلعنونهم على ما أحدثوه في الأمة من البدع، فقد روى الآجري، عن عكرمة بن عمار، قال: سمعت القاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٢هـ)، وسالم بن عبدالله بن عمر (ت ١٠٦هـ)، يلعنان القدرية»[٤].

وكان عمر بن عبدالعزيز يدعو على غيلان إن كان كاذبًا أن يُصْلَبَ، وأن يُذِيقَهُ الله حر السيف، وقد مضى ذكر ذلك، واستجاب الله دعوة عمر ـ رحمه الله ـ في غيلان.

ضَرْبُهُمْ، وَإِيذَاؤُهُمْ:

وهذا ضرب من ضروب الإهانة، وسُقُوطِ هيبة نفاة القدر في المجتمع الإسلامي،

(١) الحلية ج٥ص٣٤٦، ونشرها فان إس أيضًا مع رسالة محمد بن الحنفية.

(٢) مسلم، ح رقم٨٠، سبق تخريجه.

(٣) الإبانة، كتاب القدر ج٢ص٢٦٦.

(٤) الآجري، الشريعة ص٢٢٣.

فليسوا علماء؛ كما وصفهم المبطلون؛ فإن العالم لا يُحْصَبُ بالحصى، ولا يُضْرَبُ بالعصى؛ فقد روى اللالكائي عن عمر بن محمد قال: «سمعت سالم بن عبدالله بن عمر، وسأله رجل، فقال: أيزني الرجل بقدر؟ فقال: نعم، قال: أشيء كتبه الله عليه؟ قال: نعم، قال: فيعذبه عليه، وقد كتبه عليه؟ قال: نعم، فحصبه»(١).

وقيل لنافع: «إن هذا الرجل يتكلم في القدر، قال، فأخذ كفًّا من حصى، فضرب بها وجهه»(٢).

وجاء رجل إلى سالم بن عبدالله (ت ١٠٦هـ)، فقال: «رجل زنا، فقال سالم: يستغفر الله، ويتوب إليه، فقال الرجل: آلله قدره عليه؟ فقال سالم: نعم، قال: ثم أخذ قبضة من الحصى، فضرب بها وجه الرجل، وقال: قم»(٣).

وقعد الفضل الرقاشي (ت ٩٥هـ) إلى محمد بن كعب القرظي، فذاكره شيئًا من القدر، فقال محمد: تشهد، فلما بلغ: من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، رفع محمد عصًا معه، فضرب بها رأسه، وقال: قم، فلما قام، فذهب، قال: لا يرجع هذا عن رأيه أبدًا»(٤).

النَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ:

وكان السلف لا يسمحون لدعاة القدرية أن يَجْلِسُوا في مجالسهم، أو يسمعوا منهم الأباطيل، ويُحَذِّرُونَ الناس من الجلوس إليهم، خوفًا على الناس من الانحراف؛ خاصة إذا علمنا أنهم أوتوا منطقًا خادعًا، زينه لهم الشيطان؛ قال الإمام الأوزاعي: «قدم علينا غيلان القدري، في خلافة هشام بن عبدالملك، فتكلم غيلان، وكان رجلًا مفوهًا، فلما فرغ من كلامه، قال لحسان بن عطية (ت ١٣٠هـ): ما تقول فيما

---

(١) اللالكائي ج٤ ص٦٨٨، وانظر السنة لعبدالله بن أحمد جـ٢ ص٣٩٢.

(٢) الشريعة ص٢٤٠.

(٣) اللالكائي ج٤ ص٦٩٩.

(٤) ابن عساكر ج٢٣ ص١٨٢.

سمعت من كلامي، فقال له حسان: يا غيلان، إن يكن لساني كَلَّ عن جوابك، فإن قلبي ينكر ما تقول، وفي رواية قال: والله، لئن كنت أُعْطِيتَ لسانًا لم نُعْطَهُ، إنا لنعرف باطل ما تأتي به»[١].

وحين لقي عبدالله بن أبي زكريا (ت ١١٧هـ) غيلان في بعض سقائف دمشق، عدل عنه، فقالوا: يا أبا يحيى، ما حملك على هذا، فقال: لا يظلني وإياه سقف إلا سقف المسجد، لقد ترك هذا الجندَ في أمواج كأمواج البحر»[٢].

وعن ابن عون قال: «كنا جلوسًا في مسجد بني عدي، وفينا أبو السوار، فدخل معبدالجهني من بعض أبواب المسجد، فقال أبو السوار: ما أدخل هذا مسجدنا، لا تدعوه يجلس إلينا»[٣].

الْأَمْرُ بِإِهَانَتِهِمْ، وَعَدَمِ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ:

وهذه الإهانة من أبلغ أنواع التشهير في المساجد، والأماكن العامة؛ ليسأل الناس، فيُقَالُ لهم بسبب إنكاره للقدر؛ «فبينما طاووس يطوف بالبيت لقيه معبد الجهني، فقال له طاووس: أنت معبد؟ قال: نعم، فالتفت إليهم طاووس، فقال: هذا معبد فأهينوه»[٤].

وروى الإمام عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: «قال عمرو بن دينار: قال لنا طاووس: أَخِّرُوا معبدًا الجهني؛ فإنه قدري»[٥].

وروى اللالكائي عن أبي سهيل قال: «لا تبدأ القدرية بالسلام، فإن سلموا عليك، فقل: وعليك»[٦].

---

(١) ابن عساكر ج٢٠ ص٢٤٣.

(٢) ابن عساكر ج٢٠ ص٢٤٤.

(٣) عبدالله بن أحمد، السنة ج١ ص٣٨١.

(٤) ابن عساكر ج٢٥ ص١١٨.

(٥) السنه ج٢ ص٣٩٠ ت: د. محمود سعيد القحطاني.

(٦) اللالكائي ج٤ ص٦٣٨.

النَّهْيُ عَنْ عِيَادَتِهِمْ إِذَا مَرِضُوا، وَشُهُودِ جَنَائِزِهِمْ، وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِمْ:

وروى ابن عساكر أن رجلًا جاء إلى مكحول، فقال: «يا أبا عبدالله، ألا أعجبك؟ إني عدت اليوم رجلًا من إخوانك، فقال: من هو؟ فقال: لا عليك، قال: أسالك، قال: هو غيلان، فقال مكحول: إن دعاك غيلان، فلا تجبه، وإن مَرِضَ، فلا تعده، وإن مات، فلا تمش في جنازته»[1].

وكان الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ) يقول في الْمُكَذِّبِ في القدر: «ما هو بأهل أن يُعَادَ في مرضه، ولا يُرْغَبُ في شهود جنازته، ولا تُجَابُ دعوته»[2].

النَّهْيُ عَنْ تَزْوِيجِ الْقَدَرِيَّةِ، أَوْ أَكْلُ ذَبَائِحِهِمْ، أَوْ أَخْذُ مِيرَاثِهِمْ:

قال الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ): «من جلس مع صاحب بدعة، فاحذره، ومن جلس مع صاحب بدعة، لم يُعْطَ الحكمة، وأحب أن يكون بيني، وبين صاحب البدعة حصن من حديد، أَكْلٌ عند اليهودي، والنصراني، أحب إلي من أَكْلٍ عند صاحب بدعة»[3]، وكان محمد بن سيرين يكره ذبائح القدرية»[4].

وروى ابن عساكر، واللالكائي، الفتوى المشهورة من الإمام مالك، قال مروان بن حميد: «سألت مالك بن أنس عن تزويج القدري، قال: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ »[5].

وعن شعب بن حرب (ت ١٩٦هـ)، قال: «قلت لسفيان الثوري (ت ١٦١هـ): نسيب لي قدري، أُزَوِّجُهُ؟ قال: لا، ولا كرامة، قال: قلت للحسن بن صالح (ت ١٦٧هـ)، قال: غيره أحب إلي منه»[6].

عن مسروق قال: مات أبو الحارث المحاسبي، وحارث محتاج إلى أقل من درهم

---

(١) ابن عساكر ج٢٠ ص٢٤٣.

(٢) الآجرى، الشريعة ص٢٢٧.

(٣) ، (٤) اللالكائي ج٤ ص٦٣٨، ص٧٣٠.

(٥) ابن عساكر ج٢٠ ص٢٤٤، واللالكائي ج٤ ص٧٣٤.

(٦) اللالكائي ج٤ ص٧٣٥.

لعيال، وبنات عليه، وترك أبوه مالًا، وضيعة، وأثاثًا، وأموالًا كثيرة نفيسة، فلم يقبل منها شيئًا، فقيل له في ذلك، فقال: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَيْئًا لَا يَتَوَارَثَانِ»، أو كما قال، وكان أبوه يقول بالقدر»[١].

النَّهْيُ عَنِ الصَّلَاةِ خَلْفَ الْقَدَرِيَّةِ:

عن علي بن عبدالله بن العباس (ت ١١٨هـ) أنه كان يقول: «إذا كان الإمام صاحب هوى فلا يُصَلَّى خلفه، وأمر محمد بن علي بن الحسين (ت ١١٤هـ) بإعادة الصلاة خلف القدري، وكان سيار بن الحكم يقول: لا يصلى خلف القدرية، فإذا صلى خلف أحد منهم أعاد»[٢].

وسُئِلَ الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع رضي الله عنه (ت ٨٣هـ) عن الصلاة خلف القدري، فقال: «لا يُصَلَّى خلفه، أما لو صليت خلفه لأعدت صلاتي»[٣].

وقيل لمحمد بن علي: «إن لنا إمامًا يقول في القدر، فقال: انظر كل صلاة صليتها خلفه أعدها، إخوان اليهود والنصارى، قاتلهم الله، أَنَّى يؤفكون؟!»[٤]، وقال صدقة بن يزيد (توفي في ولاية عبدالله بن زياد): مررت مع أيوب (السختياني ١٣١هـ)، وهو آخذ بيدي إلى المسجد؛ لنصلي فيه، فمررنا بالمسجد، قد أقيمت الصلاة فيه، فذهبت لأدخل، فنثر يده من يدي فترة، فقال: أما علمت أن إمامهم قدري»[٥].

وقال معاذ بن معاذ (ت ١٩٥هـ): «صليت خلف رجل من بني سعد، ثم بلغني أنه قدري، فأعدت الصلاة بعد أربعين سنة، أو ثلاثين سنة»[٦].

نَفْيُ الْقَدَرِيَّةِ، وَتَسْيِيرُهُمْ:

لقد كان أحد آراء الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز نفي القدرية، وكان يقول:

---

(١) اللالكائي، ج٤، ص ٦٣٦.

(٢) اللالكائي، ج٤، ص ٧٣٠.

(٣) المرجع السابق، ج٤، ص ٧٣١.

(٤)، (٥)، (٦) المصدر السابق، ج٤، ص ٧٣١، ٧٣٢.

«أرى أن يستتابوا، فإن تابوا، وإلا، نفوا من ديار المسلمين»(١).

وقد طبّق هذا المنهج الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك ـ رحمه الله ـ تعالى ـ؛ فقد روى الطبري في تاريخه، عن عمرو بن شراحيل (توفي في ولاية عبدالله بن زياد)، قال: «سَيَّرَنَا هشام بن عبدالملك إلى دهلك (جزيرة في بحر اليمن)، فلم نزل بها حتى مات هشام، واسْتُخْلِفَ الوليد، فَكُلِّمَ فينا، فأبى، وقال: والله ما عمل هشام عملًا أرجى له عندي أن تناله المغفرة به من قَتْلِهِ القدرية، وتسييره إياهم»(٢).

الأَمْرُ بِقَتْلِ الْقَدَرِيَّةِ:

لقد بلغت خطورة القدرية على عقيدة الأمة حدًّا لا يمكن السكوت عليه، أو قبوله، وكان منهج الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز مناظرتهم، والبيان لهم، حتى يعودوا، فقيل له: إن قومًا ينكرون القدر، فقال عمر: بينوا لهم، وارفقوا بهم؛ حتى يرجعوا، فقال قائل: هيهات هيهات، يا أمير المؤمنين، لقد اتخذوه دينًا يدعون إليه الناس، ففزع لها عمر؛ فقال: أولئك أهل أن تُسَلَّ ألسنتهم من أقفيتهم سلًّا، هل طار ذباب بين السماء والأرض إلا بمقدار»(٣).

وكان هناك جملة من علماء السلف يرون قتل القدرية؛ منهم حماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ)، وحماد بن زيد (ت ١٧٩هـ)، ويزيد بن زريع (ت ١٨٢هـ)، وبشر بن المفضل (ت ١٨٦ هـ)، والمعتمر بن سليمان (ت ١٨٧هـ)؛ «فقد سُئِلُوا عن رجل، زعم أنه يستطيع أن يشاء في ملك الله ما لا يشاء، فَكُلُّهُمْ قال: كافرٌ مشركٌ، حلال الدم إلا معتمرًا؛ فإنه قال: الأحسن للسلطان استتابته»(٤).

وكان عمر بن عبدالعزيز يرى قتل القدرية؛ فعن أبي سهيل نافع بن مالك قال: تلا

---

(١) اللالكائي، ج٤، ص ٧١٠.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص ٢٣٦، وابن عساكر، ج١٩، ص ٣٢٢.

(٣) الشريعة، ص ٢٣٠.

(٤) المصدر السابق، ٢٢٦.

عمر بن عبدالعزيز: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾، [الصافات: ١٦١-١٦٣]، فقال لي: يا أبا سهيل، ما تَرَكَتْ هذه الآية للقدرية حجة، الرأي فيهم ما هو؟ قال: قلت: أَنْ يُسْتَتَابُوا، فإن تابوا، وإلا، ضُرِبَتْ أعناقهم، قال: ذاك الرأي، ذاك الرأي»(١).

وكان الإمام مالك يقول في القدرية: «يُسْتَتَابُونَ، فإن تابوا، وإلا، قُتِلُوا»(٢)، وكان هذا رأي عمر بن عبدالعزيز، ورجاء بن حيوة، وعبادة بن نسي (ت ١١٨هـ)، ورُوِيَ ذلك عن مالك بن أنس، والأوزاعي، وعبدالله بن حسن العنبري، كلهم قالوا: يُسْتَتَابُونَ، فإن تابوا، وإلا، قُتِلُوا»(٣).

وكان نافع مولى عبدالله بن عمر يقول لأمير كان على المدينة: «أصلحك الله! اضرب أعناقهم (يعني القدرية) »(٤).

نِسْبَةُ مَقَالَتِهِمْ إِلَى مِلَلٍ خَارِجِيَّةٍ:

وقد نسب السلف مقالة القدرية، ومعتقدها في القدر، إلى معتقد النصارى، واليهود، والمجوس، ونسبوهم إلى الزندقة، ولا يستطيع أحد أن ينكر دور سوسنة النصراني، وغيلان القبطي، ويوحنا الدمشق؛ فهؤلاء الثلاثة كان لهم دور في إثارة الشبهات حول القدر؛ حيث ألقى سوسنة ذلك إلى معبد، وألقى معبد ذلك إلى غيلان، وأسهم يوحنا في المناقشات الجدلية التي كان محورها القدر؛ قال الإمام الأوزاعي: «أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق، يقال له سوسنة، وكان نصرانيًا، فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد»(٥)، وكان مسلم بن يسار، وأصحابه، يقولون: «إن معبدًا الجهني يقول بقول النصارى»(٦).

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٢٩٩.

(٢)، (٣)، (٤) اللالكائي، ج٤، ص ٧٠١ - ٧٠٨.

(٥) ابن عساكر، ج٢٠، ص ٢٤٠.

(٦) ابن عساكر، ص ٢٥، ص ١١٨.

وكان الشعبي ـ رحمه الله ـ (ت ١٠٤هـ) يقول: «لا تجالسوا القدرية؛ فوالذي يُحْلَفُ به، إنهم لنصارى»[١].

أما عن اتهامهم بأن مصدر مقالتهم يهودية، ما رواه اللالكائي عن عبدالله بن الحارث (ت ٨٤هـ) قال: «سمعت ابن عباس يقول: إن بني إسرائيل كانوا على شريعة، ومنهاج، ظاهرين على من ناوأهم، حتى تنازعوا في القدر، فلما تنازعوا اختلفوا، وتباغضوا، وتلاعنوا، واستحل بعضهم حرمات بعض؛ فسلط الله عليهم عدوهم، فمزقهم كل ممزق»[٢].

وكان سعيد بن جبير يقول: «القدرية يهود»[٣].

وروى سهل بن سعد (ت ٩١هـ) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ أُمَّتِي الْقَدَرِيَّةُ»[٤].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن مثل هذه الأحاديث: «وقد رُوِيَتْ أحاديث في ذم القدرية، والمرجئة، روى بعضها أهل السنة؛ كأبي داود، وابن ماجة، وبعض الناس يُثْبتها، ويقويها، ومن العلماء من طعن فيها، وضعفها، ولكن الذي ثبت في ذم القدرية هو عن الصحابة؛ كابن عمر، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ[٥]، وكان ابن عمر يقول: مجوس هذه الأمة القدرية، وكان مجاهد يقول: يبدءون فيكونون مرجئة، ثم يكونون قدرية، ثم يصيرون مجوسًا»[٦]، وسُئِلَ عبدالله بن عمر، فقيل له: «يا أبا عبدالرحمن، إن قومًا يتكلمون في القدر بشيء، فقال: أولئك يَصِيرُونَ إلى أن يكونوا مجوس هذه الأمة»[٧].

---

(١) اللالكائي، ج٤، ص ٦٨٧.

(٢) اللالكائي، ج٤، ص ٦٩٨.

(٣) المصدر السابق، ٦٤٠.

(٤) اللالكائي، ج٤، ص ٦٤٠.

(٥) ابن تيمية، الفتاوى، ج١٣، ص ٣٥.

(٦)، (٧) اللالكائي، ج٤، ص ٦٤٥ و ص ٦٩٨.

وكان السلف يتهمونهم بالزندقة؛ فعن ميمون بن مهران (ت ١١٨هـ) قال: قال لي ابن عباس: «احفظ عني ثلاثًا: إياك والنظر في النجوم؛ فإنه يدعو إلى الكهانة، وإياك والقدر[1]؛ فإنه يدعو إلى الزندقة، وإياك، وشتم أحد من أصحاب محمد ﷺ؛ فيكبك الله في النار على وجهك»[2].

هذه هي قصة القدرية، وهذه هي نهايتهم، وتلك هي أحكام السلف الصالح عيلهم، بدأت مُنْكِرَةً للعلم الإلهي، ثم متخفية حول تنزيه الله ـ تعالى ـ عن فعل الشر بزعمها، وانتهت عارية قبيحة، تنشر ضلالات الأمم الكافرة، وأصبح دعاتها دعاة ضلالة، وفتنة، فكان مصيرهم القتل، والتشريد، وذكرهم مسطور في الكتب على أنهم أول من ابتدع البدعة الضالة في القدر، وهذا الذي أمكن الوقوف عليه، وغيره كثير، لكننا آثرنا الإتيان بالنصوص الحاسمة، التي لا تقبل التأويل، في الرد على القدرية، وإبطال دعاواها الباطلة، وإبطال دعاوى المستشرقين، وتلاميذهم الذين يُنَاصرون كل مارق عن دين الله، تحت مسمى حرية الإرادة، وغيرها من الشعارات البراقة الباطلة.

* * * * *

(١) أي إياك والخوض فيه على طريقة المبتدعة.

(٢) اللالكائي، ج٤، ص ٦٣٣.

الْفَصْـــلُ الرَّابِـعُ
الْمُرْجِـئَةُ

١ـ الْإِرْجَاءُ فِي اللُّغَةِ، وَالِاصْطِلَاحِ:

الإرجاء لغة[١]: (التأخير)، «وهو من قول العرب: أَرْجَأَ فلان هذا الأمرَ فهو مُرْجِئُهُ إرجاءً، وهو مرجئه بهمز، وأرجاه فلان يرجيه إرجا، بغير همز، فهو مرجيه، ومنه قول الله ـ تعالى ذكره ـ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَئُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾، [التوبة: ١٠٦]، يُقْرَأُ بالهمز، وغير الهمز، بمعنى: مُؤَخَّرُونَ لأمر الله، وقوله خبراً عن الملإ من قوم فرعون: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾، [الأعراف: ١١١]»[٢].

أما معنى المرجئة في الاصطلاح: «فهم سموا بذلك لتقديمهم القول، وإرجائهم العمل»[٣]؛ أي اعتبارهم أن الإيمان مجرد القول، ولا دخل للعمل في مفهومه؛ حيث يقول التهانوني: «المرجئة اسم فرقة من كبار الفرق الإسلامية، لُقِّبُوا به لأنهم يرجئون العمل عن النية؛ أي يؤخرونه في الرتبة عن الاعتقاد»[٤]، «وترك القطع على أهل الكبائر، إذا ماتوا غير تائبين، بعذاب، أو عفو، وأرجئوا أمرهم إلى الله ـ عز وجل ـ»[٥]، وسُئِلَ عنهم سفيان بن عيينة، فقال: «الإرجاء على وجهين: قوم أرجو أمر علي، وعثمان، فقد مضى أولئك، فأما المرجئة اليوم، فهم قوم يقولون الإيمان قول بلا عمل،

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط في اللغة، ص ١٦٦٠ و ص ٥٢، ط٢، ١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة، الريان، بيروت.

(٢) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٨١, ت.د. ناصر الرشيد، وعبدالقيوم عبدرب النبي، ط١، ١٤٠٢هـ، مكة المكرمة.

(٣) الفيروز آبادي، القاموس، ص ١٦٦٠، وانظر ابن تيمية، جامع الرسائل، ج١، ص ١١٢، ت. د. رشاد سالم.

(٤) التهانوني، كشاف اصطلاحات الفنون، ج١، ص ٥٢٥.

(٥) المقدسي، البدء والتاريخ، ج٥، ص ١٤٤، وانظر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٠٢.

فلا تجالسوهم، ولا تواكلوهم، ولا تُشَارِبُوهُمْ، ولا تصلوا معهم، ولا تصلوا عليهم»[١].

٢ـ إِبْطَالُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرْجِئَةَ الْمُبْتَدِعَةَ هُمُ امْتِدَادٌ لِلصَّحَابَةِ الَّذِينَ اعْتَزَلُوا الْفِتْنَةَ:

لعل أول ما يفاجئنا عند حديثنا عن نشأة المرجئة هو مزاعم فرق الابتداع، ومن تابعهم من المعاصرين، الذين حاولوا إلصاق هذه البدعة الضالة بالصحابة الكرام، الذين اعتزلوا أحداث الفتنة الأولى، وقالوا إن هؤلاء الصحابة الأبرار هم نواة المرجئة المبتدعة، فيما بعد، وهذا الباطل لا تؤيده المواقف المأثورة عن هؤلاء الصحابة الكرام، ولكن هذه المزاعم الباطلة هي من التضليل الذي مارسته فرق الابتداع، ومناصروها، قديمًا وحديثًا؛ وذلك لترويج مبتدعاتهما الضالة، أو للطعن في الصحابة الأبرار؛ كما قال علماء الشيعة، ومن تابعهم.

حيث يزعم القمي، والنوبختي، فيقولا: «فلما قُتِلَ علي ﷺ التقت الفرقة التي كانت معه، والفرقة التي كانت مع طلحة، والزبير، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ، فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن أبي سفيان ﷺ، إلا القليل من شيعته، ومن قال بإمامته بعد النبي ﷺ، وهم السواد الأعظم (أعني الذين التقوا مع معاوية)، فسموا جميعًا (المرجئة)؛ لأنهم تولوا المختلفين جميعًا، وزعموا أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان، ورجوا لهم جميعًا المغفرة[٢]، ثم قال: «وفرقة منهم يسمون (الشُّكَّاك) [٣]، والبترية أصحاب الحديث؛ منهم سفيان بن سعيد الثوري، وشريك بن عبدالله، وابن أبي ليلى، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس، ونظراؤهم من

---

(١) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٨١.

(٢) القمي، المقالات والفرق، ص ٥، والنوبختي، فرق الشيعة، ص ٦.

(٣) يلاحظ ورود هذا اللفظ على ألسنة الشيعة مبكرا؛ حيث عاش العالمان الشيعيان حتى سنة ٣٠٠هـ، وظهر لفظ الشكاك في تاريخ ابن عساكر فقط، من مصادر أهل السنة، فالقائلون الأول به هم الشيعة، وهذا ما سنوضحه فيما يأتي إن شاء الله.

أهل الحشو، والجمهور العظيم، وقد سموا الحشوية»[١]، وقال أبو حاتم الرازي، أحد علماء الشيعة: «والمرجئة هو لقب قد لزم كل من فَضَّل أبا بكر، وعمر، على علي بن أبي طالب»[٢]، ويقول أحمد أمين: «أما المرجئة، فكانت حزبًا سياسيًّا محايدًا، (ونواة) هذه الطائفة كانت بين الصحابة في الصدر الأول؛ فإننا نرى جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ امتنعوا أن يدخلوا النزاع الذي كان في آخر عهد عثمان رضي الله عنه؛ مثل أبي بكرة، وعبدالله بن عمر، وعمران بن حصين، وهذه النزعة في عدم الدخول في الحروب بين المسلمين بعضهم وبعض، هي الأساس الذي بُني عليه مذهب الإرجاء»[٣].

ويذهب د. حسين عطوان نفس المذهب؛ فيقول: «وفي أخبار نفر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم كانوا أول من مال إلى اعتزال الفتن، وقالوا (بالإرجاء)، وقد أيدوا مواقفهم بأحاديث كثيرة، سمعوها من رسول الله ﷺ»[٤]. هذه هي حقيقة الدعوى التي سنتوجه لإبطالها؛ عن طريق عرضنا لمواقف جملة من الصحابة الممتنعين عن القتال في الفتنة، ثم تحقيقنا لمعنى الشُّكَّاك، الذي أُطْلِقَ على المحايدين، أو العائدين من الغزو، وبيان حقيقة موقفهم من الصحابة الكرام، وسوف نعرض أولًا لمواقف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ:

فقد روى الترمذي عن عُدَيْسَةَ بنت أهبان بن صيفي الغفاري رضي الله عنه، قالت: «جاء علي إلى أبي، فدعاه إلى الخروج معه، فقال له: إن خليلي، وابن عمك، عهد إلي إذا اختلف الناس أن أتخذ سيفًا من خشب، فقد اتخذته، فإن شئت خرجت به معك، قال: فتركه»[٥]، وفي رواية قالت: «فلما ظهر علي رضي الله عنه على البصرة، سمع بأهبان بن

(١) القمي، المقالات والفرق، ص ٦، والنوبختي، فرق الشيعة، ص ٧.

(٢) الرازي، كتاب الزينة، ت. د. عبدالسلام السامرائي، ص ٢٦٤.

(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٤) د. حسن عطوان، الفرق الإسلامية في بلاد الشام، ص ١٥، ط١، ١٤٠٦هـ، دار الجيل.

(٥) الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في اتخاذ السيف من خشب في الفتنة في رقم ٢٢٠٣، ج٤، ص ٤٩٠، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

صيفي، فأتاه، وقال له: ما خَلَّفَكَ عنا، يأهبان؟ قال: خَلَّفَني عنك عَهِدَ إلي رسول الله ﷺ، أخوك، وابن عمك؛ قال لي: «إِذَا تَفَرَّقَتِ الأُمَّةُ فِرْقَتَيْنِ، فَاتَّخِذْ سَيْفًا مِنْ خَشَبٍ، وَالْزَمْ بَيْتَكَ»، فأنا الآن قد اتخذت سيفًا من خشب، ولزمت بيتي، فقال له علي رضي الله عنه: فَأَطِعْ أخي، وابن عمي، رسول الله ﷺ »[(١)].

ومن الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة أبو بكرة رضي الله عنه؛ فقد روى أبو داود، عن عمرو بن وابصة، عن أبيه عن عبدالله بن مسعود، قال: سمعت النبي ﷺ يقول (فذكر بعض حديث أبي بكرة)، قال: «قَتْلَاهَا كُلُّهُمْ في النَّارِ»، قال فيه: قلت متى ذاك، يا بن مسعود؟ قال: تلك أيام الْهَرَجِ؛ حيث لا يأمن الرجل جليسه، قلت: فما تأمرني، إن أدركني ذلك الزمان؟ قال: تكف لسانك، ويدك، وتكون حلسًا من أحلاس بيتك.

فلما قُتِلَ عثمان رضي الله عنه طار قلبي مَطَارَهُ، فركبت حتى أتيت دمشق، فلقيت حزيم بن فاتك، فحدثته، فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لَسَمِعَهُ من رسول الله ﷺ، كما حدثنيه ابن مسعود»[(٢)].

● ومن الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ، فقد روى البخاري عن محمد بن علي ـ رحمه الله ـ، أن حرملة مولى أسامة أخبره، فقال: «أرسلني أسامة إلى علي ليعطيني، وقال: إنه سيسألك الآن، فيقول: ما خَلَّفَ صاحبك؟ فقل له: يقول لك: لو كنتَ في شدق الأسد لأحببت أن أكون معك فيه، ولكن هذا أمر لم أَرَهُ، قال حرملة: فسألني، فأخبرته، فلم يُعْطِنِي شيئًا، فذهبت إلى حسن، وحسين، وابن جعفر، فأوقروا لي راحلتي»[(٣)].

واعتزل الفتنة ـ أيضًا ـ الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ فقد روى مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، قال: «كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد، قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فجاء، فنزل، فقال له:

---

(١) ابن عبدالبر، الاستيعاب، بهامش الإصابة، ج١، ص ٦٤.

(٢) أبو داود، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، بذل المجهود، ج١٧، ص ١٥٩.

(٣) البخاري، كتاب الفتن، باب قوله ﷺ «إن ابني هذا سيد»، ح رقم ٧١١٠، الفتح، ج١٣، ص ٦١.

أنزلت في إبلك، وغنمك، وتركت الناس يتنازعون المُلْكَ بينهم، فضرب سعد في صدره، وقال: اسكت؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»(١).

ومنهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه؛ فعن ثعلبة بن ضبية قال: «دخلنا على حذيفة رضي الله عنه، فقال: إني لأعرف رجلًا لا تضره الفتن شيئًا، قال: فخرجنا، فإذا فُسْطَاطٌ مضروب، فدخلنا، فإذا فيه محمد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك، فقال: ما أريد أن يشتمل علي شيء من أمصاركم، حتى تنجلي عما انجلت»(٢)، وفي رواية: قال محمد بن مسلمة: «أعطاني رسول الله ﷺ سيفًا، فقال: «يَا مُحَمَّدُ بْنَ مَسْلَمَةَ، جَاهِدْ بِهَذَا السَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِئَتَيْنِ تَقْتَتِلَانِ، فَاضْرِبْ بِهِ الْحَجَرَ حَتَّى تَكْسِرَهُ، ثُمَّ كُفَّ لِسَانَكَ، وَيَدَكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ، أَوْ يَدٌ خَاطِئَةٌ»، فلما قُتِلَ عثمان، وكان من أمر الناس ما كان، خرج إلى صخرة في فنائه، فضرب الصخرة بسيفه، حتى كسره»(٣)، «وكان محمد بن مسلمة يُقَالُ له فارس نبي الله، قال: فاتخذ سيفًا من عود نحته، وصَيَّرَهُ في الجفن معلقًا في البيت»(٤).

ومن الصحابة الذين اعتزلوا الأحنفُ بن قيس رضي الله عنه؛ فقد روى البخاري، ومسلم، عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه قال: «خرجت، وأنا أريد هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة، فقال: أين تريد، يا أحنف، ارجع؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفِهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قال: فقلت، أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»(٥).

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب فضل العبد التقي الغني، ح رقم ٢٩٦٥، المختصر، ج٢، ص ٥٥٢.

(٢) أبو داود، كتاب السنة، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة، بذل المجهود، ج١٨، ص ١٩١.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٣٣٩.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٣٤٠.

(٥) البخاري، كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفهما، ح رقم ٧٠٨٣، الفتح، ج١٣، ص ٣١، ومسلم، كتاب الفتن، باب السعيد من جنب الفتن، ح رقم ٢٨٨٨، المختصر، ج٥، ص ٥١٢، واللفظ لمسلم.

ومن الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة عبدالله بن عمر بن الخطاب ﵁، فقد روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: خرج علينا عبدالله بن عمر، فرجونا أن يحدثنا حديثًا حسنًا، قال: فَبَادَرَنَا إليه رجل، فقال: يا أبا عبدالرحمن، حدثنا عن القتال في الفتنة، واللهُ يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، فقال: هل تدري ما الفتنة، ثَكِلَتْكَ أمك؟ ! إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك»[1].

ومن الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة عمران بن حصين ﵁، قال أبو قتادة: «قال لي عمران بن حصين: الزم مسجدك، قلت: فإذا دخل عليَّ، قال: فالزم بيتك، قال: فإن دخل علي بيتي، قال عمران بن حصين: لو دخل علي بيتي، يريد نفسي، ومالي، لرأيت أن قد حل لي قتاله»[2]، وعن حجير بن الربيع أن عمران بن حصين أرسله إلى بني عدي، أن ائتهم أجمع ما يكونون في مسجدهم؛ وذلك عند العصر، فقم قائمًا، قال فقام قائمًا، فقال: أرسلني إليكم عمران بن حصين، صاحب رسول الله ﷺ، يقرأ عليكم السلام ورحمة الله، ويخبركم أني لكم ناصح، ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو، لأن يكون عبدًا حبشيًّا مجدعًا، يرعى أعنزًا حضينات في رأس جبل، حتى يدركه الموت، أحب إليه من أن يرمي في أحد الفريقين بسهم، أخطأ، أو أصاب؛ فأمسكوا، فدًى لكم أبي وأمي! قال: فرفع القوم رءوسهم، وقالوا: دعنا منك، أيها الغلام؛ فإنا، والله، لا نَدَعُ ثفل رسول الله ﷺ لشيء أبدًا، فغدوا يوم الجمل فَقُتِلَ بشرٌ، والله، كثير حول عائشة ـ رضي الله عنها ـ يومئذ، سبعون كُلُّهم قد جمع القرآن، قال: ومن لم يجمع القرآن أكثر»[3].

هذه جملة من المواقف المأثورة عن الصحابة الممتنعين عن القتال في الفتنة، لم نعثر فيها، لا من قريب، ولا من بعيد، على أي إشارة للإرجاء؛ فلم ترد هذه العبارة على

---

(١) البخاري، كتاب الفتن، باب قوله ﷺ الفتنة من قبل المشرق، ح رقم ٧٠٩٥، الفتح، ج١٣، ص ٤٥.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤، ص ٢١٦.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤، ص ٢١٦.

ألسنتهم بأي معنى من المعاني الصحيحة، أو المبتدعة، وكان همهم الأول والأخير هو حقن دماء المسلمين، والحفاظ على وحدتهم، وصفاء عقيدتهم، بل أثبتت هذه الفتن، والأحداث الجسيمة، مدى صلابة الصحابة، واستقامتهم عليه، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ولهذا لم يطمع الشيطان أن يَنَالَ منهم من الإضلال، والإغواء، ما ناله من بعدهم، ولم يكن فيهم أحد من أهل البدع المشهورة؛ كالخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة، والجهمية، بل كل هؤلاء إنما حدثوا فيمن بعدهم»(١)؛ فهذه براءة عامة لهم - رضوان الله عليهم - من كل قول مبتدع في العقيدة، يخالف ما اعتقدوه في حياة الرسول ﷺ، فلم يتبرأ أحد منهم من الآخر، ولم يَشُكَّ أحد منهم في إيمان إخوانه الذين دخلوا الفتنة، أو لم يدخلوها، بل كانوا يَدْعُونَ لإخوانهم بالرحمة، والمغفرة، فالصحابة الذين اعتزلوا الفتنة؛ كما يقول الدكتور سفر الحوالي، «يعتمدون على أصل شرعي ثابت بنصوص صريحة من النبي ﷺ، وبعضها أوامر عينية في حق المخاطبين بها، وهذا الأصل هو ترك القتال في الفتنة، وإنَّ من كمال فقه الصحابة - رضي الله عنهم - التفريق بين صحة إمامة علي، ووجوب القتال معه»(٢).

ويحلل ابن حجر مواقف الصحابة المشتركين في الفتنة، والمعتزلين عنها؛ فيقول: «واحتج به من لم يقاتل في الفتنة، وهو حديث: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفِهِمَا فَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»(٣)، وهم كل من ترك القتال مع علي في حروبه؛ كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبي بكرة، وغيرهم، وقالوا: يجب الكف، حتى لو أراد أحد قتله، لم يدفعه عن نفسه، ومنهم من قال: لا يدخل في الفتنة، فإن أراد قتله، دفع عن نفسه، وذهب جمهور الصحابة، والتابعين، إلى وجوب

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٧، ص ٣٨٩.

(٢) د. سفر الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ص ١٨١، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى.

(٣) البخاري، كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفهما، ح رقم ٧٠٨٣، الفتح ج١٣، ص ٣١.

نصر الحق، وقتال الباغين، وجملة هذه الأحاديث الواردة في ذلك على من ضَعُفَ عن القتال، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق، واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عُرِفَ المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله عن المخطئ في الاجتهاد، قال الطبري: «لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه؛ بلزوم المنازل، وكسر السيوف، لما أُقِيمَ حد، ولا أُبْطِلَ باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلًا إلى ارتكاب المحرمات؛ من أخذ الأموال، وسفك الدماء، وسبي الحريم؛ بأن يحاربوهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم؛ بأن يقولوا هذه فتنة، وقد نُهِينَا عن القتال فيها، وهذا مُخَالِفٌ للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء»[1].

ويصحح ابن حجر مواقف جميع الصحابة؛ فيقول: «والحق حَمْلُ عمل كل أحد من الصحابة المذكورين على السداد؛ فمن لابس القتال اتضح له الدليل لثبوت الأمر بقتال الفئة الباغية، وكانت له قدرة على ذلك، ومن قعد لم يتضح له أي الفئتين هي الباغية، وإذا لم يكن له قدرة القتال، وقد وقع لخزيمة بن ثابت أنه كان مع علي، وكان مع ذلك لا يُقَاتِلُ، فلما قُتِلَ عمَّار، قاتل حينئذ، وحَدَّثَ بحديث: «يَقْتُلُ عَمَّارًا الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»[2].

وقد ذهب ميمون بن مهران إلى القول بأن الصحابة الممتنعين عن الدخول في الفتنة هم الجمهرة الغالبة، وقال إنهم الجماعة، وكان موقفهم تولي إخوانهم الذين لابسوا أحداث الفتنة؛ حيث قال: «وأما من لزم الجماعة، فمنهم سعد بن أبي وقاص، وأبو أيوب الأنصاري، وعبدالله بن عمر، وأسامة بن زيد، وحبيب بن مسلمة الفهري، وصهيب بن سفيان، ومحمد بن مسلمة، في أكثر من (عشرة آلاف) من أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين لهم بإحسان، قالوا جميعًا: نتولى عثمان، وعليًّا، ولا نتبرأ منهما، ونشهد عليهما، وعلى شيعتهما بالإيمان، ونرجو لهم، ونخاف عليهم، وعندما

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٣، ص ٣٤ بتصرف.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ج١٣، ص ٤٢.

دعت الخوارج سعد بن أبي وقاص للخروج معهم أَبَى، وقال: لا، إلا أن تعطوني سيفًا له عينان بصيرتان، ولسان ينطق بالكافر؛ فأقتله، وبالمؤمن؛ فأكف عنه، وَضَرَبَ لهم سعد مثلًا؛ فقال: مثلنا ومثلكم كمثل قوم على محجة (والمحجة: البيضاء الواضحة)، فبينما هم كذلك يسيرون، هاجت ريح عجاجة؛ فضلوا الطريق، والتبس عليهم؛ فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين، فأخذوا فيه؛ فتاهوا، وضلوا، وقال الآخرون: كنا على الطريق، حيث هاجت الريح، فَنُنِيخُ؛ فأناخوا، وأصبحوا، وذهبت الريح، وتبين الطريق، فهؤلاء هم الجماعة، قالوا: نلزم ما فَارَقَنَا عليه رسول الله ﷺ، حتى نلقاه، ولا ندخل في شيء من الفتن حتى نلقاه، فصارت الجماعة، والفئة التي تدعى فئة الإسلام، حتى أذهب الله الفرقة، وجمع الألفة، فدخلوا الجماعة، ولزموا الطاعة، وانقادوا لها»[1]، وقال محمد بن سيرين: «هاجت الفتنة، وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما حضرها منهم مئة، بل لم يبلغوا ثلاثين، قال شيخ الإسلام ابن تيمة: «وهذا الإسناد أصح إسناد على وجه الأرض، وقال الشعبي: ولم يشهد الجَمَلَ من أصحاب رسول الله ﷺ غير علي، وعمّار، وطلحة، والزبير، فإن جاءوا بخامس فأنا كذاب، وما حضرها من أهل بدر إلا خزيمة بن ثابت، وقال بكير بن الأشج: أما إن رجالًا من أهل بدر لزموا بيوتهم، بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم»[2].

وإن هذه الجمهرة الغالبة من الصحابة، الذين اعتزلوا الفتنة، لَتُعَبِّرُ عن الحقيقة التي قال بها الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص؛ باستقامتهم على المعتقد الحق، الذي فارقوا رسول الله ﷺ، وهم عليه، ولم يُؤْثَرْ عنهم أي موقف مخالف لعقيدة هذه الأمة، ولم يُؤْثَرْ عنهم القول بالإرجاء لفظًا، ولا معنًى، وإنما تولوا إخوانهم، وسألوا الله لهم المغفرة، والرضوان؛ ومن هذا المنطق، فإنه لا حُجَّةَ لقول من زعم أن المرجئة المبتدعة هم امتداد لرأي الصحابة الممتنعين عن الدخول في الفتنة، ومن هنا يتبين لنا

(١) النص من تاريخ ابن عساكر المخطوطة، ص ٥٠٣ - ٥٠٥، نقلا عن د. محمد أمحزون، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ج٢، ص ١٨٠، بتصرف، ط١، ١٤١٥هـ، دار طيبة، الرياض.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج٦، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

سقوط هذه الدعوى، وعدم حجتها؛ وهي الدعوى التي روجت لها فرق الابتداع قديمًا، وأثارها المستشرقون حديثًا، وفي هذا يقول د. سفر الحوالي: «إن القول بأن أصل المرجئة نَبَعَ من الصحابة قال به الرافضة، والخوارج، قديمًا، ولم تُؤَسَّسِ الفكرة بوضوح إلا عندما انبثق الاستشراق، وأتباعه من العرب، فَدَرَجَ على ألسنتهم، وتداولوه؛ حيث أصبح كأنه حقيقة مسلمة، أرجعوا الفضل في اكتشافها إلى المنهج العلمي الذي انتهجه المستشرقون»[١].

أما الشُّبْهَةُ الثانية التي عَوَّلَ عليها المعاصرون، وزعموا فيها أن المرجئة هم امتداد لأولئك العائدين من الغزو، وسَمَّوْهُمُ الشُّكَّاكَ، وظنوا أن فيهم نفرًا من الصحابة، وهذا النص عثر عليه أحمد أمين في تاريخ ابن عساكر، وسوف نعرض لهذا النص، ونحلله؛ فقد قال ابن عساكر عن المرجئة: «إنهم الشُّكَّاك الذين شكوا، وكانوا في المغازي، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان رضي الله عنه، وكان عهدهم بالناس، وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف، فقالوا: إنا تركناكم، وأمركم واحد، وليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم، وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول قُتِلَ عثمان مظلومًا، وكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقول كان علي أولى بالحق، وأصحابه كلهم ثقة، وكلهم مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله، حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما»[٢].

هذا النص لا يدل على ما ذهب إليه المعاصرون؛ وذلك من خلال الملحوظات التالية:

١- لم يرد في النص أي إشارة إلى البراءة من علي، أو عثمان، بل على العكس؛ فقد تولوهما، وشهدوا لأتباعهم بالعدالة، والثقة التامة.

٢- وردت كلمة «نرجئ أمرهما إلى الله»، وهذا اللفظ له مدلوله اللغوي فقط، ولا

---

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ص ١٧٣.

(٢) النص من تاريخ ابن عساكر مخطوطة التيمورية، ج٢، الورقة ٥٧٧، وقد نقلته من أحمد أمين فجر الإسلام، ص ٢٧٩، و د. حسين عطوان، الفرق الإسلامية، ص ٢٣.

دلالة فيه على المعنى المبتدع، الذي قال به المتأخرون، فكلمه «نرجئ أمرهما» لا تعني الإرجاء المذموم، ولا فِرَقَ المرجئة المبتدعة فيما بعد، وإنما قصاراه تفويض أمر المختلفين إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة.

٣ـ ماذا يعني لفظ الشُّكَّاك الوارد في هذا النص: هل شكوا في أنفسهم هم، أم هل شكوا في الصحابة؟ وهل شكوا في علي، وعثمان، وهما المُبَشَّرَانِ بالجنة، إن هذا اللفظ لا يُنَاسِبُ الواقع في ذلك الوقت، فليس هناك من شك في عدالة الصحابة، بل قالوا: كُلُّهُمْ عندنا عدول، فما وجه التسمية بالشُّكَّاكِ؟ وهل هذه العبارة جيء بها من الشيعة الذين وردت هذه العبارة على ألسنة عالمين من علمائهم؛ كما سبق وذكرت في النوبختي، والقمي؟ والذي نخشاه أن هذا اللفظ قال به الشيعة، ونقله ابن عساكر على حاله، ومما يجب العلم به أن كتب التراجم هذه تجمع الصحيح، والضعيف، والمكذوب، وقد تَنَبَّهَ لهذا مبكرًا شيخ الإسلام ابن تيمية، وحذر من هذه النقول؛ حيث قال: «وهكذا المصنفون في التواريخ؛ مثل «تاريخ دمشق» لابن عساكر، وغيره، إذا ذكر ترجمة واحد من الخلفاء الأربعة، أو غيره، يذكر كل ما رواه في ذلك الباب، فيذكر لعلي، ومعاوية، من الأحاديث المروية في فضلهما، ما يُعَرِّفُ أهل العلم بالحديث أنه كذب»[1].

وينطبق على هذه العبارة ما قاله شيخ الإسلام؛ إذ هذه التواريخ قائمة على روايات عديدة، فيها الصحيح، والسقيم، والمكذوب، ولفظ الشُّكَّاك هذا لعل قائله أحد علماء الشيعة، وأدرجه ابن عساكر في كتابه، كما هي عادة المؤرخين القدامى، فواجب الباحثين المعاصرين التدقيق في مثل هذه الألفاظ، وتخريجها التخريج الصحيح، بمعانيها، ومقاصدها.

٤ـ وعلى فرضية أنهم ذكروا لفظ «نرجئ»، أو غيره، فهي عبارة ليس فيها الكلام على الإيمان، وحقيقته، ودخول العمل فيه، أو عدم دخول العمل فيه.

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج٧، ص ٤٠.

٥- قد يكون هذا التعبير بالإرجاء، أو المرجئة، متأخرًا عن مواقف متقدمة؛ أي عندما ظهر الإرجاء المتأخر، والبدعي، ورأى العلماء قول الأوائل «نرجئ أمر علي وعثمان»، قالوا عنه إرجاء، مع عدم قصد الأوائل ما حَمَّلَهُ المتأخرون لهذا اللفظ؛ أي قد يكون عَبَّر المتأخرون عن الإرجاء الأول تأثرًا بالمعنى الابتداعي للإرجاء المتأخر، مع أن الأوائل قالوا العبارة على معناها اللغوي فقط.

٦- إن الشُّكَّاك الذين عَوَّلَ عليهم علماء الشيعة، والخوارج، والمستشرقون، ومن تابعهم من الكُتَّاب المعاصرين، ليسوا هم الصحابة، وليسوا هم كل العائدين من الغزو، بل إن هؤلاء العائدين منهم من سأل عن أسباب هذا الخلاف، حتى تبين له الحق، وقد استوقفني هذا النص الهام للإمام الطبري، يبين حال بعض أولئك العائدين من الغزو، وموقفهم من أحداث الفتنة، فقد روى عاصم بن كليب الجرمي عن أبيه قال: «رأيت فيما يرى النائم في زمان عثمان بن عفان أن رجلًا يلي أمور الناس، مريضًا على فراشه، وعند رأسه امراة، والناس يريدونه، ويبهشون إليه، فلو نهتهم المرأة لانتهوا، ولكنها لم تفعل، فأخذوه فقتلوه، فكنت أقص رؤياي على الناس في الحضر، والسفر، فيعجبون، ولا يدرون ما تأويلها، فلما قُتِلَ عثمان ﷺ (أتانا الخبر، ونحن راجعون من غزاتنا)، فقال أصحابنا: رؤياك، يا كليب، فانتهينا إلى البصرة، فلم نلبث إلا قليلًا حتى قيل: هذا طلحة، والزبير، معهما أم المؤمنين - رضي الله عنهم -، فراع ذلك الناس، وتعجبوا، فإذا هم يزعمون للناس أنهم خرجوا غضبًا لعثمان، وتوبة مما صنعوا من خذلانه، فقال لهم الناس: أفلم تبايعوا عليًّا، وتدخلوا في أمره؟ فقالوا: دخلنا، واللج على أعناقنا، وقيل: هذا علي قد أضلكم، فقال قومنا لي، ولرجلين معي: انطلقوا حتى تأتوا عليًّا، وأصحابه، فسلوهم عن هذا الأمر الذي قد (اختلط) علينا؛ فخرجنا، حتى إذا دنونا من العسكر، طلع علينا رجل جميل، على بغلة، فقلت لصاحبي: أرأيتم المرأة التي كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس الوالي؟ فإنها أشبه الناس بهذا، ففطن أنا نخوض فيه، فلما انتهى إلينا قال: قفوا، ما الذي قلتم حين رأيتموني؟ فأبينا عليه، فصاح بنا، وقال: والله، لا تبرحون حتى تخبروني، فَدَخَلَنَا منه هيبة، فأخبرناه، فجاوزنا، وهو

يقول: والله، لقد رأيت عجبًا، فقلنا لأدنى أهل العسكر إلينا: من هذا؟ فقال: محمد بن أبي بكر، فعرفنا أن تلك المرأة عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فازددنا لأمرها كراهية، وانتهينا إلى علي، فسلمنا عليه، ثم سألناه عن هذا الأمر، فقال: عدا الناس على هذا الرجل، وأنا معتزل، فقتلوه، ثم وَلَّوْني (وأنا كاره)، ولولا خشيةٌ على الدين لم أجبهم، ثم طَفِقَ هذان في النكث، فأخذت عليها عهودها عند ذلك، وأذنت لهما في العمرة، فقدما على أمهما حليلة رسول الله ﷺ، فرضيا لها ما رغبا لنسائهما عنه، وعَرَّضَاها لما لا يحل لها، ولا يصلح، فاتبعتهما؛ لكي لا يفتقوا في الإسلام فتقًا، ولا يخرقوا جماعة، ثم قال أصحابه: والله، ما نريد قتالهم، إلا أن يقاتلوا، وما خرجنا إلا للإصلاح، فصاح بنا أصحاب علي: بايعوا، بايعوا، فبايع صاحبي، وأما أنا فأمسكت، وقلت: بعثني قومي لأمر، فلا أحدث شيئًا حتى أرجع إليهم، فقال علي: فإن لم يفعلوا؟ فقلت: لم أفعل، فقال: أرأيت لو أنهم بعثوك رائدًا، فرجعت إليهم، فأخبرتهم عن الكلإ، والماء، فحالوا إلى المعاطش، والجدوبة، ما كنت صانعًا؟ قال: قلت: كنت تاركهم، ومخالفهم إلى الكلإ، والماء، قال: مُدَّ يدك، فوالله، ما استطعت أن أمتنع، فبسطت يدي، فبايعته، وكان يقول: علي من أدهى العرب»[1].

فهذا النص يبين لنا أن هؤلاء العائدين من الغزو قد سألوا الطرفين عن أسباب الخلاف، ولم يذكر عن أحد منهم أنه شك، أو تبرأ، فيكون الشُّكَّاك، إذًا، ليسوا من الصحابة، ولا من التابعين، ولا من أهل العلم، وإنما الشُّكَّاك هم أناس لم تَتَفَهَّمْ عقولهم حدوث مثل هذا الخلاف بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فأعلنوا مقالتهم التي أصبحت، فيما بعد، أصلًا من أصول المرجئة المبتدعة، والتي تطورت مع الزمان، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الانحراف عن منهج السلف الصالح.

وليس في النص ما يشير إلى البراءة من الصحابة، بل قد دخلوا في بيعة علي رضي الله عنه راضين، غير مكرهين، بعد أن بين لهم حقيقة الخلاف الذي حدث، ولم يكن له دور في حدوثه؛ فإن أصل الخلاف هو مقتل عثمان رضي الله عنه، وقاتلوه هم أولئك الخارجون

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٣٠ ـ ٣١، بتصرف.

البغاة، فلماذا يُحَمِّلُونَهُ هذه الجريمة، وهو بريء منها؛ فعندما اتضحت معالم الحق هذه بايع هذا النفر عليًا رضي الله عنه؛ فلا يعقل أن يكون جميع الغزاة الفاتحين قد تحيَّروا، وشكُّوا في خلافة علي، وإمرته على المسلمين، فضلًا عن أن يشكوا في خلافة عثمان، وإمرته، بعد ذلك البيان الحق الذي سمعوه.

ولهذا فإنه يجب إعادة النظر في هذا النص المنقول عن ابن عساكر؛ وذلك لأنه لا يمثل هذه المرحلة التمثيل الصحيح، ولا ينطبق على جميع الغزاة العائدين، فيجب أخذ النص بكافة تفصيلاته، ولا يصح بتره ليناسب فكرة محدودة في رءوس من زعموا أن الإرجاء بدأت بذرته في صفوف الصحابة، وخيار التابعين؛ فهذا ما لا يصح قبوله، ولا تَرْدَادُهُ؛ فالمسألة فيها من التفصيل الواسع في كتب التاريخ ما يجعل هذه المقولة لا تُعَبِّرُ إلا عن حقيقة ضيقة، لا يصح إطلاقها على مساحة أكبر من حجمها؛ وذلك بأن نقول إن هناك فئة من المبتدعة القلة هم الذين قالوا بالبراءة من عثمان، وعلي - رضي الله عنهما -، كما ابتدع ابن سبإٍ التشيع، وكما خرجت الخوارج من أولئك الجهلة المارقين، وهكذا هي أصول فرق الابتداع؛ ليس لها نصيب من أهل الفضل، والصلاح، بل نواتها تبدأ ممن زاغت عقيدته، فارتضى لنفسه الابتداع في الدين؛ تبعًا لهواه، ومروقه.

وعلى فرضية صحة نص ابن عساكر، فإن هذا الإرجاء، كما يقول الدكتور سفر الحوالي: «فهو إرجاء حيرة، لا إرجاء فكرة، وهذه الحيرة خاصة بفقة الحكم على المختلفين بالخطإ، أو الصواب، «أما موالاتهم، والإقرار بفضلهم، وسابقتهم، فلم يكن موضع شك عندهم»[1].

ومما يَدُلُّكَ على أن هذا التوقف الذي قال به بعض العائدين من الغزو والجهاد، ليس هو أصل المرجئة المبتدعة فيما قالوه من انحرافات عقدية ـ النص الذي رواه الإمام الطبري عن سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ؛ حيث قال: «الإرجاء على وجهين: قوم

---

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ص ١٧٠.

أرجوا أمر علي، وعثمان، فقد مضى أولئك، فأما المرجئة اليوم، يقولون الإيمان قول بلا عمل، فلا تُجَالِسُوهُمْ، ولا تواكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصلوا معهم، ولا تصلوا عليهم»[١].

فهذا النص يفيد ذَهَاب القائلين بالإرجاء الأول الخاص بعلي، وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ، وظهور أهل البدع، والزيغ، الذين قالوا بمقالات لم تخطر على بال الأوائل، فكيف ينسب هؤلاء المبتدعة إلى الأوائل، الذين نُسِبَ إليهم ذلك القول، والذي على حقيقته ـ أيضًا ـ يُعتبر نوعًا من البدعة التي لم يقرها علماء السلف؛ وذلك لعدم صحة البراءة من الصحابة، وإعذارهم فيما شجر بينهم، وتوليهم، والاستغفار لهم ـ رضوان الله عليهم.

ومما يجب ذكره، وعدم إغفاله في هذه المرحلة، أن الحسن بن محمد بن الحنفية (ت ٩٩هـ) قد نُسِبَ له كتاب ألفه في الإرجاء الأول، ويُرَجَّحُ أنه ألفه قبل سنة (٨٣هـ)؛ وذلك لأن أباه تُوُفِّيَ سنة(٨١هـ)، وعابه على هذا، وضَرَبَهُ حتى شَجَّ رأسه، قال ابن سعد: «وهو أول من تكلم في الإرجاء، ودخل عليه زاذان، وميسرة فلاماه على الكتاب الذي، وضع في الإرجاء، فقال لزاذان: يا أبا عمر، لوددت أني كنت مت، ولم أكتبه»[٢].

وروى ابن عساكر، عن عثمان بن إبراهيم، قال: «أول من تكلم في الإرجاء الحسن بن محمد بن الحنفية، وكان في الحلقة جحدب، وقوم، فتكلموا في علي، وعثمان، وطلحة، والزبير؛ فأكثروا، والحسن ساكت: ثم تكلم، فقال: قد سمعت مقالتكم، ولم أر شيئًا أَميل من أن يُرْجَأَ علي، وعثمان، وبلغ أباه محمد بن الحنفية ما قاله: فضربه بعصًا، فشجه، وقال: لا تَوَلَّ أباك عليًا»[٣]، قال الإمام الذهبي معلقًا على الإرجاء المنسوب للحسن بن محمد: «قلت: الإرجاء الذي تكلم به معناه أنه يرجئ أمر

(١) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٨١.

(٢) ابن سعد الطبقات، ج٥، ص ٢٥٢.

(٣) ابن عساكر، المختصر، ج٧، ص ٧٠.

عثمان، وعلي، إلى الله، فيفعل فيهم ما يشاء، ولقد رأيت أخبار الحسن بن محمد في مسند علي رضي الله عنه، ليعقوب بن شيبة، فأورد في ذلك كتابه «الإرجاء»، وهو نحو ورقتين، فيها أشياء حسنة؛ وذلك أن الخوارج تَوَلَّت الشيخين، وبرئت من عثمان، وعلي، فعارضتهم السبئية؛ فبرئت من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وتَوَلَّت عليًّا، وأفرطت فيه، وقالت المرجئة الأُوَل: نَتَوَلَّى الشيخين، ونرجئ عثمانَ، وعليًّا؛ فلا نَتَوَلَّاهما، ونتبرأ منهما»[1].

وقال ابن حجر: «المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة، المتعلق بالإيمان، ثم نقل من كتابه أنه كان يقول: ونوالي أبا بكر، وعمر - رضي الله عنهما -، ونُجَاهِدُ فيهما؛ لأنهما لم تَقْتَتِلْ عليهما الأمة، ولم تشك في أمرها، ونرجئ من بعدهما؛ ممن دخل في الفتنة، فَنَكِلُ أمرهم إلى الله، قال ابن حجر: فمعنى الذي تكلم فيه الحسن أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئًا، أو مصيبًا، وكان يرى أنه يرجئ الأمر فيهما، وأما الإرجاء الذي يتعلق بالإيمان فلم، يُعَرِّجْ عليه؛ فلا يلحقه بذلك عيب، والله أعلم»[2]، ولعل رجوع الحسن عن هذا الإرجاء يُصَوِّبُ ما ذهبنا إليه من أن الأصل هو تولي المقتتلين في الفتنة، والاستغفار لهم، ولعل الخوض في هذه المسألة هو الذي دفعه للكتابة بذلك؛ مما حدا بأبيه إلى ضربه؛ ومن ثم عودته، والله أعلم.

إذا تبين هذا الأصل العظيم الذي انتهجناه في هذا البحث، وهو براءة الصحابة من كل ما حاول أهل البدع، والانحراف، إلصاقه بهم، من الانحرافات العقدية، جاز لنا البحث عن نشأة المرجئة، وبروز مقالاتها المنحرفة، سواء في نطاق الخوارج المارقين، أو غَيْلان القدري، أو جهم بن صفوان، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن الإرجاء نشأ في محاضن مشبوهة، على أيدي أمثال هؤلاء المبتدعة، والذين زادوا على الإرجاء مبتدعاتهم في القدر، والصفات، وغيرها من مسائل العقيدة.

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٣٣٣.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص ٢٧٧.

٣ـ غُلَاةُ المُرْجِئَةِ، وَمَقَالَاتُهُمُ المُبْتَدَعَةِ:

لقد سبق لنا الحديث عن الإرجاء الأول، والذي كان يقصد به المعنى اللغوي؛ أي تأخير أمر المقتتلين من الصحابة إلى الله ـ تعالى ـ؛ فقد قال عنهم سفيان بن عيينة: «قوم أرجوا أمر علي، وعثمان، فقد مضى أولئك، فأما المرجئة اليوم، فهم قوم يقولون الإيمان قول بلا عمل»[١]، والذي نُرَجِّحُهُ، ونميل إليه، أن هناك فِرَقًا حملت في ثنايا غلوها كل أمر يُهَوِّنُ من أمر هذا الدين، وإيمان المسلمين به، ولعل مقالة الغلاة من المرجئة في هذا الشأن تؤكد ما ذهبنا إليه، وهذا ما سوف نراه في مرجئة الجهمية، والغيلانية على الخصوص؛ فمن المعلوم أن غيلان الدمشقي، الذي سبق وأن عَرَّفْنَا بشخصيته في مبحث القدرية، كان من المرافقين لمدعي النبوة الكذَّاب الحارث بن سعيد، الذي قُتِلَ في عهد عبدالملك بن مروان، وكان خادمًا لامرأته، وكان يقول عنها أم المؤمنين؛ كما سبق ذِكْرُهُ، والذي نرجحه أنه كان يحمل فكر الإرجاء قبل قوله بالقدر الذي اشتهر به، وقُتِلَ في عهد هشام بن عبدالملك، وأما الجهم بن صفوان، فضلالاته العقدية تشمل كل مسائل العقيدة، وزاد على ذلك بمقالاته في الإرجاء الغالي، والمنحرف.

والذي يبدو لنا أن الإرجاء كان موجودًا في الخوارج ـ أيضًا ـ؛ فقد كانت فرقة الحسينية إحدى فروع الصفرية؛ «حيث كانوا يرون الدار دار حرب، وأنه لا يجوز الإقدام على من فيها إلا بعد المحنة، ويقولون بالإرجاء في موافقيهم خاصة»[٢]، ومنهم فرقة يُسَمَّوْنَ الشبيبيَّة؛ وذلك أن شبيبًا وقف في صالح بن مسرح، وفي الراجعة الذين رجعوا عنه، وبرئوا منه؛ لأحكام حكم بها[٣]، فقالوا: «لا ندري: أَحَقٌّ ما حكم به صالح أم جور؟ وحق ما شهدت به الراجعة أم جور؟ فبرئت منهم، وسموهم مرجئة الخوارج»[٤].

---

(١) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٨١.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١١٩.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٢١.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٢٣.

فهذا الإرجاء المبتدع في نطاق الخوارج كان يخص من كان خارجيًّا مثلهم، وإلا، فهم يُكَفِّرُونَ من سواهم، فهل كان الإرجاء أقدم حدوثًا في الخوارج من أهل السنة؛ أي إرجاء الفقهاء الذي عده علماء السلف من البدع ـ أيضًا ـ، هذا ما نُرَجِّحُهُ؛ فقد حملت معظم فرق الابتداع هذه الآراء الشاذَّة، بجانب مبتدعاتها المنكرة الأخرى؛ فعندما عدَّد الشهرستاني فرق المرجئة، وَزَّعَها على فِرَق مبتدعة في مسائل عقدية أخرى، سبق وأن اتصفت بها، واشتهرت بها، مضافًا إليها الفكر الإرجائي المنحرف؛ حيث قال: «منهم مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة، ومحمد بن شبيب، والصالحي من مرجئة القدرية، وكذلك الغيلانية، أصحاب غيلان الدمشقي، أول من أحدث القول بالقدر، والإرجاء»[1].

ولعل الإرجاء ظهر في صفوف الخوارج مبكرًا؛ تبعًا لجهلهم، وقلة علمهم، وكثرة انحرافاتهم التي تَتْبَعُهَا المجادلات المستمرة حول كل قضية من القضايا التي تحدث بينهم، وهذا الإرجاء ظهر تبعًا لهذه المناقشات التي ليس لها سند شرعي تعتمد عليه، يضاف إلى ذلك سلوكياتهم المنحرفة التي ألجأتهم إلى مثل هذه التأويلات الباطلة، التي خاضت في مسائل الإيمان، والعمل، والكبيرة، والمعصية، وغيرها من النصوص الشرعية التي لم يكن للخوارج فقه، وعلم بالكتاب والسنة، يوفقهم لمراد الحق فيها.

يقول الدكتور سفر الحوالي: «إن طائفة من الخوارج تشمل فرقًا، أو بعض فرق، تقف من الحكم على الأصحاب المختلفين في الفتنة موقفًا وسطًا بين قول المُحَكِّمَةِ، والأزارقة الذين يكفرونهم رأسًا، وبين قول الإباضية، ونحوهم؛ ممن يقول هم كفارُ نِعْمَةٍ، وهذا الموقف هو التوقف في الإرجاء؛ أي إرجاء حكمهم في الآخرة إلى الله ـ تعالى ـ، مع إثبات أن الإيمان لهم في الدنيا؛ بناءً على الأصل الذي اتخذته أكثر فرق التوقف؛ وهو أن كل معصية، دون الكفر، لا يُطْلَقُ على صاحبها اسم الكفر، ولا يُنْفَى عنه اسم الإيمان»[2].

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٣٩.

(٢) ظاهرة الإرجاء، ص ٢٢٢.

وتأتي الغيلانية؛ أتباع غيلان القبطي القدري، في تقديرنا، الفرقةَ الثانيةَ التي قالت بالإرجاء الغالي، وغيلان القدري قد جمع، مع نفيه للقدر، القول بالإرجاء؛ حيث يزعم، وأتباعه، أن الإيمان هو المعرفة الثانية بالله، والمحبة، والخضوع، والإقرار بما جاء به الرسول ﷺ، وبما جاء من عند الله ـ تعالى ـ، وزعم أن المعرفة الأولى اضطرار، وليس بإيمان، وحكى زرقان في مقالاته عن غيلان: «أن الإيمان هو الإقرار باللسان، وأن المعرفة بالله ـ تعالى ـ ضرورية، وليست من الإيمان، وزعم غيلان أن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص، ولا يتفاضل الناس فيه»[1].

وممن نُسِبَ إليه الإرجاء الغالي في هذه الفترة عدو الله جهم بن صفوان، وأستاذه الجعد بن درهم؛ حيث ذهب، وفرقته، إلى القول: «إن الإيمان هو التصديق بالله، ورسوله، وبجميع ما جاء به من عند ربه، وإن لم يَكُنْ مع ذلك شهادة بلسان، ولا إقرار بنبوة، ولا تأدية فريضة، وزعموا أن إيمانهم كإيمان جبريل، وسائر الملائكة، والنبيين ـ على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ـ، حتى أنهم قالوا: «لو قال أحد بلسانه: لله ـ تعالى ـ ولد، أو صاحبة، أو شريك (تعالى ربنا عن ذلك علوًّا كبيرًا)، وهو يعتقد بقلبه خلافه، فهو مؤمن، ولا يضره ما ذكره بلسانه، وهذا القول باطل، بل كفر، بإجماع المسلمين»[2].

وقال الملطي: «ومنهم صِنْفٌ زعموا أنهم مؤمنون، مستكملون للإيمان، ليس في إيمانهم نقص، ولا لبس، إن زنى أحدهم بأمه، أو أخته، وارتكب العظائم، وأتى الكبائر، والفواحش، وشرب الخمر، وقتل النفس، وأكل الحرام، وترك الصلاة، والزكاة، والفرائض كلها، واغتاب، وهمز، ولمز»[3].

وقال عنهم ابن حزم: «الطائفة القائلة إن الإيمان عَقْدٌ بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية، وعبد الأوثان، أو لزم اليهودية، أو النصرانية في دار الإسلام،

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٠٦، وانظر اليافعي، ذكر الاثنتين والسبعين، ص ١٤١.
(٢) اليافعي، ذكر مذاهب، ص ١٣٦، وذكر الجعدية، أتباع الجعد، ص ١٤٤.
(٣) الملطي، التنبية والرد، ص ١٥٣، وانظر الأشعري، مقالات، ص ١٤١، و ص ١٥٢.

وعبدالصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله ـ عز وجل ـ، وَلِيٌّ لله ـ تعالى ـ، من أهل الجنة، وهذا قول أبي محرز جهم بن صفوان السمرقندي»[١].

ومقالات الجهم بن صفوان تمثل قمة الغلو، الداعي إلى تعطيل أحكام الشريعة، والعقيدة، على السواء، وهذا غاية في الكفر، والمروق؛ حيث يقول البغدادي: «فاتفق أصناف الأمة على تكفيره (أي الجهم) »، ولعل المقالة المنسوبة[٢] للمرجئة: إنه لا يضر مع الإيمان معصية، هي من مقالات الجهم، ولكن ابن حزم، والسكسكي، ينسبانها إلى مقاتل بن سليمان، المفسر الشهير؛ حيث يقول ابن حزم: «وقال مقاتل بن سليمان ـ وكان من كبار المرجئة ـ: لا يضر مع الإيمان سيئة، جَلَّتْ، أو قَلَّتْ أصلًا، ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلًا، وكان مقاتل هذا مع جهم بخراسان في وقت واحد، وكان يخالفه في التجسيم؛ كان جهم يقول: ليس الله ـ تعالى ـ شيئًا، ولا هو ـ أيضًا ـ لا شيء، وكان مقاتل يقول: إن الله جسم، لحم، ودم، على صورة الإنسان»[٣].

ولعل هذا الغلو المنسوب إلى مقاتل مبالغ فيه؛ حيث يرى شيخ الإسلام أن المعتزِلة كانوا يكذبون على مقاتل، وهذا النص يوضح ذلك؛ حيث يقول: «وأما مقاتل، فالله أعلم بحقيقة حاله، والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزِلة، وفيهم انحراف على مقاتل بن سليمان؛ فلعلهم زادوا في النقل عنه، أو نقلوا عن غير ثقة، وإلا، فما أظنه يصل إلى هذا الحد، وقد قال الشافعي: من أراد التفسير، فهو عيال على مقاتل، ومن أراد الفقه، فهو عيال على أبي حنيفة، ومقاتل بن سليمان، وإن لم يكن ممن يُحْتَجُّ به في الحديث، بخلاف مقاتل بن حيان؛ فإنه ثقة، لكن لا ريب في علمه بالتفسير، واطلاعه، كما أن أبا حنيفة، وإن كان الناس خالفوه في أشياء، وأنكروها عليه، فلا

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٥، ص ٧٣، وانظر السكسكي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، ص ٣٤، ت. د. بسام العموش، ط١، ١٤٠٨هـ، المنار، الأردن.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢١٢.

(٣) ابن حزم، الفصل، ج٥، ص ٧٤، واليافعي، البرهان، ص ٤٠.

يَسْتَرِيبُ أحد في فقهه، وَفَهْمه، وعلمه، وقد نقلوا عنه أشياء يقصدون بها الشناعة عليه، وهي كذب عليه قطعًا، مثل مسألة الخنزير البري، ونحوها، وما يَبْعُدُ أن يكون النقل عن مقاتل من هذا الباب»[١].

وهكذا تطورت مقالة الإرجاء على يد هؤلاء المبتدعة؛ لتعطي للفساق، والجهلة، الذريعة لارتكاب المعاصي، والمنكرات، بحجة أن ذلك لا يُؤَثِّرُ في الإيمان، فما كان مقصود هؤلاء إلا تهوين أمر الإيمان في قلوب الناس، ودعوتهم للانفلات من كل القيود الشرعية؛ تبعًا لأهدافهم الضالة التي دعوا لها، وعملوا من أجلها طوال حياتهم، وجاء أتباعهم من بعدهم ليؤسسوا هذه المقالات البدعية، وقد وجدوا لها جمهورًا من الملاحدة، والزنادقة، وأهل الإباحة.

ومن هنا تبدو خطورة مذهب الإرجاء، الذي كان له الأثر السيِّئ في جمهور الأمة الذي تنازعته هذه الفرق، ووجد الفُسَّاق، والجهلة في هذه الدعوات المنكرة ما يُرِيحُ ضمائرهم، ويخليهم من كل مسئولية إيمانية؛ فانطلقوا يمارسون هذه المنكرات، وهم يزعمون أنهم مؤمنون، كاملوا الإيمان، وأن الإيمان في القلب، وأنه لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تَنْفَعُ مع الكفر طاعة، فكانت بدعة الإرجاء من أخطر البدع التي واجهها علماء السلف بالبيان لبطلان دعواهم، والرد على جهالاتهم، وإن كان هناك من علماء السلف من قال بالإرجاء، إلا أنه لم يصل إلى مستوى إرجاء الغلاة، ولكنه إرجاء بدعي ـ أيضًا ـ ذمَّهُ السلف، واعتبروه انحرافًا عن المنهج الحق الذي ورثوه، وهذا ما سوف نوضحه في الفقرة التالية.

٤ـ مَفْهُومُ الْإِرْجَاءِ عِنْدَ بَعْضِ فُقَهَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غُلَاةِ الْمُرْجِئَةِ:

ذكرنا آنفًا الإرجاء البدعي الغالي، في نطاق فرق الابتداع من الخوارج، والغيلانية، والجهمية، ورأينا الانحراف الكبير الذي أحدثته هذه الفرق؛ من تعطيل الشريعة، وفتح الباب على مصراعيه أمام الفُسَّاق، لعمل ما يحلو لهم، بحجة أن الأعمال ليست داخلة في الإيمان، كما كان له الأثر الكبير (في إضعاف إيمان الناس بالوعيد؛

(١) منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٦١٩ ـ ٦٢٠.

فاسترسلت نفوسهم في المحرمات، وترك الواجبات؛ حتى كانوا من شر الخلق»[(١)].

أمام هذا الانحراف الذي كان سببه الجدال حول مرتكب الكبيرة، وعلاقة الإيمان بالعمل، انعكس أثر هذا الجدال على بعض فقهاء أهل السنة، ممن تعرضوا لمثل هذه القضايا، فقالوا بنوع من أنواع الإرجاء الذي ذمَّه علماء السلف، وإن كانوا عَدُّوهُ بدعة خفيفة، وسوف نبين مفهوم هذا الإرجاء عندهم فيما بعد، بعد أن نعرض لما يُقَالُ من سبب ظهور هذا الإرجاء في وسط أهل السنة؛ وذلك بالقول إن الأمة في هذه الفترة التي ظهر فيها القول بالإرجاء تَعَرَّضَتْ لفتنة شديدة، أوقعت الأمة في حيرة، واضطراب، وكان من نتائجها احتدام الجدال حول مفهوم الإيمان، وعلاقته بالعمل، فإذا كانت المرجئة قد حدثت في السابق حول معنى الإرجاء اللغوي، الذي يتعلق بأحداث الفتنة، فإنه تطور، فيما بعد، ليتناول قضايا واسعة؛ كما يقول الدكتور محمد البهي: «اختلاف المسلمين في الرأي ابتدأ حول حوادث جزئية، وانتهى في آخرها بأن أصبح حول أمر عام؛ مثال ذلك حكم مرتكب الكبيرة؛ حيث انتهى الحديث عن الأشخاص المشاركين في الفتنة، وعلاقتهم بالكبيرة، ثم آل الأمر إلى أن صار موضوع الحكم بعيدًا عن التشخيص؛ بحيث كان الانتقال من أمور جزئية إلى أمر كلي عام»[(٢)].

فمن الناحية التاريخية، نجد أن التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي يُؤَرِّخُ لبداية الإرجاء البدعي؛ فيقول: «إنما حدث هذا الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث»[(٣)]، فهل كان لهذه الهزيمة أثر في نشأة هذا الإرجاء، إذا علمنا أن جمهرة كبيرة من فقهاء الأمة شاركوا فيها، وسوف نقدم هذا العرض الموجز عن هذه الثورة؛ لبيان أثر هذه الفتنة في الافتراق، وظهور الجدال بين علماء الأمة حول مسائل الإيمان، والعمل، وغيرها من

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج٥، ص ٣٢٧، بتصرف.

(٢) د. محمد البهي، الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص ٤٩، بتصرف، ط٦، ١٤٠٢هـ، القاهرة.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٢٧٥.

مسائل العقيدة.

مما هو معلوم أن ثورة ابن الأشعث بدأت سنة(٨١هـ)، وانتهت بالهزيمة في نهاية سنة (٨٣هـ)، وقد شارك في هذه الثورة أعداد كبيرة من القُرَّاء، والفقهاء، فريق مع ابن الأشعث، وفريق مع الحجاج، وكان لهذه الثورة أثر في بروز المجادلات، فيما بعد، ومُلَخَّصُ هذه الفتنة أن عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بعثه الحجاج لقتال (قبيل صاحب الترك)، وكان هناك نوع من الكراهية بن الحجاج، وابن الأشعث[(١)]، وكان ابن الأشعث يبيت فكرة الخروج على الحجاج؛ ومما يوضح ذلك ما قاله إسماعيل بن الأشعث عم عبدالرحمن للحجاج، قال: «لا تبعثه؛ فإني أخاف خلافه، فوالله، ما جاز جسر الفرات قط، فرأى لِوَالٍ من الولاة عليه طاعة، وسلطان»[(٢)]، وبالفعل، توجه ابن الأشعث لحرب الترك، وهَزَمَهُمْ، «واستولى على أراضي واسعة، وملأ يديه من البقر، والغنم، والغنائم العظيمة، وقرر عند ذلك حبس الناس عن التوغل في أرض الترك، وقال: نكتفي بما أصبناه هذا العام من بلادهم، حتى نجبيها، ونعرفها»[(٣)]، وعندما علم الحجاج بتوقفه عن الغزو، بعث إليه يعيب عليه ذلك، فما كان من ابن الأشعث إلا إعلان خلعه للحجاج، واستعداده للكرة على العراق لقتاله، وعَلَّلَ ذلك لجنده، ومن رافقه من الناس؛ فقال: «إن الحجاج يطلب منهم التوغل في أرض العدو؛ للتخلص منهم، فتكلم ابن الأشعث في خلع الحجاج، ولم يتكلم في خلع عبدالملك بن مروان»[(٤)].

وبعد أن قَوِيَتْ شوكة ابن الأشعث، وبإزاء سيرته الحسنة في الناس، وما أفاضه عليهم من الأعطيات، وعلاقته الطيبة بالفقهاء، والقُرَّاء، فقد بايعوه على خلع الحجاج، ومن أبرزهم ذر بن عبدالله الهمذاني الذي سيُصْبِحُ من أبرز شخصيات الإرجاء، وأول

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٦١٧.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٦١٨.

(٣) الطبري، ج٣، ص ٦١٨.

(٤) الطبري، ج٣، ص ٦٢٣.

من تكلم فيه أبو البحتري، الذي قام يحث الناس على قتال الحجاج، فقال: «أيها الناس، قاتلوهم على دينكم، ودنياكم، فوالله، لئن ظهروا عليكم، لَيُفْسِدُنَّ عليكم دينكم، ودنياكم، وقال الإمام الشعبي: «يأهل الإسلام، قاتلوهم، ولا يأخذكم حرج من قتالهم؛ فوالله، ما أعلم قومًا على بسيط الأرض، أعمل بظلم منهم»، وقال سعيد بن جبير: «قاتلوهم، ولا تأثموا، ولا يأخذكم حرج من قتالهم، بنية، ويقين، وعلى آثامهم قاتلوهم، على جورهم في الحكم، وتجبرهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة»[1].

وقد استمرت هذه الفتنة ثلاث سنوات، وأهل العراق، وبلاد فارس، وجند الشام، بقيادة الحجاج، يصطرعون، فريقٌ مع ابن الأشعث، وفريق مع الحجاج، وكانت الحرب جولات، مَرَّةٌ لابن الأشعث، ومرة للحجاج، حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث، وكانت هزيمة مُرَّةً، وعصيبة في الأمة، وفقهائها، وقُرَّائِهَا الذين أَمَّلُوا الناس بالتخلص من الحجاج، وعسفه، وظلمه، وأصبحت وعود العلماء للناس بتطبيق أمثل للكِتَاب والسنة حلمًا، وسرابًا بعيدَ المنال، ولعل هذا الوصف، عن الطبري، لموقف القُرَّاء، يُعَبِّرُ عن الحرج البالغ الذي وقعوا فيه؛ بسبب مشاركتهم بهذه الفتنة؛ حيث قال: «فخرج الناس، فعسكروا، وجعلوا يبكون، وينادون: يا محمداه! يا محمداه! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قُرَّاء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين، فيبكون لما يسمعون منهم، ويرون»[2].

وروى خليفة بن خياط، عن مالك بن دينار، قال: «خرج مع ابن الأشعث خمس مئة من القُرَّاء، كلهم يرون القتال»[3]، ومن مظاهر هذه الهزيمة التي جلبت النقاش في مسائل تخص الكفر والإيمان، ما رواه الطبري: «إن الحجاج عندما دخل الكوفة، وأقام

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ٦٣٥.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٦٤٨، وانظر رواية مختصرة لهذه الفتنة في الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣١٦.

(٣) خليفة خياط، التاريخ، ص ٢٨٧، ت. د. أكرم العمري، ط٢، ١٤٠٥هـ، دار طيبة، الرياض.

مجلسًا، وأجلس مصقلة بن كرب بن رقبة العبدي إلى جنبه، وكان خطيبًا، فقال: اشتم كل امْرِيءٍ بما فيه، ممن كُنَّا أَحْسَنَّا إليه، فاشتمه بقلة شكره، ولؤم عهده، ومن علمت منه عيبًا، فَعِبْهُ بما فيه، وصَغِّرْ إليه نفسه، وكان لا يبايعه أحد إلا قال له: «أتشهد أنك قد كفرت؟»، فإذا قال: نعم، بايعه، وإلا، قتله، وجاءه رجل من خثعم، فقال له: أتشهد أنك كافر؟ قال: بئس الرجل أنا، إن كنت عبدت الله ثمانين سنة، ثم أشهد على نفسي بالكفر، قال: إذًا أقتلك، قال: وإن قتلتني، فوالله، ما بقي من عمري إلا ضمء حمار، وإني لأنتظر الموت صباحَ مساءَ؛ فقال: اضربوا عنقه، فضُرِبَتْ عنقه، فزعموا أنه لم يَبْقَ حوله قرشي، ولا شامي، ولا أحد من الحزبين، إلا رحمه، ورثى له من القتل»[1].

أمام هذه الأحداث الجسيمة، وما تَبِعَهَا من ممارسات الحجاج الرهيبة، وإجباره الناس على الإقرار بالكفر؛ للنجاة من القتل، «فقد جيء له برجل، فقال له الحجاج: إني لأرى رجلًا، ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، فقال الرجل: أَخَادِعِي عن نفسي؟ أنا أكفر أهل الأرض، وأكفر من فرعون ذي الأوتاد؛ فخلى سبيله»[2]، وكانت هذه الممارسات، بهذه الهيئة، وهذه الكيفية، سببًا من أسباب فتح الجدال: هل من يفعل مثل هذا مؤمن كامل الإيمان؟ وهل لأفعاله هذه صلة، بإيمانه، وكماله؟ ولعل النقاش كان يدور في نطاق أوسع حول المقتتلين في هذه الفتنة، وهل هم مؤمنون كاملوا الإيمان؟ وما صلة أعمالهم بإيمانهم؟ ولعل النقاش ـ أيضًا ـ امتد إلى مسائل متعددة؛ كمرتكب الكبيرة، وغيرها، فكانت هذه الأحداث، وما أفرزته من مجادلات، سببًا في بروز الفكر الإرجائي المبتدَع، وفي هذا يقول د. سفر الحوالي: «وهنا برز قرن الإرجاء بين صفوف هؤلاء اليائسين المستسلمين للأمر الواقع، كما تجرأ الذين كانوا مرجئة من قبل؛ فأعلنوا مذهبهم، واستغلوا آثار الهزيمة»[3].

---

(١) الطبري، ج٣، ص ٦٣٩.

(٢) الطبري، ج٣، ص ٦٣٩.

(٣) ظاهرة الإرجاء، ص ٢٦١.

وفي أثناء هذه الفتنة العجيبة، وما تبعها من آلام، ومآسٍ، غابت عن جملة من الفقهاء طريقة السلف الذين يعتقدون ثبات الأصول العَقَدِيَّة، ويعتقدون أن الفتنة، والأحداث، مهما كانت أليمة، يجب أن لا ينحرف المسلمون عن منهج النبوة الحق؛ فذهبوا يبحثون في مسائل الإيمان، والعمل على غير المنهج النبوي، تحت ضغط الواقع، ومجادلات أرباب البدع الأخرى، ولتقرير هذه القاعدة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأهل البدع إنما دخل عليه الداخل لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق، وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها، إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأملون بيان الله، ورسوله، وكل مقدمات تخالف بيان الله، ورسوله، فإنها تكون ضلالًا؛ ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له في القرآن من غير استدلال ببيان الرسول، والصحابة، والتابعين، وكذلك ذكر في رسالته إلى عبدالرحمن الجرجاني، في الرد على المرجئة، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين؛ لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا، ومن عدل عن سبيلهم، وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله، ورسوله، ما لا يعلم، أو غير الحق»[١].

ومن هذا السبيل البدعي سلك بعض الفقهاء مسلك البدعة، عندما عرضت لهم شبهة الإرجاء، فوسعوا المفهوم اللغوي المحدود المعنى، ليشمل تعريف الإيمان، وعلاقته بالعمل، فوقعوا في هذه البدعة المنكرة، التي أسهمت في انحراف المجتمع، فيما بعد، تحت دعاوى الإرجاء، التي مضمونها عدم شعور المرء بأي إثم، أو خطيئة، طالما أن العمل منفصل عن الإيمان، ولا يؤثر فيه بزعمهم.

وقد اتُّهِمَ بهذا الإرجاء جملة من الفقهاء العباد من علماء أهل السنة؛ ومنهم: حماد بن أبي سليمان[٢]، وطلق بن حبيب العنزي[٣]، وعمر بن ذر الهمذاني[٤]، وإبراهيم بن يزيد بن

---

(١) ابن تيمية، كتاب الإيمان، ص ٢٢٧، ت. الألباني، ١٤٠٠هـ، مكتبة مالك بن أنس.

(٢) انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٢٣١.

(٣) البخاري، الضعفاء الصغير، ص ١٢٧، وسير أعلام النبلاء، ج٤، ص ٦٠١.

(٤) سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ٣٨٥.

شريك التميمي[١]، ومحمد بن خازم (أبو معاوية الضرير)[٢]، وأبو حنيفة النعمان[٣]، وخارجة بن مصعب[٤]، وعبدالعزيز بن أبي رواد[٥]، ومحمد بن السائب بن بشر[٦]، ومسعر بن كدام[٧]، ومحارب بن دثار[٨]، وعون بن عبدالله بن مسعود[٩]، وموسى بن أبي كثير[١٠]، وعباد بن منصور الناجي[١١]، وعباد بن كثير[١٢]، وعبدالكريم بن أبي المخارق[١٣]، وأصرم بن غياث[١٤]، وسعيد بن سالم[١٥]، والصلت بن مهران[١٦]، وسالم بن عجلان الأفطس[١٧]، وقيس بن عمرو الماصر»[١٨].

ويمكننا بيان مذهب هؤلاء الفقهاء بالإرجاء على النحو التالي؛ حيث يقول شيخ الإسلام

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٦٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٩، ص ٧٣.

(٣) تاريخ بغداد، ج١٣، ص ٣٣٨.

(٤) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ٣٢٦، الضعفاء الصغير، ص ٨٤.

(٥) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ١٨٤.

(٦) سير أعلام النبلاء، ج٩، ص ٢٤٨.

(٧) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ١٦٣.

(٨) سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٢١٧.

(٩) سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ١٠٣.

(١٠) تقريب التهذيب، ص ٩٧٧.

(١١) سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ١٠٥.

(١٢) الضعفاء الصغير، ص ١٥٣.

(١٣) سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ٨٣.

(١٤) الضعفاء الصغير، ص ٣٧.

(١٥) سير أعلام النبلاء، ج٩، ص ٣١٩.

(١٦) الضعفاء الصغير، ص ١٢٢.

(١٧) تقريب التهذيب، ص ٣٦١.

(١٨) طبقات ابن سعد، ج٦، ص ٣٢٩.

ابن تيمية، مفصلاً لهذه البدعة: «وحدثت المرجئة، وكان أكثرهم من أهل الكوفة، ولم يكن أصحاب عبدالله من المرجئة، ولا إبراهيم النخعي، وأمثاله، فصاروا نقيض الخوارج، والمعتزِلة؛ فقالوا: إن الأعمال ليست من الإيمان، وكانت هذه البدعة أخف البدع؛ فإن كثيرًا من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ، دون الحكم؛ إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول؛ مثل حماد بن أبي سليمان، وأبي حنيفة، وغيرهما، هم، مع سائر أهل السنة، متفقون على أن الله يُعَذِّبُ من يعذبه من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم بالشفاعة، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك، وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة، وتاركها مستحق للذم، والعقاب، فكان النزاع في الأعمال هل هي من الإيمان، وفي الاستثناء، ونحو ذلك، عامته نزاع لفظي،؛ فإن الإيمان إذا أُطْلِقَ دخلت فيه الأعمال؛ لقول النبي ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ـ، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ـ أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»، وإذا عطف عليه العمل؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، [البقرة: ٢٧٧]، فقد ذُكِرَ مُقَيَّدًا بالعطف؛ فهنا قد يقال: الأعمال دخلت فيه، وعُطِفَتْ عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ»[1]، وقال شيخ الإسلام ـ أيضًا ـ: «والمرجئة الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان، والأعمال ليست منه، كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة، وعُبَّادها، ولم يَكُنْ قولهم مثل قول الجهم؛ فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمنًا إن لم يتكلم بالإيمان، مع قدرته عليه، وعرفوا أن إبليس، وفرعون، وغيرهما كُفَّار، مع تصديق قلوبهم، لكنهم إذا لم يُدْخلوا أعمال القلب في الإيمان، لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان، لزمهم دخول أعمال الجوارح ـ أيضًا ـ؛ فإنها لازمة لها، ولكن هؤلاء لهم حُجَجٌ شرعية، بسببها اشتبه الأمر عليهم؛ فإنهم رأوا أن الله فَرَّقَ في كتابه بين الإيمان، والعمل؛ فقال في غير موضع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، [البقرة: ٢٧٧]، ورأوا أن الله خاطب الإنسان بالإيمان قبل وجود الأعمال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ

(١) مجموع الفتاوى، ج١٣، ص ٣٨.

فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾، [المائدة: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾، [الجمعة: ٩]، وقالوا: لو أن رجلًا آمن بالله ورسوله ضحوة، ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال، مات مؤمنًا، وكان من أهل الجنة، فدل على أن الأعمال ليست من الإيمان، وقالوا: نحن نسلم أن الإيمان يزيد، بمعنى أنه كان كلما أنزل الله آية، وجب التصديق بها، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله، لكن بعد كمال ما أنزل الله، ما بقي الإيمان يتفاضل عندهم، بل إيمان الناس كلهم سواء؛ إيمان السابقين الأولين؛ كأبي بكر، وعمر، وإيمان أفجر الناس؛ كالحجاج، وأبي مسلم الخراساني، وغيرهما، والمرجئة المتكلمون منهم، والفقهاء، يقولون: الأعمال قد تُسَمَّى إيمانًا مجازًا؛ لأن العمل ثمرة الإيمان، ومقتضاه، ولأنها دليل عليه، ويقولون: قوله: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ أَوْ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ـ، أَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ» ـ مجاز، والمرجئة ثلاثة أصناف: الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يُدْخِلُ فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، ومنهم من لا يدخلها في الإيمان؛ كجهم، ومن اتبعه؛ كالصالحي، والقول الثاني من يقول: هو مجرد القول باللسان، وهذا لا يُعْرَفُ لأحد قبل الكرامية، والثالث: تصديق القلب، وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه، والعبادة منهم»(١).

ويفرق أبو العز الحنفي بين رأي أبي حنيفة، ورأي الأئمة، في مسألة الإيمان؛ فيقول: «إذا كان النزاع في هذه المسألة، بين أهل السنة، نزاعًا لفظيًا، فلا محذور فيه، سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى؛ من الافتراق بسبب ذلك، وأن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم عند قوم من أهل الإرجاء، ونحوهم، إلى ظهور الفسق، والمعاصي؛ بأن يقول: أنا مؤمن مسلم ـ حقًا ـ كامل الإيمان والإسلام، وليٌّ من أولياء الله؛ فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي، وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، وهذا باطل ـ قطعًا ـ؛ فالإمام أبو حنيفة ـ

(١) ابن تيمية، الإيمان، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ بتصرف.

رحمه الله - نظر إلى حقيقة الإيمان لغة، مع أدلة من كلام الشارع، وبقية الأئمة - رحمهم الله - نظروا إلى حقيقته في عرف الشارع؛ فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافًا، وشرائط؛ كما في الصلاة، والصوم، والحج، ونحو ذلك»[(١)].

وقد نُسِبَتْ إلى الإمام أبي حنيفة أقوال في الإيمان، والإرجاء، استقصاها أبو الخطيب البغدادي؛ مما حدا بعلماء عصره إلى التشنيع عليه، والرد عليه.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية يبرئه من تلك الأقوال، ويقول: «أبو حنيفة، وأصحابه، لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه، ويَذُمُّونَ المرجئة، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض، ولا اجتناب المحارم، بل يكتفون بالإيمان، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأن لا يصلح تعليقه على الشرائط؛ لأن المعلق على الشرط لا يوجد، ولا عند وجوده»[(٢)].

ويقول شيخ الإسلام عن إرجاء علماء أهل السنة: «وفي الجملة الذين رُمُوا بالإرجاء من الأكابر؛ مثل: طلق بن حبيب، وإبراهيم التيمي، ونحوهما، كان إرجاؤهم من هذا النوع، وكانوا لا يستثنون في الإيمان، وكانوا يقولون: الإيمان هو الإيمان الموجود فينا، ونقطع بأنا صادقون، ويرون الاستثناء شكًّا، وكان عبدالله بن مسعود وأصحابه يستثنون، وقد رُوِيَ في حديث أنه رجع عن ذلك لَمَّا قال له بعض أصحاب معاذ ما قال»[(٣)].

ويوضح الإمام الذهبي شيئًا من مذهب علماء أهل السنة في الإرجاء؛ فيقول: «وقد كان على الإرجاء عدد كبير من علماء الأمة، فهلا عُدَّ مذهبًا، وهو قولهم: أنا مؤمن - حقًّا - عند الله الساعة، مع اعترافهم بأنهم لا يدرون بما يموت عليه المسلم؛ من كفر، أو إيمان، وهذه قولة خفيفة، وإنما الصعب من قول غلاة المرجئة إن الإيمان هو الاعتقاد

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٣١٩.

(٢) مجموع الفتاوى، ج١٣، ص ٤١.

(٣) الفتاوى، ج١٣، ص ٤٠.

بالأفئدة، وإن تارك الصلاة، والزكاة، وشارب الخمر، وقاتل النفس، والزاني، وجميع هؤلاء يكونون مؤمنين كاملي الإيمان، ولا يدخلون النار، ولا يُعَذَّبُونَ أبدًا، فردوا أحاديث الشفاعة المتواترة، وجَسَّروا كل فاسق، وقاطع طريق على الموبقات، نعوذ بالله من الخذلان»[1].

ويحدد الإمام سفيان الثوري مقالة المرجئة، وخلافهم مع أهل السنة؛ فيقول: «خلاف ما بيننا، وبين المرجئة ثلاث: يقولون: الإيمان قول، ولا عمل، ونقول: قول، وعمل، ونقول: إنه يزيد، وينقص، وهم يقولون: لا يزيد، ولا ينقص، ونحن نقول: النفاق، وهم يقولون: لا نفاق»[2].

ويُعَرِّفُ الإمام الذهبي إرجاء الفقهاء؛ فيقول: «وهو أنهم لا يعدون الصلاة، والزكاة، من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان، ويقين في القلب، والنزاع على هذا لفظي، إن شاء الله، وإنما غلو الإرجاء من قال: لا يضر مع التوحيد ترك الفرائض، نسأل الله العافية!»[3].

٥ـ مَوَاقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ الْإِرْجَاءِ، وَالْمُرْجِئَةِ:

يمتاز علماء السلف بأنهم هم الفئة العالمة التي لا تعبث بأصول عقيدتها الأحداث، والفتن التي مزقت الأمة إلى تيارات متعددة، وقد كانت هذه الفِرَقُ المخالفة لمنهج السلف هي إحدى نتائج هذه الفتن، وقد أوغلت الضلالة بأرباب هذه الفرق إلى ابتداع أمور مخالفة لما كان عليه الرسول ﷺ، وصحابته الكرام، ومن هذا المنطق، فقد وقف علماء السلف في وجه هؤلاء المبتدعة، وأبطلوا شبهاتهم، وبينوا المعتقد الحق الذي تَدِينُ به الأمة المسلمة».

وكلما ظهرت فتنة من الفتن أفرزت في خاتمتها إفرازات بدعية مختلفة، يقول بها

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٩، ص ٤٣٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص ١٦٢.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٢٣٣.

من ضعفت عقيدته عن مواجهة الباطل، والثبات على الدين الحق، وهذا ما حدث للخوارج عندما خرجوا على علي رضي الله عنه، ورد عليهم الشيعة، وانتحلوا الأكاذيب التي يرفعون بها الرجال إلى مصاف الألوهية، ويتبرءون من صحابة رسول الله ﷺ، ثم ظهرت القدرية، والتي عجزت عقولهم عن اعتقاد الرسول، والصحابة الكرام في القدر، فراموا فهمًا، واعتقادًا، أودى بهم إلى إنكار القدر، ثم جاءت المرجئة بعقولهم العاجزة - أيضًا - عن فهم أسس العقيدة، وثوابتها أمام الفتن، والأحداث الجسام، فجنحوا إلى فصل الإيمان عن العمل، واتسعت دائرة هذا الابتداع، ليجد فيه أتباع الفرق المنحرفة مخرجًا لانسلاخهم، وبعدهم عن الدين الحق.

وبسبب هذا الواقع الأليم، أنكر علماء السلف على المرجئة مقالتهم الضالة، واعتبروها من البدع الخطرة، التي تعطي الجهلة، والفسقة، الذريعة لارتكاب المعاصي، والمنكرات، وقد اتبع السلف في الرد على المرجئة مسالك متعددة؛ من أبرزها ما يلي:

الِاحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَوَاقِعِ الصَّحَابَةِ الَّذِي يُبْطِلُ دَعَوَاتِهِمْ:

فأهل البدع كلهم إنما سُمُّوا مبتدعة لمخالفتهم ما جاء في الكتاب والسنة من العقائد الصحيحة، وهؤلاء المرجئة إنما حرَّفوا نصوص الكتاب والسنة في الإيمان، والعمل، وتأولوها على غير وجهها الصحيح؛ تبعًا لانحرافهم، وبدعتهم؛ فهذا هو القرآن الكريم يقرن الإيمان بالعمل، في مواطن يَطُول حصرها، ومنها قول الله - تعالى -: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، [البقرة: ٢٥]، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، [البقرة: ٢٧٧]، وقال - تعالى -: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، [المائدة: ٩٣]، وسمَّى - سبحانه - الأعمال إيمانًا؛ فقال - سبحانه -: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، [البقرة: ١٤٣].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، [الحجرات: ١٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ ﴾، [الطور: ٢١].

ثم ينص القرآن الكريم على زيادة الإيمان ـ أيضًا ـ؛ مما يبطل دعوى المرجئة أن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص؛ فقال ـ سبحانه وتعالى ـ ردًّا على المنافقين سلف المبتدعة: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، ويصف ـ سبحانه ـ صحابة نبيه ـ عليه السلام ـ، وزيادة إيمانهم في المحنة الكبرى يوم أحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، [آل عمران: ١٧٣].

ويصف ـ سبحانه ـ الفتية المؤمنين في سورة الكهف؛ فيقول: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾، [الكهف: ١٣]، وقال ـ تعالى ـ:

﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا﴾، [المدثر: ٣١]،

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾، [الفتح: ٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ ﴾، [الأنفال: ٢].

أما السنة المطهرة، فقد حفلت بهذه الجوانب كثيرًا؛ ولذلك صنَّف علماء السلف المصنفات الكثيرة في الإيمان؛ للرد على المرجئة؛ فمنها: «كتاب الإيمان»، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤)، و«الإيمان» للحافظ أبي بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥)، وقد حققهما فضيلة الشيخ الألباني: والإمام أحمد بن حنبل، والإمام الطحاوي، والإمام محمد بن إسحاق بن مندة، كما حفلت الصِّحاح بأبواب الإيمان المليئة بالأحاديث الصحيحة؛ مثل صحيح البخاري، ومسلم، وكتب السنن المختلفة، كما

ألَّف شيخ الإسلام كتابه «الإيمان»، وتعرض لمسائل الإيمان في مجموع فتاويه في مواطن متعددة[١]، وقد عرضنا لجملة من هذه الأحاديث في مبحث الإيمان، والعمل، ومنها ما رواه البخاري، ومسلم، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ، قال: «مَنِ الْقَوْمُ؟»، أو: «مَنِ الْوَفْدُ؟»، قالوا: ربيعة، قال: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَدَامَى»[٢]، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كُفَّار مضر، فَمُرْنَا بأمرٍ فَصْلٍ نخبر به من وراءنا، ونَدْخُلُ به الجنة، وسألوه عن الأشربة؛ فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟»، قالوا: الله، ورسوله أعلم، قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ»، ونهاهم عن أربع: عن الحنتم، والدبَّاء، والنقير، والمزفت، وربما قال: المقيَّر، وقال: «احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»[٣].

فهذا التوجيه النبوي لهذا الوفد الكبير فيه اقتران الإيمان بالعمل، وأنه لا بد من هذه الفرائض، واجتناب هذه النواهي؛ حتى يكتمل إيمانهم، وهذا الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص إذا عمل المسلم المعاصي، والمنهيات، فقد روى البخاري عن أنس، عن النبي ﷺ، قال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»، وفي رواية أخرى أنه قال بدل كلمة «خير» كلمة «إيمان»[٤].

---

(١) انظر ابن منده، كتاب الإيمان، ص ٧، مقدمة المحقق الدكتور علي الفقي، ط٢، ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) قال لهم ذلك: لأنهم أسلموا طوعا من غير حرب أو شيء يخزيهم ويفضحهم، فتح الباري، ج١، ص ١٣١.

(٣) البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، رقم ٣٥، الفتح، ج١، ص ١٢٩، ومسلم، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عن الإيمان، رقم ١٨، المختصر، ج١، ص ٢٢.

(٤) البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ح رقم ٤٤، الفتح، ج١، ص ١٠٣.

وروى ابن أبي شيبة عن هانئ بن هانئ، قال: كُنَّا جلوسًا عند علي ـ عليه السلام ـ، فدخل عمّار، فقال: مرحبًا بالطيب المُطَيِّبِ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ عَمَّارًا مَلِيءٌ إِيمَانًا إِلَى مَشَاشِهِ»[(١)].

وقد أخذ التابعون عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الفَهْمَ الصحيح لزيادة الإيمان، ونقصه؛ فعن إبراهيم بن علقمة، وكان من أصحاب عبدالله بن مسعود، أنه كان يقول لأصحابه: «امشوا بنا نَزْدَدْ إيمانًا»[(٢)]، وعن الأسود بن هلال، قال: «كان معاذ بن جبل يقول للرجال من إخوانه: اجلس بنا، فنؤمن ساعة، فيجلسان، فيذكران الله، ويحمدانه»[(٣)].

فكان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ على هذا المعتقد الحق بالإيمان، وأن العمل ملازم له، ولا يَنْفَكُّ عنه، بل هو علامة دالة على صدق صاحبه؛ ولذلك أَلَّف علماء السلف المصنفات الكبرى في شعب الإيمان، وأبوابه التي قالها النبي ﷺ إنها الإيمان، وإنها قول باللسان، ومعرفة بالقلب، وعمل الأركان[(٤)].

وكان علماء السلف من الصحابة، والتابعين، على هذا المعتقد، وذَكَرَ منهم: «عمر بن الخطاب، وعليًا، وعبدالله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبا الدرداء، وابن عباس، وابن عمر، وعمارًا، وأبا هريرة، وحذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن رواحة، وأبا أمامة، وجندب بن عبدالله البجلي، وعمير بن خماشة، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، ومن التابعين: كعب الأحبار، وعروة بن الزبير، وعطاء، وطاووسًا، ومجاهدًا، وابن أبي مُلَيْكَةَ، وميمون بن مهران، وعمران بن عبدالعزيز، وسعيد بن جبد، والحسن البصري، والزهري، وقتادة، ويحيى بن أبي كثير، وأيوب

---

(١) ابن أبي شيبة، الإيمان، ص ٣١، قال الشيخ الألباني، والحديث صحيح، والكتاب من تحقيقه مع أربع رسائل في الإيمان والعلم، ط٢، ١٤٠٥هـ، دار القلم، الكويت.

(٢) ابن أبي شيبة، الإيمان، ص ٣٤، قال الألباني إسناده حسن.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥، إسناده صحيح.

(٤) ابن منده، الإيمان، ج١، ص ٣٦٢.

السختياني، وأيوب بن عبيد، وابن عون، وسليمان التيمي، وإبراهيم النخعي، وأبا البختري، وسعيد بن فيروز، وعبدالكريم بن مالك الجزري، وزبيد بن الحارث، والأعمش، والحكم، ومنصورًا، وحمزة الزيات، وهشام بن حسان، ومعقل بن عبدالله الجزري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وجمهرة كبيرة غيرهم»[(١)].

وَمِنْ مَسَالِكِ السَّلَفِ فِي رَدِّ بِدْعَةِ الْمُرْجِئَةِ: بَيَانُ فَسَادِ مَذْهَبِهِمْ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُمْ:

فقد قال الأوزاعي: «كان يحيى وقتادة يقولان: ليس من الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء»[(٢)]، وكان إبراهيم النخعي يقول عنهم: «لفتنتهم عندي أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة؛ لَفَّقُوا قولًا، فأنا أخافهم على الأمة، والشر من أمرهم كبير؛ فإياك، وإياهم»، وذُكِرَ عنده المرجئة، فقال: «والله، إنهم أبغض إلي من أهل الكتاب»، ولعل قول إبراهيم النخعي بأنه أخوف على الأمة منهم من فتنة الأزراقة، كان نابعا من أن الأزارقة قالوا بتكفير مرتكب الكبيرة، فكَفَّرُوا الناس في الذنوب، فكان الغلو رائدهم، وتساهلت المرجئة في القول بترك العمل، وإنه لا يضر مع الإيمان معصية مهما عَظُمَتْ، فأباحت للناس فعل الموبقات، فكان غلوهم من هذا الجانب، والأزارقة يُحَذِّرُونَ من الكبائر، ويحكمون على أصحابها بذلك التشدد، وهؤلاء يتركون الحبل على الغارب في دعواهم الباطلة، ويُطْمِعُون الفساق، ويدعون الناس بمقالتهم لفعل الكبائر، والموبقات.

وروى الطبري عن عمر بن مرة (ت ١١٦)، قال: «نظرت في أمر هؤلاء الخوارج، فإذا شر قوم، ونظرت في أمر هؤلاء الخشبية (الشيعة)، فإذا شر قوم، ونظرت في أمر هؤلاء المرجئة، فإذا هم أمثل، أو خير، فأنا مرجئ، قال الأعمش: قلت: يا أبا عبدالله: ولِمَ تُسَمَّى باسم غير الإسلام؟ قال: أنا كذلك»[(٣)].

---

(١) انظر اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ج٥، ص ٨٩٢ - ٨٩٣، وابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٧٠٢، وما بعدها، ت. د. رضا نعسان، رسالة مخطوطة بالجامعة.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٦، ص ٢٨٢.

(٣) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٨٤.

وروى الذهبي عن محمد بن حميد، عن مُعَيْزَةَ قال: «لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمر بن مرة في الإرجاء، فتهافت الناس فيه»[١].

ويعيب ابن أبي مليكة مقالة المرجئة الغلاة؛ فيقول: «وقد أتى علي برهة من الدهر، وما أراني أدرك رجلًا يقول: أنا مؤمن، فما رضي بذلك حتى قال على إيمان جبريل، وميكائيل، وما كان محمد ﷺ يقول بذلك، وما زال الشيطان يتلعب بهم حتى قالوا: مؤمن، وإن نكح أمه، وأخته، وابنته؛ والله، لقد أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ رجالًا، ما مات أحد إلا وهو يخشى النفاق»[٢].

وقال ابن مجاهد: كنت عند عطاء بن أبي رباح، فجاء ابنه يعقوب، فقال: «يا أبتاه، إن أصحابًا لنا يزعمون أن إيمانهم كإيمان جبريل، فقال: يا بني، ليس إيمان من أطاع الله كإيمان من عصى الله»[٣].

وعن سويد بن سعيد الهروي، قال: «سألنا سفيان بن عيينة عن الإرجاء، فقال: يقولون: الإيمان قول، ونحن نقول: الإيمان قول، وعمل، والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله (مصرًّا بقلبه على ترك الفرائض)، وسموا ترك الفرائض ذنبًا بمنزلة ركوب المحارم، وليس بسواء؛ لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصية، وترك الفرائض متعمدًا من غير جهل، ولا عذر، هو كفر؛ وبيان ذلك في أمر آدم ـ صلوات الله عليه ـ، وإبليس، وعلماء اليهود؛ أما آدم، فنهاه الله ـ عز وجل ـ عن أكل الشجرة، وحرَّمها عليه، فأكل منها متعمدًا؛ ليكون ملكًا، أو يكون من الخالدين؛ فَسُمِّيَ عاصيًا من غير كُفْر، وأما إبليس ـ لعنه الله ـ، فإنه فَرَضَ عليه سجدة واحدة، فجحدها متعمدًا؛ فَسُمِّيَ كافرًا، وأما علماء اليهود، فعرفوا نعت النبي ﷺ، وأنه نبي رسول، كما يعرفون أبناءهم، وأقروا به باللسان، ولم يتبعوا شريعته؛ فسمَّاهُمُ الله ـ عز وجل ـ كُفَّارًا، فركوب المحارم مثل ذنب آدم ـ عليه السلام ـ، وغيره من الأنبياء، وأما ترك

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ١٩٨.

(٢) الطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٩٢، وانظر اللالكائي، ج٥، ص ٩٥٥.

(٣) عبدالله بن أحمد، السنة، ج١، ص ٣٤٥، واللالكائي، ج٥، ص ٩٥٦.

الفرائض جحودًا، فهو كفر؛ مثل كفر إبليس ـ لعنه الله ـ، وتركهم على معرفة من غير جُحُودٍ جُحُودٌ، فهو كفر مثل كفر علماء اليهود»(١).

وَمِنْ مَسَالِكِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مَعَ مُبْتَدِعَةِ الْمُرْجِئَةِ الْحِوَارُ مَعَهُمْ، وَبَيَانُ تَهَافُتِ فِكْرَتِهِمْ، وَبُطْلَانِهَا؛ فقد روى الطبري عن سلام بن أبي مطيع قال: «سمعت أيوب، وعنده رجل من المرجئة، فجعل الرجل يقول: إنما هو الكفر، والإيمان، قال: فأقبل عليه أيوب، فقال: أرأيت قول الله: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾، [التوبة: ١٠٦]، أمؤمنون أم كُفَّار؟ قال: فسكت الرجل، قال: فقال له أيوب: اذهب، فاقرأ القرآن؛ فكل آية في القرآن فيها ذكر النفاق فإني أخافها على نفسي»(٢).

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: يا سفيه، ما أجهلك! ألا ترضى أن تقول: أنا مؤمن، حتى تقول: أنا مستكمل الإيمان؟ لا، والله، لا يستكمل العبد الإيمان حتى يؤدي ما فرض الله عليه، ويجتنب ما حرم الله عليه، ويرضى بما قسم الله ـ عز وجل ـ له، ثم يخاف مع ذلك أن لا يُقْبَلَ منه»(٣).

وجاء رجل إلى ميمون بن مهران يخاصمه في الإرجاء، فبينما هما على ذلك إذ سمعا امرأة تغني، فقال ميمون: أين إيمان هذه من إيمان مريم بنت عمران؟ فانصرف الرجل، ولم يَرُدَّ عليه(٤).

وَمِنْ مَسَالِكِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ الْغُلَاةِ تَكْفِيرُهُمْ بِمَا نُسِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ الَّتِي تُبِيحُ الْمُحَرَّمَاتِ؛ فقد روى اللالكائي، وابن بطة، والطبري، عن معقل بن عبيدالله العبسي (ت ١١٦)، قال: قَدِمَ علينا سالم الأفطس بالإرجاء،

---

(١) عبدالله بن أحمد، السنة، ج١، ص ٣٤٧.

(٢) تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٩٢.

(٣) عبدالله بن أحمد، السنة، ج١، ص ٣٤٣.

(٤) ابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٧٨٣، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٧٣.

فنفر منه أصحابنا نفارًا شديدًا؛ منهم ميمون بن مهران (ت ١١٩)، وعبد الكريم بن مالك، فأما عبد الكريم بن مالك، فإنه عاهد الله أن لا يَأْوِيهِ وإياه سقف بيت إلا المسجد، قال معقل: فحججت، فدخلت على عطاء بن أبي رباح (ت: ١٢٤) في نفر من أصحابي، وإذا هو يقرأ سورة يوسف، وقال: قلت له: إن لنا حاجة، فأدخلنا، ففعل، فأخبرته أن قومًا قبلنا قد أحدثوا، وتكلموا، وقالوا: إن الصلاة، والزكاة ليستا من الدين، فقال: أوليس الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾، [البينة: ٥]، قال: وقلت إنهم يقولون: ليس في الإيمان زيادة، قال: أوليس قد قال الله فيما أنزل: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾، [آية ٤ سورة الفتح]،

هذا الإيمان الذي زادهم، قال: فقلت: إنهم انتحلوك[1]، وبلغني أن ابن درهم دخل عليك في أصحابه، فعرضوا عليك قولهم، فقبلته، فقلتَ هذا الأمر، فقال: لا، والله الذي لا إله إلا هو (مرتين، أو ثلاثًا)، قال: ثم قال: قدمت المدينة، فجلس إليَّ نافع مولى ابن عمر (ت ١١٩)، فقلت: يا أبا عبدالله، إن لي إليك حاجة، قال: سرٌّ، أم علانية؟ فقلت: لا، بل سرٌّ، قال: دعني من السر، سر لا خير فيه، فقلت: ليس من ذاك، فَلَمَّا صلى العصر، فذكرت له قولهم، فقال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَضْرِبَهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»، قال: قلت: إنهم يقولون: نحن نقر بالصلاة فريضةً، ولا نصلي، وأن الخمر حرام، ونحن نشربها، وأن نكاح الأمهات حرام، ونحن نريده، فَنَتَرَ يَدَهُ من يدي، وقال: من فعل هذا فهو كافر»[2].

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد، ووكيع، تكفير غلاة المرجئة؛ فقال: «وأما جهم، فكان يقول: إن الإيمان مجرد تصديق القلب، وإن لم يتكلم به، وهذا

(١) وهذه عادة المبتدعة ينتحلون الأكابر من العلماء لتسويق بدعهم.

(٢) عبدالله بن أحمد، السنة، ج١، ص ٣٨٢، واللالكائي، شرح الاعتقاد، ج٥، ص ٩٥٣، والطبري، تهذيب الآثار، ج٢، ص ١٧٣، وابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٦٩٦.

القول لا يُعْرَفُ عن أحد من علماء الأمة، وأئمتها؛ بل أحمد، ووكيع، وغيرهما، كَفَّرُوا من قال بهذا القول»[١].

وروى الخلال عن عبيدالله بن حنبل قال الحميدي (عبدالله بن الزبير بن عيسى): وأُخْبِرْتُ أن قومًا يقولون: إن من أقر بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ولم يفعل من ذلك شيئًا، حتى يموت، أو يصلي مسند ظهره، مستدبر القبلة، حتى يموت، فهو مؤمن، ما لم يكن جاحدًا، إذا علم أن تركه ذلك في إيمانه، إذا كان يُقِرُّ الفروض، واستقبال القبلة، فقلت: هذا الكفر بالله الصراح، وخلاف كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وفعل المسلمين قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾، [البينة: ٥]، قال حنبل: «قال أبو عبدالله، وسمعته يقول: من قال هذا فقد كفر بالله، ورد على الله أمره، وعلى الرسول ما جاء به»[٢].

وَمِنْ مَسَالِكِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي رَدِّ بِدْعَةِ الْقَدَرِيَّةِ نِسْبَةُ مَقَالَتِهِمْ إِلَى مَصَادِرَ غَيْرِ إِسْلَامِيَّةٍ؛ كَالْيَهُودِيَّةِ، وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَالصَّابِئَةِ؛ فقد روى عبدالله بن أحمد أن سعيد بن جبير كان يقول عن المرجئة: «إنهم يهود القبلة»[٣].

وكان يقول ـ أيضًا ـ: «مثل المرجئة مثل الصابئين»[٤]، ويفسر ذلك فيقول: «مثلهم مثل الصائبين، إنهم أتوا اليهود، فقالوا: ما دينكم؟ قالوا: اليهودية، قالوا: فما كتابكم؟ قالوا: التوراة، قالوا: فمن نبيكم؟ قالوا: موسى، قالوا: فماذا لمن تبعكم؟ قالوا: الجنة، ثم أتوا النصارى، فقالوا: ما دينكم؟ قالوا: النصرانية، قالوا: فما كتابكم؟ قالوا: الإنجيل، قالوا: فمن نبيكم؟ قالوا: عيسى، ثم قالوا: فماذا لمن تبعكم؟ قالوا: الجنة، قالوا: فنحن به ندين»[٥].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٣، ص ٤٧.

(٢) الخلال، السنة، ص ٥٨٦، ت. د. عطية الزهراني، ط١، ١٤١٠هـ، دار الراية، الرياض.

(٣) السنة، ج١، ص ٣٤١، وص ٣٢٣.

(٤) السنة، ج١، ص ١٣٣٨.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٤، وعبارة ابن بطة قوله: (فنحن بين بين) ج١، ص ٧٧١.

● **وَكَانَ السَّلَفُ لَا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُجَالِسُونَهُمْ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ ذَلِكَ:**

فقد روى ابن بطة، أن ذر بن عبدالله (أحد المرجئة) شَكَا سعيد بن جبير إلى أبي البحتري الطائي، فقال: «مررت، فسلمت عليه، فلم يَرُدَّ علي، فقال أبو البحتري لسعيد بن جبير، فقال سعيد: إن هذا يجدد في كل يوم دينًا، لا، ولا كلمته أبدًا»[1].

وقال أيوب السختياني: قال لي سعيد بن جبير: «لا تجالس طلقًا (أي طلق بن حبيب، وكان مرجئيًا، وقال مرة أخرى: رآني سعيد بن جبير جلست إلى طلق بن حبيب، فقال: ألم أرك جلست إليه؟ لا تجالسه، قال: وكان ينتحل الإرجاء»[2]، وكان سفيان الثوري يقول: «ما كنا نأتي حماد بن أبي سليمان (ت ١٢٠هـ) إلا سرًّا من أصحابنا، كانوا يقولون: أتأتيه؟ أتجالسه؟ فما كنا نأتيه إلا سرًّا»[3]، وقال في رواية أخرى: «كنت ألقى حمادًا بعد ما أحدث (الإرجاء)، فما كنت أسلم عليه»[4]. وكان الأعمش لا يسمح بجلوسهم في حلقة الحديث التي كان يعقدها، وكان يأمر بإخراجهم من المسجد[5].

وَكَانَ السَّلَفُ لَا يَحْضُرُونَ جَنَائِزَهُمْ، وَلَا يُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ إِذَا مَاتُوا؛ «فعندما مات عمر بن ذر، وكان رأسًا في الإرجاء، لم يشهد جنازته سفيان الثوري، ولا الحسن بن صالح[6]، وعندما تُوُفِّي عبدالعزيز بن أبي رواد، فجيء بجنازته، فوضعت عند باب الصفا، واصطف الناس، وجاء سفيان الثوري، فقال الناس: جاء الثوري جاء الثوري، فجاء حتى خرق الصفوف، والناس ينظرون إليه، فجاوز الجنازة، ولم يُصَلِّ عليها؛ وذلك لأنه كان يرى الإرجاء»[7]، وسُئِلَ عن ذلك، فقال: «والله، إني لأرى الصلاة

(١) ابن بطة، الإبانة الكبرى، ج٢، ص ٧٧٤.
(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ١٩٦، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ٦٠١.
(٣) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ٧٩١.
(٤) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ٧٩١.
(٥) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ٧٦٤.
(٦) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٣٤٣.
(٧) العقيلي، الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٦.

على من هو دونه عندي، ولكني أردت أن أري الناس أنه مات على بدعة»[١].

هذه جملة من مواقف علماء السلف من بدعة الإرجاء، وهي تعبر عن أصالة منهج السلف، واشتهاره، وهيمنته على الأمة في هذه المرحلة، واستلهام علماء السلف، واقع الدعوة الإسلامية الأولى، بشخص رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام، الذين اعتقدوا ما جاء به الكتاب، والسنة، ولم تُؤَثِّرْ فيهم الأحداث، والفتن، فكانوا هم أهل الحق الذي وعد به الرسول ﷺ، وأنهم لا يضرهم من خَالَفَهُمْ؛ حيث وقفوا لهذه البدع بالمرصاد، فكل البدع، صغيرة كانت أو كبيرة، فهي مرفوضة عندهم؛ لأن الاتباع لهذا الدين الحق بوضوحه، وظهوره، لا يعطي أي مبرر لأهل البدع أن يعلنوا بدعهم، أو يدعوا لها.

* * *

(١) العقيلي، الضفاء الكبير، ج٣، ص ٦.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ
فِرْقَةُ الْمُعْتَزِلَةِ

تَمْهِيدٌ: الصِّلَةُ بَيْنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ الْأَوَائِلِ:

لا بد لنا قبل الحديث عن المعتزِلة، ورجالها الأوائل، أن نكشف عن صلة المعتزِلة بالقدرية، التي سبق وأن تحدثنا عنها؛ فهناك فجوة تاريخية هامة لا بد لنا من الكشف عنها، وهذه الفجوة تبدأ من مقتل غيلان حتى بروز مقالة المعتزِلة، واشتهارها؛ فمن المعلوم أن هشامًا صَلَبَ غيلان سنة (١٠٧ هـ)، وكانت وفاة الحسن البصري - رحمه الله - تعالى - سنة (١١٠ هـ)، وكان واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، قد اشتهر عنهما الاعتزال، بعد تدخل واصل للإجابة على سؤال السائل، قبل أن يجيب الحسن البصري، والشيء المؤكد، قبل هذه الحادثة، أن واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، كانا يدينان بالقدر؛ تبعًا لشيوع حركة القدرية، وانتشارها؛ ومما يدلل على هذا ماروواه ابن عساكر عن عبدالله بن مسلم، عن أبيه، قال: «كنت في السوق في البصرة، فرأيت شيخًا لا أعرفه، يذكر القدر، ويُظهره، ويدعو إليه، فقلت له: يا شيخ، لا تظهر هذا؛ فإني كنت بالشام، فرأيت رجلًا أظهر هذا، فأخذه أمير المؤمنين هشام فقطع يديه، ورجليه، وقتله، وصلبه، قال: فسكت عنه، فقيل لي: هذا عمرو بن عبيد»[1].

إن هذا النص يحل إشكالًا كبيرًا في تحديد بداية أمر المعتزِلة، وكونهم امتدادًا للقدرية الأوائل، وهو يعطينا - أيضًا - أن الجناح القدري الممتد بالبصرة كان يدعو علانية إلى إنكار القدر، وكأن حادثة مقتل غيلان القدري بالشام، ومطاردة القدرية، ونفيهم، لم تَصِلْ أخبارها إلى البصرة، ومن هذا التاريخ دخلت القدرية في طور السرية، وهذا الطور كان يعمل بصمت، ولكن عن طريق ابتداع مَشَاكِلَ عقدية جديدة؛ وذلك سترًا لأمر القدرية الذين كان مصيرهم الصلب، والقتل، والتشريد، وسوف يظهر، فيما بعد، اسم المعتزِلة خَلَفًا لمسمى القدرية الذين انفضح سرهم، وقُتِلَ

---

(١) ابن عساكر، ج٢٠، ص ٢٤٨.

أبرز دعاتهم، ونُفِيَ الباقون إلى جزيرة دهلك، فهذا هو الإشكال الذي رأينا إزالته؛ فإن القدرية دخلت تحت مسمى جديد، وهو المعتزِلة، وفي هذا يقول الإسفراييني: «وذلك أن معبدًا الجهني، وغيلان الدمشقي، كانا يُضْمِرَانِ بدعة القدرية، ويخفيانها عن الناس، ولما أظهر ذلك في أيام الصحابة، لم يتابعهما على ذلك أحد، وصارا مهجورين بين الناس بذلك السبب، إلى أيام الحسن البصري، وكان واصل على غرار من القولين، يختلف إليه الناس، وكان في السر يُضْمِرُ اعتقاد معبد، وغيلان، وكان يقول بالقدر»[1].

فالمعتزِلة، إذًا، هي الامتداد الطبيعي لنفاة القدر، وسوف تستفيد المعتزِلة من أخطاء القدرية التي تطرفت في إنكار القدر؛ لتعلن قبولها بإثبات العلم الإلهي ظاهرًا، وإصرارها على أن العباد خالقون لأفعالهم، وبهذا لا أرى أي تغيير إلا تبدل الإعلانات الظاهرية، أما المعتقد الداخلي، فكل الشواهد تدل على استمرار بدعة القدرية في نفوس قادة المعتزِلة الجدد، وأتباعهم، وهذا ما يأتي عليه الدليل، بإذن الله.

١ـ نَشْأَةُ الْمُعْتَزِلَةِ، وَتَسْمِيَتُهُمْ:

إن نشأة المعتزِلة، لم تأت، كما يتوهم البعض، في اللحظة التي اعترض فيها واصل على الحسن البصري، وأجاب إجابته المشهورة في مرتكب الكبيرة، ولكن واصلًا، وعمرو بن عبيد، كانا يمتازان بأفكار غريبة، ومخالفة لمنهج السلف؛ من أبرزها القول بالقدر، الذي ورثوه عن القدرية الأولى، يضاف إلى ذلك ما ابتدعوه في المنزلة بن المنزلتين، التي ليس لها أي دليل شرعي يوافقها، بل ارتآها واصل تبعًا لهواه، وما أملاه عليه عقله، فهذه النشأة، إذًا، لم تكن غريبة على الحسن البصري (ت: ١١٠) ولا جمهور الناس، ولعل اشتهار الآراء المنحرفة عن عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، هو الذي دفع بالحسن البصري لطردهم من مجلسه، وإطلاق مسمى الاعتزال عليهم، وهذا ما سنحققه في الفقرات التالية.

---

(١) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٦٧.

فحادثة الطرد المشهورة نُسِبَتْ إلى واصل أحيانًا، وتُنْسَبُ إلى عمرو بن عبيد أحيانًا أخرى، ويُعَبَّرُ أحيانًا عن أن واصلًا رأس المعتزِلة، ويعبر أحيانًا أخرى أن رأس المعتزِلة هو عمرو بن عبيد.

إن من أقدم النصوص التي تنسب حادثة الاعتزال لعمرو بن عبيد هو قول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ الْمُتَوَفَّى (٢٤١هـ)، قال: «كان عمرو بن عبيد رأس المعتزِلة، وأولهم في الاعتزال»[١]، وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) عن عمرو بن عبيد: «كان يرى رأي القدر، ويدعو إليه هو وأصحاب له؛ فسموا المعتزِلة»[٢]، ويقول العقيلي (ت ٣٢٢): «كان لعمرو بن عبيد من الحسن منزلة، فلما بان له ما بان أتى إلى الحسن، فكلمه فيما بينه وبينه، فقال الحسن: لا، ثم عاوده ثانية، فقال الحسن: لا، ولا كرامة، قال: فلما ولى عمرو، قال الحسن: والله لا يفلح أبدًا»[٣].

وينسب الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ـ أيضًا ـ حادثة الاعتزال لعمرو؛ فيقول: «كان عمرو يسكن البصرة، وجالس الحسن البصري، وحفظ عنه، واشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب السنة، فقال بالقدر، ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن»[٤]، ويضيف ابن كثير على عبارة البغدادي عبارة: «واعتزل أصحاب الحديث»[٥]، بدل قوله: «أصحاب الحسن»، وقال ابن حبان (ت ٣٥٤): «كان من أهل الورع، والعبادة، إلى أن أحدث ما أحدث، واعتزل أصحاب الحسن هو وجماعة معه؛ فسموا المعتزِلة»[٦]، وينسب ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) الحادثة إلى عمرو بن عبيد؛ فيقول: «كان قتادة (ت ١١٨هـ) من أنسب الناس، وكان أدرك دغفلًا

(١) الرسائل والمسائل، ج٢، ص ٣٧٢.

(٢) المعارف، ص ٢٧٢.

(٣) الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٨٣.

(٤) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٦٦.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٨٣.

(٦) المجروحين، ج٢، ص ٦٩، وابن كثير، ج١٠، ص ٨١.

(النَّسَّابة)، وكان يدور البصرة أعلاها، وأسفلها، بغير قائد (لكونه أعمى)، فدخل مسجد البصرة، فإذا بعمرو بن عبيد، ونفر معه، قد اعتزلوا من حلقة الحسن البصري، وحلقوا، وارتفعت أصواتهم؛ فأمهم، وهو يظن أنها حلقة الحسن، فلما صار معهم، عَرَفَ أنها ليست هي، فقال: إنما هؤلاء المعتزِلة، ثم قام عنهم، فمنذ يومئذ سموا المعتزِلة»[١]، ويصفه الإمام الذهبي بكونه «رأس المعتزِلة»[٢].

أما مؤرخو الفرق، فإنهم ينسبون الحادثة أحيانًا إلى واصل، وعمرو؛ مثل قول الرازي (ت ٦٠٦هـ): «كان واصل (ت ١٣١) بن عطاء، وعمرو بن عبيد، من تلامذة الحسن البصري - رحمه الله -، ولما أحدثا مذهبًا، وهو أن الفاسق ليس بمؤمن، ولا كافر، اعتزلا حلقة الحسن البصري، وجلسا ناحية في المسجد، فقال الناس: إنهما اعتزلا حلقة الحسن البصري؛ فسموا معتزِلة»[٣].

وهناك من نسب الحادثة إلى واصل بن عطاء وحده، فقال بذلك الإسفراييني (ت ٤٧١هـ)، والبغدادي (ت ٤٢٩هـ)، والشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، بالرواية المشهورة عن ذلك السائل الذي سأل عن حكم مرتكب الكبيرة؛ حيث تولى واصل الإجابة، فقال: «أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، ولا كافر مطلقًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن، ولا كافر، ثم قام، واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعْتَزَلَ عنا واصل؛ فسمي هو وأصحابه معتزِلَة»[٤]، ويضيف البغدادي على رواية الشهرستاني، فيقول: «فلما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه، التي خالف فيها أقوال الفرق قبله، طرده من مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة، وانضم إليه قرينه في

(١) وفيات الأعيان، ج٤، ص ٨٥.
(٢) تاريخ الإسلام، ج٦، ص ٢٣٨.
(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٣٤.
(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٨.

الضلالة؛ عمرو بن عبيد بن باب (ت ١٤٤هـ) »[١].

وهناك من يقول باشتهار أفكار واصل، وعمرو، وشيوعها، وانعزالهما في مجلس خاص، وأن الذي سماهم بهذا الاسم هو الحسن البصري؛ حيث يقول الشيخ السكسكي (ت ٦٨٣هـ)، والشيخ اليافعي (ت ٧٦٨): «وقيل سُمُّوا معتزِلة لاعتزالهم عن مجلس الحسن البصري، فمر بهم الحسن فقال: هؤلاء معتزِلة»[٢]؛ «فلزمهم هذا اللقب»[٣].

من مجمل هذه النصوص السابقة يتضح لنا أن نسبة المقالة إلى شخص ما ليست هي المشكلة الأولى، وإنما الذي يتضح أن هناك اتجاهًا ابتداعيًّا جديدًا كان يظهر رويدًا رويدًا في الوسط الإسلامي، ولا يُعْرَفُ إن كان هناك من يغذيه من خارج هذا الوسط، وكانت مهمته الأولى متابعة القدرية، والدعوة لإنكار القدر، والإعداد لإثارة مشكلات عقدية في صفوف الأمة، مع طرح مسميات جديدة؛ كالمعتزِلة، بدل القدرية، والقول بالعدل بدل القدر، والمنزلة بين المنزلتين، والدعوة لتعطيل الصفات تحت مسمى التوحيد؛ ولذلك طردهم الحسن البصري من مجلسه، لما علم بخفايا نواياهم الرديئة، وعندما تُوُفِّي - رحمه الله - اتسعت شقة الخلاف بينهم، وبين أهل السنة، ويبدو أنهم مدوا أيديهم إلى الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم (ت ١٢٤هـ)، فتطورت مقالتهم؛ لتشمل مسائل الصفات، ولا أهمية لخلافهم في مسائل القدر الذي يقول به واصل، وعمرو، ومسألة الجبر التي قال بها الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ)؛ فلعلهم متفقون على طرح هذه الشبهات، طالما أنهم يهدفون إلى تخريب عقيدة المسلمين، وإثارة الشكوك والبلبلة بينهم.

إبطال مزاعم الشيعة والمستشرقين حول نسبة المعتزلة إلى الصحابة:

ومن الشبهات التي أثيرت في العصر الحديث محاولة جملة من المستشرقين الربط

(١) الفرق بين الفرق، ص ١١٨، والإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٦٨.

(٢) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، ص ٤٩.

(٣) ذكر مذاهب الفرق الثنتين والسبعين، ص ٤٩.

بين اعتزال جملة من الصحابة لأحداث الفتنة الأولى، ومسمى المعتزِلة الذي ظهر في أول القرن الثاني الهجري، واتخذوا من عبارات المؤرخين دليلًا على قِدَمِ مذهب الاعتزال، وأن اعتزال واصل هو امتداد لاعتزال الصحابة للفتنة، ومن هذه النصوص التي اعتمدوا عليها ما ذكره الطبري على لسان المغيرة بن شعبة، عندما سأل عمرو بن العاص، فقال له: «يا أبا عبدالله، أخبرني عما أسالك عنه: كيف ترانا، معشر المعتزِلة؟ فإنا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نتأنى، ونتثبت، حتى تجتمع الأمة، قال أراكم، معشر المعتزِلة، خَلَفَ الأبرار، وأَمَامَ الفُجَّار»[1].

ولفظة الاعتزال هنا تعني معناها اللغوي المعروف؛ من الكف، وعدم المشاركة في القتال، ولم تكن تشير إلى فئة معينة لها تميز فكري، أو عَقَدِي، ولم يصرح المؤرخون بهذا المعنى: لا الطبري، ولا ابن كثير، ولا غيرهم من مؤرخي أهل السنة، ولكن كُتَّاب المقالات من الشيعة زعموا أن أصل الاعتزال يرجع لاعتزال الصحابة للفتنة؛ فقال القمي (ت ٣٠٢هـ)، والنوبختي، وعد الذهبي النوبختي من نفس طبقة القمي، ولم يذكر سنة وفاته[2]، يقول النوبختي بعد أن يعدد مواقف الصحابة من خلافة علي رضي الله عنه: «وفرقةٌ اعتزلت مع سعد بن مالك، وهو سعد بن أبي وقاص (ت ٥٥هـ)، وعبدالله بن عمر (ت ٧٣هـ)، ومحمد بن مسلمة الأنصاري (ت ٤٣هـ)، وأسامة بن زيد (ت ٥٤هـ)، مولى رسول الله ﷺ؛ فإن هؤلاء اعتزلوا عن علي رضي الله عنه، وامتنعوا عن محاربته، والمحاربة معه، بعد دخولهم في بيعته، والرضاء به؛ فسموا المعتزِلة، وصاروا أسلاف المعتزِلة إلى الأبد، وقالوا: لا يحل قتال علي، ولا القتال معه، وذكر بعض أهل العلم أن الأحنف بن قيس التميمي (ت ٦٧هـ) اعتزل بعد ذلك في خاصة قومه من بني تميم، لا على التدين بالاعتزال، لكن على طلب السلامة من القتل، وذَهَابِ المال؛ قال لقومه: اعتزلوا الفتنة أصلح لكم»[3].

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج٣، ص ١٠٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص ٣٢٧.

(٣) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٥، والقمي، المقالات والفرق، ص ٤.

وقال الناشئ الأكبر (ت ٢٩٢هـ) أحد مؤرخي الشيعة: «وفرقة اعتزلوا الحرب؛ وهم صنفان: صنف اعتزلوا الحرب، ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفِهِمَا فَالْقَاتِلُ، وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»[١]، ومن هؤلاء القوم الذين اعتزلوا الحرب على هذه الجهة عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وخلق كثير من الصحابة، والتابعين؛ ممن رأى القعود عن الحرب فضلًا، ودينًا، والدخول فيها فتنة، وهؤلاء هم أصحاب الحديث، وهم الذين يأتمون في كل عصر بمن غلب، والصِّنف الثاني: فهم الذين اعتزلوا الحرب لأنهم لا يعلمون من في الطائفتين أولى بالحق؛ ومِنْ هؤلاء القوم أبو موسى الأشعري (ت ٤٤هـ)، وأبو سعيد الخدري (ت ٦٤هـ)، وأبو مسعود الأنصاري (ت ٤٠هـ)، والأحنف بن قيس التميمي (ت ٦٧هـ) في قبائل بني تميم، وقد جاءت الأخبار عنهم بذلك؛ فهذا الصنف الذين اعتزلوا الحرب على هذه الجهة، وكانوا يُسَمَّوْنَ في ذلك العصر المعتزِلة، وإلى قولهم في حرب علي (ت ٤٠هـ)، وطلحة (ت ٣٦هـ)، والزبير (ت ٣٦هـ)، يذهب واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وهما رئيسا المعتزِلة»[٢].

ويذهب الملطي إلى أن هذا الاسم برز بعد مبايعة الحسن بن علي لمعاوية؛ حيث قال: «وهم سَمَّوْا أنفسهم معتزِلة؛ وذلك عندما بايع الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ معاوية، وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن، ومعاوية، وجميع الناس؛ وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي، ولزموا منازلهم، ومساجدهم، وقالوا نشتغل بالعلم، والعبادة، فسُمُّوا بذلك معتزِلة»[٣].

وقد بنى المستشرقون على هذه المزاعم أن ربطوا المعتزلين عن الحروب، والفتن،

---

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ح رقم ٣١، الفتح، ج١، ص ٨٤، ومسلم، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما، ح رقم ٢٨٨٨، المختصر، ج٢، ص ٥١٨.

(٢) الناشئ الأكبر، مسائل الإمامة، تحقيق فان إس، ص ١٦ ـ ١٧ بتصرف.

(٣) الملطي، التنبيه والرد، ص ٣٦، ت. الكوثري.

باعتزال واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد؛ ليصلوا إلى هدفهم؛ وهو نسبة هذا الابتداع الضال إلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ؛ حيث حشد المستشرق نلينلو مثل هذه النصوص؛ ليخلص إلى القول: «فعندئذ الدليل الحاسم على استعمال لفظ معتزل بهذا المعنى السياسي، طوال هذا الزمان الذي عاش فيه مؤسسًا مذهب المعتزِلة، ونستطيع أن نلاحظ أخيرًا في كثير من الاحتمال أن الحديث الموضوع الذي طبقه المعتزِلة المتكلمون، من بعد، على أنفسهم، كان يشير في الأصل إلى المعتزِلة السياسيين، وأعني بهم هؤلاء الذين امتنعوا عن الاشتراك في المنازعات الداخلية في القرن الأول، وأوائل القرن الثاني»[(١)]، ثم يعقب الدكتور بدوي بعد النص السابق، فيقول: «من كل هذا الذي سبق يبدو لي أنه ما دامت هذه المسألة قد أخذت حظها من الأهمية؛ بسبب المنازعات السياسية، والحروب الأهلية في القرن الأول، فمن الطبيعي أن يكون اسم المعتزِلة قد أُخِذَ عن لغة السياسة في ذلك العصر؛ فكان المعتزِلة الجدد، المتكلمون في الأصل، استمرارًا في ميدان الفكر، والنظر، للمعتزِلة السياسية، أو العملية»[(٢)].

وللرد على هذه المزاعم المعروفة الهدف؛ وهو الربط بين معتزِلة الابتداع المتأخرين، واعتزال الصحابة للفتنة، وأحداثها، فهذا الربط باطل، ولا صحة له؛ فإن الصحابة المعتزلين لأحداث الفتنة لم يُؤْثَرْ عنهم أي خوض في مسائل عقدية مشابهة للتي ابتدعها المتأخرون، بل كان اعتزالهم لحقن دماء الأمة فقط، ولم يَتَعَدَّ ذلك إلى أي مقولة فكرية، أو عقدية، تشق صف الأمة، وتخالف ما جاء به الرسول ﷺ.

ثم إن المعتزِلة المتأخرين، لا يعتبرون معتزِلة الحرب سلفًا لهم، بل الذي حَمَّلَهم هذا هم مؤرخو الشيعة، والمستشرقون، ومن تابعهم، بل الثابت أن موقف واصل، وعمرو بن عبيد، من أحداث الفتنة ليس موقفًا وسطًا؛ كما فعل الصحابة المعتزلون، ولكنه موقف يطعن في المقتتلين؛ حيث قال واصل: «إن فرقة من الفريقين فسقة بأعيانهم، وإنه لا يعرف الفسقة منهما، وأجازوا أن يكون الفسقة من الفريقين عليًا، وأتباعه؛

---

(١) ، (٢) د. عبدالرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٠ بتصرف.

كالحسن، والحسين، وابن عباس، وعمار بن ياسر، وأبي أيوب الأنصاري، وسائر من كان مع علي يوم الجمل، وأجاز كون الفسقه من الفريقين عائشة، وطلحة، والزبير، وسائر أصحاب الجمل، ثم قال في تحقيق شكه: لو شهد علي وطلحة، أو علي والزبير، أو رجل من أصحاب علي، ورجل من أصحاب الجمل، عندي على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق، لا بعينه»(١).

وزاد عمرو بن عبيد على قرينة واصل؛ فقال بفسق كلتا الفرقتين المتقاتلتين يوم الجمل؛ وذلك أن واصلًا إنما رد شهادة رجلين من أصحاب الجمل، والآخر من أصحاب علي رضي الله عنه، وقَبِلَ شهادة رجلين كلاهما من أحد الفريقين، وزعم عمرو أن شهادتهما مردودة، وإن كانا من فريق واحد؛ لأنه قال بفسق الفريقين جميعًا»(٢).

فأين هو الاعتزال الذي قال به الشيعة، والمستشرقون؟ وهل الذي يقول مثل هذا في الصحابة يكون الصحابة المعتزلون للفتنة سلفًا له، وهم الذين كان عندهم عهد من رسول الله ﷺ أن لا يخوضوا في الفتنة؟ لكن واصلًا، وعمرًا، انطلقت ألسنتهم العليلة بتفسيق جمهور الصحابة، الذين رَضِيَ اللهُ عنهم، ورضُوا عنه.

أما ما قاله الملطي (ت ٣٧٧هـ) عن حدوث هذا الاسم بعد بيعة الحسن لمعاوية، فهذا الرأي يكاد قد ينفرد به وحده، ولم يَقُلْ به غيره، ولو صح، لاشتهر هذا الاسم اشتهارًا واسعًا، ثم إن الحقائق تنقضه؛ فإن الناس بعد بيعة الحسن لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ، قد دخل أغلبهم في بيعة معاوية، وسُمِّيَ ذلك العام عام الجماعة، فقد بايعه كبار الصحابة، وأعيان الأمصار في كل أرض الخلافة، إلا بقايا من الشيعة السبئية، والخوارج الذين اختاروا سراديب الظلام، وعلى فرض صحة ما قاله الملطي، فإن اعتزال هؤلاء للعلم، والعبادة، وليس لتأسيس نِحْلَةٍ ضالة تخالف منهاج السلف في الكتاب، والسنة.

وقد حاول الشيعة المعتزِلة من الزيدية الذين خلطوا بين الاعتزال، والتشيع، نفيَ ما

---

(١) ، (٢) عبدالقاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١١٩ ـ ١٢١ بتصرف.

قاله واصل وعمرو في الصحابة، بلا دليل يصح؛ حيث يقول نشوان الحميري: « (ومن الناس) من يقول سُمُّوا معتزِلة لاعتزالهم عليَّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ في حروبه، وليس كذلك؛ لأن جمهور المعتزِلة، وأكثرهم، إلا القليل الشاذ منهم، يقولون: إن عليًّا كان على الصواب، وإن من حاربه فهو ضال»[1].

ولو كان هذا صحيحًا لاهتبله مؤرخو الشيعة، وذكروه؛ ليعززوا مواقفهم التي هي من جنس ما يردده المعتزِلة؛ من إلقاء الكلام على عواهنه، بلا دليل إلا التهويش، وجلب الاتباع اعتباطًا، لا حقيقة.

ولكن الأكاذيب التي لا تُحْتَمَلُ هي التي أتى بها ابن المرتضى عندما عدد طبقات المعتزِلة، ووضع في الطبقة الأولى: الخلفاء الأربعة، وعبدالله بن العباس (ت ٦٨هـ)، وابن مسعود (ت ٣٢ هـ)، وغيرهم، ثم زعم أن عليًّا كان يصرح بالعدل؛ أي يقول بالقدر، وكذلك أبو بكر، وابن مسعود، وساق الأخبار الملفقة عن عمر، وعثمان، وابن عباس، وأُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنهم[2] وزعم أن هؤلاء أسلاف مذهب المعتزِلة، والقدرية؛ لترويج أفكارهم الرديئة، والتي كان يبرأ منها ابن عمر، وابن عباس، وكان التابعون يلعنون القدرية، وانحرافهم، ثم يأتي كاتب مغمور في القرن التاسع الهجري ليُكَذِّبَ هكذا، وكأنه اعتقد أن أهل السنة لم يَبْقَ فيهم من يُدَافِعُ عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ، ويكشف زيف الكاذبين عنهم.

وهكذا نشأت المعتزِلة هذا النشأة النكدة، محملة قلوبهم بالبدع، ومخالفين لأهل السنة، والجماعة، وقد عدوهم من أهل الأهواء، ثم تتجمع جهود المستشرقين، ومن تابعهم، لتربطهم بالصحابة الكرام ـ رضوان اللّٰه عليهم ـ، من غير دليل، ولا حجة، عن طريق جمع نصوص مبتورة، لا تمت معانيها إِلَى الواقع بصلة، وتُكَوِّنُ عليها فكرة جديدة، يريدون أن تصبح هي الحقيقة المطلقة، أما ممارسات المعتزِلة المشينة، وابتداعاتها الواضحة، فإنها تصبح بطولات، ومناداة بمذهب الإرادة الحرة المزعومة، عَلَى حساب

(١) الحميري، الحور العين، ص ٢٥٩.

(٢) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٢٧ ـ ١٣٠ بتصرف.

عقيدة الأمة، التي توجهت كل السهام للطعن بها، وبعلمائها الأبرار، ووصفهم بأشنع الأوصاف؛ لأنهم عارضوا القدرية، وأبانوا عن عورات المعتزِلة، وغيرهم من فرق الابتداع، وهذا ما سنراه، بإذن اللَّه، عند عرض مقالة المعتزِلة، ورد علماء السلف عليهم.

٢ـ دِرَاسَةٌ نَقْدِيَّةٌ لِشَخْصِيَّتَيْ واصل بْنِ عَطَاءٍ، وَعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ:

• وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ:

يعتبر واصل بن عطاء الشخصية الأولى التي نُسِبَ إليها مذهب الاعتزال، وهو، كغيره من أصحاب المقالات المبتدعة، يحيط بشخصيته قدر كبير من الغموض، ابتداءً من هذا الولاء المنسوب لبني ضبة، أو لبني مخزوم، والأهم من هذا ظروف النشأة، وتلقي العلم، والغموض فِي هذا الجانب يظهر من خلال صِلاَته الفكرية المتعددة ـ أيضًا ـ، فهو مرة يظهر من منتابي مجلس الحسن البصري، ومرة يظهر فِي مجالس الثنوية، والمجوس، ومرة يبدو مختلفًا إِلَى مجموعة من اليهود، الذين اندسوا بين المسلمين فِي البصرة، ويهمنا أمام هذه الإشكالات محاولة إيضاح الخلفية الفكرية لهذا الرجل، ودوره فِي فتح باب الابتداع فِي عقيدة الأمة الإسلامية.

• ونبدأ أولًا بالتعريف بشخصيته؛ فمن حيث الميلاد، يُجْمِعُ المؤرخون عَلَى أنه ولد فِي المدينة المنورة سنة (٨٠ هـ)، وكُنْيته أبو حذيفة الغَزَّال، مولى بني مخزوم، وقيل مولى بني ضبة[1]، فما طبيعة هذا الولاء: هل هو من جهة والديه، أم من جهته هو؟ وهل هذا الولاء يعني العبودية التي ينفيها الدكتور النشَّار عن واصل، مثلما حاول إلصاق ولاءه ببني هاشم، والذي لم يذكره إِلَّا ابن المرتضى[2]، مخالفًا بذلك جميع من سبقوه؛ حيث يقول الدكتور النشَّار: «وبالرغم من أنه كان مولى، فقد ولد حُرًّا، مع أن المصادر ساكته تمامًا عن أبويه، فلا تذكر منها شيئًا، غير أننا نلحظ أنه لم يُذْكَرْ

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٣٤، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص ٧، والذهبي، تاريخ الإسلام، ج٥، ص ٥٥١.

(٢) المنية والأمل، ص ١٤٠.

عنه أنه كان عبدًا، بل إن المصادر تذكر أنه كان غَزَّالًا»[١].

وقول الدكتور النَّشَّار: «وُلِدَ حُرًّا»، دعوى لا دليل عليها؛ فالولاء يعني العبودية، ولعله نال حريته مؤخرًا، ولا يُوجد أي مصدر يتحدث عن هذه العبودية، ومتى انفكت عنه، أما لقبه الغَزَّال، فالمتبادر إِلَى الذهن ـ أيضًا ـ أن يكون غَزَّالًا، ولكن هذه النسبة ـ أيضًا ـ نفاها عنه محبوه قديمًا، وحديثًا، إِلَّا أن الدكتور النَّشَّار يؤيد أن معظم قادة المعتزِلة ينتسبون إِلَى بعض الحرف؛ حيث يقول: «ويلاحظ أن المعتزِلة ينتسبون إِلَى بعض الصناعات؛ كالغَزَّال، والعَلَّاف، والنَّظَّام، والفوطي، والإسكافي»[٢]، وقد حاول المبرد (ت ٢٨٥هـ) أن يأتي لهذا اللقب بالتخريج الآتي؛ فقال: «ولم يكن غَزَّالًا، ولكنه كان يُلَقَّبُ بذلك لأنه كان يلزم الغَزَّالين؛ ليعرف المتعففات من النساء، فيجعل صدقته لهن»[٣]، وقد ردد ابن المرتضى نفس هذا التخريج الذي ذهب إليه المبرد.

ويؤكد الدكتور طريف الخالدي أن معظم مفكري المعتزِلة كانوا ذوي مهن؛ فلماذا تُنْفَى مهنة الغَزَّال عن واصل وحده، ويُؤْتَى لها بذلك التخريج؛ حيث يقول الدكتور الخالدي: «بدأت بدراسة طبقات المعتزِلة لابن المرتضى، وحصرت البحث فِي ستة وعشرين متكلمًا، أَخالهم أشهر أصحاب الاعتزال عَلَى الإطلاق من القرن التاسع، والعاشر للميلاد؛ أي قرون الاعتزال الذهبية، ووجدت أن ستة عشر منهم كانوا من أصحاب الحرف، أو من طبقة أصحاب الحرف، أو من طبقة التُّجَّار الصِّغَار، ولم أتوصل إِلَى معرفة ما تبقى منهم، وإليكم بعض الأمثلة: عمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ)، كان أبوه نَسَّاجًا، واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ)، ويلقب بالْغَزَّال، العَلَّاف (أبو الهذيل ت ٢٣٥هـ)، وكان يلقب بالعلاف؛ لأن داره بالبصرة كانت فِي العلَّافين، النَّظَّام (مات فِي خلافة المعتصم)، كان ينظم الخرز فِي سوق البصرة؛ لأَجل ذلك قِيلَ له

(١) د. النشار، نشأة الفكر، ج١، ص ٣٨٢.

(٢) نشأة الفكر، ج١، ص ٣٨٢.

(٣) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج٢، ص ١٤٣، الناشر مكتبة المعارف، وانظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٣٢.

النَّظَّام، بشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ)، كان نَخَّاسًا فِي سوق الرقيق، هشام بن عمرو الفوطي، هذه النسبة إِلَى الفوطة، وهي نوع من الثياب، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، كان وَرَّاقًا، أبو يعقوب يوسف الشَّحَّام، هذه النسبة إِلَى بيع الشحم، أبو عيسى الوَرَّاق، كان وَرَّاقًا، جعفر بن مبشر القصبي (ت ٢٣٤هـ)، كان يبيع القصب، أبو جعفر الإسكافي (ت ٢٤٠هـ)، كان الإسكافي خياطًا، أبو الحسين الْخَيَّاط، كان خَيَّاطًا، أبو مسلم النَّقَّاش، كان نَقَّاشًا»[١].

فإذا كانت غالبية متكلمي المعتزِلة يحترفون هذه المهن، فلماذا يُنْفَى عن واصل أنه كان غزالًا؟ مع أن الذي يُفْهَمُ من شعر بشار بن برد فِي واصل أنه كان غزالًا بالفعل؛حيث يقول:

مَا لِي مُنِيتُ بِغَزَّالٍ لَهُ عُنُقٌ ... كَنِقْنِقِ الدَّوِّ إِنْ وَلَّى وَإِنْ مَثُلَا
عُنْقَ الزَّرَافَةِ مَا بَالِي وَبَالُكُمُ ... تُكَفِّرُونَ رِجَالًا كَفَّرُوا رَجُلَا[٢]

فلو كانت التسمية لملازمته لسوق الغزَّالين، لما كان وَصْفُهُ بالغَزَّال مناسبًا، ولكن الشعراء الذين هجوه وصفوه بالغَزَّال، بينما الشعراء المحبون له كانوا ينعتونه بأبي حذيفة، أو يذكرونه باسمه، وقد هجاه الشاعر إسحاق بن سويد العدوي (ت ١٣١هـ)؛ فقال:

بَرِئْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ ... مِنَ الْغَزَّالِ مِنْهُمْ وَابْنِ بَابِ
وَمِنْ قَوْمٍ إِذَا ذَكَرُوا عَلِيًّا ... يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَى السَّحَابِ[٣]

وقال معدان الشميطي يهجو الخوارج، والمعتزِلة، وغيرهم:

لَا حَرُورَاءَ لَا النَّوَاصِبُ تَنْجُو ... لَا وَلَا صَحْبُ واصل الْغَزَّالِ[٤]

وكان مادحوه يذكرونه باسمه فقط، كأسباط بن واصل الشيباني؛ حيث قال:

---

(١) د. طريف الخالدي، دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، ص ٣١ - ٣٢.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٢٣.

(٣)، (٤) البيان والتبيين، ج١، ص ٢٣، وص ٢٧، وص ٢٤.

وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ سَمَّاكَ وَاصِلًا   وَأَنَّكَ مَحْمُودُ النَّقِيبَةِ، وَالشِّيَمْ[(١)]

وكان بشار قد مدحه قبل أن يختلف معه، ولم يذكر لقب الغزال؛ فقال:

أَبَا حُذَيْفَةَ قَدْ أُوتِيتَ مَعْجَبَةً   فِي خُطْبَةٍ بَدَهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ[(٢)]

ومن هنا، فإن لقب الغَزَّال قد يكون موافقًا لحرفته التي يعمل بها، ولا عيب في ذلك، ولكن الذي تُعَابُ به المعتزلة ـ حقًا ـ أن هذه الظاهرة تبين عدم انتظام علماء المعتزِلة في حلقات العلم، ولا يُعَدُّونَ من رواة الحديث، وعندما أطلقوا العنان لعقولهم؛ لتخوض في العقيدة كما تشاء، برزت الانحرافات العقدية، التي انشغل بها علماء الأمة؛ للرد، والتصحيح، فلعل مثل هؤلاء الحرفيين كانوا يخوضون في مسائل الدين عَلَى هواهم، وهذا ما حدث ـ فعلًا ـ، والله أعلم.

وأما صفاته الخَلْقِيَّةِ، فقد كان طويل العنق جدًّا؛ بحيث كان يُعَاب به[(٣)]، وقد عابه لطول عنقه صاحبه عمرو بن عبيد، وقال: «أنى هذا، وله عنق لا يأتي معها بخير»[(٤)]، ومن صفاته الخَلْقِيَّةِ ـ أيضًا ـ أنه كان ألثغَ فِي الراء، شديد اللثغة بها؛ حيث يقول المبرد: «وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب؛ وذلك أنه كان ألثغ، قبيح اللثغة فِي الراء، فكان يخلص كلامه من الراء»[(٥)].

ويقول الجاحظ عن هذه اللثغة: ولما علم واصل أنه ألثغ، فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إِذَا كان داعية مقالة، ورئيس نِحلة، وأنه يريد الاحتجاج عَلَى أرباب النِّحل، وزعماء الملل... رام أبو حُذَيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه»[(٦)].

---

(١)، (٢) البيان والتبيين، ج١، ص ٢٣، وص ٢٧، وص ٢٤.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص ١٠، ت. د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٤٠.

(٥) الكامل في اللغة، ج٢، ص ١٤٤.

(٦) البيان والتبيين، ج١، ص ١٥.

ومهما حاول أتباعه من المعتزِلة الاعتذار عن هذ العيب، فإن واصل بن عطاء رُوِيَ عنه جرأة عَلَى كتاب اللَّه ـ تعالى ـ؛ بسبب لثغته؛ حيث يذكر الإمام الذهبي: «أنه كان يُمْتَحَنُ بأشياء فِي الراء، ويتحيل لها حَتَّى قيل له: اقرأ أَوَّل سورة براءة، فقال عَلَى البديهة: «عهد من الله ونبيه إِلَى الذين عاهدتهم من الفاسقين فسيحوا فِي البسيطة هلالين وهلالين»، وكان يجيز القراءة بالمعنى، وهذه جرأة عَلَى كتاب اللَّه العزيز»[١].

وقال البغدادي: «وأما لثغه فِي الراء فمن مثالبه؛ لأنها تمنع من كونه مؤذنًا، وإمامًا للقارئين؛ لعجزه؛ لقوله: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأن يقول: اللَّه أكبر، وكان لا يصح منه قراءة آية فيها الراء، وكفى المعتزِلة خزيًا أن يكون زعيمها من لا يصح صلاتهم خلفه، وأما خطبته التي لا راء فيها، فعساه كان فِي تحبيرها أيامًا»[٢].

● **طلبه العلم:**

سبق لنا القول بأن واصل بن عطاء، ولد سنة (٨٠ هـ)، وكانت ولادته في المدينة المنورة، ولا نعثر على أي نص يفيدنا عن طبيعة نشأته الأولى، وتلقيه للعلم، أو مدة إقامته في المدينة، وزمن ذَهَابه إلى البصرة؛ حيث يظهر في مجلس الحسن البصري، والسؤال المتبادر إلى الذهن: هل عاش واصل في المدينة المنورة فترة من الوقت تؤهله للتلقي عن علمائها الذين كانوا من أشد الناس التزامًا بالسنة، وبعدًا عن البدعة، أم أنه غادر المدينة في فترة مبكرة من عمره، ولم تُتَحْ له فرصة التَّلَقِّي عن علمائها؟ وهل كانت مهنته (العمل في الغزل) تحول بينه، وبين تلقي العلم، إذا علمنا أنه لم يَرْوِ حديثًا واحدًا، ولا عَدَّهُ علماء الرجال، والطبقات، من رُوَاةِ الحديث، أم أنه كان في المدينة يُعَانِي من العبودية، والولاء، فلما ذهب إلى البصرة لازم مجالس الحسن البصري، فبدأ يطرح إشكالاته الفكرية، التي تَنُمُّ عن ضحالة في العلم الشرعي، والعقدي.

إن هذه الإشكالات لا نملك عليها إجابة في كتب العلماء الثقات، التي تُبْنَى عليها

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٥، ص ٥٥٩.

(٢) البغدادي، الملل والنحل، ص ٨٥.

الحقائق، ولكن كُتَّاب المعتزِلة القدماء، ومن ناصرهم من المعاصرين، تداركوا هذا الجانب، وبدءوا بالبحث عن تلمذة لواصل، فنسبوه إلى البيت الهاشمي، وهذا ما سوف نفصله.

فقد وضع ابنُ المرتضى محمدَ بن الحنفية (ت٨١هـ) في الطبقة الثانية من طبقات المعتزِلة، ثم قال: «وأما محمد بن الحنفية، فقد مر أن واصلًا أخذ علم الكلام عنه، وصار كالأصل لسنده»، إلى أن قال: «وسُئِلَ أبو هاشم عن محمد بن علي؛ عن مبلغ علمه، فقال: إن أردتم معرفة ذلك، فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء، وقال شبيب بن شبة: ما رأيت في غلمان بن الحنفية أكمل من عمرو بن عبيد، فقيل له: متى اختلف عمرو بن عبيد إلى ابن الحنفية، قال: إن عمرًا غلام واصل، وواصل غلام محمد»[(١)].

وقال ابن المرتضى (ت٨٤٠هـ) ـ أيضًا ـ: الطبقة الثالثة من طبقات المعتزِلة «منقسمة؛ فمن العترة الطاهرة الحسن بن الحسن (ت ٩٩هـ)، وابنه عبدالله بن الحسن، وأولاده: النفس الزكية، وغيره، ومن أولاد علي أبو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وهو الذي أخذ عنه واصل، وكان معه في المكتب، فأخذ عنه، وعن أبيه»[(٢)].

وقال نشوان الحميري المعتزلي الشيعي (ت ٥٧٣هـ): «وكان واصل بن عطاء من أهل المدينة، ربَّاه محمد بن الحنفية، وعَلَّمَهُ، وكان مع ابنه أبي هاشم في الكُتَّاب، ثم صحبه بعد موت أبيه صحبة طويلة، وحُكِي عن بعض العلماء أنه قيل له: كيف كان علم محمد بن علي؟ قال: إذا أردت أن تعلم ذلك، فانظر إلى أثره في واصل»[(٣)].

هذه مزاعم أهل الاعتزال والتشيع، ولكننا لم نجد ما يؤيدهم في هذا الزعم من مصادر أهل السنة المعتبرة، إلا ما ردده «طاش كبرى زاده» نقلًا عن مصادر المعتزِلة،

---

(١) المنية والأمل، ص ١٣١.

(٢) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٣٢.

(٣) الحميري، الحور العين، ص ٢٦٠، ت. كمال مصطفى، ط٢، ١٩٨٥م، دار أزال بيروت.

والشيعة، وهذا النقل لا يُعْتَدُّ به، إذا تبين لنا بطلان هذه المزاعم، على النحو التالي:

أولًا: سوف نجري مقارنة زمنية بين حياة واصل، ومحمد بن الحنفية؛ لنرى أن هؤلاء الكُتَّاب، وكأنهم يقولون كلامًا يستغفلون فيه أتباعهم، وكأن كتبهم لن تقع في أيدي غير الأتباع؛ فمن الثابت أن محمد بن الحنفية ـ رحمه الله ـ تُوُفِّيَ سنة (٨١هـ)[١]، وواصل بن عطاء، ولد سنة (٨٠هـ)؛ فكيف تلقى واصل العلم عن ابن الحنفية، وعمره لم يتجاوز سنة واحدة، وبهذا يسقط ادعاء المعتزِلة عن التلمذة، ولا نزيد على هذا شيئًا.

ثانيًا: يبقى الزعم الثاني بأن واصل بن عطاء قد صحب عبدالله بن محمد بن الحنفية في الكُتَّاب، وهذه من المزاعم الباطلة ـ أيضًا ـ، والتي يبررها المستشرق آدم متز؛ فيقول: «إن هذا السند من وضع الشيعة، حملهم على وضعه، ونسبته إلى علي بن أبي طالب، أن عددًا كبيرًا منهم دخل في مذهب الاعتزال في القرن الرابع الهجري؛ ولذلك فهو لا يَرِدُ مفصلًا إلا في كتاب أئمة الزيود، والشيعة في اليمن»[٢]، وهذه ـ فعلًا ـ إحدى الحقائق، وسوف نبطل هذا السند على النحو التالي؛ فقد ذكر الإمام الذهبي «أن عبدالله بن محمد بن الحنفية أبا هاشم قد مات (كهلًا) سنة ثمان وتسعين هجرية»[٣]، فكيف لرجل كهل يصحب طفلًا في الكُتَّاب، ولكن الواقع الذي يمكن تصوره أن واصلًا قد دخل الكُتَّاب سنة (٨٧هـ)، أو (٨٨هـ)؛ فهو بذلك طفل صغير بجانب هذا الكهل على ما قاله الذهبي، وعندما تُوُفِّيَ عبدالله كان عُمْر واصل ثمانية عشر عامًا، ونحن لا ننكر أن يكون واصلًا قد شاهد عبدالله، أو سمعه، مع أننا نميل إلى أن الظروف السياسية في ذلك الوقت ما كانت تسمح لعلماء آل البيت بإلقاء الدروس العلمية، وتَجَمُّع الناس حولهم، ثم ما وَجْهُ اهتمام عبدالله بن محمد بطفل صغير ليس من بني هاشم، ولا من مواليهم؟ فهذه إذًا محاولة التشيع، والاعتزال

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ١٢٨.

(٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص ١٢٤، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ١٣٠.

الالتصاق بآل البيت، وينكر البغدادي هذه الصلة بالبيت الهاشمي من قِبَل واصل؛ فيقول: وقد ادَّعت المعتزِلة لواصل كرامات، كذبوا في بعضها، وقلبوا في بعضها، فزعموا أنه صحب محمد بن الحنفية، وعبدالله بن علي بن أبي طالب، وأخذ عنهما مقالته، وهذه خرافات أمانيهم في الغرور، وقِيلَ لو كان على رأي محمد، وعبدالله، لما رد شهادة أبيهما»[1].

وزيادة في التمويه والتضليل، فقد اخترع المعتزِلة تلمذة زيد بن علي بن الحسين ـ رحمه الله ـ (ت١٢٠هـ) على واصل بن عطاء، وزعموا أنه كان يدين بمذهب الاعتزال؛ حيث يقول ابن المرتضى: «وروي أن واصلًا دخل المدينة، ونزل على إبراهيم بن يحيى، فتسارع إليه زيد بن علي، وابنه يحيى بن زيد، فقال جعفر بن محمد الصادق (ت ١٤٦هـ) لأصحابه: قوموا بنا إليه، فجاءه، والقوم عنده ـ أعني زيد بن علي، وأصحابه ـ، فقال جعفر: أمَّا بعد، فإن الله ـ تعالى ـ بَعَثَ محمدًا بالحق، والبينات، والنذر، والآيات، وأنزل عليه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فنحن عترة رسول الله، وأقرب الناس إليه، وإنك يا واصل أتيت بأمر يُفَرِّقُ الكلمة، وتطعن به على الأئمة، وأنا أدعوك إلى التوبة». إلى أن قال ابن المرتضى: «فتكلم زيد بن علي، فأغلظ لجعفر؛ أي أنكر عليه ما قال، وقال: ما منعك من (اتِّبَاعِهِ) إلا الحسد لنا، فتفرقوا، قلت (أي ابن المرتضى): روى ذلك الحاكم، وغيره، والله أعلم بصحتها»[2].

إن رواية هذه الحادثة على هذه الهيئة هو نوع من الوضع، والكذب الذي اعتادته فرق الابتداع؛ وذلك لأن زيد بن علي ـ رحمه الله ـ تعالى ـ يَكْبُرُ واصل بن عطاء بالعمر سنتين؛ حيث وُلِدَ (سنة ٧٨هـ)[3]، فلا يُعْقَلُ أن يكون تلميذًا لواصل، وهو الذي تربى في كنف بيت النبوة من علماء آل البيت، وعلماء السلف، إضافة إلى

(١) الملل والنحل، ص ٨٤.

(٢) المنية والأمل، ص ١٤٢.

(٣) ابن عساكر، المختصر، ج٩، ص ١٥١.

علمه، وقوته، واستقامته على منهج السلف، ورده على القدرية النفاة، الذين يدين واصل بمعتقدهم؛ فقد روى ابن عساكر «أنه جاء رجل إلى زيد، فقال: يا زيد، أنت الذي تزعم أن الله أراد أن يُعْصَى؟ فقال له زيد: أَفَعُصِيَ عنوة؟ فأقبل يخطر بين يديه (أي يركض) »[(١)].

ثم يوحي النص أن مذهب الاعتزال غنيمة كبرى، وأن جعفر الصادق قد حسد واصلًا على اعتناقه، وأن رئاسة هذا المذهب الضال، على رأي كاتب النص، يجب أن تكون لآل البيت، وهذا من الكذب؛ فهل يخفى على جعفر الصادق أن هذا المذهب هو مذهب مبتدع، لا يُشَرِّفُ المرء الانتساب إليه، يُضَافُ إلى ذلك أن النص يَتَّهِمُ واصلًا بأنه طعن في الأئمة، ولكن واصلًا ينفي ذلك، وهذه القصة لا شك في وضعها؛ بدليل قول ابن المرتضى نفسه: «والله أعلم بصحتها».

وقد نفى هذه التلمذة الشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ[(٢)]، ولكن الدكتور النَّشَّار يُؤَكِّدُ على هذه التلمذة؛ تبعًا لكتاب المعتزِلة، فيقول: «وقد حاول العلَّامة الكبير، الشيخ محمد أبو زهرة أن يُثْبِتَ أن الإمام زيدًا لم يتتلمذ على واصل بن عطاء، وإنما ذاكره، وزامله فيها، وبخاصة أن واصل بن عطاء إنما أخذ مذهبه عن رجل من أهل البيت، هو أبو هاشم، وسواءً أصحت تلمذة زيد لواصل بن عطاء، أم مذاكرته له في المذهب، فإن آراء المعتزِلة كانت هي المرحلة الحاسمة في تفكير الفتى العلوي، ثم يردد الأباطيل؛ فيقول: كما أن اعتناق زيد المذهب القدري أقلق محمدًا الباقر»[(٣)].

إن من المؤسف ـ حقًّا ـ أن يلقي الدكتور هذا الكلام على عواهنه؛ تبعًا للمعتزِلة، والمستشرقين، وعلى هذا المدار تجد الدكتور النَّشَّار يُلْقِي الشبهات، وينسب خيار الأمة إلى المذاهب المبتدعة، والخلاصة التي يجب اعتقادها هي بطلان شبهات المعتزِلة، ومن

---

(١) ابن عساكر، ج٩، ص ١٥٣.

(٢) زيد بن علي، ص ٤٠، حيث يرى الشيخ أبو زهرة أنه ذاكره وزامله ولعل هذا هو الرأي الصواب نظرا لتقارب سن الرجلين، مع اعتبار الخلاف الكبير بين مسلك ومعتقد الرجلين.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي، ج٢، ص ١٢٢.

تابعهم؛ فإن زيدًا، وهو سليل بيت النبوة، ما كان له أن يتلقى العلم عن أحد المبتدعة، الذين لا نصيب لهم من علم الكتاب، والنبوة، وكما قال الدكتور شريف الخطيب: «وعلى فرض صحة لقاء زيد بواصل، فإنه كان لقاء جدال بين مذهب الحق، وهو ما يعتقده زيد، وبين المذهب الباطل الذي يعتقده واصل»[(١)].

أما تلمذة واصل على الإمام الحسن البصري - رحمه الله - تعالى - (ت١١٠هـ)، فهي ثابتة بلا شك، ولكنها تلمذةُ مَنْ أحدث البدعة في هذا المجلس، ورد على شيخه بما لا يليق، ولا نعلم متى قدم واصل إلى البصرة، فإذا قلنا إنه أقام في المدينة إلى سنة (١٠٠هـ)، فيكون قد جالس الحسن البصري مدة خمس سنوات، وقد بقي أربع سنوات منها صامتًا، لا يتكلم، فسألوا الحسن البصري عن ذلك، فقال: «إما أن يكون أجهل الناس، أو أعلم الناس»[(٢)]، «وكانوا يظنون به الخرس من طول صمته»[(٣)]، ونريد أن نتساءل: ماذا يعني هذا الصمت الطويل؟ وما دلالاته؟ هل هو صمت السامع المستزيد؟ أم هو صمت من يهيئ بنفسه مقالة مبتدعة، خالف بها ما يقول هذا الإمام العالم، الذي أجمعت الأمة على إمامته، ورسوخه في الدين، أم أنه كان يقارن بين فكر، ومعتقد سابق لديه، وبين ما يلقيه الحسن البصري، أم أن المجالس التي كان يحضرها بعيدًا عن حلقة الحسن البصري هي التي أحدثت عنده هذا الانحراف، والابتداع؟ سوف نلقي فيما يلي بعض الضوء على علاقات واصل الفكرية خارج هذه الحلقة، والتي يُرَجَّحُ أنه كان لها الأثر الأكبر في انحرافه، وعدم اعتباره من المحدثين، أو ممن روى الحديث؛ فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ): «أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى (ت ١٦٨هـ)، وصالح بن عبدالقدوس، وعبدالكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد، قال

---

(١) د. شريف الخطيب، الإمام زيد بن علي المفترى عليه، ص ٦٤، ط١، ١٤٠٤هـ، منشورات الفيصلية، مكة المكرمة.

(٢) القاضي عبدالجبار، طبقات المعتزلة، ص ٢٣٥، ت. فؤاد السيد، الدار التونسية.

(٣) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٤٠.

أبو أحمد جرير بن حازم (ت١٧٠هـ): فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي، ويختصمون عنده، فأما عمرو، وواصل، فصارا إلى الاعتزال، وأما عبدالكريم، وصالح، فصححا التوبة، وأما بشار، فبقي متحيرًا مخلطًا، وأما الأزدي، فمال إلى قول السمنية؛ وهو مذهب من مذاهب الهند، وبقي ظاهره على ما كان عليه، قال: فكان عبدالكريم يُفْسِدُ الأحداث، فقال له عمرو بن عبيد: قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده، فتدخله في دينك، فإن خرجت من مصرنا، وإلا قمت فيك مقامًا آتي فيه على نفسك، فلحق بالكوفة، فدل عليه محمد بن سليمان (ت ١٧٣هـ)، فقتله، وصلبه فيها»[(١)].

ونحن مع عدم ثقتنا بهذا المصدر، ومعلوماته، إلا أنه صَدَقَ بقوله عن واصل، وعمرو بن عبيد، وأما الشخصيات الباقية، فهي شخصيات منحرفة ـ أيضًا ـ؛ فبشار بن برد الشاعر كان يميل إلى دين المجوس، ويفضل النار على التراب، ويُصَوِّبُ رأي إبليس في امتناعه عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ، ورُمِيَ بالزندقة عند المهدي الخليفة العباسي؛ فأمر به، فَضُرِبَ سبعين سوطًا، فمات من ذلك، وكان ذلك سنة (١٦٨هـ)[(٢)].

وأما صالح بن عبدالقدوس، فهو شاعر زنديق، قتله المهدي على زندقته؛ حيث أبلغ عنه أنه عرض بأبيات لرسول الله ﷺ؛ فقتله لأجل ذلك»[(٣)].

وأما عبدالكريم بن أبي العوجاء، فيقول عنه الإمام الذهبي: «خال معن بن زائدة (ت ١٥٢هـ)، زنديق معثر، قال ابن عدي: لما أُخِذَ لتُضْرَبَ عنقه، قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أُحَرِّمُ فيها الحلال، وأُحَلِّلُ الحرام، قتله محمد بن سليمان الأمير بالبصرة»[(٤)].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص ١٤٦، دار صادر، بيروت، وقد نقل هذا النص من الأغاني، ابن حجر، في لسان الميزان، ج٤، ص ٦١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٢٧٣.

(٣) ابن عساكر، ج١١، ص ٣٤، والوفيات، ج٢، ص ٤٩٢.

(٤) الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٢، ص ٦٤٤، ولسان الميزان، ج٤، ص ٦١.

أما الرجل الأزدي، فلا ندري من هو؛ لعدم التصريح باسمه، وهذه الشخصيات التي كانت تجتمع مع واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، لا بد أنها أثرت في فكره، ومعتقده، وفي بدعته التي ابتدعها، وإذا أضفنا إليها ما ذكره الأستاذ أنور الجندي عن مجموعة من الباحثين، لم يُسَمِّهِمْ: «إن جماعة من اليهود الذين أظهروا الإسلام اندسوا بين المسلمين بالبصرة، وقد تَعَرَّفَ إليهم واصل بن عطاء، وجعل يتردد عليهم، ومن قولهم: إن الخير من الله، والشر من أفعال الإنسان، وإن القرآن مخلوق مُحْدَثٌ، ليس بقديم، وإن الله ـ تعالى ـ غير مرئي يوم القيامة، وإن المؤمن إذا ارتكب الذنب، فشرب الخمر، وغيره يكون في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمنًا، ولا كافرًا، وإن إعجاز القرآن في الصرف عنه، لا أنه معجز؛ أي أن الله لو لم يَصْرِفِ العرب عن معارضة القرآن، لأتوا بما يعارضه»[1].

ونحن نطرح تساؤلات: هل كان لبدعة واصل بن عطاء أبعاد عميقة من خلال هذه الجمهرة الضالة التي كان يجتمع بها، والتي قد تكون دفعته للخروج على منهاج السلف، وعالمهم الكبير الحسن البصري ـ رحمه الله ـ الذي كان يلمح في شخصية واصل أنه كان يُبَيِّتُ في نفسه مثل هذه الفرقة في الأمة؛ من خلال دعوته للاعتزال، والذي يظهر من بعض الروايات أن واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، كانا يحضران إلى الحسن البصري عندما كَبُرَتْ سنه، وزادت على التسعين؛ مما حدا بعلماء السلف باتهامهم بالكذب على الحسن البصري، وكان عمرو بن عبيد ينسب له ما لم يَقُلْهُ؛ فعن حماد بن سلمة قال: «كان حميد من أَكَفِّهِمْ عنه (أي عن عمرو بن عبيد)، قال: فجاء ذات يوم إلى حميد، قال: فحدثنا حميد بحديث، قال: فقال عمرو: كان الحسن يقول:...، قال: فقال لي حميد: لا تأخذ عن هذا شيئًا؛ فإن هذا يكذب على الحسن، كان يأتي الحسن بعدما أسن، فيقول: يا أبا سعيد: أليس تقول كذا، وكذا؟ للشيء الذي ليس من قوله، فيقول الشيخ برأسه هكذا»[2].

(١) الجندي، مقدمات العلوم والمناهج، ص ٤٣٣، ط١، ١٣٩٩هـ، دار الأنصار، القاهرة.

(٢) البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٨٠، دار الكتاب العربي، بيروت.

ومن خلال هذا النص، يمكننا أن نفترض الفترة الزمنية التي بدأت فيها هذه البدعة، والتي يُرَجِّحُهَا بعض المستشرقين في «دائرة المعارف الإسلامية» أنها بدأت في السنة الخامسة بعد المئة[1]، وهذا الرأي قد يكون قريبًا من الصواب، إذا قُورِنَ مع التطور الطبيعي لعُمْرِ واصل، وعمرو بن عبيد، في ظل ضعف قوى الحسن البصري، وعدم قدرته على الرد على بدعهم؛ لكبر سنه، يُضَافُ إلى ذلك المكر، والدهاء، الذي كان يمتاز بهما واصل، وعمرو، ورغبتهما المُبَيَّتَةُ في تأسيس نِحْلَةٍ خاصة بهما، تخالف هذا الجمهور الكبير الذي رباه الحسن البصري على الكتاب، والسنة؛ ليظهر هؤلاء المناوئون لمنهج السلف، ليس في مسألة المنزلة بين المنزلتين فقط، وإنما في مسائل عقدية أخرى، والتي ستمهد الطريق لبروز الجهمية النفاة، وغيرهم من فرق الضلال.

ولكن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ لم يكن راضيًا عن عمرو بن عبيد، قرين واصل؛ لمعتقده الضال في القدر، ولا يُعْلَمُ حقيقة إذا كان مسمى الاعتزال قد ظهر في حياة الحسن البصري، بعد حادثة الطرد المشهورة، والمنسوبة لواصل تارة، ولعمرو بن عبيد تارة أخرى، ولم تكن حلقة الحسن البصري، ولا مجالس الثنوية، والمجوس، هي المصادر الفكرية الوحيدة لواصل بن عطاء؛ فهناك من يرى أن هناك علاقة بين واصل، والجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ)، وهذا غير مستبعد؛ وذلك لأن الرجلين عاشا في عصر واحد، وكانت، وفاتهما متقاربة ـ أيضًا ـ؛ حيث يقول ابن المرتضى: «إن بعض السمنية قالوا لجهم بن صفوان: هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟ قال: لا، قالوا: فحدثنا عن معبودك: هل عرفته بِأَيِّهَا؟ قال: لا، قالوا: فهو إذا مجهول، فسكت، وكتب إلى واصل، فأجاب، وقال: كان يشترط وجه سادس؛ وهو الدليل، فنقول: لا يخرج عن المشاعر أو الدليل، فاسألهم: هل يفرقون بين الحي والميت، والعاقل والمجنون، فلا بد من نعم، وهذا عُرِفَ بالدليل، فلما أجابهم جهم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية المختصرة، ج٢، ص ١٠٩١، أبحاث مجموعة من المستشرقين ترجمة د. راشد البراوي، (الموسوعة الإسلامية الميسرة) ص ١، ١٩٨٥م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

بذلك، قالوا: ليس هذا من كلامك، فأخبرهم؛ فخرجوا إلى واصل، وكلموه، وأجابوه إلى الإسلام»(١).

ولا ندري مدى صحة هذا الخبر، ولكن لعل ابن المرتضى يَهْدِفُ إلى رفع قيمة واصل؛ إذ المشهور أن السمنية الذين تحير الجهم بسببهم، ولم يَدْرِ من يعبد لمدة أربعين يومًا، وقدحوا الفتنة في قلبه العليل، ثم ذهبوا، هذه الفتنة التي نالت الجهم في عقيدته، وكانت سببًا في انحرافه، يُخْشَى أن تكون قد تمكنت ـ أيضًا ـ من قلب واصل بن عطاء، فهل كان للسمنية دور في انحراف معتقد واصل في الصفات، والذي تطور، فيما بعد، على يد المعتزِلة عمومًا، فهؤلاء السمنية، على هذا الاعتبار، نعتبرهم أحد المؤثرات التي أثرت في فكر واصل بن عطاء، كما أسهمت في انحراف الجهم، وحيرته.

ثم يضيف ابن المرتضى أن واصلًا قد بَثَّ دعاته في الآفاق؛ فيقول: «وبلغ من بأسه، وعلمه، أنه أنفذ أصحابه إلى الآفاق، وبث دعاته في البلاد؛ فبعث عبدالله بن الحارث إلى المغرب، فأجابه خلق كثير، وبعث إلى خراسان حفص بن سالم، فدخل ترمذ، ولزم المسجد، حتى اشتهر، ثم ناظر جهمًا، فقطعه، فرجع إلى قول أهل الحق، فلما عاد حفص إلى البصرة، رجع إلى قوله الباطل، وبعث القاسم بن المعدى إلى اليمن، وبعث أيوب بن الأوتر إلى الجزيرة، وبعث الحسين بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية، فقال: يا أبا حُذَيْفَةَ، إن رأيت أن تُرسل غيري، فأشاطره جميع ما أملك، حتى أعطيه فَرْدَ نَعْلِي، فقال: يا طويل، اخرج، فلعل الله أن ينفعك، فخرج للتجارة، فأصاب مئة ألف، وأجابه الخلق»(٢).

ونحن أمام هذا النص نميل لأحد الاحتمالين الآتيين:

---

(١) ابن المرتضى، المنية، ص ١٤٣.

(٢) المنية والأمل، ص ١٤١ ـ١٤٢، بتصرف، قال الدكتور النشار بعد ذكره لحملة واصل هذه: (وبهذا نرى أنه كان لواصل أكبر الأثر في إرساء قواعد الاعتزال، ويعود هذا لشكيمة الرجل وقوة عارضته وشخصيته الفتانة!!) نشأة الفكر، ج١، ص ٣٨٤.

الأول: أن نصدق بهذه الحملة الشرسة التي شنها المعتزِلة على أرجاء العالم الإسلامي، داعين لنفي القدر، والصفات، ونشر البدع العقدية، وبذر بذور الفُرْقة، والاختلاف، في الأمة؛ عن طريق محاربة منهج السلف في العقيدة.

الاحتمال الثاني: أنها حملة مزعومة، لا أساس لها من الصحة؛ وذلك لأنني حاولت، بعد جهد طويل، العثور على تراجم هؤلاء المذكورين، فلم أحصل إلا على عُثْمان الطويل، وما وجدت ما قاله ابن المرتضى عنه في كتب أهل السنة، وهذا ـ أيضًا ـ يحتمل أن هذه الشخصيات كانت مغمورة، تدعو لبدعتها في الخفاء، بعيدًا عن معرفة علماء السلف بها، حتى تؤسس هذه النحلة المبتدعة، ومما لا شك فيه أن هذه الدعوة البدعية ـ أيضًا ـ أحدثت بين المسلمين جدالًا، وإشكالًا واسعًا، لم ينتهِ إلى وقتنا الحاضر، فكانت من أخطر البدع التي ابْتُلِيَتْ بها الأمة، وما خلاف المسلمين في مسائل العقائد إلا أنه نابع من أصول المعتزِلة، والجهمية، التي اتحدت مع معظم الفرق البدعية، وخاصة في مناطق التشيع، وحتى الخوارج استقوا مباحثهم الكلامية، فيما بعد، من مناهج المعتزِلة.

وعندما حدثت محنة خلق القرآن، التي كان سببها المعتزِلة، فرحت فرق الضلال بالاضطهاد الذي لاقاه علماء السلف؛ وأولهم الإمام أحمد، وأعجبت بما تدعو إليه المعتزِلة، فكان التلاقي، والذوبان في مسائل العقيدة بين مختلف الفرق، وخاصة الشيعة؛ ومما عزز اتحاد هذه الفرق مع المعتزِلة هزيمة المعتزِلة في النهاية، وظهور منهج السلف، وسيادته على الأمة، فعادت هذه الفرقة تبحث في سراديب الظلام عن فتن، ومكائد؛ لضرب هذا المنهج الفطري الذي يدين به جمهور الأمة، فحدثت بعد ذلك انحرافات عقدية، خرج أغلبها من رحم المعتزِلة العَفِن، واليوم تبرز الدعوات من جديد؛ لإحياء هذا الفكر المبتدَع، والعقيدة الضالة، ولكن هذه الصحوة المباركة بدأت تتلمس طريقها بالبحث عن منهج السلف، وإحيائه؛ لصد الهجمة الاستشراقية الاعتزالية الجديدة، التي يجب أن يُزَال الستار عن تخريبها العقدي، وخوضها في ذات الله، وصفاته، وقضائه، وقدره، خوضًا باطلًا، لا دليل يسنده إلا اتباع الهوى،

والشيطان.

هذه نبذة عن حياة واصل بن عطاء، الذي تُوُفِّيَ سنة (إحدى وثلاثين ومئة)[١]، وقد ذُكِرَ أن له جملة من التصانيف، ولم يصلنا شيء منها؛ مثل: « أصناف المرجئة، وكتاب التوبة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب خطبته التي أخرج منها الراء، وكتاب خطب التوحيد، والعدل»[٢]، وسوف ننتقل لنعطي صورة أخرى عن عمرو بن عبيد، الرجل الثاني من رجالات الاعتزال.

* **عَمْرُو بْنُ عُبَيْدِ بْنِ بَابٍ:**

وُلِدَ عمرو بن عبيد سنة (٨٠هـ)[١]، وهو مولى لبني تميم[٢]، وجده «باب، من سبي فارس، مولى لآل عرادة، من بلعدويه، من حنظلة تميم، وعبيد أبو عمرو، كان نَسَّاجًا، ثم تحول شرطيًّا للحجاج، وهو من سبي سجستان»[٣]، وقال ابن قتيبة، والفسوي (ت ٢٧٧هـ): «هو عمرو بن عبيد بن باب، مولى لآل عرادة بن يربوع بن مالك، ويكنى أبا عثمان، وكان عبيد أبوه يختلف إلى أصحاب الشر (ولعله يقصد الشرط) بالبصرة؛ فكان الناس إذا رأوا عمرًا مع أبيه، قالوا: خير الناس ابن شر الناس، فيقول عبيد: صدقتم هذا إبراهيم، وأنا آزر»[٤]، وقال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) عند التعريف به: «عمرو بن عُبَيْد بن ثوبان، ويقال ابن كيسان التيمي، مولاهم، أبو عثمان البصري، من أبناء فارس، شيخ القدرية، والمعتزِلة»[٥].

يتضح لنا من هذه النصوص أن عمرو بن عبيد، ووالده، وجده، هم من الموالي، وواضح - أيضًا - أن هذا الولاء يعني العبودية؛ لأنهم أُخِذُوا من السبي، والذي يهمنا

(١) ابن الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٨٧، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٦٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ٢٠١، وانظر الرازي، الجرح والتعديل، ج٦، ص ٢٤٦.

(٣) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٦٦.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٧٢، والفسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ١٢٦، وج٣، ص ٤٦٤، والوفيات، ج٣، ص ٤٦٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٨١.

هو طبيعة النشأة التي عاشها عمرو في ظل والده، ومن الملاحظ أن عمرًا في بداية حياته كان مستقيمًا؛ لملازمته لمجالس العلم، ولكن والده كان يتوسم فيه شيئًا آخر؛ حيث «قيل لعبيد بن باب أبي عمرو بن عبيد، وكان من حرس السجن: إن ابنك يختلف إلى الحسن، ولعله أن يكون... قال: وأي خير يكون من ابني، وقد أصبت أمه من غلول، وأنا أبوه؟»[(١)].

طَلَبُهُ الْعِلْمَ:

ولقد كان عمرو، كما سبق وقلت في الفقرة السابقة، يختلف إلى مجلس الحسن البصري في سن مبكرة، ولعل هذا المجلس كان له أثره في نشأته العلمية فيما بعد، ولكن عمرو بن عبيد كان يأخذ من مشاربَ شتى، خلطت عليه ذلك الخير الذي كان يتلقاه في مجلس الحسن البصري؛ حيث كان يصاحب واصلًا إلى مجالس الثنوية والمجوس التي سبق وأشرنا إليها، فلا نعلم إذا كانت هذه المجالس أثرت به؛ حتى أخذ عنهم مقالاته الفاسدة، فيما بعد، وبعكس واصل، فلم يزعم أحدًا أن عمرو بن عبيد قد تلقى العلم من آل البيت الهاشمي، إلا ما قاله «طاش كبرى زاده»، متابعًا بذلك لابن المرتضى، الذي يقول «على لسان شبيب ابن شبة: ما رأيت من غلمان ابن الحنفية أكمل من عمرو بن عبيد، فقيل له: متى اختلف عمرو بن عبيد إلى ابن الحنفية، فقال: إن عمرًا غلام واصل، وواصل غلام محمد»[(٢)]، وقد سبق وبينا تهافت هذا الزعم؛ فابن الحنفية تُوُفِّي بعد ميلاد واصل بسنة، واحدة، ومحال على طفل رضيع أن يتلقى العلم، ثم إن عمرًا قرين واصل في العمر، فكيف يكون غلامه؟! وقد رد الدكتور النَّشَّار على «طاش كبرى زاده»، فقال: «وهذا خطأ؛ فإن عمرو بن عبيد لم يتقابل مع أبي هاشم إطلاقًا»[(٣)]، ولكن من الذي كان له الأثر الأكبر على الآخر: هل هو واصل، أم عمرو بن عبيد؟ لقد كان الاثنان من رواد حلقة الحسن البصري - رحمه الله

(١) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٥.

(٢) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٣١، وانظر طاش كبرى زاده، ج٢، ص ٣٥.

(٣) نشأة الفكر، ج١، ص ٤٠٠.

ـ، وكان واصل يمتاز بالصمت الطويل، حتى نطق ببدعته الممقوته، في المنزلة بين المنزلتين، ولكن الخطيب البغدادي يرى أن واصلًا كان له الأثر الأكبر على عمرو بن عبيد؛ حيث قال: «كان عمرو يسكن البصرة، وجالس الحسن البصري، وحفظ عنه، واشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب السنة، فقال بالقدر، ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن»[(١)].

ويبدو أن واصل بن عطاء قد أقنع عمرًا بالسير في طريق المبتدعة، وتفضيل مجالس الجدال، وكانت مجالس الثنوية ترضي طموحه، ولعل عمرو بن عبيد عندما تمكنت منه شُبَهُ واصل، كان يذهب إلى الحسن، ويقول له برأيه، فقد روى العقيلي، قال: «كان لعمرو بن عبيد من الحسن منزلة، فلما بان له ما بان، أتى إلى الحسن، فكلمه فيما بينه وبينه، فقال الحسن: لا، ثم عاوده ثانية، فقال الحسن: لا، ولا كرامة، قال: فلما ولى عمرو، قال الحسن: والله، لا يفلح أبدًا»[(٢)].

ولا شك أن عمرًا قد اختط طريقًا يخالف طريق الحسن البصري ـ رحمه الله ـ، وكان الحسن له توسم في الرجال؛ فقد كان يلمح من عمرو رغبة في الإحداث، والابتداع، ولكن، على أي أساس كان هذا؟ هل كان يسأل عن القدر، ويجادل فيه، أم كان يثير من المسائل ما يبدو أنها ستؤسس بدعة ضالة؟ فقد روى الفسوي، قال: «رأى الحسن أيوب (السختياني) (ت١٣١هـ)، فقال: هذا سيد شباب أهل البصرة، قال: ورأى عمرو بن عبيد، فقال: هذا من سَيِّدِي شباب أهل البصرة، إن لم يحدث»[(٣)].

وقد حدث ما توسم به الحسن البصري؛ فكان أن أحدث عمرو، وابتدع بدعته في الاعتزال، وبقي أيوب السختياني على المنهج الحق، وكان من أشد الناس على عمرو،

---

(١) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٦٦.

(٢) الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٣) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ٢٦٠، وتاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٠.

والمعتزِلة، ومَنْ نحا نحوهم مِنْ فِرَق الضلال، وتعتمد شهادة الحسن البصري على ما كان عليه عمرو بن عبيد من الورع، والعبادة، في بداية أمره، وقبل الإحداث؛ قال ابن حبان: «كان عمرو بن عبيد من العباد الخشن، وأهل الورع الدقيق، ممن جالس الحسن سنين كثيرة، ثم أحدث ما أحدث، واعتزل مجلس الحسن البصري، ومعه جماعة؛ فسموا المعتزِلة، وكان عمرو بن عبيد داعية إلى الاعتزال، ويشتم أصحاب رسول الله ﷺ، ويكذب، مع ذلك، في الحديث»[(١)].

وفي رسالة لواصل بن عطاء بعث بها إلى عمرو بن عبيد، يذكر فيها شكوى الحسن البصري منه، وتوقعه أن يُحْدِثَ في دين الله، وفي هذه الرسالة يتضح ارتداد عمرو عن منهج السلف، واختيار منهج الابتداع، والمخالفة، وهذه أجزاء منها؛ حيث يقول واصل: «وقد عرفت ما كان يطعن به عليك، وينسب إليك، ونحن بين ظهراني الحسن بن أبي الحسن - رحمه الله -؛ لاستبشاع قُبْح مذهبك، نحن، ومن قد عَرَفْتَهُ من جميع أصحابنا، ولِمَّةِ إخواننا... ثم ينقل دعاءً للحسن البصري، يقول فيه: «اللهم إني قد بَلَّغْتُ ما بَلَغَنِي عن رسولك، وفسرت من محكم تأويلك ما قد صَدَّقَهُ حديث نبيك، ألا وإني خائف عمرًا، ألا وإني خائف عمرًا»، ثم يقول واصل: «وقد بلغني كبر ما حملته نفسك، وقلدته عنقك، من تفسير التنزيل، وعبارة التأويل، ثم نظرت في كتبك، وما أدته إلينا روايتك، من تنقيص المعاني، وتفريق المباني؛ فدلت شكاية الحسن بالتحقيق؛ بظهور ما ابْتَدَعْتَ، وعظيم ما تحملت، وسوف يكون لنا وقفة مع هذه الرسالة فيما بعد، وسنعطي عليها بعض الملاحظات[(٢)].

مَا قِيلَ عَنْ زُهْدِهِ، وَوَرَعِهِ:

وكان عمرو بن عبيد مشهورًا في زهده، وورعه، ولعل نص ابن حبان (ت

---

(١) ابن حبان، المجروحين، ج٢، ص ٦٩، ت. محمود إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ١٤١٢هـ، وانظر إلى أحكام علماء الحديث عليه في الجرح والتعديل، ج٦، ص ٢٤٧.

(٢) ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٢، ص ٢٢٤ - ٢٢٥، ت. د. مفيد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥٤هـ) الذي سبق يؤكد ذلك، ولكن هذا الزهد، والورع، لم يمنعه من الابتداع، والإحداث في الدين، وقد قام ببناء علاقات طيبة مع أبي جعفر المنصور، وكان لورعه، وزهده، الأثر في هذه العلاقة؛ حيث اغتر به المنصور؛ ولهذا السبب غفل عن بدعته في الدين، ورُوِيَ أنه كان يعظ أبا جعفر المنصور؛ حيث يقول الخطيب البغدادي: (ت ٤٦٣هـ)، ويُقَال إنه دخل على أبي جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ)، «فقال: يا أبا عثمان، عِظْني: فقال: إن هذا الأمر الذي أصبح في يدك، لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك لم يَصِلْ إليك، فأحذرك بليلة تمخص بيوم لا ليلة بعده»[١]، وروى إسحاق بن الفضل، قال: «إني لعلى باب المنصور، وإلى جنبي عمارة بن حمزة، إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار، فنزل عن حماره، ونجل البساط برجله، وجلس دونه، فالتفت إليَّ عمارة، فقال: لا تزال بصرتكم ترمينا منها بأحمق، فما فصل كلامه من فيه، حتى خرج الربيع، وهو يقول: أبو عثمان عمرو بن عبيد، قال: فوالله، ما دل على نفسه، حتى أُرْشِد إليه، فاتكأ بيده، ثم قال: أجب أمير المؤمنين، فمر متوكئًا عليه، فالتفتُّ إلى عمارة، فقلت: إن الرجل الذي قد استحمقت قد دُعِيَ، وتُرِكْنَا، فقال: كثير ما يكون مثل هذا»[٢].

وقد رد بعض العلماء من أهل السنة على هذه الأخبار؛ حيث يقول عبدالقاهر البغدادي: «وذكر الكعبي في مقالاته أن المنصور مدح عمرًا، وقال: نثرت الحب فلقطوا، غير عمرو بن عبيد»[٣]، وهذا من أكاذيب الكعبي، وهو الذي روى أن عمرًا كان من الداعين إلى البيعة ليزيد الناقص في ولايته، أَفَتَرَى المنصور، مع صرامته، وعداوته لبني أمية، يمدح داعيَهُم، ومن خرج عليهم، مع إبراهيم بن عبيدالله بن الحسين بالبصرة، حتى لحقه شؤم عمرو؛ فقتل في حربه؟»[٤].

---

(١) ، (٢) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٦٦ - ١٦٧، بتصرف.

(٣) يشير إلى الأبيات المنسوبة لأبي جعفر والتي يقول فيها:

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

انظر تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٦٩.

(٤) الملل والنحل، ص ٨٧.

ونحن نرى أن عمرًا ربما لبس على أبي جعفر المنصور، وإن كان قد دعا إلى بيعة يزيد، فَمِمَّا لا شك فيه أنها إحدى أساليب الفرق المنحرفة؛ وذلك لمناصرة هذا الخليفة القدري؛ ليُمَكِّنَ القدرية من رقاب الأمة، واضطهاد علمائها، وقد اهتم عمرو ابن عبيد في تَمْتِينِ روابطِه مع الخلافة الجديدة، ولم تَمْضِ فترة من الزمن حتى تمكنت المعتزِلة من عدة خلفاء من خلفاء بني العباس، وساموا الأمة العذاب في محنة خلق القرآن.

ويؤكد الإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن كثير ـ رحمهما الله ـ تعالى ـ، أن أبا جعفر اغتر بزهد عمرو، وأخفى بدعته، فيقول الذهبي: قد كان أبو جعفر المنصور يعظم عمرو بن عبيد، ويثني عليه، ويقول: «كلكم يمشي رويدًا، وكلكم يَطْلُبُ صيدًا، غير عمرو بن عبيد»[(١)]، وعلَّق على ذلك، فقال: «اغتر بزهده، وإخلاصه، وأغفل بدعته»[(٢)]، وقال ابن كثير: «كان عمرو يغر الناس بتقشفه، وهو مذموم ضعيف الحديث جدًّا...، وقد كان محظيًّا عند أبي جعفر المنصور، وكان المنصور يحبه، ويعظمه؛ لأنه كان يفد على المنصور مع القُرَّاء، فيعطيهم المنصور، فيأخذون، ولا يأخذ عمرو منه شيئًا، وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه، فلا يقبل منه؛ فكان ذلك يغر المنصور، ويروج به عليه حاله؛ لأن المنصور كان بخيلًا، وكان يعجبه ذلك منه، ولو تبصر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد، والزهد لا يدل على صلاح؛ فإن بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو، ولا كثير من المسلمين في زمانه»[(٣)].

هذه صورة موجزة من حياة عمرو بن عبيد، الذي تُوُفِّي سنة (١٤٤هـ)[(٤)]، وسوف نرى خطورة بدعته، وآرائه الضالة، عند حديثنا عن الآراء التي جاء بها عمرو مع واصل بن عطاء، أو منفردًا عنه، بإذن الله.

(١) تاريخ الإسلام، ج٦، ص ٢٤٢.
(٢) سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ١٠٥.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٨٢.
(٤) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٨٧.

٣ـ طَبِيعَةُ الْعِلاَقَةِ بَيْنَ وَاصِلٍ، وَعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ:

أما عن طبيعة العلاقة التي ربطت بين واصل، وعمرو بن عبيد، وكيف إتحدت جهودهما للدعوة لهذه البدعة الجديدة، فمن المعلوم أن واصلًا كان في المدينة المنورة، وقد سبق أن عرضنا لرسالة ذَكَرَها صاحب «العقد الفريد»، وفيها يذكر واصل شكوى الحسن البصري من عمرو بن عبيد، ومخافته من الإحداث، والابتداع في الدين؛ فهذه الرسالة تبين وجود علاقة قوية بين واصل، وعمرو بن عبيد، ولكن هل يعني هذا أن واصلًا لم يقابل عمرو بن عبيد من قبل، فما طبيعة هذه العلاقة، إذن؟ أم أن واصلًا قد قابله، ثم رجع إلى المدينة، وقابل الحسن البصري عند زيارته لها، ولكننا نريد أن نضع بعض الملاحظات على هذه الرسالة، كما سبق وقلت؛ فهل كان عمرو بن عُبَيْدٍ يغلو في آرائه، وفي تأويلاته أكثر من واصل؟ وهل لاحظ واصل أن عمرًا قد تسرع في الإفصاح عن مذهبهما القبيح؛ كما جاء في نص الرسالة؟ وهل كان هذا المذهب يخوض في القدر، والأسماء، والصفات، وغيرها من مسائل الاعقاد؟.

ولكن هذه الرسالة لا نجد فيها أي أثر يُذْكَرُ للخلاف المذكور فيما بين واصل، وعمرو بن عبيد؛ مما يجعلنا نضعها تحت اعتبارين: الاعتبار الأول هو أن يكون هناك خلاف حقيقي في الإفصاح عن هذه البدعة مبكرًا، ولعل رأي واصل هو التأني في طرح البدعة التي تَحِيكُ في صدريهما، والاعتبار الثاني: هو أن يكون خلافًا صوريًا، يَعْرِضُ فيه واصل أمام الناس اتباعه لمذهب الحسن البصري، وأن المخالف هو عمرو بن عبيد، ومهما يكن من الاعتبارات السابقة، إلا أن أرباب البدع يجعلون من مثل هذه المراسلات، والنصوص، سبيلًا لدفع الشُّبَهِ المثارة حولهم، مع بقاء بدعتهم قائمة، لم ينقصوها بشيء، بل إن سبيل البدعة، وازدياد انحرافها، فاق التصور.

ولكن طبيعة العلاقة بين الرجلين يبدو فيها بعض الجدال، والمحاورة، حتى استقامت، ووُضِعَتْ في إطارها الموحد؛ فقد قِيلَ إن هناك جدالًا بين واصل، وعمرو بين عبيد، في مسألة الفاسق، وهذه المحاورة لا ندري مدى صحتها، ولكننا سنثبتها؛ فقد ساقها ابن المرتضى على النحو التالي: «قال واصل لعمرو: ألست تزعم أن الفاسق يَعْرِفُ الله ـ

تعالى ـ، وإنما خَرَجَتِ المعرفة من قلبه عند قذفه، فإن قلت: لم يزل يعرف الله، فما حجتك، وأنت لم تُسَمِّهِ منافقًا قبل القذف؟ وإن زعمت أن المعرفة خرجت من قلبه عند قذفه، قلنا لك: فَلِمَ لا أدخلها في القلب بتركه القذف، كما أخرجها بالقذف، وقال له: أليس الناس يعرفون الله بالأدلة، ويجهلونه بدخول الشُّبْهَةِ، فأي شُبْهَةٍ دخلت على القاذف، فرأى عمرو لزوم هذا الكلام، فقال: ليس بيني، وبين الحق عداوة، فقبله، وانصرف، ويده في يد واصل»[1].

وبِغَضِّ النظر عن صحة هذا النص، فالعبرة في أن عمرًا قد وضع يده في يد واصل، وقال له: ليس بيني وبين الحق عداوة؛ فأي حق يعبر عنه عمرو، إذا كان يرى أن ما عليه من بدعة هو الحق، ولكنهم اتخذوا الباطل، ومعاداة الحق وأهله، منهجًا لهم، ولو صحت هذه المناظرة، وكانت أمام جمع من الناس، فهي عبارة عن استعراض متفق عليه لإعلان الوحدة بين الرجلين؛ لتكثير سواد المبتدعة، الذين بدأ نجمهم يبرز مع قدوم واصل إلى البصرة، ووضع يده بيد عمرو بن عبيد.

ومنذ قدوم واصل إلى البصرة، بدأ نشاط المعتزِلة يأخذ طابع التنظيم، والتنسيق، وذلك بالإعلان عن خطب لواصل يقدمه فيها، ويعقب عليها عمرو بن عبيد نفسه، فقد روى الخطيب البغدادي عن أبي عوانه (ت ١٧٠هـ) قال: «شهدت عمرو بن عبيد، وأتاه واصل الغَزَّال، قال: وكان خطيب القوم (يعني المعتزِلة)، فقال عمرو: تَكَلَّمْ، يا أبا حُذَيْفَةَ، فخطب، فأبلغ، قال: ثم سكت، فقال عمرو: تَرَوْنَ لو أن مَلَكًا من الملائكة، أو نبيًّا من الأنبياء، كان يزيد على هذا؟!»[2].

ويقينى أن هذا التعقيب من عمرو بن عبيد قد قيل لقوم استسلمت عقولهم، وجوارحهم، لهذا الهراء الاعتزالي، والذي لم يَجِدْ من يَرُدُّ عليه في ذلك المجلس، ولكن هذه الدعاية المقصود منها الرفع من قيمة المبتدعة، في وسط هؤلاء الأغرار، الذين يتوهمون أن كل ما يُقَالُ في هذه المجالس إنما هو لنصرة هذا الدين، وحتى عمرو

(١) المنية والأمل، ص ١٤٤.

(٢) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٥.

بن عبيد، كان يمتدح نفسه بمثل المديح السابق؛ فهذا أبو عوانة يقول ـ أيضًا ـ: «ما رأيت عمرو بن عبيد قط، ولا جالسته إلا مرة واحدة، فتكلم، وطَوَّلَ، ثم قال: لو نزل مَلَكٌ من السماء ما زادكم على هذا»[(١)].

وتتوثق العلاقة بين عمرو، وواصل، عندما يزوج عمرو أخته لواصل، قال ابن علية: «أول من تكلم في الاعتزل واصل بن عطاء الغَزَّال، فدخل معه في ذلك عمرو بن عبيد، فأُعْجِبَ به، وزَوَّجَهُ أخته، وقال لها: زوجتك برجل ما يَصْلُحُ إلا أن يكون خليفة»[(٢)]، وبهذه المصاهرة أصبحت المعتزِلة تنمو بصورة علنية، وتؤسس البدع، وتنشرها في أوساط المسلمين، وهذا ما ينقلنا إلى استجلاء مقالات المعتزِلة التي ابتدعوها، وخالفوا فيها عقيدة السلف.

٣ـ تَحْقِيقُ مَقَالَاتِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَالَّتِي أَصْبَحَتْ، فِيمَا بَعْدُ، أُصُولَهُمُ الْخَمْسَةَ:

سوف نعرض فيما يلي لأهم البدع العقدية التي جاء بها واصل، وعمرو بن عبيد؛ فهما يمثلان هذه المرحلة خير تمثيل؛ إذ لم تظهر شخصية اعتزالية في هذه الفترة غيرهما، فهما يمثلان مرحلة النشأة الأولى للفكرة الاعتزالية، وقد تُوُفِّيَ واصل بن عطاء سنة (١٣١هـ)، بينما تُوُفِّيَ عمرو بن عبيد سنة (١٤٤هـ)؛ ولذلك سنجد آراءً لعمرو بن عبيد، انفرد بها عن واصل، ولعل فترة الثلاثة عشر عامًا التي فصلت بين وفاة واصل، ووفاة عمرو، قد كانت كفيلة بإيغال المعتزِلة في الانحراف على يد عمرو بن عبيد، وسوف نرى أن أبرز الانحرافات، وأخطرها، هو الاستمرار على نهج القدرية الأولى في نفي القدر، والعلم الإلهي، وهو من أخص مسائل الصفات الإلهية، التي ستتولى نفيها، وتعطيلها، فيما بعد، المعتزِلة، وَرَثَةُ الجهمية النُّفَاة.

ومن هنا، فإنه يجب تصحيح فكرة عامة سيطرت على عقول الباحثين لفترة طويلة؛ وهي أنهم توهموا أن أهم ما يميز المعتزِلة هي بدعتهم في المنزلة بين المنزلتين، ولكن الذي حمله المعتزِلة من البدع العقدية لا يمكن إغفاله؛ كنفي القدر، والخوض في

(١) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٧٥.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص ٢٤١.

الصفات الإلهية على مناهج المبتدعة، ويقيني أن قول المعتزِلة بالمنزلة بين المنزلتين قد غطَّى على ضلالاتهم الواسعة في مسائل العقيدة الأساسية، وهذا ما سنعالجه من خلال ترتيب المسائل حسب قولهم بها، وذلك بجلب نصوص جديدة، عثرنا عليها من أقوال واصل، وعمرو بن عبيد.

١- الأَصْلُ الأَوَّلُ: الْقَوْلُ بِالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ، أَوِ الْقَوْلُ بِنَفْيِ الْقَدَرِ، وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ لِأَفْعَالِهِ: وهي الفكرة الأصلية التي كان يعتقدها الرجلان قبل قولهما بالمنزلة بين المنزلتين، وقد قدمنا هذه الفكرة على غيرها؛ لكونها امتدادًا للقدرية الأولى؛ وذلك أن القدرية الأولى عندما تعرضت للمحنة في خلافة هشام ـ رحمه الله ـ، اتجهت الى الدعوة السرية، وعندما آزرت يزيد بن الوليد على ابن عمه الوليد، وخَلَعَهُ يزيد، قام يزيد؛ كما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لما وَلِيَ، دعا الناس إلى القدر، وحملهم عليه، وقرب أصحاب غيلان»[(١)]، واستمر حكم يزيد ستة أشهر فقط، وقد آزرته القدرية؛ انتقامًا من الوليد، الذي استمر على سياسة هشام في نفي القدرية، وحبسهم، ويشير البغدادي إلى أن «عمرو بن عبيد كان من الداعين لبيعة يزيد الناقص في ولايته»[(٢)]، وكان يعظمه، ويرى أنه أفضل من عمر بن عبدالعزيز.

وعندما قام مروان بن محمد لخلع يزيد بن الوليد اتخذ شعارَ مقاتلَةِ القدرية، وأعلن التشمير لقتالهم[(٣)]، ولكن مروان نفسه كان خاضعًا لبدعة أخرى، ولآراء مُعَلِّمِهِ الجعد بن درهم، الذي كان يقول بخلق القرآن، وفي مثل هذا الخِضَمِّ الهائل من الأحداث التي أسهمت في نهاية الدولة الأموية، كانت القدرية تتوارى عن الأعين؛ لتعلن ظهور اسم جديد يحمل آراء القدرية، والجعدية، والجهمية، على السواء؛ ألا وهو المعتزِلة، هذا الاسم الجديد الذي كان قد أُعْلِنَ عنه، بدأ يظهر، وقد انضوت تحته القوى الابتداعية

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص ٣٧٢، وتاريخ الإسلام، ج٥، ص ٣١١، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٠.

(٢) الملل والنحل، ص ٨٧.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٢٥٣.

المعادية لمنهج السلف، ومنهج الكتاب، والسنة، وقد انتظمت هذه القوى في حلقة واحدة، متظاهرة بقبولها الظاهر بإثبات القدر، وإعلانها عن مصطلح العدل؛ حيث يقول البغدادي: «ثم إنهما أظهرا بدعتهما في المنزلة بين المنزلتين، وضَمَّا إليها دعوة الناس إلى قول القدرية على رأي معبد الجهني، فقال الناس لواصل: إنه مع كفره قدري، وجرى المثل بذلك في كل كافر قدري»(١).

ويقول الشهرستاني: «وإنما سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وقرر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر مما كان يقرر قاعدة الصفات، فقال: إن الباري ـ تعالى ـ حكيم عادل، لا يجوز أن يُضَافَ إليه شر، ولا ظلم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئًا ثم يجازيهم عليه؛ فالعبد هو الفاعل للخير، والشر، والإيمان، والكفر، والطاعة، والمعصية، وهو المجازى على فعله، والرب ـ تعالى ـ أقدره على ذلك كله، وأفعال العباد محصورة في الحركات، والسكنات، والاعتمادات، والنظر، والعلم، وقال: يستحيل أن يُخَاطَبَ العبد بـ«افْعَلْ»، وهو لا يمكنه أن يفعل، ولا هو يحسن من نفسه الاقتدار على الفعل، ومن أنكره، فقد أنكر الضرورة»(٢).

ولترويج مذهبه الباطل في القدر، فقد ذكر الشهرستاني أن واصل بن عطاء قد زَوَّرَ رسالة من عنده على لسان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ، وزعم أنه كتبها إلى عبدالملك بن مروان(٣)، قال الشهرستاني: «ولعلها لواصل، فما كان الحسن مِمَّنْ يخالف السلف في أن القدر: خيره، وشره، من الله ـ تعالى ـ؛ فإن هذه الكلمات

(١) الفرق بين الفرق، ص ١١٩.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٧.

(٣) وعلى الرغم من أن الشهرستاني نسبها إلى واصل إلا أن الدكتور الجابري يصر على صحة نسبتها إلى الحسن البصري ويبني عليها كلامه كله باعتبار الحسن ـ رحمه الله ـ يقول بالقدر وهو كلام باطل ولا يصح، انظر الجابري، العقل السياسي العربي، ص ٣٠٨، وانظر كذلك د. محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، حيث ناصر مذهب المعتزلة في القدر، وضمن كتابه كاملا الشرح لهذا المعتقد، وردد مزاعم المعاصرين حول جبرية بني أمية.

كالْمُجْمَعِ عليها عندهم، ثم يتعجب الشهرستاني من التلبيس الذي اتبعه واصل لترويج سلعته المزجاة؛ فيقول: «والعجب أنه حَمَلَ هذا اللفظ الوارد في الخير على البلاء، والعافية، والشدة، والرخاء، والمرض، والشفاء، والموت، والحياة... إلى غير ذلك من أفعال الله ـ تعالى ـ، دون الخير، والشر، والحَسَن، والقبيح الصادرين من اكتساب العباد»[1].

ويؤكد الدكتور النَّشَّار على قدرية واصل، ويُدَافِعُ عنها، فبعد أن ذكر جملة من النصوص قال: «ننتهي من كل تلك النصوص الحاسمة بأن واصل بن عطاء كان قدريًّا، وأنه نادى بحرية الإرادة الإنسانية في صورة واضحة»[2].

أما عمرو بن عبيد، فقد عَرَّفَ به الخطيب البغدادي؛ فقال: «كان قدريًّا، يرى الاعتزال والقدر»[3]، وروى الخطيب البغدادي عن معاذ بن معاذ، قال: سمعت عمرو بن عبيد، يقول: «إن كانت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، في اللوح المحفوظ، فما لِلَّهِ على ابن آدم حجة»[4]، وفي رواية قال معاذ: «كنت جالسًا، عند عمرو بن عبيد، فأتاه رجل يُقَالُ له عثمان أخو السمري، فقال: يا أبا عثمان، سمعت، والله، اليوم بالكفر، فقال: لا تعجل بالكفر، وما سمعت؟ قال: سمعت هاشمًا الأوقص يقول: «إن ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، وقوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾، و﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾، إن هذا ليس في أم الكتاب، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾؛ فما الكفر إلا هذا يا أبا عثمان، فسكت عمرو هنيهة، ثم أقبل عَلَيَّ، فقال: والله، لو كان القول كما يقول، ما كان على أبي لهب من لَوْمٍ، ولا على الوحيد من لوم، قال: يَقُولُ أبو عثمان ذاك؟ هذا، والله، الدين، يا أبا عثمان! قال

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٧.
(٢) نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص ٣٩٤.
(٣) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٨٣.
(٤) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٧٠.

معاذ: «فدخل بالإسلام، وخرج بالكفر»[(١)].

وكان عمرو بن عبيد يرد حديث رسول الله ﷺ عن عبدالله بن مسعود، قال: «حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[(٢)].

فقد روى الخطيب البغدادي عن عبدالله بن معاذ العنبري عن أبيه، قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول، وذكر حديث الصادق المصدوق (السابق ذكره)، فقال: «لو سمعت الأعمش يقول هذا، لكَذَّبْتُهُ، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا، ما أجبته، ولو سمعت عبدالله بن مسعود يقول هذا، ما قَبِلْتُهُ، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا، لرددته، ولو سمعت الله ـ تعالى ـ يقول هذا، لَقُلْتُ له: ليس على هذا أخذت ميثاقنا»[(٣)].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ تعليقًا على هذا النص: «وهذا من أقبح الكفر، لَعَنَهُ اللَّهُ، إن كان قال هذا، وإذا كان مكذوبًا عليه فعلى من كذبه عليه ما يستحقه»[(٤)]، وقال وكيع بن الجرّاح ـ رحمه الله ـ (ت ١٩٦هـ)، عندما سمع جرأة عمرو بن عبيد هذه: «من قال هذا القول استتيب، فإن تاب، وإلا، ضُرِبَتْ عُنُقُهُ»[(٥)].

---

(١) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧١.

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، سبق تخريجه أيضا.

(٣) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٨٢.

(٥) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٢.

وهذا يمثل قمة الجرأة، والاستهزاء بكتاب الله ـ عز وجل ـ، وسنة رسوله ﷺ، وذلك في رد معتقدات المسلمين، وتهوينها، وهذا ما يؤكد ما سبق وقلنا في مواقع عديدة؛ من أن المعتزِلة الجدد، وَرَثُوا معتقدات القدرية النُّفَاة، وزادوا عليهم بمثل هذه الجرأة القبيحة».

٢ـ الأَصْلُ الثَّانِي الَّذِي ابْتَدَعَهُ وَاصِلٌ، وَعَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ؛ الْقَوْلُ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ: وهذا الأصل هو الذي اشتهر به المعتزِلة حتى غطّى على كل انحرافاتهم الأخرى في مسائل العقيدة، ومن أبرزها انحرافهم في القدر، والأسماء، والصفات؛ وبسبب هذه القاعدة المبتدَعَةِ طرده الحسن البصري ـ رحمه الله ـ تعالى ـ، ولكن عبدالقاهر البغدادي يُرْجِعُ القول بها إلى زمن إحداث الأزارقة؛ فيقول: «كان واصل من منتابي مجلس الحسن البصري في زمان فتنة الأزارقة بالبصرة، والأهواز، واختلف الناس يومئذ في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام، فلما ظهرت فتنة الأزارقة، واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب، خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة، وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مُؤْمن، ولا كافر، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر، والإيمان، فلما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه، التي خالف فيها أقوال الفِرَقِ قبله، طرده من مجلسه؛ فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة، وانضم إليه قرينه في الضلالة عمرو بن عبيد، فقال الناس فيهما: إنهما قد اعتزلا قول الأمة، وسُمِّيَ أتباعهما من يومئذ معتزِلة»[1].

ولتوضيح هذه القاعدة يقول الإسفراييني: «ومما اتفقوا عليه من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق على منزلة بين المنزلتين؛ لا هو مؤمن، ولا هو كافر، وإنه إن خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون خالدًا مخلدًا في النار، مع جملة الكُفَّار، ولا يجوز لله أن يغفر له، أو يرحمه، ولو أنه رحمه، وغفر له، يخرج من الحكمة، وسقط من منزلة الإلهية؛ بغفران الشرك به»[2].

---

(١) الفرق بين الفرق، ص ١١٨.

(٢) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ٦٥، ص ٦٨.

وقد أوجب المعتزلة؛ تبعًا لمذهبهم في مرتكب الكبيرة، خلود صاحبها بلا دليل صحيح يسند هذا الرأي المبتدع، وكان أتباعهم إذا سمعوا علماء السلف سرعان ما يرجعون عن الاعتزال إلى معتقد أهل السنة، والجماعة؛ فقد روى الخطيب البغدادي عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا امْتَحَشُوا (احترقوا)، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»، فقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير، قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»، قال: فقال له رجل: يا أبا عاصم، ما هذا الحديث الذي تُحَدِّثُ به؟ قال: فقال عبيد بن عمير: إياك أعني يا علج، فلو لم أسمعه من ثلاثين رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما حدثته، قال سفيان بن عيينة: فقدم علينا عمرو بن عبيد، ومعه رجل تابع له على هواه، فدخل عمرو في الحجر يصلي فيه، وخرج صاحبه على عمرو بن دينار، وهو يُحَدِّثُ عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ، قال: فرجع إلى عمرو بن عبيد، فقال له: يا ضَالُّ، أما كنت تخبرنا أنه لا يخرج أحد من النار؟ قال: بلى، قال: فهو ذا عمرو بن دينار يذكر أنه سمع جابر بن عبدالله يَقُولُ: قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»، قال: فقال عمرو بن عبيد: هذا له معنًى لا تعرفه، قال: فقال الرجل: وأَيُّ معنًى يكون لهذا؟ قال: ثم قلب ثوبه من يومه، وفارقه»[1].

وقد أثبت ابن المرتضى في كتابه جدالًا حصل بن عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، حول مرتكب الكبيرة، لا ندري مدى صحته؛ فقد عَوَّدَنَا ابن المرتضى على اختلاق مثل هذه النقاشات، قال واصل: يا أبا عثمان، لِمَ اسْتَحَقَّ مرتكب الكبائر اسم النفاق؟ قال: لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، ثم قال: إن المنافقين هم الفاسقون؛ فكان كل فاسق منافقًا؛ إذ كان الألف واللام موجودين في باب الفسق، فقال واصل: أليس الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ

(١) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١١٧.

ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فَعَرَّفَ بالألف، واللام؛ كما في القاذف، فسكت عمرو، ثم قال واصل: ألست تزعم أن الفاسق يَعْرِفُ الله؟ ثم قال: يا أبا عثمان، أيهما أولى أن يُسْتَعْمَلَ من أسماء المحدثين: ما اتفقت عليه الفِرَق من أهل القبلة، أو ما اختلفت فيه؟ فقال عمرو: بل ما اتفقت عليه، فقال: أو ليس تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقًا، ويختلفون فيما عداه من أسمائه، فالخوارج تسميه كافرًا أو فاسقًا[1]، والمرجئة تسميه مؤمنًا فاسقًا، والشيعة تسميه كافرَ نِعْمَةٍ، فاسقًا، والحَسَنُ يسميه منافقًا فاسقًا، فأجمعوا على تسميته بالفسق؛ فنأخذ بالمتفق عليه، ولا نسميه بالمختلف فيه؛ فهو أشبه بأهل الدين، فقال عمرو: ما بيني وبين الحق عداوة، والقول قولك، وأُشْهِدُ من حضر أني تارك ما كنت عليه من المذهب، قائل بقول أبي حذيفة، فاستحسن الناس ذلك من عمرو؛ إذ رجع عن قول كان عليه إلى قول آخر من غير تشغيب، واستدلوا بذلك على ديانته»[2].

وهذا الاستدلال والإقناع هو، والله أعلم، من تأليف المتأخرين من المعتزِلة؛ ليقنعوا الناس بقول واصل بالمنزلة بين المنزلتين، وكما قيل، فإن واصلًا قد لا يكون خطر على باله مثل هذا التوجيه لفكرته التي قال بها، وقد كان عمرو بن عبيد يمثل الجرأة القبيحة في بيان هذه البدعة؛ فعن قريش بن أنس قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: «يُؤْتَى بي يوم القيامة، فَأُقَامُ بين يدي الله، فيقول لي: أَقُلْتَ إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلته، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، حتى إذا فرغ من الآية، قلت، وما في البيت أصغر مني: أرأيت إن قال لك: أنا قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر لهذا؟؟ فما رَدَّ عليَّ شيئًا»[3].

وبهذه الصورة المنكرة كان أهل البدع يقررون انحرافاتهم؛ برد كتاب الله،

---

(١) لم يقل الخوارج بأن مرتكب الكبيرة فاسق بل تسميه كافرا.

(٢) المنية والأمل، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) العقيلي، الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٨١.

وأحاديث رسوله؛ فكان لهم من علماء الأمة، وعامتها، المقت، والكراهية الدائمة؛ بسبب إحداثهم في دين الله ـ عز وجل.

الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي بَنَى عَلَيْهِ وَاصِلٌ بِدْعَتَهُ هُوَ نَفْيُ الصِّفَاتِ، وَتَأْوِيلُهَا: يقول الشهرستاني: «القول بنفي صفات الباري ـ تعالى ـ؛ من العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، وكانت هذه المقالة في بدئها غير نضيجة، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين، قال: ومن أثبت معنى صفة قديمة، فقد أثبت إلهين»[1]، ولعل مصدر هذا التصور الباطل هو مجالس الثنوية، والمجوس، والجعد بن درهم، والجهم بن صفوان؛ فكيف غفلت الأمة عن هذا الأصل العظيم، حتى يأتي مثل هؤلاء لينزهوا البارئ على هذه الكيفية المنكرة، من نفي الصفات الإلهية، وتعطيلها، والتسلط عليها بالتأويل، وقد سبق أن عرضنا لمناقشة الجهم السمنية، واستعانته بواصل[2]؛ مما يجعلنا نتساءل عن أثر السمنية في فكر واصل، ومجالس الثنوية التي كان يدار فيها مثل هذا الجدال، على هذه الطريقة المبتدعة، فلعل انفتاح واصل مع هذه الملل بالجدال، والمناقشات، هو الذي أوصله إلى هذا التصور القاصر، المخالف لعقيدة الأمة، في أسماء الله، وصفاته.

وبعد انهيار الدولة الأموية التي قاومت هذه التيارات المنحرفة، التي قتل في عهدها غُلَاةُ الشيعة، ونُفَاةُ الصفات؛ مثل: الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وغلاة القدرية؛ كغيلان، وأصحابه، اتحدت هذه الاتجاهات المنحرفة، وانضوت تحت لواء المعتزلة النفاة، وقد عمدوا إلى آيات الكتاب العزيز، وأحاديث الرسول ﷺ، وما فيهما من صفات الإله الحق، ففتحوا فيها باب النقاش والجدال، بقصد تعطيلها، وتأويلها عن مراد الحق ـ سبحانه ـ منها؛ حيث شرع عمرو بن عبيد يتوسع في الإنكار، والتكذيب، وسوف نعرض لنموذج من آرائه المنحرفة في هذا الباب.

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٦.

(٢) انظر ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٤٣.

فقد كان عمرو بن عبيد، وتبعًا لمذهبه القدري، ينفي العلم الإلهي؛ فقد روى الخطيب عن سعيد بن عامر (ت ٢٠٨هـ)، قال: «سمعت أبا بحر البكراوي، قال: قال رجل لعمرو بن عبيد، وقرأ عنده هذه الآية: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾، فقال له: أخبرني عن ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، كانت في اللوح المحفوظ؟ فقال: ليس هكذا كانت، فقال: وكيف كانت؟ فقال: «تبت يدا من عمل بمثل ما عمل أبو لهب»، فقال له الرجل: هكذا ينبغي أن تُقْرَأَ إذا قمنا إلى الصلاة، فغضب عمرو، فتركه حتى سكن، ثم قال له: يا أبا عثمان، أخبرني عن ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ كانت في اللوح المحفوظ؟ فقال: ليس هكذا كانت، قال فكيف كانت؟ قال: «تبت يدا من عمل بمثل ما عمل أبو لهب»، قال: فردد عليه، فقال عمرو: إن علم الله ليس بشيطان، إن علم الله لا يضر، ولا ينفع»[1].

هكذا كان تصور عمرو بن عبيد عن الإله الحق، وعندما جاء مِن بعده مَن أظلمت قلوبهم، وقصرت عقولهم، صاروا يتحكمون في النصوص القرآنية، ويردون الأحاديث النبوية في الصفات، تحت مظلة التنزيه، التي عطلوا من خلالها الصفات، واتهموا الصحابة، والتابعين، بأنهم كانوا لا يفهمون معاني الصفات الإلهية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هؤلاء المتكلمين: «كيف يكون هؤلاء المحجوبون، المنقوصون المسبوقون، الحيارى، المتهوكون ـ أعلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأحكم في باب ذاته، وآياته، من السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان من وَرَثَةِ الأنبياء، وخُلَفَاءِ الرسل، وأعلام الهدى، ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم، والحكمة، ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلًا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم؟ ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم، والحكمة، لا سيما العلم بالله، وأحكام أسمائه، وآياته، من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة، وأتباع الهند، واليونان،

(١) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٢.

وَوَرَثَةِ المجوس، والمشركين، وضُلَّالِ اليهود، والنصارى، والصابئين، وأشكالهم، وأشباههم ـ أعلم بالله من ورثة الأنبياء، وأهل القرآن، والإيمان؟»(١).

ويتخذ الدكتور النَّشَّار المعاذير لواصل، والمعتزلة، في نفيهم الصفات؛ فيقول:

«**أولًا**: كان أَمَامَهُ المشَبِّهَةُ، والحشوِيَّةُ، وكانت المُقَاتِلِيَّةُ تنشر آراءها في كل مكان، ويحتل شيخها مقاتل بن سليمان مكانًا مرموقًا لدى المسلمين، فوقف واصل كما وقف جهم لهم بالمرصاد.

ثانيًا: [وهذا هو الواضح وضوحًا أكثر في النص] أنه كان يرمي بنفي الصفات إلى إنكار المذهب الثنوي، فهو يتكلم عن امتناع، وجود قديمين أزليين، وأن إثبات المعنى، والصفة القديمة، هو إثبات إلهين»(٢).

وهذه معاذير باطلة، فهذا التصور الذي ألجأته إليه الثنوية، والمجوس؛ كما يقول الدكتور النَّشَّار، هو نوع من رفض ما جاء به الكتاب، والسنة، وعقيدة الأمة، المتميزة في صفات الله ـ تعالى ـ، فما كان المُثْبِتُ لها أبدًا يلزمه ما فَهِمَهُ واصل، وغيره من ضُلَّالِ المتكلمين، ولكن الذي أحدثه واصل، وأتباعه، هو الخروج عن المنهج الحق في الاعتقاد في أسماء الله، وصفاته، وهذا لا يمكن أن تُقْبَلَ فيه المعاذير، إذا علمنا أن المعتقد الحق موجود، وأغلبية المسلمين تدين به.

٤ـ الأَصْلُ الرَّابِعُ الَّذِي انْبَنَى عَلَيْهِ ابْتِدَاعُ وَاصِلٍ، وَعَمْرٍو، رَأْيُهُمَا فِي الصَّحَابَةِ، وَأَحْدَاثِ الْفِتْنَةِ: وبهذا الأصل تبدو لنا المعتزلة، وحقيقة دوافعها، بأحكامها الباطلة حول الصحابة؛ فهم لم يلتزموا بما التزم به السلف الصالح من السكوت عن الصحابة، وعدم الخوض في خلافاتهم إلا بما هو حسن، وجميل، بل انطلقوا يحكمون عليهم بالفسق، ثم إنهم أول من خرج على منهجهم في الاعتقاد، وردوا الأخبار التي جاءوا

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٥، ص ١١ ـ ١٢ بتصرف، وانظر الصواعق المرسلة، ج١، ص ١٦٩ المحققة.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص ٣٩٢.

بها، مُقَدِّمين عقولهم القاصرة على أقوالهم، ورواياتهم، وبذلك تكتمل حلقات الابتداع التي تولاها رءوس المعتزِلة.

يقول عبدالقاهر البغدادي عن واصل بن عطاء: «ثم إن واصلًا فارق السلف ببدعة ثالثة؛ وذلك أنه وجد أهل عصره مختلفين في علي، وأصحابه، وفي طلحة، والزبير، وعائشة، وسائر أصحاب الجمل، فزعمت الخوارج أن طلحة، والزبير، وعائشة، وأتباعهم يوم الجمل، كفروا بقتالهم عليًا، وأن عليًا كان على الحق في قتاله أصحاب الجمل، وفي قتال معاوية بصفين، إلى وقت التحكيم، ثم كَفَرَ بالتحكيم، وكان أهل السنة، والجماعة، يقولون بصحة إسلام الفريقين في حرب الجمل، وقالوا: إن عليًا كان على الحق في قتالهم، وأصحاب الجمل كانوا عُصَاة مخطئين في قتال علي، ولم يكن خطؤهم كفرًا، ولا فسقًا يُسْقِطُ شهادتهم، وأجازوا الحكم بشهادة عدلين من كل فرقة من الفريقين.

وخرج واصل على قول الفريقين، وزعم أن فرقة من الفريقين (فَسَقَةٌ) لا بأعيانهم، وأنه لا يعرف الْفَسَقَةَ منهما، وأجازوا أن يكون الفسقة من الفريقين عليًا، وأتباعه؛ كالحسن (ت٥١هـ)، والحسين (٦١ هـ)، وابن عباس (ت ٦٨هـ)، وعمار بن ياسر (ت ٣٧هـ)، وأبي أيوب الأنصاري (ت ٥٢هـ)، وسائر من كان مع علي يوم الجمل، وأجاز كون الفسقة من الفريقين؛ كعائشة (ت ٥٨هـ)، وطلحة (ت ٣٦هـ)، والزبير (ت ٣٦هـ)، وسائر أصحاب الجمل، ثم قال في تحقيق شكه في الفريقين: لو شهد علي، وطلحة أو علي والزبير، أو رجل من أصحاب علي، ورجل من أصحاب الجمل، عندي على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق، لا بعينه، كما لا أحكم بشهادة المتلاعنين؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق، لا بعينه»[1].

أما عمرو بن عبيد، فقد قال «بفسق كلتا الفرقتين المتقاتلتين يوم الجمل؛ وذلك أن

(١) الفرق بين الفرق، ص ١١٩ - ١٢٠.

واصلاً إنما رد شهادة رجلين، أحدهما من أصحاب الجمل، والآخر من أصحاب علي رضي الله عنه، وقَبِلَ شهادة رجلين كلاهما من أحد الفريقين، وزعم عمرو أن شهادتهما مردودة، وإن كان من فريق واحد؛ لأنه قال بفسق الفريقين معًا»[١].

والحقيقة أن لا فرق بين رأي واصل، وعمرو؛ فرأي واصل يؤدي إلى رأي عمرو، وباعتبار أن واصلاً لم يحدد الفاسق منهما، فهو بهذا الاعتبار فَسَّقَ الجميع؛ لأنه يتحدث عن صحابة؛ فتفسيق واحد منهم يطعن في الجميع، ولكن عمرو بن عبيد له مع الصحابة شأن آخر؛ فهو جريء بطرح ضلالاته؛ فكان يطعن في عثمان رضي الله عنه، ويقول عنه إنه ليس صاحب سنه؛ «روى الخطيب البغدادي عن معاذ بن معاذ قال: قلت لعمرو بن عبيد: كيف حديث الحسن أن عثمان ورث امرأة عبدالرحمن بعد انقضاء العدة؟ فقال: إن عثمان لم يكن صاحب سنة»[٢].

وكان يكذب على الحسن البصري ـ رحمه الله ـ، ويروي عنه كلامًا باطلًا في حق علي رضي الله عنه؛ فعن سماك بن عطية قال: «كنت عند أيوب، فحدثه رجل عن عمرو بن عبيد أن الحسن قال: لم يزل علي مسددًا موفقًا حتى حَكَّمَ الحكمين، فقال أيوب: كَذِبَ عمرو بن عبيد؛ ما قال الحسن هذا قط، فذهب الرجل ثم رجع، فقال: أخبرت عمرًا، فقال: أما إني لم أسمعه، إنما حدثني به فلان»[٣].

وكان يكذب على الحسن؛ فيزعم أنه قال: «إذا رأيتم معاوية على المنبر فاقتلوه، فقال أيوب: كذب عمرو»[٤].

وكان يلعن الصحابة ـ لعنة الله على من لعنهم ـ، وكان يرد حديثًا رواه سمرة بن جُندب رضي الله عنه، قال: حفظت عن النبي ﷺ سكتتين: سكتة بعد تكبيرة الإحرام، وسكتة حين يفرغ من القراءة، فقال: يحيى بن سعيد: قلت لعمرو بن عبيد: كيف حديث

---

(١) المصدر السابق، ١٢١.

(٢) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٦.

(٣) ، (٤) العقيلي، الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

الحسن (يعني في السكتتين في التكبير)؟ فقال: ما نصنع بسمرة، قَبَّحَ الله سمرة»[١]، بل قَبَّحَ الله من لعن الصحابة، أو سبهم، أو تقدم برأيه على أقوالهم، ومعتقداتهم، وكان يقول عن علي، وعثمان، وطلحة، والزبير: لو شهدوا عندي على شراك نعل ما أجزته»[٢].

إن هذه المواقف المخزية تجاه صحابة رسول الله ﷺ تُوَافِقُ مذهب المعتزلة الذين ردوا معظم أحاديث العقيدة، وردوا معظم العقائد التي جاءت بها أخبار الآحاد؛ لعدم ثبوتها، حسب آرائهم الفاسدة، وأغفلوا كرامات الصحابة، وفضائلهم، وراموا البحث عن فضائل رجال الاعتزال؛ ليتولوا الحكم على الصحابة هذه الأحكام الفاجرة.

بَعْضُ الْأَقْوَالِ الَّتِي انْفَرَدَ فِيهَا عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ:

لقد انفرد عمرو بن عبيد في مبتدعات كثيرة، زاد بها على واصل، ونريد أن نثبتها، محاولين تقريب الصورة الحقيقية لعمرو بن عبيد الذي امتدت حياته حتى سنة (١٤٤هـ)، والذي أسهم في تأسيس مدرسة الاعتزال، بانحرافاتها العقدية المعروفة.

فقد نسب بعض علماء السلف عمرو بن عبيد إلى الخوارج، وكأنه كان يرى رأيهم، ويدعو إلى حمل السيف على خُلَفاء الأمة؛ فقد روى الفسوي (ت ٢٧٧هـ) عن سَلَّام بن أبي مُطِيع (ت ١٧٣هـ) قال: قال رجل لأيوب السختياني (ت ١٣١هـ): يا أبا بكر، إن عمرو بن عبيد قد رجع عن رأيه، قال: إنه لم يرجع، قال: بلى، يا أبا بكر، إنه قد رجع، قال أيوب: إنه لم يرجع (ثلاث مرات)؛ أما سمعت إلى قوله ﷺ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[٣].

وهناك من الإشارات القوية ما يؤيد ما ذهب إليه الإمام السختياني ـ رحمه الله ـ؛ فقد روى العقيلي (ت ٣٢٢هـ)، عن حميد بن إبراهيم، قال: «سألت عمرو بن عبيد عن هذه الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، قال: قلت

---

(١) ، (٢) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٦ - ١٧٨.

(٣) البسوي، التاريخ والمعرفة، ج٣، ص ٤٩٣.

هم أهل الشام؟ قال: نعم»[١].

وعن معاذ بن معاذ قال: «شهدت عمرو بن عبيد، وذُكِرَ له أن أهل السُّجُون يركبون الفواحش، وذَكَرَ أمورًا قبيحة، فقال عمرو: لو بدأنا بهؤلاء (يعني السلطان)، يخرج عليهم بالسيف»[٢].

وكانت لعمرو بن عبيد صِلَاتٌ مشبوهة؛ حيث قال حميد بن إبراهيم: «كان عمرو بن عُبَيْدٍ يأتينا السوق أصحاب البصري، إلى دكان عبد الأعلى بن أبي حاضر، فكان إذا قام أَتْبَعُهُ أَتَعَلَّمُ من هيئته، وسمته، حتى إذا كان ذات يوم قام فاتبعته، حتى إذا دخل مسجده، فقعد فيه، وقفاه إلي، فأتاه رجلان غريبان من أهل الجبال، فدنوا إليه، فقالا له: يا أبا عثمان، ما ترى فيما يوطأ في بلادنا من الظلم، قال: موتوا كرامًا، قال: ثم التفت إلي، فقال: لا تزال تغمنا»[٣].

ومن آراء عمرو بن عبيد الشاذَّة رؤيته عدم جواز صلاة الجمعة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وهذا فيه تعطيل لفرائض الإسلام، وعدم اعتراف بكل الخلفاء الذين جاءوا بعد عثمان رضي الله عنه فقد روى ابن عدي (ت ٣٦٥هـ) عن هارون بن موسى قال: «كنا عند يونس بن عبيد (ت ١٣٩هـ)، فجاء عَبَّاد بن كثير، فقلت: من أين؟ قال: من عند عمرو بن عبيد، أخبرني بشيء، واستكتمني، قلت؛ وما هو: قال: لا جمعةَ بعد عثمانَ بن عفان»[٤].

وكان علماء السلف يتهمونه أنه من الدهرية؛ قال ابن حِبَّان (ت ٣٥٤هـ) عن يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ)، قال: «كان عمرو بن عبيد رجل سوء من الدهرية، قلت: وما الدهرية؟ قال: الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع، وكان يرى السيف»[٥].

---

(١) الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٨٣.

(٢) الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٨٤.

(٣) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٨٣.

(٤) الكامل في الضعفاء، ج٥، ص ١٧٥٢

(٥) المجروحين، ج٢، ص ٧٠، وانظر الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص ٢٤٢، والسير، ج٦، ص ١٠٤،. وميزان الاعتدال، ج٣، ص ٢٨٠.

وقال سلام بن أبي مُطِيع: «لأنا أرجى للحجاج بن يوسف مني لعمرو بن عبيد، إن الحجاج بن يوسف إنما قَتَلَ الناس على الدنيا، وإن عمرو بن عبيد أحدث بدعة؛ فقتل الناس بعضهم بعضًا»(١).

٤ـ مَوَاقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَرِجَالِهَا الأَوَائِلِ:

إن طبيعة التركيبة السكانية لهذا العصر الذي نؤرخ له عَقَدِيًّا تمتاز بالتباين في الفهم، والموروثات العقدية؛ فجمهور الأمة فيه من مختلف الأعراق، والأجناس؛ ففيه العربي، والفارسي، والقبطي، والبربري، والرومي، ومنهم المخلص في عقيدته، ومنهم المنافق الحاقد الحاسد، الذي يرقب أي حركة هدَّامة للانضمام إليها لحرب هذا المجتمع، وتحطيم عقيدته بالابتداع في دينه، وبذر الشبهات في أوساطه، ومن أبرز طبقات هذا المجتمع طبقة العلماء من الصحابة، والتابعين الذين ورثوا الفَهْمَ الصحيح لهذا الدين؛ فكانوا هم الدرعَ الواقِيَ من الشبهات الباطلة، وقاموا ببيان المعتقد الصحيح، ودفعوا عنه كل عوادي البدع الباطلة، ثم طبقة تابعي التابعين، الذين حملوا راية العقيدة، والشريعة، من أسلافهم الأبرار، وذادوا عن حمى العقيدة، حينما تكالبت عليها فرق الضلال، فكانت مجالس العلم التي تُعْقَدُ، وتُؤَصَّلُ فيها المسائل، ويُطْرَحُ فيها منهج السلف، واضحًا جليًّا، ثم يَعْرِفُ الناس بكل أشكال البدع التي تدور رَحَاها في هذا الوسط الواسع؛ فحموا العقيدة، ونافحوا عنها، وهزموا أرباب البدع في كل مواقعهم، ولله الحمد.

أمام هذا الواقع العَقَدِي الصحيح، الذي كانت تستنير بنوره الأمة، وتمنع قوى الضلال، والبدعة، من الدعوة لباطلها، يمكن لنا أن نعرف من خلاله دقائق البدع المزيفة، والْمُوَشَّاة بوشي العلم، والعبادة، والتقشف، ولم يكن أرباب البدعة يجرءون على مواجهة الأمة بإنكار معتقداتها صراحة، بل كانوا يلبسون على الناس مبتدعاتهم؛ عن طريق رسوم الزهد، والتقوى المزعوم؛ لايصال ضلالاتهم، وبدعهم، إلى جمهور

---

(١) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٨٣.

العامة؛ فعندما ظهرت بدعة القدرية، أنكرها الصحابة، والتابعون، أشد الإنكار، وكان لضغط العلماء، وجمهور الأمة، الفضل الأكبر في قيام الخلفاء في قمع أولئك المبتدعة، وقتلهم، ونفيهم بالأمصار، جزاء إنكارهم لأصل من أصول الإسلام؛ وهو القدر، وكان ذلك هو العمل الصحيح، حتى لا يتسع نطاق هذه البدعة الضالة، ولكن أولئك المبتدعة النفاة اتجهوا إلى السرية، والتخفي، فقاموا بطرح اسم المعتزِلة كبديل لمسمى القدرية.

وأمام هذه الهجمة البِدَعِيَّةِ الخطرة من القدرية، وغيرهم، كان السلف منتبهين إلى مثل هذه الحيل، وبفضل الله ـ تعالى ـ استطاع سلف الأمة الصالح الكشف عن بدع واصل، وعمرو بن عبيد، وإدخالهم في دائرة المقت؛ بسبب بدعتهم، وخروجهم عن منهج الأمة الحق، وتُعْتَبَرُ عملية تصنيف أشخاص المبتدِعَةِ هي الخطوة الأساسية الأولى التي ينبني عليها موقف الأمة، وعلمائها، فينظر إلى هؤلاء نظرة شك، وارتياب في أقوالهم، وأفعالهم، وجميع ما يصدر عنهم.

وإن لفظ البدع، والابتداع، يُعْتَبَرُ مصطلحًا صادقًا، ينطبق تمام الانطباق على هذه المرحلة؛ لقربهم من عهد النقاء، والصفاء؛ عهد النبوة المبارك، وعهد الصحابة الكرام، وعهد التابعين ـ عليهم رحمة الله ـ، ويكفي إطلاق هذا اللفظ على شخص، أو فرقة؛ ليصعها في مقام المخالف لهذه العهود المباركة، النقية في عقيدتها، وشريعتها، وسلوكياتها، وهذا الابتداع الذي جاء به المبتدعة هو اختراع دين جديد، وعدم الرضاء بما أكمله الله ـ تعالى ـ؛ في هذا يقول الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) ـ رحمه الله ـ: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»(١).

يُضَاف إلى ذلك وضع تسمية خاصة لأهل البدعة، تميزهم عن جمهور الأمة، الذين يدينون بالعقيدة الصحيحة؛ عقيدة السلف الصالح؛ ولذلك أطلقوا عليهم

---

(١) الشاطبي، الاعتصام، ج١، ص ٩، نشر محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية، مصر.

تسميات مثل الخوارج، والقدرية، والمعتزِلة، والمرجئة، والمُشَبِّهَةِ، والشيعة، وهذا التصنيف لأهل الابتداع يمثل نوعًا من التحذير للأمة من الثقة بأصحابها، أو التعامل معهم، ويمنعهم من الدعوة لمبتدعهم في وسط جمهور الأمة، وقد توجهت جهود علماء السلف منذ بروز بدعة المعتزِلة إلى اعتبارهم من المبتدعة؛ ولذلك أصابوا كبد الحقيقة عندما صنفوهم من أحد أصناف القدرية.

وقد تعرضت شخصية الرجلين: واصل، وعمرو، للنقد الشديد، وإن كان النقد الأكبر موجَّهًا إلى عمرو بن عبيد، الذي عاش ثلاثة عشر عامًا بعد واصل، وقد كثرت آراؤه الشاذة، والقبيحة، وقد أتاح امتداد عمره بهذا الشكل لعلماء عصره التعرف على حقيقة معتقده، وتقشفه، وعبادته المزعومة، وسوف نعرض لمواقف أهل السنة من هذه الدعوة، ومن رجالها، وهو نموذج يُعَبِّرُ تعبيرًا صادقًا عن قوة علماء السلف، وسيادة منهجهم على الأمة، واندحار المبتدعة أمامهم، وأن هذه الصور التي سنعرضها تبين لنا تهافت أرباب البدع، واشتهارهم أمام عامة الناس بالبدعة، والانحراف، وهذا هو التوجيه الصحيح لمعرفة عامة أهل البصرة بأرباب البدع، لا أن هؤلاء العامة كانوا يدينون بهذه الآراء البدعية، كما رَوَّجَ لذلك المستشرقون، ومن تابعهم من الكُتَّاب في العصر الحديث، وسوف نعرض، فيما يلي، لمواقف علماء السلف، والمعتزِلة.

الْكَشْفُ عَنِ ابْتِدَاعِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُمْ:

لم يكن المعتزِلة، وغيرهم من أهل البدع، يجرءون على القول بآرائهم صراحة، وإنما كانوا يَتَّبِعُونَ أسلوب التلبيس الغامض على الناس، وقد لا يستطيع أي أحد أن يكشف هذا التلبيس، إلا إذا سأل العلماء؛ فقد روى العقيلي عن حماد بن زيد (ت ١٧٩هـ)، قال: قال أيوب (١٣١هـ): «سألت البري، فقلت: لِمَ تَأْتِي عمرو بن عبيد؟ قال: إني أجد عنده أشياء غامضة، قال أيوب: مِنَ الغامض أفرقُ»[(١)]، أو «أفرّ»[(٢)].

وفي رواية عن حماد بن زيد قال: «كان رجل من أصحابنا يختلف إلى أيوب، ثم

---

(١) ، (٢) العقيلي، الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٧٨، والخطيب، تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٥.

انقطع عنه، واختلف إلى عمرو بن عبيد، فجاء إلى أيوب يومًا، فقال له: بلغني أنك تختلف إلى ذلك الرجل، قال: نعم، يا أبا بكر، عنده غرائب، قال: من تلك الغرائب نفِرُّ»[1].

ونريد أن نتساءل: ما تلك الغرائب؟ هل هي مواعظ مغلفه بعقائد فاسدة عن القدر، والأسماء، والصفات، أم هي أقاصيص، وأفكار غريبة لم يتبين معناها؛ لا هي بدعة، ولا سنة؟ إن هذه الغرائب التي استهوت بعض طلبة العلم، ووقف منها علماء السلف موقف التحذير، والتخويف، ما هي إلا محاولة لجذب انتباه الناس إلى عمرو، وواصل، فيما يحاولونه لنشر بدعهم الاعتزالية، التي كانت في مرحلة التأسيس، ولم يُعْلِنِ القوم عنها بعدُ.

ومِمَّا يدلل على غموض بدعة المعتزِلة في بدايتها، واعتبار بعض العلماء عمرو بن عبيد من العلماء الذين لا يجوز الوقوع بهم، ما رواه العقيلي (ت ٣٢٢هـ)، وغيره، عن عاصم الأحول (ت ١٤٢هـ)، قال: «كان قتادة (ت ١١٧هـ) يَذْكُرُ عمرو بن عبيد، ويقع فيه، قال: فَجَثَوْتُ على ركبتي، فقلت: يا أبا الخطاب، وإذا الفقهاء يقع بعضها في بعض! فقال: يا أحول، رَجُلٌ ابتدع بدعة، فتُذْكَرُ بدعته خير من أن نكف عنها، قال: فرأيت عمرو بن عبيد في المنام، وهو معلق المصحف، يحك آية من القرآن، قلت: ما تصنع؟ قال: إني أعيدها، قال: فَحَكَّهَا، قلت: أعدها! قال: لا أستطيع»[2].

وفي رواية: قال: «يا أحول، أَوَلَا تدري أن الرجل إذا ابتدع بدعة، فينبغي لها أن تُذْكَرَ حتى تُحْذَرَ؟»[3].

فهل خفي أمر عمرو بن عبيد على عاصم هذا، وغيره من العلماء، حتى عَدَّهُ من الفقهاء؛ ولذلك سأل قتادة هذا السؤال، وقام قتادة بوضع أساس هام من أسس التعامل

(١) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٧٨.

(٢) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٨٠.

(٣) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٩.

مع كل مبتدع في دين الله، بذكرهم، والتحذير منهم، ومن بدعهم، والتشهير بهم بين الناس؛ حتى لا يلبسوا على الناس بظاهر الزهد، والتقشف.

عَدَمُ الرِّوَايَةِ عَنْ عَمْرٍو، وَتَحْقِيرِهِ:

وقد يتبادر إلى الذهن إشكال؛ وهو أن عمرو بن عبيد له روايات في كتب السنن، وقد أحصى هذه الروايات ابن عدي (ت ٣٦٥هـ) في كتابه «الكامل في ضعفاء الرجال»، فما السبب في الرواية عنه، مع أنه قد جُرِّحَ أشدَّ التجْرِيحِ؟ وقد أجاب علماء السلف عن هذا الإشكال؛ فمنهم من يرى أنه قد أُخِذَ عنه قبل إحداثه، وابتداعه؛ فقد روى البسوي (ت ٢٧٧هـ) عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)، قال: «حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى العنبري عن عمرو بن عبيد قبل أن يُحْدِثَ»[١]؛ فهذا النص شاهد أنهم قد حددوا الأخذ عنه، قبل الإحداث، وروى العقيلي أن عبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ) قِيلَ له: «تركْتَ عمرو بن عبيد، وتُحَدِّثُ عن هشام الدستوائي (ت ١٥٤هـ)، وسعيد، وفلان، وهم كانوا في عداده (أي قدرية)؟ قال: إن عمرًا كان يدعو»[٢]، وفي رواية: قال: «وَكَانَا سَاكِتَيْنِ»[٣].

وقال ابن المبارك: «كان عمرو بن عبيد يدعو إلى القدر، فتركوه»[٤]، وقد كانت هذه المقاطعة مبكرة في حياة الحسن البصري ـ رحمه الله ـ؛ فعن يحيى البَكَّاء (ت ١٣هـ) قال: «كانت رِقَاعٌ تجيء إلى الحسن، فإذا عَلِمَ أنها من قِبَلِ عمرو بن عبيد لم يُجِبْ فيها»[٥].

ويعقب ابن عدي (ت ٣٦٥هـ) ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق الروايات التي رواها عمرو بن عبيد؛ فقال: «وعمرو بن عبيد قد كفانا السلف مئونته؛ حيث بيَّنوا ضعفه في

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج٢، ص ٢٥٩.
(٢) الضعفاء الكبير، ج٣، ص ٢٧٧.
(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ة٦، ص ٢٤١.
(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص ٢٣٨.
(٥) الكامل في الضعفاء، ج٥، ص ١٧٥٠.

رواياته، وبينوا بدعته، ودعاءه إليها، ويغر الناس بنسكه، وللسلف فيمن يُنْسَبُ إلى الصلاح كلام كثير، حتى قال يحيى القطان: ما رأيت قومًا أصرح بالكذب من قوم يَنْسِبُونَ إلى الخير، وكان يغر الناس بنسكه، وتقشفه، وهو مذموم، ضعيف الحديث جدًّا، معلن بالبدع، وقد كفانا ما قال فيه الناس»[1].

وكان السلف ينهون عن الأخذ عنه، وينسبونه للكذب؛ فقد قال أيوب السختياني (ت ١٣١هـ)، ويونس بن عبيد (ت ١٣٩هـ): «كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث»[2]، وكان حميد يقول لحماد بن سلمة: «لا تَأْخُذَنَّ عن هذا شيئًا؛ فإنه يكذب على الحسن؛ يعني عمرو بن عبيد»[3]، ولأنه كان يدعو للقدر، والاعتزال، كانوا لا يأخذون عنه ـ أيضًا ـ، ولما سُئِلَ يحيى بن معين عن عمرو بن عبيد، فقال: «لا تكتبْ حديثه، فقال له: كان يكذب؟ فقال: كان داعية إلى دينه، فقلت له: فلم وثقت قتادة (ت ١١٧هـ)، وسعيد بن أبي عروبة (ت ١٥٠هـ)، وسلام بن مسكين (ت ١٦٤هـ)؟ فقال: كانوا يصدقون في حديثهم، ولم يكونوا يدعون إلى بدعة»[4].

وكان يلبس في الرواية؛ ليُفْهَمَ منه خلاف ما يقول؛ فعن سفيان بن عيينة قال: «سُئِلَ عمرو بن عبيد عن مسألة، فأجاب فيها، وقال: هذا من رأيِ الحسنِ، فقال له رجل: إنهم يروون عن الحسن خلاف هذا، فقال: إنما قلت: هذا من رأْيِي الحسنِ؛ يريد نفسه»[5].

إِهَانَتُهُ، وَتَحْقِيرُهُ:

حيث كان سلام بن مطيع (ت ٦٤هـ) يقول: «حدثنا المكتوم عمرو بن عبيد»[6]، وذُكِرَ عمرو بن عبيد عند سعيد بن عامر (ت ٢٠٨هـ) في شيء قاله، فقال: «كذب، وكان من الكاذبين الآثمين، وذَكَرَ سعيدٌ يومًا رجلًا لم يُسَمِّهِ، فقال: كان المسكين بارًّا

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال، ج٥، ص ١٧٦٣.

(٢) ابن حبان، المجروحين، ج٢، ص ٧٠.

(٣) ، (٤) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٨,

(٥) ابن عدي، الكامل، ج٥، ص ١٧٥٠، وانظر الجرح والتعديل، ج٦، ص ٢٤٧.

(٦) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٧٨.

بأمه، ولكن كان مبتدعًا، فقيل له: عمرو بن عبيد هو يا أبا محمد؟ فقال: لا، ولا كرامة لعمرو، وكان عمرو أقل من ذلك، وأرذل من ذلك»[١].

وعن محمود بن غيلان (ت ٢٤٩هـ) قال: «سمعت قريش بن أنس قال: حدثنا عمرو بن عبيد، ثم قال: وما تصنع بعمرو بن عبيد؟ كَفٌّ من تراب خير منه»[٢]، وكان أيوب السختياني يقول: «ما فعل الْمَقِيتُ؟ يعني عمرو بن عبيد»[٣]، وكان أيوب يقول عنه إنه أهوج[٤]، وقال أيوب ـ أيضًا ـ: «ما زال عمرو بن عبيد رقيعًا منذ كان»[٥]، وكان حماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ) يقول: «ما كان عمرو بن عبيد عندنا إلا عرة (أي ذرق الطير، أو البعير) »[٦].

عَدَمُ السَّلَامِ عَلَيْهِ أَوْ رَدُّ سَلَامِهِ:

قال عبدالوهاب الخَفَّاف (ت ٢٠٤هـ): «مررت بعمرو بن عبيد، وهو وحده، فقلت: مالك تركوك؟ فقال: نَهَى ابن عون الناس عنا، فانتهوا»[٧]، وهذا النهي من عالم واحد، وكان التزام الناس به هكذا، فكيف إذا أجمع علماء الأمة على هذا النهي، وهذا يُدَلِّلُ على أن أمر الابتداع كان منكرًا، وغريبًا غاية الغرابة، بفضل الله، الذي وفق هؤلاء العلماء لكشف هؤلاء المبتدعة.

وقد كانوا يمثلون أسمى معاني العزة في عقيدتهم، وسلوكهم؛ فعن حماد بن زيد، قال: «كنت مع أيوب، ويونس، وابن عون، وغيرهم، فمر بهم عمرو بن عبيد، فسلم، ووقف وقفة، فما ردوا عليه، ثم جاز، فما ذكروه»[٨].

---

(١) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٧٨.

(٢) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٧٩.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٩.

(٤) ، (٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٦) ابن عدي، الكامل، ج٥، ص ١٧٥٣.

(٧) المصدر السابق، ج٥، ص ١٧٥٢.

(٨) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٤.

وعن عبدالله بن بكر المزني قال: «لم يكن أحد أحب إلى من عمرو بن عبيد قَبْلَ أن يحدث؛ لقد كنتُ أشتهي أن أنظر إليه، فأول ما تكلم استوحشت منه، فلقيته يومًا في الطريق، فأردت أن أزوغ عنه، فلم أقدر، فقال لي: ما لك؟ ليس هاهنا أيوب، ولا يونس»[(١)].

وهكذا يبدو عمرو بن عبيد أمام هؤلاء الأعلام كالسارق الذي يريد إنفاق بضاعته في الخفاء، ويريد أن يلتقي بالناس، فلا يستطيع ذلك، فيُرَغِّبُهُمْ، ويُؤَمِّنُهُمْ أنه ليس هنا أيوب، ولا يونس؛ مما يدلل على مكانة علماء السلف في صدور الناس، وانهزام المبتدعة، وبحثها في سراديب الظلام؛ لترويج بدعتها المنكرة؛ فلذلك كان هؤلاء محط كراهية عمرو بن عبيد، لما أحدثوا في الناس من إهمال، ومقتٍ له، فعن يحيى بن النضر (ت ٢١٥) قال: «مررت بعمرو بن عبيد، فجلست إليه فذكر شيئًا، فقلت: ما هكذا يقول أصحابنا، قال: ومن أصحابنا، لا أبالك؟! قلت: أيوب، ويونس، وابن عون، والتيمي، فقال: أولئك أنجاس أرجاس، أموات غير أحياء»[(٢)]، وبلغ من حنقه أن قال يومًا مُعَقِّبًا على كلام لواصل بن عطاء: «فما كلام الحسن، وابن سيرين، والنخعي (ت ٩٥هـ)، والشعبي، (ت ١٠٥هـ) عندما تسمعون، إلا خِرَقُ حيض مطروحة»[(٣)].

والحق الذي يجب اعتقاده أن خرق الحيض المطروحة هي ما جاءت به المعتزِلة، ومن شابههم من أهل الزيغ، والضلال؛ فإن أولئك الأعلام كان علمهم من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة الكرام، وكلام واصل، وعمرو، هو كلام البدعة، والانحراف الذي أتيا به من مجالس الثنوية، والمجوس، وما أملاه عليهما الشيطان، مخالفين لعقيدة الأمة.

النَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَتِهِ، وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ:

فعن النضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ): «مر ابن عون على عمرو بن عبيد، ورجل

---

(١) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٨٤.

(٢) العقيلي، ج٣، ص ٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٨٥.

جالسٍ معه، فَعَرَفَهُ ابن عون، وقال: السلام عليك يا فلان، ما يجلسك هاهنا؟»[1]، وعن حماد بن زيد قال: «قال أيوب: كنت أرى ابن هارون له عقل، حتى رأيته (يعني هارون بن دياب)، واقفًا مع عمرو بن عبيد»[2]، وعن إسماعيل بن إبراهيم قال: «جاءني عبدالعزيز الدَّبَّاغ، فقال: قد أنكرت وجه ابن عون، فلا أدري ما شأنه؟ قال: فذهبت معه إلى ابن عون، فقلت: يا أبا عون، ما شأن عبدالعزيز؟ فقال: أَخْبَرَني قتيبة صاحب الحرير أنه رآه يمشي مع عمرو بن عبيد في السوق، قال: فقال له عبدالعزيز: إنما سألته عن شيء، ووالله، ما أحب رأيه، قال: وتسأل ـ أيضًا؟»[3]، وعن عيسى بن يونس (ت ١٨٩هـ)، قال: «سلم عمرو بن عبيد على ابن عون فلم يَرُدَّ عليه، وجلس إليه فقام عنه»[4].

وقد كان السلف يرون أن بعض الكبائر أهون عند الله من انحراف المعتقد، والابتداع في الدين؛ فقد روى العقيلي عن حرب بن ميمون، عن حويل ختن شعبة، قال: «كنت جالسًا عند يُونس بن عبيد، فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله، تنهانا عن مجالسة عمرو بن عبيد، وقد دخل عليه ابنك قبيل؟ قال: ابني؟ قال: نعم، فلم أبرح حتى جالسه، فقال: يا بني، ألم تَعْرِفْ رأيي في عمرو بن عبيد، ثم تَدْخُلُ عليه؟ قال: كان عنده فلان، قال: فجعل يعتذر، فقال يونس: أنهاك عن الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ولأن تلقى الله بهن أحب إلي من أن تلقاه برأي عمرو، وأصحاب عمرو»[5].

وكان عمرو متهمًا بالرياء في عباداته، وصَلاته؛ فقد روى العقيلي عن نوح بن قيس (ت ١٨٤هـ)، قال: «كان بين عمرو بن عبيد، وبين أخي خالد بن قيس إخاء، فكان يزورنا، فكان إذا صلى في المسجد يقوم كأنه عود، قال: فقلت لخالد: أما ترى عمرًا ما

(١) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٨٥.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٥.
(٣) الكامل، ج٥، ص ١٧٥٨.
(٤) المجروحين، ج٢، ص ٧٠.
(٥) الضعفاء، ج٣، ص ٢٨٥.

أخشعه، وأعبده! فقال: ما تراه إذا صلى في البيت كيف يصلي؟ قال: فنظرت إليه إذا صلى في البيت، يلتفت يمينًا، وشمالًا»[١].

مُجَادَلَتُهُ، وَنِسْبَةُ عَدَمِ فَهْمِهِ إِلَى عُجْمَتِهِ، وَجَهْلِهِ:

إن عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، أخضعهم علماء السلف لمنهج الهجر، والتحقير، والإهانة، ولم يجادلوهم؛ فقد جادل السلف أسلافهم القدرية، وعلموا أن أتباعهم لا يفيد معهم جدال، ولا تستقيم لهم عقيدة، بعدما أوغلوا في هذا الانحراف، ولكن رُوِيَ أن بعض السلف جادل عمرًا في أحكام الوعد، والوعيد؛ فقد روى ابن قتيبة قال: «اجتمع أبو عمرو بن العلاء، وعمرو بن عبيد، فقال عمرو: إن الله وعد وعدًا، وأوعد إيعادًا، وإنه منجز وعده، ووعيده، فقال له أبو عمرو: أنت أعجم، ولا أقول إنك أعجم اللسان، ولكنك أعجم القلب؛ إن العرب تَعُدُّ إنجاز الوعد مكرمة، وترك إيقاع الوعيد مكرمة، ثم أنشده:

وَإِنِّـي وَإِنْ أَوْعَـدْتُـهُ أَوْ وَعَـدْتُـهُ   لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي[٢]

وفي رواية للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) قال: «جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو، يُخْلِفُ الله وعده؟ قال: لا، قال: أفرأيت إن أوعده على عمل عقابًا، يخلف وعده؟ فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت، يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد؛ إن العرب لا تَعُدُّ خلفًا، ولا عارًا، أن تعد شرًّا ولا تفعله، ترى ذاك كرمًا، وفضلًا، إنما الخلف أن تعد خيرًا ثم لا تفعله، قال: فَأَوْجِدْني هذا في كلام العرب، قال: أما سمعت إلى قول الأول:

وَلَا يُرْهِبُ ابْنَ الْعَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي   وَلَا أَخْتَتِشِي مِنْ خَشْيَةِ الْمُتَهَدِّدِ

وَإِنِّـي وَإِنْ أَوْعَـدْتُـهُ أَوْ وَعَـدْتُـهُ   لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي[٣]

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٦.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، ص ١٤٢.

(٣) تاريخ بغداد، ج١٢، ص ١٧٦.

وقول المعتزِلة في الوعد والوعيد مشهور، ولعله من الآراء التي انفرد بها عمرو، ولم يَقُلْ بها واصل من قبل.

الْمَنَامَاتُ الْقَبِيحَةُ الَّتِي رُوِيَتْ بِحَقِّ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ:

إن هذه المنامات التي رُوِيَتْ عن السلف بحق عمرو بن عبيد إنما تعبر عن قبح مآل المبتدعة، وإن كُنَّا لا نرى أن المنامات تعطي حقيقة مؤكدة، ولكننا نذكرها كما ذكرها علماء السلف الثقات؛ للتحذير من المبتدعة، ومن أتباعهم، والقبول بمناهجهم، ومن هذه المنامات ما رواه عاصم الأحول (سبق ذكر نصه)، وفي نهايته قال: «فرأيت عمرو بن عبيد في المنام يَحُكُّ آية من القرآن، قلت: ما تصنع؟ قال: إني أعيدها، قال: فحكها، قلت: أعدها! فقال: لا أستطيع»[(١)].

وجاء عمرو بن عبيد، وإسماعيل المكي (ت ١٩٣هـ) إلى محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ)، فسألاه عن رجل رأى كأنه نصف رأسه مجزوزة، ونصف لحيته، فقال لهما: اتقيا الله، لا تُظْهروا أمرًا، وتسرا خِلَافَهُ، قال: فقال عمرو: والله، لا نأخذ عنه في اليقظة، وكيف نأخذ عنه في المنام؟»[(٢)].

وعن محمد بن إدريس الرازي قال: سمعت الأنصاري يقول: «رأيت في النوم كأنا على باب عمرو بن عبيد، ننتظر خروجه، إذ خرج علينا قرد، قالوا: هذا عمرو بن عبيد»[(٣)].

هذه هي بعض مسالك علماء السلف في التعامل مع المعتزِلة القدرية؛ ممثلة بشيخها عمرو بن عبيد، الذي أُتِيحَ لعلماء السلف أن يَطَّلِعُوا على أحواله التي كانت مستورة، وعندما اشتد حصار السلف على المعتزِلة، برزت معتقداتهم الفاسدة، وجرأتهم القبيحة على دين الله، ولم نعثر على نصوص تخص واصلًا، وكما رأينا ما قام به المعتزِلة، عندما تمكنوا من بعض خلفاء بني العباس؛ من محنة

---

(١) ، (٢) العقيلي، الضعفاء، ج٣، ص ٢٨١، وص ٢٨٢.

(٣) ابن حبان، المجروحين، ج٢، ص ٧١.

للأمة، ما هو إلا حقدٌ، وكراهية لعلماء السلف، الذين وضعوهم في دائرة البدعة، والضلالة، وظلوا مقموعين إلى أن اعتنق مذهبهم المأمون، وغيره، ولكن الله عاد عليهم بالذلة، والخزي، والخسران، بعد هزيمتهم على يد إمام السنة؛ الإمام أحمد، ومن سار على دربه، ودرب من سبقه من علماء السلف، ولكن ضَلَال المعتزِلة استشرى في كثير من الفِرَق التي أَصَّلَتْ أصولها في العقيدة على أصول المعتزِلة الفاسدة.

٦ـ الدَّعْوَةُ إِلَى إِحْيَاءِ مَذْهَبِ الِاعْتِزَالِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ:

وظهرت في العصر الحديث الدعوة لإحياء الفكر الاعتزالي من قِبَلِ المستشرقين، ومَنْ تابعهم من بعض الكُتَّاب المسلمين، وسوف نجعل هذه الخاتمة لإلقاء نظرة موجزة على حقيقة هذه الدعوة، وأهدافها.

يُوَاجِهُ الْبَاحِثُ عند دراسته لفرق الابتداع حقيقتين متناقضتين تمام التناقض:

الْحَقِيقَةُ الأُولَى: يمثلها علماء السلف الذين عاصروا هذه الفرق، وعرفوا رجالها، وحكموا عليهم من خلال بدعهم، ومخالفتهم للكتاب، والسنة، وقد قدمنا صورة من هذه الأحكام الموافقة للحق في البراءة من أهل البدع، والانحراف.

وَالْحَقِيقَةُ الثَّانِيَةُ: هي الْإِشَادَةُ وَالْإِعْجَابُ بِهَذِهِ الْبِدَعِ، وَرِجَالِهَا، وَتَمْيِيعِ الْمَوَاقِفِ تِجَاهَهُمْ ـ، بل وعكس الحقيقة بجعلهم من الأئمة، والمجتهدين الذين يجب سماع أقوالهم، وأخذ المعاذير لبدعهم، وانحرافاتهم، ويمثل هذه الظاهرة المستشرقون، والكُتَّابُ المسلمون، والذي يهمنا في هذا الإيجاز هو مواقف بعض الكتاب المسلمين التي سنعرض لبعض نماذجها، والتي لا نعرف السبب الحقيقي من وراء هذه المواقف التي دفعتهم للإعجاب بهذه الفرق الضالة، وتأييد مواقفها، وتصويب انحرافاتها العقدية، وهذه هي بعض الأمثلة على ما نقول: فالشيخ علي مصطفى الغرابي يدافع عن المعتزلة، ونفيهم للصفات الإلهية؛ فيقول ردًا على الإسفراييني: (وأنت علمت رأيهم في صفات الله، وأنهم لا يريدون منها ما أراد الإسفراييني من أن الله ـ سبحانه ـ لا يكون عالمًا، ولا قادرًا، وإنما هم يثبتون مقتضيات هذه الصفات، وآثارها للذات،

وأن الذات عندهم هي العالمة، والقادرة[١].

ويذكر آراء واصل في القدر، والمنزلة بين المنزلتين، وما قاله ابن المرتضى، ثم يثني عليه، فيقول: (ولقد امتاز واصل بالصراحة في الرأي، فلقد كان يعيش تحت كنف الدولة الأُمَوِيَّةِ، ومع هذا كان يبرأ من معاوية، وعمرو بن العاص، وكان يقول بأن الإنسان مختار في أفعاله. ولقد كان واصل أول من وضع أساس الدعاة في الدولة الإسلامية، وهو أول من أرسل الرسل في سبيل الدعوة إلى الله، والدفاع عن الرأي الذي يعتنقه، وهو الذي وضع أصل الاحتجاج بالإجماع والعقل. وعلى كل حال إذا فَتَّشْنَا في جميع نواحي الرجل، وجدناه قد بلغ ذروة الكمال؛ فإذا خطب كان خطيبًا مصقعًا)[٢]. ثم يذكر فضائله المزعومة، والذي يستوقفنا البراءة من معاوية، وعمرو بن العاص فهل هذه فضيلة يمتدح بها واصل، وهل القول بالقدر فضيلة كذلك، وهل إرسال دعاة البدعة؛ لنشرها في وسط المسلمين ـ أيضًا ـ فضيلة يمتدح بها واصل؟!.

أما الدكتور محمد عمارة، فقد ناصر مذهب القدرية، والاعتزال في عدة كتب من أبرزها كتاب «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية» اعتمد في أغلب ما قاله على القاضي عبدالجبار، وابن المرتضى، وخاصة في تفصيل مذهب القدرية، والإشادة به، ثم جاء في كتاب آخر، ولبس على القراء، فوضع أعدى أعداء المعتزلة، والقدرية ضمن أعلام المعتزلة في رأيه، (فوضع الحسن البصري، وأيوب السختياني، ويونس بن عبيد، ومحمد بن سيرين، وعطاء بن يسار (ت:١٠٣هـ)، وغيرهم، ثم ختم عبارته، فقال: هذا نفر من أعلام المعتزلة، وأوائل أئمتهم الذين كانوا من الموالي)[٣].

ثم يقول: (فالمعتزلة إذن، كانوا هم التجسيد للأسلحة التي تسلحت بها الأمة، وقائمًا عن حضارتها الوليدة، ودينها الجديد أمام خصومها من أهل الملل، والنحل،

---

(١) الغرابي، تاريخ الفرق الإسلامية، ص ٦٩، ط٢، ١٩٨٥م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٣) محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، ص ٦٣ ـ ٦٤، ط١، ١٤١١هـ، دار الشروق، القاهرة.

والمذاهب، والفلسفات الأخرى)[١]. (والمعتزلة لم يكونوا فقط - كما يظن الكثيرون - علماء في الدين، وفلاسفة في الإلهيات، وإنما كانوا فرسانًا في القتال، وثُوَّارًا في السياسة، ومتقلبين في العبادة، وزهَّادًا في عرض الدنيا.)[٢].

وقد أتى بشبهات كثيرة ليس هذا مجال متابعتها، والرد عليها، إنما الذي يمكن قوله في هذه العجالة أن الحنو على هؤلاء المعتزلة، والحط من شأن علماء السلف انتصارًا لهم من الأمور التي ماكان يتوقعها مسلم، فأين هم المعتزلة الذين تسلحوا للدفاع عن الأمة بزعمهم، وإنما هم كانوا إحدى الفرق التي أوهنت الأمة، وتسلطت على نصوصها المقدسة، وأدلتها، وحرَّفَتْهَا، وختمت ضلالها بالقول بخلق القرآن، لنزع قداسته من قلوب الناس، ولكن الله أسقطهم بفضيحتهم، وأخزاهم إلى الأبد.

أما الدكتور عبدالستار الراوي بكتابه ذي العنوان البَرَّاقِ (ثَوْرَةُ الْعَقْلِ)، فيقول: (الاعتزال جهد حضاري وشاق، اختار العقل منهجًا تحليليًا لعالم المسافة، والزمن، وجعل الحرية علمًا له قاعدته الحية الموجهة في بناء الإنسان، وتقدير موقفه من الكون، وحدود الأشياء، وهكذا كان العقل الْمُسَلَّمَةَ الأُولَى في فكر الاعتزال، لا معنى للعقل إذا لم يكن حرًّا، فحرره المعتزلة، وأجازوا له البحث لا في الشئون الإنسانية وحسب، بل في الأمور الغيبية، وقضايا الكون، وفي ضوء الأمر كله وساروا معه إلى النهاية القصوى في البحث المنهجي المنظم)[٣].

ثم يعطيهم من الأوصاف ما لا يستحقون، ومن الأعمال ما لم يعملوها، فيقول: (واندرجت المهمات الثلاث في برنامج حركة الاعتزال المرحلي، فطبقت في مواجهة الزرادشتية، والثنوية، والمعطلة، والمشبهة، والمجسمة، والغلاة الذين كانت مصالحهم تقضي بتضامنهم جميعًا في جبهة مضادة لأصحاب العدل، والتوحيد؛ لذلك لم يترد

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٣) الراوي، ثورة العقل، ص ٥، ط٢، ١٩٨٦م، بغداد، دار الشؤون الثقافية.

واصل بن عطاء من اعتبار الدفاع عن مبدإ التوحيد؛ هدف حركته الفكرية، ومن بين أهم مسئولياتها الأخلاقية)[١].

لقد جمع الراوي للمعتزلة من الفضائل، التي لم تستحقها؛ فإن مناقشة الثنوية، والمجوس كانت إحدى أسباب انحراف المعتزلة عن منهج السلف، ثم كانوا هم المعطلة للصفات، فأي توحيد أَصَّلَهُ واصل، وقد انتقصت كل أركانه تبعًا لعقيدة النفي في الصفات، ونفي القدر، وغيرها من المبتدعات.

أما الدكتور عادل العوا، فقد جعل من المعتزلة الرواد الأوائل في خدمة هذا الدين، ونافح عنهم، وأعطاهم من الأوصاف ما لم يقولوها هم لأنفسهم، وذلك بكتابه المعتزلة، والفكر الحر (دَرْبُ التَّحْرِيرِ)، وأهم فكرة يمكن ملاحظتها على هذا المؤلف أن الدكتور يرى أن الدين لم يكن معقولًا؛ أي لم تتفهمه عقول الصحابة، والتابعين حتى جاء المعتزلة لإدخاله ضمن دائرة العقل، فيقول: (وعندنا أن علم الكلام هو محاولة، (لتعقيل الدين)، وفهمه بالمنطق، وبالرأي؛ للذود عن الإيمان بهذا المنطق والرأي)[٢].

أما الدكتور عبدالقادر محمود، فيقول: (مما لا شك فيه أن ثورة المعتزلة هي ثورة العقل الإسلامي بكل ما فيه من قوة، ويقين إزاء جبهات الوثنية المختلفة، وحركات الباطنية، والرافضة، والملاحدة بكل صورها، وألوانها المارقة، ومما لا شك فيه أن نشأتهم كانت إسلامية خالصة)[٣].

وفي الختام ننقل هذه العبارات القيمة التي كتبها الأستاذ أبو لبابة حسين الذي يقول: (لم تحظى فرقة إسلامية بذيوع الصيت، واهتمام النقاد، والعلماء بدراستها، وفهم أصولها قديمًا، وحديثًا بما حظيت به فرقة المعتزلة التي اتخذت من العقل إمامًا تهتدي بهديه، وتترسم خطاه، وهواه، وتبني على ضوئِهِ مبادِئَهَا، وتدافع به عن أرائها،

(١) الراوي، ثورة العقل، ص ٢٩٦.

(٢) د. العوا، المعتزلة والفكر الحر، ص ٢٦، ط ١٤٠٧هـ، الأهالي، القاهرة.

(٣) د. عبد القادر محمود، الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، ص ٢٥٠، ط٢، ١٤٠٦هـ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

ولعل هذا الاهتمام يعود إلى:

١ـ الْإِضَافَاتِ الْقَيِّمَةِ الَّتِي أضافتها لتراث الفكر العربي الإسلامي.

٢ـ أَوْ لِمَا اتَّسَمَتْ بِهِ مِنَ الِانْحِرَافِ عَنِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِي الملتزِم بالقرآن والسنة الصحيحة؛ حيث مالت إلى المناهج الأجنبية، سواء منها فلسفة، يونانية، وهندية، ونحوها، أو دينية يهودية، ومسيحية، وزرادشتية، وغيرها. وقبل الدخول في الموضوع، أريد أن أشير إلى التوقف الذي توقفه بعض الأساتذة الباحثين في القسم الإسلامي في معهد الدراسات والأبحاث العلمية، والاجتماعية - (تونس) - حول عنوان هذا البحث إذ لم يستسيغوا عبارة (انحراف)؛ وذلك أنهم يعتبرون المعتزلة فوق الشبهات إذ هم - لا شك - يجلونهم، ويحلونهم محلًّا رفيعًا من الفكر، والدين، وغاب عنهم أن المعتزلة، على ملحظ الشيخ محمود محمد شاكر: أخطأوا الطريق إلى فهم ما نزله الله في القرآن، وبلغوا من الإرهاب، والقسوة، والفجور في الحكم حين صارت إليهم مقاليد الحكم في خلافة المأمون مبلغًا عظيمًا، وهو ما جعل أهل السنة والجماعة، الذين ساروا على المنهج الرشيد يصمونهم بالابتداع، وينسبونهم بالدليل الشرعي إلى الخروج عن الجماعة الإسلامية المتمسكة بسنة رسولها، والمهتدية بنور الوحي من غير تحكم في تفسيره، ولا تمحل في تأويله.

والواجب اليوم يدعونا كما دعا سلفنا الصالح في العصور الماضية إلى تقييم كل الأعمال الفكرية، وكل الحركات، والدعوات، ووزنها بميزان الشريعة الإسلامية، فما وافق القرآن والسنة الصحيحة، فهو الرشيد، وما خالفهما فهو المنحرف، السقيم الذي ينبغي كشفه، والتنبيه على خطره؛ لكي نحفظ لثقافتنا الإسلامية صغائرها، وللتصور الإسلامي نقاءه بعيدًا عن كل تأثير وثني قديم أو حديث، وبذلك نتيح الفرصة للإسلام أن يسهم في إبراز ثقافة أصلية[1].

---

(١) أبو لبابة حسين، موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها، ص٣، بتصرف، ط٢، ١٤٠٧هـ، الرياض.

لقد ظن المعتزلة، والمتكلمون الأوائل كما يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ: إن الفكر الإسلامي لا يستكمل مظاهر نضوجه، واكتماله، ومظاهر أبهته، وعظمته إلا إذا ارتدى هذا الزي؛ زي التفلسف والفلسفة، وكانت لهم فيه مؤلفات. وبدلًا من صياغة التصور الإسلامي في قالب ذاتي مستقل، وفق طبيعته الكلية، التي تخاطب الكينونة البشرية جملة، بكل مقوماتها، وطاقاتها بدلًا من هذا استعاروا القالب الفلسفي؛ ليصبوا فيه التصور الإسلامي، كما استعاروا التصورات الفلسفية ذاتها، وحاولوا أن يوفقوا بينها وبين التصور الإسلامي. ولما كانت جفوة أصلية بين منهج الفلسفة، ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة، وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية، وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات، والمباحث اللاهوتية البشرية، فقد بدت الفلسفة الإسلامية نشازًا كاملًا في لحن العقيدة المتناسق، ونشأ من هذه المحاولة تخليط كثير، شاب صفاء التصور الإسلامي، وصَغَّرَ مساحته، وأصابه بالسطحية، ذلك مع التعقيد، والجفاف، والتخليط، مما جعل تلك الفلسفة، الإسلامية، ومعها مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة على الإسلام، وطبيعته، وحقيقته، ومنهجه، وأسلوبه)[1].

وقد كان للمعتزلة الدور الأول، والأكبر في نقل هذه الفلسفات، والتصورات الخاطئة لهذه الأمة، والتي يحاول بعض المفكرين إعادة هذا الظلام بعد أن أسقطه نور الحق على أيدي علماء السلف الأعلام، ولله الحمد، والمنة.

* * * * *

(١) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ص ١١، ط١٢، ١٤١٣هـ، دار الشروق، القاهرة.

الْفَصْلُ السَّادِسُ
المُشَبِّهَةُ

تَمْهِيدٌ:

يعتبر التشبيه من الانحرافات العقدية التي ابتدعها أصحابها بعيدًا عن منهج السلف الصالح. وهذه البدعة المنكرة قال بها الزنادقة الذين ادعوا التشبيه ابتداء من عبدالله بن سبإ، ومرورًا بالمغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان وانتهاءً بهشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، وداود الجواربي، وغيرهم ممن عجزت عقولهم عن الوقوف عند نصوص الكتاب العزيز، كما وقف السلف الصالح، فسقطت عقولهم العليلة، كما سقط اليهود من قبل في تشبيه الرب ـ سبحانه ـ بخلقه. وأرباب هذه البدعة المنكرة يستقون مقالتهم من ينابيع اليهودية العفنة المليئة بالتشبيه، وهي المصدر الذي استقى منه ابن سبإ مقالته، ومن تابعه على ضلاله، وكفره.

وقد امتلأت التوارة المحرفة التي بين أيدي اليهود بهذه التشبيهات التي كتبها زنادقَتُهُمْ بعد أن خربوا العقيدة الحقة التي جاء بها أنبياء الله، وهذه بعض النصوص التي توضح عظيم تلك الجناية التي جنوها على دين الله ـ عز وجل ـ، فقد جاء في سفر التكوين على لسان كاتب النص الأفَّاك: (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم، وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله: آدم، وقال له: أين أنت؟!، فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيت؛ لأني عريان، فأختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟! ودعا آدم امرأته حواء؛ لأنها أم كل حي، وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد، وألبسهما، وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير، والشر. والآن لعله يمد يده، ويأخذ من شجرة الحياة ـ أيضًا ـ ويأكل، ويحيا إلى الأبد)[1].

---

(١) سفر التكوين، ٣ ـ ٨ ـ ١٣، ٣ ـ ٣٠ ـ ٣٣.

ويصف كاتب التوراة الرب ـ سبحانه ـ بالتعب، وحاجته إلى الراحة ـ تعالى الله عن ذلك ـ فيقول: (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع، وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل)[1]، وزعم المُحَرِّفُ الكذاب أن موسى ـ عليه السلام ـ قد رأى الرب ـ سبحانه ـ فقال: (حيث كان بارزًا له فقال: أنا إله أبيك إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، فغطى موسى وجهه؛ لأنه خاف أن ينظر إلى الله، وقال موسى لهارون: قل لكل جماعة بني إسرائيل اقتربوا إليَّ أمام الرب؛ لأنه قد سمع تذمركم، فَحَدَثَ أن كان هارون يكلم كل جماعة بني إسرائيل أنهم التفتوا نحو البرية، وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب، فكلم الربُّ موسى قائلًا؛ لأنه في اليوم ينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء، ونقيم للشعب حدودًا من كل ناحية، ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل، فصعد موسى، فقال الربُّ لموسى: انحدر حَذِّرِ الشعب؛ لئلا يقتحموا إلى الرب؛ لينظروا، فيسقط منهم كثيرون، ثم صعد موسى، وهارون، وناداب، وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف إسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا، وشربوا)[2]. ـ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

ومن أكاذيبهم نسبة الحزن والأسف إلى الله ـ تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا ـ؛ حيث يقول هذا الأفَّاك: (ورأى الرب بأن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان، وتأسف في قلبه فقال الرب! أمحو من وجه الأرض الإنسان الذي خلقته مع بهائم، وذبابات، وطيور السماء؛ لأني حزنت أني عملتهم)[3].

---

(١) تكوين، ٢ ـ ٢ ـ ٣.

(٢) سفر الخروج، ٣ ـ ١٦/٧٦ ـ ٩ ـ ١١ ـ ١٩/١٣ ـ ٢٠ ـ ٢٤/٢٢ ـ ٩ ـ ١٢.

(٣) تكوين، ٦ـ٥ـ٨.

ومن مفتريات هذا الكاتب المأفون أن موسى ـ عليه السلام ـ يأمر الرب ـ سبحانه ـ بالعودة عن غضبه، وأن داود يخطئ ربه ـ سبحانه ـ؛ حيث قال: (وقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب، وإذا هو (شعب صلب الرقبة)، فالآن أتركني، ليحمى غضبي عليهم، وأفنيهم، فأصيرك شعبًا عظيمًا، فتضرع موسى أمام الرب الإله، وقال: لماذا يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة، ويد شديدة، ارجع عن حمو غضبك، واندم على فعل الشر بشعبك)[1].

ثم قال عن داود ـ عليه السلام ـ وحاشاهم جميعًا أن يقولوا مثل هذا عن ربهم ـ سبحانه ـ فهم الأنبياء أعظم الناس تعظيمًا، وتوقيرًا لله ـ سبحانه ـ « وأما لاوى، وبنيامين فلم يعدهم معهم؛ لأن كلام الملك كان مكروهًا لدى بواب، وقبح في عيني الله هذا الأمر، فضرب إسرائيل، فقال داود لله: (لقد أخطأت جدًّا؛ حيث عملت هذا الأمر)[2].

ويطول بنا القول إذا نقلنا نصوص التشبية التي تمتليء بها التوراة المحرفة، التي كانت أهم مصادر التشبيه التي ابتليت بها الأمة الإسلامية على يد مدعي التشيع، وأبرزهم عبدالله بن سبإ الذي كان عالمًا بالتوارة؛ حيث نقل هذه الانحرافات اليهودية إلى أتباعه الذين وجدوا في التشيع مأوى لنشر هذه الضلالات الكفرية.

١ـ التَّشْبِيهُ عِنْدَ غُلَاةِ الشِّيعةِ

مما لا شك فيه أن القول بالتشبيه كان عند غلاة الشيعة الذين شبهوا المخلوق بالخالق، وشبهوا الخالق بالمخلوق، وقالوا بحلول الخالق بالمخلوق، وقد كان أول القائلين بذلك عبدالله بن سبإ، كما ذكرنا من قبل، الذي ابتدع هذه الآراء الضالة (متأثرًا بذلك بالتوراة المحرفة، والتي نشرها في أوساط الجهلة، والأعاجم، ولا سيما في المدائن بعد أن استقر بها؛ حيث يقول البغدادي: (السبئية الذين سموا عليًّا إلهًا، وشبهوه بذات الإله، ولما أحرق قومًا منهم قالوا له: الآن علمنا أنك إله؛ لأن النار لا يعذب بها

(١) خروج، ٣٢ ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٣.

(٢) سفر أخبار الأيام الأول، ٢١ ـ ٦ ـ ٧.

إلا الله[١]، وقال الشهرستاني ناسبًا مصدر هذه المقالة لمعتقدات اليهود: (وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها، ونسبوها إلى النبي ﷺ وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإن التشبيه فيهم طباع، حتى قالوا: اشتكت عيناه، فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه)[٢].

ثم قالت فرقة البيانية أصحاب بيان بن سمعان التميمي: (إن الله ـ عز وجل ـ على صورة الإنسان، وأنه يهلك كله إلا وجهه ـ (سبحانه عن ذلك) ـ[٣].

وقال المغيرة بن سعيد: (إن معبودهم رجل من نور على رأسه تاج، وله من الأعضاء والخلق مثل ما للرجل، وله جوف، وقلب، تنبع منه الحكمة، وأن حروف أبي جاد على عدد أعضائه، قالوا: والألف موضع قدمه؛ لاعوجاجها، وذكر الهاء، فقال: لو رأيتم موضعها منه لرأيتم أمرًا عظيمًا يعرض لهم بالعورة، وبأنه قد رآه ـ لعنه اللّه ـ)[٤]، وقالت المنصورية: إن أبا منصور العجلي صعد إلى معبوده في السماء، وأن معبوده مسح على رأسه، وقال: يا بني، بلغ عني)[٥]. وقالت الخطابية: إن الأئمة آلهة، وقالوا: في أنفسهم مثل ذلك، وعبد الخطابية أبا الخطاب، وزعموا أنه إله، وزعموا أن جعفر بن محمد إلههم ـ أيضًا)[٦]. وهناك فِرَقٌ شيعية أخرى قالت بالتشبيه، وأغلبها في العصر العباسي؛

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٢٥، والأشعري، المقالات، ص ١٥، الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص ٧١، والإسفراييني، التبصير في الدين، ص ١١٩، والشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٧٤، والقمي، الفرق الشيعة، ص ٤٥.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٠٦.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٥، والإسفراييني، التبصير في الدين، ص ١١٩، والقمي، فرق الشيعه، ص ٣٧.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٧، والشهرستاني، ص ١٧٧، والكرماني، الفرق الإسلامية، ص ٩٢.

(٥) مقالات الإسلاميين ص ٩، والإسفراييني، التبصير، ص ١٢٠، والكرماني، الفرق الإسلامية، ص ٩٢.

(٦) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١١.

مثال ذلك الحلولية، والمقنعية، والهشامية، أتباع هشام بن الحكم الرافضي، وأتباع هشام ابن سالم الجواليقي، واليونسية أتباع يونس القمي الحلمانية، والداودية، أتباع داود الجواري، والزرارية، والشيطانية، والنصيرية، والإسحاقية، والجناحية)[١].

● بَعْدَ هَذَا الْعَرْضِ الموجزِ لمقالاتِ الشيعة الغلاة، هل يمكننا اعتبار هذه الأقوال نتيجة نظر في العقيدة الإسلامية، وأدلتها من الكتاب والسنة، أم هو نوع من أنواع الإلحاد، والزندقة الذي كان يحمله أمثال هؤلاء المارقين، الذين تشبهوا بأهل العلم، وهم أبعد ما يكونون عنهم؟ وقد نص ابن حبان على أن أصحاب هذه المقالات هم من الكذابين السحرة، والزنادقة، فقال: (الزنادقة الذين كانوا يعتقدون الزندقة، والكفر، ولا يؤمنون بالله، واليوم الآخر، كانوا يدخلون المدن، ويتشبهون بأهل العلم، ويضعون الحديث على العلماء، ويروون عنهم؛ ليوقعوا الشك، والريب في قلوبهم، فهم يَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، وعد منهم المغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان. ويقول جعفر بن أبان الحافظ: سمعت ابن نمير يقول: (مغيرة بن سعيد هذا كان ساحرًا مشعوذًا، وأما بيان فكان زنديقًا قتلهما خالد بن عبدالله القسري وأحرقهما بالنار)[٢].

لقد كان غرض هؤلاء الزنادقة الجهلة، الذين دخلوا الإسلام نفاقًا؛ للتخريب من داخله كان غرضهم تأليه البشر تبعًا لانحرافهم الذي كان يتغذى على تيارات عدة من الفارسية، واليهودية، والنصرانية، ولإرضاء هؤلاء الغوغاء الذين تعج بهم أرض فارس، والعراق، الذين لا نصيب لهم من الإيمان، والعلم، قال هؤلاء الزنادقة بمثل هذه الآراء، وألصقوها بأشخاص آل البيت، وأَوَّلُهُمْ علي رضي الله عنه الذي كان رده عليهم عنيفًا من خلال إحراقهم، وإراحة المسلمين من شرهم، ثم تابع الأُمَويون هذا المنهج، فأحرقوا المغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان؛ وذلك حفاظًا على عقيدة الأمة من سموم هؤلاء الزنادقة المارقين، والذين أجمعت مصادر أهل السنة والجماعة، ثم مصادر الشيعة

(١) انظر بشأنهم، الكرماني، الفرق الإسلامية، ص ٩٢، والإسفراييني، ص ١٢٠، والبغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٢٦.

(٢) ابن حبان، المجروحين، ج١، ص ٦٣، بتصرف، وانظر الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص ١٧٤.

المتقدمة على وصمهم بهذا الغلو، وهذه الزندقة، ثم البراءة منهم، وعدم اعتبارهم في عداد هذه الأمة الموحدة.

ولكن التشبيه في نطاق الشيعة لم ينتهِ عند هذا الحد، كما سبق وأشرنا، بل امتد إلى منتصف القرن الثالث الهجري على يد هشام بن الحكم، وهشام بن سالم - وداود الجواربي، وفي هذا يقول الشهرستاني: (ثم الشيعة في هذه الشريعة وقعوا في غلو، وتقصير أما الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله - تعالى وتقدس -. وأما التقصير، فتشبيه الإله بواحد من الخلق، ولما ظهرت المعتزلة والمتكلمون من السلف[1] رجعت بعض الروافض عن الغلو والتقصير، ووقعت في الاعتزال)[2].

وهكذا هي حال أهل البدع مذبذبون بين بدع التشبيه، والاعتزال، والتعطيل، متنكبون عن طريق أهل الحق، وسبيل السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، وهكذا يتبين لنا أن أول من فتح هذا الباب في التشبيه هم غلاة الشيعة، والذين قابلهم على الجهة المقابلة في النفي، والتعطيل المعتزلة، والجهمية؛ فإذا كان التشبيه هو السابق وهو كذلك، فإن الجهمية المتنكبة عن طريق الحق هم الذين ردوا البدعة بالبدعة، وجنحوا إلى نفي صفات الرب، وتعطيلها، فكانت هاتان البدعتان ردة فعل على بعضهما البعض بعيدًا عن أهل السنة، والجماعة الذين وصمهم أهل البدع فيما بعد بأنهم هم أهل الحشو، والتشبيه وهذا ما سنبطله بإذن الله.

٢- بَرَاءَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ

لَقَدْ أَثْبَتَ الواقعُ التاريخيُّ لهذه الأمة بقاء الطائفة المنصورة المتبعة للعقيدة الحقة، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ، وأبرز ما تعتز به هذه الطائفة هو سلامة عقيدتها من كل صور الانحراف الذي وقعت فيه معظم فرق الابتداع على اختلاف مقالاتها، وقد كان لهذا الثبات الذي خصها الله به كان له أكبر الأثر في تعدي الفرق الضالة عليها، ونسبة القبائح التي وقعت فيها إلى أهل السنة ظلمًا وعدوانًا، ومن هذه التهم الباطلة

(١) هكذا يقول الشهرستاني، والمتكلمون ليسوا من السلف.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٣.

المنسوبة لأهل السنة تهمة التشبيه، فإن فرق الضلال عندما اتحدت تحت لواء النفي، والتعطيل، ورأت موقف أهل السنة من الإثبات لصفات الله ـ تعالى ـ اتهمتها بالقول بالتشبيه؛ وهي تهمة باطلة لا أساس لها من الصحة.

قال شيخ الإسلام: (كما يسمى نفاة الصفات لمثبتيها مشبهة، ومجسمة، وحشوية، وغثاء، وغثراء؛ (سفلة الناس)، ونحو ذلك، بحسب ما ظنوه لازمًا لهم)(١).

وسوف نعرض أولًا لبعض مقالات فرق الابتداع عن أهل السنة، ثم نفند هذه المقالات، ونردها على أصحابها.

فقد نسب القمي، والنوبختي أهل السنة إلى الحشو، والتشبيه، فقالا: (وفرقة منهم يسمون الشكاك، والبترية أصحاب الحديث؛ منهم سفيان الثوري، وشريك بن عبدالله، وابن أبي ليلى، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس، ونظراؤهم من أهل الحشو، والجمهور العظيم، وقد سموا الحشوية)(٢).

وقال ابن المرتضى ـ الشيعي، والمعتزلي: (والحشوية لا مذهب لهم منفرد، وأجمعوا على الجبر، والتشبيه، وجسموا، وصوروا، وقالوا بالأعضاء، وقدم ما بين الدفتين من القرآن، ومنهم أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وداود بن محمد، والكرابيسي، ومن متأخريهم محمد بن إسحاق بن خزيمة، صنف كتابًا في أعضاء الرب ـ تعالى ـ عن ذلك)(٣).

وقال أبو سعيد القلهاني ـ الخارجي الإباضي تحت عنوان (في اعتقاد الفرقة الثانية؛ وهي الصفاتية، والحشوية، والمشبهة، وهم الذين يثبتون لله صفات خبرية؛ كاليدين، والوجه، وبالغ أكثرهم في هذه الصفات إلى التشبيه بصفات المخلوقين، فسموا صفاتية)(٤).

(١) درء تعارض العقل والنقل، ج٤، ص ١٤٨.

(٢) القمي، المقالات، ص ٦، والنوبختي، فرق السيعة، ص ٧.

(٣) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ٢٤.

(٤) القلهاني، الفرق الإسلامية، ص ١٤١.

وبعد عرض هذه المزاعم الباطلة من أرباب فرق الابتداع نريد أن نبطلها، ونبين الفرق بين الإثبات الذي يقول به أهل السنة، والجماعة، والتشبيه الذي قالته فرق الشيعة، أولًا، ثم تنصلت منه عندما اتحدت مع المعتزلة، فهم الذين شبهوا أولًا ذلك التشبيه الفاضح الذي قال به زنادقتهم الذين قتلوا بسبب مقالاتهم الغالية المخالفة لما جاء به الكتاب والسنة، ولما اعتقدته الأمة في عهد رسولها ﷺ، وصحابته الكرام، والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

لقد ظن هؤلاء المبتدعة أن إثبات الصفات الإلهية يعني القول بالتشبيه، وهذا الزعم غاية في الغرابة، والبطلان؛ وذلك لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثبت لنفسه صفات الكمال، وكذلك رسوله ﷺ، واعتقد ذلك سلف الأمة، وعندما ظهرت المعتزلة، والجهمية كانوا هم أول من ابتدع النفي للصفات، وغلفوا هذه الدعوى لتعطيل الصفات بالميل للتأويل الذي قصدوا منه التغطية على هذا النفي الذي اعتقده النفاة على يد الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، ومن تابعهم على ضلالاتهم، ومقالاتهم الفاسدة في أبواب الأسماء، والصفات، ويرد الرازي هذه الشبهة، فيقول: (اعلم أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيه إلى الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه ـ، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وهذا خطأ، فإنهم منزهون في اعتقادهم عن التشبيه، والتعطيل، لكنهم كانوا لا يتكلموا في المتشابهات بل كانوا يقولون آمنَّا، وَصَدَّقْنَا مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله ـ تعالى ـ لا شبيه له، وليس كمثله شيء، ومعلوم أن هذا الاعتقاد بعيد جدًّا عن التشبيه)[1].

ومع هذا الدفاع الذي قال به الرازي فإنَّنا لا نقره على قوله عن المتشابه، والذي يفهم منه أن آيات الصفات هي من المتشابه، وهذا غير صحيح بل مذهب هؤلاء الأئمة الأعلام هو مذهب الصحابة، والتابعين، وهو إثبات معاني الصفات، وعدم القول بالكيفية، أو التشبيه، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وشبهة هؤلاء أن

(١) الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٨٥ ـ ٨٦.

الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله ـ تعالى ـ، ويقولون إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، ويقولون إن اللهَ يُرَى في الآخرة، وهذا مذهب الصحابة، والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت، وغيرهم. وهذا مذهب الأئمة المتبوعين؛ مثل: مالك بن أنس، والثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، وداود، ومحمد بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، وأبي بكر بن المنذر، ومحمد بن جرير الطبري، وأصحابهم، والجهمية، والمعتزلة يقولون: من أثبت لله الصفات، وقال: إن الله يُرَى في الآخرة، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فإنه مجسم مشبه، والتجسيم باطل، وشبهتهم في ذلك أن الصفات أعراض لا تقوم إلا بجسم، وما قام به الكلام، وغيره من الصفات لا يكون إلا جسمًا، ولا يرى إلا ما هو جسم، أو قائم بجسم)[1].

ثم يخلص إلى القول: (والمقصود هنا أن أهل السنة متفقون على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولكن لفظ التشبيه في كلام هؤلاء النفاة المعطلة لفظ مجمل، فإن أراد بلفظ التشبيه ما نفاه القرآن، ودل عليه العقل، فهذا حق، فإن خصائص الرب ـ تعالى ـ لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يُوصفَ الله بما وَصَفَ بِهِ نفْسَهُ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل يثبتون لله ما أثبته من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات (يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضروب الأمثال، ينزهونه عن النقص، والتعطيل، وعن التشبيه ـ إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ رد على الممثلة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، [الشورى:١١]، رد على المعطلة[2].

أَمَّا مَا نُسِبَ إِلَى بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ من القول بالتشبيه، فهذا الأمر يحتاج إلى تفصيل ـ أيضًا ـ، فإذا كان الشيعة قد اتهموا عموم السلف بالقول بالتشبيه باعتبارهم مثبتين

(١) منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ١١٠ ـ ١١١.

للصفات كما بينا، وأبطلنا هذا الزعم، فإن المعتزلة قد اتهموا بعض رواة الحديث المنتسبين لأهل السنة، والجماعة بالقول بالتشبيه، ومن الذين اتهمهم، بذلك ـ أيضًا ـ الشهرستاني؛ حيث يقول: (فبالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات، واقتصر بعضهم على صفات دلت عليها، وما ورد به الخبر)[١]، ثم ذكر عدة أسماء قال عنهم إنهم من مشبهة الحشوية بزعمه، فقال: وأما مشبهة الحشوية فحكى الأشعري عن محمد بن عيسى أنه حكى عن مضر، وكهمس، وأحمد الهجيمي: أنهم أجازوا على ربهم الملامسة، والمصافحة، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا، والآخرة)[٢]. ثم أدخل في جملتهم داود الجواربي؛ وهو رافضي مُجَسِّم ليس من أهل السنة، والجماعة.

ولبيان وجه الحق في هؤلاء المنسوبين إلى القول بالتشبيه عمدنا إلى تراجمهم؛ لنرى مدى صحة هذا الاتهام، ورأينا أن الشهرستاني، وغيره قد أتوا بهذه الأسماء؛ ليؤكدوا اتهام الشيعة، والمعتزلة بأن في وسط أهل السُّنَّة من يقول بالتشبيه، ولعل الشهرستاني قدم خدمة للشيعة من خلال هذا الزعم الباطل خاصة إذا علمنا أنه أَلَّفَ كتابه لأحد رؤساء الإسماعيلية، وهذه الحقيقة المرة كشف النقاب عنها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعالى ـ فقال: (هو مع الشيعة بوجه، ومع أصحاب الأشعري بوجه، فهو يظهر الميل إلى الشيعة إما بباطنه مداهنة لهم، فإن هذا الكتاب كتاب الملل والنحل ـ صنفه لرئيس من رؤسائهم، وكانت له ولاية ديوانه، وكان للشهرستاني مقصود في استعطافه له، وكذلك صنف له كتاب (المصارعة) بينه وبين ابن سيناء؛ لميله إلى التشيع، والفلسفة، وأحسن أحواله أن يكون من الشيعة، إن لم يكن من الإسماعيلية، أعني المصنف له؛ ولهذا تحامل فيه للشيعة تحاملًا بينًا، وإذا كان في غير ذلك من كتبه يبطل مذهب الإمامية، فهذا يدل على المداهنة لهم في هذا الكتاب؛ لأجل من صنفه له)[٣].

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٢.

(٢) الملل والنحل، ص ١٠٥.

(٣) منهاج السنة النبوية، ج٦، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

فإذا كانت هذه هي حال الشهرستاني فلا يؤمن أن يكون قد ردد ما قالته الشيعة عن أهل السنة، والجماعة من وصف بعض علمائهم بالتشبيه وعند كشفنا عن أحوال هؤلاء العلماء، وجدنا أنهم بريئون من ذلك؛ ولبيان ذلك نقول أن كهمس بن الحسن قال عنه الذهبي: من كبار الثقات كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة (ت:١٤٩هـ)[١].

وقد أدخل الشهرستاني من ضمن علماء أهل السنة داود الجواربي الذي قال عنه الذهبي: رأس في الرفض، والتَّجْسِيم كان يزيد بن هارون يقول: الجواربي، والمريسي كافران)[٢]، وهذا ما يعزز قولنا من أن الهدف هو إلصاق مسميات بدعية، وإدخالها في نطاق أهل السنة، والجماعة، وهي بريئة منهم.

ومن الشخصيات التي نسب لها القول بالتشبيه رقبة بن مصقلة؛ وهو من كبار العلماء الثقات قال عنه الذهبي: كان ثقة مفوهًا من رجالات العرب)[٣]، فلو كان مشبهًا، لَمَا عُدَّ ثِقَةً، ولنسب إليه هذا الاتهام الباطل.

وَنُسِبَ القولُ بالتشبيه إلى محمد بن سجاع الثلجي، ويبدو أن هذا الاتهام ليس صحيحًا؛ لتوثيق الذهبي له، ونسبته إلى التوقف في القرآن، فلو كان التشبيه أحد مبتدعاته، لذكره، كما ذكر توقفه في مسألة القرآن، قال الذهبي: الفقيه أحد الأعلام، وكان من بحور العلم، كان يقف في مسألة القرآن، أي لا يقول مخلوق، أو غير مخلوق ـ مات سنة ٢٦٦)[٤].

وقد نُسِبَ إليه حديثُ الْفَرَسِ الذي ذكره ابن الجوزي في الموضوعات قال فيه: (إن الله ـ عز وجل ـ خلق الفرس فأجراها فعرقت ثم خلق نفسه منها)، وهذا حديث لا

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ٣١٦.

(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٢، ص ٢٣، وانظر ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج٥، ص ٤٠، المحققة.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ١٥٦، والرازي، الجرح والتعديل، ج٣، ص ٥٢٢.

(٤) سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص ٣٧٩.

يُشَكُّ في وضعه، وما وضع مثل هذا مسلم)[١].

وقال عنه ابن عدي: (كان يضع أحاديث في التشبيه ينسبها إلى أصحاب الحديث؛ ليثلبهم بها، ومنها حديث الْفَرَسِ)[٢]، ولكن كيف يوثقه الإمام الذهبي، وقد نسب إليه وضع مثل هذه الآحاديث الباطلة، ثم أن ابن عدي ـ رحمه الله ـ اتهمه بالوضع من خلال ما روي عنه؛ كحديث الفرس، فلا ندري مدى صحة نسبة التشبيه إليه خاصة إذا علمنا أن الدكتور محمد رشاد سالم ـ رحمه الله ـ قد وضع من ضمن مصنفاته كتاب (في الرد على المشبهة)، ولا يَسَعُنَا في مثل هذه الحالة إلا التوقف في نسبة هذا الاتهام، والله أعلم.

وَنُسِبَ القولُ بالتشبيه إلى أحد الرواة الضعفاء، وهو أحمد بن عطاء الهجيمي قال عنه الذهبي: (شيخ الصوفية العابد القانت، كان قدريًّا معتزليًّا، متروك الحديث، كان مغفلًا يحدث بما لم يسمع ـ (ت سنة٢٢٠)، وقال الذهبي: فما أقبح بالزهاد ركوب البدع)!![٣].

أَمَّا الشَّخْصِيَّةُ الْهَامَّةُ التي نُسِبَ إليها القول بالتشبيه، فهي شخصية مقاتل بن سليمان البلخي المفسر المشهور، وهذه النسبة ـ أيضًا ـ فيها أقوال متعارضة، (فالرازي اتهمه من قبل ضعفه في رواية الحديث، ولم ينسب إليه القول بالتشبيه)[٤]. وذكره العقيلي، وقال ما قال الرازي، ولم يشر إلى قوله بالتشبيه)[٥]، أما ابن عدي، فقد أورد نفي مقاتل أنه كان يقول بالتشبيه؛ حيث روى عن علي بن حسين بن واقد: أن الخليفة

---

(١) ابن الجوزي، الموضوعات، ج١، ص ١٠٥.

(٢) ابن عدي، الكامل في الضعفاء، ج٦، ص ٢٢٩٣، وقد ذكره الخطيب البغدادي ولم ينسب إليه القول بالتشبيه، وروى عن الإمام أحمد قوله فيه، مبتدع صاحب هوى، انظر تاريخ بغداد، ج٥، ص ٣٥١، وذكر الدكتور محمد رشاد سالم، من ضمن الكتب التي ألفها الثلجي هذا الكتاب في (الرد على المشبهة) انظر درء تعارض العقل والنقل، ج١، ص ١٤٨.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج٩، ص ٤٠٨.

(٤) الجرح والتعديل، ج٨، ص ٣٥٤.

(٥) الضعفاء الكبير، ج٤، ص ٢٣٩.

سأل مقاتلًا، فقال: بلغني أنك تشبه، فقال: إنما أقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فمن قال غير ذاك فقد كذب)(١). أما الذين اتهموه بالتشبيه صراحة فمنهم ابن حبان؛ حيث قال: (كان يأخذ عن اليهود، والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان مشبِّهًا يُشَبِّهُ الرب بالمخلوق، وكان يكذب مع ذلك في الحديث)(٢)، وقد نقل ابن عساكر طرفًا من كلام مقاتل في الصفات؛ حيث قال يحيى بن شبل: كنت جالسًا عند مقاتل بن سليمان، فجاء شاب فسأله: ما تقول في قول الله ـ تعالى ـ:﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، [القصص:٨٨] قال: فقال مقاتل: هذا جهمي، فقال: ما أدري ما جهم، إن كان عندك علم فيما أقول، وإلا فقل لا أدري، قال: ويحك، إن جهمًا ـ والله ـ، ما حج هذا البيت، ولا جالس العلماء، إنما كان رجلًا أعطي لسانًا، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، إنما هو كل شيء فيه الروح، كما قال ها هنا لملكة سبإ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، [النمل:٢٣]، لم تؤت إلا ملك بلادها، وكما قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، [الكهف:٨٤]، لم يؤت إلا ما في يده من الملك، ولم يدع في القرآن كل شيء، وكل شيء إلا سرده علينا)(٣).

وممن اتهمه بالتشبيه أحمد بن سيار بن أيوب قال: متهم، متروك الحديث، مهجور القول، وكان يتكلم في الصفات بما لا يحل الرواية عنه)(٤)، وقال أبو حنيفة: (أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبه)(٥).

وقال أبو حنيفة ـ أيضًا ـ: كلاهما مفرط، أفرط جهم حتى قال: أنه ليس بشيء،

(١) الكامل في الضعفاء، ج٦، ص ٢٤٢٩.

(٢) ابن حبان، المجروحين، ج٣، ص ١٤، وذكره البسوي، في باب من يرغب، الرواية عنهم، المعرفة والتاريخ، ج٣، ص ٣٤.

(٣) ابن عساكر، المختصر، ج٢٥، ص ٢٠٠، وانظر تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦٢.

(٤) ابن الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦٣.

(٥) تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦٤.

وأفرط مقاتل حتى جعل الله مثل خلقه)[١].

وتأتي أهمية اتهام أبي حنيفة له بالتشبيه؛ لأنه كان معاصرًا له؛ حيث توفي الرجلان في سنة ١٥٠هـ، ولكن لا نعلم مدى التشبيه الذي قال به مقاتل، لعدم وجود رواية في كتب أهل السنة المعتبرة عن شيء من أقواله في الصفات، ولعل بدعة مقاتل في الإرجاء، وبدعته في الصفات بما لا يحل الرواية عنه كانت مثار طعن العلماء عليه، وعدم توثيقه، إلا أنه ـ والله أعلم ـ ما كان قول مقاتل في الصفات ليصل إلى ما قال به غلاة الشيعة، ولو قال بمثل مقالتهم، لكان مصيره القتل، ومما يلفت النظر أن شيخ الإسلام ابن تيمة توقف في أمر مقاتل، وعزا ما نُسِبَ إليه إلى تشويهات من المعتزلة[٢].

ويبدو أن تفسيره المنسوب إليه يخلو من تهمة التشبيه، ودليل ذلك إقرار العلماء لهذا التفسير، لو كان له إسناد، فقد روى ابن الخطيب عن علي بن الحسين بن واقد قال: ذهب رجل بجزء من تفسير مقاتل إلى عبدالله، فأخذه عبدالله عنه، وقال: فلما ذهب يسترده قال: يا أبا عبدالرحمن، كيف رأيت؟ قال: يا له من علم! لو كان له إسناد)[٣]، وكان هذا التفسير عند سفيان بن عيينة، فلما سئل عن ذلك، وهل يروى عن مقاتل؟ قال: لا، ولكن أستدل به، وأستعين)[٤]، وكان إبراهيم الحربي يرى أن الناس يحسدون مقاتلًا، فقد سأله القاسم بن صفار عن كتب مقاتل فقال قلت: يا أبا إسحاق، ما للناس يطعنون على مقاتل؟ قال: حسدًا منهم لمقاتل)[٥].

و(سئل مقاتل بن حيان: أنت أعلم، أم مقاتل بن سليمان؟ قال: ما وجدت علم مقاتل في الناس إلا كالبحر الأخضر في سائر البحور)[٦].

---

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٢٥، ص ٥٠١.

(٢) سبق وذكرنا هذا التوقف عند بحثنا للمرجئة، انظر منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٦١٩، ولعل توقف ابن تيمية فيه كان يشمل القول بالصفات والإرجاء.

(٣) تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦١.

(٤) (٥) تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٦) تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦٢.

والنتيجة التي نخرج بها من عرض الشخصيات المنسوبة إلى أهل السنة، والتي قيل إنها تقول بالتَّشْبِيهِ هذه النتيجة تبين أن هذه الشخصيات ألصقت أسماؤها، وهي بريئة من هذا الاتهام الباطل، ثم أن هناك بعض المبتدعة، والضعاف المتروكين، الذين ليس لهم حجة على أهل السنة؛ وذلك لأن الأعلام الكبار الذين يمثلون أهل السنة، والجماعة هم الذين ردوا على أهل البدع عمومًا، وردوا روايات المبتدعة من جميع الفرق، سواء كانوا من الشيعة، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج، ثم إنهم لا يقبلون المشبهة سواء كانوا في نطاق فرق الابتداع، أو من الرواة الضعفاء الذين أتوا الأقوال المنكرة في باب الصفات؛ ولذلك عَدُّوهم من المبتدعة، وبهذا يتضح لنا أن التشبيه الذي زعمه الشيعة، والمعتزلة، والخوارج عند أهل السنة لا يتعدى محمد بن شجاع الثلجي، ومقاتل بن سليمان، وهما موضع خلاف في هذا المقام، كما سبق ذكره، وهذا من فضل الله على أهل السنة، والجماعة، أنهم أبعد الناس عن مبتدعات التشبيه، أو التعطيل، وعن كل أنواع البدع المنكرة التي جاءت بها فرق الضلال.

٣- مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ

يظهر لنا من عرض مقالات المشبهة على الصورة السابقة أن التشبيه برز كهجمة ابتداعية ضد المنهج العقدي الكامل، الذي جاء به القرآن الكريم، والمتمثل في أسمى معاني العرض للصفات، الإلهية المنزهة للرب - سبحانه وتعالى - عن مشابهة المخلوقين مما كان له الأثر في ردة الفعل اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، في طرح تصورات باطلة، تعارض القرآن والسنة، وتشوش على المؤمنين بالله - تعالى - معتقدهم الحق، فبادرت اليهودية إلى نشر صور التشبيه، وإطلاق معاني الأُلوهية على الأشخاص على يد عبدالله بن سبإ، ثم برزت فرق المجوسية متعاضدة مع السبئية في التجسيم، والتشبيه، ووصف الإله الحق على صورة بشرية؛ لتوهين عقائد المسلمين، وزرع بذور الجدل، والشك بينهم، وإشغالهم في نقاشات لا طائل من ورائها، والتي سكت عنها القرآن والسنة، وأعطت صور التنزيه الحق للإله مجالًا محدودًا؛ وذلك بمعرفة المعاني، وعدم الخوض في الكيفية، فخرج هؤلاء المبتدعة عن

هذا الحد الذي حدته الشريعة؛ ليقولوا بالكفر، والزندقة التي رأيناها قبيحة ممجوجة في صورتها السابق ذكرها.

ولقد كانت مواقف علماء السلف قوية جدًّا إذ لم يعتبروها مقالات صادرة عن فكرة تعضدها أدلة شرعية، أو أن أصحابها ينشدون الحق إنما رأوها نوعًا من أنواع الإلحاد، والزندقة؛ فلذلك كان أحد مناهج السلف في قمع هؤلاء الْمُشَبِّهَةِ المجسمة هو قتلهم، والتخلص، من دعواتهم الباطلة، فقد أحرق الإمامُ عليٌّ رضي الله عنه أولئك الذين ادعوا أنه إلهٌ؛ وذلك بعد أن طالبهم بالعودة عن مقالتهم الباطلة، وَأَمْهَلَهُمْ ثلاثةَ أيام، وهو يقول لهم إنه ليس كما يقولون، ولكنهم أُحْرِقوا، وكانوا أحد عشر رجلًا من السبئية الذين بعثهم عبدالله بن سبإ لنشر هذا المعتقد الضال، وهناك من العلماء من قال إن عليًا رضي الله عنه قد أحرق ابن سبإ معهم(١).

وعندما برزت المشبهة في أوائل القرن الثاني على يد غلاة الشيعة؛ مثل: المغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان، اتَّبعَ الأميرُ الأُموي خالد بن عبدالله القسري معهم نفسَ المنهج الذي طبقه علي رضي الله عنه، فقام بإحراقهم جميعًا، والتخلص منهم(٢).

أما الذين اتهموا بالتشبيه من ضعفاء الرواة من أهل السنة، والجماعة، فقد بدعهم علماء السلف، ولم يقروا مقالتهم، بل عدوها مساوية تمامًا لبدعة المعطلة الذين ينفون الصفات الإلهية، فقد رويت عدةُ أخبار عن أبي حنيفة رحمه الله ـ تعالى ـ في ذم مقاتل بن سليمان؛ حيث كان يقول لأبي يوسف: يا أبا يوسف، احذر صنفين من خراسان الجهمية، والمقاتلية)(٣).

---

(١) انظر ابن عساكر، المختصر، ج١٢، ص٢٢٢، وانظر ابن حجر لسان الميزان حيث ذكر أن عليا أحرق ابن سبإ مع المؤلهين له، ج٣، ص ٣٥٨.

(٢) انظر الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص ١٧٤، وانظر ابن كثير، الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٢٣١، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٢١، والرازي، الجرح والتعديل، ج١، ص ٦٣، وابن عدي، الكامل في الضعفاء، ج٦، ص ٢٣٥١.

(٣) ابن حبان، المجروحين، ج٣، ص ١٥.

وكان يقول (أتانا من المشرق رأيان خبيثان؛ جهم معطل، ومقاتل مشبه)[١].

وقد روى عن بعض السلف استحلال دم مقاتل؛ لقوله بالتشبيه، فقد كان خارجة ابن مصعب (ت:١٦٨) يقول: لم أستحل دم نصراني، ولو وجدت مقاتل بن سليمان في موضع لا يراني أحد لشققت بطنه)[٢]، وقال الكلبي: ما قتلت مسلمًا، ولا معاهدًا، ولو رأيت مقاتل بن سليمان؛ حيث لا يكون بيني وبينه أحد، لتقربت بدمه إلى الله ـ عز وجل)[٣].

فهل كانت هذه الأقوال من علماء السلف تعني أن المشبهة يجب أن يطبق عليهم جزاء القتل، كما فعل ذلك علي بن أبي طالب، وخالد القسري؟ ونحن نتساءل، ولا نجزم؛ وذلك لأن مقالات التشبيه المنسوبة إلى مقاتل ومحمد بن شجاع الثلجي ليست بمستوى فرقة المغيرة، وبيان، وابن سبإ، وغيرهم، كما مر بنا آنفًا، وقد مر بنا نفي مقاتل ما نسب إليه، ولعله رجع عن مقالته هذه قبل موته، والله أعلم.

وبهذا يتضح لنا حقيقة المشبهة الغلاة الذين قالوا بمقالات كفرية، خارجة عن ملة الإسلام، فكان التشبيه في صفوفهم هم، ولكنهم وصموا به أهل السنة؛ حقدًا وحسدًا عليهم؛ لأنهم يمثلون العقيدة الرَّبَّانية الحقة التي جاء بها الكتاب والسنة، ومذهب السلف ـ رضوان الله عليهم ـ، والذي ظنوه يبدأ من عهود الأئمة؛ كمالك، والشافعي، وأبي حنيفة، والإمام أحمد، وما عرفوا أن هذا المعتقد الحق هو معتقد الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومذهب أهل السنة، والجماعة، مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة، ومالكًا، والشافعي، وأحمد؛ فإنَّهُ مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنة والجماعة)[٤] هذه هي حقيقة المشبهة مقالاتها الباطلة، والمنحرفة.

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث، ١٤١ ـ ١٦٠هـ ، ص ٦٤٢.

(٢) الذهبي، المصدر السابق حوادث، ١٤١ ـ ١٦٠هـ، ص ٦٤٢.

(٣) ابن حبان، المجروحين، ج٣، ص ١٥.

(٤) منهاج السنة النبوية، ج٢، ص ٦٠١.

فقد ظهرت أول ما ظهرت في وسط الفرق الهدامة، التي رامت من أقوالها هذه معارضة القرآن، الذي جاء بأسمى معاني التنزيه للإله الحق ـ سبحانه ـ، ولكن صلابة هذا الدين، وقوة علماء السلف أبطلت كل هذه الدعاوى، فقد وقفوا للمشبهة، كما وقفوا بالمرصاد للمعطلة النفاة، واندثرت المشبهة، كما اندثر غيرها من فرق الابتداع، وبقي المعتقد الحق في أسماء الله، وصفاته هو الذي يفتخر به أهل السنة والجماعة.

* * * * *

الْفَصْلُ السَّابِعُ

الْجَهْمِيَّةُ

١ـ تعريف بِالْجَهْمِ بن صفوان، تمثل الجهمية تيارًا كبيرًا من تيارات الابتداع التي ابْتُلِيَتْ بها الأمةُ الإسلامية في الثلث الأول من القرن الهجري الثاني؛ فهي كما يقول الذهبي: تُنْسَبُ في الأصل إلى (جهم بن صفوان، وكنيته أبو محرز) السمرقندي، الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صِغار التابعين، وما علمته روى شيئًا، لكنه زرع شرًّا عظيمًا)[١].

وكان مولى لبني راسب، وَكَتَبَ للحارث (بن سريح)[٢]، وكان من أهل بلخ ظهرت بدعته بترمذ، وقتل بمرو[٣].

وقد عاصر مقاتل بن سليمان المفسر المشهور، وكان يستمع لدروسه (حتى وقعت بينهما العصبية، وقام كل واحد يؤلف، وينقض على الآخر مذهبه[٤].

وكان مشهورًا بالجدال، والخصومات كما يقول الإمام أحمد: (فكان مما بلغنا من أمر الجهم ـ عدو الله ـ أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات، وكلام، وكان أكثر كلامه في الله ـ تعالى ـ[٥]. وهذا يدل على فسادٍ ذاتيٍّ في طبيعتِهِ، أسهمت المؤثرات الخارجية في إبراز انحرافه، ومعاداته لعقيدة الأمة الحقة، فهل كان الجهم إحدى الصنائع التي رتبها أعداء الإسلام، ودفعوها للخوض في الصفات الإلهية، وعقيدة الأمة على هذا النحو المبتدع الضال؟ هذا ما سنجيب عليه

(١) ميزان الاعتدال، ج١، ص ٤٢٦.

(٢) ابن حجر، لسان الميزان، ج٢، ص ١٧٩.

(٣) السمعاني، الأنساب، ج٢، ص ١٣٣.

(٤) ابن عدي، الكامل في الضعفاء، ج٦، ص ٢٤٢٩، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١٠، ص ٢٥٠.

(٥) الإمام أحمد، الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٦٥، ضمن عقائد السلف.

بإذن الله.

وكانت لديه جرأة قبيحة على كتاب الله - عز وجل -، فقد روى عبدالله بن أحمد عن أبي نعيم البلخي شجاع بن أبي نصر قال: (سمعت رجلًا من أصحاب جهم كان يقول بقوله، وكان خاصًّا به حتى تركه، وجعل يهتف بكفره، قال: رأيت جهمًا يومًا افتتح سورة (طه)، فلما أتى على هذه الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، [طه:٥]، قال: لو وجدت السبيل إلى حكها لحككتها، قال: ثم قرأ حتى أتى على آية آخرى، فقال: ما كان أظرف محمدًا ﷺ حين قالها، قال: ثم افتتح سورة القصص فلما أتى على ذكر موسى - صلوات الله عليه - جمع يديه، ورجليه، ثم دفع المصحف، ثم قال: أي شيء هذا؟ ذكره ها هنا فلم يتم ذكره، وذكره هنا فلم يتم ذكره[1].

أما عن طلبه للعلم، ومجالسته للعلماء، فهذا ما لم يتم، وقد نفى علماء عصره أن يكون له مجالسة، فقد روى اللالكائي عن أبي معاذ البلخي (خلف بن سليمان قال: كان جهم على معبر ترمذ، وكان رجلًا كوفي الأصل، فصيح اللسان، لم يكن له علم، ولا مجالسة لأهل العلم[2]، وقال عنه مقاتل بن سليمان - أيضًا -: (إن جهمًا ما حج هذا البيت، ولا جالس العلماء، إنما كان رجلًا أُعْطِي لسانًا)[3].

وكان لهذا الخواء العقدي أثره في سرعة انحرافه عندما قابله السمنية، وجادلوه، فتحير فلم يدر من يعبد، فامتنع عن الصلاة أربعين يومًا، ولا ندري إن كان عاد إلى الصلاة بعد ذلك؛ حيث انطلق ينكر صفات الله - تعالى -، وكثيرًا من عقائد الإسلام، وهذا ما سوف نوضحه في بحث مفصل بإذن الله - تعالى -، وسنعرض لمصادر بدعته الحقيقية، ثم نفصل في أسباب مقتله، ونرد على المعاصرين الذين قالوا: إنه قتل لأسباب سياسية، وسنكشف النقاب عن علاقته بالحارث بن سريح، وما يجمعها من القول ببدعة الإرجاء؛ وذلك للكشف عن حقيقة حاله، وحياته التي عاشها على هذا النهج

(١) السنة، ج١، ص ١٦٧، والبخاري، خلق أفعال العباد، ص ٣٨.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ج٣، ص ٣٨٠.

(٣) ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٦١.

المفصل، لنبطل مزاعم جملة من الكتاب المعاصرين الذين انبروا للدفاع عنه، وعن بدعته الضالة.

٢- مُبْتَدَعَاتُ الْجَهْمِ فِي الْعَقِيدَةِ.

سنعرض ابتداءً إجمالاً لمبتدعات الجهم التي جاء بها، ومن المعلوم أنه لا يوجد كتاب مصنف للجهم يعرض فيه آراءه، وقد استوفى علماء السلف هذه المبتدعات، وردوا عليها، فأول المبتدعات التي قال بها الجهم بن صفوان، القول بِخَلْقِ الْقُرْآنِ؛ وهي فكرة قديمة كما سبق وقلنا؛ حيث تعود إلى طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي، وكان يقول بخلق التوراة، وقد استطاع تهيئة الجعد بن درهم للقول بها، ثم تلقفها الجهم بن صفوان، وأخذها المعتزلة عن الجهم حتى امتحنوا الأمة بها في زمن المأمون، والمعتصم، والواثق، وكان القصد من طرح هذه البدعة الباطلة تعطيل الصفات، والزعم أن الله لا يتكلم كما زعم الجعد أن الله ما كلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً. وقد بنى الجهم على هذا الأصل المبتدع تعطيله للصفات.

فقال: (إن الله لا يوصف بشيء مما يوصف به العباد فلا يجوز أن يقال في حقه أنه حي، أو عالم، أو مريد، أو موجود؛ لأن هذه صفات تطلق على العبيد، وقال: إنما يقال في وصفه إنه قادر موجد، فاعل، خالق، محيٍ، ومميت؛ لأن هذه الصفات لا تطلق على العبيد، وكان يقول كلام الله حادث ولكن لا يجوز أن يسمى متكلمًا بكلامه[1].

وينقل الملطي مبتدعات الجهمية، فيقول: منهم صنْف من المعطلة يقولون: إن الله لا شيء، وما من شيء، ولا في شيء، ولا يقع عليه صِفَةُ شيء، ولا معرفة شيء، ولا توهم شيء، ولا يعرفون الله فيما زعموا إلا بالتخمين، فوقعوا عليه اسم الألوهية، ومنهم صنف زعموا أن الله شيء، وليس كالأشياء؛ لا يقع عليه صفة، ولا معرفة، ولا مخلوق، وأنه لم يكلم موسى، ولا يكلم قط، وإن الله خلق قولًا، وكلامًا، فوقع ذلك

(١) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص ١٠٨، والبغدادي، الملل والنحل، ص ١٤٥.

القول، والكلام في مسامع من شاء من خلقه، فبلغه السامع عن الله بعدما سمعه، فسمي ذلك قولًا، وكلامًا ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ ومنهم صنف زعموا: أنه ليس بين الله وبين خلقه حجاب، ولا خلل، وأنه لا يتخلص من خلقه، ولا يتخلص الخلق منه، إلا أن يفنيهم أجمع، فلا يبقى من خلقه شيء، وهو مع الآخر في آخر خلقه ممتزج به، فإذا أمات خلقه تخلص منهم، وتخلصوا منه، وأنه لا يخلو منه شيء من خلقه، ولا يخلو هو منهم ـ تَعَالى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كبيرًا).

ومنهم صنف: أنكروا أن يكون الله ـ سبحانه ـ في السماء، وأنكروا الكرسي، وأنكروا العرش، وأن يكون الله فوقه وفوق السماوات من قبل هذا، وقالوا إن الله في كل مكان حتى في الأمكنة القذرة ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومنهم صنف قالوا: لا نقول إن الله بائن من الخلق، ولا غير بائن، ولا فوقهم، ولا تحتهم، ولا بين أيمانهم، ولا عن شمائلهم، ولا هو أعظم من بعوض، ولا قراد، ولا أصغر منها، ولا نقول هذا، ولا نقول إن الله قوي، ولا شديد، ولا حي، ولا ميت، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يسخط، ولا يحب، ولا يرحم، ولا يفرح، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يقبض، ولا يبسط، ولا يضع، ولا يرفع ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومنهم صنف زعموا: أن العباد لا يرون الله، ولا ينظرون إليه في الجنة، ولا غيرها، وزعموا أن الجنة والنار لم يخلقهما الله بعد، وأنهما تفنيان بعد خلقهما، فيخرج أهل الطاعة من الجنة بعد دخولها إلى الحزن بعد الفرح، والغم بعد السرور، والشقاء بعد الرخاء، جميع أهل الجنان من الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وأن الجنة تخرب بعد عمارتها حتى تصير رميمًا لا أحد فيها، ويخرج أهل النار بعد دخولها، فيصيرون إلى الفرح بعد الحزن، وإلى السرور بعد الغم، وإلى الرخاء بعد الشقاء، جميع أهل النار من الأبالسة، والفراعنة، والكافرين، وأن النار تخرب بعد عمارتها حتى تخفق أبوابها، وليس فيها أحد، فيصرف ثواب الله عن أوليائه، وعقاب الله عن أعدائه، ـ تعالى اللهُ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومنهم صنف أنكروا الميزان، فأنكروا أن يكون لله ميزانًا يزن فيه الخلق أعمالهم،

وأنكروا الصراط، وأنكروا الكرام الكاتبين، وأنكروا الشفاعة، وأنكروا عذاب القبر، ومنكرًا ونكيرًا، وزعموا أن الروح تموت كما تموت البدن، وأن ليس عند الله أرواح ترزق؛ شهداء، ولا غيرهم، وأنكروا الإسراء، وأنكروا الرؤيا، وأنكروا أن يكون ملك الموت يقبض الأرواح ـ تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ[1].

ثم نقل بعد ذلك إنكارات جهم التي بنى عليها الجهمية بدعتهم فيما بعد؛ حيث أنكر أن يكون الله على العرش[2]، وأنكر أن يكون لله كرسي[3]، وأنكر أن يكون الله في السماء دون الأرض[4]، وأنكر جهم الميزان[5]، وأنكر جهم، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾، [الانفطار: ١٠-١١][6]، وأنكر جهم أن يكون لله ـ جل وعلا ـ حجابٌ، وأنكر جهم أن الله ـ تعالى ـ ينزل إلى السماء الدنيا[7]، وأنكر جهم النظر إلى الله ـ عز وجل ـ[8]، وأنكر جهم أن ملك الموت يقبض الأرواح[9]، وأنكر عذاب القبر، ومنكرًا، ونكيرًا[10]، وأنكر جهم أن الله يتكلم[11]، وأنكر جهم أن الله كلم موسى تكليمًا[12]، وأنكر جهم أن الله استوى إلى السماء[13]، وأنكر

(١) الملطي، التنبية والرد، ص ٩٦ - ٩٩ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٥) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٦) المرجع السابق، ص ١١١.

(٧) المرجع السابق، ص١١٢.

(٨) المرجع السابق، ص ١١٦.

(٩) المرجع السابق، ص ١٢٣.

(١٠) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(١١) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(١٢) الملطي، التنبيه والرد، ص ١٣١.

(١٣) المرجع السابق، ص ١٣٣.

الشفاعة[١]، وأنكر أن يكون لله ـ تعالى ـ يد[٢]، وأنكر أن الله ـ جل اسمه ـ خلق الجنة والنار[٣]، وزعم أن الجنة والنار تفنيان بعد خلقهما[٤].

وقال (بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها[٥]، وزعم أن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، ولا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار، وإنما يخلق الله ـ تعالى ـ الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازًا كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس، وغربت، والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر، قال: وإذا ثبت الجبر، فالتكليف ـ أيضًا ـ كان خبراً[٦].

٣ـ مَصَادِرُ فِكْرِ الجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ:

لا نجاوز الحقيقة إذا استبعدنا أي صلة للجهم بن صفوان بالتصور الصحيح للعقيدة الحقة، والسبب في هذا أن الجهم لم يجلس مجالس العلم الشرعي يؤكد هذه الحقيقة ما سبق أن ذكرناه عن خلف بن سليمان، ومقاتل بن سليمان[٧].

فإذا كان الجهم بهذه المثابة من فراغه من العلم، وعدم مجالسته للعلماء، فالاحتمال الآخر أن يكون من منتابي مجالس الجدل، والخصومات التي كان يعقدها أرباب الملل، والأديان المخالفة للإسلام، ولعله كان أحد الذين كانوا يرافقون واصلا، وعَمْرو بن عبيد إلى مجالس الثنوية، واليهود، التي سبق وعرضنا لها عند حديثنا عن المعتزلة،

(١) المرجع السابق، ص ١٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٧.
(٤) المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٥) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢١١.
(٦) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٨٧.
(٧) انظر الإمام أحمد الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٦٥، ضمن عقائد السلف.

ولعل الجدل، وفصاحة اللسان جاءت من مثل هذه المجالس التي كانت تهيئ أمثال هؤلاء المبتدعة لإثارة المشكلات، والشُّبَهِ، والدعوة لها، حتى اتسع نطاقها على الصورة المعروفة التي انتهت إليها.

أمَّا مصادرُ فكر الجهم بن صفوان، فيمكن عرضها على الصورة التالية:

الأَثَرُ الْيَهُودِيُّ فِي فِكْرِ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ:-

لقد كان الأثر اليهودي الهدام واضح المعالم في نشأة أغلب فرق الابتداع؛ كالخوارج، والشيعة، والمشبهة، والجهمية، وقد كان الجعد بن درهم هو السلسلة التي تتصل باليهود، التي أخذ عنها الجهم التعطيل، والقول بخلق القرآن، وقد جمع الجعد ابن درهم بين الزندقة[1]، والإلحاد، والدهرية، والمنانية، فهو في الأصل من أهل حران تلك البيئة التي كانت تعج بمختلف الفلسفات، والآراء التي انتفضت عندما جاء الإسلام، وعكفت على اختراع البدع المناهضة لهذا الدين الجديد، فقامت بطرح صنائعها الضالين؛ كالجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وغيرهم ممن تطوعوا للصد عن سبيل الله، ومقاومة هذا الدين بشتى السبل والوسائل، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ تعالى ـ عن الجعد بن درهم: (وكان يقول إنه من أهل حران، وعنه أخذ الجهم بن صفوان مذهب نفاة الصفات، وكان بحران أئمة هؤلاء الصابئة الفلاسفة، بقايا أهل الشرك، ونفي الصفات، والأفعال، ولهم مصنفات في دعوة الكواكب كما صنف ثابت بن قرة، وأمثاله من الصابئة الفلاسفة أهل حران[2]، والنصارى الذين تداعوا مع اليهود لطرح الآراء الضالة، وتوظيف الجعد، وجهم، وغيرهما لنشرها بين المسلمين، ولإيضاح هذه الحقيقة التي تعني تعدد مصادر الفكرة الجهمية المشبوهة سنعطي تعريفًا بالجعد بن درهم باعتباره الشخصية الأساسية في تطور فكر الجهم، فهذا الزنديق الضال لا يقل خطورة عن جهم بن صفوان نفسه، فقد تقلد الجهم معتقده الضال،

(١) الزنديق: من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١١٥١.

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج١، ص ٣١٣.

ونشره، واشتهر به.

قال ابن النديم: (كان الجعد بن درهم (قتل سنة ١٢٤) الذي ينسب إليه مروان بن محمد، فيقال مروان الجعدي، وكان مؤدبًا له، ولولده، فأدخله في الزندقة، وقتل الجعدَ هشامُ بن عبدالملك في خلافته، بعد أن أطال حبسه في يد خالد بن عبدالله القسري، فيقال إن آل الجعد رفعوا قصته إلى هشام يشكون ضعفهم، وطول حبس الجعد، فقال هشام أهو حي بعد؟ وكتب إلى خالد في قتله، فقتله يوم أضحى، وجعله بدلًا من الأضحية[١].

ونقل ابن كثير عن ابن عساكر: (أنه كان يتردد على وهب بن منبه (ت:١١٣)، وأنه كلما راح إلى وهب يغتسل، ويقول: أجمع للعقل، وكان يسأل وهبًا عن صفات الله - عز وجل - فقال له وهب يومًا: ويلك يا جعد، أقصر المسألة عن ذلك، إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا، ما قلنا ذلك، وأن له عينًا، ما قلنا ذلك، وأن له نفسًا، ما قلنا ذلك، وأن له سمعًا، ما قلنا ذلك، وذكر الصفات من العلم، والكلام، وغير ذلك، ثم لم يلبث الجعدُ أن صُلِبَ، ثم قُتِلَ)[٢].

ويبدو من هذا النص أن الجعد كان معطلًا للصفات، منكرًا لها، ولم يكن متأولًا كما أشاعه المبطلون، الذين يدافعون عن الزنادقة، وبذلك يكون الجهم قد أخذ التعطيل المحض عن الجعد، وأن ما ظنه البعض أنه كان متأولًا مجتهدًا لا صحة له، بل إن هذا التأويل المزعوم كان يقول به لمداراة شنعة التعطيل، والإنكار، وإذا كان الجعد قد قُتِلَ بسبب تعطيله، وإنكاره للصفات، فإن الجهم - أيضًا - سَلَّط اللهُ عليه من قتله؛ جزاء إنكاره، وتعطيله.

ويوضح لنا ابن حزم شيئًا من زندقة الجعد، فيقول: إن الجعد يقول: (إذا كان الجماع يتولد منه الولد، فأنا صانع ولدي، ومدبره، وفاعله، ولا فاعل له غيري، وإنما

(١) الفهرست، ص ٤٧٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص ٣٦٥.

يقال إن الله خلقه مجازًا)[١].

ويقول ابن حجر: (وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة؛ منها: أنه جعل في قارورة ترابًا، وماءً، فاستحال دودًا، وهوام، فقال: أنا خلقت هذا؛ لأني كنت سبب كونه، فبلغ ذلك جعفر بن محمد الصادق (ت:١٤٨)، فقال: ليقل: كم هو، وكم الذكر منه، والإناث إن خلقه، وليأمر الذي يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره)[٢].

وبلغت زندقة الجعد بن درهم مداها باحتقاره لدين الإسلام؛ حيث يقول ابن الأثير: (إن الجعد كان زنديقًا، وعظه ميمون بن مهران، فقال: لشاة قباذ أحب إليَّ مما تدين به، فقال له: قتلك الله وهو قاتلك، وشهد عليه ميمون، وطلبه هشام، فظفر به، وسيره إلى خالد القسري، فقتله)[٣].

ويتضح الأثر اليهودي في مقالة الجهم من خلال السلسلة التي أخذ عنها الجعد مقالته بخلق القرآن؛ حيث قال ابن عساكر: (وأخذه جهم من الجعد بن درهم، وأخذه جعد بن درهم عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سَحَرَ النبي ﷺ، وكان لبيد يقرأ القرآن، وكان يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت، وكان طالوت زنديقًا، وأفشى الزندقة، ثم أظهره جعد بن درهم)[٤].

وعندما تقدم خالد بن عبدالله القسري لقتل الجعد بين سبب ذلك، وهو فساد معتقده، وإنكاره للصفات الإلهية؛ حيث قال: (أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم؛ فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا - تَعَالَى الله عَمَّا يقول الجعد بن درهم علوًّا كبيرًا - ثم نزل، وحز رأسه،

---

(١) الفصل في الملل والنحل، ج٥، ص ٧٠.

(٢) ابن حجر، لسان الميزان، ج٢، ص ١٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٣٣٢، ط٣، ١٤٠٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) ابن عساكر، المختصر، ج٦، ص ٥١، وانظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٢٩٤.

بالسكين، قال قتيبة بن سعيد: بلغني أن جهمًا كان يأخذ هذا الكلام من الجعد بن درهم)[١].

وقد حاول مجموعة من الكُتَّاب المعاصرين تبرئة الجعد والجهم من أصل مقالتهم اليهودية هذه؛ حيث يقول الدكتور النشار: (ويبدو أن القصة، وضعت من أعداء الجهم لتبين أن أصل المذهب يهودي من اليمن)[٢]، ثم يخلص إلى القول مدافعًا عن الجعد، فيقول: (أولًا: مجادلة السلف من ناحية، والمعتزلة من ناحية أخرى، تعليل موقف الجعد بن درهم، بسبب معيشته بين اليهود، وأنه أخذ آراءه منهم، ثَانِيًا: لا نستطيع أن نصدق أن قتله كان لآرائِهِ الفكرية بل يبدو أنه لسبب سياسي؛ فإن خلفاء الأُمويين، وولاتهم كانوا أبعد الناس عن قتل المسلمين في مسائل تمت إلى العقيدة. ثَالِثًا: كل ما ذكر لنا عنه أنه كان يقول بخلق القرآن، والتعطيل، وأنه ينادي بأن الله لم يكلم موسى تكليمًا، يمكننا إذن من الأقوال السالفة أن نضع صورة تركيبة لآراء الجعد؛ فالجعد أول من نادى بالتعطيل، والتعطيل اصطلاح وضعه السلف، وصمًا للمعتزلة، وسالفيهم، ومعناه الفني إنكار الصفات القديمة القائمة بالذات)، ثم يتخذ النشار المعاذير للجعد، فيزعم قائلًا: (غير أن ثمة تفسيرًا آخر لكلام الجعد، إذا صح أن الجعد كان يعيش في وَسَطٍ يهودي: إنه أراد أن ينكر الفكرة اليهودية المجسمة القائلة بأن الله تجلى تجليًا جسمانيًا لموسى، فأراد الجعد أن يناقض هذا بقوله: إن الله لم يكلم موسى تكليمًا؛ أي لم يكلمه على تلك الصورة المجسمة التي عرفها اليهود)، ثم تستهوي النشار فكرة الاغتسال التي يقوم بها الجعد، وتبلغ الحماسة مداها عنده فيقول: (ولكن هذا كله لن يفسر لنا الموقف الحقيقي للجعد بن درهم تجاه الفكر الإسلامي، ووضعه الممتاز فيه غير أن النص الرائع الذي عثرت عليه في ابن عساكر في تاريخه يبين الموقف الأصيل لهذا المفكر المجهول لدى الباحثين؛ وهو أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه، وأنه كلما راح

(١) ابن عساكر، المختصر، ج٦، ص ٥١، وابن كثير، ج٩، ص ٣٦٤، والسمعاني الأنساب، ج٢، ص ١٣٤، تعليق عبدالله البارودي، ط١، ١٤٠٨هـ، دار الجنان، بيروت.

(٢) النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص ٣٣٠.

إلى وهب يغتسل، ويقول: أجمع للعقل، إنه ليعلن أنه العقل ما يسعى إليه، ويجمع نفسه له، لقد راعه الحشو الكبير، والإسرائليات التي دخلت الحديث، فيسأل عن صفات الله، وهل لله حقًّا يد كأيدينا إنه يريد التفسير العقلي، إنه يريد تحكيم العقل في كل شيء، إن جبار بني أمية قد اهتز غضبًا حين استمع لآرائه، وخاصة أنه من مواليهم، فطلبه، فهرب إلى الكوفة، وهناك قتل، بعد أن اعتنق آراءه رجل كانت له الأهمية الكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي؛ وهو الجهم بن صفوان، ولكن الجعد كان أول رواد التفسير العقلي في الإسلام)[1].

وبعد هذا الدفاع المستميت عن هذا الزنديق الملحد من الدكتور النشار، وامتداحه لآرائه في نفي الصفات، والتأويل العقلي، ماذا يمكننا أن نقول، ولماذا عشيت أبصار أمثال هؤلاء الكتاب عن مواقف علماء السلف، وجندوا أنفسهم للدفاع عن هؤلاء المارقين الذين خرجوا عن دين هذه الأمة، ثم جاء من جاء في العصر الحديث، ليعطيهم صورة مخالفة تمامًا للصورة التي عاشوها؛ وهي صورة المبتدع الضال التي حكم بها عليهم علماء السلف الصالح، إن الدكتور النشار يدافع عن كل مبتدع ضال، ويهاجم علماء السلف مهاجمة عنيفة، ويدافع عن متناقضات عجيبة من البدع، فهو يدافع بحماس شديد عن القدرية، وأنهم دعاة الحرية الإنسانية، ويدافع بنفس الوقت عن الجبرية، وعن الجهم، والجعد، ويتخذ لجبريتهم المعاذير، ثم يقع في نفس التناقض، فيتهم الأمويين بأنهم هم الذين روجوا للقول بالجبر، ودعوا له، فلماذا يعجبهم كل مبتدع ضال مخالف لطريقة الرسول، وصحابته الكرام، أم هو نهج الاستشراق المسيطر على عقولهم، وقلوبهم؟!.

وفي نفس هذا الاتجاه نجد الدكتور الجابري - أيضًا - يبرر آراء الجعد، والجهم، فيقول مدافعًا بجهالة واضحة عن قولهم بخلق القرآن: (وفي هذا الإطار أيضًا يجب أن نفهم قوله، وقول أستاذه الجعد بن درهم بخلق القرآن، القرآن كلام الله،

(١) النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص٣٣١ - ٣٣٢ بتصرف.

والكلام هو إفصاح عن العلم، وتعبير عنه وإذن فإذا كان العلم محدثًا وجب أن يكون الكلام محدثًا ـ أيضًا ـ، وبالتالي فالقرآن مخلوق، أما إذا كان القرآن قديمًا ـ وهو كلام اللَّه ـ، فإن ذلك سيؤدي بنا إلى قدم علم الله، وبالتالي إلى الجبر[١]، وبالتالي إلى إسقاط المسئولية، والقول بخلق القرآن، وحدوث علم الله معناه أن جميع ما يقوله القرآن عن الأفعال إنما ينصرف معناه إلى زمن الفعل إلى أسباب النزول، وهذا يفسر النسخ، كما يفسر ما يحكيه عن الأقوام الماضية، أو الحاضرة التي تعصي أوامره، ثم يأتي بأوامر أُخَرَ، فالحوار والجدال في القرآن يجري مع مخلوقات تتغير أفعالها، ويتنوع سلوكها، فكيف يمكن فهم ذلك إذا قلنا إنه قديم أزلي؟! وهناك جانب آخر، وهو أن في القرآن آيات تفيد الجبر[٢]، وأخرى تفيد الاختيار، وحسب نظرية الجهم، يمكن القول إن التي تفيد الجبر، تعبر عن تجليات للضرورة التي خلقها الله في الكون، وأن التي تفيد الاختيار تعبر عن مظاهر حرية الإرادة، والقدرة التي خص الله بها الإنسان)، ويخلص إلى القول بأنه يجب اعتبارهم سلفًا، وهم في الحقيقة سلف لأمثال هؤلاء المعاصرين الذين جندوا أنفسهم لإحياء أهل البدع، والمبتدعات، وتزيين أقوالهم من جديد؛ حيث يقول: (وهكذا يمكن القول إنه بهذا النوع من القراءة السياسية لآراء المتكلمين الأوائل نستطيع فهمها، بل تفهمها ـ أيضًا ـ، أن خصومهم في عصرهم، أو في العصر التالي له، لم يكونوا مستعدين لتفهمها؛ لأنهم كانوا خصومًا سياسيين لهم، أو لتلامذتهم؛ ولذلك لم يفهموا منها إلا ما يفهمه الخصم من آراء خصمه، أما نحن الذين نعتبر آراء هؤلاء، وأولئك (تراثًا) لنا، فيجب أن نضع خصومات الماضي جانبًا، وأن

---

(١) كل هذه الجهالات راجعة إلى جهل الجابري وغيره بعقيدة القدر في الإسلام متابعين لمنهج الجعد والجهم وغيلان الذين أداهم عجز عقولهم إلى الانحراف عن عقيدة الحق، فلو كان الجابري يفهم القدر لما أدخل نفسه في مثل هذه الجهالات التي يدافع بها عن الزنادقة والملاحدة.

(٢) ليس في القرآن آيات تفيد الجبر مطلقا، وذلك أن الجبر لفظ مبتدع قال به ذوو العقول العليلة الذين خاضوا في القدر على غير منهج السلف، وقد سبق أن بينا فساد هذا المعنى.

نحاول فهم رأي كل فريق بوصفه صديقًا بل سلفًا)[١].

وهكذا يخلص الدكتور الجابري إلى ضرورة اعتبار هؤلاء المبتدعة سلفًا، ويجب أخذ ما قالوه باعتباره تراثًا، فهل هناك أوضح من هذه الدعوة الصريحة للأخذ بآراء الجعد، والجهم، إننا نرى أن جملة من المعاصرين قد تواصوا على منهج واحد، وهو محاولة تجميل الوجوه القبيحة، والدعوات الهدامة، بحجج باطلة من أبرزها القول بأن نهايات المبتدعة من القتل، والتشريد كانت بسبب الخصومات السياسية، ولكن الحقيقة التي يخفيها هؤلاء المعاصرون عن جيل الشباب المسلم المعاصر، هي أن الذين فضحوا هؤلاء المبتدعة، وبينوا فساد معتقداتهم قبل حكام بني أمية هم علماء السلف الأبرار الذين مَيَّزوا بين الحق، والباطل، وكشفوا آراء المبتدعة المارقين، فكان واجب الخلفاء حماية العقيدة، والنزول عند رغبة علماء السلف، وجمهور الأمة الذين يهيمن عليهم منهج السلف، فقاموا بقتلهم، والتخلص من شرورهم، ودعواتهم الهدامة.

أَثَرُ السَّمْنِيَّةِ[٢] الْهُنُودِ فِي انْحِرَافِ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ:

لقد كان للمناقشة التي تمت بين الجهم، والسمنية الهنود الأثر الكبير في حيرة الجهم، وضلاله، وكل هذا نابع في الأصل عن خواء عقدي، وفكري كان يعانيه الجهم بن صفوان، فلو كان عنده أدنى معلومات عن عقيدة الإسلام الحق لما سقط في هذه المناظرة، وانحرف هذا الانحراف الكبير الذي كان له أثره البالغ على من تبعه من فرق الضلال التي كانت متسترة بالإسلام من المنافقين المندسين في وسط المجتمع الإسلامي؛ ولذلك تلقفوا بدع الجهم، وضلالاته، ونشروها بين أتباعهم، وقد يقول قائل إن الجهم أجاب السمنية بما يعارض أقوالهم، فكيف يكون هناك لهم أثر عليه، ونحن نقول إن الجهم بن صفوان لم يكن على شيء من العقيدة الحقة، فجاء هؤلاء السمنية، فأجهزوا على البقية الباقية من إيمانه ـ إن وجد ـ وأسهموا في انحرافه المشهور،

(١) د. عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) السمنية: قوم بالهند دهريون قائلون بالتناسخ، الفيروز آبادي، القاموس المحيط ص ١٥٥٧.

حتى استذكر حجج النصارى كما يقول الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ فكان للسمنية الأثر الكبير في الجهم عن طريق الشك، والقول بالتعطيل، ونفي الصفات، وهكذا فعل السمنية بالجهم بن صفوان، وهذا ما سنراه.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: (من أعظم أسباب بدع المتكلمين من الجهمية، وغيرهم، قصورهم في مناظرة الكفار والمشركين؛ فإنهم يناظرونهم، ويحاجونهم بغير الحق، والعدل؛ لينصروا الإسلام زعموا بذلك، فيسقط عليهم أولئك؛ لما فيهم من الجهل، والظلم، ويحاجونهم بممانعات، ومعارضات، فيحتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، والظلم، والعدوان لإخوانهم المؤمنين بما استظهر عليهم أولئك المشركون، فصار قولهم مشتملًا على إيمان، وكفر، وهدى، وضلال، ورشد، وغي، وجمعوا بين النقيضين، فصاروا مخالفين للكفار، والمؤمنين[١].

وهم بهذا ينطبق عليهم قول شيخ الإسلام: (أحدثتم بدعًا تزعمون أنكم تنصرون بها الإسلام، فلا للإسلام نصرتم، ولا لعدوه كَسَرْتم، بل سلطتم عليكم أهل الشرع، والعقل)[٢].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ: (فكان مما بلغنا من أمر الجهم ـ عدو الله ـ أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات، وكلام، وكان أكثر كلامه في الله ـ تعالى ـ، فلقي أناسًا من المشركين يقال لهم السمنية، فعرفوا الجهم، فقالوا له نكلمك؛ فإن ظهرت حجتنا عليك، دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألست تزعم أن لك إلهًا، قال الجهم: نعم، فقالوا له: فهل رأيت إلهك قال: لا، قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قالوا: فشممت له رائحة؟ قال: لا، قالوا: فوجدت له حسًّا؟ قال: لا، قالوا: فوجدت له مجسًّا؟ قال: لا، قالوا: فما يدريك أنه إله؟) قال: فتحير الجهم، فلم يدر من يعبد

(١) الفتاوى الكبرى، ج٥، ص ٣٨.

(٢) منهاج السنة النبوية، ج٣، ص ٣٦١.

أربعين يومًا، ثم إنه استدرك حجة؛ مثل حجة زنادقة النصارى؛ وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يحدث أمرًا دخل في بعض خلقه، فتكلم على لسان خلقه، فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار.

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني: ألست تزعم أن فيك روحًا؟ قال: نعم، فقال: هل رأيت روحك؟ قال: لا، قال: فسمعت كلامه؟ قال: لا، قال: فوجدت له حسًّا، أو مجسًّا؟ قال: لا، قال: فكذلك الله لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان)، ووجد ثلاث آيات من المتشابه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، [الشورى:١١]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، [الأنعام:٣]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، [الأنعام:١٠٣]، فبنى أصل كلامه على هذه الآيات، وتأول القرآن على غير تأويله، وكذب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حدث عنه رسوله، كان كافرًا، وكان من المشبهة فأضل بكلامه بشرًا كثيرًا، وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة، وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة، ووضع دين الجهمية[1]. بهذه السهولة الغريبة انحرف الجهم، واستسلم لشبهة السمنية، والنصارى، مما يعني أن هذه المناقشة قد صادفت قلبًا خاويًا من عقيدة الإسلام، فتمكنت منه الشبهة، ونسج حولها مبتدعاته الضالة المخالفة لعقيدة الإسلام، وهذا يدفعنا إلى التساؤل هل كان الجهم زنديقًا من الزنادقة؛ حيث لم يجد في نفسه دليلًا واحدًا من هذه الأدلة الكثيرة في الكتاب والسنة، ليدفع بها شبهة السمنية، ولم يستدرك من ذلك الحشد الهائل من النصوص القرآنية، والنبوية التي فصلت معنى الألوهية والأسماء، والصفات، والتنزيه الحق للإله - سبحانه - فكل هذه الأدلة غابت عن عقله، وقلبه العليل، وعندما تعرض لهنة بسيطة من نقاش السمنية مال إلى استدراك حجة النصارى على الروح، ونسج عليها معتقده المبتدع، إن هذه المناقشة

(١) الإمام أحمد، الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٦٧ - ٦٨، ضمن عقائد السلف.

تبين هشاشة المعتقد الذي كان يحمله الجهم ـ إن كان يحمل معتقدًا ـ، بل الأولى أن يقال إنه لا يحمل من ذلك شيئًا.

وبهذا يتضح لنا ذلك الأثر الذي أحدثه السمنية في معتقد الجهم، بل يذهب الملطي إلى أن الجهم اشتق بدعته من السمنية، فيقول: (وإنما سموا جهمية؛ لأن الجهم بن صفوان كان أول من اشتق هذا الكلام من كلام السمنية؛ صنف من العجم بناحية خراسان، وكانوا شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يومًا، وقال: لا أصلي لمن لا أعرفه، ثم اشتق هذا الكلام، وبنى عليه من بعده)[١].

والعجيب أن تجد هذه المناظرة في العصر الحديث إشادة بجهم، وكأن هؤلاء المعاصرين استطاعوا فَهْمَ ما لم يفهمه علماء السلف ـ رحمهم اللّه ـ، ومما يؤسف له أن نجد الشيخ جمال الدين القاسي يشيد برد الجهم، ويعتبره نوعًا من الفطنة، ولا ندري إن كان هذا الكتاب من تأليفه، أو أنه مؤلف على اسمه؛ وذلك لغرابة المعلومات فيه، ومخالفته لما أجمعت عليه الأمة بشأن الجهمية، والمعتزلة.

فهو يقول عن مناظرة الجهم مع السمنية: (هذا ما حكاه الإمام أحمد في الرد على الجهمية أثرناه باختصار؛ وقوفًا على موضع الشاهد من فطنة الجهم، وبلاغته في إفحامه خصمه)[٢].

وهذا المديح في غير موضعه، فلو كان الجهم فطنًا حقًّا لأتى بالجواب الموافق لعقيدة الإسلام، ولم ينحرف انحرافه الخطير، ولكني أرى أن خصمه قد أتى بشبهه تمكنت من قلبه العليل، فأمرضته، وانتقل هذا الداء العضال منه إلى طوائف الضلال التي أخذت برأي الجهم، وسلكت مسالكه الباطلة في فهم العقيدة، ولعل الموروث العقدي الذي كان يحمله الجهم إن كان فارسيًّا، أو زنديقًا أو سمنيًّا، هذا الموروث بجانب خوائه الفكري من عقيدة الإسلام سهل على السمنية تشكيكه، ومن ثم انحرافه،

(١) التنبيه والرد، ص ٩٩.

(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة، ص ٢٣.

وضلاله، وضلال من تبعه.

ومن المعجبين بنتائج هذه المناظرة خالد العلي الذي ألف رسالة علمية عن الجهم بن صفوان ملأها دفاعًا عن ضلالات الجهم، ومبتدعاته؛ حيث يعلق على هذه المناظرة، ويجعل انتشار الإسلام في تلك المنطقة على يد الجهم، وهذا خلاف الواقع، فقد انتقلت شُبَهُ المشركين إلى المنافقين من أهل الإسلام عن طريق الجهم، وهذا نص قوله: (يظهر من النص السابق دور الجهم، ومكانته في النقاش مع السمنية الذين ينكرون وجود الخالق إذ لا يعترفون بالموجود إلا ما كان ملموسًا، فأثبت جهم وجود الخالق بالإدراك الحسي كما كان لجهم دور فعال في نشر الإسلام في تلك المنطقة التي كانت منتشرة فيها البوذية، وخاصة في بلخ، وباميان[(١)].

وهذا الكلام لا سند له، ولا دليل عليه، فلم يكن الجهم لينشر الإسلام الحق، إلا ما نشره من مبتدعاته الضالة التي عارضت ما جاء به الكتاب والسنة عن الإله الحق، وبقية مسائل العقيدة التي فتح بها باب الجدال على أصوله التي جلبها من اليهودية، والنصرانية، والسمنية.

٤ـ الأَسْبَابُ الحَقِيقِيَّةُ لِمَقْتَلِ الجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ

لقد برزت في العصر الحديث مجموعة من الآراء، والمفاهيم المدروسة دراسة معمقة، والتي تهدف إلى نسف ما تعارف عليه المسلمون عن طريق سلفهم الصالح من أن هؤلاء المبتدعة كانوا من أكبر الشرور التي مرت على هذه الأمة، وعانت منهم، ومن مبتدعاتهم أشد العناء، ولكن الخطة الجديدة التي ابتدأها المستشرقون، وجند لها بعض الكتاب المسلمون، تهدف إلى وصم عصر السلف الصالح، وأن ممارساتهم كانت ضد الحرية الإنسانية، وأن قتل هؤلاء المبتدعة الضالين كان بسبب الخصومة السياسية، والثورات التي اخترعها هؤلاء، وليس لها نصيب من الواقع يؤيد دعواهم.

---

(١) خالد العلي، جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي، ص ٦٥، ط ١٩٦٥م، بغداد، المكتبة الأهلية.

ومما يؤْسَفُ له أن يعتمد جملة من الكتاب المعاصرين على رأي للشيخ القاسمي حول مقتل جهم بن صفوان، ويتخذوه دليلًا على دعواهم الباطلة بزعم أن الشيخ سلفي المعتقد، ولكن كما قلت لا ندري مدى صحة نسبة الكتاب إلى الشيخ، وإن ثبت، فلا نعلم إلا أن الشيخ عارض معظم علماء السلف في مواقفهم من الجهم، وانحرافاته العقدية، وكان مبعث اهتمام الشيخ القاسمي كما يلاحظ أن الجهم كان وزيرًا للحارث بن سريح الذي ثار على الأُمويين، وكان داعية للكتاب والسنة؛ حيث يقول: يمر بقارئ حوادث المئة الثانية للهجرة النبوية أخبار عن الحارث بن سريح عجيبة تدل على حرصه على نشر العدل، وتحرقه من الظلم، وأهله، ورغبته في العمل بأحكام الكتاب والسنة، وفي القضاء على سلطة الاستبداد، وجعل الأمر شورى، وأن نصبه الحرب مع بني أمية، واتخاذه الجهم بن صفوان وزيرًا في بث الدعوة كتابة، وخطابة إنما كان لهذه المقاصد الحسنة[١].

ومع تقديرنا للشيخ القاسمي، إلا أننا نريد أن نميط اللثام عن حقيقة الحارث بن سريح، وصلاته مع الكفار، ودفاعه عن خاقان الترك، ولا نعلم إن كان الجهم قد رافقه في إقامته الطويلة في بلاد الشرك، وجلب معه المعتقدات الفاسدة في الإرجاء، والتعطيل، فقد ذكر خليفة بن خياط عند ذكره لحوادث سنة سبع عشرة ومئة: (فيها جاشت الترك بخراسان، ومعهم الحارث بن سريح فانتهى خاقان، ومعه الحارث بن سريح إلى الجوزجان، وأغارت الترك حتى أتوا مرو الرود، فسار أسد بن عبدالله، فلقيهم، فهزمهم الله، وقتلهم المسلمون قتلًا ذريعًا[٢]، وعندما زعم الحارث أنه يدعو للكتاب والسنة، رد عليه قطن بن عبدالرحمن الباهلي مستهزئًا، فقال: (يا حارث، أنت تدعو إلى كتاب الله والسنة)[٣]. وهذه العبارة فيها ما فيها من الاستغراب لهذا القابع في ديار الشرك، والذي أغار على المسلمين بمساعدتهم، ثم يزعم أنه يريد تحكيم

(١) تاريخ الجهمية، ص ١٥.

(٢) تاريخ خليفة خياط، ص ٣٤٧ .

(٣) الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص ١٥٤.

الكتاب والسنة؛ حيث يقول الطبري: (أنه قدم، ومعه دهاقنة جوزجان، واستعان بهم على حرب المسلمين، ولبس السواد، وزعم أنه المهدي، وقال أسد بن عبدالله القسري الذي وقف في وجه خاقان الترك: إن عدو الله الحارث بن سريح استجلب طاغية؛ ليطفيء نور الله، ويبدل دينه، والله مذله - إن شاء الله[١].

ويؤكد الطبري في غير موضع أن الحارث كان يقاتل في صفوف الترك ضد المسلمين، وتولى حماية الخاقان؛ حيث يقول: (وعبأ خاقان الحارث بن سريح، وأصحابه، وملك السغد، وصاحب الشاش، وصاحب الختل، وجبغونه، والترك كلها ميمنة، فلما التقوا حمل الحارث، ومن معه من أهل السغد، والبابية، وغيرهم على الميسرة، وفيها ربيعة، وجندان من أهل الشام، فهزمهم، فلم يردهم شيء دون رواق أسد، فشدت عليهم الميمنة، وهم الأزد، وبنو تميم، والجوزجان، فما وصلوا إليهم حتى انهزم الحارث، والأتراك، وحمل الناس جميعًا، فقال أسد: اللهم، إنهم عصوني، فانصرهم، وذهب الترك في الأرض عباديد، لا يلوون على أحد، فتبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ، يقتلون من يقدرون عليه، حتى انتهوا إلى أغنامهم، فاستاقوا أكثر من خمس وخمسين ومئة ألف شاة، ودواب كثيرة، وأخذ خاقان طريقًا غير الجادة في الجبل، والحارث بن سريح يحميه[٢]، وكاد المسلمون أن يقتلوا الخاقان، لولا حماية الحارث بن سريح له. قال الإمام الطبري: (وولَّى خاقان مدبرًا منهزمًا، فحوى المسلمون عسكرهم، وتركوا قدورهم تغلي، ونساء من نساء العرب، والمواليات، ومن نساء الترك، ووحل بخاقان، برذونه، فحماه الحارث بن سريح، قال: ولم يعلم الناس أنه خاقان، ووجد عسكر الترك مشحونًا من كل شيء[٣].

ثم يشير الطبري إلى اتحاد الحارث بالبدعة مع جهم، فيقول: (وكان الحارث يرى رأي المرجئة، ثم يذكر شعرًا لنصر بن سيار، يذم فيه الحارث بن سريح، ومعتقده في

(١) الطبري، ج٤، ص ١٧٠.

(٢) الطبري، ج٤، ص ١٧١.

(٣) المرجع السابق، ج٤، ص ١٧٢.

الإرجاء، وصلاته مع المشركين، فيقول:

وَالْعَائِبِينَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَهُمُ ... شَرُّ الْعِبَادِ إِذَا خَابَرْتَهُمْ دِينَا
وَالْقَائِلِينَ سَبِيلُ اللهِ بُغْيَتُنَا ... لَبُعْدَ مَا نَكَبُوا عَمَّا يَقُولُونَا
فَاقْتُلْهُمُ غَضَبًا لِلَّهِ مُنْتَصِرًا ... مِنْهُمْ بِهِ وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَفْتُونَا
(إِرْجَاؤُكُمْ) لَزُّكُمْ وَالشِّرْكُ فِي قَرَنٍ ... فَأَنْتُمْ أَهْلُ إِشْرَاكٍ وَمُرْجُونَا
لَا يُبْعِدِ اللهُ فِي الْأَجْدَاثِ غَيْرَكُمُ ... إِذْ كَانَ دِينُكُمْ بِالشِّرْكِ مَقْرُونَا[1]

فالأمر المؤكد أن يكون الحارث بن سريح كان يرى رأي الجهم في الإرجاء، ولكن هل كان يرى رأيه في التعطيل - أيضًا؟، وهل التقى الجهم في بلاد الترك، وتعاهدا على إضلال المسلمين عن طريق الدعوة المزعومة لتحكيم الكتاب والسنة، ثم التمكن من رقابهم، وفتنتهم عن دينهم بهذه المعتقدات الباطلة كما تمكنت الجهمية من بعض خلفاء بني العباس، وساموا علماء الأمة العذاب؛ لإرضاء الجهمية المتأخرين، إننا أمام هذه الحقائق التي أشرنا إليها عن الحارث بن سريح، نخالف كل من قبل أمره على ظاهره، وظن به خيرًا، ولقد سُقْتُ هذه المعلومات عن الحارث؛ لإبطال مزاعم بعض المعاصرين الذين ظنوا أن الجهم قتل لأسباب سياسية بحتة؛ مثل القاسمي، والنشار، والجابري، والغرابي، والعلي، وسوف نعرض فيما يلي لبعض النصوص التي أشارت إلى أن الجهم قتل بسبب بدعته المنكرة؛ وذلك أن هؤلاء رأوا في نص الطبري الذي لم يشر إلى بدعته إشارة مباشرة، رأو فيه أنه قتل لأسباب سياسية[2]، وعلى اعتبار أن النص لم

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص ١٥٨.

(٢) قال الطبري:(فأسر يومئذ جهم بن صفوان (سنة ١٢٨)صاحب الجهمية، فقال لسلم: إن لي ولثا من ابنك الحارث، قال: ما كان ينبغي له أن يفعل، ولو فعل ما أمنتك، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب، وأبراك إلى عيسى بن مريم ما نجوت، والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك)، أليس هذا كافيا لإدانته بسبب بدعته، فلو كان لأسباب سياسية لقبل سلم عهد ابنه للجهم وعفا عنه، ولكنه ينكر ذلك ولا يرى أن ابنه يعطي عهدا للجهم المبتدع الضال ولعل هذا قصده والله أعلم، انظر الطبري، ج٤، ص ٢٩٥.

يشر إلى معتقده، فإن المشهور عن الجهم بدعته الضالة، وتصنيف قتل الناس إلى أسباب سياسية، وغير سياسية هو تعبير معاصر اخترعه من يريد تبرئة المبتدعة، وإيهام الناس أن الجهمية لها مؤيدون، وأنصار في وسط جمهور المسلمين، والإيحاء أن هذه البدعة هي مذهب مقبول به كغيره من الفرق، وهذه المحاولات لوضع الجهمية بهذه المكانة محاولات ماكرة، ولا نصيب لها من الحقيقة التي كان يحياها المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، ولإبطال هذه الدعوى، فإننا سننقل بعض النصوص التي أشارت لقتل الجهم؛ بسبب ضلاله، وابتداعه، فقد ذكر الإمام أحمد أنه قُتِلَ بسبب تركه للصلاة بعد مناقشة السمنية له، قال الإمام أحمد: قال لنا علي بن عاصم[١] ذهبت إلى محمد بن سوقة[٢] فقال: ها هنا رجل قد بلغني أنه لم يصل، فمررت معه إليه فقال: يا جهم، ما هذا، بلغني أنك لا تصلي قال: نعم، قال مذكم؟ قال مذ تسعة وثلاثين يومًا، واليوم أربعون، قال: فلم لا تصلي؟ قال: حتى يتبين لي لمن أصلي، قال: فجهد به ابن سوقة أن يرجع، أو أن يقول، أو يقلع، فلم يفعل، فذهب إلى الوالي، فأخذه فضرب عنقه، وصلبه، ثم قال لنا أحمد بن حنبل: (ألا يترك الله من يصلي، ويصوم له يدع الصلاة عامدًا أربعين يومًا، إلا ويضربه بقارعة[٣]. والثابت أن الذي قتله هو سلم بن أحوز بسبب بدعته، وقد روى اللالكائي عن يزيد بن هارون؛ حيث قال: القرآن كلام الله لعن اللهُ جهمًا، ومن يقول بقوله كان كافرًا جاحدًا، تركَ الصلاة أربعين يومًا ـ زعم أنه يرتاد دينًا، وأنه شك في الإسلام قتله سلم بن أحوز بأصبهان على هذا القول[٤].

ويقول البغدادي: (ولأجل هذه البدعة قتل جهم بن صفوان بمرو، قتله سلم بن

(١) علي بن عاصم: الإمام العالم، شيخ المحدثين، مسند العراق ولد سنة سبع ومئة ومات وهو ابن أربع وتسعين سنة، الذهبي، سير أعلام ، ج٩، ص ٢٤٩.

(٢) محمد بن سوقة الإمام العابد توفي سنة نيف وأربعين ومئة، سير أعلام، ج٦، ص ١٣٥.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث، ١٢١ ـ ١٤٠هـ، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٤) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ج٣، ص ٣٧٩.

أحوز المازني في آخر زمان بني أمية[١]، وروى الذهبي عن خلاد الطفاوي قال: كان سلم بن أحوز على شرطة نصر بن سيار، فقتل جهم بن صفوان؛ لأنه أنكر أن الله كلَّم موسى[٢]، ونقل الشيخ محمد صديق القنوجي عن ابن أبي حاتم من طريق محمد بن صالح مولى بني هاشم قال: قال سلم حين أخذه: يا جهم، إني لست أقتلك لأنك قاتلتني؛ أنت عندي أحقر من ذلك، ولكني سمعتك تتكلم بكلام أعطيت اللَّهَ عهدًا أن لا أملكك إلا قتلتك، فقتله[٣]. وهذا فيه إبطال لمزاعم القائلين بأن الجهم قُتِلَ بسبب الخصومة السياسية؛ فإن هذا الرجل انتصر لدين الله ـ عز وجل ـ، ولأنه كان يرى عظيم الجناية التي أتى بها الجهم على دين الأمة.

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجهم قتل بسبب زندقته، وإلحاده، يقول: (إنه لا يعرف فيمن قتل بسيف الشرع على الزندقة أنه قتل ظلمًا، وكان وليًا لله، فقد قتل الجهم بن صفوان والجعد بن درهم، وغيلان القدري، ومحمد بن سعيد المصلوب، وبشار بن برد الأعمى، والسهروردي، وأمثال هؤلاء كثير، ولم يقل أهل العلم والدين في هؤلاء أنهم قُتِلوا ظلمًا، وأنهم من أولياء الله[٤].

وأما النص الذي شكك فيه القاسمي، فهو الذي أورده ابن حجر في كتابه (فتح الباري عن صالح بن أحمد بن حنبل) ـ رحمه اللَّه ـ قال: قرأت في دواوين هشام بن عبدالملك إلى نصر بن سيار عامل خراسان: أما بعد، فقد نجم قبلك رجل يقال له جهم من الدهرية، فإن ظفرت به فاقتله، قال ابن حجر: ولكن لا يلزم من ذلك أن يكون قتله وقع في زمن هشام، وأن كان ظهور مقالته وقع قبل ذلك، حتى كاتب فيه هشام، والله أعلم[٥].

---

(١) البغدادي، أصول الدين، ص ٣٣٣.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث، ١٢١، ص ٦٧.

(٣) محمد صديق القنوجي، الدين الخالص، ج١، ص ١١٤، مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٤) مجموع الفتاوى، ج٢، ص ٤٨٥.

(٥) فتح الباري، ج١٣، ص ٣٤٦، وانظر ابن تيمية، نقض تأسيس الجهمية، ج١، ص ٢٧٧، وهذه الرواية ذكرها اللالكائي، انظر ج٣، ص ٣٨١.

ونحن نقول: إن هشامًا[١] قد قُتِلَ في عهده معظمُ رؤُوس المبتدعة، وهذه من مناقبه، ومناقب الأمير خالد القسري الذي استهدفه الزنادقة بالطعن، والتشكيك لقتله رؤُوسهم، فقد قتل في عهد هشام، غيلانَ، وصالِحَ بن سويد القدريان، والمغيرة بن سعيد، وبيان بن سمعان من غلاة الشيعة، وقتلهم خالد القسري، ثم قتل الجعد بن درهم، وقد تبين أن هشامًا كان يتتبع هؤلاء المارقين، ويأمر بقتلهم ـ فجزاه الله عن الإسلام، والمسلمين خير الجزاء ـ، وقد كان هذا التوجيه بقتل الجهم من أحسن وصاياه، وقد أوصى باستمرار حبس القدرية، ونفيهم كما بينا من قبل، وكان التوجيه بقتل الجهم بسبب انحرافه، وزندقته، وإلا فما هي الخطورة التي يمثلها الجهم على الدولة الأموية، ونحن نرجح أن يكون الجهم قد تخفى بعد سماعه بهذا الأمر، أو أنه ذهب إلى أرض الترك، ومن ثم قدم مع قرينه في الإرجاء الحارث بن سريح.

وإن تعجب، فعجب قول الشيخ القاسمي: (ولا يخفى أن نبذ هشام لجهم بأنه من الدهرية في كتابه هذا، إن صح إنما يراد به زيادة الإغراء بقتله؛ ليكون حجة له، وتمويهًا على العامة[٢] ومن لا يدري حقيقة الأمر في هدر دمه، وقد علمت أن الباعث على قتله أمر سياسي محض؛ لأن جهمًا كان خطيب الحارث، وقارئ كتبه في المجامع، والداعي إلى رأيه، وإلى الخروج على بني أمية، وعمالهم؛ لسوء سيرتهم، وقبح أفعالهم، وشدة بغيهم، ولا يخفى على من له أدنى مسحة من عقل أن الدهرية لا يقرون بالوهية، ولا نبوة[٣]، وجهم كان داعية للكتاب والسنة ناقمًا على من انحرف عنهما

(١) قال أبو محمد عبدالله أبي زيد القيرواني(٣٨٩ت) رحم الله بني أمية لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة، وكان أكثر عمالهم وأصحاب ولايتهم العرب فلما زالت الخلافة عنهم ودارت إلى بني العباس قامت دولتهم بالفرس وكانت الرياسة فيهم، وفي قلوب أكثر الرؤساء منهم والبغض للعرب ودولة الإسلام، فأحدثوا في الإسلام الحوادث، انظر السيوطي، صون المنطق والكلام، ص ٦ ـ ٧ ت. د. علي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) يقيني الذي أعتقده أن العامة في ذلك العصر كانت تفرح بقتل كل مبتدع ضال تبعا لفرح علماء السلف الذين لهم المكانة الكبرى في نفوسهم.

(٣) سوف نرى ـ بإذن الله ـ عند عرضنا لأراء الجهم وموقف علماء السلف منه أي دين يدين به؟!

مجتهدًا في أبواب من مسائل الصفات[١].

ويدافع الشيخ علي مصطفى الغرابي عن الجهم ـ أيضًا ـ مرددًا لما قاله القاسمي حول مقتله، ولكنه يضيف قائلًا: (ومن هذا يظهر أن الرجل كان مخلصًا في آرائه، ولم يرد إفساد الدين، ولا تضليل عقائد المؤمنين كما فهمه عنه مؤرخو الملل والنحل عند المسلمين[٢]، وكل ما هنالك أن الرجل وجد في عصر تعوزه الدقة في التعبير لأنه قد عرف من تاريخ، وفاته أنه وجد في أواخر القرن الأول الهجري، وأوائل الثاني، وفي هذا العصر لم تكن الفنون المستحدثة عند المسلمين قد تركزت، ولا صبغت بالصبغة العلمية الدقيقة، وسنواجه هذه الحقيقة عند الأوائل من المتكلمين، وإذن ليس من الحق في شيء أن نحكم على سلف المتكلمين بشيء يمس ناحية الاعتقاد فيهم، أو نندفع في الحكم عليهم كما اندفع من أرخ لآرائهم الكلامية، بل علينا أن نقرأ لهم شاكرين، ونتجاوز عن زلاتهم معتذرين، وندعو لهم مخلصين[٣].

ويقول الدكتور النشار: (فبقي فيها (ترمذ) حتى دعاه الحارث بن سريح لمشاركته في حربه ضد بني أمية، وشارك الجهم في الحرب، حتى قتل الحارث، وجهم في (قصة محزنة) عام ١٢٨هـ فقتله، إذن كان لسبب سياسي، وليس لسبب ديني[٤].

إن هذا التباكي على الجهم، ومن قبله على الجعد، لا نجد له مبررًا، إلا إذا كان هؤلاء المتباكون قد غشيت أبصارهم كما قلنا عن العقيدة الحقة، ورأوا في هذا الضلال، والانحراف ما يوافق حركة التخريب التي شنها أعداء هذه الأمة منذ بزوغ فجر الإسلام، ثم تداعى الأعداء من جدد، تحت مسميات حرية الفكر مخالفين الصورة التي رسمها علماء السلف لهؤلاء المارقين الزنادقة الذين أحدثوا في دين الله،

---

(١) تاريخ الجهمية، ص ١٨.

(٢) عجيب لهذا الفهم المعاصر الذي غاب عن علماء السلف، وفهمه المتأخرون!!

(٣) علي مصطفى الغرابي، تاريخ الفرق الإسلامية، ص ٢٦ ـ ٢٧ط، ط٢، ١٤٠٥هـ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(٤) د. النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ج١، ص ٣٣٤.

فكانت المهمة الجديدة في ظل الجهل العام الذي يعانيه الشباب المسلم؛ ليتقبل مثل هؤلاء المبتدعة، وأصولهم الفاسدة في مسائل العقيدة، وحالتنا الآن أسوأ بكثير من الحال التي كان يعيشها الإمام أبو سعيد الدارمي (ت ٢٨٠)؛ حيث يقول عن الجهمية: (ثم لم يزالوا بعد ذلك مقموعين أذلة مدحورين حتى كان الآن بآخره؛ حيث قلت الفقهاء، وقبض العلماء، ودعا إلى البدع دعاة الضلال، فشد ذلك طمع كل متعوذ في الإسلام من أبناء اليهود، والنصارى، وأنباط العراق[١]، ووجدوا فرصة للكلام، فجدوا في هدم الإسلام، وتعطيل ذي الجلال والإكرام، وإنكار صفاته، وتكذيب رسله، وإبطال وحيه، إذ وجدوا فرصتهم، وأحسوا من الرعاع جهلًا.

ومن العلماء قلة، فنصبوا عندها الكفر للناس إمامًا، بدعوتهم إليه، وأظهروا لهم أغلوطاتهم من المسائل، وعمايات من الكلام، يغالطون بها أهل الإسلام؛ ليوقعوا في قلوبهم الشك، ويلبسوا عليهم أمرهم، ويشككوهم في خالقهم مقتدين بأئمتهم الأقدمين، الذين قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾، [المدثر:٢٥]، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾، [ص:٧]، فحين رأينا ذلك منهم، وفطنا لمذهبهم، وما يقصدون إليه من الكفر، وإبطال الكتب، والرسل، ونفي الكلام، والعلم، والأمر عن الله ـ تعالى ـ، رأينا أن نبين من مذاهبهم رسومًا من الكتاب والسنة، وكلام العلماء، ما يستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم، فيحذرهم على أنفسهم، وعلى أولادهم، وأهليهم، ويجتهدوا في الرد عليهم، محتسبين منافحين عن دين الله ـ تعالى ـ، طالبين به ما عند الله[٢].

فالواجب على الباحثين المسلمين في هذه المرحلة بيان جهود علماء السلف في مقاومة بدع المتكلمين، وأولهم الجهم، ومن قبله الجعد، ومن سار على منهجهم الضال حتى وقتنا الحاضر؛ لبيان وجه الحق فيهم، قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: (فكان الناس في عافية، وسلامة فطرة، حتى نبغ جهم، فتكلم في الباري ـ تعالى ـ وفي صفاته

(١) انظر إلى مشابهة حالتهم بحالتنا اليوم مع المستشرقين من اليهود والنصارى وغيرهم.

(٢) الدارمي، الرد على الجهمية، ص ٢٥٩، ضمن عقائد السلف.

بخلاف ما أتت به الرسل، وأنزلت به الكتب ـ نسأل الله السلامة في الدين[١].

٥ـ مَوَاقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ الجَهْمِيَّةِ

لقد كان المنهج المهيمن في العصر الأموي هو منهج السلف الصالح، وكان أهل البدع مقموعين في هذه الفترة، وكلما أظهر أحد المبتدعة مقالة، ووجهت بالازدراء، والاحتقار، وكان أهل البدع يلقون الجزاء المباشر على إحداثهم في الدين، وكان من منهج السلف عدم الجدال، والمحاورة مع المبتدعة، وهجرهم حتى لا تتاح الفرصة لمبتدعاتهم بالانتشار؛ وذلك أن هذه الآراء المطروحة في هذه المرحلة لم يكن يجرؤ أصحابها على نشرها في أوساط الناس، ومجالسهم العامة، وإنما كانوا يؤسسون نحلهم الضالة في الخفاء فإذا كثر سوادهم جهروا بها، وأعلنوها، فتخرج بصورة حركات فتمردت عَلَى الخلافة أملًا فِي تطبيق مبتدعاتها عَلَى الأمة، وهذا ما يلاحظ فِي حركات الشيعة منذ المختار بن أبي عبيد والمغيرة وبيان، وغيرها وحتى الجهمية فقد برزت في صفوف حركة إلى الحارث بن سريح، فلذلك ووجهت هذه الحركات بالقمع، وظن المعاصرون أن الخلافة الأموية تخلصت من هؤلاء بسبب تمردهم العسكري، وغفلوا عن دور علماء السلف في معرفة أرباب البدع المندسين في هذه الحركات والذين يصلون إلى توجيه قادتها كما في حركة الحارث بن سريح حيث كان الجهم وزيره، فكان هؤلاء المبتدعة يجدون فرصتهم في مثل هذه الفتن للترويج لباطلهم، وتقديمهم يدًا لهؤلاء الثائرين للإخلاء بينهم وبين الدعوة لبدعتهم وامتحان المسلمين بها.

ولم تكن الردود التفصيلية على الجهم قد ظهرت أو صنفت وذلك لعدم توسع الجهمية واشتهار آرائها المنحرفة بين الناس ولكثرة علماء السلف فهم الجمهرة الغالبة المهيمنون على مجالس العلم، فهم بذلك يحاصرون أرباب البدع ولا يسمحون لهم بإلقاء شبههم في المساجد، ولكن عندما انهارت الدولة الأموية، وظهرت الدولة العباسية، قام المبتدعة بإقامة علاقات حميمة مع خلفائها تحت رسوم الزهد والعبادة

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث، ١٢١ ـ ١٤٠هـ، ص ٦٨.

كما رأينا من عمرو بن عبيد وتلبيسه على أبي جعفر المنصور، وبقيت حركة الابتداع تخفي نفسها تحت هذه الرسوم المزيفة، حتى نالت القربى والحظوة من بعض الخلفاء، ويضاف إلى ذلك أن هذه الفترة التي تقرب من خمسين عامًا كانت كفيلة باتحاد قوى الضلال وانضوائها تحت راية الاعتزال، التي أخذوا مبتدعات الجهم واتخذوا الدعوة إليها شعارًا.

وعندما تمكنت الجهمية والمعتزلة من عقل المأمون قاموا بمحاولة حمل الأمة على القول بخلق القرآن وامتحان علماء الأمة، وهيمن الخوف والرعب على الناس فلم يجرؤ أحد على المعارضة إلا ما كان من إمام أهل السنة الإمام أحمد ورفاقه من علماء السلف، وهنا شعر علماء السلف بخطورة الجهمية فبدءوا بالردود التفصيلية عليهم، ولم تكن الجهمية في هذه المرحلة تدعو إلى القول بخلق القرآن فقط، بل اتخذت طابع الشمول في تزييف العقيدة الإسلامية ونفي الصفات وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (إن سلف الأمة وأئمتها ما زالوا يتكلمون ويفتون ويحدثون العامة والخاصة بما في الكتاب والسنة من الصفات، وهذا في كتب التفسير والحديث والسنة أكثر من أن يحصيه إلا الله، حتى أنه لما جمع الناس العلم وبوَّبوه في الكتب، فصنف ابن جريج التفسير والسنن، وصنف معمر أيضًا، وصنف مالك بن أنس، وصنف حماد بن سلمة، وهؤلاء من أقدم من صنف في العلم صنفوا في هذا الباب، فصنف حماد بن سلمة كتابه في الصفات[1]، كما صنف كتبه في سائر أبواب العلم).

وقد قيل إن مالكًا إنما صنف الموطأ تبعًا له، وقال: جمعت هذا خوفًا من الجهمية أن يضلوا الناس، لما ابتدعت الجهمية النفي والتعطيل صنف الكتب الجامعة، كما صنف نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري كتابه في الصفات والرد على الجهمية، وصنف

(١) كان شديدا على المبتدعة، وكان لا يثلبه إلا معتزلي أو جهمي ت ـ سنة ١٦٧هـ، وكان مولده في حياة أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حيث مات وعمره ستة وسبعون سنة، انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ٤٢٧ ـ ٤٥٠.

عبدالله بن محمد الجعفي شيخ البخاري كتابه في الصفات والرد على الجهمية وصنف عثمان الدارمي كتابه في الصفات والرد على الجهمية وكتابه في النقض على المريسي، وصنف الإمام أحمد رسالته في إثبات الصفات والرد على الجهمية، وأملى في أبواب ذلك حتى جمع كلامه أبو بكر الخلال في كتاب السنة، وصنف عبدالعزيز الكناني صاحب الشافعي كتابه في الرد على الجهمية[١]، وصنف كتب السنة في الصفات طوائف مثل عبدالله بن أحمد، وحنبل بن إسحاق، وأبي بكر الأثرم، وخشيش بن أصرم شيخ أبي داود، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، وأبي بكر بن أبي عاصم، والحكم ابن معبد الخزاعي، وأبي بكر الخلال، وأبي القاسم الطبراني، وأبي الشيخ الأصبهاني، وأبي أحمد العسال، وأبي بكر الآجري، وأبي الحسن الدار قطني، وكتاب الصفات والرؤية، وأبي عبدالله بن منده، وأبي عبدالله بن بطة، وأبي القاسم اللالكائي، وأبي عمر الطلمنكي وغيرهم[٢].

ولكن هؤلاء الإعلام إنما ردوا على الجهمية بعدما استشرى خطرهم وعظمت فتنتهم، وكان رصيدهم الذي يعتمدون عليه في الرد هو كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين الذين اعتقدوا العقيدة الحقة بكل تفصيلاتها، وسوف نعرض فيما يلي لجملة من المواقف التي أثرت عن علماء السلف في الرد على الجهم والجهمية.

إن شخصية الجهم بن صفوان شخصية مضطربة المعتقد والسلوك، فهو لم يكن في يوم من الأيام معدودًا من طلبة العلم فضلًا أن يكون من العلماء وإنما اشتهر بحب الجدل والخصومة في الدين، ولعل هذا الموقف المعادي للكتاب والسنة وآثار السلف قد أتى به الجهم من مصادر خارجية كما سبق وأوضحنا في مصادر فكره، قال خلف بن سليمان البلخي: (كان جهم من أهل الكوفة، وكان فصيحًا لم يكن عنده علم فلقيه

---

(١) لعله يقصد كتاب الحيدة في المناظرة مع بشر الريسي.

(٢) الفتاوى الكبرى، ج٥، ص ١٥.

ناس من السمنية فقالوا له: صف لنا من تعبد؟ قال: أجلوني فأجلوه، فخرج إليهم، فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء[١].

فقال أبو معاذ (أي البلخي): (كذب عدو الله إن الله في السماء على عرشه وكما وصف نفسه)[٢].

ومن العلماء الذين شاهدوه عبدالله بن شوذب الخراساني[٣]، حيث قال: (ترك الصلاة - يعني جهمًا - أربعين يومًا على وجه الشك خالفه بعض السمنية، فشك فقام أربعين يومًا لا يصلي وقد رآه ابن شوذب[٤]، وقال عبدالعزيز بن أبي سلمة (ت:١٦٢): إن كلام جهم صنعة بلا معنى، وبناء بلا أساس ولم يعد قط من أهل العلم، ولقد سئل جهم عن رجل طلق امراته قبل أن يدخل بها فقال: عليها العدة مخالفًا لكتاب الله بجهله وقال الله سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩].

وقد كان السلف يرجعون هذه البدعة المنكرة إلى الزندقة ويتهمون القائلين بها بأنهم زنادقة حيث قال علي بن الحسن: (إن الذين قالوا إن لله ولدًا أكفر من الذين قالوا إن الله لا يتكلم) وقال: احذر المريس وأصحابه، فإن كلامهم يستجلب الزندقة وأنا كلمت أستاذهم جهمًا فلم يثبت لي أن في السماء إلهًا[٥].

وكان إسماعيل بن أبي أويس يسميهم زنادقة العراق وقيل له: سمعت أحدًا يقول: القرآن مخلوق؟ فقال: هؤلاء الزنادقة، والله، لقد فررت إلى اليمن حين سمعت العباس

(١) اللالكائي، ج٣، ص ٣٨٠.

(٢) اللالكائي، ج٣، ص ٣٨١.

(٣) عبدالله بن شوذب الخراساني، صدوق، عابد، مات سنة ست أو سبع وخمسين ومئة، تقريب التهذيب، ص ٥١٥.

(٤) البخاري، خلق أفعال العباد، ص ٣١، واللالكائي، شرح أصول، ج٣، ص ٣٧٩.

(٥) البخاري، ص ٣٢.

يكلم بهذا ببغداد فرارًا من هذا الكلام[١].

وجاء رجل إلى عبدالله بن إدريس (ت١٦٢) فقال له: يا أبا محمد: ما تقول في قوم يقولون: القرآن مخلوق؟ فقال: أمن اليهود؟ قال: لا، قال: فمن النصارى؟ قال: لا، قال: فمن المجوس؟ قال: لا قال: فمن؟ قال: من أهل التوحيد، قال: ليس هؤلاء من أهل التوحيد، هؤلاء الزنادقة؛ من زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن الله مخلوق يقول الله: بسم الله الرحمن الرحيم، فالله لا يكون مخلوقًا، وهذا أصل الزنادقة، من قال هذا، فعليه لعنة الله لا تجالسوهم ولا تناكحوهم[٢].

وقال وهب بن جرير (ت: ٢٠٦): (الجهمية الزنادقة إنما يريدون أنه ليس على العرش استوى)[٣].

ولعظم مقالتهم في الإنكار والتعطيل فإن السلف كانوا يكفرونهم، حيث يقول علي بن الحسن: سمعت ابن مصعب يقول: كفرت الجهمية في غير موضع من كتاب الله، قولهم: إن الجنة تفنى وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤] فمن قال: إنما تنفذ فقد كفر، وقال: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد:٣٥] فمن قال: إنها لا تدوم فقد كفر، وقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣] فمن قال: إنها تنقطع فقد كفر، وقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] فمن قال: إنها تنقطع فقد كفر، وقال: أبلغوهم أنهم كفار وأن نساؤهم طوالق)[٤].

وقال يزيد بن هارون: (لعن الله الجهم ومن قال بقوله: كان كافرًا جاحدًا ترك الصلاة أربعين يومًا، يزعم أنه يرتاد دينًا، وذلك أنه شك في الإسلام، قال يزيد: قتله سلم بن أحوز على هذا القول)[٥].

(١) المرجع السابق، ص ٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٠.
(٤) البخاري، خلق أفعال العباد، ص ٣٢.
(٥) عبدالله بن أحمد، السنة، ج١، ص ١٦٧.

وقال سعيد بن صاحب إسحاق الفزاري: (إنما خرج جهم عليه لعنة الله سنة ثلاثين ومئة[١]، فقال: القرآن مخلوق فلما بلغ العلماء تعاظمهم (فأجمعوا) على أنه تكلم بالكفر وحمل الناس ذلك عنهم)[٢].

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع على تكفير الجهمية فقال: (لهذا السلف والأئمة مطبقون على تكفير الجهمية حين كان ظهور مخالفتهم للرسول مشهورًا معلومًا بالاضطرار لعموم المسلمين)[٣].

● وكان السلف رحمهم الله ينهون عن مجالسة الجهمية أو تزويجهم أو قبول شهاداتهم، أو الصلاة خلفهم، حيث قال: عبدالله بن عائشة: (لا نصلي خلف من قال القرآن مخلوق ولا كرامة فإن صلى وكبر كيما يحتاط لنفسه فزال، ويجتنبه أحب إلي، ولأنهم يقولون شيء ولا شيء، يقولون الله لا شيء)[٤].

وقال سليمان بن داود الهاشمي، وسهل بن مزاحم: (من صلى خلف من يقول القرآن مخلوق أعاد صلاته)[٥]، وقال عبدالله: (ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى ولا يسلم عليهم ولا يعادون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم)[٦].

وسئل عبدالله بن إدريس عن الصلاة خلف أهل البدع فقال: لم يزل في الناس إذا كان فيهم مرض أو عدل فصل خلفه، قلت فالجهمية؟ قال: لا هذه من المقاتل، هؤلاء لا يصلى خلفهم ولا يناكحون وعليهم التوبة)[٧].

وكان السلف ـ رحمهم اللّه ـ يرون قتلهم بسبب بدعتهم المنكرة منذ طبق هذا

---

(١) رواية الطبري وغيره أنه قتل سنة ١٢٨هـ.

(٢) اللالكائي، ج٣، ص ٣٨٠.

(٣) ابن تيمية، نقض تأسيس الجهمية، ج١، ص ٢٢٤.

(٤) ، (٥) ، (٦) البخاري، خلق أفعال العباد، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٧) البخاري، ص ٣٩.

المنهج في رؤسائهم؛ مثل الجعد، والجهم، وعندما استشرت بدعة الجهمية، قال علماء السلف بقتل من قال بقولهم: قال ابن الأسود: سمعت ابن مهدي يقول ليحيى بن سعيد: (لو أن جهميًا بيني وبينه قرابة ما استحللت من ميراثه شيئًا، وقال ابن مهدي: ولو رأيت رجلًا على الجسر وبيدي سيف يقول القرآن مخلوق لضربت عنقه)[١].

وقيل لوكيع بن الجراح، (على المريس ـ لعنه اللَّه ـ يهودي، أو نصراني، قال له رجل: كان أبوه أو جده يهوديًا أو نصرانيًا؟ قال: وكيع ـ عليه وعلى أصحابه لعنة اللَّه القرآن كلام الله، وضرب وكيع إحدى يديه على الأخرى، وقال: سيئ ببغداد يقال له المريس يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه، وقال يزيد بن هارون: لقد حرضت أهل بغداد على قتله جهدي، ولقد أخبرت من كلامه بشيء وجدت وجعه في صلبي بعد ثلاث)[٢].

وقال عبدالله بن داود: (لو كان لي على المثنى الأنماطي سبيل، لنزعت لسانه من قفاه، وكان جهميًا)[٣].

وكان السلف يستعظمون أن يتلفظوا بكلام الجهمية؛ لكفرهم، وجرأتهم؛ حيث يقول عبدالله بن المبارك (ت:١٨١هـ): (إنا لنحكي كلام اليهود، والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية)[٤]، وقال سعيد بن عامر (ت:٢٠٨): (الجهمية أشر قولًا من اليهود، والنصارى، قد اجتمعت اليهود، والنصارى، وأهل الأديان أن الله ـ تبارك وتعالى ـ على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء[٥]، وقال أبو عبدالله: (نظرت في كلام اليهود، والنصارى، والمجوس فما رأيت أضل في كفرهم منهم، وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم)[٦].

(١) المرجع السابق، ص ٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٤) ، (٥) المرجع السابق، ص ٣١.
(٦) المرجع السابق، ص ٣٣.

إن هذه المواقف الحاسمة من علماء السلف لتعبر عن حقيقة واحدة، وهي تمسكهم بالكتاب، والسنة، ومحاكمة كل خارج عليهما على أساسهما، ولقد كانت ثمرة هذه المواقف حماية جمهور أمة الإسلام من عقائد هذه النحلة الضالة، وسيادة منهج السلف الصالح على مر الأزمان، وحتى في فترات الضعف بقيت هذه الثروة الضخمة منارة يهتدى بها إلى طريق الحق، فكان علماء السلف في كل قرن يتداولون هذه المواقف، ويستدلون بها على فساد أهل البدعة، ومبتدعاتهم.

ثم عندما مَنَّ اللهُ على الأمة الإسلامية بهؤلاء العلماء الذين يحملون هذه المواقف، بدأت تبرز من جديد معالم منهج السلف بعدما ظن المبتدعة أنه قد درست معالمه الأصيلة، فهيأ الله لهذا المنهج شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، الذين أخرجوا هذه الثروة العظيمة، ونافحوا عن عقيدة السلف، وظهر من آثار هذه الدعوة المباركة جمهرة من العلماء الذين استبانت طريق الحق أمامهم، من أمثال ابن كثير، والذهبي، وابن دقيق العيد، وابن حجر، والمقريزي[1]، ثم مجدد العصر باعث النهضة السلفية المعاصرة الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه اللَّه ـ الذي امتدت آثار دعوته السلفية، وأثرت في معظم أنحاء العالم الإسلامي بالرغم من الإشاعات المبطلة التي أثارها المستعمر، واليهود، والنصارى، والفرس، والمتصوفة، والشيعة، وغيرهم من فرق الابتداع، وما هذه النهضة السلفية المعاصرة، وما هذه الأبحاث التي تتحدث عن مواقف السلف من فرق الابتداع إلا ثمرة من ثمار هذه الدعوة المباركة.

لماذا تجاهلت فرق الإبتداع الجهم بن صفوان

وفي مقابل هذا التمسك بالحق ـ منهج الكتاب والسنة، والسلف الصالح ـ فقد استطاعت الجهمية أن تتمكن من أغلب فرق الابتداع التي وجدت في هذه البدعة الشيطانية ضالتها، فأصلت أصولها في العقيدة، والشريعة على منهجها الباطل، ومع هذا الالتحام بين قوى الضلال تحت راية الجهمية، إلا أننا نلحظ أن معظم فرق

(١) وهؤلاء وغيرهم يوافقون السلف في الكثير من أمور العقيدة، وإن كان بعضهم يجنح إلى معتقد الأشاعرة في بعض الأمور.

الابتداع لم تتول الجهم، ولم تظهر الإشادة به؛ فالمعتزلة مثلًا لم يضعوه في طبقاتهم، ولا ضمن رجالهم، ولكن ابن المرتضى يشير إلى استعانة الجهم بواصل بن عطاء، عندما ناقش السمنية، وإن كنا لا نستبعد مثل هذه الاستعانة، واللقيا بين واصل، وجهم بن صفوان، إلا أننا نلمح من نص ابن المرتضى ـ الذي سبق ذكره في فرقة المعتزلة ـ وكأنه محاولة لتبرئة المعتزلة من الأخذ بمنهج الجهمية، وأنهم أصحاب منهج منفرد، وأن الجهم أخذ منهم، مع أن هذا المسمى أي الجهمية كان يقصد به فيما بعد المعتزلة ومن وافقهم من فرق الابتداع الذين استقوا مبتدعاتهم، ومناهجهم الضالة من هذا المستنقع الآسن، وكذلك الشيعة لم يمتدحوا الجهم مع أنهم اتحدوا مع المعتزلة الجهمية في معظم عقائدهم في الإلهيات، والنبوة، والمعاد، كما تأثر الخوارج ـ أيضًا ـ بآراء الجهم، والاعتزال، وخاصة المتأخرين منهم، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإن كان أهل المقالات قد نقلوا أن قول الخوارج في التوحيد هو قول الجهمية المعتزلة، فهذا سر للجهمية، لكن يشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك قد قاله من بقايا الخوارج من كان موجودًا حين حدوث مقالة جهم في أوائل المئة الثانية، فأما قبل ذلك فلم يكن حدث في الإسلام قول جهم في نفي الصفات)[1].

ثم يقول شيخ الإسلام: إن التجهم، والتشيع أصبح مأوى لكل ملحد وزنديق: (لكن ليس الناس في التجهم على مرتبة واحدة، بل انقسامهم في التجهم يشبه انقسامهم في التشيع؛ فإن التجهم، والرفض هما أعظم البدع، أو من أعظم البدع التي أحدثت في الإسلام؛ ولهذا كان الزنادقة المحضة؛ مثل الملاحدة في القرامطة، ونحوهم، إنما يتسترون بهذين، بالتجهم والتشيع، فلما كان بعد زمن البخاري في عهد بني بويه الديلم فشا في الرافضة التجهم، وأكثر أصول المعتزلة)[2].

إن هذا الإغفال لشخصية الجهم، وعدم مدحه، أو الانتساب إليه حتى من الفرق التي أصلت أصولها على مبتدعاته الفاسدة إنما يدل دلالة قطعية على عظم البدع

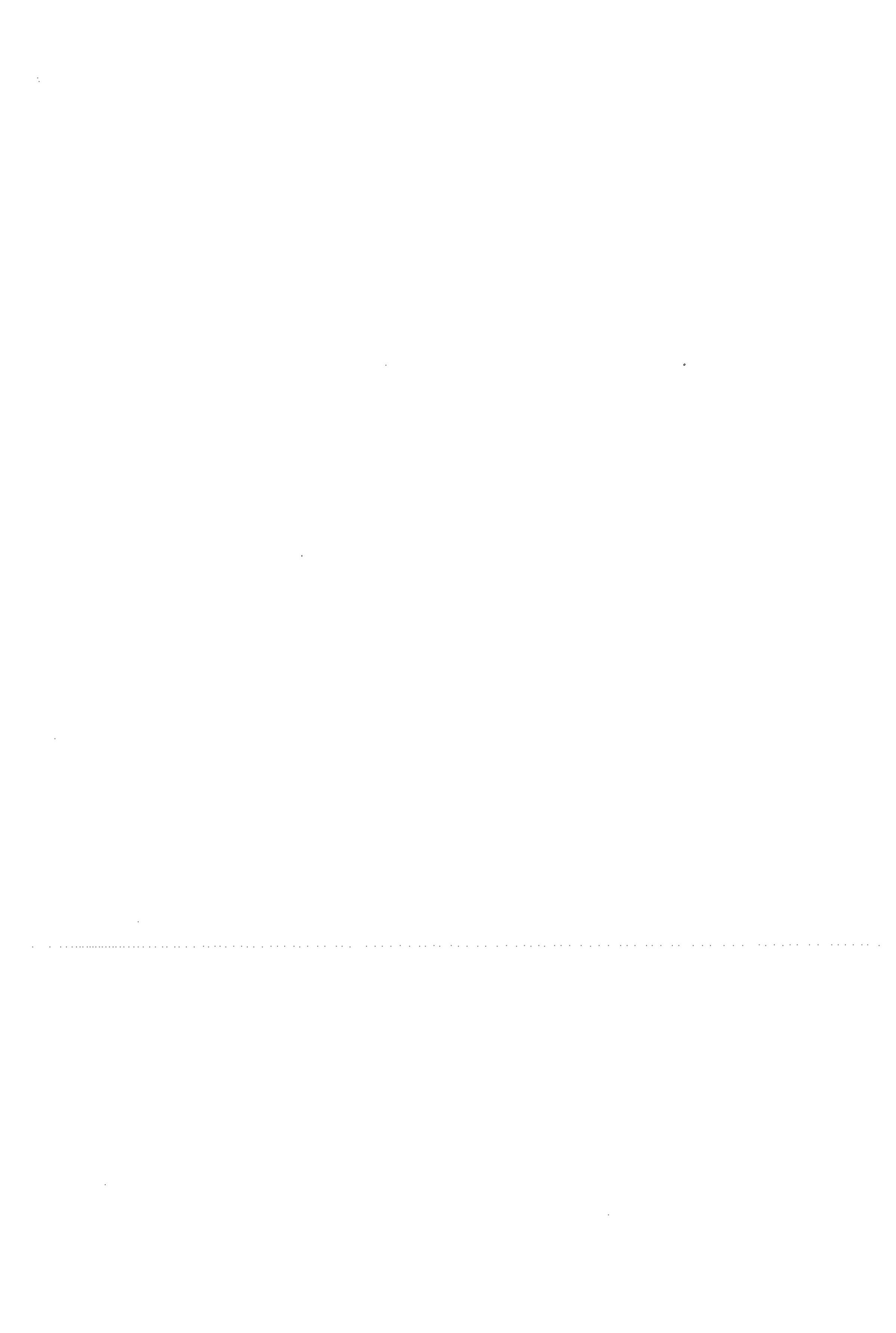
(١) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ج٥، ص ٣٨.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ج٥، ص ٤٧.

المنكرة التي نشرها الجهم بين المسلمين، وهذا التجاهل، والصمت يمثل نوعًا من الاستحياء الذي يفضحه حال هذه الفرق المتجهمة التي أخذت انحرافات الجهم، ولم تنسبها إليه، بل حاولت نسبتها إلى رجالها كما فعل ابن المرتضى.

إن هذه المعلومات عن الجهم، والجهمية ما هي إلا محاولة قمنا بها؛ لتقريب حقيقة هذه الدعوى الهدامة، وبيان مخاطرها، ومخاطر دعوات المعاصرين الذين حاولوا تحسين وجهها الشائه القبيح، وإن ردود علماء السلف بهذه القوة، والصرامة، تمثل عزة المسلمين الأوائل، وشموخ معتقدهم الذي لا يقبل أي نوع من أنواع المهادنة، أو التقريب، كما حاول بعض المعاصرين عرض فرق الابتداع على أنها كانت مجتهدة، ومتأولة في مبتدعاتها، وانحرافاتها، وإن الوداعة التي يظهرها بعض المعاصرين تحت ضغط الفكر الغربي الاستشراقي الماكر، ليس لها ما يبررها إطلاقًا، كما لا يصح الاعتذار عنها، إذا وزنت بميزان الحق الذي رأيناه على أيدي أئمة السلف الأعلام.

* * * * *



الخَاتِمَةُ

وَتَتَضَمَّنُ أَهَمَّ نَتَائِجِ الْبَحْثِ، وَهِي كَمَا يَلِي:-

١ـ سلامة معتقد الصحابة وشموليته لكل مسائل العقيدة، وأن إيمانهم بوجود الله كان فطريًّا، وأن القرآن الكريم اشتمل على الأدلة الكثيرة على وجود الله ـ تعالى ـ، وكانت هذه الأدلة تعزز هذا الإيمان، وتجليه.

٢ـ أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا متبعين لمنهج الكتاب والسنة في إثبات الكمالات الإلهية، ونفي النقائص عنه ـ سبحانه ـ دون تكييف، أو تمثيل، أو تأويل، أو تعطيل.

٣ـ أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يسألوا عن الصفات الإلهية، وسبب ذلك بلوغهم أعلى درجات الفهم، واليقين بفضل الكثرة الهائلة من النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي بينت هذه الصفات بيانًا شافيًا، قاطعًا للعذر، والسؤال، أو الاستفسار.

٤ـ كمال معتقد الصحابة في جميع أمور العقيدة وأن المتأخرين لن تبلغ أفهامهم إلى مستواهم بأي حال من الأحوال، وقد بلغوا كمال الفهم، واليقين في معتقد القضاء، والقدر، فلم يخطر على بالهم أي قول من أقوال المبتدعة لا القول بالجبر، ولا نفي القدر، بل آمنوا أن الله خالق لأفعال العباد، وأنهم ليسوا مجبورين على أفعالهم، وأن لهم مسئولية عن أفعالهم التي ينالون بها الثواب والعقاب، وقد حصل بينهم ـ رضوان الله عليهم ـ نقاش في مسألة القدر، وانتهينا إلى أنها حالة واحدة، وفي مجلس واحد، وأن النبي ﷺ نهاهم فامتثلوا، ولم يذكر أنهم تجادلوا في القدر.

٥ـ أن سؤال الصحابة للنبي ﷺ عن مسائل العقيدة لم يكن ممنوعًا؛ فلذلك سألوه كثيرًا عن القدر، وعن رؤية الله ـ عز وجل ـ، وعن مسائل الآخرة، والحساب، والجنة، والنار.

٦ـ أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكونوا يفرقون بين الإيمان والعمل، فالإيمان

بعرفهم ليس مجرد دعوى، وعندما ظهر المرجئة المبتدعة خالفوا هذا المفهوم البديهي، الذي كان عليه الصحابة ـ رضوان الله عليهم.

٧ـ أن المناقشات العقدية التي حدثت بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، كانت تمثل أعلى درجات الفهم، والعلم، فلم تكن نوعًا من الجدل العقلي العقيم، أو انتصارًا للرأي، أو حظوظ النفس، وإنما كانت تمثل نشدان الحق بالدليل الصحيح، والعمل على مقتضى السنة الموافقة للعقيدة الحقة.

٨ـ سقوط دعوى فرق الابتداع قديمًا، وحديثًا، وما زعمه المستشرقون، وبعض الكتاب المعاصرين من أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يؤولون، ويفوضون معاني الصفات الإلهية، كما أثبت كذب دعوى القائلين إن الصحابة شغلهم الجهاد، والفتوحات عن فهم مسائل العقيدة، وأبطلت مزاعم المستشرقين الحاقدين الذين يقولون إن عقيدة الصحابة خضعت للتطور، والتناقض.

٩ـ ثبت بما لا يدع مجالًا للشك صحة حديث الافتراق، وتهافت دعوى الطاعنين في صحته، وحققت ما تضمنه الحديث من مسائل تخص الفرق الهالكة، والفرقة الناجية، وانتهيت إلى أن هناك فرقًا توقف العلماء في تكفيرها، وأن هناك فرقًا جزموا بتكفيرها، وأن العدد الوارد في الحديث يحتمل إما أنه يقصد به التكثير، أو أنه سيتحقق حصول هذا العدد من الفرق، وخَلصْتُ إلى أن الفرقة الناجية بإذن الله هي أهل السنة، والجماعة المقتفين أثر السلف الصالح.

١٠ـ أن الافتراق العقدي بين المسلمين كانت له أسباب خارجية، وأسباب داخلية، وأن الأسباب الخارجية المتمثلة باليهود، والنصارى، والفرس، والهنود كان لها دور كبير في إحداث الفرقة العقدية بين المسلمين، وقد تظافرت هذه الأسباب الخارجية مع أسباب داخلية فأحدثت الفرقة العقدية المنظورة.

١١ـ إبطال مزاعم فرق الابتداع التي نسبت مقالاتها المنحرفة إلى الصحابة والتابعين؛ كالخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والمعتزلة.

١٢ـ ثبت من خلال التحري الدقيق، ومقارنة الأحداث التاريخية أن معظم أرباب البدع كانوا بعيدون عن الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية، وأن لهم مصادر فكرية خارجية أسهمت في انحرافهم، وابتداعهم.

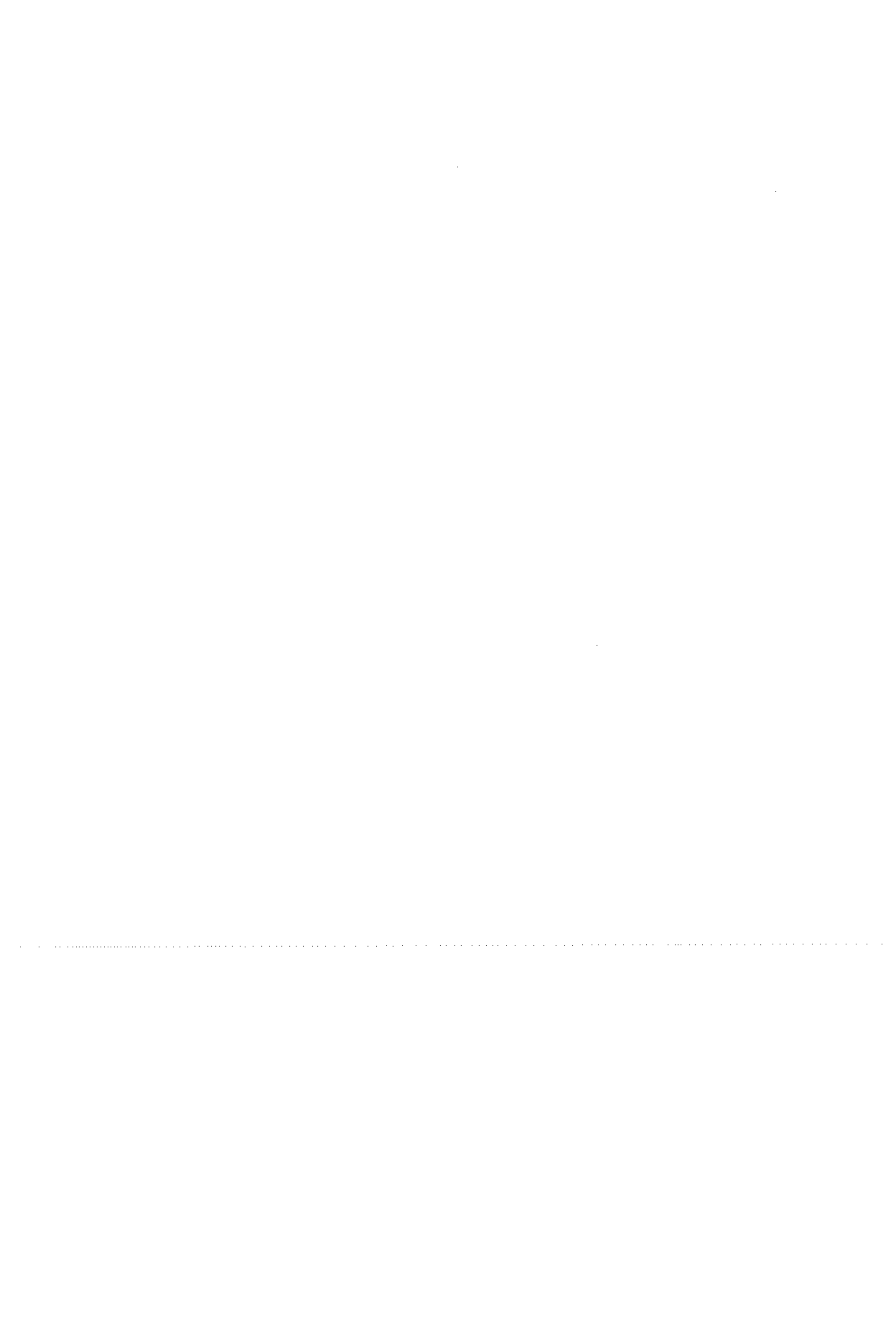
١٣ـ لاحظت باستغراب شديد أن بعض الكتاب المعاصرين تابعوا المستشرقين في مناصرة فرق الابتداع، وتصويب انحرافاتهم، والدفاع عنها، والطعن الشديد على علماء السلف، ووصمهم بأقبح الأوصاف؛ حقدًا، وحسدًا لأهل السنة، والجماعة الذين يحملون العقيدة الحقة، والإسلام الصحيح.

١٤ـ أن علماء السلف في هذه المرحلة غلب على ردودهم على أهل البدع الطابع العملي، ومحاصرة أرباب البدع، وعدم مناقشتهم حتى لا يسمحوا لانحرافاتهم بالشيوع، والانتشار فوقفوا منهم موقف المعارضة؛ مثل عدم السلام عليهم، وعدم مجالستهم، ومقاطعتهم في كافة شئون المعاملات، وقد حصل جدال مع غيلان، والقدرية، وهو الجدال المشهور في هذه الفترة ويبدو أنه كان محدودًا في حضرة الخلفاء، أو في أماكن محدودة، وليس أمام جماهير الناس، وكان علماء السلف يفتون بقتل دعاة البدع، وقد نفذ بعض الخلفاء مثل هذه الفتاوى، فقتلوا غيلان، ومن قبلهم حرق عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ الزنادقةَ السبئية، وغلاةَ الشيعة، والجعدَ بن درهم، وجهمَ بن صفوانَ، وغيرهم.

١٥ـ أعطى هذا البحث صورة من صور العزة الإسلامية، والقوة في دين الله لجملة كبيرة من علماء السلف، يبدو فيها كمال فهمهم، واتحاد مواقفهم، وتآخيهم، ووقوفهم صفًّا واحدًا في وجه كل مبتدع ضال.

هذا، وَبِاللهِ التَّوفِيقُ.

* * * * *



فِهْرِسُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

١ـ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

٢ـ الإبَانَةُ عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، تحقيق حماد الأنصاري، ١٤٠٩هـ الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٣ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ـ عبيدالله بن بطة ـ تحقيق عثمان عبدالله الأثيوبي١٤٠٥هـ، رسالة دكتوراة، مقدمة لجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٤ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، عبيدالله بن بطة، تحقيق رضا نعسان معطي ـ ١٤٠٣هـ رسالة دكتوراة مقدمة لجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٥ـ إبطال التأويلات لأخبار الصفات ـ محمد بن حسين بن الفراء، أبو يعلى، أبي عبدالله محمد النجدي، ط١/١٤١٠هـ، دار الإمام الذهبي، الكويت.

٦ـ ابن سبإ حقيقة لا خيال، د/ سعدي الهاشمي، ط١/١٤٠٦هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة.

٧ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١٣٩٣هـ، المكتبة الثقافية، بيروت.

٨ـ أثر الانحراف العقدي عند اليهود على الفكر الصهيوني المعاصر، عطاالله بخيت المعايطة، ١٤٠٩هـ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٩ـ الإحسان في تقريب ابن حبان، علاء الدين علي الفارسي، تحقيق شعيب الأرناءوط، ط١/١٤١٢هـ، ١٩٩١م، دار الرسالة، بيروت.

١٠ـ اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملإ الأعلى؛ ابن رجب الحنبلي، تحقيق بشير عيون، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، دار البيان، دمشق.

١١ـ الأخبار الطوال، أحمد بن داود الدينوري، تحقيق عبدالمنعم عامر، ١٣٧٩هـ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإسكندرية.

١٢ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة، عبدالملك بن عبدالله الجويني، تحقيق د. محمد يوسف، وعلي عبدالمنعم، ١٣٦٩هـ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

١٣ـ أسباب النزول، علي بن أحمد النيسابوري، تحقيق د. مصطفى البغا، ط١/ ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م دار ابن كثير، دمشق.

١٤ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير، تحقيق محمد البنا، محمد عاشور محمود فايد، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، مكتبة القبة، القاهرة.

١٥ـ الاستقامة؛ تقي الدين أحمد بن تيمية، د/ محمد رشاد سالم، ط١، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٦ـ الاستيعاب في معرفة أسماء الأصحاب، عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبي، دار الفكر، بيروت.

١٧ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث، د/ محمد الذهبي ـ ط٢/١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، دار الإيمان، دمشق.

١٨ـ الإسلام في مواجهة الفلسفات الوثنية، أنور الجندي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٩ـ الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، د/ عمر الأشقر، ط١/ ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، دار النفائس، عمان.

٢٠ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت.

٢١ـ أصل الاعتقاد، د/ عمر الأشقر، ط٣، الدار السلفية، الكويت.

٢٢ـ الأصنام، هشام بن السائب الكلبي، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة، القاهرة.

٢٣ـ أصول الدين، عبدالقاهر بن طاهر التميمي البغدادي، ط٢/١٤٠٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤ـ الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

٢٥ـ اعتقادات فرق المسلمين، والمشركين، فخر الدين الرازي، ط١، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٦- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، ١١٤٠٣هـ عالم الكتب، بيروت.

٢٧- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، محمد بن طولون الدمشقي تحقيق محمود الأرناءوط، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٨- أعلام النبوة، علي بن محمد الماوردي، تحقيق محمد شريف سكر ط١/ ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، دار إحياء العلوم، بيروت.

٢٩- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٦، ١٤٠٤هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

٣٠- الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، دار صادر، بيروت.

٣١- اقتضاء الصراط المستقيم، تقي الدين أحمد بن تيمية، تحقيق د/ ناصر عبدالكريم العقل، ط١، ١٤٠٤هـ.

٣٢- الإمام زيد بن علي، د/ شريف الخطيب، ط١، ١٤٠٤هـ، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

٣٣- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، مكتبة المثنى، بغداد.

٣٤- الأنساب، عبدالكريم محمد السمعاني، عبدالله البارودي، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥- أهل السنة والجماعة أصحاب المنهج الأصيل، والصراط المستقيم، د عمر الأشقر، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، دار النفائس، عمان.

٣٦- الإيمان، عبدالمجيد الزنداني، ط١، ١٤٠٩هـ، دار المجتمع، جدة.

٣٧- الإيمان، محمد بن إسحاق بن منده، تحقيق د/ علي الفقهين، ط٢/١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٨- البدء والتاريخ، أحمد بن سهل المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٣٩- البداية والنهاية، أبي الفداء الحافظ بن كثير، دار المعارف، بيروت.

٤٠- البداية والنهاية، أبي الفداء الحافظ بن كثير، تحقيق د/ أحمد أبو ملحم، د/ علي عطوى، أ / فؤاد السيد، أ / مهد ناصر الدين - دار الكتب العلمية، بيروت.

٤١- البدع، والنهي عنها، محمد وضاح القرطبي، محمد دهمان، ط١، ١٤١١هـ، دار الصفا، القاهرة.

٤٢- بذل المجهود في حل أبي داود، خليل أحمد السهارنفوري، تحقيق محمد زكريا الكاندهلوي، دار اللواء، الرياض.

٤٣- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، عباس منصور السكسكي، تحقيق د/ بسام العموش، ط، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، مكتبة المنار، الزرقاء.

٤٤- بيان مذهب الباطنية، وبطلانه، محمد بن الحسن الديلمي، دار قتيبة، الكويت.

٤٥- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق كمال مصطفى ط٢، ١٤٠٥هـ، دار آزال، بيروت.

٤٦- تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٧- تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط، تحقيق د/ أكرم ضياء العمري/ ط٢/ ١٤٠٥هـ، ١٩٨٨م، دار طيبة، الرياض.

٤٨- تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس بن أهرون بن العبري، صححه أنطون صالحاني، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، دار الرائد اللبناني، بيروت.

٤٩- تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، ترجمة د. محمود حجازي، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

٥٠- تاريخ الجاهلية، د/ عمر فروخ، ط٢/١٤٠٤هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

٥١- تاريخ الجهمية والمعتزلة، جمال الدين القاسمي الدمشقي، ط٣/، ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٢- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق قاسم الرفاعي، ومحمد العثماني، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، دار القلم، بيروت.

٥٣- تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد الذهبي، تحقيق د/ عمر التدمري، ط٢/١٤٠٩هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٤ـ التاريخ الإسلامي دروس، وعبر ـ محمد تقي المدرسي، ط١/١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، دار الجيل، بيروت.

٥٥ـ تاريخ الصحابة، محمد بن حبان البستي، تحقيق بوران الضناوي، ط١، ١٤٠٢هـ.

٥٦ـ تاريخ العرب القديم، د/ توفيق برو، ط١/١٤٠٢هـ، دار الفكر، دمشق.

٥٧ـ تاريخ الفرق الإسلامية، علي مصطفى الغرابي، ط٢، ١٤٠٥هـ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٥٨ـ تاريخ الفرق الإسلامية، محمود محمد مزروعة، ط١،١٤١٢هـ، دار المنارة، القاهرة.

٥٩ـ تاريخ الفكر العربي، د/ عمر فروخ، ط٤، ١٤٠٣هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

٦٠ـ تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د/ محمد علي أبو ريان، ١٣٩٦هـ، دار النهضة العربية بيروت.

٦١ـ تاريخ الفلسفة العربية، حنا الفاخوري، وخليل الجر، ط٢/١٤٠٢هـ، دار الجيل، بيروت.

٦٢ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة، د/ محمد أبو ريدة، ط٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٦٣ـ تاريخ المدينة المنورة، عمر بن شبة البصري، تحقيق، فهيم شلتوت، ١٣٩٩هـ.

٦٤ـ تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، ط٣/١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٥ـ تأويل مختلف الحديث، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق محمد محيي الدين الأصفر، ط١/١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، المكتب الإسلامي، بيروت.

٦٦ـ التبصير في الدين، وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين، أبو المظفر الإسفرائيني، تحقيق كمال الحوت، ط١/١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، عالم الكتب، بيروت.

٦٧ـ تحريم النظر في كتب الكلام، موفق الدين بن قدامة المقدسي، تحقيق عبدالرحمن دمشقية، ط١/١٤١٠هـ، عالم الكتب، الرياض.

٦٨ـ تحقيق ما للهند من مقولة، محمد بن أحمد البيروني، ط٢/١٤٠٣هـ عالم الكتب، بيروت.

٦٩ـ تخريج أحاديث شرح العقائد، جلال الدين السيوطي، تحقيق صبحي السامرائي، دار الرشد، الرياض.

٧٠ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، ط٢/١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، دار إحياء السنة النبوية، بيروت.

٧١ـ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، د/ عبدالرحمن بدوي.

٧٢ـ التسهيل لعلوم التنزيل، أبي القاسم الغرناطي.

٧٣ـ التصديق بالنظر إلى الله ـ تعالى ـ في الآخرة، أبي بكر الآجري الحنبلي، تحقيق محمد غياث الجنباز، ط٢/١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، عالم الكتب، الرياض.

٧٤ـ التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ط١/١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٥ـ تفسير معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، صححه عبدالسلام شاهين، ط١، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٦ـ التفكير الفلسفي في الإسلام، د/ عبدالحليم محمود، ١٤٠٩هـ، دار الكتاب اللباني، بيروت.

٧٧ـ تقريب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ تحقيق أبو الأشبال صغير الباكستاني، ط١/١٤١٦هـ، دار العاصمة، الرياض.

٧٨ـ تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام، د/ إبراهيم بيضون، ط١/١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، دار اقرأ، بيروت.

٧٩- تمهيد الأوائل، وتلخيص الدلائل، محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين حيدر، ط١/١٤٠٧هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
٨٠- التنبيه والرد على أهل الأهواء، والبدع، محمد بن أحمد الملطي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، ط١/١٤١٣هـ، المكتبة الأزهرية، القاهرة.
٨١- تهذيب الآثار، محمد بن جرير الطبري، تحقيق ناصر الرشيد، وعبدالقيوم، عبد رب النبي، ط١/١٤٠٢هـ، مطابع الصفا، مكة المكرمة.
٨٢- تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط١/١٤٠٤هـ، دار الفكر، بيروت.
٨٣- تيارات الفكر الإسلامي، محمد عمارة، ط١/١٤١١هـ، دار الشروق، القاهرة.
٨٤- ثورة العقل، عبدالستار عز الدين الرواي، ط٢/١٤٠٦هـ، دار الشئون الثقافية، بغداد.
٨٥- جامع الأصول، مجد الدين بن الأثير، تحقيق عبدالقادر الأرناءوط، ط٢/١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.
٨٦- جامع بيان العلم، وفضله، ابن عبدالبر القرطبي، دار الفكر، بيروت.
٨٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ١٤٠٨هـ، دار الفكر، بيروت.
٨٨- جامع الرسائل، تقي الدين بن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، ط١/١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م، مطبعة المدني، القاهرة.
٨٩- الجامع الصحيح، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
٩٠- جامع الفرق الإسلامية، أمير مهنا، وعلي خريس، ١٤٠٢هـ، المركز الثقافي العربي، بيروت.
٩١- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق أبو إسحاق أطفيش، ط٢/١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م، دار الكاتب العربي، القاهرة.

٩٢- الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي، د/ محمد البهي، ط٦/١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م مكتبة وهبة، القاهرة.
٩٣- الجرح والتعديل، أبو حاتم الرازي، ط١/١٣٧٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٤- جهم بن صفوان، ومكانته في الفكر الإسلامي، خالد العلي، رسالة ماجستير لجامعة بغداد.
٩٥- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن قيم الجوزية، تحقيق يوسف بديوي، ط١/ ١٤١١هـ،١٩٩١م، دار ابن كثير، دمشق.
٩٦- الحجة في بيان المحجة، وشرح عقيدة أهل السنة، قوام السنة الأصبهاني، تحقيق د/ محمد ربيع المدخلي، ود/ محمد أبو رحيم، ط١/١٤١١هـ، دار الراية، الرياض.
٩٧- الحضارة الإسلامية، آدم متز، ترجمة محمد أبو ريدة، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت.
٩٨- حقيقة الفرقة الناجية، سقاف علي الكاف، مكتبة المطيعي، القاهرة.
٩٩- حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، ط٥/١٤٠٧هـ دار الريان، القاهرة.
١٠٠- الحور العين، أبو سعيد نشوان الحميري، تحقيق كمال مصطفى، ط٢/١٤٠٥هـ، دار الريان، القاهرة.
١٠١- الحياة العلمية في بلاد الشام، خليل الزرو، ط١/١٣٩١هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
١٠٢- الحيدة، عبدالعزيز بن يحيى الكتاني، ط٤/١٤٠٩هـ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
١٠٣- خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان، محمد صديق خان، ط١/١٤٠٥هـ.

١٠٤- خصائص التصورات الإسلامية، سيد قطب، ط١٤١٣/٢هـ، دار الشروق، القاهرة.

١٠٥- خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق د/ عبدالرحمن عميرة، ط، دار عكاظ، جدة.

١٠٦- الخوارج، عقيدة، وفكر، وفلسفة د/: عمر النجار، ط١٤٠٦/١هـ، مكتبة القدسي، بيروت.

١٠٧- الخوارج في العصر الأموي، د. نايف معروف، ط١٤٠٦/٣هـ، ١٩٨٦م، دار الطليعة، بيروت.

١٠٨- دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة المستشرقين، ترجمة د. راشد البراوي، ١٤٠٥هـ، مكتبة الأنجلو القاهرة.

١٠٩- دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، د/ طريف الخالدي، ط٢/دار الطليعة، بيروت.

١١٠- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د/ عرفان عبدالحميد، ط١٤٠٠/١هـ، ١٩٨٠م المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.

١١١- دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين الخوارج والشيعة، د/ أحمد جلي، ط٢/ ١٤٠٨هـ، مركز الملك فيصل للدراسات، الرياض.

١١٢- درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين ابن تيمية، تحقيق د، محمد رشاد سالم ط١٤٠١/١هـ، ١٩٨١م، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

١١٣- الدر المأثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة.

١١٤- الدرة فيما يجب اعتقاده، علي بن حزم، تحقيق د/ أحمد ناصر الحمد، ود/ سعيد القزقي، ط١٤٠٨/١هـ، مكتبة التراث، مكة المكرمة.

١١٥- الدعوة إلى الإسلام، برنارد لويس أرنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ط٣/ ١٣٩٠هـ، مكتبة النهضة، القاهرة.

١١٦ـ دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي، تحقيق حسن السقاف، عمان.

١١٧ـ الدين الخالص، محمد صديق حسن، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١١٨ـ ذكر مذاهب الفرق الثنتين والسبعين المخالفة للسنة، عبدالله بن أسعد اليافعي، تحقيق د. موسى الدويش، ط١/١٤١٠هـ، دار البخاري، المدينة.

١١٩ـ الرد على الجهمية، الإمام الحافظ بن مندهٍ، تحقيق د/ علي الفقهي، ط١/ ١٤٠١هـ.

١٢٠ـ رسالتان في الرد على القدرية، تحقيق يوسف فان أس، ١٣٩٧هـ، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت.

١٢١ـ الرسالة، المطلبي محمد بن أدريس الشافعي، تحقيق أحمد شاكر.

١٢٢ـ رياض الصالحين، يحيى بن شرف النووي، رتَّبه أحمد راتب حمروش، دار كاتب، وكتاب، بيروت.

١٢٣ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، المحب الطبري، ط١/١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٤ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، ط٤/١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢٥ـ سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، ط١/١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت.

١٢٦ـ سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق عبدالله المدني، ١٤٠٤هـ، نشاط آباد باكستان.

١٢٧ـ سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني بن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة.

١٢٨ـ السنة، أحمد بن محمد الخلال، تحقيق د. عطية عتيق الزهراني ـ ط١/١٤٠١هـ ـ دار الراية ـ الرياض.

١٢٩- السنة - عبدالله بن أحمد بن حنبل - تحقيق د. محمد سعيد القحطاني - ط٢/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م - رمادي للنشر - الدمام.

١٣٠- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي - مصطفى السباعي - ط٥/١٤٠٥هـ المكتب الإسلامي - بيروت.

١٣١- السيادة العربية - فان فلوتن ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي.

١٣٢- سير أعلام النبلاء - شمس الدين بن محمد الذهبي - تحقيق شعيب الأرناؤوط - ط ١٤١٢/٨هـ.

١٣٣- السيرة النبوية - عبدالملك بن هشام بن أيوب - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي - ط١٣٧٥/٢هـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.

١٣٤- الشبهات والأخطاء الشائعة - أنور الجندي - دار الاعتصام - القاهرة.

١٣٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - أبو الفلاح ابن العماد الحنبلي - ١٤٠٩هـ - دار الفكر/بيروت.

١٣٦- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - هبة الله بن الحسن اللالكائي - تحقيق أحمد سعد حمدان - دار طيبة - الرياض.

١٣٧- شرح السنة - الحسين بن مسعود البغوي - تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ط١٤٠٣/٢هـ ١٩٨٣م - المكتب الإسلامي - بيروت.

١٣٨- شرح صحيح مسلم - أبو عبدالله الأبي - مكتبة طبرية - الرياض.

١٣٩- شرح العقيدة الطحاوية - أبو العز الحنفي - مكتبة الدعوة الإسلامية - القاهرة.

١٤٠- شرف أصحاب الحديث - أحمد بن علي البغدادي - تحقيق د. محمد سعيد خطيب، دار إحياء السنة.

١٤١- الشريعة - محمد بن الحسين الآجري - تحقيق محمد حامد الفقهي - أنصار السنة المحمدية، لاهور.

١٤٢ـ شعب الإيمان ـ أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق د. عبدالعلي حامد ـ ط١/ ١٤٠٦هـ، الدار السلفية ـ بومباي.

١٤٣ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر ـ شمس الدين ابن قيم الجوزية ـ تحقيق مصطفى الشلبي ـ ط١/١٤١٢هـ ـ مكتبة السوادي ـ جدة.

١٤٤ـ الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ـ القاضي عياض بن موسى اليحصبي ـ تحقيق علي البجاوي ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٤٥ـ الشيعة والتشيع ـ إحسان إلهي ظهير ـ ط٢/١٤٠٤هـ ـ إدارة ترجمان السنة ـ لاهور.

١٤٦ـ الشيعة والتصحيح ـ د. موسى الموسوي ـ ١٤٠٨هـ.

١٦٧ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ـ أحمد بن علي القلقشندي ـ ١٣٣١هـ، دار الكتب الخديوية ـ القاهرة.

١٦٨ـ صحيح البخاري ـ محمد بن إسماعيل البخاري ـ ١٤٠١هـ ـ دار الفكر ـ بيروت.

١٤٩ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ مسلم بن الحجاج القشيري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٥٠ـ الصفدية ـ تقي الدين ابن تيمية ـ تحقيق د. محمد رشاد سالم ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

١٥١ـ صفة الغرباء ـ سلمان بن فهد العودة ـ ط١/١٤١١هـ ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام.

١٥٢ـ الصلة بين التصوف والتشيع ـ د. كامل الشيبي ـ ط٣/١٤٠٢هـ ـ دار الأندلسي ـ بيروت.

١٥٣ـ الصواعق المحرقة ـ أحمد بن حجر الهيثمي ـ ط١/١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٥٤ـ ضحى الإسلام ـ أحمد أمين ـ ط١٠ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٥٥- الضعفاء الصغير - محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق بوران الضناوي - ط١/ ١٤٠٤هـ، عالم الكتب - بيروت.

١٥٦- الضعفاء الكبير - محمد بن عمرو العقيلي - تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي - ط١/ ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥٧- ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري - أبو شامة الشافعي - تحقيق د. أحمد الشريف - ط١/١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - دار الصحوة - القاهرة.

١٥٨- طبقات المعتزلة - القاضي عبدالجبار - تحقيق فؤاد السيد - الدار التونسية/ تونس.

١٥٩- الطبقات الكبرى - محمد بن سعد البصري - تحقيق محمد عبدالقادر عطا - ط١/١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٦٠- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي - د. سفر الحوالي، رسالة دكتوراة مقدمة لجامعة أم القرى - مكة المكرمة.

١٦١- عبدالله بن سبإ وأثره في إحداث الفتنة - سليمان حمد العودة - ط٣/١٤١٢هـ - دار طيبة الرياض.

١٦٢- عقائد السلف - مجموعة مؤلفين - جميع وترتيب النشار وطالبي - منشأة المعارف - الإسكندرية.

١٦٣- العقائد الشيعية ورجال القرن العشرين - ناصر الدين شاه - ١٤٠٧هـ.

١٦٤- العقد الفريد - أحمد بن محمد بن عبدربه - تحقيق عبدالمجيد الترحيني، ط١/ ١٤٠٤هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٦٥- العقل السياسي العربي - د. محمد الجابري - ط٢/١٤١١هـ - المركز الثقافي العربي - بيروت.

١٦٦- عقيدة أهل الأثر - محمد بن صديق القنوجي - تحقيق عاصم القريوتي - ط١/ ١٤٠٤هـ.

١٦٧- العقيدة والشريعة في الإسلام - جولد سهير - تحقيق محمد يوسف وعلي عبدالقادر/ط٢ - القاهرة.

١٦٨- العلم الشامخ - صالح بن المهدي المقبلي - دار البيان - دمشق.
١٦٩- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم - محمد بن إبراهيم الوزير تحقيق شعيب الأرناؤوط - ط١٤١٢/١هـ - مكتبة عكاظ - جدة.
١٧٠- عوامل نشأة علم الكلام - د. هشام فرغل - ١٣٩٢هـ - مجمع البحوث الإسلامية.
١٧١- عيون الأخبار - لابن قتيبة الدينوري - نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب.
١٧٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - موفق الدين أحمد بن أبي أصيبعة، ط٤/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م - دار الثقافة - بيروت.
١٧٣- غريب الحديث - أبي إسحاق الحربي - تحقيق د. سليمان العابد - ط١٤٠٥/١هـ دار المدني - جدة.
١٧٤- الغلو والفرق الغالية - د. عبدالسلام السامرائى - ط١٤٠٨/٣هـ - دار واسط - بغداد.
١٧٥- الفتاوى الكبرى - تقي الدين بن تيمية - قدمها حسنين مخلوف - ١٣٩٧هـ، دار المعرفة - بيروت.
١٧٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن حجر العسقلاني - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب - دار المعرفة - بيروت.
١٧٧- الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد - أحمد بن عبدالرحمن البنا - دار الشهاب - القاهرة.
١٧٨- فتح القدير - محمد بن علي الشوكاني - ١٤٠١هـ - دار الفكر - بيروت.
١٧٩- الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر - هشام جعيط - دار الطليعة، بيروت.
١٨٠- الفتوح - ابن أعثم الكوفي - ط١٤٠٦/١هـ - ١٩٨٦م، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٨١- فجر الإسلام - أحمد أمين - ط١١/١٣٩٥هـ - دار الكتاب العربي - بيروت.
١٨٢- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - تقي الدين ابن تيمية - دار الكتب العلمية - بيروت.
١٨٣- الفرق بين الفرق - عبدالقاهر بن طاهر البغدادي - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - دار المعرفة - بيروت.
١٨٤- فرق الشيعة - الحسن بن موسى النوبختي - مطبعة الدولة - إستانبول.
١٨٥- الفرق الإسلامية - الكرماني - تحقيق سليمة عبدالرسول - ١٣٩٣هـ، مطبعة الإرشاد - بغداد.
١٨٦- الفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان - محمد بن سعيد القلهاني - محمد عبدالجليل - ١٤٠٤هـ - الجامعة التونسية - تونس.
١٨٧- الفرق الإسلامية في بلاد الشام - د. حسين عطوان - ط١/١٤٠٦هـ، دار الجيل.
١٨٨- الفصل في الملل والأهواء والنحل - علي بن حزم الظاهري - تحقيق د. محمد نصير، ود. عبدالرحمن عميرة - ط١/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - مكتبة عكاظ - جدة.
١٨٩- الفكر السياسي الشيعي - د. حسن عباس حسن - ط١/١٤٠٨هـ، الدار العالمية.
١٩٠- الفكر العربي ومركزه في التاريخ - دي لاسي أوليري - ترجمة إسماعيل البيطار - ١٤٠٢هـ - دار الكتاب اللبناني - بيروت.
١٩١- الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة - د. عبدالقادر محمود - ط٢/١٤٠٦هـ، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة.
١٩٢- فلسفة الفكر الديني - غردية وقنواتي - ترجمة د. صبحي الصالح، والأب فريد جبر - ط٢/١٣٩٨هـ - دار الفكر - بيروت.
١٩٣- الفهرست - محمد بن إسحاق بن النديم - دار المعرفة - بيروت.
١٩٤- في علم الكلام - د. أحمد محمد صبحي - ط٥/١٤٠٥هـ - دار النهضة/ بيروت.

١٩٥ـ القاعدة المراكشية ـ تقي الدين بن تيمية ـ تحقيق د. ناصر بن سعد الرشيد ورضا نعسان معطي ـ دار طيبة ـ الرياض.

١٩٦ـ القاموس المحيط ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ ط٢/١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٩٧ـ الكامل في التاريخ ـ علي بن محمد بن الأثير الجزري ـ ط٣/١٤٠٠هـ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٩٨ـ الكامل في ضعفاء الرجال ـ عبدالله بن عدي الجرجاني ـ ط٢/١٤٠٥هـ دار الفكر ـ بيروت.

١٩٩ـ الكامل في اللغة والأدب ـ محمد بن يزيد المبرد ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت.

٢٠٠ـ كتاب بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم ـ يوسف حسن عبدالهادي ـ تحقيق وصى الله عباس ـ ط١/١٤٠٦هـ ـ دار الراية ـ الرياض.

٢٠١ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ـ عز وجل ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ تحقيق د. عبدالعزيز الشهوان ـ ط١/١٤٠٨هـ ـ دار المرشد/ الرياض.

٢٠٢ـ كتاب الحوادث والبدع ـ أبو بكر الطرطوشي ـ تحقيق عبدالمجيد تركي ـ ط١/ ١٤٠١هـ ـ ١٩٩٠م ـ دار الغرب ـ بيروت.

٢٠٣ـ كتاب الرؤية ـ علي بن عمر الدارقطني ـ تحقيق إبراهيم العلي وأحمد الرفاعي ـ ط١/١٤١١هـ ١٩٩٠م ـ مكتبة المنار ـ الزرقاء.

٢٠٤ـ كتاب الزينة ـ أبي حاتم الرازي ـ تحقيق د. عبدالسلام السامرائي.

٢٠٥ـ كتاب السنة ـ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط٢/ ١٤٠٥هـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٢٠٦ـ كتاب مشاهير علماء الأمصار ـ ابن حبان البستي ـ صححه فلايشهمر ـ مكتبة التوعية الإسلامية ـ الجيزة.

٢٠٧ـ كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ـ شمس الدين ابن قيم الجوزية ـ تحقيق د. علي الدخيل الله ـ ط١/١٤٠٨هـ دار العاصمة الرياض.

٢٠٨- كتاب الطبقات - خليفة بن خياط - تحقيق د. أكرم ضياء العمري ط١- جامعة بغداد - بغداد.

٢٠٩- كتاب القدر - عبدالله بن وهب القريشي - تحقيق عبدالعزيز عبدالرحمن العثيم - ط١/١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - دار السلطان.

٢١٠- كتاب المجروحين - ابن حبان البستي - محمود ابراهيم - ١٤١٢هـ دار المعرفة - بيروت.

٢١١- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - تقي الدين المقريزي ط٢/ ١٤٠٧هـ - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

٢١٢- كتاب الإيمان - تقي الدين ابن تيمية - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - ١٤٠٠هـ - مكتبة مالك بن أنس.

٢١٣- كتاب الإيمان - عبدالله بن محمد بن أبي شيبة - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط٢/١٤٠٥ - دار الأرقم - الكويت.

٢١٤- كتاب الإيمان - أبو عبيد القاسم بن سلام - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٢١٥- كشاف اصطلاحات الفنون - محمد بن علي التهانوني - صححه محمد وجيه طبعة كلكتة مصورة عنها في استانبول.

٢١٦- لباب التأويل في معاني التنزيل - علاء الدين علي الشهير بالخازن - حققه عبدالسلام شاهين - ط١/١٤١٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢١٧- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور - ١٣٨٨هـ دار صادر - بيروت.

٢١٨- لسان الميزان - ابن حجر العسقلاني - ط١/١٤٠٧هـ - دار الفكر - بيروت.

٢١٩- مباحث في علم الكلام - د. علي الشابي - ط١/١٣٩٧هـ - دار بو سلامة - تونس.

٢٢٠- مجلة البيان، العدد٨٠/١٤١٥هـ، والعدد٨١/١٤١٥هـ.

٢٢١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - نور الدين بن علي الهيثمي/١٤٠٦هـ مكتبة المعاروف - بيروت.

٢٢٢- مجموع فتاوى ابن تيمية - تقي الدين ابن تيمية - حققه عبدالرحمن محمد وولده، طبع بأمر خادم الحرمين - الملك فهد بن عبد العزيز - توزيع رئاسة الإفتاء.

٢٢٣- مجموعة الرسائل والمسائل - تقي الدين بن تيمية - ط٢/١٤٠٣هـ - دار الكتب العلمية.

٢٢٤- المختار من كنوز السنة النبوية - د. محمد عبدالله دراز.

٢٢٥- مختصر تاريخ دمشق - محمد بن مكرم بن منظور - ط١/١٤٠٩هـ دار الفكر - دمشق.

٢٢٦- مختصر التحفة الأثنا عشرية - شاه عبدالعزيز الدهلوي - حققه محب الدين الخطيب - ١٤٠٤هـ - إدارة البحوث والافتاء - الرياض.

٢٢٧- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، شمس الدين بن قيم الجوزية - اختصره محمد الموصلي - ١٤٠٥٤- دار الندوة - بيروت.

٢٢٨- مختصر الكامل للضعفاء - تقي الدين أحمد المقريزي - حققه أيمن الدمشقي - ط١/١٤١٥هـ مكتبة السنة والدار السلفية لنشر العلم - القاهرة.

٢٢٩- مختصر مسلم - اختصره محمد بن ياسين بن عبدالله - ١٤١١هـ - المكتبة التجارية - مكة المكرمة.

٢٣٠- المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية - د. عبدالمجيد بن حمدة ط١/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - دار العرب تونس.

٢٣١- مذاهب الإسلاميين - د. عبدالرحمن بدوي - ط٣/١٤٠٣هـ - دار العلم للملايين - بيروت.

٢٣٢- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة تحقيق عبد الإله الأحمدي - ط١/١٤١٢هـ - دار طيبة - الرياض.

٢٣٣- مسائل الإمامة - الناشئ الأكبر - تحقيق يوسف فان أس - المركز الألماني للأبحاث الشرقية - بيروت.

٢٣٤- مسائل الإيمان - القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء - تحقيق سعود خلف - ط١/١٤١٠هـ - دار العاصمة - الرياض.

٢٣٥- مسند أبي بكر الصديق - جلال الدين السيوطي - تحقيق أبي الفضل عبدالله الغماري - مطبعة النهضة الحديثة - مكة المكرمة.

٢٣٦- مسند الإمام أحمد - شرح أحمد محمد شاكر - دار المعارف - مصر.

٢٣٧- المستدرك على الصحيحين - أبي عبدالله الحاكم النيسابوري - مصطفى عطا ط١/١٤١١هـ - ١٩٩٠م - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٣٨- مشكاة المصابيح - محمد بن عبدالله التبريزي - حققه سعيد اللحام - ط١/ ١٤١١هـ - ١٩٩١م - دار الفكر - بيروت.

٢٣٩- المطالب العالية بزوائد الثمانية - ابن حجر العسقلاني - تحقيق حبيب الأعظمي - ط١/١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - دار المعرفة - بيروت.

٢٤٠- معارج القبول بشرح سلم الوصول - حافظ حكمي - عمر أبو عمر، ط١/ ١٤١٠هـ - دار ابن القيم - الرياض.

٢٤١- المعارف - عبدالله بن مسلم بن قتيبة - ط١/١٤٠٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٤٢- معالم السنن شرح سنن أبي داود - حمد بن محمد الخطابي - حققه عبدالسلام عبدالشافي - ط١/١٤١١هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٤٣- المعتزلة - زهد الجار الله - ١٣٩٤هـ - المكتبة الأهلية - بيروت.

٢٤٤- المعتزلة والفكر الحر - د. عادل العوا - ١٤٠٧هـ - مطبعة الأهالي - دمشق.

٢٤٥- المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية - د. محمد عمارة - ط٢/١٤٠٨هـ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢٤٦- معجم مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - تحقيق نديم مرعشلي - دار الفكر - بيروت.

٢٤٧ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الفكر/ بيروت.

٢٤٨ـ معجم مقاييس اللغة ـ أحمد بن فارس ـ حققه عبدالسلام هارون ـ ط١/ ١٣٩٢هـ ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة.

٢٤٩ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ طاش كبرى زاده ـ دار الكتب العلمية بيروت.

٢٥٠ـ مفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة ـ ناصر بن عبدالكريم العقل ـ دار الوطن ـ الرياض.

٢٥١ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ـ علي بن إسماعيل الأشعري ـ تصحيح هلموت، رتير ـ ط٣ـ دار إحياء التراث ـ بيروت.

٢٥٢ـ المقالات والفرق ـ سعد بن عبدالله القمي ـ صححه د. محمد مشكور ١٣٩٣هـ ـ مطبعة حيدري ـ طهران.

٢٥٣ـ مقدمات العلوم والمناهج ـ أنور الجندي ط١/١٣٩٩هـ ـ دار الأنصار ـ القاهرة.

٢٥٤ـ مقدمات في لأهواء والافتراق ـ ناصر بن عبدالكريم العقل ط١/١٤١٤هـ ـ دار الوطن ـ الرياض.

٢٥٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ ط٤/١٤٠١هـ دار القلم ـ بيروت.

٢٥٦ـ مقومات التصور الإسلامي ـ سيد قطب ـ ط١/١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، دار الشروق ـ بيروت.

٢٥٧ـ الملل والنحل ـ عبدالقاهر بن طاهر البغدادي ـ تحقيق ألبير نصري نادر ط٢ ـ دار المشرق ـ بيروت.

٢٥٨ـ الملل والنحل ـ محمد عبدالكريم الشهرستاني ـ تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل دار الفكر ـ بيروت.

٢٥٩ـ منهاج السنة النبوية ـ تقي الدين ابن تيمية ـ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط١/ ١٤٠٦هـ ـ دار الكتاب الإسلامي ـ بيروت.

٢٦٠ـ منهج الإستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ـ عثمان علي حسن ـ ط١/١٣٩٩هـ ـ دار الفكر ـ بيروت.

٢٦١ـ المنية والأمل في شرح الملل والنحل ـ أحمد بن يحيى بن المرتضى ـ تحقيق محمد جواد مشكور ـ ط١/١٣٩٩هـ ـ دار الفكر ـ بيروت.

٢٦٢ـ موجز تاريخ الإسلام ـ علي بن أحمد بن حزم ـ تحقيق بديع اللحام ـ ط١/ ١٤٠٩هـ ـ دار الإيمان ـ دمشق.

٢٦٣ـ الموضوعات ـ أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ـ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ـ ط٢/١٤٠٣هـ ـ دار الفكر ـ بيروت.

٢٦٤ـ الموسوعة الإسلامية الميسرة ـ ١٤٠٥هـ ـ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٢٦٥ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ ١٤٠٦هـ ـ دار نهضة لبنان ـ بيروت.

٢٦٦ـ موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها ـ أبو لبابة حسين ـ ط٢/ ١٤٠٧هـ ـ الرياض.

٢٦٧ـ ميزان الاعتدال ـ شمس الدين بن محمد الذهبي ـ تحقيق علي البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٢٦٨ـ النبوات ـ تقي الدين ابن تيمية ـ ١٤٠٢هـ ـ دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٦٩ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ د. علي النشار ـ ط٧ / ١٣٩٧هـ، دار المعارف ـ القاهرة.

٢٧٠ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر ـ محمد بن جعفر الكتاني ـ ط٢/ دار الكتب السلفية ـ القاهرة.

٢٧١ـ نقض تأسيس الجهمية ـ تقي الدين بن تيمية ـ تحقيق محمد عبد الرحمن بن قاسم ـ ط١/١٣٩١هـ ـ مطبعة الحكومة ـ مكة المكرمة.

٢٧٢ـ نهاية الإقدام في علم الكلام ـ محمد عبدالكريم الشهرستاني . تحقيق ألفرد جيوم ـ ١٣٥٤هـ ـ دار الكتب السلفية ـ القاهرة.

٢٧٣- نهج البلاغة - الشريف الرضي - ضبطه د. صبحي الصالح - ط٢/١٤٠٢هـ - دار الكتاب اللبناني - بيروت.

٢٧٤- النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب - ضياء الدين المقدسي - تحقيق محي الدين نجيب - ط١/١٤١٣هـ - دار العروبة - الكويت.

٢٧٥- هذه عقيدة السلف والخلف - ابن خليفة عليوي - ١٣٩٨هـ - مطبعة زيد بن ثابت - دمشق.

٢٧٦- وفيات الأعيان - شمس الدين أحمد بن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت.

* * * * *

فهرس الموضوعات

الباب الأول
العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة
وكما آمن بها الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم

١١ ـ ٢٢٠

* * *

الْبَابُ الثَّانِي
الِافْتِرَاقُ الْعَقَدِيُّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَسْبَابُهُ
٢٢١ - ٣٦٦

* * *

الْبَابُ الثَّالِثُ
فِرَقُ الِابْتِدَاعِ وَمَوْقِفُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنْهَا
٣٦٧ - ٧٣٢



* * * * *

تم الجمع والصف بمكتب الرضا للدعاية والإعلان
☎ : ٣٢٠٧٩٤ / ٠٨٢ محمول:٠١٠١٤٦٠٨٦١
بني سويف - ج . م.ع